

تَارِيحُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ عَبْدِ كَلْبِ

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الأول

القسم الأول

وفيه تفصيل سيرته وخلاصة سيرته موقظ الشرق وحكيم الإسلام

السَّيِّدِ جَمَالِ الدَّيْلَمِيّ الْأَفْغَانِيّ

(١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)

جامعة

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ رَشِيدِ رَضَا

مُنشئ مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيحة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



دار الفيزيلىة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٤٣١
الإمارات، دبي - ديرة - ص.ب ١٥٧٦٥ ت ٤٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 19625 / 2003 م

الترقيم الدولي : 8 - 182 - 297 - 977

(تصويب أهم ما وقع من الخطأ وتحريف الطبع وخفائه)

(في الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام)

بذكر الصواب دون الخطأ وقد منا رقم السطر المعبر عنه بحرف س على رقم الصفحة المعبر عنها بحرف ص
(جعلناه منفصلا ليصحح بالقلم قبل القراءة، وتركنا بعض البديهي والمحكي)

في ص ٣ صفحة (ج) من التصدير : القرن الخامس - ص ١٧ صفحة (م) الذين آمنوا -
ص ١٢ ص ٦ ومعلية - ص ١١ ص ١٨ الناس نسبا -- ص ٢٣ ص ٥٥ ودفع ص ١٧ ص
٥٩ دناة ص ١٦ ص ٩٣ وهو مختصر ص ١٥ ص ١١٠ طابخة ص ٢١ ص ١١١ من أغري
ص ١٥ ص ١١٥ ويحاوا - ص ٢٢ ص ١١٧ في اصطلاحهم ص ١٧ ص ١١٨ غيبة ص
٢٠ ص ١٣٢ الواضع ص ٢ ص ١٤٢ ماسبيرو - ص ١٨ ص ١٤٣ قراراته ص ١١ ص
١٤٤ تألفت لجنة ص ٩ ص ١٤٥ يتاحز - ص ١٦ ص ١٤٧ الاتقجاني ص ١٧ ص ١٥١
جبلتنا - و ص ١٨ أمحاها بجمانتها ص ٢٢ ص ١٥٨ أجل وأوفى ص ١٩ ص ١٧١ تدرج
ص ١٥ ص ٢٢٤ M. Brodley - ص ١٦ defended Orabi
ص ٢١ ص ٢٥٦ (يرمج) يشطب) السطر كانه لان كانه منوفي الاصل صواب) ص ١٢
ص ٢٦٦ كاحوكوا ص ٢ ص ٢٨٧ يد - ص ١٠ ص ٢٨٩ لا يظنن أحد ص ٢٣ ص ٢٩١
نجهله هذه الامم ص ٩ ص ٢٩٢ بل ماججري ص ٢٣ ص ٢٩٤ للراسلات - المدوان
الاجنبي ص ٣ ص ٢٩٥ ولئن قامت فكم ص ٣ ص ٣٠٨ المقالة ص ١٧ ص ٣١٢ وكوي
ص ١٤ ص ٣٢٢ البشمية ص ٢٣ ص ٣٢٣ فيها ص ٥ ص ٣٤٢ ستار أ كنف ص ٢٣ ص ٣٤٨
عدة مقالات ص ٢٤ لتبيل ما كان ص ١٣ ص ٣٦٩ يراق ص ١٩ ص ٣٨٠ من سنة - ص
١٢ ص ٣٨٣ الجعر - ص ١٧ ص ٣٨٨ اجتنك ص ١٩ ص ٣٩٣ فقمهم ص ٢٤ ص
٣٩٥ مخوض - ص ١ ص ٣٩٦ اختمه ص ١٦ ص ٤١٤ طريقيها ص ١٩ ص ٤١٨
يلبث ص ٢٥ إياها على تكوين قوة بها في أمته لا رجاء في رفع السلطة الاجنبية عنه وعنها
بدونها (*) ص ١٦ ص ٤٢٦ حتى أهله ص ٩ ص ٤٣٩ وضع ص ٤ ص ٤٦٥ والمقارنة

(*) في هذا السطر تقديم وتأخير سببه سهو وطه عند البدء في الطبع وامادته على
غير اصله. ويحسن في تصحيحه أن يوضع على كل كلمة رقم على الترتيب الاصل الذي هنا

صواب ما وقع من الخطأ في الكتاب

من ٢٢ ص ٤٧٤ الشيخين س ٢٤ ص ٤٩٠ كان تونا من ١٧ ص ٤٩٨. متماقين س ٢٤
 من ٥٠٢ مذهب س ١٧ ص ٥٠٤ الاصلاح الديني س ١٦ ص ٥١١ نفي الشيخ
 العظيم اشتغالهم - س ١٧ ص ٥١٢ از الاستاذ وفي س ١٨ الاستدراك - س ٩ من
 ٥١٩ الخنفي - س ١٨ ص ٥٣١ كبريا يجر موا - س ٢٣ ص ٥٣٣ لوجدتها - س ٢
 ص ٥٤١ وأوهام س ١٧ ص ٤٤٤، أقرر من ٦ ص ٥٦٨ تلمه س ٨ ص ٥٧٣ لحث لي أم
 س ١٨ نص القانون س ١٣ ص ٥٧٨ الوجدان يقبل س ١٨ ص ٥٨٢ ار كستره س ٢٥
 ص ٦٥١ ثمرًا س ١٨ ص ٦٥٥ المشروع س ٧ ص ٦٦٣ في الدين س ٢١ فان طالب الخير
 س ١٥ ص ٦٨٠ أمر - الدم س ٢٢ ص ٦٩٣ الرئيسين اعظمين س ٢١ ص ٧١١ قصد
 س ٨ ص ٧١٢ والنصاري س ٢٠ ص ٧٢٠ فيها وعون س ١٦ ص ٧٢٥ يونه دار الكرامة
 س ١٤ ص ٧٥٣ إحياء س ٢٠ ص ٧٥٧ الذين س ٣ ص ٧٥٨ الشيخ حسين س ١٣ ص ٧٥٩
 كلام غير المصوم س ٢٠ ص ٧٧٨ سنة ١٣٠٦ - س ١١ ص ٧٩٢ أجد - س ٢٠ ص ٧٩٦
 ويراجم القاري قصة س ٢١ ص ٨٠٢ مقال س ٦ ص ٨٠٦ كتبت اليوم س ٨ ص ٨١٤
 ثم ذكر - س ٢٤ ص ٨١٥ وسط - س ١٤ ص ٨١٩ علما لإبرانيا - س ٦ ص ٨٢٥ يؤولوا
 من ٢٥ ص ٨٢٥ يستأذنه س ١٧ ص ٨٢٦ ان يهديهم س ٥ ص ٨٥٦ ويهملهم العلم اللازم
 س ٢ ص ٨٥٧ ويايت س ٤ ص ٨٦٥ تلمه للفن س ٢٥ ص ٨٨٢ مذكراته س ٢١ ص ٩٠٨
 إلى جبرها س ٢٣ ص ٩١٥ الصفتان اللتان س ١٢ ص ٩١٧ اللذان كان س ٢٣ ص ٩٢٧
 تذاكر نافية س ٢٣ ص ٩٣٦ ختمتها س ٧ ص ٩٣٨ بان اسمه س ٤ ص ٩٤٥ بجعله س ٩
 ٩٤٦ والمرشدين س ٢٠ ص ٩٧٦ مذكراته فيها س ١٦ ص ٩٨٤ أو عاداته س ١ ص
 ٩٨٧ عبده س ١٦ ص ١٠٠٣ أخالفكم فيه س ٢ ص ١٠١٣ ويهداهم وس تفسير القرآن
 من ١٨ ص ١٠٢٠ ما كان من س ٧ ص ١٠٢١ رشيداً س ٢٠ ص ١٠٢٥ كتابة س ٢ ص
 ١٠٢٩ لا يملؤه س ١٥ ص ١٠٣٢ تربيته س ١٣ ص ١٠٥٤ لم يتعودوا س ١٤ ص
 ١٠٦٢ عوض أفندي واصف س ٢٥ ص ١٠٦٤ أدومها س ١٠ ص ١٠٩٠ واحبس
 الفرنسي س ١٩ ص ١١٠٣ سعيد الشرتوني

تصدير الكتاب

بيان كنهه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والاسلام
(وشيخنا الاستاذ الامام ، ووجه الحاجة اليه ، ووجوب المحافظة عليه)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥: ٢٧) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠: ٧) وَتِلْكَ
الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠: ٣)

جرت سنة الله تعالى في أفراد البشر أن يؤتهم قوى المشاعر الحسية والمدارك
المقلية بالتدرج حتى يبلغ اعدام أشده ، ويستكمل رشده ، ويستقل بنفسه بالعلم
والعمل والتجارب ، وجرت سنته في الشعوب والامم أن يمنح كلا منهم من هداية
الوحي في كل طور من أطوار حياتهم الاجتماعية ما هو مستمد له وصالح لحاله
وزمانه ، على مثال سنة التدرج في الافراد ، إلى أن استمد النوع البشري في جمته
ومجموعه لفهم أعلى هداية إلهية لا يحتاج بعدها إلا لاستعمال عقله في الاهتداء بها ، في كل
زمان ومكان بحسبهما ، فوهبه هداية القرآن ، وختم النبوة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام
ولما كان من طباع البشر أن يضيف تأثير الوحي في قلوبهم بطول الامد على
عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربهم ، ويتأولوا كتبه باهوائهم ، أنهم عليهم بما يجي
هداية النبوة فيهم ، بان يبعث فيهم بعد عصر النبوة مجددين ، وأئمة مصلحين ، يرثون
الانبياء بالدعوة الى اصلاح ما أفسد الظالمون في الارض ، ويكونون حجج الله
على الخلق ، وقد بشرنا نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المصلحين ، بان الله تعالى يبعث

في هذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، ليكونوا خلفاءه فيما جده من دين الله تعالى الامم كلها (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) إذا طال عليهم الامة، فقسمت قلوبهم ، وفسقوا عن أمر ربهم
 إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس ، فكان الامام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن الثاني لما أبلى قومه بنو أمية وأخلقوا ، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا ، وكان الامام احمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما اخلق بعض بني العباس من لباس السنة ، ورشاد ساف الامة ، باتباع ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله وما ورد في عالم الغيب ، بالقياس على ما يتعارض في عالم الشهادة . وكان الشيخ ابو الحسن الاشعري مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى ، وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي مجدداً في أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شبرقت نزغات الفلاسفة وزندقة الباطنية ، والامام ابو محمد علي بن حزم الظاهري في القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية - وشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لجيئع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والالحادية ، من حلال الكتاب والسنة السننية ، في جميع العلوم والاعمال الدينية ، وحسبنا هؤلاء
 الامثال في التجديد الديني العام

وظهر مجددون آخرون في كل قرن كان تجديدهم خاصاً انحصر في قطر او شعب ، او موضع كبير او صغير ، كابي اسحاق الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام في الاندلس، وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند، والمولى محمد بن بير علي البركوي في الترك ، والشيخ محمد عبد الوهاب في نجد ، والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن

وهناك مجددون آخرون للجهاد الحربي بالدفاع عن الاسلام ، او تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وإقامة أركان العمران فيه ، وهم كثيرون في الشرق والغرب والوسط ، ورجالهم معروفون ، كبعض خلفاء العباسيين والامويين، ومنهم

من جمع بين انواع من التجديد كالمسلطان صلاح الدين الايوبي الذي كسر جيوش الصليبيين من شعوب الافرنج المتحدة ، وأجلاهم عن البلاد الاسلامية المقدسة وغيرها ، وأزال دولة ملاحدة المعيديين الباطنية من البلاد المصرية ، وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك اوربة عرف فيها مجد الاسلام

ضعف الاسلام السياسي وملكه

ثم اتسع ملك الاسلام وزالت وحدة أحكامه بانقسام الخلافة إلى خلفتين فزوال كل منهما ، وكثرت دوله ففرقت وحدة أمته السياسية إلى شعوب مختلفة في الاجناس والاطان، ووحدة ماته الدينية إلى مذاهب مختلفة في الاصول والفرع، فتمادوا في الدنيا والدين، وقتتلوا على عصبيات الملوك والسلاطين، فحق عليهم قول كتاب ربهم (ولا تنازعوا في فئسلاواتذهب ربحكم) فسلط الله عليهم اعداءهم قتلوا أكثر عروشهم، وانزعوا منهم أكثر بلادهم (ذلك بان الله لم يك منيراً نعمة نعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم (٥٣:٨) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهالها مصلحون (١١ : ١١٧) وكان يظهر في هذه الدول للتفرقة مجددون متفوقون في العلم كما تقدم وفي الادارة وال عمران كحمد علي باشا بمصر - وفي الحرب كالامير عبد القادر في الجزائر ويعقوب بك في تركستان الصينية - وفي السياسة كصطفى رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا في الترك وخير الدين باشا في تونس - وفي ارشاد العامة والبدو للدين والدنيا كالسيد السنوسي

حال البصر الاضمر وما يقتضيه من التمجير

في أثناء هذا الضعف الاسلامي العام - دخلت الشعوب الافرنجية في طور جديد في الفتح والغلب والسياسة وال عمران ، قوامه العلوم السكونية والفنون والصناعات والثروة والنظام، وتجدد فيهما من آلات الحرب وكراعها، وأسلحة القتال وعتاها، ما يمكن الجند القليل من اإبادة جند يفوقه أضمافا مضاعفة في العدد والشدة والشجاعة في زمن قصير

واستحدث فيه من النظام ما يسهل به على أفراد ممن حذقوه ومردوا عليه

أن يسخروا لخدمتهم شعباً كبيراً غريباً عنهم في جنسه ولغته ودينه كما يسخرون الانعام الداجنة والسائمة، والجرالموكفة والخيل المسومة، فيذلون بالجماعات المذلة منه الجماعات المتمردة، ويستنزفون ثروته كلها فيجرفونها إلى بلادهم التي تزحوا منها فاتحين مستعمرين، ويتصرفون في قواه المعنوية، وروابطه القومية والدينية، كما يتصرفون في حرثه ونسله، ولحمه ودمه، وأرضه وماله، وهكذا يتصرف العلم بالجهل، والنظام بالفوضى

وابتدع فيه من مصراكب النقل والتسيار، وآلات رفع الاثقال، وأجهزة تبليغ الاخبار، ما مهد السبل لمبتدعيها ومتخذيها من كل ما أشرنا اليه من الاعمال الحربية، والتصرفات السياسية، والوسائل الاقتصادية، وصارت المسافة بين القارة والقارة، اقرب من المسافة بين بلد وأخرى من مملكة واحدة، وهو ما عبر عنه في الحديث النبوي بتقارب الزمان

اتسعت بذلك مسافة الخلف بين الشعوب في العلم والعمل ووسائلهما، واشتدت الحاجة إلى تجديد الحياة في المتخلفة منها عن المتقدمة، لا ينهض بثقله أمثال أولئك المجددين القدماء بالوسائل القديمة وحدها، ولا يطمح اليه صوفي يستمد قوته من الاموات، ويتكلم على الكرامات ويعتبر بالمنامات، ولا يطمع في تذليل صعابه واقتحام عقابه غريب في بحار النظريات العقلية، ومفترق الافكار بنظريات الفلسفة، ولا يطلع ثناياه، ويجتلي خفاياه، منقطع إلى كتب الشرائع، واستنباط أحكام الوقائع، ولا يتسامى اليه من تعلم العلوم والفنون العصرية تعليماً آلياً ليكون أحد العمال في دائرة من دوائر الحضارة أو ديوان من دوائرها حكومتها.

إن هذا لبدع من الخطوب الكبرى غير عادي، لا ينبعث إلى تلافيه إلا بدع من كبراء الرجال غير عادي: أمم قوية بالعلم الجديد والفن الجديد، والسلاح الجديد، والنظام الدقيق في السياسة والادارة والمال، والتعاون بتوزيع الاعمال، واستخدام قوى الطبيعة، تستلب ملك أمم جاهلة، متفرقة متخاذلة، مختلفة النظام، مستعبدة المستعبدين، منقادة للخرافيين، وقد قذف في قلوبهم الرعب فكانوا مصداق قول النبي ﷺ « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة إلى

قصصها»^(١) فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غناء كغناء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال « حب الدنيا وكراهية الموت »^(٢) فن ذا الذي يضطلع بتجديد حياة هؤلاء الموتى وبمخبرهم من قبورهم ألا إن الرجل الذي ينبعث إلى نفخ روح الحياة في شعوب هبطت إلى هذه الدرجات من الوهن، وبمشها إلى مجاهدة أتم عرجت إلى تلك الدرجات من القوة، يجب أن يكون ذا روح علوية، أو تبت حظا عظيما من وراثته النبوة، في كمال الايمان، وصحة الالهام، وعلو الهمة، وقوة الارادة، وصدق العزيمة، واخلال النية، وقوة الفراسة، والزهد في الشهوات البدنية، واحتقار الزينة الخادعة. والزهد في الجاه الباطل، وعدم الخوف من الموت، وأن يكون ذا وقوف على حالة العصر، وتاريخ الشعوب الديني والسياسي، ومنن الله في الاجتماع، وفصل الخطاب في الاقتناع، وفضاحة اللسان وبلاغة التعبير، وقوة التأثير، ثم يكون ما يحذقه من سائر العلوم مددآ له في عمله

حكيم الشرق والاسلام

كذلك كان ذلك الروح المسلمي النبوي، الذي تمثل للافتان في ناسوت بشري، جلس في دروس العلم خذق العلوم والفنون القديمة تقليدا وعقليا في بضع سنين، وألم بالهند لتلقي مبادئ العلوم الاوربية فوقف على ماشاء منها في زهاء سنتين، ثم حج في سنة ١٢٧٣ ومكث في مفره زهاء سنة يتقلب في البلاد الاسلامية، لاكتناه اخلاقها وعقائدها الدينية؛ واختبار أحوالها الاجتماعية والسياسية

ثم عاد إلى بلاده فانتظم في سلك حكومتها وهي ممزقة بالفتن الداخلية، وموبوءة بالذسائس البريطانية، فكاد يتدبير ويخلص الامر فيها لأميرها محمد أعظم خان الذي برأه مكان الوزير الاول عنده، لو لا ما عارض ذلك من الذسائس الانكليزية، التي تمدها القناطير المنقطرة من الجنيهاات الاسترلينية، والروبيات الهندية

(١) تداعى بفتح الدال أصله تداعى أي يدعو بعضها بعضا. والاكلة بفتح الحين جمع آكل (٢) رواه ابو داود والبيهقي في دلائل النبوة من حديث ثوبان (رض)

واضطار بفشل أميره إلى هجر وطن ولادته ونشأته، إلى حيث يمكنه الإصلاح من أوطان امته، فر بالهند فبالت حكومة الانكليزية في الحفاوة بضيافته، مع إحاطة عمالها وجواسيسها بمجالسه، ومنع علماءها من الاتصال به، ولكنه نفخ فيمن لقيه من كبارها روح الاستقلال،، والجرأة على كسر مقاطر الاستعباد، ثم كان يغذي ذلك الروح بالكتاب وتآبين الافكار، ان باقى من رجالها في مصر وأوربة وسائر البلاد، وبمقالات له في الجرائد نشرناها في المنار، وناهيك بالبروة الوثقى التي كادت تضرم نيران اثورة فيها، وكان موقنا باستقلالها من بعده، حتى انه قال للشيخ عبد الرشيد التتاري: يا ولد انك ستصلي صلاة الجنازة على القيصرية الروسية، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية في الهند، وقد تمت البشارة الاولى وظهرت بوادر الثانية في هذه الاعوام

وأغرب من ذلك انه حمله تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية في عاصمة الروسية رئيسها عم القيصر وقال له اذهب بهذه الرسالة وأوصلها إلى الفرانديوق فلان، واعلم انك إما ان تقتل، وإما ان تفوز وتغنم، فأوصلها فقام الفرانديوق لها وقعد، ثم اعاده بها إلى بلاد اليونان ليطلبها فيها باللائحة الروسية ويرسأها اليه، وعرض عليه من المال ماشاء فلم يأخذ الا القدر الضروري، ولقي اهلها كادت تذهب بحياته

جاء هذا السيد مصر فنفخ فيها روح الحكومة النيابية، وألف فيها الحزب الوطني الاول لتمديد سلطان الحكومة الشخصية، وغذى تلاميذه ومريديه بعشق الحرية ووسائلها من العلم والكتابة والخطابة، كما ارشد المسلمين منهم إلى الإصلاح الديني، والجمع بينه وبين العلم المصري، وكان من أثر هذا ما شرحه هذا الكتاب

ذهب إلى ايران، فنفخ فيها روح التجديد في السياسة والعمران، فزال بفعل فعله فيها بين قيام وقعود، وهبوط وصعود، حتى ظفرت بالحكومة النيابية في عهد الشاه مظفر الدين خان، وما زالت تنتقل في أطوار التجديد والإصلاح

ثم انتهى إلى عاصمة الدولة العثمانية فأنشأ يرشد السلطان إلى وسائل الاستفادة من منصب الخلافة الاسلامية، ويجمع له كلمة الشعوب والمذاهب المختلفة، حتى انه أقتع كثير آمن علماء الشيعة المجتهدين بالاعتراف بخلافته وجمالها مناط أوحدة الجامعة

للمسلمين ، ولكن قرناء السوء خوفوا السلطان من النهوض بهذه الجامعة فأعرض عنها ، وكان السيد مع ذلك يث هناك أفكار الاصلاح والتجديد ، الجامع بين الطريف والتليد ، إلى ان قضى نحبه ، واتي ربه ، رحمه الله و قدس سره

الاستاذ الامام

أرأيتك هذا المصالح العظيم، والمجدد الحكيم، انه لم يظفر في شئ من الشعوب الاسلامية بمن يصلح أن يكون خليفة له، ومتما لاصلاحه بما يرجي به دوامه، بعد أن وجه اليه الوجوه ، وعلقت بقلبه القلوب ، على كثرة من المصطبئين بصيغته ، إلا رجل مصر الشيخ محمد عبده ، لان منصب إمامة الاصلاح والتجديد ، لا يرتقى اليه بوسائل الذكاء والتفكير والتربية والتعالم وحدها ، بل لا بد فيه من الاستعداد الروحي والمواهب الفطرية كما قررنا

كان الشيخ محمد عبده سليم الفطرة ، قدسي الروح ، كبير النفس ، وصادف تربية صوفية نقية ، زهدته في الشهوات والجاه الدنيوي ، وأعدته لورثة هداية النبوة ، فكان زيتة في زجاجة نفسه صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسه نار ، فمسته شعلة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نوراً على نور (يهدي الله انوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

اقرأ في الصفحة ٢٥ من هذا الكتاب كيف زار السيد المرة الاولى هو وصديقه وأستاذه الشيخ حسن الطويل في خان الخليلي، وكيف كان اول حديثه معهما السؤال عن تفسير بعض آي القرآن وما يقول العلماء والصوفية فيها ، وانه بين لها قصور كل ما قالوه، وجاء من عنده بخير منه ، وكيف اعجبا كلاهما بما قال ، ولكن الشيخ حسنا ظل على حاله ، لانه كان قد بلغ منتهى استعداده ، وكان أرق علماء الازهر عقلا وعلماً وزهداً

وأما الشيخ محمد عبده فكان يشمر بأن كل ما اصابه من حسن تربية الشيخ درويش ، ومن علم الشيخ الطويل والشيخ القصير^(١) دون ما تسمو اليه نفسه ، (١) المراد بالشيخ القصير احمد الرفاعي القصير القامة وكان اصلب الازهرين جهودا كما كان الشيخ الطويل اشد هم استقلالاً

رثاء الاستاذ الامام السيد جمال الدين وتأثير روحه العلوية في أعماله ط

ويتطاع اليه عقله ، وتضطلع به همته ، و كان يطلبه بما استطاع من الوسائل فلا يجده ، ذلك ان روحه كانت مستشرقة لالعرفان الذي يصعد بها إلى سماء الوراثة النبوية في إصلاح البشر ، وتجديد أمر الدين الذي بشر به المصلح الاعظم صلى الله عليه وسلم فاتصل بالسيدجة من الدين من ذلك اليوم حتى اقتبسه منه وكان خليفته فيه ، لكن من ناحية تربوية الامة التي كان يتمنى قيام السيد بنفسه بها ، إذ لا يثبت إصلاح الحكومات بدونها ، لا من ناحية استبدال حكومة صالحة مكان غيرها (راجع ص ٩٧٤) تلك الوراثة النبوية التي عبر عنها يوم موت السيد بقوله في رثائه الوجيز البليغ : «والذي أعطاني حياة يشاركني في اعالي ومحروس " السيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمداً و ابراهيم وموسى وعيسى (ص) والاولياء والتقدميين . ما رثيته بالشعر لانني لست بشاعر ، ما رثيته بالنثر لانني لست الآن بنثر ، رثيته بالوجدان والشعور لانني انسان أشعر وأفكر » اه بنسخه تقريرا^١

هذه الوراثة هي التي أخرج الله تعالى بها محمداً عبده من خمول تصوفه وخمود أزهريته الى ميادين الجهاد في سبيل التجديد الديني ، والاصلاح الاجتماعي المدني ، يخوض غمرات الثورات ، وتتقاذفه أمواج الاسفار ، وتكافئه قن الامراء المستبدين ، وجهالة حملة العاثم الجالدين — من حيث بقي حسن الطويل نديده في التصوف والفلسفة قابعاً في كسر بيته ، راضياً بخموله وراحة نفسه . وإن في الصلاة لراحة ، وإن في العلم والذكر للذة ، ولكن ثوابها قاصر على صاحبها ، وثواب الجهاد متعدد لسكل من ينتفع به ، والانسان الكامل من يجمع بينهما

بهذا الروح العلوي كان يقول له استاذة السيد جمال الدين وهو مجاور يلبس الزعبوط : قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت ؟ ذلك السيد الذي كان يخاطب الملوك المستبدين خطاب الاقران ، بل يهدد بعضهم ويمن على بعض فيقول للسلطان عبد الحميد انني لاجل أمرك قد همت عن شاه إيران ، ويقول له السلطان : بحق يخاف منك الشاه خوفا عظيماً^(٢)

(١) هما أخواه اللذان يشتغلان بالزراعة (٢) كنت كتبت العبارة من مذكرة له وقتدت المكتوب و بقي المحفوظ (٣) هذا لفظ السيد في ترجمة لفظ السلطان سمعه منه كثيرون في الآستانة

بهذا الروح العلوي كان يشرف من سماء إدارة المطبوعات بالسيطرة والسيطان على الحكومة المضرية من أعلاها الى أدناها، فيأمرها وينهاها، منتقداً أعمالها، مرشداً عاملها ، يخطي لغتهم الكتابية فيضطرهم إلى إصلاحها في معاهد التعليم ، ويفند أعمالهم فيعيدهم على صراط العدل المستقيم . بل ازعج بمقالاته في انتقاد وزارة المعارف ناظرها حتى شكاه إلى رئيس النظار رياض باشا فما أشكاه ، وكلم الرئيس الشيخ فأقام له البرهان على وجوب الإصلاح ، وأقنعه بانشاء المجلس الأعلى المقيد لاستبداد وزيرها في الاعمال، فأنشأه برأيه ، وكان هو سكرتير ذلك المجلس وصاحب التأثير الأكبر فيه

بهذا الروح العلوي كتب ذلك الكتاب البليغ في سجنه، وأعلن فيه عفوه عن وشوا به وأسأوا اليه على ما كان من احسانه اليهم، وجزم بما أعدت له العناية من المجد ، واعدأ بان سيفعل المعروف ، ويفيئث الملهوف . . . وكذلك كان

بهذا الروح العلوي كان هو الرأس المدبر في كل مجلس رسمي عين عضواً امره وسأ فيه كمجلس إدارة الازهر ومجلس الاوقاف الاعلى ومجلس شورى القوانين . نجد إثبات ذلك في بيان اعماله فيها من هذا الكتاب ، سافرة الوجه ليس دونها نقاب بل بهذا الروح العلوي كان اميره يكبره ويها به ويقول انه يدخل علي كأنه فرعون . وإنما كان يدخل عليه كدخول موسى عليه السلام على فرعون، متوكفا على عصا الحق ، داعيا الى الإصلاح والخير ، ناهيا عن الاستبداد والبغي - كقوله له في مجلس تشريف المقابلة الحافل بالملءاء : ان مجلس إدارة الازهر لا يعرف لسموكم أمرا عليه ، الا بهذا القانون الذي بين يديه، دون الاوامر الشفوية التي يبلغها عنكم ، من لا يثق به المجلس لمخالفته لقانونكم



تلك آيات بينات من حياة كل من الروحين على الانفراد ، فما رأيك إذا اجتمع هذا الروح العلوي بذلك الروح الاعلى الذي اذكى سراجة الوهاج، واتحدا في عمل من الاعمال ؟ ذلك ما كان من اصدارهما جريدة العروة الوثقى التي لانعرف في تاريخنا كلاما بشريا ابلغ من مقالاتها في إصابة مواقع الوجدان من النفس ،

اشترك الروحين المجددين في العروة الوثقى وتأثيرها الغريب ك

ومواضع الإقذاع من العقل ، وتجرئة الضمءاء ، على الثورة على الاقوياء ، والجهاد لتحرير امتهم ، واستقلال بلادهم

فان سألت عن تأثيرها في رعب المعظمة البريطانية ، وإثارة العالم الاسلامي والشعوب الشرقية ، فانك تجد قصصها مبسوطا في هذا الكتاب ، بما يشبع نهمتك السياسية من إسهاب ، ويروي غلتك الادبية من إسباب ، (ص ٢٩٨ و ٣٠٣)
وانه ليس بطلك بالروايات الصحيحة ، والشواهد الصادقة ، كل ما أشرنا اليه في هذا التصدير من آثار تلك الروح القدسية ، وتجديد الاصلاح المنقذ للامم والشعوب من رق الفاتحين المستعمرين ، وظلم المستبدن القاهرين ، وجود الفقهاء المقلدين ، ودجل المتصوفة الخرافيين ، فاطلبه من هذا التاريخ فانه يقصه عليك مفصلا تفصيلا فقرأها في الغيور على قومه ووطنه فصلا فصلا ، وتدبر مقاصد فصوله مقصداً مقصداً ، ثم اقرأ في الجزء الثاني له مقالات الامام الاجتماعية والادبية ، ولو انحه في إصلاح التربية والتعليم ، ورسائله الدينية والادبية للمعلماء والادباء . ثم ارجع البصر إلى الجزء الثالث واعتبر بتأثير وفاته في العالم الديني والمدني ، وتأمل إجماع كتاب الامم والشعوب المختلفة الاجناس والاديان والآراء والافكار على تزكيتة وتقديسه ، او تدبر مقدمتنا لكل منهما - تعلم انه هو الامام الذي يجب اتباعه في تجديد الامة وإحياء الامة ، وإيجاد المدنية الفاضلة ، ثم انظر ما اقترحتة على مصر في خاتمة هذا الكتاب لعلك تكون من حزب الدعاة المصلحين ، وأنصار التجديد المستبصرين الذين قال الله تعالى فيهم (وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

هذا ما توخيت التنويه به من هذا الضرب البديع من التجديد لحياة الشرق على ما وصفت من التباين بينه وبين الغرب ، وما كان من تأثيره الذي يشبه خوارق العادات ، كبراء الاكهم والابرص وإحياء الاموات ،

المجددون للوثنية والرجل

الا وإنه قد نجح في هذين القرنين قرنان او قرون من أدياء التجديد، بعضهم في إيران وبمضهم في الهند، وانهم إلا مسحاء دجالون ، ومنتبئون كذابون، لبسوا على الناس لباس الاصلاح الديني، ومثلوا لهم بالشكل الذي تصوره تقاليدهم لما ينتظرون من المسيح والمهدي ، وانتحلوا لدعايتهم آيات ، واخترقوا لانفسهم معجزات ، فمنهم من ادعى النبوة ، ومنهم من ادعى الالوهية ، وقد اتبعهم فنام من المحرومين من مزايا الانسان ، الكافرين بنعمتي العقل واقرآن ، الجاهلين لثبوت نبوة خاتم النبيين باالم والعقل ، وان الله ختم به نزول الوحي ، فزادوه رجسا على رجسهم ، وعبودية للاجانب على عبوديتهم ، فكانوا دعاة وأنصاراً للمتدين على استقلال بلادهم ، المستعبدين لا قوامهم ، فوالله لو عمت فتنتهم لاستولى الانكيز على بلاد فارس كلها ، ولما وجد في الهند من يطالب الانكيز باستقلال ، ولا بحق من الحقوق ولا عمل من الاعمال

أليس من مثار العجب الذي جاء بها ابو العجب^(١) ان يضع كل من اتباع هؤلاء الدجالين لانفسهم نظاما ، ويجمعوا لبث نحلتهم أموالا ، وينفروا للدعوة اليها خفافا وثقالا ؟ فيكون لهم في كل واد أثر ، وفي كل قطر ذكر ، وينضوي اليهم بعض الملاحدة طمعاً في أموالهم ، لا إيماناً بمسيحهم او الهتهم ؟

أوليس باوغل من هذا في أعماق العجب واوغل في احشائه أن يتخاذل المارفون بقدر حكيمة الشرق ، واما مي الاسلام بالحق ، عن تأليف حزب اتعمم اصلاحهما ، واستمرار تجديدهما ، وأن يكون لجماعتهم نظام يكفل دوام سيرهم ومال يضمن نجاح سعيهم ، ومدارس تربى النابتة على منهاجهم ، وأطباء يداوون أمراض الاجتماع بملاجهم ؟ على استقلال الفكر ، وحرية العلم والرأي ، وهداية الدين ، وتوطين النفس على الجهاد لاعلاء كلمة الحق . واقامة ميزان العدل لتكون عزيزة لاتدين لاجنبي ممتد ، ولا لوطني مستبد ؟

(١) ابو العجب الشموذي وكل من يأتي بالا عا جيب

نعم ان ذلك لعجيب ! وان هذا لا عجب منه. وبشبههما في العجب ان المتمين
الى السنة من المسلمين أقل من المبتدعة تعاونوا وتناصرأ وعصبية ودعاية : أفلا
أنبتك بالسبب ، الذي ينتاشك من حيرة العجب ؟

ان حقيقة السنة والجماعة هي حقيقة الاسلام . وان الاسلام الحق هو دين
توحيد العبودية والربوبية لله وحده . والحرية وعزة النفس تجاه ماسواه . واتباع
رسوله وحده فيما بلغه عنه والعمل بمقتضى الوازع النفسي التابع للمقيدة ، والنظام
الاجتماعي الذي تقرره الشريعة ، فلا تذلل نفس صاحبه بالاقتياد لرئيس ديني
ولا دنويو لذاته ، ولا اساطان وراثي أو تقليدي فيما وراء تنفيذ أحكامه .

وأما هذه النحل الباطلة والمذاهب المبتدعة التي أشرنا الى بعضها فأساسها
العبودية والخضوع لفرد أو جماعة من البشر، يقدر منتحايها أشخاصهم ويرفهم
على نفسه وعلى سائر الناس وهم منهم ، ويوجب طاعتهم عند فريق وعبادتهم عند
آخر . فتكافل هؤلاء يكون تاما شاملا لانه تعبدية ، وعصبيتهم تكون أقوى لانها
وجدانية لا عقل الافراد ولا رأي للجمهور فيها .

ويرد علينا ههنا ان العقائد الباطلة والتعاليم الواطئة، خير للجماعات والشعوب
التي تأخذ بهامن العقائد الصحيحة والتعاليم العالية، من حيث جمع الكلمة ووحدة
الامة . ونرد هذا الايراد بقولنا ان العقائد الحق والتعاليم الصحيحة لا يقوم بها إلا
أصحاب العقول النيرة والافكار المستقلة الذي آمنوا بها عن حجة وإذعان .
وما تنازع هؤلاء مع المخالفين لهم إلا وكان لهم الرجحان . سواء أكان التنازع في
الدين أو في الحكم والسلطان ، وبهذا ظهر الاسلام على جميع الاديان .

وهذا الفريق فريق العقل واستقلال الفكر قل في جميع فرق المسلمين ببناء التعاليم
فيهم على أساس التقليد الذي يحتم على طالب العلم أن يقبل كل ما يقرره شيوخه بعنوان
مذهبه وإن لم يكن منه، سواء أعقله أم لم يمهقله، فان نازعه فيه حكم بكفره، ولهذا
صارأكثر المسلمين يقبلون البدع والخرافات مهما تكن المذاهب التي ينتمون اليها،
إذ ليست المذاهب فيهم إلا عناوين لمصيبيات لها رؤساء يطاعون باسمها، وأكثروهم
يجهلون اصولها وقواعدها . ومن تلقى منهم شيئاً منها فانما هو لفظ يمهقله ولا يمهقله،

ن سبب قلة أنصار الحكيمين من رجال الدين وكثرتهم في رجال الدنيا.

ولا يرجع اليه في فروع علمه ولا عمله ، ومن كان غير مستقل الفهم والعقل في عقيدته ، لا يكون مستقل الارادة في عمله . ومن نتائج هذا الخسوع ان صاروا خائعين للستبدن ، وظهراء للظالمين ، وان كانوا بملتهم كافرين

وأساس الاصلاح الديني والسياسي الذي قام به وعليه الاسلام ديننا ودولة وقامت عليه الدول القوية هو الاستقلال بنوعيه . وهو الذي دعا اليه الحكيمان المجددان الافغاني والمصري ، وقد بينه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد ، لهذا كان أنصارهما من رجال الدين هم الاقلين وخصوصهم منهم هم الاكثرين . وكان أشد ما أنكروه عليهما القول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد - ويقابله أن كان أكثر المعجبين بهما والذين قدرهما قدرهما ، هم الذين نبغوا في المدارس المدنية العالية التي يسير فيها التعليم على منهاج استقلال الفكر وكذا من تلقى من بعض أهلها وعاشرهم على استعداد فيه فصار مستقلا . ثلة من المدنيين وقليل من المعممين

ولو كان مادعا اليه الحكيمان هو التجديد السياسي والمدني دون الديني لآلف له هؤلاء الانصار حزبا كبيرا منظما كما فعل سمد باشا من تلاميذهما بعدهما

ولو دعا الاستاذ الامام الى نهضة دينية تقليدية صوفية لوجد من الازهريين وأهل الطرق من يؤسس له عصبية قوية يذهبها الالوف وألوف الالوف في زمن قريب ، ولا سيما اذا أباح لنفسه أن يظهر لم تبده الخفي ، ومعرفته بأسرار التصوف ، وغير ذلك من خصائصه الروحانية ، التي كان يمتد وجوب كتابتها لانها غير طبيعية . فإظهارها للقيدين بالسنن الطبيعية فتنة لهم ، وفيها كثير مما يمد من الكرامات عندهم ، وقد نقلت هذا عنه في بيان رأيه في التصوف والصوفية .

يبد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وان السيد جمال الدين رجل دين وان غلبت عليه السياسة . والشيخ محمد عبده رجل سياسة وان غاب عليه الدين . بل هو أقرب من أستاذه الى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين . فيهما ، فقد كان في الازهر لا يملو قوله قول ولا يملب رأيه رأي . وكذلك كان بين الرافقين من رجال الدنيا كالوزراء والقضاة والمحامين والادباء والمنشئين ، بل كان كذلك بين علماء الافرنج وساستهم ، وترى نموذجا من شهادات الجميع له في هذا التاريخ

خلاصة الخلاصة

في وجوب الجمع بين التجديدية الدينية والمدني

وحزب الاصلاح المعتدل

الذي يقوم به

و خلاصة ما أريد عرضه على قراء هذا التاريخ في هذا التصدير ان اصلاح الامة الاسلامية في أي شعب من شعوبها لن يكون إلا بالجمع بين التجديد الديني والمدني. هذا ما صرح به الحكيمان وجريا عليه بالعمل. وصرح لي به سعد باشا زغلول وقد نقلته عنه في المنار. بل هذا ما يعتقد أهل الرأي الناضج من غير المسلمين، وقد صرح به الكثيرون منهم قولاً وكتابة، كما يراه القاري. فيما كتبه بعضهم في تأييدهم. الاستاذ الامام وترجمتهم له من الجزء الثالث، وذكرت كلمات منها في الشهادات للمدودة لاشهرهم قبل خاتمة هذا الجزء.

فالجهد الذي منحوض غمراته دعاء الاستقلال السياسي والاصلاح المدني لا يتم لهم النصر فيه، ولا يتسقى أمره وثبتت بوانيه، إلا بالتعاون والتظاهر مع دعاء الاصلاح الديني، وقد كثر جنده المستقلون في فهم الاسلام في الازهر وغيره من القطر المصري وفي سائر الاقطار الاسلامية وهم منذ سنين يفكرون في تكوين وحدتهم وتنظيم حزبهم، فاذا وجدوا من زعماء الاحزاب المدنية رغبة في الاتحاد بهم والتعاون معهم، ظهر هؤلاء من قوتهم في الرأي، وتأثيرهم في الشعب، بألسنتهم الخطابية، واقلامهم الكتابية، مالم يكونوا يحتمسبون،

واختصر في هذا الموضوع هنا لانني قد وفيته حقه في خاتمة الكتاب بما ليس وراءه مزيد، إلا اذا ظهر الاستعداد له وانتقل إلى حيز التنفيذ.

فراجع الخاتمة، واجمع بينها وبين هذه الفاتحة، وأما الاعمال بالحوادث (ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

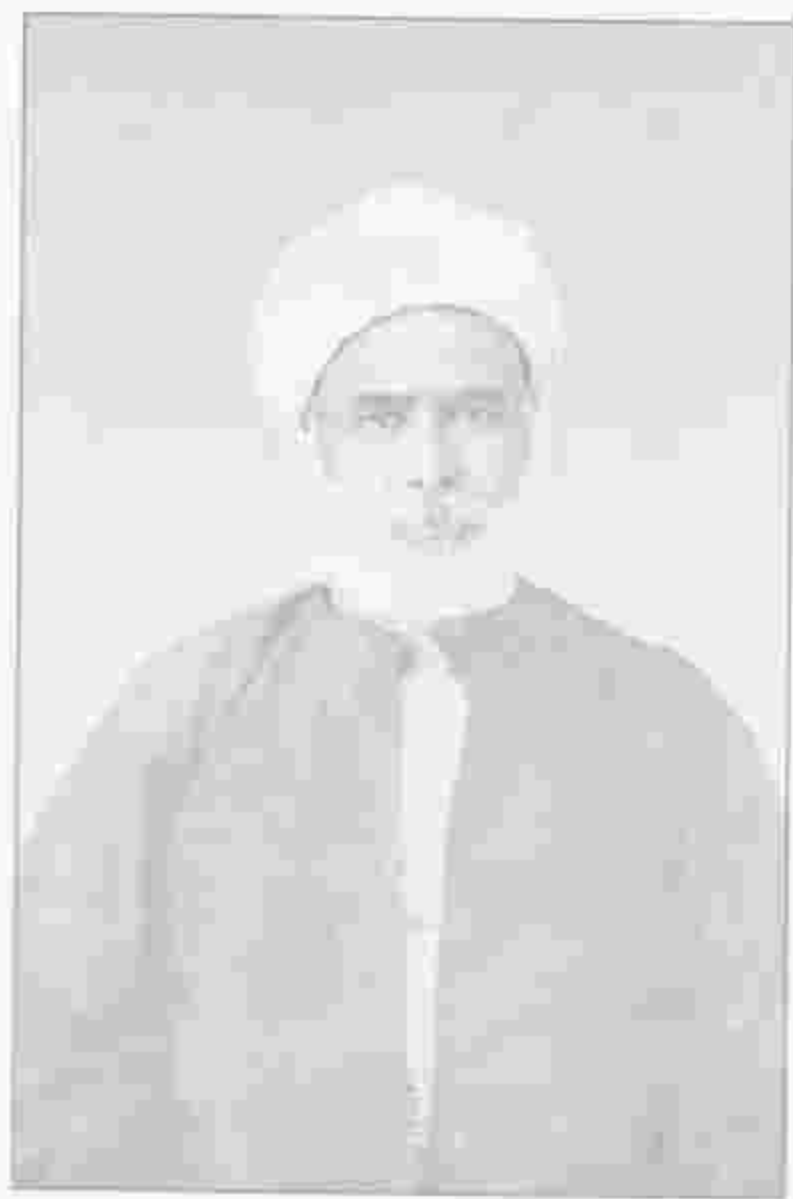
✽ وكتبه محمد رشيد رضا في سلخ جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ ✽

﴿ المواد المهمة التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا التاريخ ﴾

- (١) ما كان شرع فيه الاستاذ الامام من ترجمة نفسه بخطه .
 - (٢) مذكرة بتاريخ حياته كتبها لي لاجملها أصلا لخلاصة لتاريخه طلبت منه
 - (٣) ما كتبه من تاريخ الثورة العراقية ومذكراته الوجيزة فيها
 - (٤) مجموعة خطية له فيها بعض المستندات في عمله مع السيد جمال الدين في تأسيس جمعية العروة الوثقى السرية ونظامها . وبعض المكاتبات بيده وبين أعضائها
 - (٥) مسودات مقالات ومكتوبات وتقارير كان يكتبها لبايها لتبليغها أو بسطها ونشرها في الجرائد أو إرسالها لبعض الناس ومنها ما هو خاص بالازهر
 - (٦) مؤلفاته كلها وما اقتبسته من تفسيره ودروسه في الازهر
 - (٧) مجلة من المكتوبات والرسائل والتصانيد التي كانت ترسل اليه وحفظها عنده
 - (٨) مجموعة فيها حكم مقتبسة منشورة بخط السيد جمال الدين وخطه ومقالاته
 - (٩) مقالاته الاصلاحية في جريدة الوقائع المصرية
 - (١٠) مجموعة العروة الوثقى برمتها بخطي وخط بعض اخواني
 - (١١) قوانين الازهر ولوائح التعليم فيه ومحفوظات أخرى في شأنه
 - (١٢) كتاب اعمال مجلس ادارة الازهر
 - (١٣) تقرير محمد بك ابوشادي في مسألة فتوى طعام اهل الكتاب
 - (١٤) إرشاد الامة الاسلامية إلى أقوال الأئمة في الفتوى الترانسالية للجامعة
- من أكابر علماء الازهر
- (١٥) مجموعة مجلدات المنار وما فيها من المقالات والآراء له وعنه وفي شأنه
 - (١٦) عدة أجزاء من مجلة ضمير الخائفين فيها مقالات للسيد جمال الدين
 - (١٧) مجموعات المجالات والجرائد المصرية التي نشرت ترجمة السيد وترجمته
 - (١٨) كتاب الدفاع عن العراقيين لمحاميهم مستر برودي
 - (١٩) ما كتبه لي أصدقاؤنا من تلاميذه ومريديه عن سيرته في سورية بعد النفي
- ورحلته إلى السودان وفي مدحه والدفاع عنه
- (٢٠) مذكراتي الخاصة ومكتوباته لي وما اقتبسته واستفدت منه من مباشرته ٨ سنين



السيد محمد الدين النعماني



عبدالله بن محمد بن عبدالمطلب
الحنفلي
الحنفلي



السيد محمد الشيبان رضا

مؤيد الحق ١٣٤٥

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٢٦: ٨٣) أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٢: ١٠١)

فإذ الحمد أن جعلت سير الاولين عبرة للاخرين ، ومننت على عبادك بمن بعثته في الاميين ، يتلو عليهم آياتك ويزكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لني ضلال مبين . محمد خاتم النبيين ، ورحمته العامة للعالمين ، فصل وسلم اللهم عليه وعلى آله وصحبه ، والمجددين لهديه واصلاحه من بعده ، حتى ترث الارض ومن عليها وأنت خير الوارثين

أما بعد فيقول محمد رشيد رضا صاحب المنار إن مصر لن تنسى ذكر الحكيمين المجددين ، والامامين المصلحين ، السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده المصري ، فطلاب الاصلاح الديني والاصلاح المدني والاصلاح السياسي ، لا يفتنون يشدون باسميهما على أعواد المنابر ، وفي اعمدة المجلات والجرائد ، ولا يزالون يجعلونها مضرِب الامثال ، ويتناقلون ما يؤثر عنهما من حكم الاقوال ، وجلائل الاعمال ، بل ذكرهما الحميد معروف في سائر الشرق ، غير مجهول في عالم الغرب ، وان لقب « حكيم الشرق » ولقب « الاستاذ الامام » لاصقان بهما ، وهنئان عن تسميتهما وقد أجمع العارفون والمدونون للتاريخ الحديث على انهما مصدر هذه النهضة العصرية في مصر والافغان و إيران والهند ، وهم يشعرون بالحاجة إلى وضع تاريخ لها يدون سيرتهما ، ويفصل أعمالهما الاصلاحية ، ويرون ان ما كتب في الصحف عند وفاة كل منهما ، وما ينشر فيها أحيانا من التنويه باصلاحهما ، نزر يسير من أعمالهما وآرائهما النافعة . وعجب بعض المفكرين ان رأوا بعض الافرنج يكتب في تاريخهما ما لم يكتب مثله اولادها وأحفادها من دعاة الاصلاح والتجديد وينحون باشد اللائمة على المصريين منهم عامة وعلى صاحب المنار خاصة إذ كان أخص مر يدي الاستاذ الامام وناشر علمه وحكمته . والمدافع عن اصلاحه

في عهده ومن بعده . وقد وعد بكتابة تاريخ له عقب وفاته . فنشر سفرأ جمع فيه أكثر منشأته القلمية ، وجزء أجمع فيه أهم ما قبل وما كتب في تأييده ورتائه ، وماها الجزء الثاني والجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام . وقد مر ربع قرن ونيف ولم يصدر الجزء الاول الذي هو التاريخ الحقيقي

أشهد ان لوم اللائمين لمصر على هذا التقصير حق . وانني بما يخصني من التثريب علي لاجله وهو أكبره أحق . ورب لائم ملهم . ورب ملوم معذور . وها أنذا أخلص عذري بعد أن اعترفت بتقصيري . وبرئت من ذنبي بانجاز وعدي

توفي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في إثر معارك من جهاده في الإصلاح ماصلي ناراها معه غيري . وحماة ما تصديت له من الضرر . غير متمامل ولا ضجر . وأماما لدع قلبي من نار فقدده فهو الذي لم يكن لي بحمله حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم كنت مهتداً بعده بالنفي من هذه البلاد كما هددت في آخر عهده . وقد وطنت نفسي على النفي وعزمت على السفر الى الهند . ولم أتحوّل عن خطتي قيد شعرة أعانت عزمي على كتابة تاريخ للاستاذ الامام فلم ألبث أن بلغت عن الاستاذ

الشيخ عبد الكريم سلمان ان أصدقاؤه قد قرروا تأليف تاريخه بالتعاون بينهم وهم به أولى ، فقلت للمبلغ ان تأليف تاريخين لهذا الامام الكبير ، ليس بكثير ولا كبير . فليكتبوا ما عندهم وأنا أكتب ما عندي

ثم أرسل إلي عميد حزبه المدني وأقوى أركانها سعد باشا زغلول وكان عاده شقيقه احمد فتحي باشا من أوربة ، فخبته فبلغني أنه هو واخوانه من مرادي الامام وأصدقاؤه يرون أن أتولى كتابة تاريخه . وأن يساعدوني بما لديهم من المواد والمعلومات . ثم يساعدوني على طبعه ونشره بالمال ، بشرط أن أطلعهم على عملي وأستشيرهم فيه ، فان كثيراً من سيرته رحمه الله كانوا يعدون متكافلين معه فيه . ويعدون من بعده مسؤولين عنه

فاجبته انني لست الا واحداً منكم بل أنا أصغركم ، ولا أستغني عن مساعدتكم ومشاورتكم . ولا أحب الخروج عما ترونه من مصاحبتكم . وفي إثر ذلك اجتمع بدعوة منه الشيخ عبد الرحيم الدهرداش (باشا) وقرروا نداء أحدنا احمد راسم وقاسم بك أمين والشيخ عبد الرحيم الدهرداش (باشا) وقرروا نداء أحدنا احمد فتحي باشا زغلول ليكون نائباً عنهم في التعاون والتشاور معي في العجل وبلغوا حوده بك عهده ذلك ، وانه يرضيهم أن يعطيني ما عنده من مواد هذا التاريخ . وانما اختاروه لذلك لانه أنشطهم وأقدرهم عليه وأكثروا مودة وزيارتي لي ، وطلاقة في حرية الكلام معي ، وكان هو المتصل من جماعتهم بسماوا الخديو ومحيطا بسياسة وسياسة الانكياز في الامور علما . وها الجانبان اللذان يحسب لرضاها وسخطها كل حساب

وكان كل ما قدمه لي من المساعدة نسخ مقالات الاستاذ الامام الاصلاحية من جريدة الوقائع المصرية الرسمية إذ كان يقتني مجموعتها . وكان أول ما شاورته فيه مقالات جريدة العروة الوثقى وكانت كلها منسوخة عندي . فاما ما كان منها خاصا بالسياسة ومسالمة مصر والسودان وتهدية العالم الاسلامي والهند على الدولة الانكليزية فقد وافقته على تركه وعدم نشر شيء منه في منشأته لان الحرية في مصر لا تنسج لئسرها . وقد كانت العروة الوثقى ممنوعة من مصر والسودان والهند لاجلها . وقد نشرت أهمها في هذا الجزء . وأعطاني حموده بك مضمون المواد ومن أهمها ما كتبه الاستاذ من تاريخ الثورة العربية

وأما المقالات الاصلاحية العامة التي بث الحكيمان فيها الدعوة الى جمع كلمة المسلمين واصلاح ذات بينهم . والتعاون على احياء مدينتهم بما تقتضيه وسائل هذا العصر . فقد اتفقنا على نشر أكثرها . وترك ما تعداه نكثرة نحر يضاع عليها منها . ولكنه أشار أيضا بحذف جملة من بعض المقالات ما وافقته عليها إلاكارها . وأبقت اني لا يمكنني أن أكتب هذا التاريخ تحت مراقبته والتقييد بمشاورته بالحرية التي أريدها ، وقد ساعدتني اللجنة ببلغ من المال أعطيتها في مقابلة مئات من النسخ وزعها أعضاؤها بالجنان ، ويوع بعضها بمن يحس

فهذا ما حملني على التعجيل بجزء التأبين والثناء والتعازي ثم بجزء المنشآت والتسويق بجزء الترجمة ثم التطويل في فصول تربية الاستاذ الامام وتعليمه منه بذلك الاستطراد الطويل في الكلام على حقيقة التصوف وما يوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه واتفقنا على جعل ترجمة المنار للاستاذ الامام هي الاصل لجزء الترجمة في مواده مع بسطها والتوسع فيها . وقد قرأه هو ورتبه وأشار بالخير الاحمر الى حذف بعض المسائل منه لمخالفتها لمقتضى الحال أو سياسة الوقت

وفي أثناء ذلك استقال لورد كرومر العميد البريطاني وخلفه السر ألدون غورست صديق سمو الخديو وكان ذلك في أوائل سنة ١٣٢٥ قبل أن تتم على وفاة الامام ستانان ، فكبير نفوذ سموه في الحكومة وضاعت بكبره سعة الحرية علينا ، وأعيد في عهده العمل بقانون المطبوعات فاقنع أحمد فتحى باشا نفسه بارتكاب كتاب تاريخ الاستاذ الامام كتابة حرة مفيدة صار متعذراً ، فاتفقنا على الوقوف عند ما كان قد تم منه وهو الى ٢٣٢ صفحة وهو المقدار الذي أطلعت عليه الشيخ عبدالكريم سدان إذ رأيت شاكاً في بدني بطبع الكتاب فاعترف بأنه لا يمكن نشره

وجملة القول ان طبع هذا الجزء كان يسوء الخديو عباسا وإن لم ينشر فيه ما كان من مقاومته للامام في اصلاح الازهر والمحام الشرعية والاقواق حتى المساجد فان نشر هذا فيه كإبراء الفاريه هنا فانه كان يبذل كل قواه في عقاب مؤلفه ، وما

كان أحمد فتحي باشا ليرضى بذلك ولا سعد باشاً أيضاً، ومكانهما في حكومة جنابهما مكانهما وما انتهى عهد سموه إلا بسبب الحرب الكبرى التي جعلت الحكومة الانكليزية مصر في اثنائها خاضعة لاحكامها العسكرية وأعلنت حمايتها عليها، واشتدت مراقبتها العسكرية ومراقبة الحكومة المحلية بامرها على المطبوعات، واستمرت هذه المراقبة الشديدة الى ما بعد الحرب بزم من طويل

وانما سنحت الفرصة الاولى لاصدار الكتاب في العهد الاخير لسعد باشا في زعامة الامة ورياسة الحكومة واستقرار نفوذه في البلاد أي في سنة ١٣٤٥ هـ إذ لم يبق للانكليز من النفوذ القوي في هذا العهد ما يخشى أن يمكنهم من حمل الحكومة على مصادرته، على ان ثورة مصر قد انتهت ولم يعد ما في الكتاب من التحريض السابق يضيق على حريتهم. بيد أنه قد عاقني عن افتراض هذه الساخنة بالسرعة عدة عوائق منها انني كنت انتقلت من الدار التي طبعت فيها القسم الاول من التاريخ الى دار أخرى وتعذر وضع كل نوع من المطبوعات الكثيرة وحده فلم تقدر على العثور على المطبوع من التاريخ إلا بعد الانتقال الى دار المنار الجديدة ووضع كل كتاب من مطبوعاتنا في محل خاص به. وانما تم بعد وفاة سعد رحمه الله تعالى. وقد وجدنا بعض المطبوع تالفاً وبعضه قد فقد، فاضطررنا الى اعادة طبع أكثرها وشرعت في اتمام الكتاب في أواخر سنة ١٣٤٨ وعرض لي موانع عن المضي فيه مدة سنة وعدت اليه في أواخر سنة ١٣٤٩ وكنت أقدره بثانين كراسة (ملزمة) أو مائة، ثم كنت كلما شرعت في مقاصد فصل من الفصول أتذكر من مواده ومسائله ما كنت ذا هلا عنه حتى بلغ ما يراه القاري، وقد صبرت نفسي وحبستها على كتابة ثلثة الاخير اربعة أشهر من هذا العام (١٣٥٠) لا اشرك به عملاً آخر حتى تم طبعه في هذه الايام، وبقي كثير من المواد والمستندات من تاريخه وتاريخ السيد جمال الدين ضاق عنها هذا الجزء فوعدت باثباتها في جزء الذيل الذي اضعه له ان شاء الله كيف كتب هذا التاريخ

كتب هذا التاريخ في أثناء سنين كثيرة وفترات بعيدة، وأوقات يختلف فيها الفكر والشعور باختلاف الاحوال، والالانة والاستعجال، ولم تكن مواده مجموعة مرتبة وانما جريت في ترتيب أكثرها على ما كتبته في المنار عقب وفاة الاستاذ الامام من ترجمته، ومنها ما ليس له ذكر في تلك الترجمة، ومن ثم يجد القاري فيه تكراراً لبعض المسائل عن سهو أو عمد، وربما تختلف فيه العبارة في المسألة الواحدة بعض الاختلاف في اللفظ كاختلاف الورق، ولا سيما المسائل التي اعتمدت في كتابتها على حفظي، وأرجو أن لا يكون فيها شيء من التناقض فانني بفضل الله تعالى قوي الذاكرة للمعاني

ولولا ان طال هذا الجزء حتى صار يثقل حمله، وعطلت أهم أعمالها لاجل اتمامه، مع سوء الحال، وقلة المال، لوضعت له خلاصة كلية ألتخص فيها مقدمات كل مقصد من مقاصد فصوله ونتيجته، وأبين مواضع العبرة فيه على نحو ما ذكرته في أثنائه لبعضها، كأن أعد ما كان عليه الأزهر قبل تصدي الامام لاصلاحه من الصفات والاحوال واحدة واحدة، واعدا ما كان عليه شيوخه وطلابه من الصفات والاعادات والاعمال صفة صفة وعادة عادة وعملا عملا، ثم أبين ما كان من تغيير الاصلاح لبعض ما ذكره وأعد فوائده واحدة بعد واحدة، ومثله أن ألتخص آراءه في التربية والتعليم فاعد المفاسد التي ذكرها في لوائح اصلاح التعليم في الدولة العثمانية وفي مصر، وما ذكره منها في خطبه في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية، ثم أعد ما ذكره في تلك المواضع وغيرها من قواعد الاصلاح كلها وهي التي ادعو اليها، والكنيت أفعل هذا في كل فصل بل كل مقصد، واذا لكانت الفائدة اتم والنفع أعم، واذا تعذر على كتابة هذا فاني أوجه همة الراغبين في مثله أن يتولوه لانفسهم بانفسهم، ومن لا يعنيه ذلك فلا يهتم لقراءته. وعسى أن أوفق لهذا في الذيل الذي أرجو أن يكون هو المكمل له وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين والمؤرخين في بيان آراء الاستاذ الامام وعاداته وشمائله وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق، ومنها ما هو منتقد عندي على ما كان بيننا من الاتفاق، الذي يندر أن يوجد مثله بين اثنين من الناس، وأنا أعلم ان منها ما يكون منتقداً في نظر غيري وان كان صوابا عندي، ومنها ما ينتقد علي نشره لان مثله غير معتاد، اولانه من مبالغاته التي ربما كان يقصدها التأثير الخاص، ككلمته في تحريف الفقهاء، وهذا نادر ومن أنعم النظر في فوائد هذا الاستقصاء رأى ان أهمها تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية كي يحيط القاري به خيرا، ويحكم عليه حكما صحيحا، فان الذين يترجمون الرجال بذكر محاسنهم ومناقبهم، واخفاء هناتهم ومثالبهم. انما هم شعراء مداحون، لا مؤرخون حقيقيون.

فاذا رأى القاري انني على اعجابي بسعة علومه ورسوخه في معارفه التي كان بها جديراً بلقب الاستاذ الامام، الذي قبله وأجازه الرأي العام. أثبت انه كان مقصراً في علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الأزهر - وانني على اعجابي باخلاقه التي كان بها حقيقاً زعامة الاصلاح والتجديد للامة والملة، صرحت بأنه كان كأستاده لا يخلو من الحدة. ومما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة، والمبالغة في الورع، المغريتين لصاحبهما بآثارهما على المصلحة العامة - وأنني على اعجابي بقوة تدبته وحسن تعبدته ومحافظته على تهجده. صرحت بأنه كان يجمع بين الصلاتين في الحضرة أحياناً ترخصاً اجتهادياً خالف فيه المذاهب الاربعة، ولكنه وافق حديثاً صحيحاً أخذ به غيرهم من الائمة

إذا رأى القارىء هذا وذالك أيقن انني لم أكن محاييا له في هذا التاريخ، ولا سالكاً فيه مسلك الشعراء، ولا انصار المذاهب وزعماء السياسة، الذين يصورون آئمتهم وزعماءهم صوراً مكبرة مزينة مجملّة بما يظهر محاسنهم ويخفى مساوئهم، أو يبدل سيئاتهم حسنات، وعلم ان كل ما انتقد على الاستاذ يصح أن يقال فيه « حسنات الابرار سيئات المقر بين » واني وأيم الحق لم أطلع له على عمل ينافي العفة والزاهة ولا الورع والشرف. ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد. فهو أكمل من عرفت من البشر. ومن اطلع على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقوى، او الحكمة والفلسفة، أو تاريخهم الصحيح رأى كثيراً من العجز والبجر. فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرياسة؟

ولقد كنت داعية لزعامته وامامته، وانما كانت دعاية صدق ودين، وجهاد وجلاد، لزعامه تجديد واصلاح. لازعامه رياسة وجاه، ومناصب ومال، وهل يتوسل العاقل المتدين الى الحق بالباطل، والى الاصلاح، بالكذب الذي مطية كل افساد، فيتعجل لنفسه الاجرام نقداً، لاجل ما يرجو لغيره من الاصلاح نسيئاً؟ وقد سئل الاستاذ الامام أترجو أن تجني ثمر اصلاحك في حياتك؟ قال أستبعد هذا ولا أظنه، وحسبي أن يتم فيجنيه من بهدي

وجملة القول ان هذا الرجل اكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وخلقاً وعلماً وعملاً وصدقاً واخلاصاً. وان من مناقبه ما ليس له فيه ند ولا ضرب، وانه هو السري الاحوذى العبقري الحقيقي بلقب « المثل الاعلى » من ورثة الانبياء في هذا العصور ان لم اطلقه عليه لانه على اطلاقه خاص بالله في نص كتابه، وقد اجتذبه الناس في الخطب والجرائد حتى خرج عن معناه.

صنوف قراء هذا التاريخ

ألا وان قراء هذا التاريخ صنوف فمنهم طلاب الاصلاح والتجدد النافع للامة، مع المحافظة على مقوماتها ومشخصاتها التي تمت بها حقيقتها وامتازت من غيرها، وهؤلاء يشكرون لي عملي وبيرون أنني أحسنت فيه وأصبت. ويعفون عما عساني أخطأت فيه أو قصرت، ويساعدوني على نشر الكتاب، لانه خير عون على اثاره الهمة، وتقوية الامل، والتنشيط على العمل. بل هؤلاء منا، من عرفنا منهم ومن لم يعرفنا

و يليهم المستعدون للإصلاح بسلامة فطرتهم وحسن نيتهم . ولكنهم غافلون عنه لتفقد الباعث والمنبه ، وسيجدون في هذا التاريخ أقوى دعاية ، وأوضح هداية ، فلا يلبث قارئه أن يكون منا وينصرنا بقدر ما أوتي من همة واستطاعة
ومنهم دعاة النهضة المدنية الوطنية اللادينية وسيجد المخلصون منهم ان امامنا امام لهم في جانب من جانبي اصلاحه ، وان الجانب الآخر ينفعهم ولا يضرهم ، فان الجامدين في التقاليد الدينية والخرافيين فيها هم أعداء التجديد المدني ، فاذا صلحوا التقوا معهم في تعزيز النهضة الوطنية وتعاونوا معهم عليها ، مالم يكونوا دعاة اللحاد لذاته . وقد كان المعاصرون منهم للحكيم الافغاني والامام المصري يدينون لزعامتهما ، وان لم يكونوا من مرديهما والمقتبسين منهما مباشرة . بل كان اخلص منهم لقومه ووطنه يعترف بفائدة إصلاحهما الديني وضرورته لا كمال النهضة المدنية ، والرابطة الوطنية ، كما ترى في تابين احرار النصارى وملاحدة المسلمين للاستاذ الامام

وأما الجامدون المصريون على التقاليد والخرافات ، المطبوع على قلوبهم بما مردوا عليه من الخطيئات ، فقد يوجد فيهم من يلتمس لنا العثرات ، ويبدل حسناتنا سيئات ، ويكبر الصغير من الهفوات . ولا خوف على أنصارنا منهم فالحق يدع الباطل والنور يطرد الظلمات ، وانما ضررهم محصور في مقلدتهم من العوام الجاهلين الخرافيين . يصدونهم عن قراءة كتبنا ، وما قرأها أحد وفهمها الا واتبعنا

ومن دون هذه الصنوف والطبقات صنف الملاحدة والزنادقة ، ودعاة الاباحة المطلقة ، وصنف اجراء الاجانب وأعوانهم ، وصنف المتملقين للظلمة المفسدين . وهؤلاء تحوت أدنياء لا يرجعون عن غيهم الا اذا صار للإصلاح دولة قوية غنية تستصلح هؤلاء بالرزق ، وتكبح شر أولئك بالقوة . وأما نحن فاذا خاطبونا قلنا سلاما . واذا مررنا بلغوهم مررنا كراما . ونساله تعالى ان يجعلنا معهم ممن قال فيهم (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به . انه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

سيرة الاستاذ الامام

بدء الشعور بالحاجة اليها ومطالبتة بالشروع في تدوينها ما كان الاستاذ الامام يفكر في أن تكون له ترجمة تكتب أو سيرة تدون، لانه كان يستصغر عظام اعماله لتوجه همته الى ما هو أعظم منها . ولا أعظم منها الا غاياتها وثمراتها . وأما علمه وحكمته وأخلاقه وشماله فكانت محجوبة عنه بتواضعه، فلا يخطر في باله ما في اظهارها للناس من المثل الكامل والاسوة الحسنة . فبينما هو غافل عن هذه ومستصغر لتلك اذا به يطالب من بعض أهل العلم والفضل بالتفضل عليه بترجمته . ثم اذا هو بمعجب به يقترح عليه أن يكتب بيده سيرته . واذا بالمقترح جاد يلحف في السؤال ويكرر الاقتراح، فهل كان هذا المقترح وذلك الطالب من تلاميذه ومريديه وهم أولى الناس بعرفان فضائله؟ أم من صنائع أياديه فكان من حق الشكر عليها تعريف الناس بفواضله؟ أم كانا من أولى النزعة الوطنية والعصية القومية، فاحبا أن يباهيا به الاوطان، ويفاخر به الاقوام؟ لا هذا ولا ذلك جاء في الامثال « مغنية الحي لا تطرب » والعجيب اذا ألف لا يعود يعجب، ولذلك يكون اجلال الغرباء للرجل العظيم أبلغ من اجلال أهله وقومه، وقد كان للاستاذ الامام نصيب عظيم من اكبار الغرباء له لفضائله ومناقبه، على حين كان أكبر تحويم قومه عليه لجأه ومنصبه، لالعلمه وحكمته، واكثر اغتباط اصحابه الكثيرين به لعلومه ورواه ونجدته، لا لاجل اصلاحه وجهاده، فكان لاكثر الفرقين حظ شخصي من تعظيمه

وأما اعجاب الغرباء به فلباعت عليه فضائله الذاتية . لا فواضله العرضية . وقد كان الذي طالبه بكتابة سيرته وتاريخه رجل من فضلاء الاجانب لا من متبعي ملته ولا من اهل وطنه . والذي طالبه بتفضله عليه بمخلاصة من سيرته ليزداد علما بمناقبه . وتأسيسا به في عمله، رجل كريم يشاركه في الدين دون الوطن . فكان هذان الاقتراحان سببا لعلنا بما لم نكن نعلمه لولاها

أما هذا المقترح للمخلاصة فكان سببا لحمل الاستاذ نفسه على كتابة مذكرة في خلاصة سيرته أعطانيها لازيد فيها ما علمته منه بالمشافهة والمشاهدة . وأيضها ليرسلها اليه، ففعلت، وبقي عندي الاصل وقد ازددت به علما . وكان مادة لي في هذا التاريخ فيما سبق صحبتي لصاحبه من الزمن، وأما المقترح لتدوين كتاب حافل في سيرته التفصيلية فقد كان بالحاحه وما شعر به الامام من اخلاصه، سببا لشروعه فيه، ولكن كثرة أعماله وضييق أوقاته عن الاتساع لها كلها قضت بان يسترق له من خلس الراحة سويعات من كل أسبوع أو شهر، وكان كل ما أمكنه أن يكتبه المقدمة وبعض الفصل الاول الذي موضوعه أهله وبيته . وانني أبدأ به وهذا نصه تجاهك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ولي الضعفاء اذ رجعوا اليه ، واصبرهم اذا اعتمدوا في أعمالهم عليه ، وأخلصوا له العمل ، ومحصوه من شوائب الخيل ، ولم يياسوا من رحمته ، ولم يبطروا بنعمته ، والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله ، الهادي الى الحق وسبله ، الداعي اليه بقوله وفعله ، المؤثر له على نفسه وأهله ، الممرض عن نعيم الدنيا لأجله ، وعلى آله وصحبه الذين بايعوه ، وعلى الصراط المستقيم والنهج الواضح تابعوه .

وبعد فما أنا ممن تكتب سيرته ، ولا ممن تترك للاجيال طريقته . فإني لم أت لامني عملا يذكر ، ولم يكن لي فيها اليوم أثر يوثر ، حتى أكون لأحد منها قدوة ، أو يكون لاحد في أسوة ، وهذا الذي أجده من استصغار أمري ، وخفاء أثري ، وظهور عجزني عن بلوغ ما يرمي اليه فكري ويطمح اليه نظري كان بمنعني من أن أكتب شيئاً يتعلق بحياتي ، تعرض فيه بداياتي ، وشي من أعمالي بمدها وصفاتي ، حتى أكون به باقيا عند من يطالعهم بعد مماتي . وكنت أقول : وقت أصرفه في حكمة أستفيدها خبر من زمن أنفقته في قصة أستعيدها ، وما الذي عساه يبقى مني ، وأنا في قومي لم أترك ما يوثر عني .

ولكن عرض لي أن زرت يوما بعض معارفي من الغربيين ممن نظروا في الآفاق ، وبحثوا في العادات والأخلاق ، وجابروا لذلك الاقطار ، وركبوا الاخطار ، وتجشموا مشاق الأسفار ، وحققوا في ذلك وتقبوا ، وكتبوا فيه ماشاء الله أن يكتبوا ، فدار الحديث بيننا على شؤون بعض الأمم الحاضرة ، وما يجري فيها مما أدت اليه حوادثها الماضية فذكرت لهم ما عندي في ذلك وما أقيم عليه رأيي من مشاهدات ، في أيامي الخاليات ، فقرأوا فيما ذكرت شيئا يستحق أن يذكر ، ولا ينبغي أن يهمل ويهدر ، وزادوا على ذلك أن قالوا : انهم يتمنون أن يروه منقولاً الى لغتهم ، مقروءاً في قومهم بلسانهم ، ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجا في سيرتي ، معروضاتي تضاعيف وصفني لمبشتي ، وما تنقلت فيه من أدوار ، وما ندرجت اليه من آراء وأفكار ، مع اسناد

كل شيء إلى سببه، ورد كل أمر إلى أصله، وسألوني مع ذلك ان اكتب ما أعرف من نسبي وما كان عليه بيتي ومنزلة أهلي من قومي فقلت سبحان الله لو كانوا من المسلمين لقلت انهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تحقرن من المعروف شيئا » اولئك قوم يعرفون الاقدار، ويقدرن الآثار، لا يبخسون شيئا حقه، ولا ينكرون عليه ما استحقه، يطلبون المنفعة في كل شيء حتى فيما لا قيمة له في نظرنا، وفيما نعده من الضائعات فيما بيننا. هذا الذي الفهم الى دعوتي لتحرير سيرتي—نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتي، وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته، ولاء بكبير يائه وعنجهيته، ومفرور بمقامه ورتبته، ومعجب بسنه وشيخوخته، وما استحشني على اثبات شيء مما غشيني الا رجل واحد يشاركني في الملة، ولكنه ينفقني في الاصل والمنشاء، (١) وكان من كلامه في استنهاضي لذلك « انه ان لم ينفع أهل عصرنا انتفع به من يأتي بعدنا » غير أن المرء ولوع بما بين يديه غير واثق بما غاب عنه فكنت اذا فعه بما قدمت من الأعاليل، ولكن لما نصره أولئك القرباء، وأيده في طلبه العرفاء، وبالغوا في الالاح علي حتى قال لي أحدهم ثاني يوم (٢) « لعل الفصل الاول قد تم » يريد بذلك لعلي بدأت في العمل عقب مفارقتي وأتممت الفصل الاول من الكتاب مع اني لم أكن شرعت فيه وفي يوم سفره قال « أرجو أن أقرأ الكتاب بلفتنا في مثل هذه الايام من العام القابل »

لما تكرر الطلب في هذه الصور المختلفة رأيت ان الاضراب عن الاجابة اغراق في الخمول وتقصير في احترام رأي لم يشبهه ياء ولم يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة في المطلوب .

ثم نظرت نظرة في نفسي وما كانت بدايتي، وما لاقيت في تربيتي، وما نزعته اليه اثناء الطريق في سبيري، وما انتهيت اليه فيما تأخر من أيام عمري، قسمت جميع ذلك الى ما عليه الناس حولي، فوجدت اخلافا قد يسهو عنه الغافل، ولكن ربما يتنفع بملاحظته العاقل .

(١) يعني بهذا الرجل مؤلف هذا الكتاب الذي هو إتمام ما شرع به فأنني كنت ألح عليه في ذلك (٢) هو المستر ويلفرد بلانت الانكليزي المشهور

وجدت انني نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الاعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن ان سئمت الاستمرار على ما يألّفون، واندفعت الى طلب شي مما لا يعرفون، فمئرت على ما لم يكونوا يعرفون عليه، وناديت أحسن ما وجدت ودعوت اليه، وارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين - الاول محو الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة - لف الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله ليرد من شططه، وتقلل من خلطه وخبثه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الانساني وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعناً على البحث في أسرار الكون، داعياً الى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس واصلاح العمل، كل هذا أعده أسراً واحداً وقد خالفت في الدعوة اليه رأي الفثنين العظيمين اللتين يركب منهما جسم الامة - طلاب علوم الدين ومن على شاكلة، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم .

أما الأمر الثاني فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كاذفي المحاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أوفياً، تنشره الجرائد على الكفاية منشأ أومتزجاً من لغات أخرى أوفي المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجج الذوق وتنكره لغة العرب: الاول ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لاني صورته ولا في مادته ولا يزال شي من بقاياها الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم غير أنه والحمد لله قليل . والنوع الثاني ما كان يستعمله الادباء والمتخرجون من الجامع الأزهر وهو ما كان براعى فيه السجع وان كان بارداً، وتلاحظ فيه الفواصل وأواع الجنس وان كان رديئاً في الذوق، بعيداً عن الفهم ثقيلاً على السمع غير . وقد للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللغة العربية وهو وان كان يمكن رده الى أصول اللغة العربية في صورته ولكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها، ولا يزال هذا النوع موجوداً في عبارات المشايخ خاصة . ثم

ورد علينا في أخريات الايام ضرب آخر من التعبير كان غريباً في بابه وهو ما جاءنا من الأقطار السورية في جريدتي الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني وهذا الضرب كان يعد من غرائب الاساليب وبه أنشئت جريدة الاهرام في مصر وقد محي أثره والحمد لله .

وهناك أمر آخر كنت من دعائه والناس جميعاً في عمي عنه، وبعد عن تعقله، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق المدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الامة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الامة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً . دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتقلهم شهواتهم وانه لا يردده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا نصح الامة له بالقول وبالفعل .

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه
والظلم قابض على صولجاننا . ويد الظالم من
حديد . والناس كلهم عبيد له أي عبيد .

نعم اني في كل ذلك لم أكر الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير اني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا أبرح ادعو الى عقيدتي في الدين وأطالب بامام الاصلاح في اللغة وقد قارب . اما أمر الحكومة والمحكوم ففرسته بقدر قدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لانني قد عرفت انه مرة نجيها الامم من غراس نفوسه وتقوم على تنميته السنين الطوال فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن والله المستعان .

أصبحت نجاحاً في كثير مما عانيت به ، أخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي اليه ، ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرر في طبعي، وشي منها مما احتف حولي، وطائفة

منها من اصالتني في الرأي أو خطلي، ومن الذي يستطيع ان يفصل ذلك غيبي، حتى يكون ان شاء الله عبرة لمن يأتي من بعدي،

لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت، وأثبت ما صادفت من لدن عقلت، منبها على ما في من معائب، وعلى احسان الله الي في بعض المزايا، وعلى علل الحوادث التي صررت بها أو صررت بي في أطوار حياتي. غير انني أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بما في عيني وهو ما لا أعرفه الا بالسماع من أهله كما لا يخفى

الفصل الاول - أهلي

أول ما عقلت من أنا ومن والدي ومن والذي ومن هم أقاربي وجيران عتي عرفت اني ابن عبده خير الله من سكان قرية محلة نصر بمر كز شبراخيت من مديرية البحيرة ووقر في نفسي احترام والدي ونظرت اليه أجل الناس في عيني وسكن من هيئته في قلبي ما لا أجده لاحد من الناس اليوم عندي أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال فأزدكر منها قلة الكلام امامي ووقار كان في الحركات والاعمال والهيأة، والتنزه عن مخالطة الصغار من الناس، ومشاهدتي أهل بلده يحترمونه ويبالغون في توقيرهم اياه، وانفراده بالطعام دون والدي وأخواتي فان ذلك كان آية العظم عندنا فانه ما كان يواكل نساءه وأولاده في تلك الاوقات الا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية.

ثم وجدت والدي يقري الضيف ويؤوي الغريب ويفشخر با كرام النزول وذلك كان يزيد منزلته من نفسي علواً وأنا لا أنهم من هذا الا أنه شيء يقتخر به بدون أن أعقل له علة وبالجملة كنت أعتقد أن والدي أعظم رجل في القرية وكل من فيها دونه وهو بذلك كان أعظم رجل في الدنيا فان الدنيا عندي لم تكن أوسع من قرية محلة نصر وكان يمدني في اعتقادي هذا رؤيتي لبعض الحكام كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولا ينزلون في بيت العمدة مع انه كان أوسع رزقاً من والدي وأكثر دوراً وأرضين. وفيما في ذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال.

هذا وكنت أعتل من صغري ما كان عليه والذي من ثباته في عزيمته وشدته في
المعاملة وقسوته على من يعاديه وقد أخذت عنه ماعدا القسوة وأحمد الله ولا أحصي
ثناء عليه

أما والذي فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والذي وكانت
ترحم المساكين وتمتطف على الضعفاء وتمتد ذلك مجدا، وطاعة لله وحدا . ولم
أزل أجد أمر ما وعجت من ذلك في نفسي الى اليوم .

عرفت لي عما يسمى بهنسى ولا أعرف من أحواله شيئا لانه مات قبل أن
أحفظ عنه وكان لوالدي ابن عم يسمى ابراهيم ولم يكن له بين الناس ما يذكر به
وكان يساكتنا في بيت واحد ولا يزال ولده يسكن في قسم من منزلنا الى اليوم
ولنا أقارب كثيرون يتصلون بنا من جهة النساء وبيوتهم من خير البيوت في القرية .

هذا ما عرفته من حاضر بيتي في أول أمرى وما طرأ عليه سيأتي ذكره في
سيرتي أما ماضيه فإما أذكره حديثا عن أبي ورواية عن بعض من عرف شيئا منه ممن
أثق به من ذوي قرابتي وغيرهم . جدي لاسي كان يسمى حسن خير الله توفي عن
أبي وعمي بالهواء الأصفر الذي فتك بسكان القطر المصري في أواسط القرن الماضي
ويقال انه كان له قبل موته من نبي عمه وذوي عصمته نحو اثني عشر رجلا وثني
بهم واث من بيت آخر جاها البلدة وسكن فيها وحسد أهل الحسب من سكانها فسمى
بأهل هذا البيت (بيت خير الله) عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ويقف
في وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم فأخذوا جميعا وزجوا في السجن واحدا
بعد واحد ومن دخل منهم السجن لا يخرج الا ميتا وكان جدي حسن شيخا بالبلدة
وهو الذي بقي من البيت مع ابن أخيه ابراهيم الذي سبق ذكره

بعد وفاته طالبت بذلك الكاشح بمساعدة أعوان الحكومة الى سلب ما كان
في البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه بأنه لم يكن بقي الا والذي في سن الرابعة
عشرة وعمي في سن السادسة عشرة و ابراهيم في سن الثامنة عشرة والنساء فأخذ جميع
ما كان في البيت حتى الابواب وبعض أخشاب السقوف فهاجر والذي وعمي ومن
معهما من البلدة ولجأوا الى خال والذي الحاج محمد خضر وكان عمدة في قرية صغيرة

تخوف بكنيسة أورين من مركز شبراخيت ولكنه لم يستطع ابواهم عنده خوف
 الاضطهاد لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلت احقاد الظلمة من الحكام
 وطوشاة فأخذهم خفية وسار بهم الى مديرية الغربية عند احد أقاربه في
 قرية يقال لها منية طوخ بمركز السنطة ثم انتقلوا الى قرية بجانبها تسمى شبرا
 وكان معهم من النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون في زراعتها اما بانفسهم
 أو بشركاء يعملون بأيديهم ويقسمون الربيع معهم واشتهر والذي بالفتوة والبراعة
 في الصيد بالسلاح وأحبه لذلك مصطفى أفندي المنشاوي ومحمد أخوه وكانا
 موظفين في دائرة المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاول في وظيفة مفتش زراعة
 واثنائي بوظيفة ناظر وطابت له صحبتهما وعدوه كأنه واحد من أهلها ودام ذلك
 مدة سنين

ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر وضافت بهم السبل كما كان يسومهم
 ذلك الواشي من الخسف والذل أخذوا يتسللون بينا بعديت يهجون القرية
 ويذهبون ليقبضوا في جوار من سبقهم من أهلي فأحس الشقي بأشراف القرية على
 الخراب وفي ذلك انتقاص منافعه وخسار كبير في مصالحه فجدد لوشاية بالذي
 ومن معه ورفع شكوى الى مدير البحيرة وكان في شبراخيت يذكر فيها ان والذي
 ماوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية وكان قد صدر أمر المرحوم عباس باشا الاول
 بتجريد الاهالي من السلاح وحظر حمله عليهم فكتب مدير البحيرة بذلك الى
 مدير الغربية وأتهم مع ذلك مصطفى أفندي المنشاوي بايوائه بعض الفارين من
 العسكرية فأخذ الجميع على غرة وقبض عليهم في بيوتهم وسيقوا الى مديرية الغربية
 أما مصطفى المنشاوي فارسل الى ليمان الاسكندرية وأما والذي ومن معه فارسلوا
 الى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك الى أن يصدر الامر في شأنهم ولم يزالوا في السجن
 الى أن توفي عباس باشا فافرج عنهم وعن غيرهم وبعد ذلك عاد والذي الى مسقط
 رأسه في أول ولاية المرحوم سعيد باشا ولم يجد شيئاً مما كان يملكه اسلافه الا
 جدران البيت مهدمة .

تقدم انه طالبت اقامته في مديرية الغربية ويقال ان مدتها بلغت نحو خمس

عشرة سنة وفي أثنائها عرف كثيرا من سكان البلاد المجاورة لشبرا وعرف فيمن عرف بيت والدتي وهو بيت كبير في بلدة تسمى حصّة شبشير يعرف بيت عثمان كان كبيره اذ ذلك جذي ابراهيم عثمان الكبير فتزوج والدتي وأخذها الى شبرا وفيها ولدت في أواخر سنة خمس وستين بعد المثنين والالف من الهجرة (*) ولم يولد له منها غيري الا ابنتان احدهما تسمى زمزم وهي بكره وتوفيت قبل ولادتي والاخرى تسمى مريم وهي لم تمت حتى تزوجت وأنا في آخر سني طلب العلم

كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنا يلقبون بيثنا بيت التركان فسألت والدي عن ذلك فاخبرني أن نسبنا ينتهي الى جد تركاني جاء من بلاد التركان في جماعة من أهله وسكنوا في الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن ثم اتفق ان اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ولكنه كان معتقدا له كرامات تنسب اليه واتخذ له خلوة في المحل الذي أسست فيه قرية محلة نصر فلما توفي رأى جدنا ومن كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت الغرنواني ان يبناوا له قبة ثم يقيموا لهم بيوتا من البناء حول تلك القبة ويسكنونها ثم انضم اليهم بيوت كثيرة تكون من مجموعها قرية محلة نصر وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداءه ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه الى اليوم اما تسميتها بمحلة نصر فذلك لان مزارع البلدة كانت أعطيت أقطاعا لشخص يسمى نصرا فسميت باسمه وذلك في زمن لا نعرفه أيضا . وقد أخبرني المرحوم علي باشا مبارك انه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادي الشهير تعرف بالرحلة الكبرى ورأى فيها اسم محلي نصر ومسروق وأنه نزل ضيفا في بيت خير الله التركاني وقال ان البيوت الكبيرة في البلدة كانت ثلاثة: بيت الشيخ وبيت خير الله وبيت الغرنواني .

اما بيت والدتي فيقال انه عربي قرشي وانه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها .

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الانساب في الاسلام وكيف وصل الامر بالمسلمين الى ان لا يعرف الواحد منهم من أماته أكثر من ثلاثة ومنهم من

(*) كذا بخطه وفي رواية عنه أنه ولد سنة ١٢٥٦ وهي المشهورة

لا يعرف غير والده

جاء الاسلام والعرب أشد الناس محافظة على انسابهم وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لاسلافهم من مجد وحسب وكانوا يبالغون في الاعتزاز بشرف الاحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئا يساوي شرف النسب . وهيات أن يرتفع قوادب بادبه، الى رتبة شريف بنسبه، وان كان خاملا في نفسه غير شي . في عمله . ولا يخفى ما كان في ذلك من بخص الحق والاستهانة بالكرم لذاتي والشرف العصامي والانتكال في نيل المقامات العاليه بين الناس على ما فعل السابقون، لاعلى ما يكتسبه المرء بمجده واجتهاده . نعم كان في الافئدة بالآباء والاجداد ومعرفة ما أتوا به من جليل الأعمال وما كانوا عليه من كريم الخصال تحريض لأخلافهم على الاقتداء بهم، وحفظ ما ورثوهم من علو ورفعة، لكن الكسل الملازم لطبيعة الانسان كان يغلب جانب الانتكال على جانب الاسوة فجاء الدين الاسلامي ينكر الافراط وانقلو في اعتبار الانساب كما أنكر ذلك في كل شي . حتى في الدين نفسه وقال التنزيل (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوني باعمالكم ولا تأتوني بآسابكم » ليدل على أن النسب وحده ليس بالشيء يرفع ويخفض ولكن المعول عليه، وما يصح ان يرجع الكرم اليه، انما هو ما يكون عليه المرء نفسه فان وافق ذلك نسباً عاليا وحسبا تالدا كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم والا فلن يبغض العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الآلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم، فجعلهم بذاتهم أصولا للكرم وأدواحا للمجد بما أودع فيهم من القرائن الغاضلة، ووقفهم للاعمال الصالحة، فمنهم بيندى الحسب، واليهم في القرون المستقبله يرجع النسب .

هذا ما اراده الاسلام وما دعا اليه ولكنه مع ذلك امر برعاية النسبة الى الآباء . ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والاتحام بالادعياء وفرض على المؤمنين ان يدعواهم لا بأبائهم ليعرفوا بهم لا بمن اندرجوا فيهم وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقتصر من بلوغه رواحل الآمال وأوصى علي بن ابي طالب أن يعهد بجلائل الاعمال الى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابغة

وجاءت سنة السلف شاهدة بان للانساب وتوارث الاحساب مظاهر في أعمال الاشخاص
 وآثاراً في خصالهم ينبغي النظر اليها . فلم يهمل الاسلام شأن النسب ، ولم يضع من شأن
 الادب المكتسب ، بل طلب المدل في الامرين ، وجمع لاهله بين النظيرين الصادقين .
 ولكن ماذا يصنع الاسلام في المسلمين وقدمهروا في تحريفه وقلب مقاصده
 العالمة الى اضدادها كما هم مفرون بذلك من أعدائه . رأوا من بداية الأمر
 أن بعض من لا نسب لهم من الموالي والملصقين قد بلغوا من منازل الكرامة بين
 المسلمين ما يقبظهم عليه أهل الاحساب وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة أو علم
 وفضيلة وبلغ من أمر بعض الموالي الذين لا يعرف أبائهم فضلاً عن أجدادهم في الدولة
 العباسية ان استبدوا على الخلفاء من نسل العباس ابن عبد المطلب واغتصبوا الملك منهم
 وسادوا على كل ذي حسب ونسب في أيامهم بل قد فعل كثير منهم الافاعيل بأشرف
 الناس نسباً من آل بيت النبوة فسقطت لذلك منزلة الذب من نفوس المسلمين
 وعاندوا سنة من أعظم سنن الله في خلقه وهي سنة توارث الاخلاق والقرائز وان
 ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيئ الابناء لكسب مثلها وما جاء مخالفاً لذلك
 فهو من مبدعات القدرة الآلهية وأما التريية فان كانت حسنة مهدت السبيل واسرعت
 بشكو بن الملكة الصالحة في النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة
 الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالريضة على مكارم الاخلاق وليس له سلف فيها وان
 كانت رديئة أمانت الاستعداد للخير ومحتة من طبيعة النفس وجاءت بدله بضده .
 وشأن التريية مع الاستعداد للذائل ذلك الشأن بعينه فان كانت صالحة أمانت ذلك
 الاستعداد ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال وان كانت غير صالحة أسرعت
 بتكوين الملكات الحبيثة في نفس الناشئ حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد
 بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم برمي القدر من أول نشأته من قسي الحاجة فيأخذ يكلف
 نفسه ما ليس في استعدادها ويحمل على معاطاة مالا يليق من الحلال من الخيلة والمكر
 والخديعة مثلاً وهو ليس من أهلها .

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنة في أنفسهم مع أنهم لم يفعلوا عنها
 في دوابهم من الخيل والحمير وما شبتهم من البقر والغنم والابل ونحوها فيطلبون

نتاج الجهاد من الجياد ولكنهم لا يطلبون البنين من أم البنين بل ولعوا بالجواري والاماء ممن لا تعرف أصولهن، ولم تعرض على الاختيار خلاهن، في بيوت آبائهن، وأكثر ما كان من ذلك في بيوت الخلفاء ومن يليهم من علية الناس فكان خيرا للابن أن ينسى خوولته بعد ان كان يفتخر بها . وولع الملوك بالماليك وظنهم فيهم الاخلاص في الولاة وثقتهم بامانتهم ذهب بهم الى رفعهم على رؤس من سوام فتوجهت اليهم النفوس بالرعاية والاحترام وما كان لاحد من أولئك العميد المحترمين أن يذكر له ابا، أو يتذكر لنفسه نسباً، فصار الجبل بالانساب عادة وبشت المادة وأصبح البيت القديم المؤسس على مئين من السنين لا يعرف من أسلافه الا واحدا أو اثنين ومن بقي بعد ذلك فقد أكل الزمن ذكره ومحى جهل خلفه أثره .

ولذلك أقول ان ما أسمعه عن بيت والدي والذاتي انما هو روايات في أفواه الاهل والاقارب ومن يعرفهم من الناس قد يكون لها طريق الى الصحة وقد تكون مما يضرعه الناس للتره في الفضل غير أن ذلك يأتي في الانساب الى قریش وعمر ابن الخطاب أما في الانساب الى أصل تركاني فلا أظن ذلك يأتي ولهذا يترجح عندي جانب صحة الخبر ويؤيده ما يرى في أهل بيتنا من بعض الخصال التي لا يشاركهم فيها من مجاورهم في مساكنهم .

(يقول مؤلف الكتاب) هذا ما كتبه رحمه الله في ترجمه نفسه ومن الاخلاق المعروفة لبيته ان والده كان الى آخر عمره شهما شجاعاً وقورا مهيباً سخياً النفس كريم النخبة محترماً من كل من يجالسه وكانت والده برة رحيمة بالمساكين ذكية الفؤاد شديدة الحياء ولا أبعد إذا قلت ان والديه كانا من أسلم الناس فطرة وأحسنهم خلقاً . وكانت هذه الاخلاق فيهما موروثه ومكتسبة بالمعاشرة والتدوة لا بتعليم المدارس ولا بتأديب المعلمين . وهذا أصل عظيم في استمداد الرجل لما وصل اليه من الكمال الذي لم تر ولم نسمع بمثله وقد قال صلى الله عليه وسلم « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » رواه البخاري ومسلم ولذلك كان السيد جمال الدين يقول له : قل لي بالله أي آباء الملوك أنت : يشير الى أن ما كان عليه من الاخلاق العالية وشرف النفس كان وراثياً

الفصل الثاني

نشأته وتربيته وطلبه العلم

نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من سنه وقد كتب هو عن مبدأ تعلمه وتأديبه من مذكرات أعطانيها لأستخرج منها ترجمة مختصرة له - وكان قد طلبها ببعض الغرباء الفضلاء - مانصه : « تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاؤا من مكتب آخر ايقروا القرآن عند هذا الحافظ ظننا منهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني والدي الى طنطا حيث كان أخي لأمي الشيخ مجاهد رحمه الله لا جود القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرانه بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

« ثم في سنة احدى وثلاثين جلست في دروس العلم وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصف لا أفهم شيئاً لرداة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجثوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لانفهمها ولا عناية لهم بتفهم معانيها لمن لم يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر ثم عمر علي أخي فأخذني الى المسجد الاحمدي وأراد اكرامي على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت ان لا نجاح لي في طلب العلم ولم يبق علي الا أن أعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدال بتغليبي عليه فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا أعود الى طلب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

« فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الازهر وهو الأثر الذي يجده خمسة وتسعون في المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحة

من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم - سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم غير أن الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون نفهمهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن ييلفوا سن الرجال ، وهم في أحلام الأطفال ، ثم يبئلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه

« بعد أن تزوجت باربعين يوماً جاني والذي ضحوة نهار وأزمني بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر ووجدت فرساً أحضره فركبته وأصحبني والذي بأحد أقاربي وكان قوي البنية شديد البأس ليشيعني الى محطة (ايتاي البارود) التي أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا . كان اليوم شديد الحروالريح عاصفة ملتهبة سافياً ، تمحصب الوجه بشبه الرمضاء ، فلم أستطع الاستمرار في السير فقلت لصاحبي أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة ولا بد من التعرّيج على قرية أنتظر فيها أن يخف الحر ، فأبى عليّ ذلك فركبته وأجرهت الفرس هاربا من مشادته وقلت اني ذاهب الى (كنيسة اورين) - بلدة غالب سكانها من خوولة أبي - وقد فرح بي شبان القرية لانني كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . أدركني صاحبي وبقي معي الى مصر وأرادني على السفر فقلت له خذ الفرس وارجم وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لو الذي انني سافرت الى طنطا . فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوماً نحوحت فيها حالي ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتى ، ذلك ان أحد أخوال أبي واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ووصل في أسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاسنانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث وبجيد

حفظ القرآن وفهمه ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاح الارض وكسب الرزق بالزراعة

« وان هذا الشيخ جاءني صبيحة الليلة التي تبها في الكنيسة ويده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض مربيه بالاطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان أقرأ له فيها شيئاً لضعف بصره فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد لكن الشيخ تبسم ونجلى في ألطف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معاني ماقرأت بعبارة واضحة ثغالب اعراضي فتغلبه وتسبق الى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألح علي في قراءة شيء منه فقرأت وفسر ثم تركته الى اللعب وفعل في اليوم اثنائي كما فعل في الأول أما اليوم الثالث فقد بقيت اقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ماقرأت نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها فقال لي إنه في حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه ابقاء الكتاب معي فركه ومضيت أقرأه وكلما سررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت انظر وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى ينازعني الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سأله عمالم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل الى الفهم

« كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا

« لم يأت علي اليوم الخامس الا وقد صار أبيض شيء إلي ما كنت أحبه من لبس ولهو ، وفخفة وزهو ، وعاد أحب شيء إلي ما كنت أفضه من مطالعة وفهم وكرمت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب وبزهدوني

في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا احتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من لقاءهم جميعا كما يفر السليم من الأجر. في اليوم السابع سألت الشيخ ما هي طريقته معكم فقال طريقتنا الاسلام فقلت أوليس كل هؤلاء الناس مسلمين ؟ قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمور وما سمعتمهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم - متاع تلك الدعاوي الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الفرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنا في غمرة ساهين ، سأله ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال لاورد لنا سوى القرآن تقرأ بمد كل صلاة أربعة ارباع مع الفهم والتدبر : قلت أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا قال أقرأ معك ويكفيك ان تفهم الجملة و ببركتها يفيض الله عليك التفصيل واذا خلوت فاذا ذكر الله - على طريقة بينها - وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن نلم تمض على بضعة أيام الا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد ، واتسع لي ما كان ضيقا ، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني جميع المهموم ولم يبق لي الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدني الى ما وجهت اليه نفسي الا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى إطلاق التوحيد ، - هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي ان كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي رد لي ما كان غاب من غريزتي ، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي ،

« وفي اليوم الخامس عشر من بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني ان والدي ذهبت الى ططا تراني فملت ان سيقول لوالدي اتني لاأزال في الكنيسة فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في اليوم لانني لو كنت أقمت له ألف دليل على اتني وجدت في مهربي مطلبه ومطلبي لما اقتنع

ذهب إلى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق أن بعض المشايخ كانت مانت بنته فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على المزية وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجر ومية فأدركت كلا منهما في أوائل الكتاب الذي كان يدرس وجلس في الدرسين فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطلع معهم قبل الدرس ما سنتلقاه . وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطلع بين الطلبة وأقر لهم معاني شرح الزرقاني فأرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجازيب فلما رفعت رأسي إليه قال مامعناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء : فقلت له وأين الحلوى التي معك ؟ فقال سبحانه الله من جد وجد : ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهاماً مساقه الله إلي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا

وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت إلى الأزهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استغفر الله إذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة . وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب إلى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين - من منتصف شعبان إلى منتصف شوال - وكنت عند وصولي إلى البلد أجد خال والدي الشيخ درويشا قد سبقني إليه فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم إلى يوم سفري . وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ما درست الحساب ما درست شيئاً من مبادئ الهندسة : وهكذا كنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الأزهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان : فكنت إذا رجعت إلى القاهرة أتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطئ في الطلب وأخرى أصيب إلى أن جاء المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر وأواخر سنة ١٢٨٦

وقد صاحبه من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت ألتقي عنه بعض العلوم الرياضية والحكيمة (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس إلى التلقي عنه كذلك وأخذ

مشايخ الأزهر والجمهور من طابته يتقولون عليه وعلينا الاقاريل ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوي بالنفس في ضلالات تجرهما خيري الدنيا والآخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي: ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وان اعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بمقوت عند الله ولا شيء من الجهل محمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علماً وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلها الاضرار بالناس:»

هذا ما كتبه الفقيه عن مبدأ تربيته وتعليمه في ترجمته التي كتبها لي قبل اشتداد مرضه الاخير وكان حديثي بشيء من ذلك قبل ومنه أنه لم يكن يواظب على حضور دروس من لا يفهم أولاً يستفيد منهم وأنه ربما كان يحضر درس أحدم وفي يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس وان من شيوخه الذين فهم منهم واستفاد في أول تحصيله الشيخ محمد البيهوني وأنه بعد الحضور في الأزهر ثلاث سنين مل الدروس المعتادة كأنه أخذ حظه منها وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً وتميل الى العلوم العقلية ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح الى إعادة شيء منها. وكان الشيخ حسن الطويل ممتازاً في الأزهر بعلمه المنطق فحضره عليه ولم يكن يشفي ما في نفسه بل كانت تشوف دائماً الى علم غير موجود فكان يبحث في خزائن الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء وماظفر به القطب على الشمسية ناقصاً. وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئاً من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات أو شبه الحزر فيما بينهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها، وأقصى أمنيتهما،

وأخبرني الشيخ رحمه الله تعالى ان الذي أخبره بقدم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين في رواق الشوام قال انه جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو بقم في خان الخليلي فسر بذلك وأخبر الشيخ حسناً ودعاه الى زيارته معه فألقياه يتعشى فدعاهما الى

الأكل معه فاعتذرا فطمق يسألها عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب فقيدنا به عجباً وشغفه حباً لأن التصوف والتفسير هما قرّة عينه أود كما قال مفتاح سعادته . وأخبرني رحمه الله تعالى انه قرأ على السيد كتاب الزوراء للدواني في التصوف ، وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق ، والهداية والاشارات وحكمة العين وحكمة الاشراق من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدواني في التوحيد والتوضيح مع التلويح في الاصول ، والجفميين وتذكرة الطوس في الهيئة القديمة وكتابتا آخر في الهيئة الجديدة نسبت اسمه .

ثم ان السيد أرشده كغيره من تلامذته الى الانشاء وكتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية ومرنهم على الخطابة فبرع فقيدنا في ذلك حتى صار أبرع من أستاذه نفسه لان عبارة السيد رحمه الله تعالى كانت على متانتها وبلاغتها تصف من كدورة المعجزة الى صفاء الانسجام العربي الخالص كهبارة الشيخ ثم ان مجالس السيد في ناديه وسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة وقلما كان يفوت فقيدنا شيء منها اذ كان يلزمه ملازمة ظله وما يستفيد المرء بالمذاكرة في ساعة لا يستفيد بالدرس في ساعات لان المدرس يكلفك كل ما يلقى اليك سواء كنت تشمر بالحاجة اليه وتعتقد الاستفادة منه أم لا وسواء كنت مستعداً لفهمه أم لا ، وأما المذاكرة فهي مشاركة اختيارية في البحث والانسان لا يختار الا ما يرى نفسه محتاجة اليه ومستعدة لفهمه فمثل الدرس يلقي اليك كمثل من يكلفك أن تأكل مقداراً معيناً من الاطعمة التي قد تماقت بعضها ولا تستطيع تناولها الا بكلفة وغثاء فأنت لا تتغذى الا ببعضها والباقي اما أن يضر او ما أزل لا يضر ومثل المذاكرة كالطعام الذي تشتهي وتتناول منه ما يكفيك فيكون كله غداء نافعاً . وقد قل بعض علماء التربية من الافرنج انه قلما يفلح من يقيم في مدارس العلم زمناً طويلاً . ولقد كانت مجالس اساتذنا العقيد كمجالس استاذه (رحمه الله) تفيض علماً وحكمة وأدباً ولكن الفصل بينهما في هذا هو ان السيد كان يلقي الحكمة لكل أحد وأما الشيخ فكان يخاطب كل أحد أو كل فريق بما يرى انه مستعد له ومتوجه اليه وقد قال لي

رحمه الله تعالى ان السيد جمال الدين كان يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ومن خواصه انه يجذب مخاطبه الى ما يريد وان لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لانني توثرت في حالة المجلس والوقت فلا توجه نفسي للكلام الا اذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا ظاهرا وهكذا الكتابة: واننا في هذا المقام نورد ترجمته للسيد جمال الدين التي نشرها في أول ترجمة رسالة الرد على الدهر بين ونزید عليها قليلا قال

السيد جمال الدين الافغاني

بجملنا على ذكر شئ من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأينا من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباين صورته، في مخيلات الافغين لخبيره، حتى كأنه حقيقة كالية تجلت في كل ذهن بما يلائمه، أرقوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله، ورجل في صفاء حوهره، وزكاه نخبه، لم يصبه وهم الوهمين، ولم يمسه حزر الحراسين، واننا نذكر جملا من خبره، رويته عن كمال الخيرة، وطول العشرة:

هذا هو السيد جمال الدين ابن السيد صفر من بيت عظيم في بلاد الافغان ينسب الى السيد على الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة (كتر) من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام ولهذا المشيرة منزلة عليية في قلوب الافغانين يجلونها رعاية لحرمه نسبها الشريف وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقل بالحكم فيه وانما سلب الامارة من أيديها دوست محمد خان جد الامير الحالي (١) وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة كابل

وللسيد جمال الدين في قرية (اسعدآباد) من قرى كتر سنة ١٢٥٤ هجرية وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل وفي السنة الثامنة من عمره اجلس لتعلم وعني والده بتربيته فأيد العناية به قوة في فطرته، وواشراق في قريحته، وذكاه في مداركته، فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دونها أبانها. تلقى علوما جمة برع في جميعها

(١) يعني به المرحوم الامير عبد الرحمن لان الترجمة كتبت وهو حي

فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وثار يخ عام وخاص ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهديبية وحكمة نظرية طبيعية وأهلية ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك ومنها نظريات الطب والتشريح . أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى مافي الكتب الاسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فاقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة وأتى بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الامم التي مر بها في سياحته واكتته أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد أداء الفريضة الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان ولما زحف الامير الى هرات ليفتحها وبالمكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى أن توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا . وتقلدا لامارة ولي عهدا شير علي خان سنة ١٢٨٠ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على اخوته خصوصا من هو أكبر سنا منه ويعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة والبوم للفساد طلبا للاستبداد بالامارة

وكان في جيش هرات من اخوة الامير ثلاثة محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد أعظم فلما أحسوا ابتدير الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار ونفروا الى الولايات كل منهم ذهب الى ولايته التي كان يلبها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجاللات عنيفة عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه عبدالرحمن (الامير السابق) وتقلبا على عاصمة المملكة وأخذوا محمد أفضل والد عبدالرحمن من سجن قرنة وسمياه أميرا على أفغانستان ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد أعظم خان

وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه في العظام وما دونها (على خلاف ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق. وعدم التعويل على رجال حكومتهم) وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير بالاغلب من ذوي قرابته حمله على تفويض مهمات من الاعمال الى أبنائه الاحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش أحدهم وكان حاكما في قندهار على منزلة عمه شير علي في هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته فلما تلاقي مع جيش عمه دفعته الجراة على الانفراد عن جيشه في مثنى جندي واخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما التفت به مقرب خان قائد شير علي فوجد ذلك الفر المتهور منقطعاً عن جيشه ففكر عليه وأخذه أسيراً فقتلت جند قندهار وقوي الامل عند شير علي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي وبدلوا لها قناطير من الذهب ففرقتها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات وبعده حروب هائلة تغلب شير علي وأهزم محمد أعظم وابن أخيه عبدالرحمن فذهب عبدالرحمن الى بخارى (وعاد الى بلاده رحمه الله) وذهب محمد أعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر في مدينة نيسابور وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسه الامير بسوء احتراماً لمشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للقدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه باطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد ايران كيلا يلتقي فيها بمحمد أعظم وكان لم يمته فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر فلما وصل الى الترخوم الهندية تلقته حكومة الهند بمقاوة في اجلال الا انها لم تسمح له بطول الاقامة في بلادها ولم تأذن للعلماء في الاجتماع عليه الاعلى عين من رجالها فلم يقيم أكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند في أحد مرأ كباها على نفقتها الى السويس فجاء الى مصر وأقام بها نحو

أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين
ومالوا إليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه في بيته
ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاسنانة

وصل الاسنانة وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقة الصدر الاعظم عالي
باشا ووزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله
وهو مع ذلك بزبه الافغاني قباة وكساء وعمامة عجراة وحومت عليه لفضله قلوب
الامراء والوزراء وعلاذ كره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه وهو غريب
عن ازيائهم ولقنهم وعاداتهم وبعد ستة أشهر سمي عضواً في مجلس المعارف
فأدى حق الاستقامة في آرائه وأشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافق على الذهاب
إليها رفاقاً . ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الاوقات
حسن فهمي أفندي لانها كانت تُمس شيئاً من رزقه فأرصد له العنت حتى كان
رمضان سنة ١٢٨٧ فرغب اليه مدير دارالفنون نحسين أفندي ان يلقى فيها خطاباً
لحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فألح عليه نحسين أفندي
فأثنأ خطاباً طويلاً كتبه قبل القائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا .
وعلى شرواني زاده وكان مشير الضابطية وعلى دولومنييف باشا ناظر المعارف وكان
عضواً في مجلس المعارف واستحسنه كل منهم وأطرب في مدحته

فلما كان اليوم المعين لاسماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل
له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأر باب الجرئد وحضر في الجمع
معظم الوزراء وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعده وأرسل
حسن فهمي أفندي أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة لتمثيل به
وما كان بمجدها لوطاب حقاً ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة لانسانية بيدن حي
وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه
العضو في البدن فشبه الملك مثلاً بالمنح الذي هو مركز التدبير والارادة . والحداثة
بالمضد والزراعة بالكبد والملاحة بالرجلين ومضى في سائر الصناعات ولاعضاء
حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف ثم قال هذا ما ينألف منه جسم المادة الانسانية

ولاحياة الجسم الابروح وروح هذا الجسم أما النبوة واما الحكمة ولكن يفرق بينهما بان النبوة منحة الهية لانها لا تألها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالته . أما الحكمة فما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات وبأن النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه . وان أحكام النبوات آتية على ما في علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فلاخذ بها من فروض الايمان اما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها الا من باب ما هو الاولى والا فضل على شريطة أن لا يخالف الشرع الالهي .

هذا ما ذكره متعلقا بالنبوة وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية الا ان حسن فهمي أفندي أقوم من الحق باطلا ليصيب غرضه من الانتقام فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم ان النبوة صنعة واحتج لتثبوت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتماق بالصناء (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) ثم أوعز الى الوعظ في المساجد أن يذكر ذلك مخفوا بالتنديد والتنديد فاهم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته ممارمي به ورأى ان ذلك لا يكون الا بعدا كما شيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك واشتد في طلب المحاكمة وأخذت منه الحدة مبلغها وأكثرت الجرائد من القول في المسألة فمنها نصراء للشيخ جمال الدين ومنها أعوان لشيخ الاسلام فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون وبغض على الكريهة وطول الزمان يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها فلم يقبل واجب في طلب المحاصمة فمظم الامر وآل الى صدور أمر الصدارة اليه بالجللاء عن الاستانة بضمة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء فقارق الاستانة مظلوما في حقه ، مغلوبا لحذته ، وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها في أول المحرم سنة ١٢٨٨ هذا مجمل أمره في الاستانة وما ذكره سليم الغنجوري في شرح شعره المسمى سحر هاروت مما يخالف ذلك خلعت من الباطل لاشابة للحق فيه

مال السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستأنته مساعيه الى المقام وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصري كل شهر نزلا

أكرمه به لافي مقابلة عمل واهتدى اليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم واستوروا
 زنده فاوردى، واستفاضوا بحره ففاض دراهم وحلوه على ندريس الكتب فقرأ من الكتب
 العالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية الطبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية
 وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ الى
 آخر ما اختتم ولم يذهب الى الازهر مدرسا ولا يوما واحدا نعم كان يذهب اليه
 زائرا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائده الاخذ عنه وأعجبوا
 بدينه وأدبه وانطلقت اللسان بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية ثم وجه
 عنايته لحل عقل الاوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك أبواب واستضاءت بصائر
 وحل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمة والدينية فاشتهروا
 على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان أرباب القلم في الديار
 المصرية القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل وما
 كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومحمد باشا سيد أحمد على
 ضعف فيه ومصطفى باشا وهبي على اختصاص فيه ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون
 في المراسلات الخاصة وإمامصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية وماشا كلها
 ومن عشر سنوات ترى كتبة في القطر المصري لا يشق غبارهم ولا يوطأ
 مضارم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه
 أو عن أحد تلامذته أو قلد المنصلين به ومنكر ذلك .ككابر ولحق مدابر . هذا
 ما حسده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفاسقية
 أخذوا بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها على أن القائلين بهذا القول لم
 يطلقوه بل قيدوه بضمفاء العقول قصارا النظر خشية على عقائدهم من الزيف أما الثابتون
 في إيمانهم فلهم النظر في علوم الأولين والآخريين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين
 فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم. ولنا في أئمة الملة الاسلامية
 ألف حجة تقوم على ما نقول ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب
 الفلاسفة الى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم ليدهم اخلاط من الناس

من مذاهب مختلفة كانوا يطارقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون، غير ان هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، الى أن تولى خديوية مصر حضرة خديوها المغفور له توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناشرين لمحامده، إلا ان بعض المفسدين ومنهم (مسترفيفيان) فنصل انكترا الجنرال سعى في هلاكيه الجناب الخديوي ونقل المفسد عنه، ما الله يعلم انه بريء منه، حتى غير قلب الخديوي عليه فأصدر أمره بأخراجه من القطر المصري هو وتابعة ابوتراب فقارق مصر الى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ وأقام بمحيدرا آباد الدكن وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين . ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر دعي من حيدر آباد الى كلكته وأزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزية ثم أبيع له الذهاب إلى اي بلد فاختر الذهاب الى أوروبا واول مدينة أصعد إليها مدينة لوندرة اقام بها اياما قلائل ثم انتقل عنها الى باريز واقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه في أثنائها . ولما كانت جمعية العروة الوثقى^(١) ان ينشئ جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية ايدها الله سألني ان أقوم على تحريرها فأجبت، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً ما لم يأخذهم قبلها وعظ واعظ ولا تقبىه منبه، وذلك لخلوص النية في تحريرها، وصحة المقصد في تحريرها، ثم قامت للوائح دون الاستمرار في اصدارها حيث اقفلت ابواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الانكليزية في اعزازات من تصل اليهم فيه، ثم بقي بعد ذلك مقياً باوروبا أشهر آني باريز وأخرى في لندرة إلى أوائل شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ وفيه رجع إلى البلاد الايرانية أما مذهب الرجل فخيني حنفي وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم، وله مشاركة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه وعرف بذلك بين معاصريه في مصر أيام اقامته بها، ولا يأتي من الاعمال إلا ما يحل في مذهب امامه، فهو أشد من رأيتي في

(١) هي جمعية سياسية كان لها فروع في الاقطار الاسلامية

المحافظة على أصول مذهبه وفروعه

اما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد يكاد يلهث بغيره على الدين وأهله
 اما مقصده السياسي الذي قد وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعي اليه
 مدة حياته، وكل ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله، فهو انتهاض دولة اسلامية من
 ضعفها، وتنبيها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الامة بالامم العزيزة، والدولة بالدول
 القوية، فيعود للاسلام شأنه، والدين الحنيفي مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة
 بريطانيا في الاقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية، وله
 في عداوة الانكليز شؤون يطول بيانها

اما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلبي إلا بنوع من الاشارة
 اليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وبراها في صورها اللاتقة بها
 كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش
 فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقي اليه ، يدخل للبحث فيه كأنه صنع
 يديه ، فيأتي على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر
 المستور منه ، واذ اتكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم لفي باب الشعرية
 قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والابداع ، وله لسن في الجدل وحذق
 في صناعة الحججة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا عرفه ، وكفاك شاهداً
 على ذلك انه ما خصم أحداً إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا أزمه ، وقد اعترف له الاوربيون
 بذلك بعدما أقر له الشرقيون . وبالجملة فاني لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة
 العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ . ذلك فضل
 الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

اما اخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته ، وله حلم عظيم يسع ماشاء الله ان
 يسع ، إلا ان يدنو منه أحد ليمس شرفه او دينه ، فينقلب الحلم إلى غضب ، تنقض
 منه الشهب ، فينما هو حليم أو اب ، اذا هو أسد و ثاب ، وهو كريم يبذل ما بيده ، قوي
 الاعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر ، عظيم الامانة ، سهل لمن لاينه . صعب
 على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسي الذي قدمناه ، اذا لاحت له بارقة منه ،

تعجل السير للوصول اليه ، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد من الغرور بزخارفها ، ولوع بمعظّم الامور ، عزوف عن صفارها ، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا انه حديد الزاج وكثيراً ما هدمت الحدة مارفته العظنة ، الا انه صار اليوم في رسوخ الاطواد ، وثبات الافناد ، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يعيد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كمله والكمال لله وحده

اما خلقه فهو يمثل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الاولين من سكنة الحجاز حماه الله . ربة في طوله ، وسطي في بنيته . قمحي في لونه ، عصبي دموي في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عزيز الجبهة في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الاحداق ، ضخم الوجنت ، رحب الصدر ، جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ، ما ينطبق على كمال خلقه بقي علينا ان نذكر له وصفاً لو سكتنا عنه سئلنا عن اغفاله وهو انه كان في مصر يتوسع في اتيان بعض المباحات كالجلوس في المنزهات العامة والاماكن المدة لراحة المسافرين ، وتفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة وكال الوقار . وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيداً من اللغو ، منزهاً عن اللهو ، وكان يوافيه فيها كثير من الامراء وأرباب المقامات المالية وأهل العلم . وهذا الوصف بما عده عليه بعض حاسديه ، لكن الله يجب ان تؤتى رخصه ، كما يجب ان تؤتى عزائم ، وأي غضاضة على المرء المؤمن في ان يفرج بعض هم بما اباح الله . هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني آتينا به دفعاً لما افتراه عليه الجاهلون ولو سلكننا في تاريخه مسلك التفصيل ، لادى بنا الى التطويل . اه



(يقول المؤلف) وكتب الاستاذ الامام في كتاب أسباب الحوادث العربية نبذة أثبت فيها أن هذا السيد كان ، مبدأ النهضة الاجتماعية السياسية بمصر ، وذلك قوله بعد بيان ما كانت عليه مصر في زمن الخديو اسماعيل باشا ما يأتي بنصه : « هذه كانت شذائد مهاكمة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتمتع فيها

العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ضياء لو كمل ظهوره ، وانتشر نوره ،
لاهدى به الضال ، وحسن به الحال

«ذلك ان أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة
ملكاً لحاكمهم الاعلى ومن يستنيه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته ،
ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ، او خيائته ومظلمه ،
ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له ان يبديه في ادارة بلاده ، او إرادة يتقدم
بها الى عمل من الاعمال يرى فيه صلاحاً لامته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم
وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصر فون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه
عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الامم الاخرى سواء كانت اسلامية
أو أوربية . ومع كثرة من ذهب منهم الى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا
الكبير الى ذلك التاريخ الذي ذكرناه وذهب العدد الكثير منهم الى ماجاورهم
من البلاد الاسلامية أيام محمد علي باشا الكبير و ابراهيم باشا لم يشعر الاهالي بشيء
من ثمرات تلك الاسفار ولا فوائد تلك المعارف التي اكتسبت بها ، ومع ان اسماعيل
باشا أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقه ان يعلم الاهالي
ان لهم شأنًا في مصالح بلادهم وان لهم رأياً يرجع اليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا
من أعضاء المجلس أنفسهم بان له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة
الشوروية لان مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل . أما في النظام فلانه قد
نص فيه على ان نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه وما يعن لها
أن ترسله اليه للمداولة فيه ، واما في العمل فلانه كان يرسل من قبله عند المداولة
من يخبر الاعضاء بارادة جنابه فيقررون ما يريد بعد مداولة شوروية ، فكانوا يشعرون
بان الارادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في آرائهم .

هل كان يمكن لاحد ان يعمل على خلاف ما يامر به؟ هل كان يمكن لشخص ان
يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له ، او الوجهة التي يتوجه اليها الحاكم؟ لو حدثه
الفكر السليم بان هناك وجهة خيراً من تلك هل كان يمكنه ان ينطق بما حدثه به فكره؟
كلا فانه كان بجانب كل لفظ نفي عن الوطن او إزهاق الروح أو تجريد من المال،

وبينا الناس على هذا لا كاتب ينبهم ، ولا خاطب يعظم ، اذ عرض امر
 قلائمت اليه ، أو تحوم الافكار حواليه ، وان كان مما يعرض في كل مكان ،
 وجرت به السنة الالهية في كل زمان
 ﴿ مبدأ النهضة المعنوية بمصر ﴾

« جرت سنة الله في خلقه بأن عظام الامور تتولد من صغارها ، كان ضخام
 الاشجار تسبق من بزورها ، جاء الى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ رجل غريب ، بصير
 في الدين ، عارف بأحوال الامم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جريء القلب ، وهو
 المعروف بالسيد جمال الدين الافغاني ، وركن الى الاقامة في مصر فتعرف اليه
 في بادىء الامر بعض طلبة العلم ، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان ، ثم
 انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من افكار وعقائد ، فكان ذلك داعياً لطلب
 الاجتماع به لتعرف ما عنده . ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان
 يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم ، وهو
 في جميع اوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يظهر العقيدة ،
 أو يذهب بالنفس الى معالي الامور ، أو يستلقت الفكر الى النظر في الشؤون العامة
 مما يمس مصلحة البلاد وسكانها . وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك
 المعارف الى بلادهم ايام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى احيائهم ، فاستيقظت
 مشاعر ، وانتهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في اطراف متعددة من البلاد
 خصوصاً في القاهرة — كل ذلك والحاكم القوي في علومكانه ، ارفع من ان يناله
 هذا الشعاع في ضعف شأنه ، ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء ، وينتشر في
 الإنحاء على غير نظام الى ان نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة روسيا في سنة ١٢٩٣
 » وجد الناس من أنفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية
 صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسية فتطاعوا الى ما يرد من اخبار الحرب .
 وكثرت الاجانب في هذه البلاد سهات وروود الجرائد الاوردية الى طلابها
 من الاوربيين ، ومخاطبتهم للعامة والخاصة هدت الطريق الى العلم بما فيها ، فزادت شوق
 الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد

العربية التي كانت لا تزال الى هذا العهد قاصرة على مالا يهيم، فانطلقت في ايراد الحوادث ونشرها، وظهر فيها الميل الى اطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية، وازدراء ما كان ينسب الى الجنود العثمانية، فوجد في الناس الناغم على تلك الجرائد والناصر لها، وحدث بين الامامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها في نشر الاخبار، ومناوأتها في المشرب، واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لا يمكن منعه، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة

« لم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الامم في سيرتهم السياسية والمعاشية، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الاحوال المالية، وكثير المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد، وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الاقلام على التحرير وانشاء الفصول الادبية والعلمية في مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتهما عن اصلاح الافكار، وتهذيب الاخلاق، فتسابقت الى ذلك الكتاب وتبارت الاقلام، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه في عالم خيال، أو أرض غير ارض الجبال، ومن يطلع على اعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق والاهرام وصددها يرى حقيقة ما ذكرنا » اهـ ما اردنا نقله من كتاب اسباب الحوادث العراقية وهو على ايجازه صريح في ان السيد جمال الدين كان هو مبدأ هذه النهضة الفكرية في مصر. وكان بعد ذلك يغذيها يارشاده وجرائد تلاميذه حتى صار له حزب سياسي عظيم من ذلك الحزب الادبي الذي لم يكن يخمار على البال

واننا ندعم ما كتبه الاستاذ الامام على قوته وورسوخه بما كتبه أديب بك اسحاق الكاتب المشهور وكان من تلاميذ السيد جمال الدين وافراد حزبه في زمنه قال أديب:



جمال الدين

«هو الحكيم الخطيب البالغ المحجة، النبيه المتوقد الذكاء، الجري، الذي لا يعرف الخوف، النسب السيد جمال الدين الحسيني الافغاني، ولد بكابل في بيت شرف وعلم وعمره الآن نحو ٤٥ عاماً وطلب العلم بالفارسية والعربية على ماجرت به عادة الامراء والعلماء في بلاده فتبحر في المنقول والمعقول، وغابت عليه مذاهب قدماء الحكماء، فدخل في ذلك بداءة بدء شيء، من التصوف فانقطع حيناً بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيقة، حتى صار له في القوم كثير من الأتباع والريدين، كل ذلك وهو دون العشرين سنًا. ثم خرج من خلوته مستقر الرأي على حكم العقل وأصول الفلسفة القياسية، ومات عامئذ أمير الافغان عن ولدين وهما شيرعلي خان ومحمد أعظم خان فاقنتلا على الولاية فانتصر جمال الدين للثاني

فقره وجمله من رؤساء جنده فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جراءة واستخفافاً بالموت، وأقام على ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان، حتى دارت الدائرة على محمد اعظم خان، فانصرف الاولياء عنه إلا جمال الدين ونفر غيره من الامناء فسار بهم الى الهند فلم يلبثوا أن أوجست حكومة الانجائز خيفة من صاحب الترجمة فعاد إلى أفغانستان ثم هاجر الى الحجاز على قصد المجاورة فلم يلائمه ثم الهوا، فقصداً لاستانة وأقام بها مجهول المكان، حتى اهتدى اليه بعض أكابر الوزراء فعرف قدره وفضله، فجعله من اعضاء مجلس المعارف العالي، ثم اقترح احد الامراء عليه ان يخطب في دار الفنون فأجاب وكانت خطبته في الصناعات فأنكر مشايخ العلم اشياء منها واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيراً على صاحب الترجمة لواقعة حال جرت له في مجلسه، فالتمس من الدولة إبعاده فارسلته الى الحجاز فاقام فيه مضعراً، وكان قد عرف رياض باشا احد وزراء مصر واتصل منه باسباب مودة فقصده وادي النيل عام ١٨٧١ فاجرت له الحكومة الخديوية رزقا كافياً على ان يكون من المدرسين، فجرت بينه وبين بعض علماء الازهر مناظرة، أفضت الى المنافرة، فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطالبة بل من المدرسين ثم صارت ماتيقي للنهباء من رجال الحكومة والوجهاء فكان يكشف بعضهم بأرائه الحرة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل، على انه بقي مجهول الشأن عند العامة، حتى ظهرت آثاره وآثار مردييه في جريدة مصر، فآظرت شأنه، وصارت تنشر له بعض المقالات تارة باسمه ومرة تحت حجاب اسم مصنوع مثل (مظهر بن وضاح) فطار صيته، وعظم نفوذه

وكان السيد جمال الدين كثير التطلع إلى السياسة، شديد الميل إلى الحرية، قوى الرغبة في إنقاذ المصريين من الذل، فلما عظم التداخل الاجنبي في مصر واختلت أمورها المالية، علم أنه لا بد من تغير أحوالها فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع السكامة على مبدأ الحرية فدخل المساوئية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء ثم أسس محملاً وطنياً تابعا للشرق الفرنسي ودعا مردييه من العلماء والوجهاء اليه

فصل أعضاؤه نحو من ثلاثمائة عدا وعظم اقبال الناس عليه حتى ان توفيق باشا
 ولي العهد حينئذ طلب الدخول فيه وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة
 الانكليز جهر بذلك غير مرة ونشر في جريدة مصر فصولا ناطقة به خصوصا
 بعد اعتداء الانكليز على ابناؤه فهاجوا عليها وترجمتها جرائد لوندرة واهتموا
 بها كثيرا حتى ان المستر غلادستون تولى بنفسه أمر الجدل في موضوعها فلما عظم
 شأن محفله داخل الخوف منه فنصل انكثره فوشى به الى الحكومة وبث الرقباء
 في المحفل فسموا فيه فسادا

وفي خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك والاختلال فظهر للسيد
 جمال الدين ان الخديوي اسماعيل مخلوع لاجل حاله فكشف الفطاء عن مقاصده
 السياسية وأخذ يسعى في انفاذ أغراضه فلقى المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا
 وصكائب التيمس وكلهما بلسان حزب كبير فمال أمره بعض أمراء المصريين
 قويت بذلك حجته وشأنه ونفذت سعيه فأسر الخديوي الجديد بغيه
 لواصل شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر سبتمبر سنة ١٨٧٩ فأخذ غلساً وقبض
 على من كان في حلقة وأرسل هو وخادمه الأمين (أبو تراب) مخفورين الى
 السويس ومنها الى أبو شهر (فرضة في المعجم) وهو الآن بميدرا باد مرفوع المكان
 على المقام وبقيت كتبه وأوراقه في مصر وقيل ان روجرس بك أخذها ثم
 أعيدت لمصاحبها

(قال أديب) عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مرديبه ومحبيه طول مدة
 الاقامة بالمهروسة والاسكندرية فكلامي في ترجمة حاله عن علم واختيار على اني ملتزم
 فيه جانب الصديق برى من الهوى يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين
 واقفه على ما أقول وكيل والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ربمة ممتلي قوى البنية
 جذاب النظر نافذ المحظ خفيف المارضين مسترسل الشعر بحجة وسراويلات سوداء
 تنطبق على الكاحلين وعمامة صفيرة يبضاء على زبي علماء الاستانة وأنه عزب
 عنيف النفس قانت كثير القيام لا ينام الا الفللس الى الضحى ولا يأكل غير مرة

(٦ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

واحدة في اليوم على أنه يكثر من شرب الشاي والتدخين قوي المعارضة ميال الى
المعارضة طويل الحجمة واسع المفظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر، ويهتك استار
السرائر، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج

ومن عجائب ذكائه انه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على
الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً في أقل من ثلاثة شهور بلا استاذ الا
من علمه حروف هجائها يومين

ومن غرائب فضله انه كان يتبع حركة المعارف الاوربية والمستكشفات
المصرية ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديداً حتى كأنه قرأ العلم في بعض
مدارس أورباً بالعالية

ومن مدهشات أحواله الدالة على ثبات جأشه وعفة نفسه انه قبض عليه لما
لانعلم من الشر، فكان سائراً الى الخطر، ببر الشجاع الى الظفر، وانه أنزل الى البحر
في السويس منفياً خالي الجيب فأناه فيما يقال السيد النقادي قنصل ايران بذلك
انثغر ومعه نفر من تجار المعجم وقدموا له مقداراً من المال على سبيل الهدية أو القرض
الحسن فردده وقال لهم «احفظوا المال فأنتم اليه أحوج ان الليث لا يعدم فرسة حينما
ذهب» اه من كتاب الدرر



ترجمة سليم بك العنحوري للسيد جمال الدين

قال في شرح ديوان (سحر هاروت) في تفسير قوله :

ترنو اليّ بمقله غضبي اذا بصرت بطود سال كالوديان

فكأنني بيكونسفيد زمانه وكأنها من بنضها الافغاني

ما يأتي بعد ترجمة وجيزة لورد بيكونسفيد الوزير الانكليزي الشهير :

« وأما الافغاني فهو السيد جمال الدين العالم الفيلسوف الشهير . نبغ في بلاد
الافغان فنعلم فيها اللغة الفارسية والعلوم الدينية والناطق وشيئاً من علم الاخلاق
وكان ممن انتظموا في سلك الهندية فلما قام الخلاف عام ١٨٦٣ على امارة الافغان

من شير علي خان واخوته وأولاد اخوته انماز جمال الدين الى أفضل خان
 (أوالى محمد أكبر خان) «٥٥» وعدت من مشاهير أنصاره بيدان الانكليز أخذوا
 أخيراً بناصر شير علي واعترفوا له بمعاودة عدت في أوائل سنة ١٨٧١ بانه ولي
 البلاد الشرعي فاحقق سمي جمال الدين وفرمت الى الهند وهناك أخذ عن
 علماء البراهمة والاسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ وتبحر في لغة (السانسكريت)
 فتم لغات الشرق وبرز في علم الأديان حتى أفضي به ذلك الى الاتحاد والقول
 بقدمية العالم زاعماً ان الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكوّنة بترق وتحوير
 طبيعيين مانراه من الاجرام التي تشغل الفلك وتبجاذبها الجو وان القول بوجود
 محرك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقى الانسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه
 في المعنويات بمعنى انه عند ما كان همجياً صرفاً وماذجاً بحتاً كان يعبد خناس
 للموجودات من مثل الخشب والحجر ولما ترقى في معراجي المدنية والسم رقى بالنسبة
 عنها معبوداته فصار يحترم النار فالسحاب فالافلاك فاجرامها وما يروح يتدرج
 بمرقي الخبرة ويستضيء بمشكاة العلم وهو أخذ في سير طبيعي برفع مكانة معبوده
 ويرقيه في مراتب السموات حتى قال هو منزه عن الكيف والكم معصوم من البداية
 والنهاية . بعيد عن الحصر والاحاطة . مالى الكس وفي الكس يرى الكس ولا
 يراه أحد غير ان مدارك الانسان ترقى بعد ذلك الى حد أوصلها الى العلم بأن
 كل هذا ضروب أوهام ، وأضغاث أحلام ، نشأت في الاصل عن خوف الانسان
 من الموت وميله الى الخلود ، ذلك ماجمله يدي في الهواء صروحاً من الاماني وابراجاً
 من التعلات مما رسخ في تخيلته الى حد كاد يكون اعتقاداً فعلق يقول انه سينحول
 بعد هذا الموت الى حياة خالدة ونعيم مقيم وان الخشب أو الحجر هو الذي ينتهي
 به الى هذا المقام الاسمى اذا أداه احتراماً ، وأوسعه اكراماً ، فانبعث في عبادة
 تخلصاً من مسارة التفكير بيمات لانتعبه حياة . ثم عن له ان النار أكثر اتقاداً ،
 وأجل نفماً واضراراً ، فقال عنه الپها ، ثم رأى ان السحاب خير من النار وأقدر
 فانضوى اليه ، وعول عليه ، وما برحت تزداد حلقات تلك السلسلة المصوغة باداني

« الصواب انه تجيز لحمد أعظم خان كما تقدم

وهم وميل مراقبين لفريزة الانسان وفطرته حتى انتهى الى تلك الرتبة المتناهية علواً فصار من موجبات نواميس الاشياء رد الفعل المؤدي الى الجزم بان كل ذلك خزيبات منشؤها الأمانى لاحقيقة لها ولا رسم

وليس اعتقاد المرء ما خط كفه كما ان حايي الكفر ليس بكافر (عود على بدء) وبعد ان أقام في الهند ردحاً جاء فروق عاصمة الدولة العلية فأنهل بصدرها (أمين عالي باشا) وحظي لديه وما لبث هناك ان أفتن أئمة التركية ولما رغب اليه الصدر ان يخطب في دار الشورى ارتجل خطبة في الصناعات غالى فيها الى حد ان ادجج الثبوة في عداد الصناعات المعنوية فشغب عليه طلبة العلم وشددت صحيفة الوقت عليه النكير بما الجأ الصدر الى ابعاده فقصده مكة وجاور هناك عاماً وبعث عام أخذ في خلالها مبادئ اللسان العربي (كذا) ثم جاء مصر وكان قد سبق فمرف في الاستانة رياضها المشهور (وزير المعارف أو انشد) فاكرم مشواً اجلالاً له ولله وانزله حجرة في الجامع الازهر (كذا) وعين له راتباً رايياً مع وظيفة التدريس بعد ان محضه النصح بان يلزم خطة الشرع الأنور والدين الخفيف فلبث في الجامع حيناً من الدهر يفي فروض الصلاة ويواصل الانفال والاوراد ويواظب على قشف الصوم مستمسكاً بشمائل أهل السنة وكان قد آانس من بعض الطلبة فكراً نيراً وذهناً وقادراً فجعل معولم عليه ، ومصدرهم عنه وموردتهم اليه ، ثم لاح له ان يغادر الازهر فاتخذ له في حارة اليهود بيتاً مالبث ان صار متقدماً العلماء والادباء ، ومحط رجال الطلبة الاذكياء ، وكان من ديدنه ان يقطع يياض نهاره في داره حتى اذا جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه الى ملهى قرب الازبكية يدعى (قهوة البوسطة) وجلس في صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ينتظم في سمعها القنوي والشاعر والمنطقي والطبيب والكيمائي والتاريخي والجغرافي والمهندس والطبيعي فيتسابقون الى إلقاء ادق المسائل عليه ، وبسط اعوص الاحاجي لديه ، فيحل عقد اشكالها فرداً فرداً ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحداً بلسان عربي مبين لا يهتم ولا يتردد بل يتدفق كالسبل من قريحة لا تعرف الكلال فيدهش السامعين ،

ويضم السائلين ، وبكم المترضين ، ولا يبرح هذا الشأن شأنه حتى يشتعل رأس الليل شديداً وترعى غزالة الصبح نرجس الظلم فيقفل الى داره بعد أن ينقد صاحب المهني كلما يترتب له في ذمة الداخلين في عداد ذلك المجمع الايتق .

وبعد ان ذهب المنشئ الكاتب أديب اسحق الى الاسكندرية قصد تمثيل الروايات تحت رئاسة الفاضل المغفور له سليم نقاش منحت عوارض قضت بالناء التمثيل فأصبح أديب خالي الوفاض ، بادي الانفاض ، فبعث به المرحوم حنين الخوري الي القاهرة مصحوباً بكتاب وصاة الى جمال الدين فأحسن هذا تقياه لما توسه فيه من امارات الذكاء ومخايل النجابة ولزمه تمت ملازمة اللام للألف ، وأقبل عليه إقبال الهائم الماني الكلف ، فحصل له امتياز صحيفة اسمها (مصر) واتخذ له دكاناً يباب الشعرية هياً له فيها من أدوات الطبع بالحرف البولاقي المشهور ما قوي معه على اصدار تلك الصحيفة فكانت ترد مودعة فصولاً وأمالى منسوجة يبراع جمال الدين ومنشورة باسم المزهري بن وضاح أصارت لتلك الصحيفة شأناً مذكوراً ثم رأى ان ثغر الاسكندرية أقرب لاصطياد الاخبار فوفق بين أديب وسليم وأوعز اليهما بنقل الادارة اليها بعد ان مكنتهما من نوال امتياز آخر لصحيفة يومية دعياها (التجارة) ثم أوما الى كاتبه الشيخ محمد عبده و ابراهيم اللقاني ان يخرجا تينك الصحيفتين قلماً وسعياً ما استطاعا الى ذلك سبيلاً وجعل باصلهما بشذرات من قلمه البديع ، وخطرات من فكره المزري بلا لآء الرقيع ، حتى كان سبب شهرتهما كما كانا بتعظيمهما له في النعوت والالاقاب من مثل (مهبط اسرار الحكمة وأسطرلاب ذلك العلوم واسطقتس هيولى الفلسفة) الى غير ذلك مما اعتادا ان يصفاه به سبب ثناء شهرته وانتشار صيته وله في صحيفة مصر مقالاتان احدهما في الحكومات الشرقية وأنواعها والثانية سماها (روح البيان في الانكليز والافغان) ترنحت لها اعطاف أولي العلم طرباً ، ومالت اليها اعناق الحكام السياسيين عجباً ، حتى ان (غلادستون) زعيم الحرية في انكلترا اثبت في بعض الصحف رسالة تشهد له انه من اعلام الشرق واعيان العلماء ، حالة كون الانكليز من أعدائه الالقاء ، ولما شخص المؤلف الى القاهرة

عام ١٨٧٨ تعرف به وانتفع بصحبته ولازمه حيناً من الدهر في أوقات اجتماعه وخطوته وكان من ساعده على الوصول الى الخديو (اسمعيل) والتمكن منه وشوقه الى الاندماج في سلك الاخباريين فنال امتياز صحيفة دعاها (مرآة الشرق) ومطبعة سماها (الاتحاد) وكان قد أمر زعيم تلامذته الشيخ محمد عبده ان يقرظ كتابه (كنز الناظم) فوصفه برسالة ضافية القليل نسج أكثرها بقلم جمال الدين ونشرت في العدد ١٢٦ من صحيفة الاهرام فانه كان من خلقه الاخذ بناصر كل منتم الى العلم وشد أزر كل ذي ميل للادب ومع انه كان كثير الانفة شديد الوطأة على الحكام يعاملهم بالعجب والحيلاء، ويرنو اليهم بين المقت والازدراء، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لاولياء العلم وانصاره. مما كانوا خاملين قاصرين يبدل لهم الانس والدعة ويخفف جانب الرقة والدمائة ويؤاسي محتاجهم ومحتاجهم بكلمة يقدر عليه، وتصل يده اليه،

وفي خلال عام ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً في البلاد ومما مقامه لانه تداخل في السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية من مثل محمود باشا البارودي (الذي نفي أخيراً مع عرابي الى جزيرة سيلان) وعبد السلام بك المويلحي النائب المصري في دار الندوة وأخيه ابراهيم كاتب الضابطة وكثير سواد الذين يمدحون أفكاره، ويعلمون بين الناس مناره، من أرباب الاقلام من مثل الشيخ محمد عبده و ابراهيم الاقاني وعلي بك مظهر والشاعر الزرقاني وأبي الوفاء القوني في مصر، وسليم نقاش وأديب اسحق وعبد الله نديم في الاسكندرية . فتغيرت ثم لهجته في أحاديثه وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم اثناء مكالماته مامناه: انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، وريتم بحجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتمنون لو طأة الفزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الحسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون؛ وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جياهمك بالقرعة والسوط وأنتم في غفلة معرضون، فلو كان في عروقكم

بجم فيه كريات حيوة وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ولما صبرتم على هذه الضمة والخمول ولما قعدتم على الرضاة وأنتم ضاحكون تناو بتمكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب (والا كراد والماليك ثم الفرنسيس والماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع حديد ويهبط عظامكم باداة عسفة، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت انظروا اهرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيوة وحصون جعياط شاهدة بمننة آباءكم وعزة أجدادكم

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرشيد فلاح هبوا من غفلاتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا كياتي الأمم احراراً سعداء، أو موتوا ماجورين شهداء، : الى غير ذلك مما من فانه ان يحرك الماء فيجعله ناراً، ويثير نسيم الصبا فيفادرها اعصاراً، فبدأت تنتشر حركة الخواطر في الديار المصرية وأخذ القوم يشكون من حكومتهم ضالطين، ويتناولون باعناقهم الى ما يقول مشراً بين، ومذ ذلك الحين طارت الشررة الأولى من شررات الثورة العرابية وكان المؤلف قد لمح الى هذا في بعض أعداد صحيفته (مرآة الشرق) بقوله في جملته الافتتاحية

أرى خلل الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرام فثار بعض قادة الجند (على) بولسن ودبلنير الوزيرين الاجنبيين وأوسعوها بمراباً وإهانة واجتمع في بيت الشيخ البكري ثم في بيت راغب باشا لفيف بين اعيان البلاد وعمد الارياف وأجمعوا على تغيير الوزارة التوبارية ثم التبريقية ثم زاد انتشار الخواطر الثورية وكسبت صحف الاخبار اهمية ما كان لها لان نكسبها في اسمى البلاد مدنيةً وحينئذ رأى المؤلف ان المسلك وعراً وللوقف خطر، فقال الى الغناء التحرير بانني هي أحسن، والجنوح في هذا الامر العسير لاني هي أقوم، فاعتزل الجريدة بعد ان أحال امتيازها الى رجل أصارها طوع اشارة الافغاني، فوكل بها كاتبه ابراهيم القفاني، فبدأ من العدد السادس عشر ايعابها مبادئ الثورة وأمالى الشكوى والتعريض وبعد حين ناب الافغاني

عن الأمة بسفارة الى الخديو فذكرت ذلك (مرآة الشرق) بطنطنة عادت عليه بالوبال * وعليها بالتمطيل والنكاح (السبب الظاهري لتمطيلها غير هذا واما المطلعون على الحقائق فيعلمون ان الباعث عليه انما هو انهاؤها الى الافغاني) وكان قبل ذلك قطع في الاسكندرية بضعة ايام خطب في اثنائها بقاعة (زيزينيا) خطبة في النساء جمعت ألوفاً من الفرنكات فوزعت بايماء منه على الفقراء ولم يعض زمن حتى انقلب دست (اسماعيل) وعلا أريكة الخديوية صاحب السموت الاميري (توفيق) وكان من الواجدن على جمال الدين فأخذ يجوس موامي أفعاله، ويروود مرامي أقواله، حتى علم انه ممن ينزعون الى ابدال الحكومة المتقيدة بجمهورية شوروية نحدته نفسه بتولي زعامتها فاغتاله بمض الشرطة وهو عائد عند بزوغ الفجر من مقامه الليلي المعلوم وكان قد ارفض عنه أصحابه فاستاقوه الى دار الضابطه وذهبوا به ثمت الى محطة السكة حيثما أرسل من طريق الاسمهيلية الى (بورت سعيد) ولما رأى قنصل العجم في ذلك الثغر (وكان ماسونياً) أنهم مزعمون على بعثه بطريق جدّة الى بلاد فارس عرض عليه مئة دينار برسم النفقة فأبى مع كونه لم يملك ساعتئذ درهماً وأما مكتبته فحجرت عليها الحكومة وضبطتها وأما خادمه (أبو تراب) الذي صار بمعاشرته اياه وملازمته له فيلسوفاً صغيراً حالة كونه أمياً كبيراً فسجن زمناً ثم أطلق سراحه فأتى بيروت منذ عامين ولا علم لنا الآن اين مرساه وكيف مسراه . وكان روح الثورة قد امتد في القطر بحيث لم يكن اجلاء الافغاني الا ليزيده سر ياناً وانتشاراً (من هنا فما بعد يعلم كل بما جريات الديار المصرية مما يخرج عن وظيفة كتابنا هذا الافاضة بتفصيلاته) ومد ذلك العهد احتجبت عن المؤلف اخباره حتى ظهرت في باريز صحيفة العروة الوثقى موسومة باسمه وموشاة بقلم دهقان رجاله الشيخ محمد عبده فلم من منزعا انه عاود الاستمسك بالدين الخنيف وجنح الى نهج خطه جديدة تكسبه مبدل العالم الاسلامي ورضاءه عنه

وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته ولو لم يكن طموحاً الى المعالي بافراط واعجال واعجازاً عن كتمان مبداه

وغيثه لرحب به الثار يخ وافرزله من اسفاره صفحات ثنرى * زينها برقم اعمال
 مجيدة تكون قدوة للآتين وذ كرى * وهو الآن دون الخمسين من عمره أسمر
 اللون الى صفرة * مفلفل الشعر أسوده * نحيف البنية * اهيف القامة * جذاب
 الملامح * خفيف العارضين * حاد البصر يكاد يتطايير الشرر من حدقيه . يلبس
 السواد ويتزبي بزى العلماء * طلي الكلام ذرب اللسان * نصيح اللهجة *
 يلغ العبارة * مليح النكتة * سمح الكف * طلق الحيا * وقور السمات * محتاب
 النساء و يفظم نفسه عن الشهوات * يكره الخلو ويحب المر وقلماء خلت جيبه
 من خشب الكينا والراوند ينتقل بهما تفكها * يأكل الوجبة (حرة كل يوم)
 ولا يأكل الا منفردا * يكثر من شرب الشاي والتبغ واذا تعاطى مسكرا قليلا
 من (الكونياك) وليس له من التأليف المطبوعة سوى تاريخ الافغان * يكره
 الكتابة ويتناقل منها فاذا رام انشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل ابراهيم افغاني
 القاء قلما يراجعها ويصلحه فيجيب من أول وهلة مسبوكا مفرغ الماني بقوالب
 لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد * فسبحان من خلقه بهذه الاطوار * وجمله بهذه
 الآثار * انه قال لما يريد اه ما كتبه سايمر بك العنحوري في شرح سحر هاروت
 وقد اطلم الاستاذ الامام على هذا الشرح أيام كان مقيما في بيروت واجتمع
 بالكاتب فأقنمه بأنه مخطى . فيما وصف به السيد من الإلحاد فبادر الى تخطئة
 نفسه في الجرائد فكان بذلك مصيبا للفضيلة ، وظهيرا للحقيقة ، وقد نشر الاستاذ
 الامام ما كتبه العنحوري في آخر ترجمته للسيد التي نشرها في صدر ترجمة رسالة
 الرد على الدهريين قال :

« هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفعا لما افترأه
 عليه الجاهلون ولو سلكننا في تاريخه مسلك التفصيل ، لأدى بنا الى التلويل ،
 وانا تتبع هذا بما كتبو سليم افندي العنحوري تخطئة لنفسه فيما نقله في شرح
 سحر هاروت والمطلع على ما كتبناه ، يعلم خطاه في جل ما رواه ،

« هذا ما نشره سليم افندي المنجوري في جريدة لسان الحال والجنة بحروفه:
 « لا يخفى اننا كنا أننا في حاشية كتابنا (سحر هاروت) على شيء من ترجمة
 الحكيم الشرقي الفزير المادة السيد جمال الدين الافغاني الطائر الصيت وأبتنا في
 عرض قصصنا لمحة مما تلقيناه عن بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته
 ووهن دينه مما كان مدعاة أسفنا وبعث استغرابنا ثم أسعدنا البخت بان التقينا
 هاته الأيام بصديقنا المجلي بحلقة الفضل، الحائز قصب السبق في مضماري العقل
 والنقل، الشيخ محمد عبده نزيل بيروت وأعز أخلاء الحكيم المشار اليه فجال بيننا
 حديث أفضى الى البحث بما يرويه عنه بعض الناس وروينا نحن عنهم فأوضح
 لنا بدلائل ناهضة، وبراهين داحضة، أن ما تناقله الألسن من هذا القبيل ما كان
 الا من آثار ما رماه به بعض من غمرتهم أياديهم فجازوه بالكثود يعني بهم قوماً
 كفرةً تزلفوا اليه فاغتر بيراقيش السننهم ووطأ لهم جانب الأناجس سالكاً في
 سبيل اسماهم كل سبيل فلما دارت عليه الدوائر ونحوات الأحوال أخذوا
 يتبعجون بالتمذة عليه، وينسبون ما أشربوا من الكفر اليه، وبن لنا بأجلى أسلوب
 ان المباحث التي كان يدور بها لسانه اثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد
 المعطلين كان المراد منها اظهار حقائق النحل والبدع بمنزل عن الاعتقاد بها، والجنوح
 اليها، بل مع تعقيها بالرد عليها، واقامة الحجج على بطلانها، ثم تأييداً لمقاله هذا
 وقفنا على رسالة منسوجة بقلم المشار اليه سواً بها أصحاب المبادئ المعطلة من أي
 فريق كانوا وبين قبح طريقتهم بعبارة حنيف عريق بالاسلام ثبت منها هنا
 مبعثه في ضرورة اعتقاد الألوهية اسمادة الانسان

« قال بعد بيان وجوه زعموها كافية لصلاح النوع البشري ورد ما زعموا
 « فأذن لم يبق للشهوات قاصم، ولا للاهواء رادع، الا الايمان بأن للعالم صانعاً
 عالماً بمضمورات القلوب، ومطويات الانفس، سامي القدرة، واسع الحول والقوة، مع
 الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحيوة
 مرمدية» ثم قال « فلم يبق ريب في ان الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان
 فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطه شيء من أباطيل من

بزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب يكون سبباً في السعادة النامة والتعليم الكامل ويذهب
بمعتقديه في جواد الكمال الصوري ، والمعنوي ويصعد بذوبه الى ذروة الفضل
الظاهرى والباطنى ، ويرفع اعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم
الكمال العتلى والنفسى ما يظفروهم بسعادة الدارين ﴿

ثم أنى بعد هذا في مزايا الدين الاسلامى خصراً بما يطول بيانه وبعلمه من اطاع على
تلك الرسالة هذا كله بعد ما قال في وصف الماديين ﴿ أنهم كيفاً ظهروا ، وفي أي صورة
نمثلوا ، و بين أي قوم نجموا ، كانوا صدمة شديدة على بناء قلوبهم ، وصاعقة مجتاحة لثرائهم ،
وصدعاً متفاقاً في بنية جيلهم ، يمتنون القلوب الحية بأقوالهم ، وينفثون السم في الارواح
بآرائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم ، فما رزئت بهم أمة ، ولا مني بشرم
جيل الا انتكث فقله ، وتبددت آحاده ، وفندت قوام وجوده ، ﴿ ثم أطال في بيان ذلك
الى حدٍ لم يبق معه محل للرؤية في كمال اعتقاده وجلاله يقينه

« فأخذنا لذلك خفة الطرب وسارعنا لا ذاعته بلسان الصحف شأن المؤرخ
العادل وقياماً بحق الأدب وضاً بفضل هذا الرجل الخطير من ان تناله أسنة من
لا يعرفه خطأ واقراءً والله يتولى الصادقين » اه كلام المنحوري

(يقول محمد رشيد) ان الناس ولعوا منذ قرون كثيرة بأن ينهوا بالكفر
ولاحد كل نابغ في العلوم العقلية بل كل مستقل في العلم لا يتبع الناس في جميع
مادرجوا عليه من التقييد الدينية ولذلك نهزوا بلباب الكفر أو الابتداع مثل ابن
سينا وابن رشد من الفلاسفة وأبي الحسن الشاذلي ومحبي الدين بن العربي من
الصوفية ومثل النزالي ممن جمعوا بين الفلاسفة والتصوف : وكذلك فعل النصارى
قبل المسلمين فانبغ هوؤلاء سننهم وسيأتي بيان ذلك في هذا الكتاب مفصلاً .
من الناس من يتهم أمثال هؤلاء العقلاء متعمداً للكذب والبهتان ومنهم من
يتهمهم لسوء ظنه وقصور عقله وقد أشار الاستاذ الامام في ترجمة أستاذه السيد
الحكيم الى ذلك وبه أقنع سليم بك المنحوري كما قرأت آنفاً . وقد ذكرني هذا
درسا خالصاً ألقاه الاستاذ على بعض النابغين من أساتذة المدارس الأيوبية وغيرهم
في الدين هل هو فطري في البشر أم هو حاجة من حاجات الاجتماع تعرض لهم

فيعطيم إياها الجواد الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)

ذكر الاستاذ الامام في بيان كون الدين بطبيعته أسراً فطرياً أن الشعور بوجود إله ينصرف في الاكوان تصرفاً غيبياً فوق تصرف المحلوقات ، بما يكون من إفضاء الاسباب الى المسببات ، قد عرف في جميع البشر من أدنى القبائل الهمجية ، الى أرقى شعوب المدنية ، فهو شعور يستوي فيه الخفاة العراة في صحاري أفريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان في الماضي وفلاسفة الافرنج الآن وقد عرف في الفريقيين عن قدماء الأمم كالمصريين والكلدانيين والهنود كما هو معروف في هذا العصر . ومثل هذا الاتفاق بين الشرقي والغربي والشمالى والجنوبى في جميع الازمان من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين ولا تعليم لا يعقل الا أنه فطري في البشر

فان قيل ان في الناس من لا يؤمن بالله ولا بعالم الغيب كالماديين من الفلاسفة ومقلديهم ولو كان ذلك الشعور فطرياً لكان عاماً ولم يعر منه هؤلاء : فاننا نقول إن من لا يؤمن بسلمة غيبية غير خاضعة للأسباب المعروفة نادر جداً والتقاعد لا تنقض بالنادر بل تبقى صحتها اثباتاً بالدليل ويبحث عن سبب شذوذ النادر كما يبحث الماديون وغيرهم من علماء الكون عن أسباب الشذوذ الذى يعبرون عنه بفلات الطبيعة ولا يعدون هذه الفلات دليلاً على بطلان الدين والنواميس العامة في الكون . (قال) فالحقيقة ان الاحاد مرض من الامراض الاجتماعية

ثم تكلم في مسألة ترقى الشعور الدينى في البشر بحسب ارتقائهم الاجتماعى وهي المسألة التي يمدحها الملحدون من علماء الاجتماع أقوى الشبهات على الدين وهي هي التي ذكر العنحوري ان السيد جمال الدين كان يحتج بها على كون الدين أسراً وضعياً وهيمياً رقاء الانسان بحسب معارفه حتى بين له الاستاذ خطأه كما تقدم . وما قاله الاستاذ في الدرس يوشك ان يكون قد سمع هو وغيره مثله من السيد ففهم هو ما لم يفهمه أولئك الذين حرفوا الكلام عن مواضع جهلاً وغباوة أو كذباً وبهتاناً

بين الاستاذ رحمه الله تعالى ان البشر في طور الهمجية كانوا يذهبون في

ذلك الشعور الفطري بأساس الدين مذاهب الوم فكما أشكل عليهم فهم شي من أسرار الخليفة توهموا أنه هو صاحب تلك السلطة الغيبية العالية التي كانوا يشعرون بوجودها فظنوه لهذا التوهم فكان ذلك عبادة له لأن العبادة هي تعظيم ينشأ عن الاعتقاد بالسلطة الغيبية التي هي وراء الاسباب لا معنى لها الا هذا

رأى بعضهم الثعبان الصغير، بيت الانسان أو نحو الثور والجل من غير أن يذبحه أو يذوق عنته أو يهشم رأسه وذلك ما لم يكونوا يهدونه ولا يفهمون سببه فعبدوه وعلى هذا النحو عبدوا كثيرا من الحيوانات ثم وضعوا لها التماثيل فكانت موضوع عبادتهم . ولما ارتقوا عن هذه المرتبة عبدوا السحاب فالسحاب فكذلك كانوا محصورون شوموم بالاعتقاد بالخالق وعالم الغيب بما اتصل اليه علة ولم حتى استعدوا بالارتقاء الى فهم الحقيقة وهي أن كل ما في الكون ما عرف سببه وما لم يعرف مخلوق خاضع للسنن العامة في الاسباب والمسببات وأن الخالق الواضح لهذه السنن لا يعمل في شيء من هذه المخلوقات ولا يتعدي به . حينئذ بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، فكانوا هم المبينين لحقيقة الدين ،

(يقول محمد رشيد) هذا ملخص ما علق بذهني من ذلك الدرس ومن أراد كمال البيان فيه فليرجع الى ما كتبه رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية عند بيانه فيه لقول أبي مسلم الأصفهاني والفاضل أبي بكر (ص ٦٠ م ٨ من المنار . وص ٢٩٤ وما بعدها من الجزء الثاني من التفسير) فهذا ما رآه في منشأ وهم الواهم في عقيدة السيد جمال الدين من غير الكذب المعتبرين

وأما ما ذكره المنحوري من عادة في أكله وشربه ففيه الخطأ والصواب فقد كان يأكل الوجبة ، واكنته لم يكن يأكل وحده ، وقد كان يكثرون شرب الشاي ، ولم نسمع حتى من أعدائه انه كان يشرب المسكرات ، فان لم يكن ما قيل من شربه انليل من الكونياك فرية ، فيحتمل أن يكون له شبهة ، كان يكون وآه الناقل يشرب شيئاً يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تداوياً فظنه الناظر عادة . وهذه الشبهات كثيرة وقع لي منها ما ظن به من لا يعرفني الا بالسماع انني أفطر في رمضان متعمداً

ذلك أن ابراهيم بك الهلباوي كتب في المؤيد مقالة ضرب فيها المثل برجل كان في ادارة المؤيد يكلم صاحب المنار ويمدح الدين ويذكر فوائده وهو يدخن بسبكارته في نهار رمضان . فظن كثير ممن قرأ تلك المقالة ان القدي كان يدخن وقت الحديث هو صاحب المنار وتمعجبا من ذلك وتكلموا فيه فكان من يسمعه من العارفين بهذا القبير يقول لهم ان صاحب المنار لم يتعود التدخين ويكرهه وربما يحرمه لاعتقاده بضرره :

على ان القصة ليست كما رواها الكاتب فان ذلك القدي كان يمدح الدين — انما كان يمدحه في معرض مدح المنار وفوائده — لم يكن يدخن في أثناء الحديث ولكنني تركته وخرجت لحاجة ثم عدت فاذا به يدخن ويشرب القهوة !!



تتمت الترجمة

علم أن السيد جمال الدين ذهب بعد إنشاء العروة الوثقى في باريس والسمي في المسألة المصرية ذهب الى روسيا . وتقول انه أقام في بطرسبرج عاصمتها أربع سنين كان فيها موضعاً لا كرام القيصر وكان مما خدم به المسلمين هناك إقناع القيصر بحسن معاملة المسلمين والاذن لهم بطبع المصحف الشريف وبعض الكتب الدينية فأذن بذلك وقد نشرت جريدة الفلاح التي كانت تصدر في القاهرة مقالة في هذا الموضوع وبيتنا هو في بطرسبرج زارها شاه ايران ناصر الدين وأظهر هناك رغبته في لقاء السيد فيبلغ السيد ذلك فلم يحفل به ولم يزر الشاه . ثم سافر السيد الى مونيخ من بلاد ألمانيا فوافاه الشاه وهو فيها وهناك التقيا

ذكر السيد ذلك في بعض مجالسه في الاسنانة وقال « إن بعض الكبراء من الألمان وغيرهم جهموني به فرغب اليّ أن أذهب معه الى بلاده ليجعاني رئيس

وزرائه فأيدت وقالت انني عزمت على الذهاب الى معرض باريس ولا أحب أن
أقض عزمي فألح عليّ أشد الإلحاح حتى ألزمني بالذهاب معه . وكان يقول
عني : هذا رجل العالم السياسي الحربي الجدير بأن يكون رئيس وزارة ويقوم
بتدبير الشعب : فقال له بعض الحاضرين - وهو الشيخ عبدالقادر المغربي الذي
كتب حديثه وأرسله اليّ من الاستانة يومئذ - كيف يدعوك الى ذلك وأنت
مشهور بشدة رغبتك في تشييد عقائد أهل السنة ؟ فقال جنون وهوس منه : وبعد
أن مكثت مدة في بلاده طلبت الذهاب الى أوروبا (كذا كان يعرف الكلمة وأمثالها
في كلامه) فنغني وسمعت عنه كلاماً خشناً في حقّي وآراء رديئة ما لها الحجر عليّ
في البلاد الايرانية . فأعملت الحيلة وذهبت الى مقام عبد العظيم وهو من أحفاد
بعض الأئمة ومقامه حرم من دخله كان آناً فكثت هناك سبعة اشهر كتبت في
أثنائها عدة مقالات وحررت في الجرائد جملة كتابات (كذا) في مشاب الشاه
المدكور وحث الشعب على خلعهم ثم خرجت من هناك :

ثم ذكر محبته الى لوندرة وطعنه هناك في الشاه الى أن طلبه السلطان عبدالحميد
الى الاستانة وكلمه في الكف عن الطعن في الشاه . قال : أخبرني أفندينا أن سفير
العجم قصده ثلاث مرات قال فحجبتني في المرتين الأوليين ثم أذنت له فطلب مني
أن أمرّك بالكف عن التمرض للشاه بسوء فأنا الآن أطلب منك الإعراض
عن شاه العجم : فقلت حينئذ : امثالاً لأمر خليفة العصر قد عفوت شاه
العجم قد عفوت شاه العجم (كذا قالها بنعدية عفوت بنفسه) فقال مولانا أمير
المؤمنين حينئذ : بحق أن يخاف منك شاه العجم خوفاً عظيماً :

قال الكاتب : وذكر أنه حمل بعض علماء العجم على الافناء بحرمة الدخان
(التنباك) خمره ومنع العامة عن شربه فأطاعوه وشغبوا على الشاه وقصدوا داره
لإهلاكه أو يبطل المقاومة الجديدة التي عقدها مع الافرنج لاجل حصر الدخان
فاضطر الشاه الى ذلك ورفع غرامة لأصحاب المقاومة قدرها نصف مليون ليرة انكليزية :
(يقول المؤلف محمد رشيد) قد اطلعت على صورة مطبوعة على حديثها من

الكتاب الذي أرسله الى رئيس المجتهدين في ذلك الوقت وهذا نصه :

مكتوب من البصرة الى السامرة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقاً أقول : ان هذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية أيها وجدت ،
وحيثما حلت ، وضراعة تعرضها الأمة على نفوس زاكية تحفقت بها وقامت بواجب
شؤونها كيفما نشأت ، وفي أي قطر نبغت ، الا وهم العلماء فاحببت عرضه على الكل
وان كان عنوانه خاصاً ،

حبر الأمة ، وبارقة أنوار الأئمة ، دعامة عرش الدين ، واللسان الناطق
عن الشرع المبين ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة
الاسلام ، ورد كيد الزنادقة اللئام ،

لقد خصك الله بالنيابة العظمى ، عن الحجية الكبرى ، واختارك من العصاية
الحقة ، وجعل بيدك أزمة سياسة الأمة بالشرعية الغراء ، وحراسة حقوقها بها ،
وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتياب فيها ، وأحال اليك من بين الأنام (وانت
وارث الانبياء) مهام أمور تسعد بها الملة في دارها الدنيا ، ونحطى بالعقبي ، ووضع
لك أريكة الرئاسة العامة على الافئدة والنهن ، اقامة لدعامة المدك وانارة للحجة
الهدى ، وكتب عليك بما أولاك من السيادة على خلقه حفظ الحوزة والذود عنها
والشهادة دونها على سنين من مضي ،

وان الأمة قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، ووضعها وعاليها ، قد
أذعنت لك بهذه الرئاسة السامية الربانية ، جائية على الركب ، خارة على الاذقان ،
تطمح نفوسها اليك في كل حادثة تمرورها ، تطل بصارتها عليك في كل مصيبة
تمسها ، وهي ترى ان خيرها وسعدها منك ، وان فوزها ونجاتها بك ، وان
أمنها وأمانيتها فيك ،

فاذا لم يحضرك غض طرف ، أو نيت (١) بمجانبة لحظة ، وأمهلتها وشأنها لمحة ،
 أو تحجفت أفئدتها ، واخثت مشاعرها ، وانتكثت عقائدها ، وأنهدمت دعائم إيمانها ،
 نعم لا برهان للعامة فيما دانوا ، الا استفامة الخاصة فيما أمروا ، فان وهن هؤلاء
 في فريضة ، أو قعد بهم الضعف عن اطاعة منكر ، لا عتور أولئك الظنون والاهام ،
 وتكص كل على عقبه مارقا من الدين اتقويم ، حائلا عن الصراط المستقيم ،
 وبعد هذا وذلك وذلك أقول ان الأمة الايرانية بما دهمها من عراقيل
 الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين ، وتطاول الأجانب على
 حقوق المسلمين ، ووجوم الحججة الحق (اياك أعني) عن القيام بناصرها وهو
 حامل الامانة ، والمسؤول عنها يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شعاعا ، وطاشت
 عقولها ، ونهت أفكارها ووقفت . ووقف الحيرة (وهي بين انكار واذعان
 ووجود وايقان) لانهتمدي سبيلها وهامت في بيداء الهواجس ، في عممة الوسوس ،
 ضالة عن رشدها لا تجد اليه دليلا ، وأخذ القنوط بجوامع قلوبها ، وسد دونها
 أبواب رجاها ، وكادت ان تختار اياسا منها الضلالة على الهدى ، وتعرض عن محجة
 الحق وتبعم الهوى ، وان آحاد الأمة لا يزالون يتسألون شاخصة أبصارهم عن
 أسباب قضت على حجة الاسلام (اياك أعني) بالسبات والسكوت ، وحتم عليه
 ان يطوي الكشع عن إقامة الدين على أساطينة ، واضطره الى ترك الشريعة
 وأهلها ، الى أيدي زنادقة بلهون بها كيفما يريدون ، وبمحكون فيها بما يشاؤون ،
 حتى ان جماعة من الضمءاء زعموا أن قد كذبوا وظنوا في الحججة ظن السوء ،
 وحسبوا الامر أحبولة الحاذق ، وأسطورة المذق ، وذلك لانها ترى (وهو الواقع)
 ان لك الكلمة الجامعة ، والحجة الساطعة ، وان أمرك في الكل نافذ ، وليس
 لمحكك في الامة منابذ ، وانك لو أردت تجمع آحاد الامة بكلمة منك (وهي كلمة
 تفتق من كيان الحق الى صدور أهل) فترهب بها عدو الله وعدوهم ، وتكف
 عنهم شر الزنادقة ، وتزيغ ماحاق بهم من العنت والشقاء ، وتشلهم من ضنك

(١) كذا في الاصل والبيت هو التمايل من ضعف وفعله ككمال يكبل

(٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

العيش الى ماهو أرغدوأهني ، فيصير الدين بأهله منيعا حربزا ، والاسلام بحجته رفيع المقام عزيزا ،

هذا هو الحق . انك رأس العصاة الحققة (١) ، وانك الروح الساري في آحاد الأمة ، فلا يقوم لهم قائم الا بك ، ولا تجتمع كلتهم الا عليك ، لوقت بالحق نهضوا جميعاً وهم الكلمة العليا ، ولو قدمت ثبطوا ، وصارت كلمتهم هي السفلى ، ولربما كان هذا السير والدوران حينما غض حبر الأمة طرفه عن شؤونهم ، وتركهم هملاً بلا راع ، وهمجاً بلا رادع ولا داع ، يقسم لهم عذرا فيما ارتابوا . خصوصاً لما رأوا أن حجة الاسلام قدوني فيما أطبقت الامة خاصتها وعامتها على وجوبه ، وأجمت على حظر الاتقاء فيه (٢) خشية لغوبه ، الا وهو حفظ حوزة الاسلام الذي به يد العيت وحسن الذكر والشرف الدائم والسعادة التامة . ومن يكون أيق بهذه وأحرى بها عن اصطفاه الله في القرن الرابع عشر ، وجعله برهاناً للدين ، وحجة على البشر ، أيها الخبر الأعظم ، ان الملك قدوهنت ميرزا ، فسات سيرته ، وضعفت مشاعره

فبجحت سر برته ، وعجز عن سياسة البلاد ، وادارة مصالح العباد ، فجعل زمام الامور كليها وجزئها بيد زنديق أثيم ، غشوم ثم بدذلك زعيم . . يسب الانبياء في المحاضر جبراً ، ولا يذعن لشريعة الله أمراً ، ولا يرى لرؤساء الدين وقراً ، يشتم العلماء ، ويقذف الاتقياء ، ويهين السادة الكرام ، ويمامل الوعاظ معاملة اللئام ، وأنه بعد وجوعه من البلاد الافرنجية قد خلم العذار ، وتجاهر بشرب العقار ، وموالات الكفار ، ومماداة الأبرار ، هذه هي أفعاله الخاصة في سنة ١٠٠٠ ، ثم انه باع الجزء الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعداء الدين - المغان ، والسبل الموصلة اليها ، والطرق الجامعة بينوايين تخوم البلاد ، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسمة التي تتشعب الى جميع ارجاء المملكة ومايحيط بها من البساتين والحقول . . نهر الكارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المنبع ومايستنبعها من الجنائن والمروج . . والجادة من الاهواز الى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول . . والتفياك ومايقبعه من

(١) الحققة الثابتة القوية والمراد طائفة العلماء لاسيما المجتهدين منهم (٢) الاتقاء التقيية

المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين اني وجد وحيث
فتت ، وحكر العنب للخمر وما تستلزمه من الحوائث والمعامل والمصانع في جميع
أقطار البلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ، والبنك وما أدراك
مالبنك هو اعطاء زمام الأهالي كلية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه
اياهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان ،

ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواهي برهانه فخبق قائلا ان هذه
معاهدات زمانية ، ومقاولات وقتية ، لان طول مدتها يزيد من مائة سنة !! يا لله من
هذا البرهان الذي سوله خرق الخائنين ، وعرض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقا
لسكونها (لو سكنت) مرداب رشت وأنهر الطبرستان والجادة من أنزلى الى
الخراسان وما يتعلق بها من الدور والقنادق والحقول . . . ولكن الدولة الروسية شمت
بأنفها وأعرضت عن قبول تلك الهدية ، وهي عازمة على استملاك الخراسان
والاستيلاء على الاذربيجان والمازندران ان لم تنحل هذه المعاهدات ولم تنسخ
هذه المقاولات القاضية على تسليم المملكة تماما بيد ذاك العدو الالذ ، هذه هي
النتيجة الاولى لسياسة هذا الاخرق ،

وبالجملة ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد الايرانية على الدول يبيع المزايد ،
وانه يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم الصلاة والسلام للاجانب ولكنه
لحسة طبعه ودنائة فطرته لا يبيها الا بقيمة زهيدة ودرهم معدودة (نعم هكذا
يكون اذا امتزجت الثامة والشرة بالحياة والسفه)

وانك أيها الحجاة ان لم تقم بناصر هذه الأمة ولم تجمع كلمتها ولم تنزعها بقوة
الشرع من يد هذا الأثيم لاصبحت حوزة الاسلام تحت سلطة الأجانب (بحكون
فيها بما يشاؤون ويفعلون ما يريدون) ، واذا فاتتك هذه الفرصة أيها الجبر ووقع
الامرؤأنت حيي لما أبقيت ذكر جيل بعدك في صحيفة العالم وأوراق الثوابخ...
وأنت تعلم أن علماء الايران كافة والعامة بأجمعهم ينتظرون منك (وقد خرجت
صدورهم وضافت قلوبهم) كلمة واحدة ويرون سعادتهم بها ونجاتهم فيها...
ومن خصه الله بقوة كهذه كيف يسوغ له أن يفرط فيها ويتر كما سدى ،

ثم أقول للحجة قول خبير بصير ان الدولة العثمانية لتبجح بنهضتك على هذا الامر وتساعدك عليه لأنها تعلم أن مداخلة الافرنج في الاقطار الايرانية والاستيلاء عليها تجلب الضرر الى بلادها لاحتماله ، وان وزراء الايران وأمراءها كلهم يهتمون بكلمة تنبص بها في هذا الشأن لأنهم بأجمعهم بما فون هذه المستحدثات طبعاً ، ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ، ويمجدون بنهضتك مجالاً لا بطلها ، وفرصة الكف شر الشره الذي رضي بها وقضى عليها ،

ثم ان العلماء وان كان كلُّ صدع بالحق وجبته هذا الاخرق الخائن بسوء أعماله ولكن ردعهم للزور وزجرهم عن الحيانة ونهرهم المجرمين ماقرت كسلسلة المدات قراراً ، ولاجمتها وحدة المقصد في زمان واحد ،

وهؤلاء لتماثلهم في مدارج العلوم وتشاكلهم في الرئاسة وتساوهم في الرتب غالباً عند العامة لا ينجذب بعضهم الى بعض ولا يصبر أحد منهم لصفاً للأخرولا يقع بينهم تأثير الجذب وتأثر الانجذاب حتى تتحقق هيئة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة . كل يدور على محوره ، وكل يردع الزور وهو في مركزه ، (هذا هو سبب الضعف عن المقاومة وهذا هو سبب قوة المنكر والبغي) . وأنت وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجة السامية والمرة الرفيعة علة فعالة في نفوسهم ، وقوة جامعة لقلوبهم ، وبك تنضم القوى المنفرقة الشاردة ، وتلتئم القدر المشققة الشاذة ، وان كلمة منك تأتي بوحدانية ثامة يحق لها أن تدفع الشر المحرق بالبلاد . وتحفظ حوزة الدين وتصون بيضة الاسلام فالكل منك وبك واليك وأنت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس

ثم أقول ان العلماء والصلحاء في دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته قد قاسوا من ذلك القتلى شذائده ماسبق منذ قرون لها مثيل ، ونجحوا لصيانة بلاد المسلمين عن الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كل هوان وكل صغار وكل فضيحة .

ولا شك أن حبر الامة قد سمع ما فعله أدلاء الكفر وأعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج الملا فيض الله الدر بندي وستسمعون قريباً ما صنعه الجفاة الطفافة بالعالم المجتهد النقي البار الحاج السيد على أكبر الشيرازي وسنحيط

علما بما فعله بحمارة الملة والامة من قتل وضرب وكى وحبس . ومن جملتهم الشاب الصالح الميرزا محمد رضا الكرههاني الذي قتله ذلك المرتد في الحبس والفاضل الكامل البار حاج سياح والفاضل الاديب الميرزا فروغي والارباب النجيب الميرزا محمد علي خان والفاضل المتفتن اعتماد السلطنة وغيرهم .

وأما قصتي ، وما فعله ذلك الكنود الظالم معي ، فما يفتت أ كباد أهل الايمان ، ويقطع قلوب ذري الايقان ، ويتضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الاوثان ، ان ذلك اللثيم أمر بسحبي وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام في شدة المرض على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة (هذا كله بعد النهب والغارة) « انالله وانا اليه راجعون »

ثم هلتي زبائنته الاوغاد وأنامر يرض على برذون مسلسلاني فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقفتني جحفة من الفرسان الى خاققين وصحبي جمع من الشرط ولقد كاتب الوالي من قبل والنمس منه أن يبعثني الى البصرة علمانه أنه لو تركني ونفسي لايتك أبها الخبر وثبت لك شأنه وشأن الامة وشرحت لك ما حاق ببلاد الاسلام من شر هذا الزنديق ، ودعوتك أيها الحجة الى عون الدين ، وحملتك على إغاثة المسلمين ، وكان على يقين اني لو اجتمعت بك لا يمكنه ان يبق على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد، وهلاك العباد، واعلاء كلمة الكفر وما زاده لوءاً على لوءه ودناوة على دنائه أنه دفعا لثورة العامة وتسكيناً لهياج الناس نسب تلك العصاة التي ساقها غيره الدين وحجبة الوطن الى المدافعة عن حوزة الاسلام وحقوق الاهالي (بقدر الطاقة والامكان) الى الطائفة البابية كما أشاع بين الناس أولاً (قطع الله لسانه) اني كنت غير مختون (وا إسلاماه) ما هذا الضعف؟ ما هذا الوهن؟ كيف أمكن أن صلوا كأدني النسب، ووغدا خدس الحسب، قدران يبيع المسلمين وبلادهم بمن يحس حوام معدودة ويزدري بالملأء وبهين السلالة المصطفوية وبهت السادة المرئضوية للبهتان العظيم ، ولا يد قدرة تسنأصل هذا الجذر الخبيث شفاء انيظ المؤمنين ، واتقاما لآل سيد المرسلين، عليه وآله الصلاة والسلام .

ثم لما رأيت نفسي بعيداً عن تلك الحضرة العالمة أمسكت عن بث الشكوى
ولما قدم العالم المجتهد القدوة الحاج السيد علي أكبر الى البصرة طلب مني ان اكتب
الى الخبر الاعظم كتاباً أثبت فيه هذه الفوائد والحوادث والكوارث فبادرت اليه
امثالاً، وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السيد الحسيني

....

(يقول محمد رشيد) إن هذا الكتاب نفخ روح الحماسة والغيرة في ذلك
العالم العظيم صاحب النفوذ الروحي في الامة الفارسية فأقنى بحرمة استعمال التذابك
وزراعته واذاع العلماء فتواه بسرعة البرق فخضعت لها أعناق الامة حتى قيل
ان الشاه طلب في صبيحة يوم بعد وصول الفتوى الى طهران التارجيله (الشيشة)
فقيل له انه ليس في القصر تذابك لاننا اتلفناه فسأل عن السبب مبهوتاً فقيل له:
فتوي حجة الاسلام : فقال لم لم نمتأذوني؟ قيل انها مسألة دينية لا حاجة فيها
الى الاستئذان !! واضطر بعد ذلك الى ترضية الشركة الانكليزية على أن تأخذ
نصف مليون جنيه وتبطل الامتياز . وبهذا انقذ السيد جمال الدين بلاد ايران من
احتلال الانكليز لها بابطال مقدمته وهو ذلك الامتياز أو الامتيازات التي قرأت
شرحها في كتابه فهكذا تكون الرجال وهكذا تكون العلماء

هكذا هكذا او الا فلا لا ليس كل الرجال تدعي رجالا

وقد ظهر الآن تأثير نفوذ طائفة العلماء في بلاد فارس ام الظهور بما كان قلب نظام
الحكومة وهم يولها عن الاستبداد المطلق الى الشورى . ولعل تلك الحادثة هي
المنبه للدول للعلماء الى ان الامر في ايديهم . فالسيد جمال الدين علي هذا هو
العامل الاول في هذا الانقلاب كما أنه سبب الانقلاب الذي حدث في مصر فان
عمل جمعيته كان اول سمي في مقاومة سلطة اسماعيل باشا وتقويضها وفي نفخ روح
الاصلاح في توفيق باشا حتى واثق السيد وخاصته بأنه اذا آل الامر اليه ايوسن
مجلس نواب وليعملان وليعملان . ولكن تداخل الجند في السياسة أفسد العمل بمد ذلك
ولم يكن نجاح العلماء بسعيه وارشاده في ابطال تداخل الاجانب في بلاد

فارس هو المنبه وحده لكون سلطة العلماء والامة فوق سلطة الملك بل كان تمام
الذنبه قتل الشاه بعد ذلك وما قبل من ان قاتله من اتباع السيد جمال الدين
لم يكتب السيد بنحريص كبير المهتمدين وسائر العلماء على الشاه ووزيره
ولا بنجاحه في نديهم له بل ذهب من البصره الى أوربا وطبق بطنم فيها بالقول
والكتابة وقد أسس هناك مجلة شهرية تصدر بالفتن العربية والانكليزية باسم
(ضياء الخاقين) أو سعي في تأسيسها وكان يكتب في كل عدد منها مقالة في أحوال
فارس بتوقيعه المعروف (السيد) أو (السيد الحسيني) وكان الكلام في مهر من أهم مباحثها
وقد فضح في مقالاته عن بلاد فارس حكومتها وشاها شر فضيحة حتى جاءه
صغير المعجم في اندره يستميله ويسترضيه ليكشف عن الكلام والكتابة في ذلك
وعرض عليه مالا كثيراً فقال له السيد « لا أرضى الا أن يقتل الشاه ويتر
بطنه ويوضع في القبر » فكان هذا القول من الشبه على كون القاتل له من اتباع
السيد . واننا نورد هنا بعض ما كتبه في ضياء الخاقين عن بلاد فارس تخليداً
له في التاريخ . وهالك ما كتبه في المدد الثاني تحريصاً للعلماء على خلع الشاه والقيام
بشؤون الامة . وهذا المدد صدر في أول مارس (آذار) سنة ١٨٩٢

مجلة بلاد فارس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

حجة القرآن ، وحفظة الايمان ، ظهراء الدين المتين ، ونصراء الشرع المبين ،
جنود الله الغالبة في العالم ، وحججه الدامغة لضلال الأمم ، جناب الحاج الميرزا
محمد حسن الشيرازي . وجناب الحاج الميرزا حبيب الله الرشتي ، وجناب الحاج
الميرزا أبي القاسم الكر بلائي ، وجناب الحاج الميرزا جواد الأقالق تبريزي ، وجناب
الحاج السيد علي أكبر الشيرازي ، وجناب الحاج الشيخ هادي النجم آبادي ،
وجناب الميرزا حسن الأشثاني . وجناب السيد الطاهر الزكي صدر العلماء .
وجناب الحاج آقا محسن العراقي ، وجناب الحاج الشيخ محمد تقي الاصفهاني ،

وجناب الحاج الملا محمد تقي البجنوردي . وسائر هداة الأمة . ونواب الأمة .
من الاحبار العظام ، والعلماء الكرام ، أعز الله بهم الاسلام والمسلمين ، وأرغم
آتوف الزنادقة المتجبرين ، آمين

طالما تانت الامم الافرنجية الى الاستيلاء على البلاد الابرازية حرصا منها
وشرها . ولكم سوت لها ما فيها خدعا تمكنها من الولوج في ارجائها ونمهد فيها
سلطانها على غرة من اهلها تحاشيا من المفارعة التي تورث الضغائن فتبعث النفوس
على الثورة كلما سنحت لها الفرص وقضت بها الفترات . واكنها علمت ان بلوغ
الارب والعلماء في عز سلطانهم ضرب من الخيال لان القلوب تهوي اليهم طرا ،
والناس جميعا طوع يدم ياتمرون كيفما أسروا ، ويقومون حينما قاموا ، لا مرد
لقضائهم ، ولا دافع لحكمهم ، وانهم لا يزالون يدأبون في حفظ حوزة الاسلام
لاناخذهم فيه غفلة ، ولا نعرفهم غره ، ولا نتميد بهم شهوه ، فخنست وهي تبرص
بهم الدوائر ، وتترقب الحوادث ، ايم الله أنها قد اصابنا فيما رأت ، لان العامة
لولا العلماء وعظيم مكانتهم في النفوس لانتجأت بطيب النفس الى الكفر واستنظت
بلوائه خلاصا من هذه الدول الذليلة الجائرة الخرقى التي قد عدت القوة ، وقدمت
النصفة ، وانفتت الجمالة ، نلا حازت منها شرفا ، ولا صانت بها نفسها حقا ، ولا
انشرح منها صدرها فرحا .

ولذا كلما ضعفت قوة العلماء في دولة من الدول الاسلامية وثبت عليها طائفة
من الافرنج ومحت اسمها ، وطمست رسمها ،

إن سلاطين الهند وأمراء ماوراء النهر جدت في إذلال علماء الدين فهاد
الوبال عليهم سنة الله في خلقه . . . وان الافغانين ماصانوا بلادهم عن أطماع
الأجانب وما دفعوا هجمات الانكليز مرة بعد أخرى الا بقوة العلماء وقد
كانت في انصائها *

ولما تولى هذا الشاه (الحاربية (١) الطاغية) الملك طفق يستلب حقوق العلماء
تدريجيا ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ كلمتهم حبا بالاستبداد يباطل أوامره ونواهيه،

(١) هي الحية كبرت فصصرت حتى بقي رأسها فيه سهه وانفسها وهي أخبت لافاعي

وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره ، فطرد جمماً من البلاد بهوان ، ونهته فرقة
عن إقامة الشرع بصغار ، وجلب طائفة من أوطانها الى دار الجور والحرق (طهران)
وقهرها على الإقامة فيها بذل لخلاله الجو فقهر العباد وأباد البلاد وتقلب في
أطوار الفظائع وتجاهر بأنواع الشنائع وصرف في أهوائه الدنية وملاذه البهيبة
مامصه من دماء الفقراء والمساكين عصراً ونزع من دموع الأراذل والأيتام
قهرًا (بالاسلام)

فاذا اشد جنونه بجميع فتونه فاستوزر وغداً خسيساً ليس له دين يردعه
ولا عقل يزجره ولا شرف نفس يمنعه وهذا المارق ما قعد على دسته الا وقام
بإبادة الدين ومعاداة المسلمين وساقته دناءة الأرومة ونذالة الجرثومة الى
بيع البلاد الاسلامية بقيم زهيدة •

خسبت الأفرنج ان الوقت قد حان لاستملاك الأقطار الإيرانية بلا كفاح
ولا قتال وزعمت ان العلماء الذين كانوا يذبون عن حوزة الاسلام قد زالت
شوكتهم وفقد نفوذهم فهرع كل فاعراً فاه يبغى أن يسرط قطعة من تلك المملكة •
فغار الحق وغضب على الباطل فدمغه فخاب مسماه وذل كل جبار عنيد •
أقول الحق إنكم يا أيها القادة قد عظمت الاسلام بعزيمتكم وأعليتم كلمته وملائم
القلوب من الرهبة والهيبه • وعلمت الأجانب طرا انكم سلطاناً لا يقاوم وقوة
لاتدفع وكلمة لاترد وانكم سياج البلاد ويديكم أزمة العباد ولكن قد عظمت
المخبط الآن وجلت الرزية لأن الشياطين قد تألبت جبراً لكسر وحرصاً على
لوصول الى الغاية وأزعمت على اغراء ذلك المارق الأثيم على طرد العلماء كافة
من البلاد . وأبانت له ان انفاذ الأوامر انما هو بانقياد قواد الجيوش وان القواد
لا يصون العلماء أسراً ولا يرضون بهم شراً فيجب لاستنباب الحكومة اسقيد لهم
بقواد الأفرنج . وأرت لذلك البليد الخائن وآسة الشرطة بقيادة فوج (١) القزاق

(١) يطلق الفرس هذا اللفظ العربي على الطائفة من العسكرية التي يطلق عليها الترك
لفظ تابور (و صوابه بالعربية تابور) ويطلق عليها في مصر لفظ أورطه وهي أعجمية
(٩ ج ١ تاريخ الاسناد الامام)

تمودجاً (كنت واضرا به) . وان ذلك الزنديق وزملاءه في الاتحاد يجدون الآن في جاب قواد من الأجانب . والشاه بمنجونه المطبق قد استحسن هذا واهتز به طرباه لعمر الله لقد تحالف الجنون والزندقة واماهد العته والشرة على محق الدين واضمه للال الشريعة وتسليم دار الاسلام الى الأجانب بلا مقارعة ولا مناقرة . ياهداه الأمة انكم لو أهلمتم هذا الفرعون الذليل ونفسه وأمهلمتوه على سرير جنونه وما أسرعت بحلمه عن كرسيه لقصي الأمر ففسر العلاج وتعذر التدارك . أنتم نصراء الله في الارض . ولقد تمحصت بالشريعة الالهية نفوسكم عن أهواء دنية تبث على الشقاق وتدعو الى النفاق ويؤس الشيطان بقذفات الحق عن تفريق كلمتكم . فأنتم جميعاً يدو واحدة يدود بها الله عن صياصي دينه الحصينة و يذب بقوتها القاهرة جنود الشرك وأعوان الزندقة . وان الناس كافة (الامن قضى الله عليه بالحبيبة والحمران) طوع أمركم . فلو أعلنتم خلع هذا (الحاراية) لأطاعكم الأمير والحقير وأذعن لحكمكم الفقي والفقيه (ولقد شاهدتم في هذه الأزمان عياناً فلا أقيم برهاناً) خصوصاً وان الصدور قد حرجت وان القلوب قد فطرت من هذه السلطنة القاسية الحقني التي ملأدت ثغورا ولا جندت جنودا ولا عمرت بلادا ولا نشرت نلوما ولا أعزت كلمة الاسلام ولا أراحت يوماً ما قلوب الأنام بل دمرت وأقوت وأقرت وأذلت ثم بد ضلت وارتدت وانها سمعت عظام المسلمين وعجننها بدمائهم فعمات منها البنات (١) بنتها قصورا لشهواتها الدنية . هذه آثارها في هذه المدة المديدة والسنين العديدة فمسأها وتبت يداها .

واذا وقع الخلع (وتكفيه كلمة واحدة يذص بها لسان الحق غيره على دينه) فلا ريب ان الذي يخلف هذا (الطاغية) لا يمكنه الميدان عن أوامرهم الالهية ولا يسهه الا الخضوع بمبتسكم عتية الشريعة الحمديدية كيف لا وهو يرى عياناً مالكم من القوة الربانية التي قلبون بها الطغاة عن كرسيه غيباً . وان العامة متى سمعت

بالعدل نحت سلطان الشرع ازدادت بكم واما وحامت حولكم هياما وصارت جميعاً جنداً لله وحزباً لا ولبائنه العلماء *

ولقد وهم من ظن ان خلع هذا (الحاربية) لا يمكن الا بهجمات المساكر وطلقات المدافع والقنابر . ليس الامر كذلك . لان عقيدة ايمانية قد رسخت في العقول ، وتمكنت من النفوس ، وهي ان الراد على العلماء راد على الله (هذاهو الحق وعليه المذهب) فاذا اعلنتم (يا حلة اقرآن) حكم الله في هذا الغاصب الجائر وأبنتم أسرة تعالی في حرمة إطاعته لانفض الناس من حوله فوقع الخلع لا جدال ولا قتال *

ولقد أراكم الله في هذه الأيام إنماماً لحجته ما أولاكم من القوة انامة ، والقدرة الكاملة ، وكان الدين في قلوبهم زيغ في ريب منها من قبل . اجتمعت النفوس بكلمة منكم على إرغام هذا الفرعون الذليل وهامانه الرذيل (مسألة التذيك) فمجتبت الامم من قوة هذه الكلمة وسريعة نفوذها وبهت الذي كفر . قوة أنفسها الله عليكم لصيانة الدين وحفظ حوزة الاسلام . فهل يجوز انكم اهمالها وهل يسوغ التفريط فيها ؟ حاشاكم حاشا *

قد آن الوقت لاحياء مراسم الدين ، واعزاز المسامين ، فاخلعوا هذا (الطاغية) قبل أن يفنك بكم ، ويهتك اعراضكم ، ويثلم سياج دينكم ، ليس عليكم الا أن تملأوا على رؤوس الاشهاد حرمة إطاعته فاذا برى نفسه ذليلاً فريداً يفر منه بطائنه ويفر منه حاشيته وينبذه المساكر ويرجمه الأصاغر *

انكم يا أيها العلماء والدين قاموا معكم لتأييد الدين بعد اليوم في خطر عظيم . قد كسرتم قرن فرعون بمصالحق وجدتم أنف الحاربية بسيف الشرع فهو يترص فرصاً تساعده على الانتقام شفاء لفيظه ومرضاة لطبيته التي فطرت على الخلد واللجاج فلا تمهلوه أياماً ولا تمكنوه أن يقبض زماماً اعلنوا خلمه قبل اندمال جرحه *

وحاشاكم أيها الراسخون في العلم أن ترتابوا في خلع رجل سلطانه غضب وأفعاله فسق وأوامره جور وانه بعد ان مص دماء المسلمين ونهش عظام

المساكين وترك الناس عراة حفاة لا يملكون شيئاً حكم عليه جنونه أن يملك
الأجانب بلاداً كانت للإسلام عزا وللدین المتین حرزا وساقته سورة السفه
الى اعلاء كلمة الكفر والاستقلال بلواء الشرك *

ثم أقول ان الوزاء والامراء وعامة الاهالي وكافة العساكر وأبناء هذا
(الطاغية) ينتظرون منكم جميعاً (وقد فرغ صبرهم ونفذ جلدكم) كلمة واحدة
حتى يظلموا هذا الفرعون الذليل ويريموا العباد من ضره ويصونوا حوزة الدين
من شره قبل أن يجل بهم العار ولات حين مناص والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته *
(السيد الحسيني)

(يقول محمد رشيد) ان العلماء من الاحترام والتفوذ الروحي في بلاد الأعاجم
ما ليس لهم في البلاد العربية وان احترامهم في بلاد الفرس أشد منه في سائر بلاد
العجم فان الحكم ليس لهم عليهم من السلطة هناك مثل ما لغيرهم من حكام المسلمين وما
أزال الملوك والأمراء احترام العلماء ومحور نفوذهم - حاشا ما كان منه مؤيدا لهم ومعينا
لاستبدادهم - الا بما اخترعوه لهم من الرتب العلمية وكساوي الشرف الوهمية وبما
جعلوا من موارد أرزاقهم في تصرفهم . فصار رزق العالم وجاهه الدينوي بيد الأمير
أو السلطان وهما الرئسان اللذان يقودون بهما طاب المال والجاه من العلماء الى حيث
شاؤا . فاذا أمكن لطلاب الإصلاح الاسلامي أن يبتلوا هذه الرتب العلمية
وما لها من الشارات ويخرجوا أرزاق علماء الدين من أيدي الحكم فإبهم يمحرون
العلماء من رق يكون مقدمة لا صلاح الامة كلها

الاسلام دين اجتماعي جمع بين مصالح الدنيا والآخرة وقد عبث الحكماء
المستبدون في أهله بانتحال الرياسة فيه على كونهم قد أطلوا اشتراط العلم الديني
وغيره في الخليفة وفي السلطان والوالي بالأولى ثم جعل بعضهم الاحكام والأعمال
والمناصب قسمين شرعية خاصة بعلماء الشرع كالتقاضي والادارية والسياسية ولا يشترطون في
عمال هذه الاحكام والأعمال معرفة شيء من أحكام الشرع ولا الأخذ بشيء
من أمر الدين كما أنه لا يشترط في الحاكم الاعلى من أمير أو سلطان ان يكون

قد تاتي علم التوحيد والفقه فضلاً عن التفسير والحديث . ومع هذا كله يجمل هذا الحاكم رئيساً دينياً ويجمل أمر علماء الدين في يده فهو الذي ينعم عليهم بالرتب العلمية التي يمدّها بها بعضهم فوق بعض في الدين وعلومه من غير مبالاة بالقاعدة المشهورة التي لا يختلف فيها عاقلان وهي « فاقد الشيء لا يعطيه » فلماذا صار الدين أمراً ثانوياً في أكثر بلاد المسلمين لا يحترم عند حكامه الا بقدر تعلق العامة به على حسب ما عليه العامة كالاحتفال بالمواسم الدينية والمبتدعة ينهزم ركن من اركان الاسلام كالزكاة فلا يبالي به الحكام الذين جعلوا انفسهم رؤساء للدين ويسكت معهم العلماء عن ذلك فلا يقومون بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي سياج الدين لانهم علي قسمين قسم مرتبط بالسلطين والامراء فهم تابعون لهم وقسم لاشان له فهو يستصغر نفسه ان تقوم بالدعوة الى احياء الدين فاذا عرف لنفسه قيمة وظهر بالدعوة فطفت العامة تحترمه ففحه الامراء بشيء من الذنوب التي قاموا على خزائنها - وهي للامة لاهم - وألقوا في عنقه ورأسه طوقاً من الفضة او الذهب (علامة الشرف) فكان لهوام من المنقادين

فلا صلاح للاسلام الا باستقلال العلماء وعدم ارتباطهم في التعلم والتعليم والارشاد ولا في الرزق بالامراء والسلطين كما تقدم
وكتب السيد في العدد الاول من ضياء الخافقين الذي صدر في فبراير (شباط) سنة ١٨٩٢ ما يأتي :

أحوال فارس المحاضرة

ان اصراخ الفارس دويبا في آفاق الارض . قد أقفرت البلاد وبارت الاراضي وغابت الأنهر وتبدد الناس في شاسعات الاقطار شذر مذر . ان سواد العراق ومدن القفقاز وامصار ماوراء النهر وقرى الحوارزم وقصبات بين النهرين غصت بوجوه غيره . ذراري الامائل وسلالة الافاضل يكدون آناؤ الليل وأطراف النهار في أعمال خسيسة وحرف ذنيئة تأنف منها النفوس وتعاها الطباع . ان

اليران بسعتها قد ضاقت على أبنائها ، ونبت بأهلها ، وليس في تلك البسيطة الرحبة
الأخصاص حقيرة و اكنان صغيرة ودور حرجة يستكنها شعث غير رث الثياب
كلهم ينازعون الموت و يراقبون الأجل . الجور قد تمثل في تلك البلاد سلطاناً
قاهراً لا يحد طوره ، ولا يسبر غوره . والقسوة برزت بصور بشعة وهيبات شنيعة
تقشعر منها الجلود . جدد الاثوف وقطع الآذان وشق البطون وجز الرؤوس
أعمال عادية وأفعال يومية لا يستغرب منها السامع ولا يبتسمها الرائي . ودونها
فطائع تأتي النفوس البشرية عن استماعها وتبجم دون ذكرها و اضطرب حياء وخشية
كلما خطرت في لوح خيالها .

الحكومة قهرت الشرع فأبادته ، وكهرت النظام المدني فججته ، وازدرت
بناموس العقل والفضيلة فطمسته ، فلا يسود فيها الا الهوس ، ولا يأمر الا الشره ،
ولا يقوم بالاامر الا القهر والزور ، ولا يحكم الا السيف والكي والسوط ، يلذها
سفك الدماء ، وتباهي بهتك الأعراض ، وتعجب باستلاب أموال الأراذل والأيتام ،
فلا أمان في تلك البلاد ، وان قاطنيتها لا يرون وسيلة لصون الحياة من أنياب الظلم
الا الفرار ،

قد هرب خمس اليرانيين الى الممالك العثمانية والبلاد الروسية و تراهم يمولون
في الأزقة والأسواق بين حمال وكناس ووزبال وسقا . وهم برثة ثيابهم وكاوحة
وجوههم وخساسة حرفتهم يستبشرون بالنجاة ويشكرون الله على بقية الحياة ...
لاحد في الأقطار الإيرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس . ان
الجرائم ليست لها حقائق أحرزها الشرع وحكم بها العقل . والجزء لا يحدده حصر .
كل هذه نحت سلطان الهوس والشره والتهر . لا دستور للحكومة ولا نظام ولا
قانون . كل يفعل ما يقدر عليه وتدعو شهوته اليه ولا رادع لاقضاء الحاكم ولا مانع
لحاكمه . يأخذ الجار بالجار ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل (ولا ذنب له)
كل مسؤول لديه عن الكل ...

الحاكم يقدم لشاه على حسب عظام الحكومة وصغرها تقديداً (ييش كاش)
و يلتزمها على نفسه كل سنة شكرا انويليه (ولا شهيرة له) ثم انه يأخذ من كل من

يستصحبه لخدمة الحكومة أوخاصة شخصه من مدير وكاتب ومعاون وشرطى وجلاد وطباخ وفراش وسائس وانغال مبلغاً جزاء لاستخدامه (ولا شهرية له ولا . أبدا) . وهذه القطيعة الضارية والضباغ الجائئة تثب فجأة على البلاد فتقرس وتمش وتبلع وتدمر ولا شفقة تكف ولا عقل يزجر . فالويل لكل الويل لقوم قضت الأقدار عليهم بحكومة جائرة وحشية كهذه . .

وان الحاكم واتباعه للاستحصال على ما نقدوه أولاً وما التزموا على ذمتهم لا يدعون في مدة الحكومة وهي غير معلومة عملاً شنيعاً وفلا فظيماً وأمرأ بشماً الا ويرتكبونها . . يعاقبون النساء بشعورهن ويضعون الرجال مع الكلاب العاقرة في الجواقق ويسمرون الآذان على ألواح من الحشب وبدخلون زماماً في العرنيين ويدبرون ذاك المظلوم بتلك الهبئة المحزنة في الأزقة والأسواق وان أهون العذاب عندهم الكي والضرب بالسياط .

وان الحكومة الايرانية لانعمون العساكر وايست لهم لاشهرية ولاجرية فأنما تكلمهم الى قدرتهم في النصب وخذقهم في السرقة . تدبر فيما يكابده الأهالي ويقاسيه من هذه الحكومة الجائرة الحق . أليست هذه هي الامة الايرانية التي سادت الأمم في زمانها ؟ أليست هذه هي الامة الفارسية التي أحيت العلوم في العالم الاسلامي وأقامت الديانة على دعامة الحق بقرة براهينها وقومت اللغة العربية جالي تصانيفها ؟ أسفا على هذه الامة كيف أبادها الجور وبددها الظلم حتى سقطت عن عداد الأمم العظيمة وكاد أن يندرس رسمها وينطمس اسمها . أين العلماء وأين حملة القرآن وأين حفاظ الشرع والقائمين بأمر الامة وأين نصراء لحق والعدل .

(السيد)

(يقول محمد رشيد) ألم يكن الشاه جديراً بالخوف من اظهار هذه الخمازي وعاقبة ذلك التحريض ؟ أم هل يستغرب القارىء — وقد قرأ هذا — قول السلطان عبد الحميد للسيد : بحق يخاف منك شاه المعجم خوفا عظيماً . وبلغني أن له كتابة أخرى بحرض فيها على خلع الساطانيين ، وبقول فيها ان خلعها أهون من خلع الثعابين ،

وانا لم أطلع على ذلك . ولكن اغايه أحد السلاطين بالدهاء وحجر عليه في الاستانة حيث لا مجال للتعريض بالقول ولا بالكتابة
قال السيد في بعض محافله بالاستانة ان الشاه ناصر الدين طغى ونجبر وبالغ في الكبر والعلو وكان كل استناده على دولة الانكليز . وذكر انه انما اختار عاصمة الانكليز للطنن فيه لاجل ان يحقر أمره في عين الشعب الانكليزي ويحفظ قلبه عليه

وقتل البنا أن السلطان كان يرهد ان يرسله الى أوروبا في أمر سياسي ثم عدل عن ذلك . وذكر هو أن السلطان أثنى عليه بخدمة الاسلام وقال له اني أحب ان اجعل وطنك الاستانة اذ لا وطن لك وعرض عليه ان يزوجه فأبى وقال في بعض مجالسه اني لو تزوجت لكان زواجي أغرب عند العارفين بحقيقة امري في مصر من ذهاب الشيخ عليش بتلاميذه الى أحد ملاهي الازبكية وتماطيم كورس (البيرة) جهرا : وقد ذكرت ذلك للاستاذ الامام فقال لي انه كان قد فقد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه الى ماعلق آماله به من عظام الامور

وحدثني الشيخ حسين الجسر وغيره عنه انه بمدحبيته الى الاستانة استأذن له على السلطان فقيل له انه مشغول وضرب له موعد جاء فيه فقيل له انه مشغول وضرب له موعد آخر فقال لا أعود ثم طلب بأمر السلطان لمقابلته فتمنع وقال « هذه بتلك » فاقنعوه بما ذكروا له من كثرة أعمال السلطان وتقيده بالمواعيد فرضى . وان السلطان كان اذا أغضبه بعمل يرضيه بالقول وحسن المعاملة . ومن ذلك انه لما سمي به اليه بأنه أفشى سره (اي سر السلطان) الى مكاتب التيمس وكان قد زاره وان عنده ديناميت وأنه يحقر السلطان في مجالسه امر السلطان بفتيش بيته الذي انزله فيه ففضب وذهب الى سفارة الانكليز وأراد ان يسافر من الاستانة فاستحضره السلطان بعد ذلك وقبله وقال لا يفرق بيني وبينك الا القضاء المحتوم ثم انزله في زورقه الذي يتنزه به في بحيرة « يلدز » وما زال به حتى استجابت حيثة لرقبته ، واندمل جرحه بمسببه ،

وكلن السلطان يتساهل معه ما لا يتساهل مع أحد اذ يبلغه عنه من الأقوال الجارحة ما يبلغه فلا يظهر له ولا لأحد ذلك . وقد حدثني بعض من حضر مجلسه في الاستانة انه سمعه يقول « ان هذا السلطان سلّ في رثة الدولة » وكان هذا بعد إعجاب بالسلطان استمر مدة طويلة كاتب في غضوننا علماء الفرس المجتهدين واقنعهم بأن يعترفوا له بأنه خليفة المسلمين فأجابوا وكتبوا اليه في ذلك . يقال إن هذا كان ابتداء في دعوة المسلمين كافة الى الاعتصام بعروة الخلافة والقيام بتديير سياسي عظيم عرقه الشيخ ابو الهدى عليه واقنع السلطان بوجوب الانصراف عنه .

مذهب السيد جمال الدين السياسي

لعل ما قلناه آنفاً هو السبب فيما اشتهر عن السيد من السعي الى جمع كلمة المسلمين على خليفة واحد فاتي رأيت الناس يتناقلون هذا الرأي وقد كتبه غير واحد في الصحف المنشرة والتواريخ المصنفة . قال جرجي افندي زيدان في آخر ترجمة السيد من كتاب تراجم مشاهير الشرق (ص ٦٥ ج ٢) ما نصه :

﴿ آماله وأعماله ﴾ يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذي كان يصوّب نحوه اعماله ، والمحور الذي تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا السعي جهده واقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا ، اه المراد

والصواب أنه كان له من حياته مقصدان (احدهما) علمي وهو تنبيه المسلمين الى الاصلاح الديني والعلمي بالكتابة والخطابة (وثانيهما) سياسي اجتماعي وهو ماينه الاستاذ الامام في ترجمته (ص ٣٤) وهو ترقية دولة إسلامية أية دولة كانت وحسبك انه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى وهي الإمارة المصرية فقد كان يرمي الى تمدينها وتعزيزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كأحسن البلاد الاوربية . ثم تعلق عمله بالسودان ، ثم بلاد إيران ، ثم بالدولة العثمانية

(١٠ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

أما شأنه في مصر فظاهره معروف في الجملة وقل من يعرف أسراره الخفية ، ومقاصده السياسية ، وقد علم بعضه مما تقدم ونزيده بيانا فتقول
 نقلنا فيما مرّ من هذه الترجمة (ص ٣٥ - ٣٨) نبذة من كتاب اسباب الحوادث العراية للاستاذ الامام بين فيها ان السيد جمال الدين هو موجد النهضة الاجتماعية بمصر (من الجهتين العلمية والسياسية) وقد بين بعدما تقدم نقله ما كان من الارتباك الشديد في المالية المصرية بإسراف إسماعيل باشا وسوء تصرفه وتشكيل لجنة مختلطة من وكلاء الدول لذلك سميت « لجنة التفتيش العليا » وتعيين وزيرين اوربيين احدهما انكليزي للمالية والآخر فرنسي للاشغال العمومية فكان ذلك مع حكم المحاكم المختلطة على الخديوي في مسألة مالية وتنفيذ الحكم بالقوة رغم إرادته مما أعان على تنبيه أفكار المصريين وبين لهم ان حاكمهم قد يقع تحت الحكم وان سلطته ليست إلهية تلو قوى البشر . ثم أفاض في بيان سوء الحال وذكر حادثة الضباط التي توسل بها إسماعيل الى قلب وزارة نوبار باشا مع بقاء الوزيرين الاوربيين ثم توسله باعيان الأمة الى عزلها وخبر الائحة الوطنية التي عملت لاجل ذلك وما كان من تنبيه الناس الى ان حاكمهم قد يحتاج اليهم في الدفاع عن سلطته (وهذا مما كان يفتنمه السيد جمال الدين)

بعد هذا ذكر ما كان من سعي نوبار باشا في اوربا لعزل إسماعيل و اشار الى ما كان من سعي جمال الدين لذلك بمصر لما كان بينه وبين ولي العهد (توفيق باشا) من الموطأة على الاصلاح اذا صار الأمر اليه . قال بعد ذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأمورا فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على عزل إسماعيل ما نصه :
 « ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (أي إسماعيل) بعيداً عن كرسي الخديوية ، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهر ون انه الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله . وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخبرات في هذا الأمر فسمى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو الاسبق بوجود التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تتالا ما تطلبان

عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش في اول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع، وان أمس شيء بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

« ثم ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح (١) ويسعى اليه وأن الاصلاح لمصر لا يتم الا على يد وليّ العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي اول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطني الحر » اه

ثم ذكر ولاية توفيق باشا وما تشبث به من الاصلاح في اوائها ومنه شروع شريف باشا في وضع قانون اساسي لمجلس النواب ومعارضة الاوربيين لاسيما وكلي فرنسا وانكثرا لذلك وذكرا انشاء جمعية في الاسكندرية باسم « مصر الفتاة » لم يكن فيها مصري حقيقي وانما كان أغلب أعضائها من شبان اليهود. ثم انشائها جريدة (مصر الفتاة) المتطرفة في الانتقاد والوعظ والارشاد ثم قال مانصه :

« لكن ما حظ الاجانب في مصر من اطلاق الحرية للمصريين وتخويلهم الاصلاح المرغوب؟ لو صح شأن المصريين واستارت عقولهم وكان لهم رأي في ادارة بلادهم هل تزيد الضرائب ويضيق على الفلاح في ادائها حتى يأخذ المائة بمائة في بضعة اشهر وهو انما يأخذها من الاجنبي؟ ولو وضع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للاهالي سعادتهم هل يمكن للاجانب ان يتمتعوا بالسلطة والنفوذ الذي يتمتعون به تحت السلطة الاستبدادية وان يكونوا حكاما في اقتضاء ديونهم واستخدام المصريين في مصالحهم؟ ماذا اصاب الاجانب في عهد الاستبداد مما لا يجربون حتى يطلبوا الخلاص منه؟ نعم قد يصح هذا اذا امكن ان يكونوا ملائكة قدسين يؤثرون سعادة المصريين على سعادتهم ويزهدون في المنافع الخاصة بهم اذا جلبها ضرر عام يصيب غيرهم وان يكون ذلك الطلب مبدأ توبة عما اتوه من قبل

« وسواء صحت هذه الأقول أو لم تصح فالحقق الذي لا ريب به ان وكيل دولة فرنسا عند ما أحس بمقاصد الخديو وميله الى مشايعة الاحساس العام أخذ

يسعى في إقامة الموانع دون ذلك ودعا وكيل دولة انكلترا للاتفاق معه في اقتناع الخديو بمضرة هذه الأوضاع الجديدة في الوقت الحاضر وقت الارتباك في المسائل المالية وان دخول النواب في تصحيح الموازين ونحوها مما يعوق حل المشاكل الموقوفة لتشتت الآراء وافناء الوقت في المداولات لو تم ذلك وبقاء هذه العقد في الحكومة بدون حل سريع قد يؤدي الى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام . وساعدهم على ذلك بعض الوطنيين من حاشية الجنب الخديوي ولقرب حادثة الخديوي الاسبق من الأذهان وظهور السبب فيها تأثر الخديو الجديد بهذه الأدلة ومال الى غير ما أظهر للعامة في أول الأمر وصمم على رفض مشروع الاصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا وعندما عرض عليه رئيس النظار ما وضعوه في مشروعهم عرضاً غير رسمي ظهرت عليه علامات النفور منه غير انه لم يقطع بعدم قبوله الى ان جاء الفرمان وتلي في احتفال عظيم وذهب المندوب السلطاني الى الاسكندرية ليتوجه منها الى الاستانة يوم الأحد غاية شعبان سنة ١٢٩٦ فبعد غروب ذلك اليوم دعا الخديو حضرات النظار فوفدوا عليه وبعد قليل قدموا استعفاءهم قبل وانصرفوا والسبب الصحيح لاستعفائهم ان شريف باشا صمم على تنفيذ لأئحة الاصلاح ورأى حضرة الخديو السابق ان الاصلاح على هذه الصورة سابق وقته فلم يقبل ما عرض عليه فاستعفت النظارة وشكل الخديوي نظارة جديدة تحت رئاسته

« بذلت مساع كثيرة في اخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لا تشعر به الأنفس الطامحة الى الاصلاح الجديد لكن الحقيقة سطعت رغما من هذه المساعي وكثر القيل والقال في ذلك وكان وكلاء الدول أرباب النفوذ في مصر يظنون ان محرك هذه الافكار وبعث الأنفس على طلب الحرية ووضع أصول للنظام اتما هو الشيخ جمال الدين فقدموا الى الجنب الخديوي باقامة الأدلة على خطر الرجل واخافوه منه (١) كما اخافوه من النظام نفسه وكان التخلص من النظام باستعفاء الوزارة . اما التخلص من الشيخ جمال الدين فكان بنفيه سادس رمضان اخذ في الطريق آخر الليل وهو

ذهب الى بيته هو وخادمه وحجز في الضبطية ولم يمكن من أخذ ثيابه . وبعد ان انتشر ضياء النهار حمل في عربة مقللة الى محطة السكة الحديد ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة الى السويس ومنها انزل في البحر ليسافر الى بمباي فقطع المسافة بقميص واحد على بدنه والوقت صيف والحرارة شديدة حتى تفرح جسده ولم يكن معه من النقود اكثر من ثلاث جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة وهذا المبلغ اخذ منه في السويس فترزق البحر ولم يكن معه شيء . ولما شعر بذلك احمد بك القاوي وكان قنصل دولة ايران في السويس ذهب لتشيعه وعرض عليه مبلغا وافرا من القند فأبى ان يأخذ منه شيئا (٧) هذا ما رواه احمد بك القاوي وواقعه عليه الشيخ جمال الدين عند ما سئل عن ذلك بعد عودته من الهند الى اوربا . وثاني يوم سفر الشيخ جمال الدين ذهب بعض تلامذته الى بيته فوجدوا بعض اعوان الضبطية يمشون كسبه فدهشوا ورجعوا وكان عنده كتب كثيرة في فنون شتى فاختر منها اعوان الاصلاح وحفظه الأمن ما اختاروا لأنفسهم وحشوا بالباقي بطون الصناديق وارسلوه الى بندر أبوشهر من بلاد ايران ظنا منهم بأن صاحب الكتب ذهب الى ذلك الثغر وبقيت الكتب في مخزن الجمر ك هناك الى ان اكملها المثل هينتا مرتباً

«اذكر هذه الحادثة لما كان لها من الاراسي في افكار العامة فقد ذكرتهم بالايام السالفة واحيت ما كان قد مات من ذكرى حوادث المقتس . وغيره وجمعت آمالم بشدة هائلة وقسوة شديدة نزلت بمن كان يقول له الخديوي قبل الحادثة بأيام على مسمع من الحاضرين

«انك أنت موضع أمني في مصر ايها السيد»

«فان موضع هذا العمل من الاصلاح الذي كان ينادي به الجناب الخديوي في اوامره العالية وينعش بذكره ارواح الخاصة من المائتين في حضرته ويجتهد في ابلاغ البشرى به الى الكافة؟ اليس من اول مبادي الاصلاح تقرير الأمن على النفس وكفالة الحقوق بالعدالة ومتى يكون الامن اذا لم تحقق التهم ، ولم يسأل المتهم ، ولم تتضح الجناية بادلتها الصحيحة ولم تقدر العقوبة بقدرها

«لاريب ان الانزعاج بنفي الشيخ جمال الدين كان عاما، والكدر كان تاما، ولكن الجنب الخديو أظهر سروره مما فعل وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار في رمضان فظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل في محضر الشيخ جمال الدين وألزمت الجرائد بنشر الامر الصادر بالنفي وفيه من التقرع الشديد ما لم يكن يستحقه الرجل كما انه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه فشره البعض وابت احدى الجرائد نشره لان محررها كان من تلامذته فغلطت . على ان هذه الشدة، لم تزد الافكار الا حدة، ولا الالسن الا جراءة، ولا الاحساس بضرورة الاصلاح الا نموا وظهورا » اه المراد هنا من كلام الاستاذ الامام في كتاب اسباب الثورة العراقية وهو مؤيد بما تقدم في ترجمة اديب بك اسحق وسليم بك العنحوري للسيد

هذا شيء من التفصيل لعمله السياسي في مصر فهو الذي نفخ فيها روح الحياة المعنوية ونقلها من طور الى طور ولكنه تركها في سن الطفولية وخلف عليها وصيه ووارث علمه وحكمته الاستاذ الامام كما صرح بذلك عند سفره فاستقل بتربيتها من بعده كما يعلم ذلك بالتفصيل من هذا الكتاب

وأما ما قصد اليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندره أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال . فقد عظم أمر محمد أحمد القائم بدعوى المهديّة بالسودان في نفوس الانكليز وكان لها يدان فيما يرسل من مصر والسودان الى انكابترا من الاخبار حتى اقنعا الحكومة الانكليزية بإخلاء السودان وكبتت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حال دون امضائها الا بمجيء البرق بنيا وفاة محمد أحمد

وقد كان لها رحمها الله من المساعي في مسألة السودان وتمهيد السبل الى العمل فيه بعد ترك الانكليز له ما لا فائدة في بيانه . ويجد قارئ كتب الاستاذ الامام الى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى إشارات في بعضها الى بعض ذلك كما ترى في الرقم ٦ من كتبه الإصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني)

وأما إيران فقد علم القراء بعض نبأه فيها من الفصل الذي قبل هذا فهو نافخ روح الحركة التي تقيم البلاد وتقعدها الآن
وجملة القول انه كان العامل الاول في هذا الانقلاب الاجتماعي الذي حصل في مصر من نحو ثلاثين سنة والمنبه الأول الى الانقلاب الذي حصل في بلاد فارس وسمعت الاستاذ الامام يقول « ان السيد لم يعمل عملاً حقيقياً الا في مصر » ولا غرو فهو المزلزل الأول لجود الازهر والمصلح الاول للتعليم الاسلامي فيه بتريته للاستاذ الامام وواضع المعول الاول في أساس بناء السلطة الاستبدادية بمصر ومؤسس الحزب الوطني لايجاد حكومة أهلية صالحة . وقد كانت البلاد تشتغل بالعلوم الاوربية من قبله عشرات من السنين في غير ان يفكر احد فيها بشيء من هذا وقد كان من اسباب فشله والعوائق دون إتمام عمله بناء سياسته على عداوة انكلترا ومقاومة فتوحها في الشرق وله في ذلك مقالات كثيرة سنورد طائفة منها في جزء آخر نجعله ملحقاً لهذا الكتاب مع طائفة أخرى من مقالاته في الفلسفة ومقاومة الاستبداد

فلسفة السيد جمال الدين

لا تزال فلسفة اليونان والعرب تدرس في بلاد الأعاجم ولكن قل من يقرأها في البلاد العربية كصر والشام . وقد تلقى السيد جمال الدين الفلسفة العربية القديمة في بلاده ثم تلقى شيئاً من الفلسفة الأوربية والرياضيات على الطريقة الحديثة في الهند وكان قد تصوف قبل ذلك علماً وعملاً فكانت فلسفته مزيجاً من التصوف والفلسفة القديمة والحديثة أي كان له رأي خاص في العلوم العقلية وعلم النفس والاخلاق وعلم الوجود والتكوين يستدل عليه ويفند رأي من يخالفه ولا معنى لفيلسوف الا هذا

مذهب فلاسفة الافرنج في الوجود قريب جدا من مذهب الصوفية القائلين بالوحدة وكان السيد يميل الى هذا المذهب كما أشار اليه الاستاذ الإمام في ترجمته . ولا بد من التنبيه هنا الى ان مذهب السادة الصوفية قد اشبهه على كثير من المتأخرين بمذهب الباطنية الزاعمين ان الله تعالى يحل في بعض البشر سبحانه

وتعالى عما يصفون . والفرق بين المذهين دقيق ، لا يمحسه الا أهل التحقيق ، فلصوفية كلام في أنفسهم وفي شيوخهم ، يشبه كلام الباطنية في أمتهم ، ومن ذلك قول الاستاذ الامام في خطاب السيد (رحمهما الله تعالى) « أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول » الخ (راجع ص ٥٢٦ من الجزء الثاني) فان كنت لا تعرف مذهب الباطنية حق العلم ومذهب الصوفية حق العلم ولا تدري ما يريدون بالظهور والبطون والتجليات والتنزلات والمنازلات فأربأ بنفسك ان تكون من أهل الدث والرجم ، وان تقفو ما ليس لك به علم (١٧ : ٣٦ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) كذلك يشته على الجاهل الفرق بين رأي السيد في النشوء ورأي داروين فقد حكى الاستاذ الامام عن درس السيد للاشارات مانصه :

« بين حفظه وأثبت ان الانسان نوع من انواع الحيوانات الارضية (لا كما يزعم ارباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من انهم ابناء السماء فليندكر من له فطنة) وانه قد أتى حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ، ويسير في عيشه سيرتها ، يتفياً ظللال الاشجار ، ويستكن في الجحر والاوكار ، ليس له شعار ولا دثار ، ولكن خفيف اشمار ، يقتات بنبات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على يد القوى الطبيعية ، لانسها يد صناعية ، ولا تربية اجنبية ، ليس له من المكرو والتخيل الا مالا يداني فيه الثعلب ، ولا من العلم والتدبير الا ما يعثه على الغدو لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار ، والرواح للاستكنان من كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية ، والفرار من المكاره الحسية ، كما تفر الشاة من الذئب ، والارنب من الثعلب ، ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود ، وبقية متحكما في كل موجود ، ويدعوه للحكم بانه خلاصة العالم ، ومتهى سير الحقائق وعمار عالم الكون ، وان جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لاجله ، والكواكب والسيارات انما تتحرك لخدمته ، » الخ ما اثبتناه في مقالة فلسفة الصناعة من جزء المنشآت ، (راجع ص ٣٠ ج ٢)

فاذا قابلنا هذا القول برده على مذهب دارون وعلى الماديين الذين يقولون

انه لا فرق بين الانسان وبقية الحيوانات يتجلى لنا ان مذهبه وسط بين المذاهب في ذلك وهو ان الانسان حيوان مترق من جهة وملك أرضي من جهة أخرى اي انه جامع لخواص الجنسين . وقد قال في رسالته في الرد على الدهريين مينا خواص اعتقاد اهل الدين بأن الانسان ملك أرضي وانه اشرف المخلوقات في الأرض (اي لافي العالم كله) مانصه :
 « فما يلزم الاعتقاد بان الانسان اشرف المخلوقات ترفعُ المعتدب بحكم الضرورة عن الخصال البيمية ، واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ، ولا ريب انه كلما قوي هذا الاعتقاد اشتد به النفور عن مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلي ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بافر الحفظ حتى قد ينتهي به الحال الى ان يكون واحداً من اهل المدينة الفاضلة يجامع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة ، وتلك نهاية السعادة الانسانية في الدنيا وغاية ما يسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

« فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية في معيشتها ، والثيران البرية في حالتها ، ومضاربة البهائم السامة ، والدواب الهائلة ، والهوام الراشحة ، لا تستطيع دفع مضرة ، ولا التقيّة من عادية ، ولا تهتدي طريقاً لحفظ حياتها ، وتقضي آجالها في دهشة الفزع ووحشة الانفراد

« هذه العقيدة أشد زاجر لانباء الانسان من التقاطع المؤدي لاقتراس بعضهم بعضاً كما يقع بين الاسود الكاسرة ، والوحوش الضارية ، والكلاب العاقرة ، وأشد مانع يدفع صاحبها من مشاكلة الحيوانات ، في خسائس الصفات ، وهذه العقيدة احجى حاد للفكر في حركاته ، وأنجح دواعي للعقل في استعمال قوته ، وأقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل

« إن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لا يتقدون هذا الاعتقاد ، بل يظنون ان الانسان حيوان كسائر الحيوانات ، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، والى أي حد تصل بهم الشرور ، وبأي منزلة من الدناة تكون نفوسهم ، وكيف ان السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية »

رأي السيد في اصلاح حال المسلمين

كان يرى ان المسلمين ما صاروا أمة ذات مدنية ودول عزيزة الا بحسن فهمهم لدينهم وحسن عملهم به وما ضعفوا واستكانوا بعد ذلك الا بسوء فهمهم لدينهم وانحرافهم عن صراطه وابتداعهم فيه وأنهم لا يرتقون ولا يعتزون إلا بحسن فهمهم له ونهوضهم به واستقامتهم عليه وهذا الرأي معروف عنه . وقد كتب اللي الشيخ عبد القادر المغربي من الالستانة سنة ١٣١٠ انه زاره مرتين أو ثلاثا وانه كان بما دار بينه وبينه ما يأتي بالص الذي كتب للمغربي يومئذ :

« قال (السيد) ان بطرس برج وفيينا كيليس في حسن الا تنظيم والازخرف وان فينا أكبر من الالستانة . قلت الالستانة منذ ثلاثين سنة لم تكن هكذا بل كانت متأخرة من عدة وجوه فهي لا تزال تتدرج في مدارج المدينة لاسيا باهتمام أفندينا وليّ النم وهذا يدل على ان المسلمين عن قريب يلغون من التمدن والترقي ما بلغت اليه أهالي البلاد الغربية . فقال اذا لم يبين تقدمنا وتعدتنا على قواعد ديننا وقرآنا فلا خير لنا فيه ولا يمكن أن نتخلص من ربة الأخطاط والتأخر . قلت إذا نظرنا الى حالتنا منذ ثلاثين سنة وقابلناها بما نحن عليه الآن ترى يونا عظما . فقال : ما أراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهرا هو عين التهمر والأخطاط لاننا في تمدنا هذا مقلدين للامم الاوربية وبسبب ذلك يخشى علينا بمدمن غير طويل ان نخضع للذل والسلطة الاجنبية أو تبديل صبغة الدين الإسلامي الذي من شأنه رفع راية السلطة والتغلب الى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة .

« قلت ما الطريقة القويمة التي ينبغي ان نسلكها لتتوصل للتمدن الحقيقي ولساواة شعوب اورو با؟ فقال لا بد من حركة دينية لاننا اذا نظرنا في سبب انقلاب حالة عالم اورو با من الخشونة الى المدنية نراه الحركة الدينية وذلك منذ عصر لوثيروس رئيس الطائفة البروتستانية فانه لما رأى اهل اورو با تعتقد في البابا اعتقاداً يوجب عليها الخضوع له والاستكانة لاوامره وغير ذلك من الاعتقادات المسيحية الفاسدة

قام بتلك الحركة الدينية التي نشأ عنها الاقسامات بين الشعوب وجعل كل شعب يعار من الآخر ويحارب به في سلوك سبل النجاح . وخلاصة الامر ان تمدن أوروبا ينسب الى تلك الحركة ومبدأه من ذلك المهد

قلت ان دينهم فاسد فأصلحوه وديننا بحمده تعالى للآن محفوظ من التبديل والتغيير فكيف تكون حركتنا الدينية وعلى اي شئ مبناها ؟ فقال حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي مثل حملهم القضاء والتقدر على معنى يوجب ان لا يتحركوا لطلب مجد ولا لتخلص من ذل ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذي حملهم على عدم السعي وراء الإصلاح والنجاح ومثل . . . ومثل . . . فلا بد من بث العقائد الدينية الحقبة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب وحملها على محاملها الصحيحة التي تهودهم لما فيه خيرهم دنيا وأخرى . ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا وتقيحها وتأليف كتب فيها قربة المأخذ سهلة الفهم لتستعين بها على هدمنا لا أن نجعلها علماً مقصوداً لذاته كعلم النحو والبلاغة يصرف الانسان جلّ في حياته الاشتغال فيها ولا يقتدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم في نفسه من الافكار والامور التي يرجع اليها لإصلاح في الوطن وتعزيز للدين وهوية للامة

« وهنا شرع في بيان سوء اشتغالنا في العلوم على غير طائل حتى ان الغير اهتدى الى لب تلك العلوم واستعان بها على تهويم اعوجاجه وتركنا نحن نتخبط في مهامه الحيرة والغفلة وتبته في فيافي الجهالة غير مباليين بما ينجم عن ذلك من الدمار والانحماء من صفحات الوجود » فلا بد إذن من الحركة الدينية ، ، ، اه ما كتبه المغربي من محاورته مع السيد

وهكذا كان السيد يدعو كل من لقيه من المسلمين الى الإصلاح الديني ويخاطبه في ذلك على قدر فهمه ولا شيء من آثاره ينجلي فيها ذلك الا العروة الوثقى التي عرفنا منها مذهب هذا على ما فيها من الاجمال ولكن الاستاذ الامام هو الذي كان يسلك مسلك التحلي والتفضيل ، وهو المثال الكامل الذي عرف به فضل جمال الدين

﴿ عشق المؤلف للسيد وكتابه اليه ﴾

نشأ مؤلف هذا الكتاب نشأة دينية صوفية فحب اليه النسك والتحنث منذ سن المراهقة بل التميز وكنت لا يلذ لي شيء كقراءة أخبار الصالحين والذكر والصلاة وهديت الى قراءة إحياء العلوم قبل طلب العلوم فأكبت على مطالعته مع مطالبة النفس بالعمل به ثم اشتغلت بطلب العلوم ولم اترك التصوف بل سلكت معه طريقة التقشيدية فنغني التصوف في طلب العلم من جهة واضربي من جهة اخرى فاني رغبت عند دخول (المدرسة الوطنية) عن درس اللغتين التركية والفرنسية لاعتقادي يومئذ انه ليس في دراستها فائدة دينية ولا هما مما يطلب لوجه الله عز وجل

وقد غلب عليّ الزهد وبنفض الحكام والسرفين من اهل الدنيا حتى كنت انكر على من أراه منهم كل منكر يأتيه . فانكرت على والي بيروت مرة لإساءة صلاته وهو في مسجد « السراي » بطرابلس حتى لاني على ذلك بعض العلماء الرسميين وانكرت على كثير من رجال العدلية وغيرهم سيرتهم وحملهم للساعات والسلاسل الذهبية وغير ذلك

ثم اتفق لي ان كنت اقلب في اوراق والدي (رحمه الله تعالى) فرأيت عدد من جريدة العروة الوثقى قرأتها بشوق ولذة فعلا في نفسي فعل السحر فطقت أبحث عن سائر الاعداد فوجدت بعضها عند والدي ووجدت الباقي عند استاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي فاستنسخت الجميع وقرأته المرة بعد المرة فانتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي وهو انه ليس روحانياً أخروياً فقط بل هو دين روحاني جسماني أخروي دنيوي من مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الارض بالحق ، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل ،

وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيمهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا . وكنتم مجداً في ذلك حيث

كنت حتى اذا ما اردت ترويح النفس في بعض قرى الكورة (من لبنان) أخذت معي مثل كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) لأتوكلأ عليه في المواعظ التي كنت أُنْهَى في كل مجلس فقلعت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة الى المدينة والمحافظه على ملكهم ومباراة الأم العزیزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة فطفقت أستعد لذلك استعداداً

و كنت أبحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده وعماقيل فيهما وما كتب عنهما . و كنت اناضل دونهما وادافع عنهما بحجاسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ احد على الطعن فيهما أمامي . ولما اشتدت المناقشة بين السيد وبين الشيخ ابي الهدى افندي في الاستانة وصار بدري باشا احد انباء ابي الهدى متصرفا في بلدنا (طرابلس) وكان ما كان لصانعه نبي الانجا من النفوذ والبعي كنت في دفاعي عن السيد عرضة للايذاء ولكن ذلك لم يحولني عن مذهبي حتى إني جاهرت بذلك في دار بدري باشا على مسمع من مصطفى باشا الانجا . واني اذكر هنا صورة الكتاب الذي أرسلته من طرابلس الى الاستانة وهو يمثل حالي في ذلك الوقت تمثيلا بينا وهو بحروفه :

كتاب المؤلف الى السيد جمال الدين

(في سنة ١٣١٠)

الحمد لله على افضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، وعلى سيدي بل السيد المطلق، ذي القدح المعلي والجواد المصلي الاسبق، سدره متهى العرفان، وجنة مأوى المحاسن والاحسان، الذي له في كل جوّ متنفّس، ومن كل نار مقتبس، الامام المفرد، والعقل المجرد، حجة الاسلام، وعلم الأعلام، أخطب الخطباء، وأبلغ الكتاب، من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، بدل الأبدال، سيد الآل، الانسان الكامل، الوارث الكامل، المرشد الكامل

مبيط الفيض مصعد الكلم الطيب . . . ب مجلى سر الجمال الأكل

جمال الدنيا والدين، وبقية رجا المسلمين، أيده الله تعالى، وزاده رفعة وكالا ان فرط الشغف بالجمال، ومساهمته بالانتساب للآل، قد حملاني على غارب الجرء

والإقدام على خطابه خطاب نسيب لنسيب، ومحب لحبيب، ومفادرة الأحرى بل الواجب الذي لا تخير فيه من مخاطبته مخاطبة مملوك للملك كريم، وخدام لسيد عظيم، وعليه قلت :
اني منذ لاحت على مخايل التميز ما نهي الى خبر الأذ وأشهى، ولا انبل واسمى،
من خبر سيدي (جمال الدين) نبأ عظيم غرس في قلبي حبة الحب والشغف وسقاها
بماء الحياة فنبتت نباتا حسنا، وامتدت أغصانها، وتشعبت افنانها، حتى لم تذر في أرض
الجسم ذرة من دقايقه الا وجدورها راسخة فيها . شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في
السماء توثني أكلها كل حين بإذن ربها ، جنيت منها ثمرة حب الحكمة واقتطف
الناس منها ثمار الثناء، على حكيم الحكماء، أعزه الله تعالى . ولم تزل تنمو بنموي حتى كأنها
من عناصر جسدي ، وتقوى بقواي العاقلة حتى كأنها من مقومات ماهيتي ، وهي الآن
أرسخ المملكات في نفسي : لا أتبوا مجلسا ولا أفيض في كلام الا ويكون ذكر الجمال
فاتحته أو ختامه، او متخللا أجزاءه واقسامه، ان لم يكن هو موضوع الكلام ، حتى عرفت
بين المعاشرين، بعاشق جمال الدين، وربما دعاني بعض الاصدقاء بالداعي له (واحد
الدعاة) لا سيما وأنا أعد له ما يعد عليه (كدخول الماسونية والجلوس في الاماكن العامة
وطول الاقامة في أوربا وتقريب وإرشاد غير المسلمين في البلاد الاسلامية)

إني حتى الآن لم أقف على شيء من سيرة سيدي الاما كتبه سليم أفندي العنحوري
في كتاب له خلط فيه الخطأ بالصواب : وما نقل في متخبات اديب بك اسحق وما
كتبه الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده (حياه الله تعالى) على رسالة سيدي في
النسبة بين الدين والكفر في العمران (١) ولم أحظ بشيء من آثاره النفيسة إلا
الرسالة المشار اليها آنفا وتاريخ الافغان والاعداد الـ ١٨ التي صدرت من العروة الوثقى
هذا كل ما ارويه وأوثره عن سيدي وهو ان كان قليلا بالنسبة لمن أضرب به
الظما فلا يكتبني بقليل من الورد لكنه لا يقال له قليل بالاضافة لما فيه من عظيم
الفائدة التي لا يعني عنها لقاء المثين والالوف من المشيخة ولا مطالعة أسفار المتقدمين
والتأخرين في الفنون العديدة

(١) اني منذ اطلمت على هذه الرسالة وسمتها بهذا الوصف الذي ذكرته لمؤلفها

فله أنت من ذي نفس زكية ، وروح قدسية ، ماهبت نفحة من معارفها في
جوّ قوم الا ونفخت في ريمهم روح الفضل ، ولا تدقت امواه فضائلها في ارض امة
الا وجرفت منها ادران الجبل ، بل اقول لا تنبث من ذلك الذهن المشتعل بالانوار ،
ذرات الفكر في فضاء قطر من الاقطار ، الا تكون منها في سماء العقل من كواكب
العرفان ، ماهو افيد من النظام الشمسي في عالم الحسن والعيان ، وعلى هذا انما
اجدركم بقول القائل

أبدأ نحن ايكم الارواح ووصالكم ريجانها والراح

وما أعذرني وأنا أعد قربكم أفضل القربات ، ولقاكم غاية انغيات ، واني اسير
كناي هذا ليكون مستنحاعواطفكم ، ومستجديا مكارمكم ، قبولي لديكم بصفة مريد
يتلقف الحكمة ، وتليذ يقوم ببعض الخدمة ، يساهمكم السراء والضراء (وقاكم
الله) ويسيركم في الزرع والرخاء (حماكم الله) ولا أراني ارد عن أبواب فضلكم
فما جزاء من احب الا ان يحب وللرحم حقوق مثل سيادتكم من يراعيها ويصلها ،
ثم ذكرت له في آخر هذا الكتاب ماخص ترجمتي ولا حاجة الى اثباتها هنا
على اني لم أجدها كلها فقد كنت كتبت لهذا الكتاب مسودة بقلم الرصاص على ورقتين
فقدت مني الصغرى منها وفيها تمة الترجمة وعبارة اخرى اذكرها بنصها تقريبا وهي
قولي في الاعتذار عن عدم المبادرة الى الرحلة اليه في الاستانة « لاني اعتقد
ان القسطنطينية على سعتها بل المملكة العثمانية بما رحبت لا يفسح فيها لسيدي مقام
لأن ممالك الشرق امتست كالمرضى الاحمق يأتي الدواء ويعافه من حيث إنه دواء »
وقد كتب الي الشيخ عبد القادر المغربي من الاستانة أنه اجتمع بالسيد وانه
ذكر كتابي اليه فاثني عليه مبالغا في الثناء وأمره ان يبلغني ذلك معتذرا عن عدم
الكتابة الي بانه ليس عنده قلم ولا دواة ولا ورق (اي كان ممنوعا عن مكتابة
الناس او ممتعا عنها حتى لا يسوء ظن السلطان به) وذكرك لي احمد بك رشوان
وغيره ممن كان يتردد عليه من المصريين أنه كان يثني على هذا الكتاب وعلى
صاحبه ويقرأه لزاثره المرة بعد المرة . ولا سبب لذلك الا الاخلاص الكاتب
وشعور المكتوب اليه بذلك

﴿ نهاية امره في الاستانة ﴾

ذ كرنا خبر مجي السيد الى الاستانة وحفاوة السلطان به . وقد كان لما طلبه السلطان من لندرة تمنع وكان ممن كتب اليه واجتهد في اقناعه الشيخ ابو الهدى افندي الشهير وكانت المادة بينها في أول مقدمه شديدة وانخدع السيد بحفاوة ابي الهدى واجلاله له فأحسن به الظن كعادته فكان يثني عليه ثم لم يلبث ان قلب له ظهر المجن ومحل به عند السلطان وعرقل عليه عمله في شد او اخي الاخاء بين العثمانيين والفرس أو بين اهل السنة والشيعة ووسوس للسلطان في شأنه ماشاء ان يوسوس حتى قويت ريبته فيه وجعله موضع الظنة واكثر من العيون والجواسيس حوله حتى ضاق صدره وناهيك بجحاة من كان اشد الناس حرية وعزة في ضيافة السلطان عبد الحميد وتحت مراقبته مراقبة من يخشي منه على المملكة او الخلافة !!!

حدثني الثقة قال حدثنا السيد جمال الدين بالاستانة فقال ما مثاله : ان الخديو كان شديد الرغبة في لقائي لما كان يسمع عني من اولادي واحفادي بمصر فأرسل الي في ذلك فقلت لا بد في ذلك من اذن السلطان فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال الماين فكانوا يرجئون ويسوفون ويجمعون في الجواب ولا يفتضون وينا انا جالس في الكاغدخان (متنزه مشهور في الاستانة كالجزيرة بمصر) أصيل يوم من الايام كعادتي واذا أنا بفارس قد اقبل علي وترجل مسلما فقلت من انت ؟ قل عباس حلمي . فكثنا ساعة زمانية تحدثت . وطار الجواسيس الى السلطان بالخبر فأرسل الي فلما لقينته قال : تريد ان تجعلها عباسية ؟ فقلت ان بني العباس قد انقرضوا وبنو علي أولى « ثم قال ان مولانا يريد عباس حلمي وهل هي خاتم يدي فأضعها في اي إصبع شئت

وذكر غير هذا الراوي ان السيد لم يفهم ان السلطان يريد بقوله « أنريد ان تجعلها عباسية » جعل عباس حلمي باشا خليفة فأجاب بما أجاب . وكنت عند سماع الرواية الأولى فهمت انه قال ذلك أولاً على سبيل المغالطة . فبمثل هذه الأوهام

كان شياطين الانس يوسوسون للسلطان ويخوفونه من السيد حتى حرم الاستفاضة منه

وحدثنا الثقة أيضاً ان السيد جمال الدين كان يركب عربته كل يوم بعد العصر فيذهب الى الكاغدخان ففطن لجاسوس كان يتبعه ماشياً فقال لجماعة السلطان في نفس الماين انكم قد اعطيتموني مركبة وجعلتم لي جاسوساً بغير مركبة فاذا أنا أسرع بعربي طفق يعدو ورأني وهو يلث كالكلب ولا يدركني فهلا وحمتموه فأعطيتموه عربة ليدركني أنى سرت ؟ ؟



(هذه آخر صورة للسيد قبل مرض وفاته)

(١٢ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

وقد بالغ الشيخ أبو الهدى في عداوته والكيد له حتى كان يسعى في ايذاء من يذكره ببحر أينما كان من بلاد الدولة . وكان يطعن في نسبه ودينه كما هي عادته فيمن يستاء منهم فانه يجردهم من اللباس الذي فصله وخطه لنفسه ولم يرضى عنهم من انصاره . وقد كتب إليّ في ٢٩ رجب سنة ١٣١٦ كتابا قال فيه « اني أرى جريدتك طاغية بشقاشق المتأفمن جمال الدين الملققة وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان يزعمها زورا وقد ثبت في دوائر الدولة رسما انه ما زلت اني من اجلاف الشيعة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » وكذلك قال الشيخ أبو الهدى في امام الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلي الذي هو من أشهر الشرفاء ، في كتب لفقها باسماء الاموات والاحياء ، ولا ندرى في أي دوائر الدولة يسجل شتم الناس فنصدق خبر أبي الهدى كذلك كان شأنه في الاستانة في آخر أيامه بمساعي أبي الهدى الى ان توفاه الله اليه



وهذه صورة السيد بعد العملية الجراحية

﴿ خبر مرضه ووفاته ﴾

المشهور انه أصابه وجع في احدى اسنانه أو أضراره فأشار الطبيب بقلعها فحصل له التهاب في موضعها كان يعالجه له الطبيب ثم ظهر في فكها السرطان فعملت له عمليات جراحية فلم تقدر ولم يلبث أن توفي على أثرها فتشاع في كثير من البلاد انه مات مسموما كما شاع مثل ذلك في موت الاستاذ الامام وموت السيد عبدالرحمن الكواكبي ولما توفاه الله تعالى صدرت الارادة السلطانية الى الجرائد العثمانية بأن لا تكتب في شأنه شيئا بل ضبطت الحكومة في سوريا جميع الجرائد والمجلات المصرية التي أبنته واعني غير الممنوع منها كالهلال والبيان . وإنا نحتم الترجمة ببعض ما كتبه الصحف المصرية من خبر مرضه وموته

جاء في المؤيد الذي صدر في ٥ شوال سنة ١٣١٤ و ٩ مارث سنة ١٨٩٧ مانصه
 « علمنا من اخبار الاستانة العلية ان صحة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني في غاية الاعتلال شفاه الله وعافاه . وقد اقتطع حضرته عن الكلام بالمرّة إثر العملية الجراحية الثالثة التي عملت له أخيرا فقطع فيها جزء من لسانه واستنصل الفك الاسفل . وجلالة دولانا السلطان قد كلف جملة من أطبائه الخصوصيين بعيادته على التناوب ويرسل الاستفسار عن صحته كل وقت رسلا وكثيرا ما يتوجه عطفوا عزت بك (العابد) من قبل الحضرة السلطانية لبيادته فيجد فضيلة السيد من هذه العاية ما يخفف آلامه لطف الله به

وفي العدد الذي صدر في ١٠ شوال و ١٥ مارث مانصه

انا لله وانا اليه راجعون

« نعمت الينا أخبار الاستانة العلية المغفور له الاستاذ الفاضل والفيلسوف الشير السيد جمال الدين الافغاني .

« توفي رحمه الله في الساعة ٧ و ١٣ دقيقة من صباح يوم الثلاثاء الماضي خامس

شوال (٩ مارث) الماضي (كذا) حيث كان يعوده كثير من الحاشية والخدم الذين خصصهم له مولانا السلطان الاعظم في منزله يشكطاش
ولما حضرته الوفاة كان في خدمته كذلك حضرة جورج افندي كوتشي أحد موظفي محافظة مصر سابقا حيث يقيم معه من مدة وهو الذي ناهاه الى المابين الهايوني فصدرت الارادة الشاهانية الى سعادة حسن باشا ضابط بشكطاش ان يعد جنازته ويشيعها بالاحتفال اللائق . وبلغ الخبر جماعة من حضرات العلماء الاعلام فبادروا الى منزل الفقيد كما بادر اليه كثيرون من رجال الدولة وبينهم سعادة سهل باشا نجل دولو فضل باشا العلوي وحضرة علي بك راغب المصري من ضباط البحرية العثمانية وقد شيعت جنازته بالاحتفال اللائق حيث دفنت جسده في قرافة « شيخلرمزارغلي » أي مقبرة المشايخ

« ولقد أسف جلالة السلطان عليه شديد الاسف كما حزن عليه أصدقاؤه وكبار المابين الهايوني الذين كانوا يعرفون فضله ويقدرونه حق قدره

« وجاء خبر وفاة الاستاذ الفقيد رحمه الله أمس لتغرافيا على حضرة الفاضل ابراهيم افندي القاني فأبلغنا إياه ولكن كان ذلك بعد ما طبع أكثر الجريدة . ثم جاءنا كتاب خصوصي من الاستانة العلية مساء أمس يفصل الخبر بما تقدم ولا شك ان وفاة هذا العالم العظيم تحزن جميع العارفين بفضله وما كان منفردا به من قوة الحجّة والعارضة في الكتابة والخطابة مع التضع الرائد من العلوم العقلية والتقليية وسعة الاطلاع في المعارف الحديثة . فنحن نعزي أنفسنا وكل أصدقاؤه وتلامذته على وفاته ونسأل الله تعالى له الرحمة والرضوان »

وجاء في المقطم الذي صدر في ١٥ مارث ما نصه

« بلغنا نعي العلامة الشهير ، الغني عن الوصف والتعريف ، السيد جمال الدين الافغاني بعد صدور جانب من المقطم يوم السبت فذكرناه في الجاناب الاخر وما ذاع هذا البأ في أطراف العاصمة حتى جل الخطب على كل أديب ، واشتد الاسى على كل من عرف فضل رجل طبق صيته المشارق والمغارب ، وكان منارا للحرية

والعرفان في كل مكان احتله، وتعلقت به افئدة النجباء والاذكياء في كل بلاد اقام بها، ووقفت تعاليمه وآراؤه في نفوس الادباء وقمأعجيباً، حتى انك لتراه في كل جهة من جهات المشرق يتحدثون في مجالسهم بمواهبه ويتناقلون اقواله، فقد شهد الشرق به علماً يهتدى بعلمه، وركنا يعتمد عليه، وداعيا الى الحرية يقندي به في الدعوة اليها، ومقداما لا يهاب كبيراً في المجاهرة بضميره، ولا يراعي اميراً في ما ليس من رأيه، ولسنا ندعي في هذه المجالاة ايفاءه حقاً من حقوقه المتعددة في عالم الأدب والعلم والحرية، على انا سننشر ترجمته مفصلة في المقتطف. وكانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء في التاسع من هذا الشهر بداء السرطان فراح مأسوفا عليه مبكياً من جميع تلامذته ومريديه واحتفل بآتمه في الاستانة احتفالاً يليق بمقامه ومكارم الحضرة السلطانية فعزى جميع انصار الحرية ومحبي العلوم والفضائل عن فقدته، ونسأل له الرحمة والرضوان ولهم طول البقاء من بعده،»

ثم جاء في العدد الذي صدر منه (اي المقطم) في ١٨ مارث مانصه
 « كتب النا صديق يوثق بروايته تفصيل وفاة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وهو يخالف ما نشر من هذا القبيل قال : رأى الطيب هرون صباح الثلاثاء في ٩ الجاري ان ساعة وفاة السيد قد دنت فقصد جرجي افندي كوني صديقه الأمين وأيقظه من نومه قائلاً ادرك السيد فقد حضرته منيته وقد تركته وهو يحاضر فأسرع جرجي افندي الى منزله فوجده في حالة النزاع وليس عنده غير خادمه فلما رآه امسك يده وكلما اشتدت عليه الحشجة حول عينيه اليه، كأنه يرتاح لوقوع عينيه على عينيه، ثم اسلم الروح في الساعة السابعة والدقيقة ١٣ من صباح ذلك اليوم. فأبلغ جرجي افندي الماين خبر وفاته في الحال فجاء بعض الاطباء وشاهدوه ثم أثبتوا الماين وفاته فصدرت الارادة الى حسن باشا ضابط بشكطاش بضبط أوراقه وسأثر تركته فحضر حسن اشا ومعه بعض البوليس وبعض الجواسيس ودققوا في البحث والتفتيش وضبطوا كل ما كان باقيا عنده . وفي الساعة العاشرة امروا بدفن الجنازة في مقبرة بجهة نشان طاش اسمها « شيخلرم زارلني » فأرسل جرجي افندي الى اصدقائه يخبرهم بوفاته فلم يحضر أحد منهم غير سهل باشا ابن فضل باشا الملاباري

وعلي قبودان راغب المصري ثم حمله اربعة من حمالي الاستانة على اكتافهم وسار بعض رجال البوليس حولهم يخفرونهم ودفن كما يدفن اقل انسان في بلاد آل عثمان و بقي السيد رحمه الله خمسة أشهر يقاسي ألم السرطان وعذابه وقطع السلطان عنه راتبه منذ زمان فاشتدت عليه الحاجة والفاقة في مرضه ورجال المايين يشيعون ان السلطان يفيض عليه النعم ويغمره بالاحسان انتهى بمعناه. هذا واأسفاه ما يعامل به الفضلاء اذا قضوا نجبهم في دار السعادة »

وكان المقطم ذكر في العدد الذي صدر في ١٣ مارث و٩ شوال خبر اشتداد المرض على السيد وقال « ويقال ان السلطان ينفق عليه ١٨٠ ليره في الشهر آملا ان يشفى من مرض قلت فيه حيل الاطباء » وهذا يدل على ان المقطم كان يكتب مايلفه بدون تحامل . ولكن اصحابه لم يذكر وا ترجمته في المقطف كما وعدوا وقد كتب الينا بعض المطلعين على الجرائد المصرية والمتقنين لأخبار السيد من العارفين مايؤيد رواية المقطم الاخيرة في الجملة وزاد ان جرجي افندي انفق على السيدمستي ليرة وان المايين لما بلغه ذلك بعد موت السيد أراد ان يعطي المبلغ لجرجي فلم يقبله . ومما رواه الكاتب من خبره عند مادعي الى السيد وهو محتضر انه قال « دخات عليه وهو وحده يعاني سكرات الموت فاحترت ماذا اصنع والمحتضر يصلي او يذكر الله الله الله وأنا أدور من حول سريره حتى استأثر الله به »

تأين مجلته البيان

﴿ وترجمتها للسيد جمال الدين ﴾

كتب الشيخ ابراهيم اليازجي الكاتب اللغوي الشهير في الجزء الثاني من مجلة البيان الذي صدر في اول ابريل سنة ١٨٩٧

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الاقناني ﴾

هذا جمال الدين امسى نازلا
قد رز به عم البكاء على امرئ
جدثا تضمن منه أي دفين
فقدت به الدنيا جمال الدين

« نعمت الينا انباء الاستانة انسان عين الفضائل والكمال ، وجمع اشعة الحكمة بل قطب دائرة العلوم على الاجمال ، رُحلة البلغاء وقدوة العارفين ، وقاضي علوم الدنيا والدين ، السيد جمال الدين الحسيني الافغاني المشهور، فرع الارومة الزكية ، وسليل الحسب القائم من منصب السؤدد في الذروة العلية ، فكان لمنه يوم اشتد وقسه على القلوب والمخالب ، وطال في وصفه أذن الاقلام فأمدتها بالدمع عيون المحابر ، وكيف لا وهو خطيب الشرق الذي رنَّ في الخلفين صدى خطابه ، وامامه الذي انبثقت انوار اليقين من سماء محرابه ، واستاذ علومه الذي ما فتئت الحكمة تتدقق بين فؤاده ولسانه ، وتطلع شمس البلاغة من ين خاطره ويانه ، وبجري مناهل العرفان ين اطلاقه وبنانه ،

« قضى رحمه الله في التاسع من الشهر العاشر بعلية السرطان وقد تثبت منه بين الملك والنحر ، ودب في مجرى الفصاحة منه ولا عجب ان يدي السرطان في البحر ، قبض ذلك اللسان عن تدفق عيابه ، وحيس تلك الدرر قلا يبرز مكنونها من حجابيه ، الى ان نقله الله الى جواره فذهب حميد الاثر ، ودقن في قراقة المشايخ مذكورا بالرحمة ما غاب قمر ، وناح طائر على شجر ،

« وهذه ترجمته نلخصها عن فصل لحضرة العلامة العاضل الشيخ محمد عبدالمشهر صدر به تعريب رسالته التي كتبها في ابطال مذهب الدهريين على ما سيجي ، ذكره في الترجمة قال حفظه الله :

(وهنا ذكر لمخص الترجمة التي تقدمت في ص ٢٧ - ٣٥ ثم قال)
 « ووقفنا له على ترجمة اخرى بالغة الفرنسية فيها انه بعد ما فارق اوربا سار يريد نجداً فوافقه رسالته برقية من الشاه ناصر الدين سلطان المعجم يدعوه اليه فتحول قاصداً بلاده ولما بلغ طهران احتفل به الشاه احتفالاً بالفاً وادناه منه ورفع منزله وسماه وزير حربيه وكان ينوي ان يرقيه الى مقام الصدارة

« وبعدها ان اقام مدة ببلاد فارس شاع ذكره وتناقلت الالسنه فضائله وغزارة علمه وادبه فتواردت عليه الخواصة من وجوه البلاد وامراتها وعلماؤها ورأوا من كمال فضله وسعة معرفته باحوال السياسة والتاريخ وسائر العلوم قديمها وحديثها وتبحره في معرفة

الاديان مع ما رزقه من توقد الذهن و بلة المنطق و قوة الخطاب ما بهرهم و عظم به وقعه في نفوسهم فانصرفت اليه الوجوه و ملكته القلوب اعنة احوالها و رأى الشاه أن تسلطه على النفوس يزداد كل يوم و حرمة تعلقه عند الامة فاستشعر خشية من امره و اضمر الحذر من ناحيته و تبين السيد جمال الدين ذلك من قبل الشاه و استأذنه في الانصراف و خرج من البلاد الايرانية فصار الى موسكو ثم تحول الى بارزلشهود معمرضا الذي كان سنة ١٨٨٩ و فيها هو ماري موزيخ من بلاد الالمان و افاق الشاه بها فاجل ملتقاه و دعاه للمصير الى بلاده و ألح عليه في ذلك فسار في صحبته و ما كادت تستقر قدمه في بلاد ايران حتى تألب القوم حوله بما ارى على ما كان منهم في المرة الاولى ثم رغب اليه المتقنون منهم ان يرسم لهم قوانين دستورية تجري بها الاحكام في نصابها من النصفة و العدل و تلزم الاحكام العمل بمقتضاها فأسر جمال الدين ذلك في نفسه ثم تلطف في عرضه على الشاه فاستصوبه و مال الى موافقته عليه لكنه لم يلبث ان نكل عن قبوله بمشورة الصدر الأعظم فانه حذره عواقبه بحجة ان الامة غير متأهبة له فصلا عن انه يؤدي الى تقييد سلطة الشاه و ربما كان سببا في تقويض عرشه فلما رأى جمال الدين ذلك خرج الى المشهد المعروف بشاه عبد العظيم وهو مقام مبني على نحو اثني عشر ميلا من طهران يفضى اليه بسكة حديد فاستمر اقوم يختلفون اليه في مقامه ذلك يفاوضونه فيما اشربته قلوبهم من أمر القوازين و الاحكام الى ان اتى على ذلك نحو من ثمانية أشهر و أمره لا يزداد الا انتشارا حتى ثارت الخواطر في جميع اطراف البلاد

د و تخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه فوجه الى الشاه عبد العظيم خمس مئة فارس مدمجين بالسلاح قبضوا عليه وهو مريض في فراشه و قاده خمسون منهم الى الحدود العثمانية فكان عن ذلك هرج شديد في البلاد الايرانية و انتشرت المشاغب و كثرت الرسائل و المنشورات و تواردت على الشاه كتب التهديد بان يجري على مقترحهم أو يخلع نفسه من الملك حتى بلغ منهم ان حاصروه يوما في قصره . و سار جمال الدين بعد ذلك الى البصرة لتفانم العلة عليه بسبب اشتداد البرد في تلك الديار فلبث بها سبعة أشهر الى ان تماثل من مرضه ثم نهض متوجها

الى لندره فأنشأ بها جريدة سماها ضياء الخالقين) أكثر فيها من الطعن في سياسة
الشاه وتهديج خواطر الامة من رعيته عليه وكان يكثر التردد الى المحافل السياسية
يخطب فيها في امر الشاه وحض رجال الدولة الانكليزية على خلمه واقام على
ذلك مدة ثمانية أشهر وفي اعقاب ذلك بعث السلطان عبد الحميد يستدعيه اليه على
يد رستم باشا سفيره في لندره فأجاب بعد ما امتنع على ان يؤذن له في العودة الى
أوربا متى شاء وقدم الاستانة سنة ١٨٩٢ فلقاه السلطان بتعطفاته واحسانه واجرى
عليه زرقا واسعا وكان كثيراً ما يدعوه ويخلو به في اغراض سياسية ليس من شأن
هذه المجلة التعرض لها ولا لغيرها مما اتفق له من الحوادث مدة اقامته بالاستانة
حتى ظهر فيه الداء فألزمه الفراش أشهراً قاسى في اثناها عذابا واصبا الى ان اختار
له الله ما عنده فذهب مأسوفا عليه نعمده الله برضوانه وافرغ عليه سبحانه
رحمته وغفرانه

* * *

هذا ما وقع الينا من ترجمة هذا الرجل الشهير وهي كما تراها أدنى ان تكون
ترجمة رجل سياسي قد جعل نُصب ناظره غرضاً بعيداً لا تبلغ اليه ذراعه، ولا
تصبر عن همته وأطعاه، فهو أبداً تمثل يقظته وطيف منامه، وحديث خواطره
في رحلته ومقامه

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً قلبك يوماً أتيتك المناظر
رأيت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر
فأقبل يضرب اليه آباط المسالك، ويكثر في التماسه من الحركة في البلاد
والتنقل في الممالك، لا تستقر له قدم ولا يقف على ساق، ولا ينزل رحله في أفق
من الآفاق، ولسان حاله ينشد قول المتنبي:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبغني؟ ما أبغني جل ان يُسمى
وإنما تدرك الآمال، بمضافة الرجال، وتبلغ الأوطار، بموازرة الأقدار،
ولا نصير اذا لم ينصر القدر، ولا رفيق اذا توعدت شقة السفر، وكانت محفوفة
(ج ١٣ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

بالخطر ، فلا عجب اذا قصر مشايعوه عن مجاراته ، وتخاذل مريدوه عن موالاته ، فكان كما قال المتنبي أيضا

وحيد من الخلاف في كل بلدة اذا عظم المطلوب قل المساعد
وانما هي نفسه الكبيرة اقدمت على ركوب العظام ، ومته ان يبلغ منفردا
ملا يبلغ الا بالجيش الخضارم ، فلا مأربا نال ، ولا نفسه اقل ، ولكنه اضاع ايامه
في الطلب ، ولم يجن من امانيه سوى النصب ، وما احسن ما قال المتنبي أيضا
واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام
وانما انتزع المتنبي هذه المعاني من صحيفة ايامه ، وما قرأ فيها من تخلف جده وتقدم
إقدامه ، كما قال :

أبدأ أقطع البلاد ونجمي في هبوط وهمتي في صعود

قد طبع الرجلان على غرار واحد وان تفاوتا المحتدان ، ونشأ في منشأ واحد
وان تباين البلدان ، فدرج كل منهما بين صليل السيوف وصهيل الجياد ، وترعرع بين
مزاحف الصفوف ومواقم الجلاد ، في بلاد لا حكم فيها الا للغالب ، ولا شرع الا ما
حكمت به شفار القواضب

وحقيق بمن ربي على مثل تلك الحال ، ان يخرج صلب النفس ورغيب الآمال ،
ولاسيما اذا كان له قديم يرجع اليه يبصره ، او فائت يستعنه للكر على أثره
وعجيب من مثل السيد على استضاءة بصيرته بنور اليقين ، ووضه بين حاشيتي
علوم المتقدمين والمتأخرين ، ووقوفه على يفاع من الحكمة بجمع الدنيا به بنظرة ،
ويستقصي اطرافها بلحمة ، وقد تجردت له عن زيتنها وزخارفها ، وأماطت له اللثام
عن أباطيلها وسفاسفها ، أن يقى في نفسه مكان شيء منها يقال له الرئاسة ، وتترع
همته الى حال من احوالها تسمى بالسياسة ، بل ما كان اجدره وقد رزق من توفد
الذهن وسعة المحفوظ ما كان فيه آية من آيات الله ، وأوتي من قوة الحكم وسرعة
الخطاير ما انفرد فيه عن النظراء والاشباه ، ووعى في صدره من انواع العلوم العقلية
والقلبية ما كان فيه نسيج وحده ، ومن سياسات الممالك وتواريخ الامم ما عزر على غيره
من بعده ، ان ينزل نفسه من دنياه حيث انزلته الفطرة ، ولا يتعدى ما قسم له القدر

ووجد من نفسه عليه القدرة، فيجعل أيامه وقفا على الاشتغال والنفع، واستزادة ماشاء الله من العلوم مما هو متأهب له بالطبع، وتسطير ما يفتح به عليه مما غفل السلف عن تدوينه، أوفاتهم الوصول اليه من علوم هذا العصر وفنونه، ولو فضل لكان إمام الدنيا ملا مدافع، وكانت حياته طافحة بالفوائد والمنافع، وتجاوزت الآفاق من صدى ذكره بما يأتي عليه كرور الليال، ولا ينقرض الا باقرض القرون والاجيال، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو الكبير المتعال،

اه ما كتبه اليازجي ونجيب عما تعجب منه بكلمة واحدة وهي ان السيد رحمه الله كان يشتغل بالسياسة لانه يرى أنها اذا لم تصلح لا تدع احدا يعمل لإصلاحا، ولا يطلب فلاحا، ولا ينشر علما يرقى به الأمة، ولا بطوي وهما يكشف به الغمة، وان هي سمحت لمثله بالإصلاح يث العلوم، وتربية الارواح والعقول، فان طريق ذلك يطول عليه، وربما حالت المطامع الاجنبية دون الوصول اليه، فهو ما اختار الإصلاح من طريق السياسة الا لاعتقاده ان العمل من طريقها أسرع تأثيرا من العلم والكتابة لا لأجل الرياسة كما علم من مجموع ترجمته

وكتب صاحب مجلة الهلال ما ملخصه :

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الافقاني ﴾

(ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٩ م) وتوفي سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م)

قد تمرُّ القرون وتتوالى الاجيال والناس على ما ساقهم اليه الحاجة في شؤون معاشهم لا يفقهون عنها من سمينها ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها حتى تتمخض الطبيعة قتلد من ابناؤها افرادا يميطنون عن اسرارها اللثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين. أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مرزقوا استار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فهدوا سبل الاختراع والاكتشاف ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا اسرار الحكمة

المسترة وراء تلك النواميس وينبوا ما أودعه الخالق في خليقته من القواعد العقلية والروابط الأدبية

ولكن الطبيعة لا تجود بواحد من أولئك الافراد إلا كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته أجيالا حتى إذا كادوا يرجعون إلى غيهم جادت عليهم بآخريغث فيهم روحا حية فيتهون من رقادهم ويعودون إلى رشدهم رينما يأتهم ثالث هكذا كان شأن العالم في بدء عمرانه ومن أولئك الفلاسفة سقراط وأفلاطون ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا تزال نستضيء بنبراسهم ولكن لله في خلقه حكمة لا تدرکہا العقول فقد ينبغ في بعض الاجيال افراد توفرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال الاعمال فتحيط بهم بينات لا تصلح لتمام ما يفرسون فيذهب سعيهم هباء مشورا

ولما كان الانسان لا يقدر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الارض جهل الناس حق قدرهم واغفال التاريخ ذكركم كما هو شأننا بقعيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله فقد نشأ قطبا من اقطاب الفلسفة وعاش ركنامن اركان السياسة ولكنه مات ولم يتم عملا ولا الف كتابا . على أن ذلك لا يحبط من مقامه وقد رأينا اعظم فلاسفة اليونان (سقراط) مات ولم يدون شيئا من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثتها الاجيال خلفنا عن سلف . فعسى ان لا نحرم من مر يدي الاستاذ وتلامذته من يفعل مثل ذلك »

ثم ذكر الملل ملخص ترجمة الاستاذ الامام له مع زيادات منها ما كان من شأنه في بلاد فارس على نحو ما ذكر في مجلة البيان . ومنها قوله قبل ذلك « وقضى جمال الدين في باديس ثلاث سنوات نشر في جرائدها مقالات تبحث في سياسة روسيا وانكلترا او الدولة العلية ومصر ترجمت جرائد انكلترا كثيرا منها وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسي رينان في « العلم والاسلام » فتشهد له هذا بسعة العلم وقوة الحججة ثم شخص إلى لوندرا بايعاز اللورد شرشل واللورد سالسبري ليسألاه عن رأيه

في المهدي وظهوره إذ ذاك . ثم عاد إلى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها فأحلوه مكانا عاليا ، اه وما قاله في شمائله :

﴿ مجلسه وخطابه ﴾ كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته نزلا . وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم إلا باللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية وإذا آنس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح فإذا كان السامع عاميا تنازل إلى مخاطبته بلغة العامة . وكان خطيبا مصقعا لم يقم في الشرق أخطب منه ، اه

يقول مؤلف الكتاب . حدثنا الدكتور شبلي شميل انه شهد خطبة له في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح وإلقاء حسن لكلام مفيد حتى أدهش الناس . أو ما هذا معناه

هذا وإن كثيرا من الفرس يقولون إن السيد جمال الدين فارسي لا أفغاني فكلمة أبي الهدي لها أصل عن غيره زاد عليها من عنده كما هي عادته فقد ذكر في كتبه التي عزاها إلى الرفاعية طعاما مثل هذا في نسب السيد عبدالقادر الجيلي سواء بسواء وقد قال لنا بعض علماء الفرس إن أسرة السيد هي من بيوت العلم والشرف في بلاد فارس وقد هاجرت إلى الأفغان وإن السيد جمال الدين ولد في بلاد الأفغان فهو أفغاني منشأ فارسي في الأصل . ومن الناس من يظن أن ادعاء بعض الفرس أن السيد منهم هو من قبيل ما جرت به العادة في الرجال العظام من تنازع الشعوب لهم

وجملة القول إن هذا الرجل كان آية من آيات الله وإن عمله في البلاد الإسلامية لم يكن قليلا فهو الذي نقل مصر من طور إلى طور وأحياها حياة جديدة لم يسبق لها نظير في تاريخها فأنتم كانت في كل أدوارها مستعبدة للحكام لم يخطر في بال شعبها أن يكون له شأن في حكومتها حتى في حركتها الأوربية الأخيرة في عهد بيت محمد علي فأنتم لم تقرأ لمن ترجموا الكتب الأفرنجية ولا لمن ألفوا الكتب

المصرية ولم نرو عنهم كلمة تشير إلى وجوب جعل الحكم في البلاد مقيدا برأي أهلها حتى جاء السيد جمال الدين فأسس الحزب الوطني المصري لأول مرة على هذا الأساس كما يعلم من مقالاته وخطبه التي كان يلقيها على تلاميذه (١)

ثم انه هو الذي كسر مقاطر التقليد الفكري والديني والنفوس فكان إمام النهضة العلمية والفكرية والدينية في مصر وغيرها كما كان إمام النهضة الاجتماعية والسياسية وهو أيضا إمام النهضة الاجتماعية السياسية في بلاد الفرس الذي بذر في نفوس الفارسيين بذرة الحكم الشوري كما تقدم . ولو انه انقطع إلى التصنيف لما كان بوجوده مثل هذا التأثير الكبير

وقول في خاتمة ترجمته انه لو لم يكن له من الأثر إلا الشيخ محمد عبده لكفى كما قال كثير من العلماء في شيخ الاسلام أحمد بن تيمية انه لو لم يكن له من الأثر إلا تلميذه ابن قيم الجوزية لكفى . ولتعد إلى ترجمة الاستاذ الإمام فقد جمع القلم في ترجمة السيد حتى جاء فيها بأكثر مما وعدنا به رحمه الله رحمة واسعة

﴿ دخول الاستاذ الامام الامتحان ﴾

(في الازهر)

بعد ان تلقى رحمه الله تعالى ما تلقاه على شيوخ الازهر وعلى السيد جمال الدين كما سبق البيان عرض نفسه على لجنة الامتحان لأجل شهادة العالمية كما هو المعروف وقد كتب عن امتحانه ما نصه :

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هجرية وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الاكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عيش وكان يعاديني على الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ان لا يمنحوني درجة ما في العلم وجرت أمور قبل الامتحان

(١) راجع مقالاته في الحكومة الاستبدادية في (ص ٥٧٧ و ٦٠١) من

مجلد المنار الثالث وربما نشرها مع مقالات اخرى له في ملحق لهذا الكتاب

يطول شرحها ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الأزهر وأخذت أقر العلوم الكلامية والمنطقية الخ وقد أخبرني رحمه الله ان بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان بينا مؤكدة لا يأخذن فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن الجواب عماسألوه فوق ما كانوا ينتظرون ، طفقوا يناقشون ويراجعون ، وينتقلون به ويستطردون ، حتى صار الامتحان مناظرة ، تتولاها المشاغبة والمكابرة ، فعند ذلك حلف الشيخ العباسي انه لم يراحد امتحن في عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الاولى درجة ممتازة لاستحقها فأراد أحد الشيوخ وأظنه الشيخ الرافعي ان يوفق ويصلح فأخذ الورقة وكتب له بالدرجة الثانية وطلق يعرضها على اخوانه الذين كانوا متفقين على حرمانه لبقوموا عليها فوقعوا ثم أعطوها للشيخ العباسي فأمضاها لهم ولم يحب ان يراجمهم بعد أن رأى منهم مارأى فظفروا ببعض المطلوب وهو حرمانه من الدرجة الاولى ، ما كانوا ضايرين .

﴿ طلبه العلم بعد التدريس ﴾

هذا مجمل سيرة الرجل في تلقي العلم عن الشيوخ منذ بدأ الى أن صار مدرسا وانك لتجد أكثر طلاب العلوم عندنا يمدون أخذ شهادة العالمية غاية التحصيل والتعلم فلا تتوجه همتهم بعده الا الى استغلال العلم وطلب المال به واحراز الجاه والمكانة عند الناس بما يتألون به من وظيفة وعمل . وان صاحبنا لم يسلك مسلكتهم بل سار على سبيل سلفنا الصالح الذين يوثر عنهم : اطلب العلم من المهد الى اللحد : فكان يقول الى آخر حياته اني لا أزال طالب علم أتبعي المزيد منه في كل يوم . فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الأزهر المعروفة من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقرأة المتن مع الشروح والحواشي والتقارير - سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه الى علم أعلى وفهم أجلى فقيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرا له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية ، فانتاشه من الإخلاق الى أرض العبارات الركيكة والاساليب الضعيفة ، والاحتمالات البعيدة ، ورفعه الى سما عرفان الحقيقة ، والافصاح عنها بالمبارة البليغة ،

بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين ، وتعميده الحكم باليقين ، فهذا هو الدور الثاني وهو خاص كسابقه بالعلوم الاسلامية ، التي كتبت باللغة العربية ، مع شيء قليل من العلوم الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الأخيرة ، وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الافرنج قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلم اللغة الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوما من الايام . وكانت عنايته بعلوم الاخلاق والنفس وأصول الاجتماع الانساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم وقلما علم بكتاب لافرنجي يتكلم فيه عن الاسلام والمسلمين الا واستحضره وقرأه وقد قرأ عدة كتب في تربية الارادة خاصة ، وفي سفره الاخير إلى سويسرة تعلم هناك القلم المسند لانه علم ان في بعض المكاتب الاوربية كتابا فيه وإن الانكليز تقلوا من حضرموت بعض ما هنالك من الآثار الحميرية ولذلك دخل كبير في تاريخ العرب والاسلام . وهذه العلوم الافرنجية هي التي أعطته القوة العظيمة في المدافعة عن الاسلام وفي زيادة البصيرة بخدمته لانه عرف من أين يهاجمه أعداؤه وكيف ترد هجماتهم . وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الاوربية لا يعد عالما في هذا العصر وقد كتب لي في ترجمته لنفسه عن تعلمه اللغة الفرنسية مانصه :

« بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عندما كانت سني أربعا وأربعين سنة ولكن ميلي الى تعلم لغة أجنبية ابتداء في أثناء الحوادث العراقية فتمت الهجاء ثم تركته ونسيتة تقريبا وعند ما سافرت الى فرنسا أول مرة أقت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أتلم شئنا من الفرنسية لان اجتماعي كان بالسيد جمال الدين ورفاق من العرب واشتغالي بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لي بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة فذهب علي ذلك الزمن بدون فائدة في اللغة لا كثيرة ولا قليلة . أما بعد عودتي من النفي الى مصر واشتغالي بالقضاء في المحاكم الاهلية والحكم بها خصوصا في الجنائيات على أصول القوازين الفرنسية وجلسي بين قضاة تغلب عليهم العلم بتلك القوازين في لغتها فقد قومي عندي الميل الى تعلم اللغة الفرنسية حتى لا أكون في معرفة القوازين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء وبعد مجيئي الى القاهرة واشتغالي بالقضاء في إحدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء في العمل

فبحثت عن معلم فوجدت أستاذاً لا بأس به فدعوته فجاءني حاملاً كتاب نحو في يده (كرامير) فسألته ماهذا فقال كتاب نحو قلت له دلا وقت عندي لأن أبتدي وانما عندي زمن لأن انتهى ، ثم ناولته قصة من تأليف ألكسندر دوماس وقلت له أنا أقرأ وانت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو علي والنحو يأتي في أثناء العمل ، وهكذا أتمت الكتاب وكتابا بعده وثالثا عقبه وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خاليا فتعلمت مبادئ اللغة الفرنسية وحصلت منها ما كان يمكثني من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام « سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة الصيفية وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنسية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف . ثم ان الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أنني وجدت انه لا يمكن لأحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا اذا كان يعرف لغة أوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خبرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم » اهـ

هذا ما يقال في طلبه للعلم وفيه عبر كثيرة لمن يعتبر بسير العطاء ، وتاريخ أفراد الحكماء ، أولها نفوره من التقليد والتسليم للشيوخ بما يقولون من غير أن يفهم وهذا هو مبدأ استقلاله بنفسه ، الذي فاق به أبناء جنسه ، وأوسطها عدم كفايته بما أتى عليه شيوخه في أكبر معاهد العلم في بلاده ، حتى صار يبحث عن علوم أخرى ويلتمس اساتذة آخرين ، وخاتمتها عدم الفرور بنفسه والرضا بما حصله على تفوقه فيه بل عمل بقول السلف « اطلب العلم من المهد الى اللحد »

الفصل الثالث

﴿ في تربيته الروحية وتصوفه ﴾

قد علم ممارس شيء من تربيته الأولى منها أنه نشأ في بيت يوصف أهله بالاخلاق الفطرية الحميدة التي لا يتقصها الا نور العلم وقد كان له وان لم يكن في صباه إلا بالفروسية وأعمال الرجولية فكان يلعب بالسلاح ويسابق الناشئين معه على ظهور الجياد ويكثر من السباحة وهذه الألعاب مما يحسن أن يربى عليها الولدان بالقصد كما قال الحكماء وعلماء التربية وهي مما يربى عليه أولاد الملوك والأمراء في أوربا

بعد ان أخذ حظه من هذه التربية الفطرية أخذ الشيخ درويش خضر بالتربية الدينية فألزمه العزلة ومجاهدة النفس . وكان من جبلته أن يأخذ كل شيء بقوة فكان في مدة طلبه للعلم يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر ويمشي مطرقا لا ينظر الا حيث يضع قدميه ولا يكلم أحدا الا ضرورة وقد ظل عدة سنين لا يلقي نظره على امرأة أجنبية حتى في الطريق . وقد كان لكثرة الانهماك في الذكر والفكر والنظر في كتب التصوف والتفكير في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه ويرجع في عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون فيناجي أرواح السابقين . ولو كان يجيز شرح ذلك لشرحناه ولكنه كان يقول ان ما يحصل للصوفية من الأحوال غير الطبيعية لا يجوز ذكره لغير العارف به ولا تجوز كتابته بحال ولو كنت ملكا لحكمت بقتل الذين يكتبون ذلك لانهم يفتنون كثيرا من الناس ولا يفيدون به أحدا . وقال ما معناه مازج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر ويخرجه منه وذلك قليل

وأقول إن السيد جمال الدين هو الذي أخرجه منه ، وورق به الى ما هو خير منه ، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان جراه عليه زمانا عرفه به أنه أعرف بتلك المعاهد ، وأسبق الى تلك المشاهد، بما كان يحل له من عقد كلام الصوفية التي يعجز

عن حلها، حتى أقنعه بأنه من أفراد أهلها، ولو كان الجماهير من الناس يعرفون في أيام حادثة الشيخ عليش شيئا من أمر الرجل في تصوفه وتسككه لهاجوا على الشيخ عيش وان كانت شهرته بالصلاح عظيمة وعلى من وشى اليه من فساق المجاورين وما خاضوا في قعيدنا بالذي خاضوا ولكنه كان يبالغ في كتمان ذلك خوفا من الغيباء وحب السمعة والامة مستعدة للشر وكانت الشبهة عليه حضور كتب الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد رحمهم الله أجمعين

قلنا ان السيد جمال الدين هو الذي نقل قعيدنا من حال الى حال في التربية كما نقله في العلم وكان الشيخ درويش هو الذي مهده السبيل للأمرين . وقبل ان تنقل من الكلام في تربيته وتعليمه الى الكلام في عمله وإصلاحه نذكر ان الشيخ درويشا هو الذي رباه أيضا على التعرض للإرشاد الديني والتصدي لنصيحة الناس فهد السبيل التي سلكها به السيد جمال الدين - سبيل الإصلاح العلمي والاجتماعي . ذلك ان الشيخ درويشا رأى ان مريده قد كملت نفسه بعد العزلة الطويلة وكل سلوكه فصار بآمن من المعاشرين الذين يقطعون الطريق على المريدين فأمره بمخالطة الناس والتعرض لإرشادهم وقد كتب لي رحمه الله في ذلك ما نصه :

« قلت اتني كنت في أوائل مدة طلب العلم بعد مجيئي الى الازهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما أو نصيحة لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك - والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكراه بالصوم تارة ولبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى . قال لي عندما رجعت الى محلة نصر في سنة ١٢٨٨ : الى متى هذه العزلة وما الفائدة في العلم وتحصيله اذالم يكن لك نورا تهتدي به ويهتدي به الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملكك وان من لم ينفع بما تعلم قد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة فملكك ان تحالط الناس وتمتظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة : فذكرت له اشتمزازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وشغلهم على نفسي اذا اقيمتهم وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم فقال لي : هذا من أقوى الدواعي الى ما حدثك عليه فلو كانوا جميعهم هداة مهديين لما كانوا في حاجة اليك : ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة ويفتح

الكلام في الشؤون المختلفة ويوجه الي الخُطاب لآ تكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وأنطلق في القول على وجل في أول الامر وما زال بي حتى وجد عندي شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم وفي شوال من تلك السنة ودعني وبكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية رحمه الله تعالى « اه أقول يظهر أنه أحسر بأن عمله قد تم بتكميل تربية مريده وأنه ألم بأنه قد دنا أجله إذ تم عمله فبكى بكاء مودع وللصوفية من هذا الالهام والشعور ، ماهو معروف مشهور ،

ومن تدبر كيفية تربية الشيخ درويش للرجل وكان عارفا بطرق الصوفية يعلم انه يصدق على طريق الشيخ درويش ما قاله أبو السعود بن الشبل عن نفسه وعن شيخه عبد القادر الجبلي قال « طريق عبد القادر في طريق الاولياء غريب وطريقنا في طريق عبد القادر غريب » وأبو السعود هذا هو الذي كان يقول محي الدين ابن العربي فيه وفي شيخه ان الشيخ عبد القادر أعطي حال الصدق فكان صاحب ظهور والشيخ أبا السعود أعطي مقام الصدق فكان نكرة لا تعرف .

وهكذا كان شيخنا محمد عبده في الصوفية نكرة لا تعرف أي انه صاحب مقام لا تغلبه الاحوال ، ولا يسهل عليه التأثير في نفوس الاغيار ، ولا يحتاج الى كلفة في إخفاء ما هو فيه ، وكتبان ما وهبه وأعطيه ، فكان مقامه مقام الصدق كالشيخ أبي السعود ابن الشبل ، ولذلك كان يظن المحجوبون عن خصوصيته انه كان من أبناء الدنيا ، ومن رآه منهم غير مبال بالمال ، ولا مبال إلى زينة الأثاث والرياش ، ظن ان حب الجاه هو الذي غلب عليه . ولكن من وقف على تاريخه يعلم ان هذا الظن من الباطل فانه كان يخفي ما استطاع كل مامن شأنه توسيع دائرة جاهه من الأعمال ، ولما عاد من منفاه في سورية إلى مصر وأراد توفيق باشا أن يجعله قاضيا في المحاكم الأهلية قال اني خلقت لآكون معلما لآكون قاضيا وانني أعلم انني إذا دخلت القضاء أرتقي الى أعلى درجاته ومع هذا أختار أن أكون معلما في مدرسة دارالعلوم على علمي بأنه لا ارتقاء في صنعة التعليم ، كما سيأتي

ولما بلغ انه صار مفتيا انكس وأخبرني بذلك وهو ممتعض حتى لآتني لم أنطق بكلمة نشعر بالسرور أو التهنئة ولكنتي قلت له وهالي أراك متعبضا؟ قال لأن هذه

وظيفة لا عمل فيها . وسيأتي لذلك مزيد بيان في الكلام على أخلاقه وإنما غرضنا الآن ان نبين شيئا من تربيته الصوفية لا آثار هذه التربية في الاخلاق والعمل وان ما نريد من ذلك يتوقف على بيان شيء من حقيقة التصوف ومن أحوال طرق الناس فيه قديما وحديثا فنذكر من ذلك ما لا بد منه لمن يريد ان يعرف الحقيقة التي نربي اليها فنقول

ماهو التصوف

يقال تصوف الرجل إذا صار صوفيا لا معنى للكلمة غير هذا ولهذا البناء اصل معروف لانزاع فيه فهو كهود اذا صار يهوديا ومنه الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ولكن وقع الخلاف في الصوفي الى أي شيء ينسب فأشهر الأقوال وأقربها من اللفظ ان يكون نسبة الى الصوف لأن القوم كانوا يكثر من لبسه وعارض فيه بعضهم بأنه لم يكن خاصا بهم ولا كان كلهم يلبسه أو لم يكن شعارا لهم . وزعم بعضهم ان اسم الصوفي مأخوذ من الصفاء وانشدوا:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقا من الصوف (*)
ولست امنح هذا الاسم غير قتي صافي وصوفي حتى سمي الصوفي

وزعم آخرون انه من الصفة نسبتها الى أهل الصفة من الصحابة أي الذين كانوا يلازمون صفة المسجد لفقهم واقطاعهم للعبادة وحفظ القرآن واللغة تنفي هذا النسب وتبرأ منه . ويقول بعض الناس ان الصوفي منسوب الى كلمة «سوقا» أو «سوق» بمد التصرف فيها بالتعريب والكلمة يونانية معناها الحكمة والصوفية الحقيقيون كلهم طلاب حكمة وهم من صنف الفلاسفة الاشرقيين عند اليونان . وذلك انه لما دخلت الفلسفة اليونانية البلاد الاسلامية أخذ كل أناس منها ما يناسب استعدادهم ففني بعض الناس بالعلوم النظرية وبعضهم بالادوم العملية مع العمل وذلك قسيمان قسم يتعلق بالظاهر كالطب وقسم يتعلق بالباطن كرياضة النفس وتهذيب الاخلاق وهذا هو موضوع التصوف ويعرف أهل التاريخ ان هذا التصوف قديم العهد في البشر فهو معروف عند

(*) ويروي المصراع الثاني هكذا * وكلم قال قولاً غير معروف *

براهمة الهند الى اليوم وعند أهل الصين أيضا ومن الصينيين طائفة يسمون أهل الطريقة لهم شارات كشارات أهل الطريق وأعلام يكتبون عليها كلمات دينية كالذي تراه كل يوم عند أهل الطرق

وذهب الحافظ ابن الجوزي في كتاب « تليس ابليس » الى ان الصوفية نسبة الى رجل يقال له صوفة قال

« كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام والايمان فيقال مسلم ومومن ثم حدث اسم زاهد وعابد ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاقا تخلقوا بها ورأوا ان أول من انفرد بخدمة الله سبحانه عند بيته رجل يقال له صوفة واسمه الغوث بن مر فانتسبوا اليه بمشابهتهم اياه في الاقطاع الى الله سبحانه وتعالى فقسموا بالصوفية . وعن ابن سعيد الحافظ قال سألت وليد بن القاسم الى أي شيء نسب الصوفي فقال كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا الى الله عز وجل ووطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية . قال عبد الغني فهو لاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر اخي تميم بن مرة . وعن الزبير بكار وقال كانت الاجازة بالحج للناس من عرفة الى الغوث بن مر بن أذ بن طائحة (هـ) ثم كانت في ولده وكان يقال لهم صوفة وكان اذا حانت الاجازة قالت العرب « أجيزي صوفة » قال الزبير قال ابو عبيدة صوفة وصوفان يقال لكل من ولي من البيت شيئا من غير أهله اذا قام بشيء من أمر المناسك يقال لهم صوفة وصوفان . وعن ابن السائب الكلبي قال انما سمي الغوث ابن مر صوفة لانه كان لا يهيش لأمه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة وتجلت له ريب الكعبة ففعلت فقيل صوفة ولولده من بعده . وعن عقاب بن شيبة قال قالت أم تميم بن مر ولدت نسوة فقالت لله علي ان ولدت غلاما لأعبدنه للبيت

(هـ) طابخة هذا هو ابن الياس بن مضر وهو بالباء وانحاء كاسم الفاعل المؤنث من المطبخ كما في المعاجم وضبط في نسخة التليس بالهمزة والحاء المهملة . والاجازة هي الافاضة من عرفات كانت العرب لا تفيض من موقعا بعرفات حتى يفيض بها صوفة وكذا من منى ونسبة الصوفية الى صوفة ذكرها الزمخشري في الاساس احتمالا

فولدت الفوث بن مر فلما ربطته عند البيت اصابه الحر فمرت به وقد سقط واسترخى
 قالت ماضار الا صرفه فسمي صوفة وكان الحج وإجازة الناس من عرفة الى منى
 ومن منى الى مكة لصوفة فلم تزل الاجازة الى عقب صوفة حتى اخذتها عدوان فلم تزل
 في عدوان حتى اخذتها قريش اه

أقول ولا مانع في القياس من صحة هذه النسبة عربية ولكن يعد ان ينتسب
 القوم باختيارهم الى أهل الجاهلية ولو الى النساك وملازمي خدمة البيت منهم فاذا
 صح ان هذا هو أصل النسبة فالمعقول ان يكون قد أطلق عليهم ذلك بمض العرب
 اذ رأوهم يكثرون التحنث ويتقطعون للعبادة في المسجد الحرام وغيره لأن صوفة
 ممن يضرب بهم المثل في مثل ذلك

وأما تاريخ التصوف ومبداه فقد قال ابن الجوزي فيه: هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة

متين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته ببارات كثيرة وحاصلها ان
 التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحمله على
 الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق الى غير ذلك من الخلال
 الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة . وسئل الجنيد بن محمد
 عن التصوف فقال الخروج عن كل خلق دري، والدخول في كل خلق سني، وعن
 محمد بن حنيف قال لرويم كل الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على
 الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وطالبوا أنفسهم بحقيقة الورع
 ومداومة الصدق .

ثم ذكر ان هذا ما كان عليهم أوائلهم حتى لبس الشيطان عليهم فكان أول تليسه
 ان صدم عن العلم وأراه ان المقصود العمل فلما انطفأ مصباح العلم تخبطوا في الظلمات
 فتنهم من غلا في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق ومنهم من هاج بالسباع والوجد والرقص، ومنهم من
 بالجوع والعري والنقر الاختياري . ومنهم من قالوا بالحلول والأنجاد، وكانوا يعنون بالظافة والتنطع في
 الطهارة وراجت عليهم لقلة العلم الاحاديث الموضوعه

وذكر المؤلفين منهم . وان بعضهم قد هذبوا التصوف . فأول من ألف لهم في الزهد

والغلو في ترك الدنيا الحارث المحاسبي . وصف لهم عبدالرحمن السلمي كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم ما فيه العجب من تفسير لا يستند الى أصل من أصول العلم . وذكرا بن الجوزي ان السلمي هذا غير ثقة وانه كان يضع لهم الاحاديث وحدث عن الاصم بشواذ كثيرة وهو لم يسمع منه الا قليلا ، ووصف لهم ابونصر السراج كتاب لمع الصوفية وفيه كثير من الاعتقاد القبيح ووصف ابوطالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الاحاديث الباطلة والموضوعات . ووصف لهم ابونعيم كتاب الخلية وذكروا في حدود التصوف اشياء منكرة قبيحة (وقال) لم يستح ان ذكر في الصوفية الخلقاء الراشدين وسادات الصحابة والتابعين وسفيان الثوري واحمد بن حنبل . ووصف لهم عبدالكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والحال والوجد والوجود والجمع والتفرقة والصحو والسكر والذوق الخ ثم ذكر تصنيف الغزالي للاحياء وما فيه من الاحاديث الباطلة وانه لم يكن يعلم بطلانها

ثم ان ابا الفرج بين ضروب التليس على الصوفية وما خلفوا فيه الشرع عن جهل أو تأول فأصاب في أكثر ما كتب وأخطأ في أقله وقد كان حسن النية كما كان أولئك الذين انتقد عليهم مخلصين فيما قالوا وفعلموا وهو لا ينكر ذلك عليهم ولكنه كان أعلم منهم بالسنة السنية وبما كان عليه السلف الصالح من هدي الدين لأنه من الحفاظ ولم يكن في أولئك الصوفية حافظ ولا محدث الا من اتصر لهم في بعض المسائل كابن طاهر الذي اتصر لهم في القول يا باحة السماع وان احياء علوم الدين هو أحسن كتبهم ومولفه الامام ابو حامد الغزالي كان أوسعهم علما بالكلام والفقه والأصول وأدقهم فهما في اسرار الشريعة وحكمها ومع ذلك كله نرى في الاحياء كثيرا من الاحاديث والآثار الموضوعية والواهية وجلبها أو كلها منقولة من كتاب قوت القلوب وهي هي وما أخذ منها وبنى عليها هو جل ما ينتقد على هذا الكتاب الجليل ولكن لانعرف كتابا لعالم من علماء الاسلام أشد جذبا الى الدين وتأثيرا في قلوب القارئ من هذا الكتاب . واذا كان كثير من الصوفية قد أخطأوا بقبول بعض الموضوعات والواهيات والاحتجاج بها والاستنباط منها فهذا خطأ لم يسلم منه كثير من الفقهاء الذين تحاملوا

عليهم وضلوا بعضهم وكفروا آخرين في القرون الأولى عند ما كان الصوفية صوفية كاملين في طريقهم ثم خضعوا لهم وذلوا وأولوا كلامهم الخائف لظواهر الشريعة وكذا الخائف لتصوصها وذلك بعد أن طرأ عليهم ما طرأ من الشذوذ والبدع الكثيرة وقف الصوفية على الطرف المقابل للطرف الذي وقف عليه الفقهاء من الاسلام: عني الصوفية بباطن الاسلام ولبابه وسره وهو تزكية النفس وتطهير القلب ومراقبة الله تعالى وما يوصل الى ذلك من علم حكمة التشريع وأسرار الدين وعلم النفس والاخلاق والعلم بصفات الله وسننه في خلقه . وعني الفقهاء بظاهر الاسلام من علم طهارة الابدان والثياب وأعمال العبادات والاحكام القضائية مدنية وجنائية وسياسية . وكان كل من الفريقين يخطئ ويصيب على نسبة استقلاله في فهم القرآن والعلم بانسنة وبعده وقربه من ذلك و « كل حزب بما لديهم فرحون »

قد علم كل أناس مشربهم ، واقتدى قوم آخرون بهم ، ثم جاء الغلادون لكل منهم ، فذهب بهم الجهل الى الغلو فيهم ، حتى فضاهم بمضهم على الصحابة والتابعين ، وظنوا أنهم أوسع علما وأحسن عملا بهذا الدين ، هيئات هيئات لما تزعمون ، وشتان بين السلف والخلف فيما تصفون ، فلو صدق ما ظنتم ، وكانت حقيقة الامر ما زعتم ، لكان لقائل أن يقول ان هذا الدين من وضع البشر ، ولذلك ارتقى بتناول الزمن ، كلا ان السلف هم الذين أقاموا وزنه بالقسطاس المستقيم ، وجروا فيه على سنة الحنيفية السمحة وهداية الكتاب الحكيم ، فكل ما خالف جماعتهم من فنون زهد الصوفية البصريين ، أو اقيسة الفقهاء الكوفيين ، فهو في هذا الدين مردود ، وصاحبه إما مجتهد معذور وإما مقلد معذول ، ولا يتبع أحد منها فيما يعمل من ذلك ولا فيما يقول ، اذ المسألة من مسائل النزاع فترد الى كتاب الله وسنة الرسول ، (٤ : ٥٨) فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والى الرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فلا أحد من الصوفية معصوم في أعماله وأقواله ، ولا أحد من الفقهاء معصوم في آرائه وأقواله ، ولكن المعصمة لكتاب الله عز وجل ، ولما بينه من سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله (١٥ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

وسلم ، فحكما هو الحكم العدل ، وقولها هو القول الفصل ، وسبيلها هي سبيل جماعة المؤمنين الاولين ، وهم سلف الامة الصالحين ، من جمهور الصحابة والتابعين ، ومن تبهم قبل حدوث الفرق ، ونحزب الاحزاب والشيع ، واجماع اولي الامر ، من أهل الحل والعقد ، يطاع في المصالح العامة ، دون العبادات والامور الخاصة ، ولقد غلامن كل حزب وفرقة اناس بدوا بالدين عن كتابه وسنته ، وسيرة سلفه واثمته : كان من غلو بعض الصوفية أن أفرطوا في الكلام على حكمة الدين وأسراره حتى بددوا بها عن النصوص والسنن ثم زعموا ان للقرآن ظاهرا وباطنا ، وان مدلول النصوص هو الظاهر ، وأما الباطن فلا يعرف الا بالكشف والالهام ، ومن هذه الثمرة دخلت على هؤلاء الغلاة دسائس الباطنية الذين أوجسوا خلال الامة يفتونها الفتنة بتحريف النصوص وتأويلها ، وفيها سماعون لهم ، مخدوعون بزخرفهم ،

ثم انهم اشتغلوا بالفلسفة وعلوم الكون من الرياضيات والطبيعات كالتكلمين ومزجوا ما أخذوه منها بكتبهم التي بحثوا فيها عن الوجود وعوارضه ، ولكن طريقتهم فيها كانت مخالفة لطريقة المتكلمين ، فكانت عناية المتكلمين منصرفة الى عرض مسائل تلك العلوم على الكتاب والسنة وقرار ما واقفها وإبطال ما خالف النصوص بالادلة والبراهين على طريقة الفلاسفة أنفسهم ، وما خالف الظواهر ان ساعدهم الدليل على إبطاله أبطوه ، والا أولوا العبارة على طريق فنون الامة من جعلها مجازا أو كناية ، واما غلاة الصوفية فقد تصرفوا في الممائي والأناظ ، وسلكوا سبيل التعمية والألغاز ، فهم كغلاة الفلاسفة الاسلاميين واكثر منهم مخالفة للفلسفة ، ومخالفة للشريعة ، حتى إنهم قالوا شريعة وطريقة وحقيقة ، والتقسيم والعطف يفيدان المغايرة ، وكان المتكلمون والفقهاء يكفرون الغلاة من الفريقين بل كانوا على الصوفية أشد تحاملا لانهم يخدعون العامة باظهارهم التنسك فتمظم الفتنة بهم ، والفريقان سواء في شر ما كفرهما به المتكلمون والفقهاء وهو أمران أحدهما علي كقول قدم العالم وتكون النبوة نسبة وثانيهما عملي وهو إباحة المحرمات للاخواص الكاملين في العلوم وجعل الشريعة وسيلة لتربية النابتة وضبط العامة ، ومن دون ذلك مخالفة

التصوص واتباع الفلاسفة في مسائل العالم العلوي وعالم الغيب كالسموات والعرش والكرسي والملائكة والجن والجنة والنار ،

والذي استنبطته من طول البحث والمقارنة ان أكثر الذين خالفوا نصوص الشريعة بأقوالهم وكتبهم من لابسى لباس التصوف هم باطنية في الحقيقة وأقلامهم قد مرق من الدين بشبهات عرضت له من تلك الفلسفة الباطلة التي كانت رائجة في تلك القرون ، ثم قلدتم في هذه الاباطيل كثير من المسلمين وهم لا يعرفون أصلها ولا الغاية التي وضعت لتؤدي اليها

مثل الصوفية في ذلك كمثل الشيعة فقد كان هؤلاء حزبا سياسيا من المسلمين يرى ان الحكومة الاسلامية يجب ان تكون حكومة أشرف وان احق الناس بها بعد النبي (ص) أقرب زعماء الصحابة المرشحين لذلك إليه وهو علي وريبه وصهره وابن عمه ثم أولاد علي من بنته (ص) فجعل الباطنية من أصول تعاليمهم الرضوية العلوية في علي وولده والقول بمصمتهم ، وانه لا يعرف باطن الدين ولا حقيقته الا منهم ، وبثوا ذلك في غلاة الشيعة وجهاتهم ، توسلا بذلك الى الطعن في ابي بكر وعمر وجهمر علماء الصحابة وادعاء كتبهم لبعض القرآن وتحريفهم لبعض آخر وابطال ثقتهم بما كانوا عليه من الدين وصرف وجوههم الى زعماء منهم يدعون انهم اخذوا حقيقة الدين من أمة آل البيت المصومين فيطمسوا الاسلام الحقيقي وبحلور ابطه أهله ويستبدلوا به دينا جديدا ان لم يقبلهم إرجاع الناس الى المجوسية التي هي دين واضي تعاليم الباطنية للانتقام من المسلمين الذين أزالوا ملكهم واستولوا على بلادهم

هكذا ثبت الباطنية تعاليمها الاحادية الفاسدة في غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة وانخدع بها الفريقان لظهور دعائها الاسلام والتسك والتقوى حتى صار الناس يقولون ان الشيعة قسمان ظاهرة وباطنية ، ولم يكن أحد يقدر ان يميز بينهما لان الباطنية كانوا يخفون عقائدهم أو تعاليمهم المخالفة للاسلام نفسه المصراحة بعداوتهم الامن يقون به بعد وصوله الى الدرجة الاخيرة من درجات دعوتهم ، ولذلك رأينا مثل الشريف الرضي من أمة العلم والفضل في الشيعة يمدح بعض الخلفاء العبيدين ، ظنا منه انهم من الشيعة المسلمين ، وانهم حقيقة من العلويين ، فقال وقد كان مستاء من الخليفة العباسي

أبس الذل في ديار الأعادي وبصر الخليفة العلوئي
 من أبوه أبي ومولاه مولا ي إذا ضامني البعيد القصي
 لف عرقي بعرقه سيدا لنا س جميعا محمد وعلي

ولو علم ان الخليفة العبيدي عدو جده والساعي في إبطال دين جده لما قال ذلك فيه
 ولما ظهرت تعاليم الباطنية في بعض فرقهم امتاز مسلمو الشيعة وثبتوا على الايمان
 بوحداية الله ورسالة محمد خاتم النبيين والمرسلين وإقامة أركان الاسلام الخمسة
 بالعمل لا بخالفون غيرهم من المسلمين فيها الا بعض الفروع الاجتهادية ، والباطنية
 هدموا كل هذه الأركان والعقائد الاساسية، ولكن بقي في كتب الشيعة وتقاليدهم
 شيء من تعاليم الباطنية كما بقي في كتب أهل السنة شيء من أحاديثهم الموضوعة .
 وأما كتب غلاة الصوفية فلا تزال حاوية لجميع ضلالاتهم أو أكثرها لا يستطيع
 التمييز بينها وبين التصوف الصحيح الا افراد من المحققين - وكان الاستاذ الامام
 صاحب الترجمة يقول ان التفسير المطبوع في جالدين المنسوب الى الشيخ محيي الدين
 بن عربي هو لكشاني الباطني . ويقول بعض العلماء ان الفتوحات المكية
 والفصوص أشهر مصنفات الشيخ محيي الدين فيها كثير من دسائس الباطنية فان لم
 يكن كذلك فهو من أكبر زعماء الباطنية أو أكبرهم على الاطلاق
 قال ابن خلدون في مقدمته في سياق الكلام عن التصوف :

دئم إن هؤلاء المتأخرين من المصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس
 توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملاوا
 الصحف منه مثل الهروي في كتابه المقامات له وغيره وتبعهم ابن عربي وابن سبعين
 وتلميذها ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم
 مخالفون للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول واليهية الائمة
 مذهبا لم يعرف لاولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب لآخر واختلط
 كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المصوفة اقوال بالقطب ومناه رأس
 العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله
 ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان

« وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها
 قال: جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد، وأن يطالع عليه الا الواحد
 بعد الواحد: وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وانما هو من
 أنواع الخطابية أو هو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به

« ثم قالوا بترتيب الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى انهم
 لم اسندوا لباس خرقه التصوف ايجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليبهم رفعوه الى علي رضي
 الله عنه وهو في هذا المعنى أيضا والا فلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة
 بتخليفة ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان ابو بكر وعمر رضي عنهما ازهد الناس
 من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحدا منهم بشي
 يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة
 يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنا كتبهم في ذلك مما
 ليس لسلف المتصوفة في كلام بنفي أو إثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة الرافضة
 ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق

« ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا اتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في
 هذه المقامات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق ان كلامهم
 مهم فيه تفصيل فان كلامهم في اربعة مواضع (احدها) الكلام في المجاهدات
 وما يحصل في الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق
 اني اصبر مقاما ويترقى الى غيره كما قلناه (وثانيها) الكلام في الكشف والحقيقة
 المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي
 والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الاكوان بأنواع
 الكرامات (وثالثها) التصرف في العوالم والاكوان بأنواع الكرامات (ورابعها) الفاظ
 موهمة اظهر صدرت من الكثير من أئمة اقوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالسطحات
 فتشكل ظواهرها فذكر ومحسن ومتأول

« واما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل في الاذواق والمواجد في نتائجها
 ومحاسبة النفس على التصبر في أسبابها فأمر لا مدغم فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة

والتحقق بها هو عين السعادة

د وأما في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الاستاذ أبو اسحاق الاسفرايني من أئمة الاشعرية على إنكارها لانتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان صفة نفسها التصديق فلو وقعت من الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع ان الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وانكارها مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من هذا وهو معلوم مشهور

د وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه لما انه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم يمدزل عن أدواقهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع الا للتعريف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا تعرض لكلامهم في ذلك وتبركه فيما تركناه من التشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة

د وأما الالفاظ الموهمة التي يبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم ان الانصاف في شأن القوم انهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجليل من هذا وان العبارة عن الواحد صعبة لتقدان الوضع لها كما وقع لآبي يزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضاه ولا اشتهر فؤاخذ بما صدر عنه من ذلك اذا لم يتبين لاما بما جملنا على تأويل كلامه واما من تكلم بهائما وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فؤاخذ أيضا ولهذا اتقى الفقهاء واكابر المتصوفة بقتل الخلاج لانه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم

د وسلف المتصوفة من أهل الرسالة (١) اعلام الملة الذين أشرنا اليهم من قبل لم

يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والافتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون انه من العوائق والمخن وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله أوسع وخلقه أكبر وشريعته بالهداية أملك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والافتداء ويأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب اه
أقول وذ كر قبل ما نقلناه أن بناء هذه الطريقة على مجاهدة النفس وغايتها الوصول الى مقام التوحيد والمعرفة : قال ان الادراك الذي يتميز به الانسان عن سائر الحيوان نوعان إدراك للمعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وإدراك للاحوال القائمة بالنفس من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف بالبدن تتشأن إدراكات وارادات وأحوال وهي التي يميزها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة ، والفرح والحزن عن إدراك المولى أو المتلذذ به ، والنشاط عن الجمال والكسل عن الاعياء . وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة ، وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة قترسخ وتصبر مقاما للمريد ، وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ، ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للكمال :

ثم ذ كر رعاية القوم بحاسبة النفس على الاعمال والخواطر وعدم الاكتفاء بالانتيان بالعبادة موافقة لشروط بانمته بل يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ، فأصل طريقتهم المجاهدة والمحاسبة وانرها في النفس ، وذ كر انهم اصطالحوا على ألفاظ تدل على ما افردوا به من هذه الاذواق ومبادئها وغاياتها كما وضع أهل الكلام والفقهاء والاصول اصطلاحات لمعلومهم فصار علم الشريعة صنفين علم الفقهاء وعلم الصوفية

ثم تكلم على ما تثمره الخلوة والمجاهدة من كشف حجاب الحس وإدراك بعض العوالم الخفية وأطال في الكلام على هذا الكشف وعلته من سنة الله تعالى في النفس البشرية وما فيها من الاستعداد للادراك بغير واسطة الحس ، وما حدث للصوفية بعد عنايتهم بهذا الكشف من الكلام في حقائق الموجودات العلووية والسلفية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي ، وإنكار بعض الفقهاء وأهل الفتوى عليهم وتسايم بعضهم لهم وأطال في ذلك

وأقول ان ابن خلدون أصاب في أكثر ما قاله وأخطأ في بعضه وانه ما سلم للصوفية من سلم من الفقهاء الا لظهور بعض خوارق العادات من بعضهم كالكشف وغير الكشف والانسان مهما كان معتزاً قويا بعلمه وبقوته بمعرفته فانه يضعف ويتقاد لأضعف الاشياء اذا ظهر له من قبلها ما يعده مدداً من السيادة العليا والقدرة الإلهية اذ أودع الله في فطرته العبودية والخضوع لسلطانه الأعلى الذي سخر به الاسباب ولا تسخره الاسباب في شيء ، ومن الناس من لم يبال بخوارقهم لأنه علم بأن مثلها قد كان من الهنود والصينيين وغيرهم فقالوا ان لهذه الخوارق أسباباً جارية على سنة الله تعالى في النفس البشرية وآثارها فنحن لا نسلم بشيء في الشرع لم يقم عليه الدليل الشرعي لان القائل به جاء بشيء غريب لا يعرف سببه وهو نفسه لا يصلح أن يكون حجة على ما قاله ولا على عصمته فيما يكون عليه . وقد قال بعض كبراء العلم والتصوف . اذا رأيت الرجل يطير في الهواء فلا تفتروا به حتى تروا حاله عند الأمر والنهي ، أي فان كان منتبها عما نهى الله عنه موثراً بما أمر به فهو المؤمن الصالح الولي لله والا كان فاسقاً شقيماً ، أو كافراً غوياً ،

وقد غلا في علم التصوف فريقان فريق عده كله بدعاً محدثة يجب ردها وعدم قبول شيء منها الا اذا كان له أصل يقوم عليه من الكتاب أو السنة أو إجماع السلف العملي أو اقول ولا يعتد بما يسمونه الاشارة ولا الكشف لانهما ليسا من طرق الدلالة في الشرع ولا في اللغة العربية . ومنهم من جعل ما ثبت عنهم ديناً يتقرب الى الله تعالى به وينكر على مخالفه كما ينكر على من خالف الكتاب والسنة أو نصوص أئمة الفقه عند مقلديهم ، ويؤمن بمشابهة كتشابه الكتاب والسنة مع ان الصوفية

أنفسهم أنكروا ذلك . وذكر الشعراني ان شيخه عليا الخواص قال له في جواب سؤال : ان متشابه كلام الصوفية لا يقبل ولا يؤوّل كمتشابه الكتاب والسنة ، لمصنعة الكتاب والسنة دون كلام الصوفية ، فانهم غير معصومين من الخطأ فيه . وهذه الكلمة أحسن ما نقله عنه

والصواب ان كلام الصوفية ككلام غيرهم من أهل العلوم الشرعية كعلم الكلام والاصول والفقه - وأهل العلوم الكونية والعقلية كالفلسفة والطبيعات . وكتبهم ككتب هؤلاء العلماء فيها الخطأ والصواب . وقد كنت كتبت لهذا البحث أوراقاً ثم ضاعت ، واتفق ان اطلمت قبل كتابة غيرها على فتوى لشيخ الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية في الصوفية والفقراء ذكر فيها تاريخ ظهورهم وحقيقة حالهم وغلط بعض الناس في مدحهم ، وبعضهم في ذمهم وانتقاصهم ، وحقق ان مبدأ ظهورهم كان في البصرة وانهم من أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصري ، وان أهل البصرة قد اشتهروا بالعبادة والزهد أكثر من أهل سائر الامصار ، كما اشتهر أهل الكوفة بالفقه ، فكان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية وان الصوفية والفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث في قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) وان السابقين بالخيرات منهم كالسابقين بها من الفقهاء ، ويسمون أهل الحقائق ، وقد يصل بعض هؤلاء وأولئك الى درجة الصديقين . ثم قال : « وقد انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً فان أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية وذكره الحافظ أبو الطيب في تاريخ بغداد

« فهذا أصل التصوف ، ثم انه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق ، وصوفية الارزاق ، وصوفية الرسم ؛ فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم ، وأما صوفية الارزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالحوانك ، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فان هذا عزيز وأكبر أهل الحقائق (م ١٦ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

لا يتصدون بلوازم الخوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط احدها العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويحبتون المحارم ، والثاني التأدب بأداب أهل الطريق وهي الآداب الشرعية في غالب الاوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت اليها . والثالث أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال أو كان غير متعلق بالاخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقا فانه لا يستحق ذلك . وأما صوفية الرسم فهم المقصرون على النسبة فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ؛ فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره انه منهم وليس منهم »

ولما كان الصوفية يسمون أنفسهم (الفقراء) تكلم شيخ الاسلام في مسألة الفقر ولقب الفقير في عرف الشرع وعرفهم ، وبين ان الفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث التي أشرنا اليها في تلخيص كلامه عن الصوفية وجملة القول ان مرادنا من التصوف والصوفية هنا ينحصر في المسائل الآتية نلخص بها ما تقدم ونزيد عليه . وهي

- (١) التصوف الاسلامي هو التخلق بأخلاق الصوفية والانتظام في سلوكهم
- (٢) الصوفية في الاسلام طائفة انقطعوا الى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة برياضة النفس ونزوية الارادة والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس وحسن النية والمبالغة في العبادة . وغايتهم الوصول الى تجريد التوحيد وكال المعرفة بالله تعالى، ثم ادعى حالهم من ليس منهم غشاء وتليساء وليس لباسهم من تناقض حاله حالهم دعوى وتقليدا
- (٣) ان رياضة النفس والتدقيق في عيوبها والحرص على تزكيتها وتكميلها يثمر علما وعرفانا بسنن الله تعالى في الارواح وأسرار قواها ، وأحوالا وأذواقا غريبة ، من أعماها الكشف ، وهو معرفة بعض الحقائق والوقائع من غير طرق الحس والفكر، (ومنها) التأثير بقوة الارادة في بعض الاشياء، وأكثر ما يكون ذلك بنحو شفاء مريض أو استهواء نفس تكون أطوع للمستهوي من طرفه ، وأتبع له من ظله . وذلك فوق ما يهد الناس في هذا العصر من الاستهواء الذي يسهونه [التنويم المغناطيسي]

وقد ظهر في هذا الجيل رجل في سورية عرضت له حال اعتقد بها انه يجب عليه الخروج لإزالة الفساد، واصلاح أمر العبادة، فكان يسبر ويدعو الناس الى اتباعه فيتركون حرثهم وزرعهم وتجارتهم وصناعتهم ويتبعونه فرادى ومثى وجماعات، من غير بينة ولا برهان، ولولا أخذ الحكومة له لكان له شأن وأي شأن! (ومنها) أحوال تعرض، وبروق تومض، يلفظ بها الكثيف، ويرق بها الغليظ، ويضعف سلطان الشاعر، وينعكس نور الابصار الى البصائر، فيرى صاحبها ويسمع ويشم ويدرك ما لا يشاركه به غيره ممن ليست له تلك الحال، حتى انه لينزع به في عالم من الخيال، يتاجي فيه الارواح، تتجلى في صور الاشياح، بأغرب وأعجب مما يدعيه مستحضر و الارواح الآن

(ومنها) الفوص على دقائق أسرار الشريعة وحكمها، وصفات النفوس البشرية وقواها وعلاها، وغير ذلك من العلوم العقلية، والمعارف الكونية والإلهية

(٤) إن هذا التصوف برياضة النفس وما تشره من الاحوال ليس من مستحدثات المسلمين بل سبقهم اليه قدماء الهنديين والصينيين واليونان وغيرهم — كما تقدم في أوائل الفصل — وقد سرى الى بعض صوفية المسلمين كثير من بدعهم وضلالاتهم، وشعارهم وشاراتهم، حتى انهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود، فصارت هي غاية الطريقة عندهم، كما كان تجريد التوحيد الشرعي غاية الطريق الاسلامي عند غيرهم. ولا ندري كيف دخلت هذه الدخائل على الصوفية ولا عن أي كتب الهند وغيرها أخذوا، ولا تاريخ ذلك — لم تقف على ذلك كما وقفنا على ما يقابله من دخول فلسفة اليونان على علماء الكلام، ولكننا رأينا في بعض كتب الصوفية ذكراً لصوفية البراهمة وتفرقة بين كشفهم وكشف المؤمنين. ويسمون الكشف الاول الكشف الصوري والظلماني، والثاني الكشف المعنوي والروحاني، وأما المتكلمون منا فقد قالوا بجواز وقوع الكشف وغيره مما يسمونه خوارق العادات من غير المؤمن التقي، ويجعلون لكل نوع منها اسماً، فما كان على يد المؤمن التقي يسمونه كرامة، وما كان على يد الكافر أو المبتدع أو الفاسق يسمونه استدراجاً

(٥) اتنا على جهلنا تاريخ دخول تلك الدخائل على صوفية المسلمين نعلم ان الباطنية

الذين كانوا يؤلفون الجماعات والاحزاب للكيد للاسلام ودولة العرب، والسعي لإفساد الدين وإسقاط الملك ، قد دخلوا على المسلمين من بابي التشيع والتصوف معا كما تقدم ، ولذلك ترى أكثر طرق الصوفية تتصل بأئمة آل البيت عليهم السلام وتنتهي الى أصلهم علي المرتضى كرم الله تعالى وجهه . وما عدا ذلك فهو مستحدث كطريقة النقشبندية التي تنتهي الى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . والباطنية هم الذين اخترعوا مسألة كون الشريعة لها ظاهر و باطن ، وكون أئمة الباطن هم العارفين بتأويل القرآن وحقيقة الدين دون غيرهم ، وكونهم يتصرفون بأمر الكون ، وهم الذين أدخلوا على التصوف بدعة وحدة الوجود البرهمية ونزغات فاسفة اليونان النفسية . وكان غرضهم من ذلك إفساد عقائد الاسلام وإزالة سلطانه وحكمه ، وكانوا يعنون بالأئمة والاقطاب وأهل الديوان المستورين أئمة نحلتهم الذين يريدون رفعهم الى عروش الممالك ليمموا لهم مايزيدون بقوة السلطة ، بعد التمهيد العظيم له بالدعوة . وقد تم لهم أمر الملك في مصر بدولة العبيديين ، ولكنهم عجزوا عن ابطال الاسلام وافساد أمره (٦) قد امتزجت دسائس الباطنية بتعاليم الصوفية فراج بعضها على الاكثريين وبعضها على الاقلين ، وعز التمييز بينها حتى على كثير من العلماء الراسخين ، كما راج على الاكثريين ما دخل عليهم من البدع الاخرى لجهاهم بالسنة الصحيحة وسيرة السلف المتقدمين بهم من الصحابة وأئمة التابعين

فالضلالات والبدع المتغلغلة في كتب الصوفية قسما (أحدها) ما أخذه الباطنية من صوفية البراهمة واليونان ودسوه في التصوف الاسلامي وليس له أصل من كتاب ولا سنة (ثانيهما) ما أحدثه بعض شيوخ الطريقة من الاوراد والشعائر المخالفة للسنة في ذاتها أو في كفيتها . ولا يخفى انه ليس لاحد بعد زمن الوحي ان يجعل بعض العبادات التي لا أصل لها في الدين شعائر تؤدي بطريقة مخصوصة في أزمته مخصوصة بكيفية مخصوصة . اذا لم يرد هذا التخصيص في السنة المتبعة . مثال ذلك صلاة رجب (الرجائب) وشعبان اللتين نص الفقهاء على كونهما من البدع المذمومة . وقس عليهما ما هو دون الصلاة من شعائرهم كالا اجتماع لقراءة الاوراد والدلائل وللادكار بالكيفيات المحصورة في الايام المعلومة والمواسم المؤقتة كالموالد وغيرها ، وما فيها من

البدع والمنكرات الكثيرة

(٧) إنما الحكم العدل في التصوف والصوفية كتاب الله وسنة رسوله (ص) وسيرة أهل الصدر الاول في اقامتهما والعمل بهما، فما وافق ذلك فهو الحسن المقبول، وما خالفه فهو القبيح المردود، وما كان غير موافق ولا مخالف فهو محل الاجتهاد اذ لم يعد ديناً، ومحسين الظن أولى بالعاجز عن الاجتهاد، ولو فيما كان مخالفاً للمعهود بين الناس

ولا يعرف هذا الحكم الا العالم الراسخ في التفسير والحديث وتاريخ الاسلام، لان شيوخ التصوف يلتمسون لما لديهم أدلة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، ولكنهم قد يستدلون على الشيء بما لا يدل عليه من التأويلات البعيدة للآيات والاحاديث، والاخذ بالاخبار الموضوعة بله الضعيفة، وترى علماً كبيراً كالامام الغزالي يقع في ذلك

(٨) طالما تمت ان يوجد كتاب لاحد أئمة العلم الجامعين بين علوم النقل والعقل والتصوف يحصي على المنتسبين الى التصوف ما ألموا به من البدع، ويبين ماخالط كتبهم من دسائس الباطنية والفلاسفة، ويزن ذلك بالقسطاس المستقيم المبين في المسألة - السابقة - حتى عثرت على كتاب [مدارج السالكين بن منازل: اياك نعبد واياك نستعين] للامام الشهير ابن القيم - وهو ابن مجددة هذا الامر وأبو عذرتة - فاذا هو قد شرح فيه كتاب [منازل السائرين] لشيخ الاسلام أبي اسماعيل عبد الله بن محمد الانصاري الهروي المتوفى سنة ٤٨١هـ فكان هو الأمانة أما أبو اسماعيل فهو - على كونه من أكابر أئمة الصوفية أرباب الحقائق - مفسر محدث فقيه حنبلي سلفي، وأما كتابه [منازل السائرين] فهو نسيج وحده في متون التصوف، جعله عشرة أقسام في كل قسم عشرة أبواب، في كل باب كلام وجيز على منزلة من منازل السائرين الى الحق تعالى، وكل منزلة لها ثلاث درجات. وقد بعبّر بغير الدرجات قليلاً. وقد غاب تصوف مؤلفه على علمه بالسنة في بعض المواضع فشد كعبه. ولذلك نمتي الحافظ الذهبي لو لم يكن ألف هذا الكتاب وأما الامام ابن القيم فلا يعرف مكانته وعلو قدمه في التصوف الا من اطعم

على كتابه مدارج السالكين . وأما علمه بالسنة وسائر العلوم الاسلامية فهو فيه أشهر من علم ، وكتابه هذا هو الذي حرر علم التصوف وتقاها من دسائس ملاحدة الباطنية وغيرهم ، وحكم فيه كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) وسيرة السلف الصالح . فهو غاية الغايات في هذا الباب ، لا تعرف كتابا غيره ندل عليه من يريد هذا العلم علما إسلاميا ليس فيه بدع ولا عقائد زائفة ، الا ان تذكر لتدحض شبهتها ، وتدمغ جبهتها

مكان صاحب الترجمة من التصوف

بيننا في أول الفصل ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ربي تربية صوفية، وأنه كان صوفيا حنيا خفيا ، وأنه كان يرى وجوب كتمان كل ما يؤتاه المرء من ثمرات التصوف، وأن يكون مع الناس فيما يشاركهم فيه من الصفات والاحوال . وكذلك كان : كان مع الحكماء حكما ، ومع الفقهاء فقيها ، ومع الادباء أدبيا ، ومع المؤرخين مؤرخا ، ومع رجال الادارة والقضاء اداريا كاملا ، وقاضيا عادلا — وكان يخاطب كل قوم وكل فرد بقدر ما يراه من استعداده ، مع التزام الصدق واستقلال الرأي

ولما كان وجود الصوفية في هذا العصر أندر من الكبريت الاحمر كانت مكانة الشيخ في التصوف مجهولة حتى عند أصدقائه وتلاميذه ، ولا أعرف أحدا من أهل هذه البلاد كان يزوره ليذاكره في علم التصوف وأحواله الا أحد شيوخ الطريق المتقدمين في الصعيد وهو الشيخ أبو شروقاري رحمه الله تعالى . كان لهذا الشيخ تلاميذ يعتقدون أنه من أولياء الله تعالى، ومنهم من هو سيء الاعتقاد أو الظن بالشيخ الذي كان شيخهم يسأله عن دقائق التصوف ويستفيد منه

ولولا أن سبق لمؤلف هذا الكتاب اشتغال بسلوك طريق التصوف وعناية بمطالعة كتبه لما أمكن أن أعرف من صاحب الترجمة ما عرفت من أمره فيه شيئا لانه كان نكرة لا تعرف كما قلت في أول الفصل . وقد أخبرني أن كتاب الفتوحات المكية عنده كتاربخ ابن الاثير لا يقف فهمه في شيء منه

وقد بدا لي الآن ان أبدي شيئا مما كنت عازما على إخفائه من معنى قوله : مازج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر

ويخرجه منه وذلك قليل . فأقول :

ان كل من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة عرضة للوقوع في عالم الخيال ، ومن آثار ذلك ان يرى في اليقظة (الطبعية لا ما تسميه الصوفية اليقظة) مالا وجود له في الخارج ويسمع من نفسه تارة ومن الارواح التي تتمثل له تارة كلاما لا يسمعه غيره وان كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة ، وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما انه لا يمكن للرجال ان يعبروا للاطفال عما هو خاص بهم من لذة أو ألم ، ويتبع هذه الاحوال تخيلات وأوهام كثيرة ، يمجدها صاحبها لذة عظيمة ، يحتقر في جنبها ما سواها ، فلا يسمع فيها عدل عاذل ، ولا رأي عاقل ، ولا فتوى فقيه ، ولا برهان متكلم أو حكيم . ولكنه قد يقبل كلام من يرى انه فوقه في أحواله وأعماله ، وأننى لفريق خياله باقناذ فريق خياله ؟ بل ما كل من غرق ثم نجا يقدر على إقناذ الفريق ، وانما تكون انجاة من هذا الفرق بقوة واستعداد من الفريق ، وقوة واستعداد آخرين من المنقذ ، وقلما يتفق اجتماع الامرين ، كما اتفق ذلك للشيخين - الاستاذ الامام والسيد الحكيم - قدس الله ارواحهما

ومن لم يتح له هذا التوفيق يفتن بهذه الحال أو بذلك الخيال ، ويفتر به ويرى انه مستغن به عن جميع العلوم الدينية والدنيوية التي فرضها الله على العباد ، اذ جعلها مدار صلاح أمور المعاش والمعاد ، فاذا اقترب بذلك ما يقع كثيرا من المكاشفات ، أو التأثير بقوة الارادة في شفاء بعض الامراض ، أو حمل بعض الناس على أعمال ما كان ينتظر ان يعملوها لولا ذلك التأثير ، وغير ذلك من الامور الغريبة التي يسمونها كرامات ، فحينئذ يكون من يقع له ذلك فتنة لنفسه ولغيره ، فيتلو فيه من يرى ذلك منه ، أو يروى له عنه ، حتى ان من الغالين من يمدلون هؤلاء الناس بربهم ، ويعملونهم شركاء له في التصرف بهم وبغيرهم ، بل يدعونهم حتى عند الشدائد من دونه ، ويقدمون كلامهم على كلامه وكلام رسوله ، فاذا كان لاحد من رجال طريقته حزب أو ورد اتخذوا قراءته شعارا من شعارات الاسلام ، وهجروا لقراءته تلاوة القرآن ، ومنهم من يواظب على الورد ويترك الصلاة ، وإذا نسبت الى أحد

منهم بدعة ، قدموها على ما اتفق عليه المحدثون من السنة ، فيصدق عليهم بذلك ما فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (اتخذوا أجبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) بأنهم اتبعوهم في مسائل الحلال والحرام ، وكذا فيما زادوا في الدين من العبادات

ومن رضي أن يرى نفسه إماما متبوعا ، وشارعا مطاعا ، جدير بأن تعظم فتنته ، ويرسخ غروره ، وقد يتوهم انه على هدى من ربه ، وإن من ينكر بدعه من علماء الشرع محبوب بقشور الدين عن لبه ، فيكون من الاخسر بن أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ولكن منهم من يتخذ إلهها معبودا ، وربما مقصودا ، وشارعا مطاعا ، وهو لا يدري ، واذ درى لا يرضى

ومن دون هؤلاء ، من ينتحل لنفسه مقام شيوخ الطريقة ، وهو لم يعرف للسلوك معنى ، ولم يذق للتصوف طمعا ، ولم يعقل له حدا ولا رسما ، أما قصارى أمره فيه أن يرأس زعنفة من الغوغاء ، على اللفظ والصياح بما يسمونه الاذكار والاوراد ، ثم انه يُدعى له مقامات العارفين ، وكرامات الصالحين ، فيخادع العوام الغافلين ، بتخييلات السحرة وحيل المشعوذين ، ويخترع لهم من الرؤى المنامية ، ما هو عندهم أهدي من الكتاب العزيز والاحاديث النبوية ، فاذا مثل له الهوس في أحلامه ، بعض ما يشغله في عامة ليايه وأيامه ، فقد يلبس على نفسه ما كان يلبسه على الناس ، ونعوذ بالله من شر الوسواس الخناس

فهؤلاء يعيشون في عالم خيالي ، وأولئك يعيشون في عالم خيالي ، والفرق بينهما كالفرق بين الملائكة والحدادين - كما يقول في أمثاله الغزالي - بل هؤلاء من الشياطين ، وأولئك من الصالحين غير الكاملين ، فهم بغرورهم بما هم فيه والاستغناء به عن علوم السنة والفقه الصحيح والعلوم والفنون التي تميز بها الملة وذم ذلك واحتقار أهله كبعض غلاة علم الكلام وعلم الاحكام الذين يفضلون جدلهم وحياتهم التي يسمونها شرعية على كل شيء ، ويخترعون في سبيلها كل شيء .

ان المنتسبين الى طرق الصوفية في هذا العصر ألوف الألوف ، ولكنهم هبطوا الى اسفل سافلين ، قلما يصلح احد منهم أن يعد ممن سماهم ابن تيمية صوفية الرسم

دع صوفية الارزاق الذين فوقهم ، دع صوفية الحقائق الذين كلامنا فيهم طالما فكر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين في اصلاح شأن المتبين الى طرق الصوفية ، وإيقادهم من خيالاتهم الفاسدة وبدعهم الفاضحة ، بل اخراجهم - من جحر الضب الذي دخلوه وهم لا يشعرون - فلم يهتد أحد الى ذلك سبيلا ، ولما هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥ كان أول اصلاح سعيت اليه ان حاوات إقناع شيخ مشايخ طرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكري بالقيام بهذا الاصلاح ، كلمته بذلك قبل إصداري (المنار) ثم ازلت الخ عليه في ذلك وهو يسوق مع الاستحسان حتى عمد الى ذلك بوضع لائحة رسمية ولائحة داخلية ، ثم وضع كتابا في الاخلاق والآداب ، على انه سأتي عن رأيي في ذلك فقلت له مرارا ان الاصلاح لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والاخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق كلها ، ثم عدت بعد طول السعي ان ما حاولت من الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحي يكاد يكون من محالات العادات (١) وقد جرت المذاكرة في ذلك مرة بيني وبين صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي - وكان يرى أن اصلاح هذه الطرق أو الاصلاح من بابها محال - فقلت رأيت إذا اقتعنا بعض إخواننا الصادقين في حب الاصلاح ، العالمين بطرق الارشاد ، بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة ، ألا يستطيعون ان يقفوا بامة أهل طريقتهم عند حدود السنة ، ويربؤوا طائفة من المريدين تربية جديدة؟ فقال إننا جربنا ذلك فأقمتنا رجلا من أمثل هؤلاء الذين تعنيهم بنحو مما ذكرت ، فكان عاقبة أمره معهم ، ان أفسدوه ولم يصلحهم ، فأفسد هذه الرياسة وآثرها ، فحسرتنا بها

(١) لما بعد من عجائب مصر أن مشيخة التصوف فيها منصب رسمي يورث كالمال ، فأمير البلاد يقبل بعض الوجهاء منصب (شيخ مشايخ الطرق الصوفية) وهو منصب محصور منذ عهد عبيد في بيت البكري من بيوتات مصر ، وشيخ المشايخ يقبل مشيخة أكثر الطرق المشهورة في هذا القطر من يرثها عن أبيه أو غيره ، ولهم عادات وتقاليد في ذلك لا غرض لنا في شرحها

فعلم بهذا كانه ان للحياة الخيالية التي يعيش بها هؤلاء الناس لذة عظيمة سواء كان الخيال فيها عاليا أم سافلا ، ولذلك كان اصلاح شأنهم عمرا جدا ، ولن يقوم به الا من جمع بين العلم الصحيح والتقوى والاخلاص وقوة التأثير بالكلام وبالارادة، وهيئات ان يتفق وجود افراد من هؤلاء اتفاقا ، وإنما يوجد في كل عدة قرون منهم واحد ؛ وكثيرا ما يكون لهذا الواحد من الصوارف ما يحول دون التصدي لهذا الاصلاح ، فيجب على المسلمين السعي لتربية طائفة منهم ، وقد كان الاستاذ الامام من اولئك الافراد القادرين على هذا الارشاد لو تصدوا له ، ولكن صرف عنه حتي كان أكثر الناس يظنون انه ليس منه في ورد ولاصدر ، وطالما كانت نفسه تتوق اليه ؛ قال لي مرة : اذا يئست من اصلاح الازهر فاتي انتقي عشرة من طلبة العلم واجعل لهم مكانا عندي في عين شمس أربيهم فيه تربية صوفية مع اكمل تعليمهم وأستمين بك على ذلك ، وكان اقترح مثل هذا الاقتراح على السيد جمال الدين ايام كانا ينشئان العروة الوثقى في باريس ، وسياتي بيان ذلك ولو تم للاستاذ هذا على الوجه الذي يريده لكان أعظم أعماله فائدة ، وما كان يحول دون تمامه الا تعمير الاهتداء الى عشرة من المريرين المستعدين لهذه التربية ، فان أوبئة فساد الفطر والاخلاق وضمف الارادات والعزائم لم يكذب سلم منها الا الافراد الذين يمز الاهتداء اليهم بالسعي ، وإنما يعرف منهم من يعرف بالاتفاق والمصادقة غالبا. على ان تلك الروح العلية ، والارادة القوية، جديرتان بتحويل الطباع ، وتبديل الاوضاع

الفصل الرابع

في الطور الاول من حياته العملية

وهو ما قبل النفي

يتألف هذا الفصل من تمهيد في نتيجة تربية صاحب الترجمة وتعلمه ، خمسة مقاصد — ١ —
تدريبه في الازهر — ٢ — تدريبه في مدارس الحكومة — ٣ — عمله في ادارة الحكومة
— ٤ — عمله في نظارة المعارف — ٥ — سيرته في الثورة العراقية

تمهيد في حظه مما يكون به الرجل عظيما لو سأل سائل: أي الرجال أعظم في
الامة وأفضل؟ — لاختلف الجواب باختلاف أفهام الافراد ومذاهبهم، فهذا يقول
أعظمهم العالم وذلك يقول بل الفيلسوف، ويقول ثالث بل هو الرجل الصالح، فينبزي
رابع قائلا بل القائد الفاتح، ويخالفهم رجل آخر يدعي ان أفضل الناس السياسي
الحاذق، ويقول آخرون أقوالا أخرى. واذا رجعت بالجمع الى البرهان رأيتهم
يتفقون على ان أعظم الرجال وأفضلهم المصلحون الذين يوجهون عزائمهم الى رفع
الامة من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا، وهؤلاء قلما تجود الاجيال بواحد منهم على
كثرة العلماء والصلحاء والقواد والسياسيين في كل زمان

انما يكون الرجل عظيما بأمرين أحدهما فطري لا يأتي بالكسب وهو الاستعداد
الذي يكون له بكال الخلقة واعتدال المزاج، وحسن الوراثة للوالدين والاجداد.
وثانيهما كسبي وهو التربية القويمة والتعليم النافع، وقد كان استعداد الاستاذ الامام
لكل أمر عظيما حتى كان استعداده هو الاصل في تربيته وتعليمه. فقد علمت مما
مر أن فطرته السليمة لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لا يفهمها ولم يعرف هذا

عن غیره من المبتدئین بطلب العلم حتی اذ کما هم الذین استفادوا بعد العناء، فصاروا من كبار العلماء، فقد كانوا یصبرون علی مالا یفهمون زمتا طویلا، واذا حفظ احدهم شیئا بالتکرار ظن ان هذا فهم وعلم، ولا سببا اذا حفظ تفسیر المتن من شرحه وحاشیته. واکن صاحبنا لم یکن یتربک المسألة حتی یفهمها، ویوقن أو یرجح أن الحکم فیها کذا، ولذلك أسرع الیه الملل من دروس مشایخ الاحتمالات. وكان یقول ان حضور کتب العلوم العربیة علی طریقتهم قد أضر بذهنه وعقله، وانه ظل ینکس ذهنه وینظفه منها بضع سنین فلم ینظف تمام النظافة. وقد أعجبه طريقة السید جمال الدین فانه کان یشرح معنی المسألة حتی تتجلی للافهام ثم یقرأ عبارة الكتاب ویطبقتها علیها فان انطبقت والا أبان ما فیها من التقصیر، أو یقرأ العبارة ویبحث فی دلیلها فیقره أو یفنده ویجزم بنیره. وبهذه الطريقة ارتقی الی أن یحکم بنفسه فی المسائل ولا یرضی بمجرد فهم المراد مع التسلیم لمؤلف الكتاب، فالذی امتاز به صاحب الترجمة علی اخوانه الازهریین هو أنه فی بدایته لم یرض أن یحضر شیئا لا یفهمه، وفی نهائیه لم یرض بما یفهمه الا بعد أن ینشر فیہ الدلیل فیرضاه له، وأنه لم یقع بالعلوم المتداولة فی الازهر بل کان من أوائل عهدہ بطلب العلم الی یوم وفاته یطلب العلوم ویقدم منها ما یزیده کلا فی نفسه، ویعینه علی رفع شأن ملته وأمته، ولوانه تعلم فی حدائمه علی طريقة قویمة کما تعلم النابغون من حکماء أوربة وعلمائهم فی المدارس النظامیة ولم یضیع ذلك الوقت الطویل فی البطالة وفی الطريقة الازهریة الملتویة - لرأینا من آیاته العلمیة أضاف ما رأینا، علی ان ما رأیناه یکاد یشکل من الخوارق، فانه لم یکن یتکلم فی علم الاوتراه صاحب القدح المملی فیہ حتی کأنه هو الواضع له، فمن شاء أن یقتدی بطریقه المثلی من الازهریین وغیرهم فلیفعل عسی أن یشکل من المفلحین

وأما تربیة النفسیة فقد علم بما تقدم آ نفا انه تربی علی طريقة الصوفیة القویمة الخالیة من البدع والخرافات وسلم من أوهامها الخالیة حتی ملک نفسه وکملت أخلاقه وصار الدین وجدانا له، فکمل دینه بالجمع بین صحبة الوجدان وقوة البرهان. وأهم ما تفق له تربیة الارادة أي ملکه العزیمة والاقدام، فقد کان فیها نسج وحده فی أمته،

وسأتي بيان ذلك في الكلام على أخلاقه .

تقدم ان الرجل توجهت نفسه الى العمل والاصلاح قبل أن يصير مدرسا رسميا فبدأ باحياء اللغة ونفخ روح العلم والدين في الازهر ثم ان السيد جمال الدين وجه وجهه الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي فجعله ساعده وعضده في ذلك، فاشتغل بها معه مدة ثم استقر رأيه على ان الاصلاح محصور في احياء لغة الامة واصلاح نفوسها بالترية الصحيحة والتعلم النافع. وسيعلم القارى من هذا الكتاب كيف تنقل في ذلك من حال الى حال حتى كان بدء عمله التعليم في الازهر وحاتمه التعليم في الازهر

المقصد الاول

تدرسه وبدؤه بإصلاح التعليم في الازهر

كان عفا الله عنه قبل أخذ شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التي يحضرونها في الازهر ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ الطائفة منهم بعض الكتب فقرأ لهم إيساغوجي في المنطق ثم شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني مع حواشيه ثم مقولات السجاعي بمحاشية العطار وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر، ففكر سواد المجتمع عليه، وكان يدعوهم الى مطالعة ما لم يودوا من القرون والكتب، ويفتح لهم أبواب المداكرة والمناقشة ليلا، فكانوا يعاينون الليل ولا يشعرون بطوله، وحين الاذكاء بحسن بيانه ودقة فهمه، وحسنه أناس منهم فاستلوا عليه كتاب الشيخ عليش فكان ما كان من أمره معه، اذ ذهب ابن للشيخ عليش مع كتاب آخر فقولوا ان فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية، وقد رجع في درسه أمسن مذهب المنزلة على مذهب الاشعرية، وكان الشيخ عليش رحمه الله اذنا يصدق كل ما سمع، وكان شديدا الغيرة في الدين حديد المزاج سريع الغضب ففكر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذي لم يكن الشيوخ الكبار يتسامون لقراءته، فأرسل الى العقيد فجاهه وهو يقرأ الدرس في المسجد الحسيني، فقال الشيخ عليش: بلغني أنك تقرأ شرح العقائد النسفية درسا قال: نعم، قال الشيخ عليش وبلغني أنك

رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية ا قال : اذا كنت أتترك تقليد الاشعري فلماذا اتخذ المعتزلي ؟ إذا أتترك تقليد الجميع وأخذ بالدليل ، قال الشيخ عليش : أخبرني الثقة بذلك ، قال : هلم الثقة الذي يشهد بذلك فايميز امامنا هنا بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت ، قال الشيخ عليش : أو مثلك يفهم شرح العقائد ؟ قال : الكتاب حاضر وأنا حاضر فسلي ان شئت . فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب مجاور للشيخ عليش المبيد ، وقال بعضهم ان هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته ، وأخذ عمامته عن رأسه ، ولفظ الحاضرون ، فتركم القيد رحمه الله تعالى وذهب حاسرا عن رأسه . فقال أناس ان الشيخ عليشا ضرب به ، وقال آخرون انه منعه من الدرس . وكثرت الاشاعات والاقوال والرؤى والاحلام فيه وفي السيد جمال الدين . والحق أن ما ذكرناه هو كل ما حصل ، وأن القيد لم يمنع من قراءة الدرس ، وقد اشيع ان الشيخ عليشا لا بد ان يمنعه من الدرس بالقوة ، واشتهر انه ترك قراءة الدرس في مسجد محمد بك أبي الذهب وأمه في بيته . وقد حدثني انه لم يترك الدرس ولكنه كان يضع بجانبه عصا وقال اذا جاء الشيخ بعكازه فله هذه العصا . وكان من الشجاعة على ما يهد عارفوه كما سنين ذلك في الكلام على أخلاقه .

أما تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها ، بل كان هو مبدأ خوض بعض الجامدين في دين كل من السيد الحكيم والاساذ الامام رحهما الله تعالى حتى عدوا حبس الاساذ في امر الثورة العرابية كرامة للشيخ عليش ولم يعدوا حبس عليش كرامة له . وسنقد فصلا خاصا في هذا الجزء نبين فيه انه لم يسلم أحد من أئمة الدين ولا من كبار الحكماء والصوفية من مثل هذا الطعن ، وأنه من مناقب حكيمينا قدس الله روحهما ، وان الذين يتشفون بمثل هذا الخوض من الاعداء والحاسدين ومن يقدّم من المساكين والمجانين لو عقلوا لكتموه وسعوا في ازالته

نعم ان ذلك الخوض والتقول مما نزين به تاريخ هذين الحكيمين ولكن لا ننكر أن تأثيره السيء وقع على الامة الاسلامية عامة وعلى الازهر خاصة دون الرجلين اللذين لم يحترم الناس من عقلاء الامة الاسلامية ولا من الاجانب أحداً في هذا

العصر من أهل المشرق كاحترامهم إياها - ذلك أنه كان عقبة في سبيل إصلاحهما واستفادة الأمة منها ، وهما ماجوران عند الله تعالى بحسن نيتهما ، وبذلها جهد المستطاع في خدمة أمتها وملكها . وقد كاد يترتب على ذلك حرمان فقيدنا من شهادة العالمية ومرتبة التدريس في الأزهر لولا عدل الشيخ العباسي وإضافته ثم إن دروسه في الأزهر كانت بناءً جديدًا للعقائد على أساس البراهين التطمية ، وتجديدًا لما لبى من سائر العلوم العقلية ، وكانت حلقة درسه في الأزهر واسعة جدًا تحيط بأعمدة كثيرة ، وكان يقرأ في بيته درسًا في الاخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين : قرأ في ذلك كتاب (تهذيب الاخلاق) لابن مسكويه الرازي فكان ذلك سبب طبعه المرة الأولى . وقرأ كتاب (كيزو) في السياسة ولا أدري آتاه أم لا

شعر الأزهر بشي . جديد يتجلى في تلك الدروس ، فهابها كثيرون ، كما أقبل عليها كثيرون ، وحسد العقيد عليه بعض الشيوخ فكانوا يصدون تلاميذهم عنه ، حدثني صديقنا حقني بك ناصف أنه ما أقدم على حضور درسه في الأزهر الا على سبيل الاكتشاف ، مع مراعاة الحذر والاحتراس ، وانما اكتشف بتلك التجربة كثيرًا من التبر ، وغاص في بحر جنى منه أنفوس الدر ، فترك له ما كان يلهوه من الحزف ، أو يخطف بصره من بريق الصدف ، وتبع هذا المصلح فكان من أنفع تلاميذه .

هذا ما كان من أمر العقيد في الطور الاول من حياته العملية ، وهو وضع جرثومة الإصلاح في الأزهر ، وقد بقي هذا همه الا كبر طول حياته فكان المبدأ والحتم ، وسيأتي تفصيل ما عمله في الأزهر في أواخر أيامه

المقصد الثاني

تدريسه في مدارس الحكومة

عين العقيد في أواخر سنة ١٢٩٥ مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم ، ولعلمو العربية في مدرسة الألسن الخديوية ، فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس

في الجامع الأزهر، فبدأ دروسه في دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون بأنها مقدمة للتاريخ وإنما كان غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ، فكان يطبق ما فيها من الكلام على نهوض الدول وسقوطها وشؤون العمران وأصوله على أمته، ويبين أسباب ضعفها، والمسائل التي تذهب به وتميد اليها ما فقدت من عزها ومجدها. وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول في ذلك فكان كل واحد يشعر بزوج جديد يدب في هيكله، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده وإعلاء شأن أمته، لأن هذه الأفكار لم تكن موهوبة في هذه البلاد، فلا تذكر في المدارس ولا في الجرائد، والمرور في أذهان جميع الناس وتلوهم انهم عبيد للحكم لا حقوق لهم عليهم، وقد كتب رحمه تعالى في ذلك العهد كتابا حافلا في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ اتقده به بعض ما قاله ابن خلدون واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتماع في هذا العصر من أحكام العمران في العصور الغابرة.

وكان في مدرسة الألسن آية البيان في احياء اللغة العربية واشراع الطريق اللاجب في التعليم، والخروج بالطلاب من مأزق العهد القديم وما نبع من نبع من تلاميذ السيد وتلاميذ الشيخ الا لانه كان يقصد بتربيتهم وتعليمهم ايجاد نابتة من المصريين نحبي اللغة العربية، والعلوم الاسلامية، وتقيم عوج الحكومة، اذ كانت قد رثت ووهت، ووقعت في النزاع أو أوشكت. عظم فيها سلطان الاجانب، وأحاطت بها سيول الفتن من كل جانب، ففتيت الامة بالتراب والمهينة، وضربت عليها الذلة والمسكنة، ذلك بما أسرف اسماعيل باشا في الضرائب والمكوس، وتعذيب الاجساد واذلال النفوس، وقد حدثني بعضهم أنهم عند ما كانوا يحضرون دروس الشيخ ومجالس السيد يشعرون بأن في استطاعتهم القيام بكل إصلاح يناط بهم، وأنهم اذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته يصلحونها في أقرب وقت، وقد كان السيد مهد السبيل لهذا الإصلاح بانصاله بتوفيق باشا ولي عهد الخديوية المصرية، وإقناعه اياه بما يجب أن تكون عليه الحكومة اذا آل أمرها اليه، وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة السيد رحمه الله.

ظهرت آثار روح الشيخين في أعمال تلاميذها فكان منهم أرقى القضاة

الاهلين والمحامين وأساتذة المدارس العالية، ومن أشهرهم سعد زغلول، وإبراهيم اللقاني، وحفني ناصف، ومحمد صالح، وسلطان محمد

المقصد الثالث

عمله في ادارة المطبوعات والجريدة الرسمية

في أواسط سنة ١٢٩٧ توجّهت عناية رياض باشا إلى تحسين كتابة الجريدة الرسمية وجعلها مفيدة مرغوباً فيها من الناس فاستشار الشيخ حسيناً الرصني ومحمود باشا سامي البارودي كلا على حدته فأشارا برأي واحد كأنهما توأما به وهو جعل الشيخ محمد عبده محرراً فيها أولاً ففعل بعد أن استرضى توفيق باشا فصدر الأمر العالي بتمينه محرراً ثالثاً وانتظر رياض باشا مدة من الزمن فلم يرتضياً يذكر فطلب الفتيق وسأله عن ذلك فقال إن أمر الجريدة ليس إلي وإنما أنا أحد المحررين إن طلب مني شيء كتبته وإلا فلا.

ثم إن رياض باشا كتب من الاسكندرية يأمر قلم المطبوعات في مصر بان يكتب مقالة في مالية مصر تلم بشيء من تاريخها الماضي وحالها الحاضر الذي وضع له قانون التصفية وأن تنشر هذه المقالة في أول عدد يصدر من الجريدة الرسمية وكان قد بقي له يوم واحد فخاص كتاب الجريدة وقرأوا فلم يدروا ما يكتبون ثم اهتموا السبيل فأرسلوا إلى صاحب الترجمة من أحضره من الأزهر وكلفوه كتابة المقالة فكتبها في مجلسه ونشرت فلما قرأها ريانر باشا أعجب بها أشد الإعجاب وسأل عن كاتبها فقيل له هو فلان فزاد عجبه أن وجد في الأزهر شاب واقف على تاريخ المالية في مصر عارف بجميع شؤونها قادر على بيان ذلك والافصاح عنه. ويقول بعض مريدي الأستاذان رياض باشا طلبه وكلفه كتابة تلك المقالة في بيان الغرض من قانون التصفية وفائدته للبلاد وأما الرواية الأولى فقد سمعتها من الفقيده لعلها واقعتان لمقاتلين . وفي أواخر هذه السنة طلبه رياض باشا وسأله عن رأيه في اصلاح الجريدة اذ علم انه ابو عذرتها، والمنفذ لما يرجو من ترقيتها، فبين له رأيه في تقرير ضاف فأمر بان

(م ١٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

تؤلف لجنة للنظر في التقرير من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير، وأن توضع لأئحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة فكان ذلك ، وعين الفقيد رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية وسمي « المحرر الاول » لها ، فاختار لها من المحررين المهرة الشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول (هو سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف لهذا العهد) والشيخ ابراهيم الملباوي (هو ابراهيم بك المحامي الشهير الآن) والشيخ سيد وفا (رحمه الله) وهم من كانوا قد برعوا في الكتابة معه على يد السيد .

ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان مالم يخطر على قلب بشر ، وهو ان رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهميناً على الحكومة والامة ، ينتقد الاعمال والاقوال ، وينتقل بالناس من حال الى حال

وضع لأئحة لقلم المطبوعات أو للجريدة الرسمية اجازها وأنفذها رياض باشا فكان من احكامها ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها ومجالسها في العاصمة وغيرها مكلفة أن تكتب الى ادارة الجريدة مخبرة بما عملت فتمت وما شرعت فيه فلم تتمه ، وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج احكامها ، وأن لادارة الجريدة الحق في انتقاد كل ما تراه منتقداً من الاعمال ومن المكتوبات الرسمية ، وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والاجنبية التي تصدر في قطر المصري ، وأن تبحث عن حقيقة ما تقول في رجال الحكومة وأعمالها ، وعلى الحكومة مساعدتها على ذلك بمعنى أنه اذا نشر في بعض الجرائد ما تراه ادارة المطبوعات فيه فإن لها أن تسأل المصاحبة او الادارة التي يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة لداخلية إن لم يكن ما نشر مسنداً الى النظارة وإلا سألتها هي مباشرة . فإن كان حقاً ما نشر في الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذة من نسب اليه الذنب وذكرك في الجريدة الرسمية . وإن كان كذبا طوب مدير الجريدة باثباته وإلا أندر . وكان من احكام قانون المطبوعات انه اذا تكررت ائذار جريدة ثلاث مرات يمنع اصدارها اليته أو الى الاجل الذي تراه الادارة .

وكان من حق هذه الادارة أن تفصل في كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلا لا يجوز المناقشة فيه . وكان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية

أن يجعل فيها قسماً غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعاً من المقالات الادبية (ويدخل في الادبية الاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك) ومن أحب أن يعرف قيمة هذه المقالات في ارشاد الامة والحكومة فليرجع الى ما نشرناه من مقالاتها في منشآت الاستاذ في الجزء الثاني من هذا التاريخ

ان في هذا لبرة لاولي الالباب — صاحب عمامة ازهرية يدخل في حكومة مطابقة بعيدة في أعمالها عن رجل العلم والدين فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها فيصلح لها ما يلائمها ويتوبن ويرشد هم الى اصلاح العمل فيما يعملون . ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الامة فيقوم من أخلاقها ، ويصاح ما فسد من عاداتها ، بالوعظ الصحيح ، والارشاد القويم . ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويريبها على الصدق في القول ، ويجمل للصادق منها سلطاناً نصيراً ، وتأثيراً ماثوراً ! يالها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتى حسدتها الطرايش ، وهابتها التيجان وعظمتها البرانيط . ونذكرها على سبيل الفكاهة ان بعض الكبراء رغبوا الى الاستاذ الامام في ذلك الهدى ان يستبدل الطربوش بالعمامة لان صاحب العمامة لا يرتقي الى مراتب الرؤساء والنظار كصاحب الطربوش فأبى عليهم ذلك فأردوا الاستماتة عليه برياض باشا فهو انه يميل الى ايس الطربوش ولكنه لا يابسه إلا بأمره فسأله فظاهر له أنه لا يرغب في ترك زيه وأنه اذا ألزمه ذلك الزما فإنه يمثل مادام في عمل الحكومة . فاذا خرج من عمله عاد إلى عمامته فقال رياض باشا كلا انني لا أرضى لك الطربوش لانني أحب ان يعلم الناس أنه يوجد تحت العمامة من العقول والافهام مثل ما يوجد تحت الطرايش وغيرها فللادري رياض باشا وجزاه الله الخير فإنه هو الذي أحضر السيد جمال الدين ومكانه في أرض مصر وهو الذي كان السبب في ظهور مواهب الشيخ محمد عبده في اول نشأته حتى إنه حكمه في انتقاد نظارة الداخلية وهو أحد العمال المتوسطين فيها

كان من أثر مراقبة ادارة المطبوعات للجرائد أن اجتمعت اصحابها في انتقاء المحررين وقد أنذر الفقيد عامله الله تعالى باحسانه مدير جريدة شهيرة بمنع جريدته

إذا لم يختار لها محرراً صحيح العبارة في مدة عينها فبادر ذلك المدير إلى الامتثال ولم يكن يأذن بطبع كتاب من الكتب الضارة . وكان من أثر انتقاد كتاب الحكومة في الجريدة الرسمية أن نبه شأن المجيدين ، وفتحت مدارس لياية لتعليم المقصرين وتبرع تعمده الله برحمته بقراءة درس في بعضها . فهذا هو مبدأ النهضة القلمية الحقيقية في مصر ، فالفضل فيها للسيد جمال الدين وللشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى وأما انتقاده أعمال الحكومة فكان من أسباب تحريك الحق والعمل والاجتهاد في اصلاح كل نظارة ، وكل مديرية ومحافظة ، وقد ثنل على بعض المديرين انتقاد الجريدة اياه وأراد منها من مديريته وراجع نظارة الداخلية في أمرها زاعمان انتقاد أعماله يضع من قدر الحكومة في أعين الرعية ، فعادت عليه شكواه بضد ما أراد ، وعلم ان ساطة الجريدة الرسمية ، فوق ساطة المديرية

وقد عني القعيد يومئذ بنفسه بانتقاد نظارة المعارف ومثل مساوي التعليم والتربية في مدارسها شر تمثيل ، فضاقت ناظر المعارف لذلك العهد ذرعاً ، فلاذ برياض باشا شاكياً من الجريدة الرسمية ، فقال له رياض باشا ان كان ما كتب حقاً فلا وجه للشكوى منه ، وان كان باطلاً فمليك أن تبين ذلك بالدليل والبرهان وفلان ينشره في الجريدة الرسمية نفسها ، فانه لا يقصد بما يكتب فيها إلا المصلحة . فسكت الناظر واجام ، وكان ذلك سبباً لما ترى في المقصد الرابع ، من المشروع في اصلاح نظارة المعارف

المقصد الرابع

(عمله في مجلس المعارف الأعلى)

اقتنع رياض باشا بما في نظارة المعارف من الخلل وعلم ان ما يكتب في الجريدة الرسمية حق فذاكر القعيد في ذلك وفي وسائل تلافيه فأشار أولاً بان يستبدل بناظر المعارف ناظراً آخر أقدر منه على الاصلاح المطلوب ، فقال له الوزير إن الوزارة متكافلة لا تستطيع ان تفتح للخديو باب التغيير والتبديل فيها ، فعرض عليه حينئذ ان يكون للمعارف مجلس أعلى يكون له الحكم الفصل في اذارة المعارف العمومية ويكون الناظر منفذاً لما يقرره فأنفذ ذلك رياض باشا باستصدار الامر العالي الآتي

وجعل صاحب الترجمة عضوا في هذا المجلس فكان له فيه الاقترحات النافعة ولولا كثرة ما جعل فيه من الاعضاء الاجانب الذين كانوا يعارضون المشروعات النافعة للبلاد ثم حدوث الثورة لارتقت معارف البلاد في ذلك العهد ارتقاء عظيما .
صدر الامر العالي بتشكيل هذا المجلس في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ وهذا نص الامر العالي به وما كتبه ناظر المعارف الى صاحب الترجمة في ذيله نقل من الاصل الرسمي المحتوم بختم الناظر وهو :

ترجمته

أمر عالي (?)

فمن خديوي مصر

بناء على ما رفعه لنا ناظر المعارف العمومية وموافقة رأي مجلس نظارنا؛ أمر بما هو آت :

قد تشكلت تحت رئاسته ناظر المعارف مجلس أعلى للمعارف العمومية مركب على الوجه الآتي:

ناظر الاشغال العمومية	علي مبارك باشا
ناظر الحفانية	حسين (فخري) باشا
مدير وكوميسارى صندوق الدين العمومي	موسيو موني
باشكاتب عموم التفتيش العام	موسيو ليرونه ديرول
رئيس عموم أركان حرب	استونه باشا
وكيل نظارة المعارف العمومية	عبدالله باشا فكري
ناظر المدارس الحربية	لاري باشا
رئيس مجالس الصحة العمومية	الدكتور سالم باشا سالم
ناظر مدرسة الطب	جانياردو بك

ناظر دار الآثار القديمة (الانتقخانة) ومدير عماليات الحفر والبحث في جوف الارض	مسيو جاستون ماسيرو
ناظر مدرسة المعلمين	موسيو موجيل
ناظر مدرسة المهندسخانة	اسماعيل بك الفلكي
ناظر قلم الاملاك الميرية المعروضة للبيع	روجرس بك
ناظر مدرسة الادارة	فيدال بك
ناظر مدرسة العمليات	جيجون بك
ناظر السكتبخانة الاهلية	اسييتا بك
ناظر دروس المدرسة العالية	موسيو مونتان
ناظر مدرسة التجهيزية	صادق بك شنن
وكيل مدرسة الطب	الدكتور عمان بك غالب
خوجه بمدرسة المعلمين	الشيخ حسين الرصفي
محرر أول الصحيفة العربية الرسمية	الشيخ محمد عبده
عالم	الشيخ زين الرصفي
خوجه بمدرسة الادارة	الشيخ حسونه
خوجه بمدرسة اللسن	موسيو بارنار

بند — ٢

يمطي المجلس المذكور رأيه في المواد الآتية :

أولا في مشروعات القوانين واللوائح المختصة بالتعليم وخصوصا في جداول مواد التعليم بالمدارس الميرية
ثانياً فيما يتعلق بإنشاء مدارس جديدة
ثالثاً فيما يختص بتوزيع مايمطي من النقود على سبيل الاعانة والتشويق
للمدارس الغير ميرية

رابعا فيما يتعلق بكتب التعليم التي تستعمل في المدارس الميرية
خامساً في جميع المسائل المختصة بضبط وادارة المدارس الميرية وحساباتها وادارتها

سادسا في المسائل المتعلقة بمحتوق وترقي المعلمين
سابعا في غير ما ذكر من جميع المسائل التي يقدمها له ناظر المعارف العمومية

بند — ٣

على ناظر المعارف أن يقدم في كل سنة للمجلس الاعلى صورة ميزانية المعارف
العمومية عن السنة التالية وعند تقديم هذه الميزانية لمجلس النظار ينبغي أن تكون
مصحوبة بما يبيده المجلس الاعلى من الملاحظات فيها بعد نظره اياها

بند — ٤

يجوز المجلس الاعلى أن ينتدب واحداً أو أكثر من أعضائه إماماً للتحقيق الواو
التي تعرض عليه أو لتفتيش على المدارس الميرية أو المدارس الغير ميرية المربوط
لها مرتبات على سبيل الاعانة من طرف الحكومة

بند — ٥

على المجلس الاعلى أن يحرر وينشر في آخر كل سنة تقريراً عن حالة التعليم
في المدارس الميرية

بند — ٦

ينعقد المجلس المذكور بناء على طلب ناظر المعارف العمومية ويكون انعقاده
مرة واحدة بالاقبل في كل شهر ماعدا في مدة البطالة (؟)

بند — ٧

لا تكون مداوات المجلس المذكور صحيحة ومعتبرة الا اذا كن حاضراً به
تسعة من أعضائه لأقل وتكون قراراته بأغلبية الآراء

بند — ٨

على ناظر المعارف تنفيذ أمرنا هذا

صدر بسراري عابدين في ٢٨ مارث سنة ٨١ — ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨
بأمر الحضرة الفخيمة الخديوية الامضاء (محمد توفيق)

رئيس مجلس النظار

ناظر المعارف

الامضاء (رياض)

(الامضاء على ابراهيم)

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده

المسطر بهذا الترجمة الامر الكريم^(١) الصادر بتشكيل مجلس أعلى للمعارف وحيث ان حضر تكلم من ضمن أعضاء المجلس المذكور فلزم تحريره للمعلومية بما اشتمل عليه الامر والحضور لديوان المعارف الساعة ٩ افرنجي صباحا في يوم الخميس الموافق ١٥ جا سنة ٩٨ حيث سيكون انعقاد اول جلسة في اليوم المذكور ١١ جا سنة ١٢٩٨

ناظر معارف
الحتم

٣٦٠
—
٣٥
رة

هذا نص ما باغه صاحب الترجمة بحروفه ، وخاتم ناظر المعارف منقوش فيه قوله تعالى (والله غالب على أمره) لا اسمه — ويرى القارى ان الاعضاء الاوربيين أكثر من الوطنيين في هذا المجلس

في هذا المجلس تألفت للنظر في اصلاح طرق التعليم والتربية في جميع المدارس جعل القميدالكتاب العربي لجلساتها وكان له فيها الاراء الصحيحة والحجج القيمة على ما يطلب من الاصلاح

اذكر من اقتراحاته شيئاً سمعته منه ولا ادعي أنني أحطت بتفصيله كل الاحاطة وهو أنه اقترح مرة على المجلس ان يطلب من الحكومة مبالغاً عظيماً من المال يوزع على المدارس الاجنبية مكاناًة لها على خدمة العلم ونشره في البلاد ، فهش الاعضاء الاوربيون لهذا الاقتراح وعارض فيه بعض الاعضاء الوطنيين ووافق عليه الآخرون الذين عرفوا ما يرمي اليه المقترح فتقرروا كثيراً آراء. ثم انه اقترح في جلسة أخرى ان يقرر المجلس وجوب جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر مفتشوا النظارة في نظام التعليم وسيره فيها فهش الاعضاء الوطنيين لهذا الاقتراح وعارض فيه الاجانب ، فأقام عليهم الحجة بان جميع الدول الاوربية تراقب جميع المدارس التي تأخذ منها اغاثة وتفتش مدارسها اذ يجب على الحكومة ان تعلم أنها لا تضيع دراهمها بل تنفقها فيما ينفع بلادها . فقال بعضهم ان هذا قول حق وانما نعارض

(١) قرارات مجلس النظار المصري تصدر باللغة الفرنسية الى الان وتدونها

وتترجم بالربية

الآن في هذا الاقتراح لاننا نعلم أن المعارف في مصر منحلة وانما اجتمعنا لترقيتها، وأرباب المدارس الاجنبية مرتقون في العلوم والمعارف ولا يصلح الاذن للاشراف على من هو أعلى منه ولا المنحط للحكم على المرتقي . فقال الفقيه رحمه الله تعالى للمعتز : كان يصح هذا الدفاع لو لم تكن أنت ورفاقتك الاوربيون المرتقون من أعضاء مجلس المعارف المصري ، على انه اذا كان الطالب في نفسه حقا وعدلا فلا يصح أن يرفض لان المعارف العمومية لم ترتق في البلاد المصرية . فان عدم ارتقاء المعارف وانتظام المدارس لا ينافي وجود أفراد من الموظفين في النظارة من الاوربيين أو المصريين المتعلمين في مدارس أوربة العالية يصلحون لتفتيش المدارس الاجنبية : فهضمت حجته وتقرر اقتراحه . وانها لأمنية كان يتلخر على ذكرها السلطان والامير ، وبسبيل لتوهيها لعاب الناظر والوزير ، ولكن تقف دونها الآمال حسرى ، وتنحني أمامها العقول حيرى ، وتكبو في غاياتها جياذ السياسة ، ويصفر عن الطمع فيها أهل الرياسة ، ثم تسمو اليها تلك المهمة ، وتستنزله من أعلى القمة ، ولولا الفتنة العرابية لجعل لنا ذلك العضو أو الكاتب ، سيطرة على مدارس الاجانب ، على ما كان لهم في ذلك الزمان ، من النفوذ والسلطان ، فكيف لو كان ذا منصب أعلى ، ونفوذ أقوى ؟

المقصد الخامس

عمله ورأيه في الثورة العرابية

علم مما تقدم ان البلاد المصرية كانت في أواخر إمارة اسماعيل باشا في ظلمات بحر من الظلم لحي يشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض — ظلمة الجور والظلم ، وظلمة الفقر والفاقة ، وظلمة الشرور وفساد الاخلاق ، والآداب ، وظلمة تحكم الاجانب وسيطرتهم على الحكومة بحجة المراقبة المادية للملم من الديون على اسماعيل باشا ، وظلمة سلطنتهم على الرعية التي أغرتهم في الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجزى ، وكثرة الضرب وسوء الجزاء . وكان يظهر من غمرات هذه الظلمات بصيص من النور في مواضع مختلفة لمعت جذوة منه في الازهر ففتح

(م ١٩ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

الشيخ عليش نفخة أخذتها ولكنها ما أطفأها، ثم كان هذا الزور يظهر في مااهد خاصة فتعشو اليه الابصار، ويسير في ضوءه من سار، حتى أشرق وتلاأ في ادارة المطبوعات، وانتشر نوره في سائر الجهات، وكان ماكان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الاصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأمرهم الجديد (توفيق باشا) اعفته عن أموالهم، ورغبته في اصلاح حالهم، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) واذا بناجم الفتنة قد نجم، وطائر الشرق قد وقع، اذهب ضباط الجيش من المصريين يطالبون بمحقوقهم، وأيديهم على مقابض سيوفهم، وتلك هي ما يسمونه بالثورة العراقية

كان استاذنا في أول أمر هذه الثورة كارها لها مندابر عماها وهو بينهم، لانه كان يعلم انها تجبط عمله الذي مضى فيه، وكل اصلاح لعمله الحكومة أو تنويه، وأنها تمهد للاجانب سبيل الاستيلاء على البلاد، بل كان هو واستاذه يتوقعان ذلك من سيرة اسماعيل باشا، وقد صرح السيد بذلك في خطبه وفي بعض ما كتب وطبع لذلك العهد، وحاول ان يحول دون ما يخشى ويتوقع بالذمي في الاصلاح، فليس قولنا عن استاذنا أنه كان لا يجهل خطر الثورة من الدعوى أو الرجم بالغيب، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من العارفين بما كان. كان ينتمد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا في أنديتهم وسمارهم وبالكتابة في الجريدة الرسمية، حتى أرسل اليه عرابي مرة من يتهدده ويقول انك أهنت الشرف العسكري بما كتبت عن الجيش وروسائه. أرسل اليه ضابطين الى قلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما اذا هما لم يخرجا، حتى صار عرابي وأعوانه ينفذون من المجلس الذي يدخل فيه

زار مرة طلبه باشا في أيام عيد الفطر فاذا بعرابي وأعوانه جلوس يتكلمون في الاستعداد والحرية، والحكومة الطائفة والحكومة النيابية الدستورية، واتفقوا على أن الامن على الارواح والاوال، وصعود الامة في مراقي الكمال، من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال، وان هذا التحويل قد آن في مصر أوانه، وأدركها إبانته، فعارض الاستاذ في ذلك وقال ان أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال

يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة موثقة بالزميمة، وحمل الحكومة على العدل والاصلاح، ومنه تعويدها الاهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتها اياهم في الامر بمجالس خاصة تنشأ في المديریات والمحافظات ، وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بما له قبل بلوغه سن الرشد وكال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد . ففطق عرابي بمجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحربية، وكان مما احتج به الفقيه عليهما أن الامة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في ادارة شؤنها لما كان اطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى، فما يطلب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لانه ليس تصويرا الاستعداد الامة ومطلبها، ويحتشى ان يجر هذا الشعب على البلاد احتلالا أجنبيا يسجل على مسيبيه اللعنة الى يوم القيامة .

عند ذلك أبدى المجادل نواجذه لغير تبسم ، وقال أرجو أن لا أستحق هذه اللعنة، وليس الجند هو الذي يطلب مجلس النواب ولكنه مويد لطلب أعيان البلاد ووجهاتها ، ثم أسر الى الاستاذ أن سلطان باشا جمع الاعيان لهذا الطلب .

وقد كتبنا في ص ٥١٢ من مجلد المنار الرابع (مجلد سنة ١٣١٩) ردا على صحافي عرض بأن الاستاذ الامام كان من أركان الثورة العراقية نذكره هنا وهو « عرض هذا الانفجاني المنذوق بذكر الفتنة العراقية وباليته كان يعرف حقيقة الفتنة العراقية ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال فهو لا يعرف ولا يجب أن يعرف فاذا أحب فليسأل العارفين ، وإبراج كتاب الكاتين ، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين ، يظهر له أن هذا الرجل الكبير العقل البعيد الرأي كان ينتقد أعمال عرابي ونهوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الادبي منها على حين ترتعد فرائص قصر الخديوية من عرابي ، وعلى حين يرى هذا المنتقد الشجاع ان رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عرابي مكرها ويسمع من أتباعه ما يكره. ثم تظاهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة العراقية عند ما ألزمه حضور مجتمعتهم وان يقوم فيهم خطيبا .

« ماذا كان موضوع خطبته ؟

« كان موضوعها بياناً تاريخياً اجتماعياً ملخصه أن المهود في سبر الامم وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام ، وانه لم يهتد في أمة من أمم الارض ان تلحوا بالاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك ، فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ (قال) فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الانساني ، أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتهم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتساووا الصماليك حبا بالعدالة والانسانية ؟ أم تسبرون الى حيث لا تدرسون ؟ وتعملون ما لا تعلمون ؟ : وأمثال هذا الكلام الذي فهمه بعضهم فطلقوا ينفخون رؤسهم وعلا على أفهام الآخرين

« هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في أعظم مجتمعات لروساء العراقيين ولو كانوا يعملون لرجعوا به الى رشدهم، ولكن الامة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم ولما نستعد الى الآن ، ولهذا الاستاذ ان يمثل بقول ابن القارض رحمه الله تعالى

« ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الاهواء عمت فأعمت » اه

هذا ما كتبناه في سنة ١٣١٩ ويزيد عليه الآن أن عرابي ورجاله حققوا على الاستاذ وكشفوا المرحوم السيد أحمد علي محمود والمرحوم ابراهيم افندي الوكيل وكانا من أعضاء مجلس النواب ومن أخص أصدقاء الاستاذ بما أضمره له من السوء فأعدا احتفالا في منزلها بقصر الشوك دعيا اليه كل ذي جاه ومقام ليصاحبا ذات البين بين الفريقين، وتوالى الخطباء هنالك حتى جاء دور الاستاذ وقام ليعتذرا مضي ففسر مقصده من الخطبة السابقة تفسيراً كان أسوأ تأثيراً في نفوس العراقيين مما كانوا يقومون منه وحقنوا عليه لاجله .

ولا يلتبس على القارى معارضة الاستاذ الامام للعراقيين في مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعي الثاني الى ذلك بعد استاذه وأول من

تلقي ذلك عنه، فانه إنما كان يحاول أن يكون ذلك برضا الامير وحكومته لا بالخروج عليه، وأن يكون في البداية من قبيل الترين والتعويد، مقررنا بالثرية والتعليم الى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها، وتصل من طريق الحكمة الى رشدها، وقد رأيت كيف كان التوسل اليه منه، فيما روينا لك عنه، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالاصلاح عند مهب الفتنة، وياجأ الى قصر الامارة أو يتفأ ظلال العزلة، لانه في فكره وسط بين الطرفين، وفي عمله بين المصلحتين، وقد قال عرابي مرارا كثيرة: عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضن لك أكثر مما تطلب في بضع سنين، ونهاه بمد ذلك عن محاربة الانكليز

اتهمت الثورة بالاحتلال الانكليزي وقبض على زعمائها وأقوا في غيابة السجن ليحاكوا فيقتلوا تقيلا، وجعل القيد منهم لأمرأ، وصدر الامر بأن تكون محاكمتهم بالقانون الانكليزي، وعين لهم محام انكليزي جاءهم فسمع منهم، وكلفهم ان يكتبوا دفاعهم بأيديهم، كل يكتب عن نفسه، ولا يظعن في غيره؛ فلم يرفي كتابة أحدا تقوم به الحجة، وتقدم به التهمة، ويدل على العوص في أعماق الحوادث، والاحاطة بما لها من الاسباب والنتائج. الا ما كتبه وما قاله الاستاذ الامام، وقد زاد المحامي على بيان ذلك أن أشعره بالحفايا، وأطمعه على ما في زوايا القصر من الخبايا، كقوله ان الحاشية خاطبت محافظ الاسكندرية بلسان البرق بكذا في يوم كذا وعدد كذا بأن يفعل كيت وكيت. وأعطاه من المستندات ما يقرب وجه المسألة، ولا ترضى اظهاره السياسة، فكان ذلك سببا لتخفيف الحكم، ونسخ اعدام الزعماء بالنفي، فحكم على عرابي ورفاقه المعروفين بالنفي الابدي وعلى صاحب الترجمة بالنفي ثلاث سنين. وقد كان النفي بلاء وشقاء على كل من المنفيين حاشا الامام فانه كان رحمة له ونعمة عليه، ومزيدا في كمال علمه وتربيته، وسببا لنشر علمه في بلاد كثيرة، ذلك أنه كان من أهل الاخلاص والتقوى، فجعل الله تعالى له من كل ضيق فرجا ومخرجا، بل بدله بالثمة نعمة، والسبب حسنة، فكان مبدأ حياة جديدة له نينها في الفصل الذي يلي هذا

هذا ما كنا كتبناه في النار ونزيد عليه هنا ما يلي :

﴿ قصيدة الفقيد في الثورة العرابية ﴾

أصح الدلائل على رأي الانسان في أمر من الامور أو حدث من الاحداث وعلى موضع ذلك الشيء من شعوره ووجدانه ما يكتبه بشأنه في أثناء وقوعه ، وقد نظم صاحب الترجمة قصيدة في شأن هذه الثورة وهو في السجن صور فيها كل ما كان في دماغه وقلبه في ذلك الوقت ، اذ كانت نفثة مصدور ، وشكوى مظلوم ، وأمانى مصلح لم يدر كنهه أهل زمنه ، فانهموه بضد ما كان عليه في نفسه ، ولو كان فقيدا من الشعراء ، أو استمال بقصيدته أمير البلاد أو أصحاب السطة العسكرية فيها ، أو اعتذر عن عمل عمله ، لا يمكن لمن لم يعرف أخلاقه أن يقول إنه قال غير ما يعتقد به ويشعر به لاستمالة أصحاب السطة اليه ، توسلا به للافراج عنه . ولكن القصيدة كما ترى ، وهو لم ينظم الشعر قبلها ولا بعدها ، الا تلك الايات التي قلها في مرض موته وقد سارت بها الركبان ، وحفظها الالوف من الناس . وقد قال لي إذ أنشدني إياها اتني قلت شعرا في هذه الايام كأتني لا أقول الشعر الا في المرض أو السجن (يشير الى هذه القصيدة)

وقعت لنا نسخة من هذه القصيدة فيها غلط وتحريف وتصحيف ، فما عرفنا أصله باليقين صححناه ، وما لم نعرف أصله تركناه ، وهي :

دَهْرٌ يَبَالِغُ فِي عَجْبٍ وَفِي تَيْهِ	مَا لِي يَعْثُفُ قَلْبِي مِنْ تَفَاضِيهِ
زُرُقُ الْإِفَاعِي وَقَدْ شُدَّتْ أَيْدِيهِ ^(١)	أَيْتُ لَيْلِي كَمَلَسُوعِ نَسَاوَرِهِ
وَالْقَلْبُ فِي فِرْعَ مِنْ خَوْفِ آتِيهِ	الْجِسْمُ فِي أَلْمِ وَالرُّوحُ فِي قَلْقِ
يَأْتِي الدُّنْيَا وَأَفْكَارُ تَضَاهِيهِ	وَمَا ذُنُوبِي لَدَى دَهْرِي سِوَى شَمِ
عَلَى أَسَاسٍ مِنَ التَّقْوَى أَرَاعِيهِ	سَرِيَتٍ لِلْمَجْدِ هَوْنًا غَيْرَ ذِي عَجَلِ
وَشِيْمَةُ الْحُرِّ تَأْتِي خَفْضِ أَهْلِيهِ	مَجْدِي بِمَجْدِ بِلَادِي كُنْتُ أَطْلَبُهُ

(١) الايادي جمع الايدي وهي جمع يد ، وأكثر ما تستعمل الايادي في النعم وصنائع المعروف ولعله يشير الى عجزه عنها في تلك الحال

وإذ أحسن عداة الفضل مشيتنا
فأوقفوني شهورا في مقاومة
وازددت بسطة جاه لم يهن بها^(٢)
أزلت نفسي مقاما لا يحف به
وقت للحق أجلوم من مطالعه
وأبرز الفكر كمنزاه من جواهره
وصحت يا ظلم لا تطرق معناينا
نفر كل غشوم واجفأ صمعا
وكنت أسهر ليلى في مطالعة
أنعم به من سهاد كنت آله
وكان لي أمل في وضع قاعدة
ويؤخذ القوم طرا في مناهجهم
حتى يكون نظاما كل سيرهم
ويأخذ العلم والتهذيب مأخذه
ويصبح العدل طبعنا في جبلتنا
وتستقل بلادنا في حكومتها
ويشعل الخصب انحاما بجملتها

قاموا على قدم: هيا تناويه^(١)
نجوت منها بعزم هيب ماضيه
سوى مضيم ومظلوم أنجيه
الا الفضائل تعلمه وتغلبه
نورا وكان غمام الظلم يحقيه
وزين النطق باهيا بحاليه
[رياض] راع وعالي من حواريه^(٣)
وارتج كل ظلوم خيفة «الهيه»^(٤)
ونشر در لتبيان أوفيه
وأبفض الشمس تنثي عن وصاليه
لكل نوع من الاعمال تجويه
أن لايجوروا عن المشروع أوفيه^(٥)
بمقتضى الإيف مع فهم تركيه
من النفوس فترهو من دراربه
ويشهد الكون أنا من مواليه
ونمغ الترك مفروضا تؤديه^(٦)
ويثري القطر قاصيه ودانيه

(١) أصله تناوته بالهمز أي تقاديه (٢) أصل هيا (٣) حواريه بتشديد الياء أنصاره وخفف لضرورة الشعر (٤) هيه اسم صوت كان يردده رياض باشا دائما بغير قصد، وأدخل عليه حرف التعريف لفصده لفظه، والمعنى خروفا من ذلك الوزير (٥) جار عنه عدل وانحرف وجر في الحكم وفي الامر ظلم أي بأن لا ينحرفوا عنه ولا يظلموا فيه (٦) قد كان موافقا لرجال الثورة في هذه المسألة

نقضي ديوننا وننشئ من ينازعنا
 هذا سبيلي خبيت السير فيه على
 ما كنت أسعى لنفسي في مصالحها
 وكنت أنجح قومي في مكالمته
 وتنهض العزم أقوالي ولا عجب
 أقوم الصعب في سيرتي فأخضعه
 وإنما الفكر يفتني نفس صاحبه

*

وبينا أنا لاه في محادثتي
 قامت عصابات جند في مدينتنا
 ذلك الذي أنمّس الآمال غيرته
 قاموا عليه لأمر كان سيدهم
 كان الرئيس حليف العدل منقبة^(٤)
 جرّوا مدافعهم صفوا عساكرهم
 فنال ما نال وانقضت جموعهم^(٥)
 ثمالبُ الشرهت من مراقدها
 تفلّت الحكم من أيدي مدبرة

(١) لعل البيت محرف (٢) الضمير راجع إلى السبيل وهو يذكرو ويؤنث (٣) هذه جملة محكمة تستعمل في مصر عند إنعام الكلام وإرادة الشروع في غيره (٤) الرئيس رياض باشا أي كان العدل منقبة راسخة فيه لا متكلفا (٥) أي نال سيد الجند عرابي ما نال من عزل رئيس الحكومة رياض باشا

ماؤا أماني تبكييني وتضحكني
 حديثهم صخب أسرارهم لجب
 أما سبيلي فقد سدت منازعه
 رجعت أجري على خوف لمبدئه
 فغنفتوني وراموا خفض منزلي
 وعجت أسأل ماذا في حقائبكم؟
 هزوا الرءوس جوابا أي نم معنا
 فولوات مهجتي حزنا على وطني
 وصفت من كلمي شمسا تكاشفهم
 فأنكر الجهل ضوء الشمس ضاحية
 لووا رءوسهم عجبيا بقوتهم
 مزجت بالهزل جدي عل يعجبهم
 وأعجم القول طورا في مناصحتي
 وعند ما حقت البلوى أشرت لهم
 فلم يصيخوا وصبوا في محاضرم
 ولم يزالوا حيارى في ترددم
 وشب حربا صلاها من بني وطني
 وسح كل غني ماء ثروته

(١) ماؤوا كذبوا والاماني جمع أمنية وهي ما يبتناه الانسان ويطلق على الكذب
 أي اختلفوا لانفسهم أماني زعموا انها مطالبهم وهي الحرية ونظام الشوري المالي في
 الاحكام. ولفظ الشوري يخلص فلا يمد لمرعاة الوزن (٢) أي لا يلاقيه ويحتمل أن يكون
 لا يواتيه (٣) كان موضع كلمة خطب يا ضائم كتب فيه بقلم الرصاص كلمة (سال)

حرية ونظام الشوري عاليه (١)
 لا عقل لانهم أين النجح نبغيه؟
 طبعا وعز صعودي في مراقبه
 أناد قومي تماؤوا لا نماديه
 فقات لانعجلوا هذا مرأيه (٢)
 هل ثم فكر وفكري لا يوافيه؟ (٢)
 سياسة السيف فيها الفصل نقضيه
 وقلت (خطب) لعلني أن أجليه (٣)
 هذا المصاب الذي حطت مرأيه
 وظلته التي وارت ماتواره
 واستكبروا النصيح أن يصفو الصافيه
 كوالد الطفل يليه بمرضيه
 كساحر أم مصروعا ليرقيه
 : هذا الخراب فقدوا قد باغيه
 قولاً هراء بلا فقل بماليه
 حتى دهام أبو الهيجا بداهيه
 من لا يهاب المنايا أن نقشيه
 كما همى دمع عيني من أمأيه

ووعج كل فقيه في تضرعه
 والمسلمون وكل القبط في نهج
 نادوا بأجمعهم هذى مواطننا
 وبدينا الظفر معقود بوحدتهم
 واستدبر الجيش واستدعى لحضرته
 وقال أقدم فلا حرب ولا حرب
 فرا به الريب وانهارت عزائم
 وخالف الأمر واستعصى بقوة
 وصار جيش المداء جيشا لحاكمنا
 فاحل عهد نظام كان ملثما
 هذا وهذا الى ما كان من دخلي
 وزاد في الضعف ضعفا أن قرتنا
 وقائد الجند شهم في مكالمه
 يستطاع الرأي والتدبير في حُلم
 ما كان أحسنه شيئا بزاوية
 أما البلاد فوانمي لحالتها
 واستنزفت طلبات الجند تروتها
 كما تقطر قلبي من عواديه
 مع اليهود كان لا دين بأوبه
 وطارق السوء فيها لا نخليه
 مال الأمير لأمر كان ينويه
 زعيم عسكريه يلبو مغازيه
 فليصرف الجيش فوراً لاتبعيه
 إذ كان جيش المداء بالثغر ماله
 وناصب الثمر مولى القطر واليه
 وقرة الملك تحمي وجه عاديه
 وبدد الرأي وهم كان يوهيه
 في أنفس من كبار الجند تطويه
 ناس يرى ضبطهم صعبا تلافيه
 أشل قلبا إذ الهيجا تناديه (١)
 من المنامات جل الله هاديه
 ينشى النساء بوعظ كان يلميه
 لم يبق فيها سوى أمر وتنيه (٢)
 واستأسد الذئب واشتدت عواديه

(١) يعني ان عرابي باشا كان شهماً أي ذكي الفؤاد عند الحديث ومكلمة الناس
 ولكنه جبان اذا نادته الهيجا أي الحرب لى القتال يصاب قلبه بالشلل ، وفيها
 كتبه الناظم في أسباب الثورة ومذكراتها بيان لذلك مؤيد بالحوادث (٢) أي لم
 يبق فيها سوى أوامر الجند تنفذ بالقوة ونذرهم التي بسمونها تنبيهات

حكام أريافها هاضوا بأجمعها
 مهاجرو الشعر زادوا في مصائبها
 ماذا أحمل نفسي في مداركتي
 أظلُّ يومي وأمسي في مناظلة
 وسقت من منطقي جيشاً أروع به
 حوائج الناس هالات على قري
 ونجح الجدمني في وقايتهم
 ولا جزاء أرجيه سوى ألم
 والناس قسمان قسم همه نسب
 وبينما الناس أحزاب وأغلبهم
 ساق النظام على الأشتات عسكره
 منا قتيل ومنا هائم جزعا
 في موقع الشرق كانت شر هزمتهم

(١) هاض العظم كسره بعد الجبر والظاهر ان المراد هاضوها أى الارياف
 بمعنى أهلها. وكان يمكن أن يقال * حكام أريافها هاضوا العظام بها *
 ومعنى البيت انهم كسروا عظام الاهالي وانتقوها أى أكلوا ما فيها من النخاع
 حتى النخاع الشوكي الذى لا حياة بدونه— أى لم يبقوا للفلاح شيئاً يسد به الرمق .
 وله شوكة مخفف شوكة أى نخاعه الشوكي (٢) مهاجرو الشعر هم الذين هاجروا
 من الاسكندرية الى الارياف (٣) جواب الاستفهام معروف من السياق: أى أهلها
 حملاً ثقيلاً (٤) أذهبه أنسبه الى الدهاء أو أرميه بداهية . يقال دهاه يدهاه بهذا
 المعنى (٥) هيه كلمة تقال للاستزادة (٦) أى ساق الانكبار أولو النظام عسكرهم على
 الغرابيين الاشتات المتفرقين فصبح المكان المعروف بالثل الكبير جبل من سواريه
 أى جيش كبير من فرسانه كالجيل في عظمته

وقائد الجند وافانا بلحيته
وسلم السيف واستجدي بعقلته
تخوف الذل فاستدعى مطيته
يسبل رعبا وثوب المار كاسيه
عفوا من الحنق المنزو خديويه
ركضا اليه فوافاه موافيه
..... (*)

تذكرتني وجوه كنت أعرفها
تيقن العزم اني لو برزت له
فهاص في قرم من ضل سحنته
حجبت عنهم وعصبي غير محتجب
بنى الزمان لهم بيتا وشيده
نعم له معنا فيهم مداركة
هذا الزمان زحمتاه فذل لنا
وأحفظ الدهر أني لا أشاكاله
أحارب الدهر وحدي ليس ينهني
تعلم الدهر مني كيف يطمني
وليس يعجزني عن كسر فياقمه
ان المنايا سهام الله سددها
تعد لثم نعمالي غاية التيه (١)
أخرجت من ضغنه أخرى مخازيه
يبغي مغالبي كلا سأقويه (٢)
صل يصلصل والاقدار تمليه
وليس يُبقي على مالست أبقيه
فيهم أجرهم من صنع أيديه
لكن به صرف عيب كنت أدريه
فما تبطن من خش وتمويه
إلا الثبات وحسي من أضافيه
نخاب ظنا وخاتمه زاكيه
إلا المنايا تفاجيني فتحميمه
وليس يخطيء سهم الله مرميه

(* حذف من هذا الموضع بضعة أبيات محرقة الاصل معظمها في طعن ساطان باشا
(١) رويت هذا البيت بهذا اللفظ عن محمود افندي الكحيل أحد تلاميذ الاستاذ
الامام في المدرسة السلطانية ببيروت وقد رواه كما سمعه منه أو من أخيه حموده بك
الذي كان تلميذاً معه في المدرسة. وتمت لو قال بناني بدل نعمالي وقد يكون تقبيل
النعال حقيقة لا مجازاً (٢) هاص الطائر ساج وهاص بالثي عفف به واقعى الفارس
فرسه — رده القهقري . ولعل المصراع الاول محرف

كتاب الثورة العراقية

إذا كانت قصيدة السجن ناطقة برأي صاحب الترجمة وشعوره في الثورة العراقية وهو في شرح الشباب ، وأوان التأثر والانفعال ، ذي السلطان الأعلى على الخيال . وكان خيال الشعر في مثل هذه الحال والسن يصور الأشياء أحيانا بغير صورتها . وكثيرا ما يسمها بغير ميسمها . فاعلم أيها القارئ لسيرته أنه قد كان شرع في أواخر سني حياته ، أو قبل بضع سنين من سنة وفاته ، بكتابة تاريخ للثورة العراقية يبين فيه أسباب الحوادث ومسبباتها ، وعمل الوقائع ومعلولتها ، ويستنبط النتائج من مقدماتها . توجه الى كتابة هذا الكتاب بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبلغ من كمال الحكمة الفرزية والكسبية المنتهى . بطالب من أمير البلاد . خلف العامل الاكبر في تلك الأحداث . وانك لتجد ما كتبه في هذه الحل . القاضية بأتم الروية والاعتدال . مما يعد في معنى الشرح . لما جاء في قصيدة السجن ، الا ما فيها من الفخر . الذي لا يحسن الا في الشعر

ومن سوء حظ مصر والمصريين ، بل الشرق الادنى والشرقيين ، ومحبي حقائق التاريخ أجمعين ، أن الاستاذ الامام . لم يتم تأليف هذا الكتاب ، وسبب ذلك أنه كان يكتبه لأمر الامير البلاد عباس حلمي باشا بأمره . وكان اذ رغبت اليه بكتابته — وذلك في السنين الاولى من امارته — موادا للاستاذ شديد الرغبة في استفادة الامة من معارفه ، ولكن لم يكتمل تقسيم الاول من الكتاب ، وهو ما تقدم الثورة من المقدمات والاسباب . ففتح لها الطاق والباب . حتى نجمت نواجم التناكر بين الامير والاستاذ . وانتهت الى المفاضلة الشديدة المعروفة . وكان مفسدو ذات البين قد ألقوا الى الامير أن الاستاذ عدوله وابتيت محمد علي ، ولا يزال يسعى الى سلب الامارة منهم . وبهذا صار تأليف الكتاب للأمر مشكلا ، لانه قديما مؤيدا لتهمة المفسدين بما فيه من إلقاء تبعه الثورة على الخديو توفيق باشا مباشرة . وجعل ما كان من اسراف الخديو سماعيل باشا وسوء ادارته للبلاد أسبابا مهيمة لها — ثم ان أعمال الاستاذ الامام تضاعفت بعد جعله مفتيا للديار المصرية وعضوا في مجلس

الاقواق الاعلى ومجلس شورى القوانين على كونه رئيسا للجمعية الخيرية وعضوا
في مجلس ادارة الازهر . بل كاد يكون هو المجلس وحده — وسيأتي بيان كل ذلك
في موضعه — فلا جل هذا كله ترك إمام كتاب الثورة ، منتظرا به سنوح الفرصة
قد اطلمت على مسودة ما كتبه بعد أن كنت كتبت كل ما تقدم القصيدة
من هذا المقصد في ترجمته التي نشرتها في المنار فنقلت جلامنه في ترجمة السيد
جمال الدين . ثم رأيت من تمام الفائدة تلخيصه أو الاتيان بمخلاصة وجيزة منه
هنا يعرف بها قراء تاريخه مالا سبيل لهم الى معرفته من غيره . اذ كل ما كتب
غيره في هذه المسألة لا يتجاوز بيان الظواهر الخادعة والابخار الرسمية . وأبدأ
بنشر خطاب المؤلف للامير في ذلك وهذا نصه :

خطاب الاستاذ الامام لسمو الخديو في أول الكتاب

الى مليك مصر المعظم عباس حلمي باشا الانغم

مولاي

هذا مقام اذا كر لنعمتك . العارف بقدر منتك . العاجز عن الايفاء بحق
شكرك . التالي في سره وجهه لآيات حمدك . طوقتني احسانا لم أكن أتأمله . اذ
أمرتني أمرا ما كنت أتخيله . أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت . وما علمت
وما . اعتقدت في الحوادث العرابية من عهد نشأتها الى نهايتها . مع بيان أسبابها .
وإسناد الاعمال إلى أربابها . سمحت بأن تكون الحقيقة بادية الرواء . حاسرة نقاب
الرياء . أي مئة أعظم من الاذن للحقيقة أن تتجلى بعد أن نسجت عليها العناكب .
وتدافعت عنها المناكب . وسترها عن الابصار عثير الالهواء . وحجبها عن البصائر
ضلة الاعالياء . وذلة الضمفاء . حتى أنكراها من شهدها . وخبط فيها من سمع خبرها .
ممن تولى كبرها . أو ممن لم يقف على سرها . ولم يميز خلتها من خمرها . أي إحسان
أجل وأواني من رغبة مليك في كشف الغطاء عن حادثة المت بعرض الدولة .

واضطربت لها أركان الحكومة وتفسير لها وجه السلطان وظهرت بعدها البلاد في شأن جديد؟

علم «بموامل هذه الفتنة يقرر تبعه الخطيئة على من أقرها، ويبرئ منها من ربحي بها، وقد كان الساعي في تسكينها وحاثي الأرباب في وجهها، وقوف على دخائل هذه النازلة يبعد بالعقل الرشيد في مثلها عن الاغترار بظواهرها، ليست لها سراير، وصور انما تنكشف عن غير، وعبر ويجنب الفكر السليم في ما يشبهها عن الزلل، في مزلق الخطل، ويضيء لأهل العزم مسالك الحزم، فلمولاي المنة على الحقيقة ومظهرها، حتى قدرها حق قدرها، واستضاء بسناها واهتدى بنورها

مولاي: أرفع إلى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسي غير ناظر في كتاب ولا راجع إلى مقال سبقني به غيري. اللهم إلا إلى بعض الاوامر الرسمية أو شيء من المحابر السياسية التي يضطر في بيان الوقائع إلى الإشارة إليها إذ لا غنى للقارىء عن الاطلاع عليها

أرفع إلى كرم مولاي المعظم ما استطعت أن أعرض على مقامه الفخيم، امثالاً لامره الكريم، معترفاً بقصوري عن ابلاغه منزلة كتاب يستحق النظر، أو عمل من الاعمال يليق به أن يذكر، إلا إذا شملته عناية الجناب العالي بحسن القبول، فعند ذلك تملو قيمته، وتستكمل له زينته، ويرتد عنه كيد الكائد، وتقطع دونه نفايات الحاسد، أيد الله بالحق ملكنا ومولانا، وأبلغه من العزة والمجد متمنانياً، آمين

﴿ خلاصة ما كتبه في أسباب الثورة العراقية ﴾

بدأ الاستاذ كتابه هذا بوصف حالة البلاد المصرية وحكومتها السوءى عند حاتنازل اسماعيل باشا عن إمارة مصر ووليها توفيق باشا، فبين أولاً بالاجاز ما كان من تدخل دولتي فرنسة وانكثرة في شؤون البلاد المالية وغيرها ومن تأثير المحاكم المختلطة في إضفاف سلطة الحكومة والتصرف في ثروتها وروء الامة - ومن سوء لاحوال رجال الحكومة واحوال الجند - ومن تصرف الربوين في استنزاف ثروة

الامة بالربا الفاحش ومساعدة الحكومة لهم — ومن الاضطراب العام في البلاد وإشرافها على المجاعة — وبين أيضاً ما كان عليه أهل مصر إلى ما قبل سنة ١٢٩٣ من توكلهم على حكومتهم في كل شيء وتسليمها إليهم أمر شؤونهم العامة وكذا الخاصة أيضاً، إذ كانوا يرون كل شيء ملكاً لها، وبين ان أكثر من تعلم في اورية من المصريين من عهد محمد علي الكبير الى ذلك التاريخ لم يغير شيئاً من هذه الحالة ولا أثر فيها مجلس الشورى الذي ابدعه اسماعيل باشا سنة ١٢٨٣ لانه قيده في النظام والعمل فكان يقرر ما يوعز إليه بتقريره، فظل الناس معه على اعتقادهم أنهم عبيد للحاكم لا رأياً لهم معه ولا أمر

ثم انتقل من هذا إلى بيان مبدأ النهضة المعنوية في مصر بإرشاد السيد جمال الدين الافغاني وسعيه فينب بالايجاز ما تقدم شرحه في ترجمة السيد من تربية نابتة جديدة وترقية أفكارها وأقلامها، وما كان من تأثير ذلك في ارتقاء الجرائد العربية وما أشرق عليها من نور الحرية. ومزج هذا بذكر بعض الحوادث الكبرى وتأثيرها في قلوب الناس وأفهامهم كالارتباك الشديد في المالية المصرية الذي أفضى إلى تأليف اللجنة المالية المختلطة وتعيين ناظر انكليزي للمالية وناظر فرنسي للاشغال العمومية وكأحكام المحكمة المختلطة على الخديو وحكومته — وما تلا ذلك من انطلاق الألسنة والاقلام بالأفكار الجديدة (الجمالية) كيان أنواع الحكومات الاستبدادية والدستورية وتأثير ذلك في طبقات الامة. ولكن الشعور بمحقوق الامة في أمر حكم نفسها ومراقبة أعمال حكامها لم يسر في هذه النابتة من المصريين إلا وقد صحبه رؤية التصرف الاجنبي في حكومتهم. فتعلقت آمال البصراء من الناس باصلاح عظيم ولكن لم يهتدوا سبيلاً يسلكونه إليه لسوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها وسوء الظن بالسلطة الاجنبية والخوف من مآلها

ثم بين أن الخديو اسماعيل ضاق ذرعاً بالوزيرين الاوريين وأخذ يسعى إلى الخلاص منها، فكشرت الاشاعات عن سوء مقاصدهما بإعاز منه كما كان يقال. وفي اثناء ذلك دعي مجلس شورى النواب إلى الاجتماع فوفد أعضاؤه إلى القاهرة وفي أنفسهم ذلك الشعور الشديد بشرا الاحوال وبلوح في أفكارهم الميل إلى الخلاص

منه « فالنأم المجلس في أوائل سنة ١٢٩٦ في موج من التشويش شديد الاضطراب واتفق ان الحكومة لم تقدم اليه من المسائل التي تطاب نظره فيها الا ما لا قيمة له » فكثرت الانتقاد على الحكومة ، ولما أمرت باقفال أبواب المجلس سلك بعض النواب مسلك الشدة في الجواب عن ذلك الامر وحاولوا التوقف عن الانصراف حتى يعلموا من أحوال الحكومة ما ينبئون به منتخبهم ، وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأي يخالف رأي الحكومة، ولكن الخديو كان يشد عضد أعضاء المجلس في المعارضة هذه المرة

ثم ذكر قلق ضباط العسكرية من تأخير رواتبهم واحساسهم بانحراف الخديو عن نظار حكومته ومهاجمتهم لنظارة المالية وضررهم لناظرها الانكليزي واهانتهم لرئيس النظار نوبار باشا وقبض أحدم عليه من شاريه وتصديهم لاهانة سائر النظار لولا أن جاء الخديو بنفسه وصر فهم ، وانما كانت حركتهم بتحريك منه توسل به الى إسقاط وزارة نوبار باشا قم له ذلك ، ولكن لم يمكن إسقاط الناظرين الاوريين فأدخلا في الوزارة الجديدة التي تألفت برياسة توفيق باشا ولي العهد وزاد نضيقهما على الخديو في التصرف فتوسل الى عزلها بوسيلة أخرى وهي طلب تعيين البلاد لذلك اذ اجتمعوا في دار السيد البكري ووضعوا اللائحة الوطنية المشهور أمرها التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربة العظيمة وأنهم ضامنون لها

وقد بين الاستاذ ما في هذا العمل من الخطل وقصر النظر ، وأنه « أحدث في الناس شعورا بقوة لم يكونوا يعرفونها من قبل فقد أيقنوا أن الحاكم القوي السلطان قد صار في حاجة اليهم ، ولا قوام لامره الا بالاعتماد عليهم ، فزاد ذلك ولوعا بما كانوا يميلون اليه من وجوب اشتراكهم في أعمال الحكومة دفعا للمضار التي نشأت عن استقلال الحاكم بالرأي ، وانفراده بالسلطة »

ثم بين سيرة اسماعيل باشا بعد ذلك في العود الى التصرف بأموال الحكومة وتبذيره وسوء الحالة العامة وذهاب رياض باشا ونوبار باشا الى أوربة بقصد الإقامة فيها وسعي الثاني الى اقناع فرنسة وانكلترة بالسمي الى خلع الخديو اسماعيل. ثم ارسال فرنسة موسيو تريكو مندوبا خاصا (فوق العادة) ليتحدث مع وكيل انكلترة في مصر في (م ٢١ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

مطالبة الخديو بالتنازل عن الخديوية لولي عهده ، واستشارة الخديو لحاشيته في الامر
 واطارة أجهلهم بالسياسية عليه أن لا يتنازل والجيش حاضر بويده - واطارة من
 كان يقال انه أعلمهم بأن يتنازل ، وبين بعد هذا ان جمهور العقلاء يرون ان رأي
 ذلك الجاهل كان عين الصواب وان الخديو لو ظهر لهندوبي الدولتين بجلد الاسد
 الذي كان يلبسه للمصريين وعلما ان دون التنازل حمل السلاح لأمكنه ان
 يرضيهما بوسيلة أخرى مع بقائه على العرش

ثم بين ان السيد جمال الدين كان قد أسس حزبا في مصر باسم (الحزب
 الوطني الحر) وانه كان بينه وبين ولي العهد توفيق باشا مكالمات في هذا الامر ،
 وانه سعى مع الكثير من الاعيان الى شريف باشا الكبير بأن يقنع الخديو بالتنازل ،
 وان أحسن ما يجيب به مندوب الدولتين تفويض الامر الى السلطان - وان السيد
 جمال الدين ذهب بوفد من المصريين الى وكيل دولة فرنسا وكاشفوه بأمر الحزب
 الوطني الحر الذي يطلب الاصلاح ويرى انه لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق
 باشا ، وأن ذلك تأييدا لرأي شريف باشا في اقناع الخديو بما ذكر آنفا فأقنعه فحول
 الامر الى السلطان فقبل السلطان تنازله ونصب توفيق باشا خديويا بدله - وقد
 تقدم نقل كلامه في ذلك في ترجمة السيد - فهذه هي الاسباب التمهيدية الاولى
 للحوادث العراقية

الاسباب المباشرة للثورة من سيرة توفيق باشا

حالة البلاد وتظاهره بالاصلاح

بين رحمه الله تعالى أن البلاد دخلت في عهد توفيق باشا في طور جديد من
 الحياة فقد كان لها من ارشاد السيد جمال الدين وتعاليمه وسعي الحزب الوطني
 الذي أنه فيها ما فتح أفتال القلوب والعقول لتترك كنه أعمال حكومتها وما يجب
 أن تكون عليه ، وسيرة الاجانب فيها وما يخشى أن تنتهي اليه ، فقد تولى هذا
 الامير ولاية امة غير الامة التي كان يتصرف فيها والده تصرف الراعي المالك
 بالمواسي ، ولكن هذا الامير لم يكن شرها ولا مسرفا بل كان عفيفا رحيفا وكان

لطلاب الإصلاح فيه آمال كبيرة ، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه وسوء سيرة حاشيته

وقد كان أول عمله أن كتب الى شريف باشا في اليوم الثاني من ولايته أمرا بتشكيل الوزارة بعد قبول استعفائها صرح فيه برغبته في تحقيق آمال الامة فيه واخراجها من الخال السيئة التي هي فيه ، بالاقتصاد القانوني في نفقات الحكومة والاستقامة في الوظائف العامة واصلاح القضاء والادارة - ثم كتب في اليوم الخامس أمرا آخر الى مجلس النظار فصل فيه ما يحقق الآمال بجعل الحكومة شورى ونظارها مسوئين وتوسيع نظام شورى القوانين واصلاح المحاكم والمجالس والسعي لتعميم التربية والتعليم وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم ، وصدر ذلك الأمر في ١٤ رجب سنة ١٢٩٦

وبين الأستاذ أن كل ما ورد في هذا إنما انعكس على فكر توفيق باشا من الحال الجديدة التي كانت عليها خاصة رعيته

يلي ذلك بيان مشروع شريف باشا في وضع قانون أساسي لمجلس النواب يضمن لهم حرية القول والفكر وحق النظر فيما يحق لنواب الامة النظر والكلام فيه على حسب ما قرأه ورآه في بلاد أوربية ، فأعجب بذلك أرباب الأفكار المتطرفة وقالوا ان التصديق عليه بعد فائحة عصر جديد لمصر والمصريين

قال: وتظاهر الاجانب بالرضاء عن الاصلاح المشروع فيه، وأنشئت جمعية في الاسكندرية باسم [مصر الفتاة] لم يكن فيها مصري حقيقي بل كان أكبر أعضائها من شبان الاسرائيليين المنتمين الى الاجانب ، وقد رفعت هذه الجمعية لائحة الى الخديو فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار ، وأنشأت بعد ذلك جريدة [مصر الفتاة] فكانت تنشر فصولا حادة الانتقاد وشديدة الموعظة . على حين كان أولئك الاجانب في ظل الاستبداد يقرضون الفلاح المتهتمين في بضعة أشهر ، وكانوا يتصرفون في المصريون كمتصرف حكومتهم بهم

سواء صح ذلك التظاهر أم لم يصح ، وأما الذي لا شك في صحته فهو أن وكيل دولة فرنسا أخذ يسمي في إقامة الموانع دون إعطاء النواب حق النظر في تصحيح

الموازن وتقدير الامور المالية ودعا وكيل انكلترة الى مساعدته في إقناع الخديو بضرر هذه الاوضاع الجديدة في ذلك الوقت بحجة أنه مما يعوق حل المشاكل الموقوفة، وساعد على اقناع الخديو بعض الوطنيين من حاشيته، فآثر الخديو بذلك ومال الى غير ما أظهره للجمهور من قصد الاصلاح المطلوب، ثم رفض لأتحة شريف باشا عند عرضها عليه فاستقال شريف باشا لإصراره على هذا الاصلاح فشكل الخديو نظارة جديدة تحت رياسته

يتلو ذلك بيان أن وكلاء الدول أصحاب النفوذ في مصر كانوا يظنون أن محرك هذه الافكار الاصلاحية، وبعث الانفس على طلب الحرية، إنما هو السيد جمال الدين، فأقاموا الادلة للخديو على خطر الرجل وأخافوه منه كما أخافوه من النظام نفسه. فأما التخلص من النظام فكان باستعفاء الوزارة، وأما التخلص من السيد جمال الدين فكان بنفيه من مصر الى الهند

أقول وقد فصل هنا مسألة نفي السيد وسوء تأثيرها في مصر ونحول القلوب بسببها عن الخديو الذي تناقل الناس قوله له «أنت موضع أملي في مصر أيها السيد» وقد تقدم ما كتبه في ذلك بنصه في ترجمة السيد (ص ٧٤-٧٨)

مبدأ الفوضى في الجند المصري

ثم بين انه في حولي هذه المدة وقبل استعفاء وزارة شريف باشا صرف مبلغ عظيم من الجند الى بلادهم وتقرر جعل الجيش العامل اثني عشر ألفا فقط. وأن جماعة من الضباط قدموا بعد ذلك عريضة الى الجناب الخديو يلتمسون فيها عزل ناظر الجهادية وبنوا ذلك على أسباب منها رداة المآكل وضررها بصحة العساكر، ومنها سوء حال المستودعين وعدم النظر في اصلاح معاشهم. فوعدوا باصلاح الحالة، وبعد أيام استعفت الوزارة ولم ينظر في حال الضباط ولا العساكر بعد ذلك ولم يتوجه الفكر الى هذه الحركة الفوضوية بالبحث في أسبابها، واستئصال عواملها من الجيش قبل ان تأخذ قوتها ويظهر أثرها بمثل ما ظهر به من بعد. (قال) وإنما قلت انها فوضوية لأن للضباط حق الشكوى مما يصل اليهم من الاذى أو ما يجردونه من

الضرر ولكن لا حق لهم في طلب العزل والنصب فما فعلوا كان خارجا عن حد النظام لهذا كان جديرا بالانتفاذ .

نفوذ الاجانب واسبابه وغاياته

قضى باستعفاء الوزارة ونفى السيد جمال الدين غرض أرباب النفوذ من الاجانب وبعض الوطنيين في منع الاصلاح وأرهاب النفوس الطامحة اليه على ما ظنوا. وبعد ذلك أخذ القناصل في اقناع الخديو بأن هذه لوزارة الجديدة نحت رئاسته لاقدرة لها على تذليل المصاعب الحاضرة ومن الضروري ان يوجد مساعدون من الوطنيين والاجانب في الوزارة حتى تقوى بذلك على التخلص من الضيق الذي تعانيه الحكومة، وأشاروا الى عودة واسن ودبليوار، فأظهر لهم أن ذلك غير ملائم للصحة وأنه لا يرضى البتة بأن يكون في النظارة أعضاء أوروبيون لانه يشوش أفكار المصريين ويؤدي الى الخبط في الاعمال، قال ومع ذلك فلو صممت الدولتان على ارجاعهما وزيرين فأني مستعد للاشتراك معهما في العمل وقبول ما يشيران به واحسبهما صديقين ولكني أتبرأ من تبعه ذلك، وقال: انني لا أنكر حاجتنا الى معونة الاجانب ولكني أريد رجالا مثل بارنج^(١) يشتغلون باصلاح المالية ولا يخلطون الادارة بالسياسة ويكونون في وظائف سامية غير انهم لا يكونون وزراء، فأشاروا الى نوبار باشا فأظهر غاية التمتع من قبوله بل أبى ان يسمح بعودته من أوربة إبعادا لدسائسه كما عرف ذلك كله وشاع بين العامة وتناقلته الجرائد في حينه، فأشير الى رياض باشا فأبان شدة ميله اليه وقال انه الصديق الحميم والصادق الامين، وانتهى الامر باستدعائه فحضر في النصف الاخير من رمضان ثم عهد اليه برئاسة النظار في ٥ شوال سنة ١٢٩٦

« كان الخطاب الصادر من الجناح الخديوي الى رياض باشا المؤذن بتعيينه رئيسا للنظار يشف عن كمال المودة وتأكيد الثقة وخصوص السريرة في الاعتماد على امانته، وفيه التصريح بأنه لم يقصد بترأسه على مجالس النظار مدة الشهر الذي مضى ان يبيد السلطة الشخصية بل كان ذلك لمقتضى الاحوال (رفض لألحة النواب) ونفى الشيخ جمال الدين اذ لم يظهر حال يقتضي التفرد بالسلطة سوى هذين الامرين)

(١) هو الذي صار لقبه بعد ذلك لورد كرومر

« ومن المعلوم أن أهم المسائل لدى الحاكم والحكومة في ذلك الوقت هي المسألة التي لاجلها اجبر خديو واسع السلطة مدرب على الملك المطلق سبع عشرة سنة أن يتنازل عن مقامه ويهبط من عرشه ويترك ملكه ويعد عن بلاده مشيعاً بالعويل والنحيب، وللاجلها ولي خديو جديد ناشئ في العمل لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان، وله الحق الكامل في المحافظة على ما وصل اليه بأي الوسائل الممكنة، وآماله في المستقبل تستدعيه في كل آن لحل ما وجدته من العقيد ووضع حد للملك المضاعف التي جرت الى مثل تلك الحادثة العظيمة والانتقال الذي لم يكن في حساب، وتلك هي لمسألة المالية التي كان يريد الجناب الخديو أن يأتي على حلها قبل كل المسائل، وبفضـ مشكلها قبل جميع المشاكل، على انه لم يكن مشكل سواها لولا ما أعقبها مما تولد منها

« لم تكن عقدة الاشكال فيما يمس حالة المصريين وعلاقتهم مع الحكومة في الامور المالية، اذ لم تكن لهم حاجة الى أمور جسام وأعمال عظام فيما يتعلق بشأنهم مع الحكومة من هذه الوجهة، فقد كان يكفي ان تنظم أوقات التحصيل على وجه ما نظمت عليه أخيراً وبزاح عنهم من الضرائب ما يثقل عليهم ولا يفيد الحكومة كبير فائدة كما حصل فيما بعد، وما كان أسهل هذا الامر في ذاته، على انه لو بلغ من الصعوبة أقصاها وكان فيه من المشاكل ما يصل بين الارض والسماء، لما أخذ من اهتمام الحكومة جزءاً من المئة بل من الالف مما أخذت المسألة المالية في ذلك الوقت. واما كان خوف العاقبة يتعهد قلوب أولي الامر من وقت الى آخر ويحملهم على أعمال ربما لم يكونوا يقصدونها، على علم منهم بأنها تبعث قلوب الرعية وتصرف عنهم ميلها

« كان معظم الاهتمام منصرفاً الى ارضاء الاجانب ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا يتالون من فوائد الدين الباهظ. ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها في أوقاتها المحددة في سنة ١٨٧٦ ولكون الخديو الاسبق كان يريد أن يكون ذلك المعجز معروفاً عند الدول ذات النفوذ ويجب أن يتداخلن أيضاً في تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد ظناً منه بأنه متى ثبت عجز المالية

المصرية عن اداء الدين ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفي له أعلنت الدول قطع مرتب الاستانة ونادت به ملكا مستقلا على مصر لايودي خراجا الى سلطان آخر وكان يسره ان يكون ملكا ولو على الادخربة ورعية ضئيلة وبين خليط من الاجانب بصرفونه في داخلية بلاده حسب ما يريدون . ثم لم يكف الخديو الاسبق عن تصرفه الخفي في المااية المصرية بما يزيد ارتباكها وكما تقدم الزمن ظهر الاختلال فيها فیدعو وكلاء الدول السياسيين للتداخل في اصلاحها ثم هم يجيبونه الى ما يدعوم اليه تمكياً لحق التداخل في الشؤون المصرية الى أن جر الامر الى تعيين لجنة التفتيش العليا ولم يكن فيها الامصري واحد وسائر أعضائها من الاجانب، وأخذت تتناول البحث في الشؤون المالية وتصل بها ماشاءت من الامور الادارية، وكانت أحكام المحاكم المختلطة لارباب الديون السائرة على الحكومة من أشد الضربات عليها، ووقع الحجز على كثير من أملاك الخديو، وطلبت الحكومة سبيلا للتخلص من بعض ورطاتها فعقدت سلفة ورشيلد تحت شروط شديدة ورهنت بعض أملاكها وضمنت ما تعجز الاملاك المرهونة عن وفائه، فكانت هذه السلفة ضعفا على إيالة ومشكلا فوق المشاكل، فقد أبى بيت ورشيلد أن يؤدي بقية السلفة بعد ما دفع شيئا منها وطلب شروطا أخرى وكفالة أشد ضررا بمن يقبلها من الاستغناء عن تلك السلفة، وبذلك وقع الخديوي الاسبق في شبك من حبال السياسة التي ألقى بنفسه فيها اختيارا لا يشوبه شيء من الاضطرار وصدق فيه قول القائل "انه صرف مائة مليون من الجنيهات أخذها بأفخس الفائدة وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا تناولها من الرعية بأشد أنواع العذاب وقضى مع ذلك مدة سبع عشر سنة في سلطة تامة وكلمة نافذة — كل ذلك لان يعد بلاده ويهيأها لنفوذ اجنبي يسوسها، ولان يسجل عليها استكانة وذلا يتعذر الخلاص منها، بل كان يهين نفسه بالمال والسلطان للسقوط تحت سيطرة مسيطر لاي رحم، ورقيب يعجز عقله الذكي عن اخفاء شيء دون علمه، بل قاهر شديد يضعف سلطانه القوي عن مناواته وهكذا كان يبذل جهد المستطيع في اضاعه نفسه وهو يظن انه ساع الى الاستبداد بالملك والوصول الى الاستقلال به، ولهذا سمح بأن يأتي وكلاء عن أرباب الديون ليعشوا في شؤون المالية وأظهر لهم

قبول ماطلبوه بعد بحثهم، وعين مراقبة من الاجانب على عموم حسابات المالية، ولم يكتف بأن يكون شأنه مع دائنيه كماهي القاعدة المعروفة في كل ممالك العالم، بل حول المسألة من مالية الى سياسية، وأدخل فيها القناصل والوكلاء السياسيين ليصل بهم الى ذلك الغرض السامي الذي كان يخيئه، وهي فرصة لا يضيعها أهل البصائر النافذة من وكلاء الدول ذات المصالح السياسية والتجارية في مصر

« ومن المقرر عند الاوربيين ان العادة قانون وأن العادة تتأصل بمرّة فبالك بالمرات الكثيرة، فلماذا انقلبت المسألة المالية آخر الامر الى سياسية محضه، وما أخذ الاوربيون من حق التداخل في شؤونها أصبح أمراً مقررًا وقانوناً واجب الرعاية ولم يد لاحد من حكامنا ان يفكر في إلغائه أو تعديله خصوصاً وقد وجد الاجانب من الادلة ما يمججون به المنازع اذ كانوا يقولون « لاثقة بوعده ولا اعتماد على عهد فقد وعد الحاكم السابق وأخلف وعقد وتقض ولم نره يوماً أني بعمل تكون النية فيه خالصة لنفع بلاده ولم نره آتراً في البلاد تساوي قيمته ما صرف فيه ، والحاكم الجديد حديث العهد لانعلم ما يكون منه ولا نريد ان تقع في التجربة مرة أخرى، فلا بد من أخذ الاحتياط الشديد من بداية الامر، ولما كان توفير المال الذي يتوم بوفاء الدين وضبط حسابه موقوفاً على ضبط جميع الادارات والمصالح فلا بد ان يكون لنا نوع من المراقبة عليها، حتى نكون على ثقة من ان حالتها لا تنقص الايراد ولا تزيد في النفقة، ولما كان الفلاح هو العامل الفرد في سوق الاموال الى الخزينه ومنها الى الدائنين فشأنه مرتبط بشؤون الدائنين ولا يشمر عمل الفلاح الا اذا كان آمناً على نفسه وماله فلناحق المراقبة على كل مايتعلق بالفلاح من هذه الجهة - والنتيجة التي لاشبهة فيها بعد تسليم هذه المقدمات ان لنا حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها لكن تحت اسم المراقبة المالية، وزاد نفوذهم شدة تدخلهم في خلع اسماعيل باشا فهنا كان موضع الاشكال ومن هذا كان ينبوع الخفة والاضطراب على المسند الجديد »

« قبلت الدولتان ماطلبه جناب الخديوي السابق في عدم تعيين وزيرين اوربيين واكنهما صممتا على تعيين مراقبين عموميين يقيمان في نظارة المالية ونفوذها يشمل جميع الادارات المصرية ، وراتبهما الذي ينالانه من الحكومة أوفر بكثير من راتب

وزبرين ، وصدر الامر بتعيينهما قبل توسيد رئاسة النظار الى رياض باشا بأيام . ولما تعين رياض باشا رئيسا للنظار وجد موسيو بارنج (اللورد كرومر) محاسبا عموميا لقم الايرادات ، وموسيو دوبلنيار محاسبا عموميا لقم المحاسبة وادارة الدين العمومي ، ولم يبق الكلام الا في تحديد وظائفهما ، كأن عنوان الوظيفة لم يكن كافيا في فهم معناه ، وبعد قليل قدم اتصالا دوائيا فرنسا وانكلترا لأئمة تحدد وظائف المراقبين وبعد مداولة طويلة في مجلس النظار ونزاع شديد بينهم قبلت اللائحة كما قدمت تقريرا ، وصدر الامر بتحديد وظائفهما على وجه ان لهما في الامور المالية حق المراقبة غير المحدودة على جميع المصالح العمومية ، وعلى الوزراء والمأمورين من أي رتبة كانوا أن يقدموا الى المراقبين كل ما يطلبانه من الافادات ، وعلى ناظر المالية ان يقدم اليهما كل أسبوع كشفا مفصلا عن دخل نظارته ونفقتها ، وعلى كل ادارة ان تقدم كشفا مفصلا كذلك في كل شهر ، ويتقاسم المراقبان النظر في المصالح العمومية التي يكون من شأنها مراقبتها والاشراف عليهما بمقتضى الحقوق المثبتة لهما في ذلك الامر الخديوي ، وتقرر لهما مقام في مجلس النظار برأي شورى ، وتقرر ان لا يعزلا إلا بموافقة حكومتيهما ، ولهما ان يعزلا وان ينصبا جميع الموظفين في ادارة التفتيش وان يعينا لهم الرواتب ، وهما اللذان يضعان برنامج (ميزانية) التفتيش على حسب ما يريدان ، وعلى الحكومة ان تصرف لهما ما يطلبان صرفه بلا معارضة . ومن هذا ترى ان تحديد الوظائف كان عبارة عن رفع كل حد يوهه عنوان وظيفتهما واطلاق حق المراقبة عن كل قيد » وقد ذكر في ذلك الامر ما نصه : « ان حكومتي فرنسا وانكلترا قد رضيتا بأن المراقبين العموميين لا يتدخلان في الوقت الحاضر في ادارة المصالح الادارية والمالية فالمرقبان يقتصران الآن ان يقدما الينا (الخديو) ولى وزرائنا ما تهديهما اليه مراقبتهما من الملاحظات » فهذا التقييد « بلوقت الحاضر » يدل على ما كان بين الدولتين والحكومة من المخبرات . واعتذار القنصلين باسم دولتيهما بعد صدور الامر الخديوي عن الفاظ « الوقت الحاضر » و« الآن » المسطورة في الامر الخديوي وتاويلهما على وجه لم يزد التصد الا ظهورا يشير الى ان الامر سطر برأي التنصين وان الحكومة تضجرت من هذا الوعيد بعد صدور الامر كما (م ٢٢ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

تضجرت منه قبله ، ولكن لم يتعطف القنصلان لارضائها الا بعد امضائه ، وكانت الترضية عبارة عن ابقاء الالفاظ وتأويلها بما لا يفهم منها ليجري حكمها كما وضعت « لم ير ذلك على الانفس والعقول بلا أثر خادش وهزة أسف عامة لكل من كان يلوح في قلبه شعاع الفكر ويدور في خلد خيال الميل الى استقلال البلاد ووضع الاصلاح فيها على قواعد سليمة واحاطته بما يتقي أعمال السلطة العليا من كل قصد الى غير مصلحة الرعية ، ويصونها عن كل غرض يسوق الى تأييد السلطة الاجنبية ، بعد ما عرفت آثارها ، وتمكنت من النفوس النفرة منها . وقد تحدث الناس بذلك بمجرد تعيين المراقبين ، واكثروا الانتقاد عليه قبل مجيئ رياض باشا وقبل ان تبين حدود المراقبة على هذا الوجه ، وبعد ان نشر هذا الامر وعرفه العام والخاص لم يدع انساناً حتى أنطقه ، ولا قلماً حتى أطلقه ، وجرائد ذلك التاريخ شاهدة به

«وهنا اترك تسلسل الحوادث وتوارد الاسباب التي جرّت الى الثورة حتى افرغ من ذكر ماتم من الاصلاح مدة وزارة رياض باشا وما تحولت اليه أحوال المصريين ، وما عرض على أفكارهم مما يحسب تقدماً وتأخراً . آي على ذلك باجمال يعني عن تفصيل ان شاء الله . ثم ترى بعد ذلك سلسلة الحوادث قد انصلت حلقاتها بما ذكرناه سابقاً بدون حاجة للتنبه الى العود اليه »

وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة

بين الاستاذ ان رياض باشا حفظ لنفسه وزارة الداخلية اصالة لاصلاح الحال العامة ، ونظارة المالية نيابة موقته لحل مشاكلها مع الاجانب ، وانه سار في الاصلاح سيرة حميدة لا عيب فيها الا محاولة تعميم العدل و المساواة فيها بسرعة ، ونخلص ذلك بما يأتي :

إلغاء رياض باشا للسخرة

كان أول إصلاح قام به إلغاء (السخرة الشخصية) وكان التسخير في البلاد المصرية نوعين عاما وخاصا ، أما العام فهو إكراه الحكومة الاهالي على العمل بغير

أجر في المصالح العامة كإقامة الجسور (الحواجز) على الأنهار العظيمة وحفر الجداول الكبيرة وتشديد كل بناء يقام باسم الحكومة، وأما النخلص فهو إلزام الاعلياء من دونهم العمل في منافعهم الخاصة بنبرأجرة كالعمل في المباني والأراضي بجميع أنواعه - فكان جميع الوجهاء وجميع موظفي الحكومة يرهقون الأهالي بهذه السخرة، ويقرنونها بالضرب والاهانة، حتى ان بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة، (قال): كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به (أي هي منطقة نفوذه) يستخدم سكانها في أراضيهم بأشخاصهم وماشيتهم في جميع مواسم الزراعة على شرط ان يحمل العاملون أزوادهم وأقواتهم وأدوات العمل وغذاء ماشيتهم من ديارهم اذا كانت البلاد قريبة، فان كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الأدميين ولكنه لا يسمح لهم أماكن تقي من المطر والبرد في أيام الشتاء ولا بمستظل يقيهم الحر في أيام الصيف، فكان القر يقتلهم شتاء والحر يذيبهم صيفا - وبين الاستاذ ضرر ذلك في الانفس وقتله الشعور والاستقلال والارادة

شدد الوزير في إلغاء السخرة بنوعها وبالغ في ذلك « حتى إنه آخذ مدير القلوية مرة في ارسال بعض أشخاص من أهاليها لحفر التربة التوفيقية التي تصل الى أراضي القبة لانها خاصة بالخدديو، ووخ المدير توييخا شديدا وعرض الامر على الخدديو فاستحسنه، ولكن لم يذهب بلا أثر في نفسه، فان مبالفته في العدالة الى هذا الحد مما لا يلتئم مع السلطة العليا في مصر مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال - فانظر ماذا يكون في نفوس أكبر رجال الحكومة السابقين بل والحاليين من رياض بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بفتة بلا تدرج »

ثم ان رياض باشا شرع في وضع نظام لتوزيع الاعانة على الاعمال العمومية يكون بدلا من السخرة كما أتارت لجنة التفتيش العليا من الاجانب، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل البدني ودفع بدل تقدي، فخف الويل عن كثير من الفلاحين وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة. وكان من عدل رياض باشا في ذلك ان عنف فريد باشا مدير الشرقية لارساله مئتي رجل لاصلاح ماجرفه السبل من سكة حديد السويس اذ طلبت مصلحة سكة الحديد العمومية منه ذلك

حسب العادة ، هذا وان فريد باشا كان من رجال رياض الذين يحبهم ويحبونه وبينهما شبه قرابة . ولم يكثف بذلك حتى كتب منشورا عاما لجميع المديرين يحذرهم من مثل ذلك . وقد كتب صورة هذا المنشور كتاب الداخلية مرارا وكلما عرضوا عليه صورة مزقتها لانها لم تف بفرضه من التنويه بشأن الاهالي ، (قال الاستاذ) وآخر الامر دعائي لتحرير ذلك المنشور فكثبته وذكرت فيه الحادثة وأتذكر منه هذه الفقرة « وليعلم المديرين والاهالي (لعلمها والمأمورون) جميعا ان الاهالي ليسوا عبيدا لاحد ولا لأحد عليهم سلطان الا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة » وهذا تصریح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديوي باعتراف الاهالي من عبودية التسخير بل من العبودية للحاكم الأعلى على وجه الاطلاق ، وهذا مما لم يمهده له . نيل من قبل العدل في توزيع مياه النيل

واهتم رياض باشا بأن توزع مياه النيل بالقسط وقد كان الفقراء لا يتالون من النيل أيام هبوطه الا فضلات ما يزيد عن حاجة الاغنياء . وشدد رياض باشا على نظارة الاشغال العمومية في تنفيذ ذلك على الكبير والصغير ، وذكر الاستاذ من الشواهد على ذلك تنفيذ عمل يحول دون ما كان يستفيده بولينو باشا من آلة بخارية له يبيع الماء الذي ترفعه للفلاحين حتى في أيام الفيضان التي يجدون فيها الماء بغير ثمن ، وأن بولينو باشا جاء برجاله مسلحين ليمنعوا فتح التربة التي يسقي منها الاهالي فأمر رياض باشا بفتح التربة ولو بقوة السلاح ففتحت تحت حماية العساكر المصرية إلغاء الضرائب وترك بقاياها

لم تمض على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى ألغى ثلاثون ضريبة ونيف من الضرائب الصغيرة كانت أضرت بالمصنوعات والاعمال التجارية والصناعية الخاصة بالوطنيين وبحال المزارعين . وزيد مئة وخمسون الف جنيه على ضريبة الاطيان المشورية تعويضا لما فات بإلغاء تلك الضرائب ، تخف بذلك عن الفقراء ما ثقل على الاغنياء ، وهو مما لا يحصى أثره من أنفس الفريقتين . وذهب الافواج من التجار والصناع ليعانوا شكرهم للجناب الخديوي على إلغاء تلك الرسوم ، ولكن الكبراء لم يحمّلوا بذلك ولا شاركوا الشاكرين (طبعا) ثم عفت الحكومة عما عجزت عن

تحصيله من الرسوم والضرائب المتأخرة الى سنة ١٨٧٦

وضع ميزانية الحكومة والتحصيل

« تم نظم برنامج الايراد والمنصرف من مال الحكومة (ميزانية) وشكلت لجنة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وانصافهم ووضع نظام لتحصيل في الاوقات المعينة على حسب مواسم الزراعة وعرف الفلاح ماله وما عليه » وضع هذا ضيقا لما أشارت به لجنة التفتيش العليا

ثم ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الاغنياء والفقراء والوطنيين والاجانب في التحصيل ، وكان الاغنياء والاجانب يماطلون عدة سنين ، وكثيرا ما يعنى عنهم بعد ذلك . وظهر عند التنفيذ ان بعض اغنياء الاجانب كان في ذمته ضرائب سبع سنين فحصلت منه بقوة الحكومة . وهذا مما لم يكن يسمع به من قبل

ابطال الكرياج

صدر الامر بابطال الضرب بالكرياج في تحصيل الاموال الاميرية فمجب كثير من الناس لذلك وقالوا: كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاح بدون ضرب؟ وانكره كثير من المديرين وظنوا انه قد هدم ركن عظيم من سلطان الحكومة

ابطال الحبس في تحصيل الحقوق

صدرت الاوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء كانت اميرية أو شخصية. ولقي تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة لتمكن الميل الى الظلم من أنفس أكثر الحكام، ولكن لم تأت آخر مدة رياض باشا حتى كان قد محي الا ما ندر. قال : ومن غرائب آثار تعود الظلم ورؤيته ملازما للسلطة بمصر ان الذين حفظت ابدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس في سبيل اقتضاء الحقوق - سواء كانت للحكومة أو للأفراد - كانوا يعدون تلك الاوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به وأنه لا يفيد الا الكرياج ، كما لا يزال قوم منهم يقولون ذلك الى اليوم ، وكانوا يهزنون بتلك الرحمة ، اللهم الا الذين لمع في عقولهم روح الفهم ، ووصل الى ابصارهم شعاع الاحساس بما للانسان من حق التكرمة التي خصه الله بها

قانون التصفية

(قال) « بعد مخابرات طالت مدتها بين الحكومة المصرية والدول العادلة الفخيمة قبلت الدول تشكيل لجنة لتصفية الديون المصرية التي استدانها شخص اسماعيل باشا ولا يعرف في البلاد من آثارها في المنافع العامة الا القليل، قبلت الدول العادلة أن تؤلف لجنة من رجالها ليقضوا للدائنين من رعاياها على الحكومة المصرية ولم يكن في اللجنة من المصريين الاعضو واحد . قضت عدالة الدول المتقدمة أن تصادف المخابرات في ذلك صعوبات حتى يكون القبول مقرونا بالتفويض التام وخضوع الحكومة المصرية لكل ما يطلبه وكلاء الدائنين ، وصدر الامر بتشكيلها تحت رئاسة السر ريفرس ولسون في ٢١ مارث سنة ١٨٨٠ وبعد مدة أصدرت اللجنة قانون التصفية الذي اشتهر أمره ولا يزال من أصول الحكومة المصرية الى الآن »

ثم ذكر الاستاذ أهم مسائل هذا القانون ، وكيفية توزيع دخل الحكومة ودخل بعض الاملاك على الديون ، ومنها أنه قدر لنفقات الحكومة أربعة ملايين و٨٩٠ و٨٩٧ الف جنيه وفيها ويركو الاستانة وفوائد قتال السويس وتكميل النقص الذي يحصل في الإيرادات المخصصة وسنوية المقابلة ، وما بقي من مالبة القطر المصري فهو للدين وفوائده

وبعد أن أطال في مسائل هذا القانون ذكر أن تأثيره كان حسنا على ما فيه من غبن الدائنين الحكومة وجعلها تحت مراقبة الاجانب وتصرفهم فقال :

« كان يوم أمضي هذا القانون من الايام المعروفة في تاريخ مصر وقد احتفل له في الاسكندرية جماهير من أهالي القطر المصري ، وعد الناس ذلك اليوم من الاعياد الوطنية في ذلك الوقت ، وقالوا انه فاتحة الطمأنينة وضمان من الاضطراب الذي كان يخشى منه ، وفي الحقيقة كان هذا القانون فاصلا بين ماض القلق مشوش كان يتعسر السير فيه وبين مستقبل واضح معروف - كما تمنى الجنب الخديو وصرح مرارا من أنه يريد فصلا بين الماضي والمستقبل - وأهم ماغنمته الحكومة منه رضاء أوروبا عن الحالة التي قررها، واطمئنان الاهالي والجناب العالي على مسند الخديوية، واقطاع المخاوف التي كانت المشاكل المالبية تثيرها في الاوهام عند ما

يخطر بالبال حادثة فصل اسماعيل باشا وبتلك الطمانينة كان الفرح لما كالاتقال «

عمل المؤلف في المطبوعات (١)

قال « كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعمد البلاد توزيع الضرائب، ترسل الى من ترسل اليه بغير طلبه ويجبر على دفع قيمتها بالوسائل التي كان يجبر بها الممولون على الدفع، فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة في ذاتها تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ماتضمنته من الاوامر واللائح فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير اكراه من الحكومة لهم على ذلك، وكان قد أحسن بتوجه الافكار الى طلب شي من طلاوة العسارة ووفرة المعنى وحسن الانتقاد. أما أوامر الحكومة وحدها فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها في الجريدة الرسمية لان المأمورين يعرفونها من طريق أخرى، والاهالي لم يكونوا قد تعودوا معاملة الحكومة بما تنشره، ولا على أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب وينشر بوجه رسمي، ولا على الثقة بأن الحكومة تقف عند ماتمعه في أوامرها. لهذا لم يكن لهم اهتمام في الاغلب الا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه. ولم يكن في الجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة الامدائح للجناب الخديو وبعض كبار المأمورين على الطريقة القديمة وهذا ما كان يفتّر من رؤيتها، فطلب رياض باشا وسيلة لتغيير طريقة التحرير ونحريها على وجه يستميل الناس للاطلاع عليها، ورغب مع ذلك أن تكون يومية، فهداه بحمته الى تعيين [الكاتب] في تحرير تلك الجريدة، وكان الجناب الخديو في انحراف عنه لأسباب غير معروفة، وأما قيل عنه انه كان موضع ثقة الشيخ جمال الدين، فاجتهد رياض باشا في استرضائه فرضي بتعيينه فعين محررا ثانيا، وبعد أشهر ذاك في الطريقة التي يمكن بها اصلاح الجريدة

(١) كان ينبغي أن ينشر ما كتبه الاستاذ الامام عن نفسه في هذه المسألة في المقصد الثالث الذي قبل هذا ويشار اليه هنا باختصار مع الاحالة على ماسبق من التفصيل، ولكننا كتبنا ما تقدم قبل الاطلاع على ما هنا كما وعيناه مما سمعناه منه رحمه الله تعالى

فعرض له ما رآه في تقرير وافٍ فأمر بأن ينظر في التقرير لجنة تؤلف من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير، ثم توضع لأئحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية، فوضعت اللائحة في قليل من الزمن وأمضاه رياض باشا، وعين صاحب التقرير رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية فانتخب محررين مجيدين تستميل الناس أقلامهم، وتذبت الرغبات الى النظر فيما يقولون، فتحول حال الجريدة الرسمية الى ما حمده العامة والخاصة

« وقد يقول غير العارف بسير الحوادث » وما مكان الجريدة الرسمية من تاريخ مصر - سمادتها أو شقائقها طماً نيتها أو قلةها، تقدمها أو تأخرها، فنجيبه بأن تاريخ مصر ان كان مجموع حوادث شعب له حياة سياسية وأدبية وعقلية فلنغير سير الجريدة الرسمية وتحرير ادارتها مكان رفيع من تلك الحوادث، ومقام سام من ذلك التاريخ كما سنبينه، وان كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو وتعتدي وتموت، فالبحت فيه من خصائص علم التاريخ الطبيعي ولا علاقة لما به الآن وربه، تبسم استخفافاً بالامر بعض الغفل الذين لم يتعودوا النظر في طبيعة ترقى الامر، ولا يحرك احساسهم الا الصدمات الصادعة، والقواصف القارعة، وهم من موضوع التاريخ الطبيعي كما قلنا

« واضع لائحة ادارة الجريدة الرسمية لم يكن من ارباب المنازل السامية في مصر، ولكنه نبت في تربتها واتصلت حياته بحياتها، وأشربت مداركه الاحساس بحاجاتها، فكلمنا تناول عملاً مما له علاقة بشؤونها العامة فتح له هذا الاحساس ذياً من المعرفة بطريق اتصال منفعة من المنافع اليها، فلما دعى لوضع اللائحة أودعها في مكان غريبة في بابها يعجب لها الناظر فيها، خصوصاً اذا كان من أبناء الشعوب المتمدة أو من المقلدين للمتمدين، ولكن انكل بلاد طبيعة خاصة بها، وانكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والازمان

« تضمنت اللائحة ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمحاكم (المجالس الملغاة) ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات بجميع ما لديها من الاعمال المهمة التي تمت أو شرع فيها على أن تتم، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها، وان لادارة

الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أي عمل من الاعمال عند ما ترى له وجهاً حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التي كانت الادارة جزءاً منها، واذا رأت في الجرائد التي تنشر في مصر عربية أو أجنبية ذكراً لخلل في عمل أو سوء تصرف في أمر ما فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية الى النظارة أو الادارة التي يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة ، فان كان حقاً ما نشرته الجريدة أو خذ الخطيء بواسطة رؤسائه، وأشعرت ادارة المطبوعات بذلك ونشر في الجريدة الرسمية ، وإن كان باطلاً كلف صاحب الجريدة إثبات ما ذكره وإلا أنذر مرة بعد أخرى وبعد الثالثة يعطل لأجل أو دائماً على حسب الاحوال، وان من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان قسم غير رسمي ما يعن له أو ما يرد اليه من الفصول الادبية مما له مساس بالاحوال العامة ، وقد منح رياض باشا هذه السلطة لادارة الجريدة إما ثقة منه بالعامل فيها وهو واضع اللامحة ، وإما علماً منه بأن ذلك من مصلحة البلاد وحاجتها الحاضرة

« وأول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والادارات، فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعاني المطاوعة واقتضاها لطول المحابر في الاستفهامات التي لا طائل تحتها، ثم رسم الطريقة الفضلى التي يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوي الامام باللغة العربية من موظفي الحكومة، وخصهم رؤسائهم بمكاتبة الجريدة الرسمية سراً لعيوب الادارات واضطر الجاهلون باللغة والتحرير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديرين كما عم النظارات ، وذلك هو تاريخ اصلاح التحرير في مصالح الحكومة ولا زال يتقدم الى اليوم ، وهكذا كان شأن الجرائد ، كانت تتسابق الى اظهار مزايها في التحرير حتي تعجب ادارة المطبوعات أو العامل فيها، وصلاح بذلك كثير من أساليب الجرائد التي لم تكن لها عناية بتهديب العبارات، وتساقبت الافلام في تنقيح الالفاظ وضبط المطالب، فتمت بذلك نهضة التحرير التي كانت بدأت من سنين قبل هذا ، وكان الضعف يقعداها ، والخوف يرعداها، فقضي لها أن تظفر على يد من كان له دخل في نشأتها

(م ٢٣ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

« سهات بذلك المواصلات بين الانفس في الافكار، وخف عليها التعبير عما في الضائر، كثر الكاتبون، وغزرت مادة المتكلمين، وتيسر التعارف بين المتباعدين، ونشأ في الناس نوع من الالفة، أحدثته الشعور بجامعة اللغة، وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصه، أصبح وهو يشرف على فضاء يسع بني أمته، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة الى المقصد العام، كما ان له حركة خاصة الى الغرض الخاص، وفي هذا من تواصل اللذائد والآلام مالا يخفى على عاقل، وله من الاثر في إنهاض النفوس الى طلب ما يصلحها مالا يذهب إلا على غبي جاهل

« كانت تبحث ادارة المطبوعات، أو دائرة التحرير فيها في جميع منشورات الحكومة ولوائحها. وأعمال المديرات وأحكام المحاكم وتبدي رأيها في جميع ذلك وتنشره في الجريدة الرسمية، وكان ما ينشر من الآراء يأخذ مكانا من الاهتمام عند رجال الحكومة، ويوضع موضع البحث، ويبنى عليه التعديل أو التغيير، ويبادر الى نشر ما تم من ذلك في الجريدة الرسمية

« كانت دائرة التحرير تبحث في الجرائد عامة، وما كان فيها متعلقاً بانتقاد بعض عمال المصالح كتب عنه من إدارة المطبوعات الى المصلحة التي كانت موضوع القول، وسئل العامل عما نسب اليه، فما أؤخذ إن صحت النسبة أو أنذر صاحب الجريدة إن لم تصح. عملاً بنصوص لأئحة إدارة الجريدة الرسمية كما سبق، فارتفع شأن الجرائد في أعين المأمورين والناس عموماً من جهة، واشتد حرصها على تحري الصدق من جهة أخرى، أما القدح الشخصي فكان ممنوعاً على وجه الاطلاق سواء اشتمكى من ذلك المطعون فيه أو لم يشتمك، لاخلاله بالأداب العامة، فكان ذلك من أسباب تأديب المأمورين وحشهم على السير في طريق الكمال، والمنافسة في محاسن الاعمال، ومن وسائل تهذيب الجرائد وإزائها الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب، مع اطلاق الحرية لها في تبين الحقائق وكشف وجود الخطأ والصواب بدون خوف ولا اتمعة، لم يبق عامل ولا رئيس مصالحة، بل ولا ناظر إلا كان يجب أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية ويخشى أن تكون له سواة فتبدو بنهضة من نفثاتها

« ومن فيكاهات ذلك التاريخ ان مدير بني سويف (إ. بك) بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية ومؤاخذه نظارة الداخلية له على بعض خطئه أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية في مديريته ، وكتب بذلك محرراً غير رسمي الى صديقه مدير المطبوعات، فوقع المحرر في يد رئيس التحرير لانه كان العامل وحده في الادارة، فنشرت تلك الفعلة في منشور عام له ولجميع المديرين، وأدرج المنشور في الجريدة الرسمية. فانظر الى أثر ذلك في أنفس العامة والخاصة. وهذا مما علم الناس طرق الانتقاد على اعمال الحكومة، وأفهمهم انها قد اقامت من نفسها مراقباً عليها بين مواضع الضعف فيها ، وبرشد إلي طرق التدارك لما يقع من الخلل، وهو مما يرفع الهمم الى اعمال الفكر في معرفة الحق ويسوق العزائم الى طلبه

« لم يضع رئيس التحرير فرصة في انتقاد نظارة المعارف وسير التعليم وإظهار معائب التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الإصلاح، فغضب لذلك ناظرها (ع. إ. باشا) وكان بطيء الحركة خامد الفكر. بعيداً عن الاحساس بحاجة الوقت ، فاشتكى الى رياض باشا من اقتفاء الجريدة الرسمية له وتنقيبها على مواضع الخلل من اعمال نظارته ، فلم يسمع منه بل اجيب الى ان الحق أولى بالتأييد ، فان كان ما ذكرته الجريدة الرسمية غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك وهي مستعدة لنشره ، فسكت لان ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد في سبيل انتقاده وبعد ان تكرر التمدد ووجد رياض باشا ان السكرتير عن الخلل ضرب من الاهمال الذي لا يغفر ، ذا كر يوماً رئيس التحرير في ذلك، وفي الوسيلة الى اصلاح نظارة المعارف، وقال أمانتغير الناظر فقير ممكن^(١) لان له مكانة في نفس الجناب الخديوي من جهة، ومن جهة اخرى فنحن كحزمة ضُمت احوادها برباط واحد فلا يحسن البدء من لأن بلجل ما عقد بيننا، فلا بد من النظر في طريقة أخرى ، فعرض عليه أن يشكل مجلساً اعلى يكون هو القاضي في ادارة المعارف العمومية وما على الناظر

(١) انما قال هذا جواباً لا ابتداء فقد تقدم أن الاستاذ عرض عليه اولاً ان يستبدل بناظر المعارف غيره ، ويوشك أن يكون قد سقط من الاصل هنا ما هو بمعنى ما تقدم لاننا تلتئمنا عن الاستاذ نفسه

إلا التنفيذ، فلم يمض على إبداء هذا الرأي بضعة أيام حتى صدر الامر بثـشـكيل مجلس المعارف الأعلى، واعد في أعضائه كثير من اكابر الاجانب والوطنيين وكان رئيس تحرير الجريدة الرسمية عضواً فيه، ولم يخل تشكيل هذا المجلس من الانتقاد لكثرة عدد الاجانب من أعضائه، غير أن رياض باشا كان يريد بذلك ان تكون قراراته معروفة حتى عند رجال الدول الاجنبية ذات النفوذ في مصر فيسهل تنفيذها بدون معارضة من المراقبين ولا غيرهم فيها خصوصاً إذا قضت بصرف النقود وتوسيع النفقات. وقد كان لهذا المجلس أعمال مشكورة لا يذكر أثرها في حالة المعارف العمومية ولم تنصر به كثرة الاجانب فيه فان حمية بعض الوطنيين من أعضائه كانت تحبس بعض الاغراض السياسية في نفوس أربابها، فن بدت وجدت من المقاومة ما يبددها، وكانت اتقرارات تصدر جميعاً في مصلحة البلاد وما يجب ان يتبع في سير اتعليم فيها

« قلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية من فصل في انتقاد عمل من الاعمال العمومية، أو طاب إصلاح عادة من العادات الرديئة. أو الأخذ بفضيلة من الفضائل التي بني عليها العمران، وكانت مخاطب العامة بلسان الحكومة وتخطب الحكومة بلسان العامة، لهذا كان لكلامها من الاثر في الانفس ما لم يكن لكلام غيرها من الجرائد. ومن يطلع على أعداد تلك الجريدة يجد من نفسه هذا الاثر حتى اليوم، وما كان المقال لاظهار براعة أو الافتخار بمعرفة بل كان يكتب ما يكتب منتظراً لآثره في الانفس لا غير، وما كان الاثر يتخلف عنه

« بهذا وبماسبقه تنهت الافكار وبدأت الحياة الاجتماعية تدب في جسم أمة فرقها الظلم وأمامها الجور، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجاتها، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية إسلامية وقبطية لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالبرية، ولم يكن يسمع بمثل ذلك في مصر من قبل » اهـ ثم قال

دار الكتب العربية ودار العلوم

« اتجه عزم نظارة الاوقف إلى الاخذ بوسيلة من أجل وسائل الاصلاح وهي تقريب الكتبخانة العربية ومدرسة دار العلوم من الجامع الازهر وتوسيع نطاق المدرسة إلى أن يمكن احتواؤها على خمسمائة تلميذ، وأن يرتب التدريس فيها على طريقة

تؤدي الى تكثير الاساندة المهنيين لكل نوع من أنواع المعارف اللازم تعميمها في الامة، ولكل طبقة من طبقات المدارس، بل الى اعداد عدد كبير من أهل الذكاء لادارة كثير من الاعمال الادارية والقضائية في البلاد، وقد قدرت فوائدها لهذا المشروع في عشر سنين بما يعظم مقداره ويتجاوز حد ما يتصوره المهأرون في هذه الاوقات، وبهذا كان يتسنى لنظارة الاوقاف أن تقدم الامة المصرية خدمة لاحقة بدمتها بدلا من صرف نقودها بين الماء والطين، وبناء معابد قلما يوجد فيها أحد من المصلين، بل بهذا كانت تقيم الهياكل الالهية في قلوب المؤمنين، وتزيد في عدد المصلين الحقيقيين، فان ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفسهم الوسائل لتوسيعها. وإقامة ماتدعو اليه الحاجة منها، وكان توجه نظارة الاوقاف الى هذا المشروع وبناء على ما عرضه رئيس محرير الجريدة الرسمية أيضاً» ثم قال

اصلاح نظام العسكرية

« وجهت الحكومة عزميتها لاصلاح في نظام العسكرية فبعد أن قررت مدة الاقامة في الخدمة العسكرية بخمس سنين ورجوع العسكري الى أهله بعد ذلك تحت الاحتياط مدة ست سنين ثم محو اسمه بعدها من دفاتر العسكرية، رأت أن الضباط الكبار منهم لا يمكن أن يكونوا من المساكر المقترع عليهم لان المدة المقررة للخدمة لاتكفي في أن يصل العسكري الساذج الخالي من المعارف الجندية الى درجة تؤهله لان يكون ضابطا. فلا بد أن يخصص تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل في المدارس الحربية لا غير. وهو رأي معقول في نفسه لا يخطيء مصلحة البلاد في شيء»

اصلاح المحاكم

وذكر الاستاذ هنا اهتمام الحكومة باصلاح المحاكم القضائية وإعداد الوسائل لذلك، ودعوة القضاة الى المداولة في أمر المحاكم المختلطة لئلا شيئاً من حق المساواة بين الوطنيين والاجانب

سيرة الحكومة متبالات بالجمال

﴿والخديو توفيق باشا والوزير رياض باشا بشيء من التفصيل﴾

بعد هذا بين الاستاذ سيرة الحكومة بالجمال، وانها كانت موجهة الى مافيه الخير لمصر وأهلها، ولم يكن بناؤها على أساس الاثرة وقاعدة الاستبداد بالسلطة لقضاء شهوة الحاكين وأعاونهم، وذكروا من مناقب الخديو توفيق باشا: العفة والابن والتعجب الى الرعية، وتعرف أحوالها بالسياحة في المدن الشهيرة، وبعمده عن السرف، واكتفاه من النساء بأميرة واحدة، وترفعه عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره . . . من الامور الفاضحة . وذكروا نتيجة ذلك بقوله : فاجتمع له في أنفس الرعية : المحبة والمهابة، وهما أقوى سند للحاكم وأشد ركن يعتمد عليه، وهما البقية التي تحفز اليها الهمم، وتحت نحوها العزائم، وتطير دونها الرقاب، والسعيد كل السعادة من الحاكين من هيا له القدر أن يناها

وذكروا من سيرته في حكومته اتفاه مع نظارها وسائر كبارها، على ما يخفف عن الرعية أثقالها، ويرقي عقولها وآدابها، ويفتح أبواب السعادة في المستقبل لها، مع شدة تمسكها بمحفظ مسنده، وتقوية سلطته، وان هذا رفع قدره في نظر الاجانب أيضاً، وان الناس تناسوا بهذه السيرة ما أتاه في اول حكومته من النفي بغير محاكمة والمسارعة الى تعيين المراقبين من الاجانب وإعطائهم الحقوق الواسعة، وكادت تندمل تلك الجراح بالقاء تبعه الخطأ فيها على غيره

ثم ذكر من سيرة النظار العمل فيما يعود على البلاد بالمنفعة أيضاً (قال) « ولم يكن لأحد منهم شهوة الاستبداد بالامر في عمده، لمحض إعلاء سلطته ووضع من دونه تحت قهره، واستعباد الرغائب والارادات لرغبته وإرادته، وجمع ما يتيسر له أن يجمع مدة استعلائه على كرسي الوظيفة » وقد استثنى منهم واحداً قيل انه كان يمد يده الى بعض الحطام في بعض الاعمال الجزئية التي لا يظهر لها أثر في كلياتها، وآخر كان يطبع العصبية الجنسية، وسيأتي ذكره

ثم بين الاستاذ حسن تأثير هذه السيرة في الناس في نشاط العقول وتحفز الهمم والاحساس بالباطن الى مطلب البلاد « وهو أن يكون فيها من قوة الارادة ونفاذ البصيرة ما يمكنهم من حفظ ما بقى لهم، واسترداد ما ذهب منهم على مدى الزمان. وقد قنع العقلاء من طلاب الحرية العارفين بحاجات البلاد الناهضين بقدر استطاعتهم الى البلوغ بها اقصى امانيتها، مع نفوذ البصيرة في شؤونها - رضي هؤلاء بما شهدوا من أعمال الحكومة وانضموا في العمل اليها، وقبلوا ما كان في جسم الحكومة من العال اختياراً لا خوف الضررين، وخضوا للحكم الضرور مع قوة الامل في الشفاء» وذكر ان ضياء الامل كان يسطع على وجه كل أحد حتى الساخطين على الوزارة إذ احس هؤلاء الساخطون بشيء جديد من القوة وان مطالبهم على ما فيها من العايش سهلة المناول.

(قل) « وكان أهل الاصابة في الرأي يمتدنون لو استمر سير الحكومة في سبيلها ذلك عشر سنين على الاقل، فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانه، ويستوي سلطان الارادة السامية على عرشه، وترسخ الماسكات الحسنة في نفوس المستبدين بمقتضى (ميل) الفطرة لاقتنائها - وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعدمه الكرم الالهي - وتعود الى النفوس سكينتها بعد ذلك الاضطراب الشديد، وعند ذلك كان يتهين لاهالي البلاد أن ينزعوا الى نظام أكل مما أعطي لهم، وأن يطلبوا سبيلا الى تخفيف شيء، مما كان لا يزال يشغل عاينهم

« ولكن وانسناه! حال دون بلوغ تلك الاماني أمور (منها) ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض النظار (ومنها) ماله علاقة بالجناب الخديو (ومنها) ما سببه امتداد السلطة الاجنبية الجديدة (ومنها) نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا في ذلك من الوسائل لاثارة الفتنة لقلب وزارة رياض باشا

شمال رياض ومعارفه وأخلاقه وأعماله

عقد الاستاذ في رياض باشا فصلاً واد في ماله وما عاينه، وقل انه استعمل غاية الرأفة في الحكم عليه، وأن الذي قد حمله عليه ضرورة بيان أسباب الفتنة القريبة، وقد بدأ هذا الفصل بقوله: « رياض باشا خير من طبقته من المصريين

بلا نزاع ، والنزاع في ذلك مكابر ، وفيه من محامد الصفات مالا ينكره العدو النصف ، ولكن يصحب هذه المزايا ما قد يؤاخذ عليه « ثم بين ذلك بما تختصره على ايجازه واختصاره ، قال :

رياض باشا ذكي بالفطرة وقد اكتسب بالتجربة في الاعمال الادارية ما لم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلي يرجع اليه ، ولم يكن لديه علوم كلية ترد اليها الجزئيات ، فقد كان يقيس الجزئي على مثله وربما لا يكون جامع الشبه بينهما تماما فيقع في الخطأ

فيه همه وقوة عزم لا تنكسر ، ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر في العواقب ليتجنب ما يكره منها

صادق النية محض السريرة في خدمة البلاد ، ولكن لا يبالي في تأدية ما يراه واجبا عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن ان من الواجب على كل أحد ان يعلم حسن نيته وإن لم بينها هو ، وأن يرضى بعمله وإن لم تظهر الغاية الصالحة منه

له نشاط في العمل ، لا يصحبه كلال ولا ملل ، ولكن تأخذ الجزئيات من زمنه بعض نصيب الكماليات

فيه مزية التفويض للمامل في عمله ، ومنحه كمال الحرية فيه اذا وثق به ، وامكن ليس عنده قاعدة يبنى عليها ثقته . فتارة يثق بالاذكياء العارفين والصادقين وتارة باضدادهم

اذا غضب على أحد مزج في غضبه بين احساسه الخاص وما يتعلق بالعمل العام ، فيسقط من نظره وإن كان فيه من الفضيلة ما يعترف به العالم أجمع ، ويفوته الانتفاع منه ، ولهذا يحترم أحيانا من لا يستحق الاحترام ، ويحتقر من يستحق الاكرام ، ويندم المتعصبين الاوهام ويحل الكثير من أفرادهم

يحب المصريين جملة وليس في طبقتهم من يحبهم مثله ، واكنه يجب أن يراهم في أعلى درجات الكمال المنتظر فينادي عليهم بالويل ويرميهم بالنقبة ، لانهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما ألصقته بهم الايام الظالمة ، وقد أعجزه هو نفسه التجرد

من ذلك والخروج منه — وشبهه بالاب الشديد الحرص على اعلاء منزلة أبنائه الذي لم يسلك مسلك اللين في تربيتهم وهو أهدي المسالك وأقربها
نظيف القلب بعيد عن الحيلة ، اذا مال الى شيء أو نفر منه ظهر ذلك في قوله وأسرة وجهه وحرركات أطرافه ، فتراه يميل الى اخفاء سره ، وطهارة نفسه تحاول اظهاره فتكون الغالبة

يهاب ذوي النفوذ من الاجانب ولكنه كان يجد السبيل لمقاومة بعضهم اذا وجد من آخر سنداً ، وهو أمثل طبقته في ذلك
جريء مقدم في الاعمال كأن لا شيء يخيفه فاذا عرض له ما لم يستطع تذليله رجع الى أقصى ما يمكن أن يبلغه الاحتراس فينتقط العمل . . .

لم يكن بمخالف فكره ريبه في سكون المصريين الى الطاعة في كل ما يؤمرون به حلالاً لهم على سالف عهدهم فكان في غاية الطأئنة من ناحيتهم فلم ير انه يجب أن ينظر فيما عساه أن يشرهم من جهة المكافحة في تنفيذ السلطة و من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب ثم خص الاستاذ عثمان رفقي باشا الذي كان ناظراً للحربية من دون سائر نظار الوزارة الرياضية بذكر كلمة موجزة من صفاته لان سيرته من أعظم مقدمات الفتنة العرايية فقال

عثمان رفقي باشا

« كان رجلاً ساذجاً محدود الادراك بعيداً عن التبصر في العواقب لم يكن يهيمه بعد قبض راتبه الشهري سوى أن يرضي ميله ويروي ظأه الى حصر السلطة العسكرية في بني جلدته من الجراكسة وبحريه من ساء حظهم بالولادة في مصر منها مع معاملتهم بالاحتقار. كان يطبع في ذلك تلك العصبية المقنونة التي يعطنها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين في مصر كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مست آباءهم أو تمقت أديبارهم ، أو كأن أهل مصر سلبوهم شيئاً مما كانوا يملكونه ، أو منعوهم حقاً كانوا أهلاً لان ينالوه »

﴿ تأثير سيرة رياض باشا وشماله في مقدمات الثورة ﴾

قال: « بعد ماتيين من موجز سيرة رياض باشا وهذا البعض من نظاره يمكنك

(م ٢٤ ج ١ — تاريخ الاستاذ الامام)

أن تسمع بعض مآثرته تلك السيرة « ثم قال ماملخصه

١ — ان إبطال رياض باشا للسخرة كان عدالة لا تنكر ولكننه أحق عليه جميع الوجاه الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالها، ولم يكن ذلك ضاراً لولا ما صحبه من استعلائه عليهم وتعريضه بسوء ماضيهم ، حتى رأوا انه ينبغي لهم التخلص مما يس كرامتهم، فشكوا لمقاومته جمعية تسمى جمعية حلوان كان فيها م. ش باشا وش باشا وع. ل باشا وغيرهم فلما خاب سعيهم تربصوا به الدوائر. وكان قد اشتد على بعض الجرائد فألغاهها باسباب لم تكن بالقوية فمنح بذلك خصومه آلة تهيج الآراء لمقاومته فذهب [أديب إسحاق] أحد محرري تلك الجرائد الملمغة الى أوربة وأنشأ جريدة سماها القاهرة لم يكن لها موضوع سوى رمي رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد الى الاجانب حتى كانت تسميه [رياضستون] وكان ينفق على تلك الجريدة الحديد والاسبق (اسماعيل باشا) و ر. باشا و م. ش باشا وع. ل باشا وغيرهم ، وكان الكثير من الساخطين يتلذذون بتلاوتها كما يتلذذ المريض بحكاية عاتيه ووسائل شفائه

٢ — زاد حنق أكثر الاغنياء عليه بزيادة مئة وخمسين ألف جنيه في أموال الاطيان العشورية وهو لم يبين الضرورة الداعية اليها ليتضح عنده فانتبه الفرصة نوبار باشا وأب كثيراً من الاعيان المظاهرة بالشكوى من الظلم والخسار الذي يجلبهم — وكثير الاجتماع لذلك ونفي من كان واسطة في إثارة للتظلمين وهو حسن موسى العقاد ، و برج نوبار باشا مصر بتبنيه يقال انه صدر اليه ، ولكن جرح الاغنياء لم يبرأ ألمه بذلك

٣ — وثق بمن لم يكن أهلاً لثقة من المديرين فأساؤا الى وجها، البلاد ولم يكن يسمع الشكوى فيهم لاستناده أن أولئك الوجها هم أصل شقاء البلاد. وهذا صحيح في الاغلب ولكن ليس من الطرم جملة علما. ولهذا وقر في نفوس الاعيان ان رياض باشا عدوهم يريد اسقطهم وإقامة من دونهم مقامهم

٤ — العلم بتقرير الامن كعادته في كل وزاراته كان البلاد في حرب دائم، وأعطى المديرين في ذلك سبحة أساؤا في اسئالهم فأخذوا بالظن ونالوا من كثير

بالشبهة فأزعج ذلك نفوس الباقين فخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم بغير حق ولا عدل
« إذا صوبنا النظر الى مادون المرتبة العليا من مراتب الانسانية وهي المرتبة
التي يصل فيها الى منازل الملائكة في كمال الصفات، وأخذنا الانسان من وجهته
البشرية، رأينا أن المنافع العامة مهما عظم مقدارها وعم أثرها لاتصرف الشخص
عن نفسه، ولا تنسيه منافعه ومضاره الخاصة به، فما الظن بقوم تنقصهم التربية وتعوزهم
البصيرة، وقد شعروا بشيء من القوة لا يدركون كيف يستعملونه؟ فمن مسه ظلم
المأمورين ولم تسمع شكواه — ومن يتقرب أن يؤخذ بما أخذ به غيره بغير محاكمة
عادلة — ومن نكبته شبهة مخيلة لاحقيقة لها — ومن يخاف أن يتمثل في خيال حاكم جاهل
بصورة لا تعجبه فينال ما نال صاحبه — كل أولئك وإن كانوا لا ينكرون فضل
الحكومة فيما أتته من الاصلاح كانوا يطالبون تغيير هذه الحال بما هو أدمى للسكينة
والاطمئنان وتوفير المنافع. وأنزله الناس غرضاً كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه الى
ذلك من نفسه بما تكشفه التجربة في زمن قصير أو طويل . أما الضجرون ومن
لاتباع المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة فضلاً عن أقصاها
فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة الى أخرى ولا يكفون
عن الطعن فيها والتنديد بها مهما استطاعوا

« تلك الرغبة التي كانت تلعب بالنفوس وتجيش في القلوب آخر عهد اسماعيل
باشا والايام الاولى من حكومة جناب الخديو السابق رحمه الله — تلك النزعة الى
تأسيس الحكومة على قاعدة الشورى ومنح بعض منتخبين من الاهلين حق المشاركة
في كليات أعمال الحكومة — ذلك الظلم وجد مسكناً من مبادئ الاصلاح
فاطأنت النفوس الى عدل الحكومة في القضايا العامة وقمرت تلك الرغبة كأنها قد
وجدت من حسن نية الحاكم عوضاً عن اشتراك الرعية في الحكم. لكن تلك النزعة
انبعثت مرة أخرى بعد مدة من الزمان لهذه الاسباب التي سبق ذكرها ولاسباب
سندكرها فرجع التحدث بين الناس الى ما كان عليه. وأخذ الناس يقولون لا صلاح
في الاستبداد بالرأي وإن خاضت النيات. فرأي واحد عرضة للخطأ . وإن تحذقت
تراهته من الغرض »

رياض باشا لم يكن يعرف أن في البلاد من يطلب هذا الامر طلباً صحيحاً لانه لم يختبر الناس ولم يصغ حق الاصغاء الى ما كان يدور بينهم . وكان يعتقد أن في مجلس الشورى تعويقاً عن الاصلاح المطلوب لان أعضائه تعوزهم الخبرة بالاحوال السياسية والادارية فلا ينتظر منهم إلا المعارضات وإطالة البحث في أمور يجب فيها السرعة . وكان يوافق في هذا الرأي كثير من العقلاء ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بشفاء هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتشكيل المراقبة الثنائية وبت أهم المسائل السياسية ، إذ لم يبق بعد ذلك إلا الشؤون الداخلية والقضائية ، وكان يمكن تحويل المجلس بعض الحقوق التي منجها الامر العالي من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج ، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفض رفضاً باتاً فكان ذلك مما زاد الرغبة « ولو أنه أجاب بالرفق ووضع المسألة موضع البحث وطاول في بها سنين - لكان قد أرسل الآمال تسرح في فسحة من النظرة ، ولم يكن قد دعاها بالشدة الى الانضمام الى من يؤلب عليه، ويشير الاحتقاد حواليه »

سيرة الخديو توفيق باشا

(المفضية الى الثورة)

قال « بعد امضاء قانون التصفية واطمئنان الحكومة من ناحية الاوربيين ومشاكلهم وجد الجناب العالي فراغا من الزمن يمكن أن يسمع فيه أو يلاحظ ماله مساس بسلطته التي كان ينبغي أن تكون له من جهة ما هو خديو وحام أعلى في مصر « بين عريكة الجناب الخديو أو رعايته لجانب والده أو حسن ظنه فيمن سبقت لهم أعمال في خدمة العائلة الخديوية - شيء من ذلك حسن لديه إبقاء الكثير ممن كانوا في خدمة حضرة الخديو الاسبق في معيته السنوية وأغلبهم كانوا ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنا ولم تألف قلوبهم وجدان الرحمة والشقة على الاهالي، ولهم مطاعم لا تهدأ بعد مذاقوا من لذائذها الماضية ماذا أقوا . هؤلاء يغث عليهم أن يروا السخرة الشخصية قد أبطلت ، والسلطة الادارية قد قيدت . وتحول مجراها عن رجال المعية الى ناحية النظارات، ولم يبق لهم التصرف المطلق في الاعمال والمصالح

كما كان لهم من قبل، بل أحسوا بأن من الاحكام العمومية ما يجري عليهم كما يجري على أفراد الاهالي، وهذه غضاضة في نفوسهم لايسهل عليهم الصبر عليها، فوجدوا من ذلك على رياض باشا ظناً منهم انه هو السالب لتلك الحقوق المكتسبة

« ميل الجناب الخديوي الى أن يكون محبوباً من رعيته كان يبعثه على إفاضة الاحسان بالرتب والنياشين على من يراهم اهلاً لولائه أو على الوعد باجابة بعض المطالب المعروضة عليه من ذوي وجاهة أو من متوشحين بوشاح ضرورة، وعهد جنابه بالسلطة الخديوية أن لاتعارض في مجراها خصوصاً إذا كانت متجهة الى الما ضرر فيه بالرعية حسب اعتقاده ولا يمس مصالح الاجانب. لكن رياض باشا كان يجد في كثير من ذلك موضعاً للمعارضة وهو مع خلوص نيته في خدمة الخديويين لا يستطيع إخفاء ما في نفسه من غيظ أو ضجر مما لا يراه حسناً فكان يظهر في أقواله ما ربما يחדش نفس الجناب الخديوي. وقد كان يأتي في بعض مقالة ما يشير الى التهديد

بالاجانب وو كلائهم كما أخبرني به الصادق في روايته. ورأى الرابضون حول الاريكة الخديوية لوايح الانفعال تظهر مرة بعد اخرى على وجه جنابه ففتح لهم بذلك باب يلجونه لشفاء ما في نفوسهم، فأخذوا يستزلون الجناب الخديوي الى بث ما في نفسه فيفيض بما كان يجده، وهم يفيضون في شرح الاقوال وتوسيع دائرة المقصود منها وتحميلها مالا تحمله، كأنهم مشايخ محققون، يلقون دروساً على طلبة في الازهر مدققين، والجناب الخديوي يسمع منهم ويسرّح الى ما يقولون. وقد انتهى به الامر رحمه الله الى انه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا في كلامه وحر كاته أثناء خطابه وهياة جلوسه وما يرى في مشيته من دلائل الخيلاء في زعمهم، وما شابه ذلك. وكان رحمه الله يجد في ذلك نزهة لخطاره، ونوعاً من التسلية تسر بها نفسه، ويمضي بها وقته. وكان غيظه يزداد على رياض باشا كلما بدت منه معارضة في أمر صغير او كبير بما كان يصوره أو تلك المثلثون. وكما رأى رياض باشا اعلام الانفعال اشتد ضجره وكما اشتد ضجره وظهر في قوله أو فعله التهب غضب الجناب الخديوي عليه وان لم يكن يظهره له، فوصل الامر في اقل من سنة بعد امضاء قانون التصفية الى ان الجناب الخديوي لم تكن له امنية إلا اعزل رياض باشا، ولكنه كان يظن ان قنصل اللول خصوصاً

قنصلي فرنسا وانكلترا يعارضان في عزله لو أراداه. فأخذ ياتمس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدول على الرضاء به بدون معارضة، فاستأفت بعض من حوله نظر جنابه إلى الحادثة القريبة العهد التي كانت سبباً في عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديو الاسبق فرآها أنجح الوسائل»

إثارة الخديو الضباط على رياض

« أخذ الجاب الخديوي من ذلك العهد يستدني منه أمير الألامي الاول الذي كان يحرس السراي وهو علي بيك فهمي ويستدعيه إلى مجاسه الخاصة ويمارحه ويزج به في الحديث على اختلاف شؤونه ويظهر له أمانيه في الاحسان عليه وعدم وجود السبيل إلى ذلك حتى قال له مرة: اني أردت الانعام عليك بألف جنيه ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا . ومرة اني أردت الاحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا. وأمثال ذلك حتى اعتقد علي بيك فهمي ان الجناب الخديوي ساخط على رئيس نظاره وان رئيس نظاره عدو منفعتة ومنفعة إخوانه، وعلى المؤلف عندنا لم يخف شيء من ذلك عن بقية الضباط الكبار بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجري حولهم

« كل هذا والمرحوم عثمان رفتي باشا يشتد في معاملة الضباط الذين جنى عليهم أبائهم بولادتهم في مصر ويهيب المشروعات لراحة القوتة العسكرية منهم، فإذا كان يدور من الحديث بين علي فهمي وبين اخوانه الضباط الفلاحين؟ وماذا يتصورونه في منزلة رياض باشا من الخديو؟ وماذا يتخيّلونه في ميل جنابه إلى فصله؟ وماذا جسمته أو هامهم من معاداة رياض باشا للضباط حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفتي قائما هو من رئيس النظار؟ ولينظر ماذا بهجسون به من وسائل التخلّص من رياض باشا ورفقي باشا معاً على ظن انهم لو فعلوا شيئاً من ذلك فأنما يفعلون ما يرضي خديويهم، ثم تأمل في الاعاليل التي يمكن أن يتخذوها حجة على ان ما يعملونه في هذا السبيل موافق للصواب آت على وفاق الشرع

سيرة الاجانب من أسباب الثورة

عقد الاستاذ ههنا فصلاً في بيان كون نفوذ الاجانب كان من أسباب الثورة

يهاد بيان أن الضباط وغيرهم لما استرحوا من بعض المظالم انفسحت آمالهم في استكمال الشفاء مما بقي من عائلهم والتنبه لها وزيادة التألم منها كالمريض يشعر بالألم بقدر الأمل في الشفاء. وبهذا التنبه ظهر لهم أن قانون التصفية وضعه الاجانب لمصلحة الأجانب وأنه حرم البلاد حريتها، وأن الاجانب يتماضون رواتب فاحشة من الخزينة في إدارة المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدائرة السنية وسائر المصالح التي وظيفوا فيها مع ادعاء فقر الخزينة والبلاد. وانهم هم اصحاب الكلمة النافذة في الإدارة والمالية وانما يعملون لمصالحهم لا لمصالح البلاد، فالحكومة الخديوية أصبحت تابعة لحكومات أخرى لانهم بسعادتها ولا شقائها إلا من وجه ما تبقى قادرة على تأدية ديون رعاياها وتقديم الرواتب الوافرة الى المندوبين من قبلها، ففسوة الاجانب الثريوين وسيرة المحكمين منهم مما أوقع في خواطر الملمين بذلك « ان حقيقة الظلم واحدة وانما طورها الجديد أرسخ أساساً وأضبط نظاماً وأظهر استعداداً للخلود فلا يحيص عنه. فلو استقال سلطانه وامتد من دائرة الى أخرى آكل الامريالى وقوع البلاد في شدة منظمة وضيق محكم الحلقات »

وذكر في هذا الفصل أن ما كان يقوله الساخطون على رياض باشا وما ينشرونه في الجرائد التي تطبع في أوروبا وما ظهر من المنشورات والرسائل الدالة على أن الحزب الوطني يرى ماقررته لجنة التصفية وما أشار به المراقبون لا ينطبق على رغبته وأمانيه للبلاد - كل ذلك كان يهين الفرص للناقين على رياض. وذكروا أيضاً أن الاجانب لم يكونوا راضين عنه لان ربحهم من البلاد قل بحسن سيرته. وقد حصل نزاع بينه وبين البارون درنخ قنصل فرنسا الجنرال بشأن قانون المحاكم المختلطة إذ كان الباشا يريد تخفيف امتيازات الاجانب فيه والبارون بأبي ذلك فأخذ يسعى في إيجاد الطرق لفصل رياض باشا

(أبواب تألب الضباط الذي أفضى الى الثورة)

تقدم أن بعض الضباط رفعوا عريضة الى وزارة شريف باشا التي سبقت وزارة رياض باشا بتمسكون بها عزل ناظر الجهادية تملأ برداءة الطعام وعدم النظر في

أحوال المستودعين وأرباب المعاشات . فناظر الجهادية لم يهتم بالبحث في ذلك ولا في أسبابه ولم يسع لتفريق من جمعهم تلك النزعة ، ولم يسلك مسلك رئيس النظار في المصالح التي تولاهما بأن يحمل العسكر على الأخذ بالأعمال العسكرية وتعاليمها ، ولم يلزم الضباط إحياء الآداب العسكرية وإعادة النظام السليم إليها ، بل اشتغل بتقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصري والجزيري - وترك كبار الضباط هملاً بغير عمل

ولما جاء وقت وضع الميزانية وعزمت الحكومة على تنقيص الجيش في أواخر سنة ١٨٨٠ ميلادية وحصر ترقى الضباط في المتعلمين بالمدارس الحربية اضطربت أنفس الضباط المصريين واعتقدوا لسوء ظنهم بالوزارة أن هذا النظام إنما أحدث لقضاء شهوة ناظر الجهادية فاجتمعوا للتشاور في أمرهم

عبد العال بك وعلي فهمي بك

وبينا هم كذلك أحال عثمان رفقي باشا عبد العال على الاستيداع وأقام أحمد عرابي مقامه . واتفق أن انحرف الخديو عن علي فهمي أمير الأيالي الأول وأبدى رغبته في نزع سلطته عن تلك الموسيقى الخديوية وفرقة المراسلة - وهو يعلم من سخطه على رياض باشا ما يعلم ويعتقد أن سلطته لا تنهض بالتخلص منه - فخاف أن يحل به ما حل بعبد العال وأن يبذل بجزيري فأنضم إلى من مسهم الظلم وكشف لهم حال الحاكم والحكومة كما سمع وعلم من الخديو نفسه

أحمد عرابي بك

قال «أحمد عرابي بك كان ينظر إلى رؤسائه من الجرا كسة نظر العدو إلى عدوه، وكان يحتقرهم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها، وربما لم يكن مخطئاً في الكثير منهم، وكان أجراً أخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحججة، فلما شرعت نظارة الجهادية في عملها الجديد وبدأت باستيداع عبد العال غلب على ظنه أن ما يصل إلى عبد العال اليوم يصل إليه غداً فيحرم مما يرى نفسه أحق بالتمتع به ، ووجد هو وإخوانه فيما كشفه علي فهمي من التفرقة بين الخديو ورياض باشا سبباً للجرأة

على مقاومة تلك المشروعات ففزع الى رئيس النظار وشكا اليه مامس عبدالعال
 قبلت شكواه بعد تردد استمر مدة أيام وأبقي كل في وظيفته »

أحمد بك عبد الغفار

كان [قائم مقام سواري] وكان بينه وبين ناظر الجهادية منافرة لامور أهمها
 تقاربهما في درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة فكان كل يطلب الخلاص من
 الآخر ولا يجده . وعرف الخديو ما بينهما وشكا اليه عثمان رفقي تصرف أحمد
 عبد الغفار معه فكان من ثمرات ذلك أن الخديو كان يستدعي احمد عبد الغفار
 في طريق منزله الجزيرة ويستوقفه ويمجده الزمن الطويل مظهراً ميله اليه ويسمع
 شكواه من عثمان رفقي ويعدده باشكائه ورفع ظلامته . وهذا مما كان يشجعه على مناوأة
 رئيسه ويزيد في حقد رئيسه عليه (و ذكر الاستاذ حادثة ضاعفت العداوة) .
 وبعد أيام كان عرابي وبمضى شركائه في الخوف من نظارة الجهادية في ولية
 بيت نجم الدين باشا دعاهم اليها اثر قدومه من الحج . وبينما هم على المائدة قال
 اسماعيل كامل باشا : ان ناظر الجهادية أتى اليوم عملاً لا يحمد عليه . عزل أحمد
 عبد الغفار من قائم مقامية السواري وعين بدله محمد شاكر بك . فلم يتم أحمد عرابي
 عشاء بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط الى بيته وكان فيهم علي فهمي
 وعبدالعال ودعوا احمد عبد الغفار وكتبوا تقريراً ضمنوه الشكوى من عزل احمد
 عبد الغفار بلا محاكمة على خلاف القانون . وذكروا أشخاصاً آخرين عزلوا واستبدل
 بهم شيوخ فانون أو جهلة دونهم في المعارف العسكرية ، وعددوا من سبق من
 الضباط الوطنيين الى السودان ونحو ذلك . وطلبوا إحالة القضية على مجلس عسكري
 ينظر في جميع أطرافها ، فان كان لهم حق منجوه ، وإن استحقوا عقوبة قبلوها .
 وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال اعماله وميله عن النظام طاعة لميل خاص
 رفعوا نسخة من هذا التقرير الى الخديو وأخرى الى رياض باشا بامضاء أحمد
 عرابي وعلي فهمي وعبدالعال حلمي بالنيابة عن جميع الضباط المصريين فيقول التقرير
 ١٧ يوماً تحت المدولة بين الخديو ورئيس نظاره وكان من رأي رياض باشا أن
 يجاب طلبهم في تشكيل المجلس العسكري ولكن الخديو لم يقبل ذلك

مظاهرة الملا المصري للضباط

« شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد في مصر ، علم الكثير من الاعيان والعلماء والموظفين باصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره، فهب عند ذلك جميع الراغبين في تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الجناب العالي واتحدت وجهتهم في الغاية وإن اختلفت الدواعي والبواعث، فطلاب مجلس النواب يؤملون في التغيير أن ينالوا تشكيكه، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه يرجون بالتبديل كشف امكربتهم وأمناً على أنفسهم، والواجدون على السلطة الاجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم، والذوات الكرام الظالمون في رجوع سلطنتهم على أبدان الرعية وأمواها يطمعون في ارضاء شرهم ، والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية، وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى في الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتي خلفه يمكنه مجاراته في مطالبه ، والجناب الخديو لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظر بل تلك أمنية من أمنيه

« فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الالحاح في الطلب ، وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث اليهم من يعبر عن أمكاره يؤيد لهم عدالة الطاب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأتى به ناظر الحربية لا يمكن الصبر عليه ، ثم كانت تأنيهم الاخبار بأن الجناب الخديوي لا يأتى بإجابة طلبهم بل يجب أن يمكن لهم أمنيتهم وانما رياض باشا هو الذي لا يريد ذلك ، والله أعلم من أين كانت تأنيهم هذه الاخبار مع ان رياض باشا كان يريد تحميم الأمر حسب ما طلبوا في تقريرهم كما قدمنا

« زاد هذا كله في جراءة الضباط وكلمات مدة التردد في حسم المسألة كثرت الاشاعات وقويت عزائم المحركين وغاب الظن بضعف الحكومة وقد حصلت عدة مقابلات بين رئيس النظار وبينهم قال دولته في إحداها لعرابي ومن كان معه إن ما أودعتموه في تقريركم من طلب عزل الناظر يعد خروجاً عما حدده لكم

القانون وتلك مهلكة سياسية فقد يخشى أن يمد الا جانب ذلك سببلا لزيادة تداخلهم في الحكومة واشتداد وطأهم عليها

« وأحس بذلك البارون درنج فأرسل الى أحمد عرابي واخوانه يقول لهم انه يسره ما يراه من صلاحيتهم في عزيمتهم، واشتدادهم في المطالبة بالعدل فيهم ، فعليهم أن يثبتوا في مطالبهم ولا يضعونهم ما يمددون به ، فهو بصوت حكومة فرنسا يسند المطالب العادلة وليس في الامكان ان حكومة متمدنة تقيم الموانع في سبيل الناهضين بطلب حقوقهم ، الساعين في الانتصاف لأنفسهم ولا بناء بلادهم

بدء الثورة بمحاذة قصر النيل الشهيرة

جعل الاستاذ لهذه المحاذة تمهيداً بين فيه ان الضباط كانوا يتوهمون ان رياض باشا مؤيد في منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ بمصر — وان الخديو نفسه كان يظن ذلك — ونتيجة ذلك ان مقاومة وزارته مقاومة للدول فلا يتعرض لها الا بوسائل الرفق واللين ، فلما قال قنصل فرنسا الجنرال العرابي ما قال « انكشف ذلك الوهم، وتحول السير من سؤال الخاضع، إلى إلحاح المضارع » فآخذ أحمد عرابي وعبد العال وعلي فهمي يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ماتسنة نظارة الجهادية من نظام ضار بهم وطلب عزل ناظرها مثار تلك المخاوف

علا نداء الضباط بذلك وكثير الاضطراب فانمقد مجاس النظار برئاسة الخديو للاسراع بحل هذا المشكل وحضره بعض رجال المعية « فكان من رأي رياض باشا أن يحال تحقيق مافي التقرير على مجاس عسكري . وكان من رأي ناظر الجهادية القبض على الضباط الثلاثة عوامل هذه الحركة والحكم عليهم بالعقوبة التي استحقوها بجرأتهم هذه . ووافق بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية، وكان الجناب الخديوي من هذا الرأي . واستمر الجدل ذلك اليوم الى أن جاء وقت الظهر ولم يتقرر شيء فقاموا الى المائدة ، وبعد الفراغ من الطعام وقبل الرجوع إلى المداولة جاء أحد رجال المعية (طلعت) باشا الى رياض باشا وأسرأ اليه ان بعض الناس يتهم دولته بمجاعة الضباط والاخذ بناصرهم طمعاً في ان يملك قلوبهم ثم يستخدمهم في

الاستيلاء على الخديوية المصرية ! فلما عادوا الى الجلسة لبث رياض باشا ساكناً وصارت الاغلبية على رأي الجناب العالي وانما سأل رياض باشا ناظر الجهادية: هل تتحمل تبعه هذا الامر؟ فقال نعم . و صدر الامر بالقبض عليهم وسجنهم في ٣١ يناير سنة ١٨٨١ . هذا ما حدثني به أحد النظاري في ذلك الوقت ولأظنه بالإصادقا « لم ينفذ الامر الخديوي بقوة الحكومة وسطوتها كما جرت به العادة ولكن سلك في تنفيذه طريق الحيلة والغدر »

ثم بين الاستاذ ذلك بما حاصله ان ناظر الجهادية كتب الى الضباط الثلاثة يدعوهم الى ديوان الجهادية للمذاكرة في ترتيب حفلة زفاف الاميرة جميلة شقيقة الجناب الخديوي أول يوم من شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — وهو اليوم التالي ليوم صدور الامر العالي بحبسهم — فلما وصلت اليهم الدعوة دهشوا لان موضوعها لا يحتاج الى مداولة ثلاثة من أمراء الالايات ولا مثله بعتاد فطنوا للحيلة في تلك الدعوة في ذلك التاريخ فدعوا من يتقون به من الضباط وأطلعهم على ورقة الدعوة فقتع الجميع بان خطر أسيجل بالثلاثة ثم بكل من يشاءهم — أو بكل ضابط مصري على ما كان يخيل اليهم — « فحملهم الحرص على وظائفهم وأقدم بهم العلم بضعف الحكومة عن الانتقام منهم لمكان الاختلاف الواقع في أمهات عناصرها، وماهاجهم من وساوس ذوي الكلمة في مصر وما كانوا يتخيلونه من رضاء الكفاة عما يفعلون — على أن يقاوموا الشر المنتظر بالقوة إذا اقتضت الحال ذلك غير مبالغين بعاقبة وكان في الضباط الحاضرين كل من محمد عبيد بكباشي في الالاي الاول — الأي الحرس — وخضر خضر بكباشي في الأي السودان فأخذوا على عهدتها إنقاذ الضباط الثلاثة إذا سقطوا »

بعد هذا التمهيد ذكر الاستاذحادثة قصر النيل المشهورة وملخصها ان الضباط الثلاثة جاءوا قصر النيل يتبعهم على بعد بعض العيون من جند الالاي الاول فاذا الديوان غاص بالضباط وأمراء العسكرية فلما وصلوا الى حيث الناظر تلى عليهم الامر الصادر بسجنهم وجردهم من سيوفهم وألقوا في السجن « وتقاذفت عليهم الشتائم وكان أكثرها وأبغها في التحقير كلمة (فلاح) فعاد المقتفون لآثرهم وبلغوا اضطراب الالاي

الأول مارأوا قهض محمد عبيد بالعسكر الذي تحت قيادته لا تقاؤهم فاعترضه القا بمقام [خورشيد بك بسمي] فلم يسمع له قولاً وشاهد الخديو حر كتهم فأمر [بروجي الحرس] بأن يدعوضباط الحرس الى السراي فدعاهم فلم يستجب له أحد . وانطلق بهم محمد عبيد الى قصر النيل فهجموا على الديوان فيه فأطار الرعب قلوب الامراء فيه ومنهم الناظر والوكيل ووثب كل منهم من نافذة يطلب الخلاص لنفسه فمهم من كسر ومن جرح وفتح الجند مستودع الضباط الثلاثة عنوة فخرجوا ظافرين . وأرسلوا الى ضباط الأي السودان وكان في طره فحضر حالا وإلى ضباط الأي العباسية وهو الأي عراي وكانوا قد قبلوا أميرهم الجديد الذي خلفه بعد حبسه والتسوا العفو عنهم ثم بلغهم ما حصل فوقعوا في حيص بيص . وقد خطب عراي في العسكر والضباط المجتمعين وأثنى على اخلاصهم في حب أمرائهم ثم أمرهم بوضع السلاح وأخذ يكتب الى القناصل ويستعد لمحاربة سراي عابدين

(قال الاستاذ) « كان رياض باشا قد بلغه الخبر وهو في نظارة الداخلية فجاء الى سراي عابدين — وعراي يرسل شكواه إلى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال ويلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل ان الضباط لم يأتوا أعمالاً إلا ما بقي أرواحهم ويضمن لهم اقامة العدل فيهم، وأرسل اليه ورقة الدعوة الى ترتيب الزفاف وبسط له الخيلة التي دبرها ناظر الجهادية للايقاع بهم . وشرح له ما حصل لهم من سلب السيوف والحبس على أنهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية وهو طلب عادل لسوء تصرفه . فورد له الجواب من [البارون درنج] بالثناء على عزيمته وثباته في مطالبه العادلة وبشره بأنه لا خوف عليه مادام الحق في جانبه . فسر عراي بذلك . أما باقي القناصل فلم يجيبوه بشيء »

ثم ذكر ان الخديو أرسل الى عراي يسأله عن سبب هذه الفتنة فاجابه بأنه لا يريد إلا عزل ناظر الجهادية فقبل منه وعرض عليه عدة أشخاص على أن يكون أحدهم خلفاً للناظر فلم يقبل أحداً الى أن عرض عليه محمود سامي باشا ناظر الاوقاف فقبله فعين في الحال ناظراً للجهادية . فأرسل عراي يشكر الخديو على ذلك وطلب العفو عن العساكر والضباط فيما فعلوا فعفا عنهم . وصدر اليه الامر بان يصرف

العساكر في الحال فلم يمثل بل أجاب بأنها تنصرف في صباح الغد وانتهت بذلك الحادثة التي تعرف بحادثة قصر النيل

(نتيجة ما تقدم وتبان أفكار عرابي ومشايبه ورياض باشا والخديو فيه)

« كان يمكن لمرابي أن يطلب فصل رياض باشا بل وأكبر من ذلك لاستكمال الضعف في ذلك الوقت والمحصار القوية فيما بيده ولكن الامر كان غير مدبر فان طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابي ومن معه حتى كانوا يفضون اليه بما يريدون بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع الى نيل مطلب ما بالعنف والوصول اليه بالقوة يكفي في أن يقدم رياض باشا استعفاءه ولا حاجة الى التصريح به لمرابي ومن معه خوف الاخفاق فيزداد عناؤهم اذا انكشف أمرهم فكانت الوسواس منحصرة في تزيين مأمم به الضباط من طلب حقوقهم

« أما عرابي فلم يكن يخطر بباله ولا يهتف به في منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهو أن يتعالى اليه ، وانما الذي أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا ، فلم يكن له هم سوى الأمن على مقامه والانتقام من ذلك العدو والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لانه هو وإخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم

« وجميع المحركين له انما يأتونه من هذا الباب ولم يستلقتوه الى أمر آخر فظن أن مقال الاعيان والذوات الفخام وما يأتية من الجانب الاعلى وما يسمعه من العامة ممن بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له وتصويبهم للثبات عليه انما هو لعدالة الطلب واعتدال الرغبة ، فخيّل له أنه بعمله هذا يرضي الجانب الخديو والكافة وقصل فرنسا أيضاً بتطهير الحربية من ظلم ناظر الجهادية والجراكسة فأنحصر طلبه في عزل عثمان باشا ، وما بقي من سلطة الجراكسة تسهل إزالته بعد ذلك فانقضى أرب عرابي ولم يستعف رياض باشا

«أجال رياض باشا فكر في أسباب هذه الجرة التي أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة مع أنهم ليسوا إلامصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة وتزويه الحاكم عن أن تتناول إليه الاوهام بالمقاومة فضلا عن اللسن والايدي، فأنحصرت كل الاسباب عنده في البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال وأن صفته هذه وجهه بتعظيمه هو الذي نفخ فيهم هذا الروح ولولاه لم ينبض فيهم عرق، ولم ينطق لهم لسان، لهذا سعى لدى الجناب الخديوي في لن يطلب من رئيس الجمهورية استدعاه من مصر فورد الجواب بقبول الطلب وعين خلفاً له موسيو ستكوفيش

«لم يدرك في خلد رياض باشا ان البارون درنج كان العلة المتممة وان هناك أسبابا أخرى سبقت سعيه و«مظهر الانحراف عنه من كل جانب، وان الفتنة لا تسكن مادام في الوزارة غير مرضي للجناب الخديوي، مضايقا لمن يحفون به، آتياً البحث في تشكيل مجلس النواب، واثقا ببعض ضعفاء العقول من الحكام، مناصباً للذوات الفخام بلاجمالة، غير ناظر إلا إلى ما يراه حسناً، وما يمدد خيراً للبلاد بدون التفات إلى ما يخفف مرارة الحق ان كان محضاً، ويجلو جمال النية ان كانت صالحة، ولهذا قد اكتفى بعد إبعاد البارون درنج بالتفويض لناظر الجهادية الجديد في إزالة أسباب الشقاق الخيم في المراكز العسكرية والاختذ بزمام هؤلاء الضباط وردهم إلى النظام وتسكين نفوسهم إلى الطاعة، وأما ما بقي من الاسباب الحقيقية للفتنة وهو ما في نفوس أهالي البلاد من الميل إلى تغيير شيء من السيرة الحاضرة وما تمكن في قلب الجناب الخديوي من النفرة منه فلم يلتفت إليه لسقوط ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفس رياض باشا

«لم يكن يحظر ببال الجناب الخديوي في ذلك الوقت أن الامر يصل إلى هذا الحد، وإنما كان يظهر لبعض الضباط انحرافه عن رياض باشا ويلاحظ إلى ان رئيس النظار هو عدوهم وهو الساعي في تقابل القوة العسكرية وفي إيجاد المنظمات التي محرم كثيراً من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم في الجندية ونحو ذلك، ثم يميل في مجلس النظار إلى أخذ الضباط الثلاثة غيلة ومجردهم من سيوفهم قبل محاکمتهم، كل ذلك

حتى يحدث شيء من الالزام يعز على رياض باشا قبوله فيستعفي . كان الجناب العالي ينتظر أن يستعفي رياض باشا بمجرد الاصرار على صدور الامر بحبس الضباط الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف ، كان يظن بعد ذلك أن غاية ما يؤدي اليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجمعوا حول رئاسة النظار يطالبون بالافراج عن اخوانهم ويصروا على ذلك فيستعفي رياض باشا كما استعفي نوبار باشا في حادثة الخديوي السابق ثم تنتهي بذلك الحادثة ويعود النظام الى مقره « وغاب عن الافكار أن آثار الحركة على وزارة نوبار باشا كانت لم تزل تشهد في الجندية تخفي وتظهر على حسب اقتضاء الاحوال كما يعرف من العريضة التي قدمت في وزارة شريف باشا السابقة على وزارة رياض ، ثم لو كان الجناب العالي اظهر رغبته في عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط ودبر الامر معهم وقال لهم ان هذا الرئيس يرتكن على الاجانب وهم يسندونه فلا بد من إيجاد سبب يقنع الاجانب ظاهره لكان ما اتاه الضباط صادراً عن أمره ولبقيت هيبة المسند الرفيع في نفوسهم مع اطمئنانهم على ارواحهم ومراكمهم من ناحية جنايه ، ولما وجدت نفوسهم في الظفر بمطالبهم شيئاً جديداً سوى الامتثال لأوامر الحاكم وان كانت سرية ، ولما استشعروا بتلك القوة التي اندفعت بهم إلى خرق ذلك السياج المنيع الذي يحول دائماً بين النظام والفوضى . نقول ان ذلك كان اقل خطراً فقط ، أما سوء عاقبة مثل هذه الافاعيل فما لا يحيد عنه غالباً

« ثاني يوم الحركة استشعر الجناب العالي أن في الحادثة ما قد يمس سلطته ، وأن الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح في همين عظيمين بعد أن كان في هم واحد — هم رياض باشا وهم الضباط — فبادر الى أخذ الاحتياطات لأهمها خطراً وأشدها وهو الثاني ، فاستدعى علي فهمي أمير الالاي الاول وذكره بما كان له من الزلفى عنده ، وأظهر له غاية الرضى عنه ، وأمره باستدعاء جميع ضباط الالاي الى سراي غابدين ليقسموا للجناب الخديوي يمين الطاعة والفداء ، ويقسم لهم جنابه يمين التامين من كل عقوبة على ماضى

« اراد بذلك الجناب الخديوي أن يتخذ هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف

يها ما بقي منه ، فاذا أراد أن يريح نفسه من عبد العال مثلا ، لم يستطع ألايه أن يفعل مثل ما فعل الألاي الاول مع الضباط الثلاثة ، لوجود من يقاومه ، وهكذا لو أراد أن يبعد عرابي . ثم إذا استراح من كليهما رجع على علي فهمي وضباطه ، وبذلك ينتهي القلق ، لكن عرابي أحسن بالامر ، فالتمس من الحضرة الخديوية أن يدخل فيما دخل فيه علي فهمي من يمين الامان ، فدخل برضاء الجناب الخديو - أو على غير رضاه - في رابع يوم الحادثة وتقاسما الايمان

« إلى ما قبل الحادثة بيوم كان عرابي يخاف على مركزه في العسكرية ويخشى شتماته أعدائه من الجرا كسة مضطهديه فكان كل همه كإقدامنا ، أن يأمن علي وظيفته ويتقي من عدوه ، ومع هذا فقد رفعه طلاب تغيير الحل إلى إعداد الضباط لفعل ما فعلوا يوم قصر النيل . أما وقد هتك حرمة القانون وقلب قوة الحكومة ، وحوها عن وجهتها ، وجعل الآلة فاعلا ، والفاعل آلة ، وذلك مما يعد جرما في نظر كل واحد حتى إن سريرته مهما عميت لا يمكن أن تفعل عنه ، ثم رأى من الجناب الخديوي تخصيصا لعل فهمي بتقاسم اليمين معه - فقد ولت عنه السكره ، وآبت اليه الفكرة ، ومثل له جرمه ، وشعر بان حاكمه لا يسمح له بقوة تعلقوته ، والنظام يقضي باهلاك هادمه ، وخيل له أن المخاطر تهدد روحه بعد وظيفته ، ولا ريب أن الروح عليه أعز ، وأن الشتمات بعدها أدهى وأمر ، وأن دخوله في يمين الخديو لا يكتفي في وقايته ، لانه لم يكن يجهل قيمة الايمان ، ولو كان اليمين (?) عنده يلزم الخالف بما حلف عليه لما جاء هو بما نقض الايمان العسكرية التي حلفها عند استلام علم الامرة على فرقته ، فاخذ يحتاط لنفسه ولمن شاركوه في الجرم ، ويلتمس المضد من كل طرف ، ويفر من الموت في كل سبيل

« ركب به العجين طريقا عيما ، يخبط فيها خبط العشواء ، يسوقه الرعب ، ويقوده الوهم ، وضعف الحكومة يمدده ، والرغائب الخرقاء تساعده الى أن أودت به وبالبلاد خطيته

« أول ما أخذ به من الاحتياط أن أقام الحرس على بيته وبيوت مشاركيه ليلا ليحموهم من الغيلة المبتدلة في أرض مصر ، علمته حادثة قصر النيل كيف يلاقي

ما قد يوجه اليه من سلطان الحكومة فلجأ الى ضم القوة العسكرية اليه واخلاء الوظائف الجندية من كل من حدثته نفسه بالريب فيه ، وسلك في ذلك مسالك علمت صفار الضباط بل العساكر أنفسهم كيف يخرجون عن النظام الضابط لهم ، وكيف يتدخلون فيما ليس من شأنهم ان يتدخلوا فيه كما ستراه فيما بعد .

ثم بين الاستاذ ما طلبه عرابي باشا لاسمالة الضباط والعسكر اليه ومنه زيادة روايتهم زيادة كبيرة وصدور أمر عال بتشكيل لجنة مؤلفة من عشرين اميراً من كبار الضباط هو احدهم للبحث في انظمة العسكرية والمدارس الحربية وترقية الضباط وتسوية احوال المستودعين ، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق النظام بجعل ناظر الحربية هو الذي يعرض ذلك على الحكومة بل كانت المرائض تكتب في بيته او بيت احد شركائه « ثم ترسل الى الالايات ليختم عليها الضباط صفاراً وكباراً وبعض الصف ضباط ثم تقدم من قبل ضابط ألاي إلى نظارة الجهادية أو الى رياسة مجلس النظار — فالينظر بم كان يشغل الضباط والعساكر وفيهم بصرفون أوقاتهم ؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم في الاعمال العسكرية ويتولد فيهم حب التناول الى ما هو خارج عن الحق التحول لهم بمقتضى القانون وعوائد النظام »

ثم ذكر أن محمود سامي باشا أراد أن يتخذ سرور الضباط باعلاء مرتباتهم وسائر مامنحوه وسيلة لازالة ما وقر في انفسهم من معاداة الحكومة لهم ، وما يحجوك في صدر الحكومة من الريب في مساكنهم ، فاحتفل لتلك المنحة احتفالاً باهراً في نظارة الحربية بقصر النيل دعا اليه النظار والمراقبين وأمراء العسكرية وخطب على المائدة خطبة فيما نالته البلاد من الاصلاح ونسب ذلك إلى همة الخديو وإخلاصه ، وصدق عزيمة رياض باشا ووجدده ، وسائر النظار ورجال الحكومة ، وبين ان هذه النعمة لا تحفظ إلا بالشكر وهو الطاعة والخضوع للاوامر . ثم خطب رياض باشا فيين الفرق بين الحالة الحاضرة وما قبلها وخطب الضباط فذكر لهم ما نالوه وذكرهم بوظائفهم من حيث هم قوة الحاكم وآلته في تنفيذ أوامره ، وقام بعدهما عرابي فصدق ما قال وقال بالسان الجند والضباط انهم مقيدون على طاعة الحاكم الذي هو مصدر هذا التقدم وانهم آله

للنفذة في قبضة يده يديرها كيف شاء^{١)} — ثم قال الاستاذ
« كل مطلع على ما قيل في ذلك الاحتفال يجد منه ان الحكومة كانت تريد
أن تقنع الضباط بوجوب الطاعة ، وان عرابي كان يعدها بذلك بنفسه وبانباية عنهم ،
وهو دليل على أن القلق كان لم يزل مستمراً الى ذلك الوقت ، أي ما بعد حادثة
قصر النيل بنحو ثلاثة أشهر ، وقد كان يؤخذ من حالة عرابي عند ما كان يجب
رياض باشا ومحمود سامي باشا انه كان ينطق بخلاف ما يصر ، وان حجاب
الطمانينة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب

مسلك الخديو وحاشيته مع الضباط

« قلنا إن الجناب الخديو أصبح بعد حادثة قصر النيل يطلب الخلاص من
أولئك الضباط وسطوتهم النافذة في جيشه ، فشق ذلك وأخذ يدبر الوسائل لكن
لا مع وزرائه والمسؤولين عن الأمن في حكومته ، بل مع حاشيته وبيض رجال
معيته ومن كان يختصهم من خدمه — ذلك مهيب البلاء على كل حاكم ، ومنبع الشقاء لكل
أمير : أن يتخذ لنفسه عمالا في الخفية غير الذين أقامهم على الاعمال في الجهر . نعم
للحاكم بل عليه أن يستشير كل من يراه أدلا لان يشير متى وثق من عقله ، واتضح
له حسن السابقة في أعماله ، ولكن من المفروض عليه أن يكشف بذلك رجال
حكومته الذين أتى عليهم مقاليد أموره وفوض اليهم تدبير شؤونه في رعاياه ،
فاذا أقروه على امل بما أشير به عليه ورآه حسنا مضوا فيه بالاتفاق والابتدوه أو
ادخروه لوقت آخر ، أو عزل من لم ير رأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ
أوامره المنطبقة على مصلحة البلاد ، بعد التروي في جميع ذلك والثقة بسلامة العاقبة
فإن اختلس لنفسه شيئاً من التدبير بانفراده مع بعض خاصته على غير علم من ملكهم ،
زمام الامر من الحكومة تباينت المسالك ، واختلفت الغاية ، وفسد بذلك نظام الاعمال ،
وسقطت البلاد في الفوضى وهجرتها العمانينة ، وتولاها القلق وظهر ضعف الحاكم ، وباد
سلطانه — عواقب قضت بها السنة الالهية على كل أمة تضاربت فيها اتقوى
وتخالفت النيات ، واستبدل كل من الوازعين فيها برأيه ، ومضى على ماترينه له نفسه ،

« لم يأخذ المرحوم الخديو السابق بذلك الاصل الذي وضعه الله نظاما لكل حكومة، بل أخذ يعمل مع بعض خاصته للوصول الى ماهمه من التخلص من سلطة الضباط في الجنود الذين تحت أمرتهم، فبدأ بعبدالعال ظنا منه انه كان أجراًهم وأشدهم نفوذاً في عساكره، وأفضى بسره في ذلك الوقت الى يوسف باشا كمال وكان ناظر دائرته الخاصة، فأخذ يوسف باشا على عهده موافاة إرادة مولاه

« استخلص يوسف باشا من صف ضباط ألاي السودان باشا جوايشاً شر كسيا ودعاها الى بيته في أوائل شهر مارس سنة ١٨٨١ وأكرمه وكلفه أن يلوي العساكر والصف ضباط عن طاعة ضباطهم فيما يأمر ونهيم به اذا سيروهم الى حادثة مثل حادثة قصر النيل، وأن يقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيراً، فاذا صدر الأمر بنقل أمير ألايهم أو غيره من كبار الضباط الى ألاي آخر فعليهم أن لا يعارضوا في ذلك وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم. فذهب الاحمق وكتب عريضة ضمنها ان العساكر والصف ضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم، واذا نقل أي واحد منهم الى أية جهة فلا يعارضون أمراً من الاوامر التي تصدر بذلك، وطلب من افراد الجند ان يجتمعوا عليها قائلوا انها عريضة طلب فيها زيادة المرتبات لهم فحتم الكثير منهم عليها لانه لا علم لهم بالقراءة والكتابة، وقد ألفوا تلك العادة التي عودهم عليها رؤساؤهم من ان المطالب التي يطالبها الجند من الحكومة تكتب بها عرائض ويطلب من الضباط أو العساكر إيقاع الاختام عليها، غير أن أمين أحد البلوكات اطاع على العريضة فأخبر بها اليوزباشى سليم افندي الزيدي، وسلها اليه وهو سلمها الى عبدالعال، فقدمها عبدالعال الى نظارة الجهادية. فأوصلها الناظر الى الجناب الخديوي فامر بالتحقيق لاظهار منشأ هذا الفساد فصرح الباشا جوايش بأن يوسف باشا كمال هو الذي أمره فصدر أمر الجناب العالي بفضله من نظارة الدائرة الخاصة ظناً منه ان ذلك ينفي الشبهة في ان لجنايه يداً في الحادثة، ولكن الضباط كانوا على يقين تام من ان ناظر الدائرة الخاصة لم يعمل عملاً إلا بارادة مولاه، ويقال ان عزل يوسف باشا كان بناء على طلب عبد العال ومساعدة عرابي له « قال بعض كتاب الحوادث في تلك الاوقات ان العريضة كانت تحتوي على

التماس العساكر والصف ضباط أن يعفو الجناب العالي عنهم فيما أتوه من السير إلى ميدان عابدين يوم واقعة قصر النيل، وإن ما فعلوا من ذلك إنما كان باغراء ضباطهم لهم، ولكن ذلك تأويل للحادثة بما لا ينطبق على الحقيقة، على أنه ظاهر السخافة، فإن الجناب الخديو قد أصدر أمر عفوهم عما وقع في تلك الحادثة عن جميع العساكر والضباط وانتهى الأمر فيها، ولم يكن يخطر بالبال أن أحداً سيؤاخذ على ما فعل ولم يحدث من جانب الحكومة ما يوجب الريب في ذلك حتى ياتمس العفو، بل كانت الظواهر جميعها متضادة عن أن الرضاء من جانب الحكومة على الجنود رؤسائه تام عام « وفي أوائل شهر إبريل سنة ٨١ حدثت حادثة أخرى، وذلك أن رجلاً يسمى فرج بيك الزين من أمراء الأليات المستودعين كان يسكن في طره بجوار مركز الألي السوداني، وكان من خدم جناب الخديو السابق رجل يسمى إبراهيم أغا التوتنجي فكان من رأي إبراهيم أغا أن يأتي الخلاف بين العساكر وبين أمير الألي عبدالمعال بواسطة فرج بك الزيني، فاتفق معه على الأمر، وكان لفرج بك صهر يساكنه في بيت واحد فاتخذ آلة لتنفيذ ما يريد، فتمرف إلى شوايش يسمى عبدالخير فدعاه إلى فرج بك فأكرمه وطلب منه أن يكتم من التردد عليه هو وإخوانه فذهب عبدالخير وأخبر البكباشي خضر خضر بما وقع له فسمح له بالتردد وأمره أن يخبره بما يكون ففعل، واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صفار ضباط السودان في ليلة من ليالي شهر إبريل سنة ٨١ فأبلغهم فرج بك سلام جناب الخديو وإن جنابه يريد أن يؤمر عليهم أميراً سودانياً منهم (وهو فرج بك) وأنه متى صار الأمير منهم رقى الباشجاو يش إلى بكباشي، والجوايش إلى قول أغاسي، والأونباشي إلى ملازم، ولا يتم ذلك إلا أن تعملوا على ما أشير عليكم به وموعداً للكلام في ذلك الليلة الآتية بعد العشاء على شاطئ البحر، فاتفقوا ذلك منه بالقبول وانصرف عبد الخير وأفضى بالأمر إلى خضر خضر فأذن له بموافاة الموعد، ومتى ظهر لهم من كلامه ما يشير إلى الفتنة فعليهم أن يحضروه إليه، ثم اجتمعوا في الموعد في مزرعة قح على مقربة من البحر فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضباطهم شكاية من تصرفهم إلى الحضرة الخديوية ليبنى عليها ذلك التمييز، فعند ما سمعوا ذلك قام

واحد منهم وقال هذا لا يريد بنا خيراً وعلينا أن نكرهه على الوقوف بين يدي ضباطنا في الحال، فاتفقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبى فاحتمله عبد الخير وساعده اخوانه حتى أحضروه عند خضر خضر، فكتب الواقعة بالتفصيل إلى أمير الألاي فحضر وطلب محاكمة فرج الزيني فوكم وظهرت معه رسائل من ابراهيم أغا تدل على انه مصدر هذا الشعب، وحكم على فرج بيك بانزاله عن رتبة التماثم إلى رتبة البكباشي وبنفيه إلى السودان، فعفا عنه الجناب الخديوي وأرسله إلى السودان موظفاً في وظيفة تليق به

تأثير دسائس الحاشية الخديوية في عرابي

« قدمنا أن سلطان الخوف ملك قلب عرابي بعد حادثة قصر النيل، ودخوله في يمين الأمان مع علي فهني لم يخفف شيئاً من قلقه، وقد زاد في اضطرابه تكرر هذه الحوادث والوقوف على مصادرها وان خاصة الجناب العالي هم العاملون فيها وهم لا يصدرون إلا عن رأيه السامي، فأيقن ان العفو اصادر والمين السابقة لم يكونا إلا ألفاظاً قصد بها الهأؤه والهاء اخوانه عما يراد بهم، وأن الانتقام على مصادره منهم ضربة لازب، وأن جميع ما اتخذ من وسائل جناب الجند اليه، وجمع كتبهم عليه، لا يحميه من القبلة، ولا يؤمنه من السقوط في فخاخ الحيلة

« لهذا أخذ يتقي الجيش من كبار اضباط الذين لا يثق بهم ويخشى أن يكونوا عوناً على تدبير كيد يكاد به، فأوحى إلى ضباط الأي العباسية (الأبي عرابي) أن يخالفوا أوامر البكباشي (أنفي افندي يوسف) وأن يهينوه اذا عرضت الفرصة فتجاوزوا الحد في سوء المعاملة معه إلى أن كلفوه يوماً بتقديم استعفائه فأبى، ودافع عنه يوزباشي يسمى خليل افندي علي، وانتهى الامر إلى عرابي فالزم البكباشي بان يستعفي وحوكم اليوزباشي فحكم عليه بالسجن مكبلاً بالحديد، ثم استودع مع اقتضاء عليه بان لا يعود إلى الخدمة العسكرية أبداً، وكذلك أشار إلى ضباط الأي القلعة فطلبوا إلى النظارة عزل أميرهم حمد بك صدقي فعزل وعين بدله ابراهيم بك حيدر، وكذلك فعل ضباط الأي الخاوية فعزل حاكم الأي الحسين بك وعين بدله اسماعيل بك صبري، وحصل كثير مما يماثل ذلك ولا فائدة في الاطالة بذكره»

« أفراد الجند كثير، وعدد الضباط عديد، وقوة الجناب الخديوي أعلى من قوة عرابي، وليس في الامكان لضابط مثله أو لأعظم منه أن يملك مفاتيح القلوب ومغاليقها في جند مثل هذا مها قل عدده، خصوصاً بعد أن ألف أفراده وضباطه مناوأة أرباب الامرة فيهم، وعرفوا في انفسهم القدرة على رفع التقارير بالشكوى عنهم بحق وبغير حق، وبعد أن ذاقوا لذة النجاح فيما يسمعون اليه من ذلك، فمن الممكن القريب أن الحضرة الخديوية أو الحكومة نفسها توجي إلى بعض أرباب الكلمة النافذة من الضباط العظام بل الى بعض أفراد الجند أن يوقع بعرابي وصاحبيه وأن يأخذهم في مأمنهم على غرة منهم، فإن لم يكن ذلك بازهاق الارواح كان بافساد القلوب عليهم وهم لا يشعرون، ولو اتفق الجناب العالي مع حكومته على ذلك لتم لها ما أراداء ولكن كان القضاء وسوء التدبير يسوقان البلاد إلى ماصارت اليه

طلب عرابي مجلس نواب وسببه

« تلك المخاوف استلقت عرابي الى أن يخرج من حوله وقوته الشخصيتين وأن يلتمس قوة تعلو سلطته وسلطة الحكومة معاً ولها من الشأن في مراقبة أعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على ما يصدر منها خارجاً عن الدستور أو مخالفاً للعدل مما تخشى عواقبه وتتقي مصايره، وكان يطالع في الجرائد وفي بعض الكتب المترجمة من اللغات الاوربية ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك اوربا أن مجالس النواب في تلك الممالك هي القائمة بحفظ اصول النظام، وهي القاضية على كل حاكم بالتزام حدوده، وبها محي الاستبداد في الارواح والاموال، وحفظت الحرية الشخصية في الاعمال، ولعب بعقله هذا الخيال، وظن انه لو كانت في البلاد تلك القوة النيابية، ولو أن حكومتها كانت حكومة شوروية، لكانت الشورى أو مجالس النواب عاصمات لحياته، حافظا لحقوقه في وظائفه، ومأمناً يلجأ اليه، إذا حوم طائر الانتقام عليه، ولم يعلم أنه لو كانت في مصر حكومة دستورية يقضي فيها القانون ولا يستبد فيها الرأي لأخذ عرابي ومن معه أشد المؤاخذة، ولقضي عليهم مجزاء ما هتكوا من حرمة القانون، وما أدخلوا في الجند من الميل إلى الفوضى والاستهانة بالسلطة العليا»

وانما الذي استبقى حياتهم بعد ما فعلوا تلك الافاعيل هو ضعف سلطة القانون وعجزها عن إيقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه ، وميل صاحب الرأي الاعلى في الحكومة الى تلافي الامر بما ظنه أسد وأنجح مما حده النظام ، ولو كان ذلك الحاكم مقيداً بدستور أو بآراء نواب امته لامتنع عليه ان يذهب الى ما ذهب اليه ، ولقامت الامة بلسان نوابها تطالبه أن يحل اشد العقوبة على من اعتدى على حدود ما شرعته لجندها ، ولكانت قوة الامة قد قضت على قوة الجيش وأبادتها لو خالقتها ، لكن تلك معارف تملو أن يتناول اليها فكر كفكر عرابي ومن كان معه ، وغاية ماتوهم ان مجلس النواب هو من ابناء البلاد وهم لا يسمحون بأن يقتل واحد منهم او يعزل من وظيفته وإن تعدى حدود كل نظام ما دام يطلب طلباً يظنه هو عادلا . لهذا اراد أن يستعمل ما بيده من السلطة على الجيش في المطالبة بانشاء مجلس نواب يكون له من الحقوق ما للمجالس النيابات في اوربا ، ثم تخيل انه اذا أنشئ . هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنبيوهم فضل من كان السبب في تشكيله فيهتمون بالمحافظة على حياته وعلى نفوذه بما يستطيعون ، بل وثق بانه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم الى الغاية التي يريدونها منهم . ولم يخطر بباله انه إذا فعل ذلك فقد سقط بالقوة التي ياجأ اليها الى هاوية العدم ، فانه إذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بامرها ، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها ، وإذا قهرها على أمر فقد مهد السبيل لمن هو أعلى منه سلطانا في نظر الامة أن يكرها على عكسه فتقلب عليه بعد ان كانت له ، واذا كان المجلس تحت سيطرة الجند فما الفائدة من إنشائه مع وجود الجند ، فاستغن عنه بالقوة العسكرية ولتكن هي الملجأ دونه ، فكيف يتصور أن يطلب تشكيله ليكون واقياً مما لم يقو الجند على الوقاية منه ؟

« هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابي تمثلت له جنائته في صور أحوال فاعرة الافواه محددة الانياب ، ولزمه خيالها في يقظته ومنامه ، فهو في فزع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء يراه ، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى إلا سيوفا مسلولة ، أو حبالا منصوبة ، ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة : الخلاص الخلاص الهرب الهرب . ولم يتمثل في مخيلته مهرب اوفى له من

طلب تشكيل مجلس النواب على الصورة التي قدرها له في نفسه
 « وشد أمله في نيل أمنيته ان أغلب أهل الطبقة العليا من الناس ككثير من
 أهل الطبقة الوسطى بهمسون بما يدل على التلق ويشعر بالملل من ادارة رياض باشا
 لأعمال البلاد وسياسته فيها للمآرب التي بينها ، فأخذ يتحسس مافي النفوس ،
 ويتسمع ماتنطق به اللسان ، فوجد ان أمنية تغيير الحال لم تنزل تجول في صدر كل
 واحد ممن كان يتنابه ، ولو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل اليه إلا باستدعاء جناب
 الخديوي السابق اسماعيل باشا أو استحياء اسماعيل باشا صديق لاستسهلوا طلب
 ذلك بعد مذاقوا على عهدهما ماذا قوا ، فقد نسي المناضي واحتمت الشهوة في
 التلصص من الحاضر ، وككة [مجلس النواب] كانت لم تنزل دائرة على الالسنه ، وفي
 وم الكثير ممن نظروا في سير الامم الاوربية ، أن علاج كل داء ينحصر في تحقيق
 معنى هذه الكلمة [تشكيل مجلس نيابي وحكومة شورية] فلما فطرت عرابي وهو
 صاحب النفوذ في الجند بانه يريد انشاء مجلس النواب سمع دوي الاستحسان
 من كل جانب ، وصبقت له الاحشاء بين الجوانح قبل أن تصفوله الايدي ، فاشتد
 بذلك عزمه وازداد طمعه ، وخيل له أن الامه ستكون سنده

« ولعله أن علاقة مصر بالدولة العثمانية قد لاتسمح له أن يجاهر بايجاد شكل
 في الحكومة المصرية ليس معروفا عند السلطان العثماني بدأ بتحزير عريضة أمضاها
 هو وعدد كبير من الضباط ختمها بانشكوى من استبداد الحكم في الاقطار
 المصرية وأن ذلك الاستبداد قد أضصف الامل في الامن على الانفس والارواح
 كما عاد بالقوة على نفوذ الاجانب حتى أصبحت مصالح البلاد في أيديهم وتحت
 تصرفهم وكاد اسم [الدولة العثمانية] ينسى ، وأشرفت علاقتها بمصر على الاندثار
 والانهيار . فورد له الجواب من بعض رجال [المايين] يحمل اليه تحية الخليفة
 العثماني ويحكي له أقاصيص رضاه السامي عن كل مايجري في مصر لمقاومة نفوذ
 الاجانب في ادارتها ومصلحتها

« أخذ عرابي بعد ذلك يجهز بطلبه هذا وخاطب رياض باشا في شأنه فإباه
 عليه ، فأخذ يخلط بعض العلماء ويكشفهم بمقصده من ثم النفوذ الاجنبي ورد ما
 (٢٧ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

سلبته أيدي الاجانب إلى أربابه ، وفي أثناء ذلك كان يصور لهم السلطنة الاجنبية الحاضرة إذ ذلك كأنها نسر حوم في جوها لاختيار خير الفرائس لينقض عليها ، ثم اختار من بينها الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب مخالفه فيها ، وانه لو دامت سياسة رياض باشا في منهجها لقضي على الدين وسننه ، وفي خلال هذا كان يزين لكل ذي شهوة منهم ماتميل اليه نفسه ويمنيه بنيله اذا تغيرت هيئة الحكومة الحاضرة ، فوجد من [حضرات المشايخ] وهم على ما نهدهم من السذاجة والبعد عن معتك السياسات اصغاء لقوله وتأييداً لرأيه ، وكذلك كان يخاطب بعض الاعيان ومشايخ العربان ويقرر لكل من لاقاه أن لا سبيل لمبتغاه الا بتأييده في طلب مجلس النواب فيجد ذهاناً مقتنعة ، وارادات مستسلمة ، وذلك لان القوة في يده ولان نفوسهم تظن منتهى راحتها في التغيير على أي صورة جاء

« استحثه الحرص على إدراك المطلب أن يفضي به الى ضباط الجيش وأن يثير في أحلامهم الضعيفة تماثيل الاماني من العزة والسلطان ، والصعود إلى أعلى مراقب الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لا ينال الا بمجلس النواب ، ولم يكفه أن يكون ذلك مطاباً لهم يشتهونه ويساعدون عليه عند القيام للالزام به ، ولكنه كان يطلب الى بعض الضباط أن يكتبوا به عرائض يبينون فيها ضرورة انشاء المجلس وانما يقام الدليل على تلك الضرورة بالظن في هيئة الحكومة وبيان عدم كفايتها في كفالة الامن على النفس والاموال والاعراض ، وبينما هو في ذلك إذ أحس الجناب الخديوي بسماعه وعرفه بعض حاشية جنابه الكريم ، وبعد قليل ظهرت مسألة تسمى [مسألة التسعة عشر ضابطاً]

مسألة ١٩١ ضابطاً

« كتب البكباشي عبد الله افندي الكردي تقريراً أمضاه هو وضابط [قول أناسي] وستة عشر من اليوزباشية وملازمان وقدمه الى ناظر الجهادية ومحصل ما فيه الشكوى من تصرف عرابي ومخالفته وتعديهم حدود القانون واشتغالهم ببيت الدسائس بين ضباط الجيش وحماتهم على تقديم عرائض للجناب العالي يطلبون فيها فصل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس اللامة وزيادة عدد الجيش والتصديق

على القانون الجديد، وان عرابي قد صرح لهم بما معناه «ان القوة في يدنا، والبقاء والاعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ولا مندوحة للخديو عن اجابة طلبنا، فان لم يفعل خلعناه واقنا حكومة جمهورية مستقلة» فلما وقف الناظر على ما في التقرير أمر بتشكيل مجلس عسكري لتحقيق ما زعمه الضباط فقالوا انهم لم يكتبوا الا ما سمعوا وزادوا على ذلك ان في الجيش كثيراً من النظم والخصائص وطلبوا تحقيقها، ثم قدمت إلى المجلس العسكري تقارير من ضباط الالايات تنسب فيها تهم كثيرة إلى هؤلاء الضباط الواقفين موقف المحاصصة مع عرابي وجماعته، وانتهت المحكمة باثبات انهم كانوا مدفوعين من ابراهيم أغا التنجي على كتابة ذلك التقرير فحكم عليهم بمقوبات شديدة قابلها الجناب الخديو بعفو الكريم غير انهم فصلوا من الجند « وفي أثناء هذا الاضطراب كان محمد سامي ورياض باشا خطبان فيما يجب على الجند ان يؤدوه للحكومة وعرابي يجيها بتسديق ما قالوا وينادي بان الجيش آلة الحكومة المنفذة: كلا الطرفين خادع مخدوع :

« في حوالى تلك الايام كان قيام ضباط الألاي الرابع (الاي عرابي) لطلب انفصال (ألني بك) البكباشي لانه المانع للألاي من الالايين الآخرين يوم حادثة قصر النيل فعملوه على الاستعفاء فاستغفى وأحيل على الاستيداع وكذلك فعل ضباط الألي القلمة في طلب عزل أميرهم محمد بيك صديق فعزل وعين بدله ابراهيم بيك حيدر، وتبعهم ضباط الألي (الطبجية) في طلب فصل قائدهم حسين بك ففصل وعين بدله اسماعيل بيك صبري — كل ذلك ليستوثق عرابي لنفسه ولياً من على ان القوة الجندية باسرها معه

« على ان ذلك لم يثر عزيمة المحصلين من حاشية الجناب العالي فقد قيل ان بقية مما ترك جناب الخديو السابق اسماعيل باشا من الجوارى السود كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم فاخذوا يزوجهن ببعض المساكرو والضباط من الألي السودان، وكان أغوات سراي الاسماعيلية يدعون أولئك المساكرو بمنحون الواحد منهم نقوداً لاتعطى عادة لامثالهم بحجة ان ذلك مساعدة لهم على معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراي ولكن المساكرو كانوا يقولون لضباطهم ان الاغوات يعرفونهم

بقتل رؤسائهم فيهبج غضب الضباط وتضعفت قوتهم في الامن على أنفسهم ويشدد الرعب في قلب عربي ومن معه وسواء صح قول العساكر أو لم يصح فآثره في ازدياد القلق والاضطراب لا ريبه فيه والاشاعات التي تتولد عنه لاتقل قيمتها عن الحقائق الثابتة وإنما وقود الفتن ما يقال لا ما يفعل

« في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ حدث أن عجلة (عربة) لاحد تجار الاسكندرية يقودها قائد أوربي كانت تمر في الشارع المؤدي الى سراي رأس التين فصدمت جنديا من عساكر الطبجية فقتلته فاجتمع ربه قه على ان يحملوه الى السراي حيث يقيم الجناب الخديو ويلتمسوا منه الاهتمام بمقابلة الجاني فحاوله مخالفين في ذلك رؤساءهم وساروا به في ضجة وولولة، وصاحوا بطلب الانتقام من القاتل، فكبر الامر على الخديو ورآه تطاولا مخذلا لآداب الجندية - وله الحق فيمارة - فامر العساكر بالانصراف فانصرفوا ظانين ان شكواهم قد قبلت، وبعد ايام صدر الامر بتشكيل مجلس حربي لمحاكمتهم وحوكموا وصدر الحكم على الجندي الذي بدأ بدعوة رفاقه الى الاشتراك في حمل الميت الى السراي بالاشغال الشاقة مدمية الحياة وحكم على رفاقه وهم ثمانية بالاشغال الشاقة مدة ثلاث سنوات، وبان يقضوا مدة العقوبة في السودان ثم يكونوا بعد ذلك من أفراد الجند في الاقطار السودانية. ثم قدم الحكم الى ناظر الجهادية فرفعه الى الجناب الخديو فامر بانفاذه وسيق المذنبون الى السويس ومنها الى سواكن ثم الى داخل البلاد السودانية

« بعد هذا كتب عبد المال حلي أمير الفرقة السودانية تقريراً طويلاً يشكو فيه ما أصاب هؤلاء العساكر من قسوة الحكم ويبين قلقه من الحوادث التي تجري في ألابه والفتن التي لاتنقطع ولاتجف ينابيعها واطهر استغرابه لشدة الحكم في حادثة مثل هذه مع مقابلة الجانبين بالعنف فيما هو أعظم منها واهم كحادثة فرج الزيني وغيرها)

« قدم التقرير الى ناظر الجهادية، رفعه الناظر الى الحضرة الخديوية، اشتد كدر الخديو لذلك وعده جرمًا لا يقل عما اجترمه حاملوا القتل وملتسو عقوبة القاتل، فاستدعى النظائر من القاهرة بالتلغراف فاجتمعوا في حضرته وتداولوا في الامر

وقرر (أي جنابه) وواقفه الاغلب من رجال النظارة على أن بقاء محمود سامي في نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابي ومن معه هو منشا هذه الفوضوية، وأن لا سبيل لايقاف سير هذا الداء ورد المتطاوين على السلطة العليا إلى الحد الذي رسمته لموظفاتهم الا عزل محمود سامي ، فقدم استعفاءه قبل في الحال ، وعين [داود باشا يكن] ناظرا للجهادية وأعتب ذلك صدور أمر آخر بمنزل [أحمد باشا الدرهملي] من ضبطية المحروسة وتعيين عبد القادر باشا ماورا لها

« هنا أذكر ما أخبرني به بعض الثقات وهو ان من أسباب ميل الجناب الحديوي إلى استعفاء وزارة رياض باشا انه كان يتهمز فرصة لتعيين داود باشا يكن ناظرا للجهادية لمكان المصاهرة الجديدة، وانه لما لم يتمكن من ذلك في حادثة عابدين لم يزل يتخذ له الوسائل حتى تهيأ له ان يتفماعزم عليه من هذه الحادثة التي لا تمتاز في شيء عما سبقها من أمثالها ، ومع ذلك فقد أظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا وأشيع في الاسكندرية بل وفي القاهرة أنه قدم استعفاءه لتحقيقه من عدم رضی مولاه عنه ، وعلم رياض باشا بعد انصرافه من سراي رأس التين بضجر الحديوي من بقاءه على ما أخبره به بعض الاوربيين ، فرجع اليه وساله في ذلك فاكد له ان لا صحة لما سمعه ، وأنه في المحل الاعلى من رضاه ، فظهر رئيس النظار اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الادلة على ما يخالفه

« من العبث ان يقال ان رياض لم يكن يحس بوجود الحديوي عليه ورغبته في اعتزاله للسلطة ولكن لذة المنصب والشرف بالناسة وثقة دولة الرئيس بنفسه وظنه أن لا صلاح للبلاد الا اذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شؤونها ، كل ذلك كان يقالط احساسه ويدافع وجدانه ، ويلتمس له العذر في البقاء ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه على قوتها، ويقبل به على موهبات الركون اليه على ضعفها، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلاده لانصرف عن مقام السلطة مختاراً قبل أن ينصرف عنها مكرها، فقد كان من المحتمل ان لا تبلغ الفوضى بالبلاد مبلغ ما وصلت اليه، أو لم يضطر الضباط الى حشد الجنود في ساحة عابدين لا كراهه على التنازل عن رئاسة النظار

«أراد داود باشا أن يقوم ما اعوج من النظام او يرمم ما تقوض منه فأخذ يصدر الاوامر الشديدة إلى الالايات يلزم بها أمراءها وضباطها كافة بأن لا يفارقوا مراكزهم العسكرية، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع في المنازل، والتردد على المحافل، ويظالبهم بابقاء الاعمال العسكرية حقها من الدقة، وأمر بإنشاء مكاتب في مراكز الالايات لتعليم القوانين العسكرية ظناً منه بأن ذلك يذكر الضباط والعساكر بأحكام النظام فيقبلوا على طاعته، وتأخذهم الرهبة من مخالفتها، وكان يذهب بنفسه إلى ثكنات العسكرية ليلاً ونهاراً ليراقب تنفيذ تلك الاوامر. واهتم سعادة مأمور الضبطية بمعرفة حركات ضباط الجيش خصوصاً الرؤساء منهم وهم عبد العال وعرابي واحمد عبدالغفار ليخبر ناظر الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة، فأرسل العميون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط ولم يخف شي، من ذلك على عرابي ورفقائه

القوة التي اعتمد عليها ناظر الجهادية ومأمور الضبطية

«ما القوة التي كان يستند إليها ناظر الجهادية في إصدار اوامره ومأمور الضبطية في بث جواسيسه؟ هي القوة التي يشير إليها اسم الوظيفة (ناظر جهادية . مأمور ضببية) وهي من القوى المعنوية التي لا يظفر أثرها إلا بعد اليقين بأن قوة الجند من ورائها عند التواء الامور عليها، كسائر الوظائف في الحكومة لا تخضع الأُنس للقائمين عليها، إلا ومثال القوة القاهرة منتصب أمامها، وماتلك القوة القاهرة إذا لم تكن سلاح الجند؟ فإن كان الجند وهو حفاظ الوظائف في كل حكومة خصماً لها أصيبت بالشلل كما يصاب به المخ تمزقت عنه عظام الجحمة . غفل كل من ناظر الجهادية ومأمور الضببية عن هذا الاصل المعروف عند الامم كافة، وظننا ان اسم الوظيفة له من السلطان في إنفاذ الاوامر ما يغلب قوة الجيش ويحمد نيران مدافعه وبنادقه، وربما صار هذا السهو منهما مثالا حذا حذوه كثير من السذج في مصر فيما خر من الزمان . نعم قد لا يبالي بقوة الجيش متى استعصى على النظام إذا قامت الامة بأسرها للمحاربة عن دستورها، وهمت بمعالجة جسمها بقطع ما فسد من أعضائها واستعاض الحاكم بقوة الرعية عن قوة بعض أفرادها (وهم الجند) وأخذ لذلك من

الوسائل ماهو أشد أثراً من كتابة المنشورات ، ونشر الوريقات ، ووسوسة الجواسيس ، وحشد الاخبار يترام كاذبها على صادقها ، ويقلب باطلها على صحيحها ، يكافح بذلك حشد الجيوش وصلصلة السلاح

« لكن الأمة كانت لاتزال في النقاها من مرض التفرق وشلل الارادة (وأرجو أن تكون اليوم قاربت الشفاء) فهي ان حكمت على متعرد فانما تحكم أفذاذاً ، كل يصدر حكمه لصديقه همسا يرجو أن لا يسمعه ثالث ، وقديماغ الاغلب فلا يقضي قضاءه الا في نفسه ، وإن جهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين إلا مجرد استحسان ، قد لا ينطق به لسان ، وإن نطق كان على طريقة القائل : فربما اجتمعت أصوات ، وعات ضوضاء ، ولكن كل في مكانه لا تتحرك قدماء ، ولا تمتد يداها ، وأول صحيحة من مدفع نخرس لها جميع الاسن وتخفت جميع الاصوات ، ويتبدل الزئير بالانين . ذلك شأن كل أمة لم تقوم نفوسها بالثريبة السليمة . ولم تتقف عقولها بالمعارف الصحيحة ، ولم يبلغ بها حب وحدتها الملية أو الشعبية الى حد أن يسهل عليها بذل المال والروح في سبيل صيانتها . كل أمة تفرق المطامع بين أفرادها ، ويصرف كل منهم شأنه عن شأن مجموعها . ويلهبها العاجل عن الآجل . ويذهب بها الحاضر عن المستقبل . فلا سبيل الاعتماد عليها في دفع غائل ، ولا في مقاومة صائل ، وعلى ولي أمرها أن يتدبىء فيها قبل كل عمل تهديدها واصلاح طباعها ، حتى تنشأ فيها اثثة بنفسها ، وتملو منزلتها في نظرها ، ويقلب لديها أمر عامتها على أمر خاصتها ، عند ذلك تكون ينبوع سعادته في السلم ، وسياجه المنيع اصمد عدوه في الحرب

« كان الجند طوع عرابي ورفقائه لا تحت طاعة الناظر ولا المأمور ، وكانت الامة على حالها التي ذكرنا طالبة لتغيير الحال كما قدمنا ، فالجند والامة كلاهما كانا في جانب عرابي . أرقام المنشورات وأشباح الجواسيس قامت عند عرابي واخوانه مقام انذار لهم بسوء المصير ، فاشتد جزعهم ، فاستجمعوا كل قواهم لحفظ أرواحهم ومناصبهم . وكانت الليالي ليالي رمضان تكثر فيها الزيارات ، وتديسر الاجتماعات ، وتنتشر الاشاعات ، فازداد عرابي ومشايحوه من الحراس تحفظاً مما عساه يقع من الغيلة ، وواصل اجتماعه مع اخوانه ومع كثير من أعيان القاهرة ، وتابع

رسائله الى بعض من يظنهم على ولائه في الاطراف، وهو في كل ذلك يدعو إلى تشكيل مجلس النواب، لتوهمه انه الوسيلة الباقية لاتقاء شر الحكومة، وكان يتردد في أغلب الاوقات على منزل سلطان باشا ويستمد منه المعونة بالقول والفعل

« سلطان باشا لم يكن من أغبياء الاغنياء في هذه البلاد ، بل كان فيه شيء من الفطنة يزينه الغنى وتعلي قيمته مظاهر الثروة ، كان يفهم ما يقال ، ويرضي السامع اذا قل . ولكن هبات أن يكون له بصير بالعواقب أو علم بمصائر الانقلاب في الحكومات وتغير الاشكال عليها وما يصيب الأمم في مجاري الحوادث من تقدم وتقهقر — أفادته مناصبه السابقة أيام اسماعيل باشا شهرة وعلو صيت — حافظ على مكانته في النفوس ببسطة في الكرم امتاز بها على أمثاله، فكان ينتاب منزله الاعيان والعلماء وأرباب المناصب، وكان يمجذ في نفسه لهذا علواً على أقرانه . كان مثله مثل الكثير من الاعيان في استئصال يد رياض باشا فيما استأثر به من السلطة، وفي استنكار تلك البدع التي جاء بها في وزارته خصوصاً ابطال السلطة الشخصية، والأخذ على يد الاقوياء، أن تطاول الى استخدام الضعفاء رغم إرادتهم ، ووضع حدود يلزم الاعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها في علاقتهم مع غيرهم فكان من يألم لهذه القيود ويعدها من الضربات التي أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه .

توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول الى مقام تعلق فيه كتمته على كلمة مثل رياض باشا، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصي فيمن دونه من عامة أهل بلاده، عند ما لاحته بوارق الثورة ولمع في عينه شرر الفتنة — عندما أحس ان عرابي يتلمس العيين على انشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه — ظن وصدق ظنه ان عرابي لا بد أن يصل الى ما يريد يوماً ما فمن الحزم أن يتفق معه في البداية ، ليكون له النصيب الاشراف من الفائدة في النهاية ، فكان أول من مد يده اليه وواتقه على التعاون في طلب مجلس الشورى، وأخذ سلطان باشا يستنزل بعض أعيان الوجه القبلي والبحري في رأيه ويحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب الى رياض باشا ويأج عاياه في الطلب أن يستصدر من الجناب الخديوي أمراً باستدعاء مجلس النواب ونحويله حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في

حقوقه حتى يكون كجالس النيابات في أوروبا ، ثم يكون ذلك دستوراً للبلاد تمضي عليه حكومتها ، فانصاع له بعض وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ، ولم من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فانقلب إلى عراقي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحري والقبلي وعلماءه على تعضيد طلبه متى انفصل رياض باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة وتوجه إلى المنيا في أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨ وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى

« كنت معروفاً بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشعب العسكري وتسوئته رأيي »
 طالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه وبذلك الوسائل الحق ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحياناً فأري من لدن الباب عراقي وبعض رفقائه جالسين معه ورؤسهم بادية من النوافذ ، فاذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمي أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا . مرت بيت (طلبة) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ورأيت بعضاً من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت ، فدخلت للزيارة فوجدت عراقي وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية (ل بيكس) وكان من الناقمين على الوزارة لأمر لا يستحق الذكر ، فجلست واستمر الحديث في وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وان لا سبيل للامن على الأرواح والاموال إلا بتحويل الحكومة الى مقيدة دستورية ، فأخذت طرفاً من البحث ، فأقننا على الجدال ثلاث ساعات كان عراقي والاستاذ من طرف ، والكتاب من طرف ، هما يقولان : ان الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شوروية ، والكتاب يقول : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم (بعض سنين) ، وان نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وان نبدأ برغبتها في استشارة الاهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من اللائق أن نفاجى البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناسي ، قبل بلوغ سن الرشد يفسد : المال ويفضي إلى الهلكة ، وختمت قولي بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة لان تشارك الحكومة في إدارة شؤونها

(٢٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

فقلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع، فلو تم للجند ما يسعى إليه ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعي فلا يلبث أن يتهدم ويزول، وأرى أن هذا الشعب قد يجر إلى البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسيبيه إلى يوم القيامة، فتبسم (عرابي) ابتسام الساخط وقال: أبذل جهدي في أن لا أكون مورد هذه اللعنة، وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب وإنما هو مؤيد لطلب الأعيان ووجوه البلاد. فسألته: وعلى من تعتمد؟ ومن أخذت الميثاق على ذلك؟ فهمس إلي بصوت لا يسمعه إلا ثالثنا: أن سلطان باشا قد عاهدني على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا، ثم انصرفنا «بعد أن استوثق عرابي لنفسه من سلطان باشا وأيقن بما وعده أن أهالي البلاد وأرباب الكلمة فيها سيكونون معه، وبذلك يتحول عمله من عصيان غير مشروع إلى طاعة للأمة غير ممنوعة. فقد تخيل أن يضع نفسه ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة، كأن الأمة هي التي استعملتهم، فالثورة ثورة الأمة لا ثورة الجند، وكل ما أتى به الأمة في سبيل حريتها وتقوم ما اعوج من حكومتها لا يصادف منكرًا ولا يستوجب عقاباً. هذا هو الحجاب الممزق الذي كان يسدله على أعين الناظرين إليه، والحجة الساقطة التي يقيمها للناقدين عليه، وبعد أن استحکم هذا الخيال من نفسه أخذ يترقب الفرصة لجمع رجاله لالزام رياض باشا بتقديم استعفائه، وكان يصل ليله بنهاره في التفكير والتدبير والمشاورة مع إخوانه، وكلما عقدوا عزماً على شيء عرض لهم ما يتقضه

« كل ذلك والجناب الخديوي بالاسكندرية وهم ينتظرون عودته، وكان يزيد قلقهم ما كان يبلغهم من أن الجناب الخديوي استمال الأي الحرس وأميره علي فهمي وعاهده على أن يكون قوة تقضي على من يخالف الأوامر من بقية الالايات، وقد كانت الأشاعات في ذلك لا تخلو من صحة، فقد أخبرني المرحوم علي باشا مبارك يوم مجيئه من الاسكندرية في مية الجناب العالي أن اقتراق الأي الحرس عن بقية الالايات واستعداده لتنفيذ ما يصدر إليه من الأوامر مما لا ريبه فيه، وأنه عما قليل سيؤخذ في تقرير أمر فاصل تنحسب به هذه الفتنة وتباد به جراثيمها

« عاد الجناب الخديوي من الاسكندرية في أوائل شهر شوال وبعد عودته بإيام تجلى ذلك الامر الفاصل الذي سمعت خبره من علي باشا مبارك ، فاذا هو من غرائب التدابير ، بل من عجائب الالاعيب ، ذلك أن الحضرة الخديوية بعد ان استألت علي فهمي ورجاله وأعدتهم لمغالبة من يستعصي عليها من سواهم ، استألت أيضا أمير الالاي الخامس الذي كان مقبياً في الاسكندرية بجهة [باب شرقي] فأرادت أن ينقل الالاي الثالث الذي كان مقبياً بقاعة المعز بالقاهرة الى الاسكندرية ، وان يؤتى بالالاي الخامس الى مصر بدلا عنه ، وبذلك يكون في مصر الالايين تحت طاعتها ، والله أعلم ما إذا أرادت الحضرة الفخيمة بعد ذلك ان تفعل بهذين الالايين بعد استقرارهما في مصر

« هل كان الخديوي يريد أن يصدر أمراً بالقبض على رؤساء الفتنة فاذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الامر بالحرب والقتال بين الطائعين والمعاصين ؟ ما أظن أن ذلك خطر بالبال ، ولو مر ذلك بذهن جنابه لسهل عليه حسم الفتنة ثاني يوم واقعة قصر النيل ، ولكنها هواجس كانت تجول في الازهان ، ثم تصدر عنها حرركات وأعمال لا يدري صاحبها نفسه ما الغاية التي يريد منها ؟

« ولما استحکم اليأس من نفس عرابي وظن ان الخطر حائق به كتب هو وجماعة من الضباط عريضة الى السلطان يشكون فيها من الظلم ويلتمسون ارسال مأمور خاص لتحقيق ما يشكون منه ، وكان ذلك قبل حادثه عابدين بثلاثة أيام

حادثة عابدين

« أصدر ناظر الجهادية أمرين في يوم واحد أحدهما الى ابراهيم بيك حيدر أمير الالاي الثالث الذي كان يقيم في القلعة بالتوجه الى الاسكندرية ، والآخر الى حسين بيك مظهر أمير الالاي الخامس ان ييارح الاسكندرية الى القاهرة ليحل محل الالاي الثالث ، ثم أصدر أمراً الى أمير الالاي الثاني أن يرسل من الضباط من يستلم الحافر من ضباط ألوي القلعة عند سفرهم ، فعند ما وصل الامر الى ابراهيم بيك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم الى عرابي وأخبروه به،

ففرغ لذلك هو ومن معه وهالم الامر وتمثل لهم سوء العقبي، وأيقنوا ان في ذلك القضاء عليهم . فأمر عرابي أولئك الرسل أن ينادوا في ضباط ألاي القلعة بـ عدم التسليم وبالإقامة في مواقعهم وان يمسكوا من يأتي اليهم من الألاي الثاني للاستلام ففعلوا واجتمعت كلمتهم على ذلك . وعند ما حضر ضباط الألاي الثاني كتب محمد أفندي الرملاوي ومحمد أفندي السيد الى عرابي بما حصله ان اربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع الألاي . وأمتعة ابنائكم قدر بطت فاحضروا بنصف الأيكم والأفئتن قائمون . أما النصف الآخر فيبقى تحت قيادة محمد أفندي الزمر الى العصر ثم يحضر عند ذلك كتب عرابي « إلى نظارة الجهادية ينبئها بان جميع الألايات ستكون في ميدان عابدين في نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم وهو يوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٢٩٩ بعد ان كتب الى جميع الألايات ان توافيه في الموعد وكتب إلى الجناب الخديوي يحيطه بذلك علما . والى فواصل الدول يؤكدهم ان الغاية من جبهة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة فيكونوا مطمئنين على أرواح رعاباهم وأموالهم وأعراضهم

« أرسل الجناب الخديوي رضا باشا يسأل عرابي عن السبب في اجتماع المساكين بساحة عابدين فأجاب عرابي أن للجند مطالب يريد انفاذاها . فجاء رضا باشا وعرض الامر على الخديوي فأرسل طه باشا ليطلب إلى عرابي أن يسكن ويرجع عما عزم عليه ويحذره العاقبة . فكان الوقت قد حضر فقام الألاي بمحضرة طه باشا وقام معه ألاي الطبخية . أما الجناب الخديوي فقد توجه بنفسه إلى ألاي الحرس (الألاي الاول) واخذ ينصح الضباط ويذكرهم بأنهم أبناءه وجرسه الخاص وينذرهم بمواقب مثل هذه العصبية العصبية الجاهلية فصاحوا جميعاً : نحن جميعا فداء لولي نعمتنا . فمضى ذلك امر جنابه أمير الألاي أن يوزع المساكين داخل السراي وأن يقيمهم على نوافذها ليقوها من الهاجين عليها . ثم استصحب رياض باشا وذهب الى القاعة . وعند وصوله طلب الضباط وسالم عن الحامل لهم على مخالفة الامر الصادر اليهم فأنكروا المخالفة فالتفت إلى أمير الألاي ابراهيم بيك

حيدر يستفهم منه فأجابه أن [فوده بيك حسن] هو الذي أغرى الضباط بالخلافة ومنعهم من التسليم وكان فوده بيك على القرب من رياض باشا لمجذبه من طوقه وقال له : مثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها ؟ وبينما هم في الكلام اذ ضرب أحد البروجية نوبة [سنكي ديك] فأسرعت العساكر الى تركيب الحراب على البنادق وأحاطوا بالخدوي ورئيس النظار وصاحوا « أطلق البكباشي » فأمر الخديو بتركه وأخذ يخاطبهم : ألسن خديويكم ؟ ألسن ولي أمركم ؟ هل تأخر لاحد منكم راتب ؟ أو نقصت له مؤنة ؟ أو حرم من حقه في ملابس أو نحوه ؟ فلم جهرم بالعصيان وخالفتم أوامري ؟

« فأجابه بقولهم نحن جميعاً مطيعون لاو امر ولي نعمتنا ولكن قيل لنا ان الغاية من الامر بسفرنا هو اغراقنا في البحر عند مرورنا فوق كوبري كفر الزيات فأسف الخديو لذلك وانصرف على ان يذهب الى العباسية لمنع عرابي من المجيء الى ميدان عابدين قبله وهو في الطريق ان الالاي قد سبق إلى ساحة السراي فرجع هو ورياض باشا فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلا من الباب الشرقي

« واول من حضر من الالايات الالاي السواري تحت قيادة احمد عبدالغفار ثم الالاي عرابي والالاي الطوبجية تحت قيادة اسماعيل بك صبري ثم الالاي الثاني تحت قيادة البكباشي لان أميره محمد بيك شوقي أبي أن يحضر معه ، ثم الالاي عبدالعال ، وهو الالاي السودان تحت قيادة امير الالاي ، وفرقة المستحفظين يقودها ابراهيم بيك فوزي واجتمعوا جميعاً في مبتدأ الساعة التاسعة حسبما كتب عرابي « وصل عرابي يقود الالايه ومعه الالاي الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو منتمط جواده شاهر سيفه ويحيط به عشرة من ضباطه شاهري السيوف كحرس له . أبناء بعض الضباط أن علي فهمي قد أدخل عساكره في السراي للدفاع عنها إذا دعت الحال وقد ادخر كمية وافرة مما يحتاج اليه لذلك فتمسدى علي فهمي واشتد في توبيخه ورماه بالخيانة فاعتذر بأنه فعل ما فعل مداراة

منه للخديو وتدييراً لحيلة سياسية، ثم أمر بالنداء في الاي بالانزول فنزلت المساكر جميعاً واصطفت في الساحة مع بقية الجنود

« كانت فواصل الدول ومستشاروا الحكومة ونظارها قد حضروا الى سراي عابدين وعند مارأى عرابي أن الجيش قد اجتمع بأكله ماعدا الأي القاعة فانه بقي في مقره بأمره — أمر باقامة الخفر على أبواب السراي لمنع من يدخل اليها ومن يخرج منها

« أشرف الجناب الخديوي على المساكر وأمر باحضار عرابي فحضر راكباً جواده سالاسيفه محفوظاً بضباط السواري بحر سونه فأمره باغماذ سيفه والنزول الى الارض وابعاد الضباط عنه ففعل ثم أخذ يخاطبه « ألم أك سيدك ومولاك ؟ أأنت الذي رفيتك الى رتبة أمير الأي ؟ »، فيجيبه عرابي « نعم، نعم سألته » لم حضرت بالجند الى هنا ؟ فقال لطلبات عادلة ، وهي عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام (الشيخ الصبامي) فقال الخديو كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها فسكت عرابي ولم يجيب بشيء

« ثم أشار القناصل على الخديو بالرجوع إلى داخل السراي خوفاً مما عساه يعقب هذه المخاطبة مما لا يحمد ، ثم تولى [المستركونفي] المستشار الانكليزي في المراقبة الثانية وقنصلاً انكلترا والنمسا أمر المخابرة مع عرابي في مطالبه ومطالب الجند فقال المستر مالت فنصل انكلترا لمرابي ان عزل الوزارة من خصائص الخديو وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الأمة لا الجند ، ولا ضرورة زيادة عدد الجيش فإن البلاد آمنة مطمئنة وليس في الامم من يريد لها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية فيسكون بمد اطلاع الوزراء عليه ، وأما عزل شيخ الاسلام فقد يحصل بمد يان أسبابه »

« أجاب عرابي يا حضرة القنصل ان ما يتعلق بالاهالي من هذه المطالب لم أنهض اليه الا بالنيابة عنهم فقد أقاموني نائباً عنهم في طلبه وتنفيذه بواسطة هذه

العساكر الذين هم أبناؤهم واخوتهم، واعلم اننا لانفارق هذا المكان ما لم تنفذ جميع تلك الرغائب التي أبديتها

« قل القنصل تصرح بانك تريد الوصول الى ما تطلب بالقوة وهذه هي الهمجية التي تجر الخطر الى بلادك وربما تفضي الى ضياعها . فقال عرابي وكيف ذلك ومن الذي يعارضنا في شؤون داخلتنا ؟ ولئن تهرش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة ولو أدى ذلك الى فئتنا عن آخرنا . فقال مالت وأين تلك القوة التي تكافح بها وتناضل عن بلادك ؟ فقال أستطيع أن احشد في زمن قصير مليوناً من العساكر كلهم يسمعون قولي ويتبعون إشارتي، فان كانت دولة انكلترا هي التي تستعد لخصامنا فلتكن على حذر من ثورة عامة في الهند تقضي على حياتها فيه، فقال القنصل وماذا تفعل لو لم نجب على طلبك ؟ فقال كلمة واحدة أقولها ، فأجاب مالت: ماهي ؟ فقال عرابي أقولها عند اليأس والقنوط

« ثم انقطعت المحادثات بين الجناب الخديوي وعرابي مدة ثلاث ساعات استولى فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراي من نظار وقناصل وغيرهم وظنوا ان من وراء هذا الاجتماع نيرانا تلتهب ، وحرها تنتشب ، ولذلك أفضت مداولاتهم الى التسليم والرضى باجابة عرابي الى ما يطلب لكن على شريطة التدريب في التنفيذ، وأرسلوا اليه يخبرونه بذلك فقبل ما عرض عليه واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر فجاء انبار في الحال بقبول استعفائها فطلب أن يعين شريف باشا رئيساً للنظار ومحمود سامي باشا ناظراً للجهادية فقبل شرطه وانصرف العساكر

« استدعي شريف باشا لقبول رئاسة النظار فتردد في ذلك أياماً لاحساسه بالضعف عن القيام بأعباء الوظيفة اذا استمر الجند على مناوأة للحكومة واستبداده بالسلطة فيما يطلب واستعداده عند الابطاء في موافاة مطلبه الى إحاطة كرسي الحاكم بالسلاح ، وتهديده بالوثبة عليه، اذا لم يسارع في سوق رغائبه اليه، ولظنه ان دولتي

فرنسا وانكلترا ربما كانتا معضدتين لرياض باشا وبهيمها أن يبقى في مسند الوزارة، فاذ اتولاها غيره خشى أن تنصبه الكايد وتقيم له العزرات في سيره، ولسابق علمه بالمخابرات التي كانت بين الضباط وبين الأستانة وبما في بعضها من الشاء عليه وأنه ورياض باشا على طرفي نقيض فرياض باشا هو ممثل النفوذ الاجنبي في مصر وشريف باشا هو الامام المنتظر لتخليص مصر من ذلك النفوذ واعلاء الكلمة العثمانية فيها ويخشى أن تظهر الحوادث مجزه عما يؤمل فيه

« كان شريف باشا رحمه الله من أقوى عوامل هذه النهضة التي انقلبت إلى فتنة، كان من القائلين بأن النفوذ الاجنبي قد بلغ حداً لم يكن يمكن أن يباعه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للاجانب في كل ما يطلبون . كان شريف باشا يتنع جلساءه بأنه اذا ملك فيها أو قف الاجانب عند حدوده هو سار بالوطن شوطاً عظيماً في مجده ، كان هو ورؤساء الفتنة يتراسلون ويتواعدون، ولهذا طابوه رئيساً للنظار ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه . كان وجه الرئاسة يهش له على بعد . وجمالها يخدعه وهو منها على موعد حتى اذا دنا منها ألغها شكسة شرسة

انتهى ما لخصناه مما كتبه الاستاذ الامام من كتاب (الشوردق اعراية) الذي لم يتمه وها نحن نثبت ما كتبه المحامي الانكليزي الشهير (المستر برودي B . M . yoldor) في كتابه (كيف كان دفاعنا عن عرابي How we defeuded Oraci) في ترجمة الاستاذ وهو نفسه الذي تولى الدفاع عن الاستاذ الامام ، وفيما كتبه ترجمة اللامحة التي كتبها الاستاذ الامام دفاعاً عن نفسه (أنظر ص ١٤٩) قال — :

الشيخ محمد عبده

انعام الصحفي - المحرر - *

ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين وقد أثر في الطبقة المهذبة من أهل وطنه تأثيراً ظاهراً لانه كان كاتباً لطيفاً، وعالماً بالعربية ضليعاً، وخطيباً فصيحاً يعمل في القلوب . ولا شك أنه ساعد من قبل كثيراً على جعل الرأي العام عاملاً حقيقياً في الترقى المصري . ولم يكن متعصباً ذا خطر أو متهوساً في الدين ، بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد . وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأي الجمهوري الحر، وكان رئيساً نشيطاً من رؤساء الراية ووطنيته التي لا شائبة للانانية فيها هي التي منعت بعض رفقاته المتحمسين من استيائهم من خطته الدينية الشاذة استيائاً علنياً ، حتى ان عرابي باشا صديقه قال مرة « ان رأس الشيخ عبده أصلح لقبعة منه للامامة »

وتعد أخلاق الشيخ محمد عبده كلها مثلاً للقوة العقلية العظيمة التي تلبدت عليها سحب من ضعف البنية والاخلاق مدة من الزمن . والظاهر ان عقله وجسمانه معاً سحقا سحقاً لا أول بشفائه بعد انفعاله الشديد الاناثي عن الآمال الضائعة وخصص القنوط ^(١) . وقد سب وأهين في السجن مثل رفقاته لكنه يختلف عنهم بحيث أن أخباره عما أصابه من المحن ضعيفة مبهمه اذا قيست بأخبارهم . والظاهر أنه

(* هذا الفصل ترجمة ما كتبه مستر برودلي تحت هذا العنوان

(١) أخطأ هذا المحامي الانكليزي في قوله : ان الشيخ قد سحق جسمه وعقله من غمص القنوط . فقد دلت قصيدته التي نظمها في السجن (ص ١٥٠ من هذا الجزء) وكتابه المطول الذي نشرناه في جزءه ، نشأته من هذا التاريخ (ص ٥٢١ ج ٢) على ضد ما زعمه هذا المحامي وهو أن المصائب لم تذهب بأمله ولم تزد أخلاقه إلا اكلاً . ثم ثبت هذا بسيرته بعد السجن في منفاه وبعد عودته الى وطنه أى في سائر عمره . ولكن أكثر الافرنج لا يستطيعون أن يقدروا الشرقي الكامل حق قدره

(م ٢٩ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه إلا في أواخر أيامه في السجن — حينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التي سعينا لاستحقاقها . . . وكاد يتعذر علينا في بعض الاحيان أن نصدق أن الشيخ محمد عبده هو كاتب تلك الايضاحات البراقة الدالة على غايات الوطنيين المصريين التي كان قد أرسلها إلي المستر بلنت قبل ذلك بستة أشهر فقط . وكذلك يتعذر على البريطانيين وهم في بلادهم أن يفقهوا الانحطاط الاخلاقي التام الذي يفعله الفشل مع التهديد والتعذيب في نفوس المصريين حتى في أقوامهم عقلا وأجرئهم أدبا^(١) . ولا شك في أن مرتب الزيارات الليلية المنزلية للمعتقلين السياسيين بعد نقلهم للسجن المصري كان شاعراً بمقامها وشأنها في نظر الشرقيين وعارفاً قدرها من حيث النجاح في المرافعة القادمة . إلا أن هذه الزيارات أدت الى نتيجة مضادة كل المضادة للغاية التي وضعت لها

كتب الشيخ محمد عبده مذكرة في الدفاع عن نفسه باغة عربية فصحة كانت باعتبارها عملاً أدبياً ايضاحاً عظيماً نور أفكار ترجماننا (المستر سنتلانا) لكنني أراها وبالأسف قريبة جداً من نوع الاعتذار^(٢) والنقطة التي يستند عليها استناد النبهاء الحكياء هي من حيث الشريعة والصناعة تكاد تكل دونها الابصار . وكان سلوكه في رواية الثورة المصرية من أولها الى آخرها سلوك التابع الطائع الخالص^(٣) وأصبح قبل أن يرفع الستار محرراً للجريدة الرسمية وأظهر في هذه الوظيفة من أولها الى آخرها الطاعة لأوامر من تقدموا عليه بالحق الواحد تلو الآخر^(٤) ولا نصير اخباره لذينة إلا حينما تتصل بآرائه وتجاربه الخاصة . أما ما يختص بقيامه بواجباته العامة فإن المسوغ الذي استند عليه هو طاعته التامة للعمدة من ذوي الاقتدار، ويتحول

(١) يقول مؤلف هذا التاريخ : ان هذا الحامي قد تمذر عليه وهو في مصر مازعم انه تمز على قومه في بلادهم . بل كان أهمل منهم فيما ادعاه من فقه ما أزمه التهديد والتعذيب في نفس صاحب الترجمة . فكان جهله مركباً لانه بحسبه علماً وفقهاً . وكذلك شأنه في كثير من القضايا التي استبطنها من تقريره كما يعلم من مقابلاتها بما في هذا الجزء من تاريخه (٢) قضايا باطية ، وقد علم مما تقدم انه كان مسيطراً على الحكومة كلها حتى رؤسائه فيها

محور دفاعه عن سلوكه الوطني الى قضية منطقية مبتكرة مقنعة كما يأتي :-
 « ان وطنيتي ووطنية سلطان باشا واحدة وكلانا عمل وفكر تفكير الرجل الواحد ، وقد أصبح سلطان باشا ذا لقب «سير» وحصل أيضاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ، لذلك وجب أن تكون وطنيته حسنة وأهلاً للثناء عليها. إذن يكون سلوكنا كلينا أهلاً للثناء عليه . فلماذا ياترى أزج في السجن منتظراً محاكمتي على وطنيتي بينما يصبح سلطان باشا حائزاً رتبة الشرف الانكليزية وحاصلاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ؟ »^(١)

« ان ما ذكره الشيخ من شدة الارتباط بين سلطان باشا وعرابي باشا فصل مهم في تاريخ الحركة الوطنية. وقد كانت آراؤه الى يوم عصيان عابدين مخالفة كل المخالفة لآراء عرابي المعتبرة عنده مثلاً لآراء عسكرية صرفة ، ويقول ان الاجتماعات العامة المتنوعة التي عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور برئاسة سلطان باشا حوت في الحال مقام عرابي من قائد جيش الى قائد مصر . وإليك ما قاله الشيخ :-

« وحينئذ أصبحت و سلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرابي »
 الى آخره » وهاك ما كتبه الشيخ عبده في حوادث الحرب :-

« هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الاجناس والاديان فكان يتألب المسمون والاقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حوله وقوة لا اعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانكليز ؟
 « اني لم أعلم أنه قيل إن الخديو كان يحارب جيشه بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره — وقد رسخ هذا الاعتقاد عند ما علم الناس أنه أقال عرابي من منصبه لانه لم يمثّل امره بالاستمرار على المقاومة وتمحصين بعض المراكز اتقاءً لنزول غزاة من البحر

« وفي أثناء ذلك طفق العلماء يقرءون البخاري في الازهر ومسجد سيدنا الحسين

(١) في مذكرات الأستاذ الخاصة بحوادث الثورة بيان لسبب مانائه سلطان باشا من اللقب والمسكناة وهو خيافته لوطنه وخدمته السرية الانكليز كسياني : ولا ندري أكان في مذكرته التي قدمها للمحامي شيء من ذلك كتتمه المحامي أم لا ؟

ويدعون بالنصر لعضاكر عرابي والهزيمة للانكليز - وكان إمام الخديو الشيخ الصالح العالم الايباري في طليعة الملتهمين غيرة ووطنية، فنشر قصيدة ابراهيم دريد في غارة التتار على بغداد في أيام الخليفة العباسي المعتصم، وهي عبارة عن دعاء وابتهاج، وقد أضاف إليها أبياتا من نظمه فكان من الناس من يقرأها ويتلوها بعد قراءة البخاري. وقد طلب إليّ أن أنشرها في الجريدة (الوقائع) حتى يطالع عليها الجيش أيضاً - وقد كان عمله هذا مشروعا إذ أن المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب إسلامية ضد الكفار - وعند رجوع الخديو الى مصر بعد انتهاء الحرب خطب هذا الشيخ حاثا الناس على طاعته -

« وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية - حتى النساء - بالخليل والحبوب والتمود والميرة اللازمة للجيش - وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحمية في جمع الميرة المطلوبة وحشر المتطوعة للجيش ولسائر الاعمال العسكرية -

« وقد أرسل عثمان باشا غالب مدير اسيوط في ذلك الزمن ورئيس شرطة (بوليس) العاصمة الآن بضعة ألوف من ارادب الحبوب من مديريته ماعدا الخيول وغيرها من الحيوانات، وقام بأمر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء وزارة الحربية - وهاهوذا كما قلنا آنفا (رئيس بوليس العاصمة) بأمر الخديو « وهذا شأن خليل بك عفت الذي تعين مديراً بأمر وزير الحربية فأظهر غيرة ونشاطا استحق عليهما الشكر الجزيل في الجريدة الرسمية - وهاهوذا نراه الآن مدير المنيا بأمر الخديو

« وقد بذل من اذكر اسماءهم فيما يلي امواهم بسخاء في سبيل الحرب إما مباشرة وإما بواسطة دوائرهم وهم :

البرنسس جميلة	اخت الخديوي وحرم المرحوم سعيد باشا
خيري باشا	الامين الاول
علي باشا مبارك	وزير الاشغال العمومية الآن
يوسف باشا جددي	احد اعضاء لجنة التموين

محمود بك
علي حيدر باشا
كاتب (أو أمين) أسرار الخديو
وزير المالية (الفعلي)

« وأساء هؤلاء وردت في أعداد الجريدة الرسمية . وإذا كانت سجلات الدبريات لاتزال موجودة فيمكن استقراء ما تبرع به كل واحد منهم بالتحديد » وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الانكاز وقد شمل هذا الحماس الاقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم . وكان شبان القاهرة يمرحون في المدينة ليلا يتقنون بمدح عرابي وفي نبي اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالين النصر لجيوشنا »

[قال المحامي]

وكتب الشيخ محمد عبده بعد حين مذكرة في حوادث الاسكندرية التي حدثت في الحادي عشر من يونيو كانت هي وعبارتان أو ثلاث على نمطها سبباً لامتعاض شديد ، ربما لا يرجح تحقيق الحق وبراظه، لكن ثمة مسألة في البحث ناصعة لا ريب فيها ، وهي أن مثل هذه المصيبة التي نزلت كانت مخالفة كل مخالفة لمصالح عرابي للثمة ، وتكاد تكون بالنسبة اليه فشلاً سياسياً وخذلاً قومياً تاماً، وإذا كانت قدمت بإشارته فانها تعد حينئذ انتحاراً أدياً حدث عمداً ، على أن نتاج هذه الحادثة من الجهة الأخرى تكون ربما عظيماً لاعدائه ، ويتخذ هذا الموضوع شكلاً مختلفاً جداً باختلاف النظر اليه من الوجهتين السياسيتين المتباينتين - السياسة الغربية والسياسة الشرقية - فالاولى تعتبر العمل السائق الى المذابح بل المحرك على تجمهر الغوغاء جنائية لاتعتفر، على حين تعبره الثانية جائزاً ، أو ربما حسبته «نقلة» في الشطرنج السياسي حاذقة ، وبعد ما أصبح عرابي الخارس المسؤول عن الأمن العام لا باختيار مصر وحدها بل برضا أوربا كلها رأى الشيخ عبده بصورة واضحة ان سياسة الخديو ورجال قصره في سلب الثقة به هي سياسة موت أو حياة لهم، واعتقد انهم لم يجمعوا عن التوسل بهذه الوسيلة المشتبه فيها كثيراً للقضاء على خصمهم المفرط في النجاح

والقوة . ويوجد رجال آخرون ذهبوا لهذا المذهب أيضاً وصرحوا به . وإلى
القراء ما قاله الشيخ محمد عبده

« لما وقع الخلاف بين الخديو ووزارة محمود سامي باشا شاع في القاهرة أن
الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شعباً في نفس القاهرة الى حد أن
الوزارة احتاطت لمنع الفتنة وبالغت في ذلك طول مدة قيامها بأعباء الامر ،
واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب اليه أن يجمع مشايخ قبائل
البدو ويحضرهم اليه - ففعل - وبالغ الخديو في حسن استقبالهم وأكثر لهم من
المواعيد ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم بمحشد ٣٠٠٠ بدوي وباحضارهم الى العاصمة
بطريق الجيزة ليحدثوا فتنة في البلد لعدم وجود النظام بينهم ولكنه تعذر على
المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو فحذف هؤلاء من العسكر - ولما فشل
مسماها هذا أرسل تلغرافاً رمزياً (شفره) الى محافظ الاسكندرية هذا نصه :

« قد ضمن عرابي أمن الامن العام ونشر ذلك في الصحف وجعل نفقه
مسؤولاً لدى القناصل واذا نجح في ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا - أما
الآن وأساطيل الدول في مياه الاسكندرية وعقول الناس متهبجة فوقع الخلاف
بين الاوربيين وغيرهم أمر محتدل فاختر لنفسك إما خدمة عرابي في ضمانه أو خدمتنا »
« وفي يوم هذه الحادثة توجهت الى السراي فرأيت موظفيها في جدل عظيم مما
حدث و كانوا يبالبون في رواية الاخبار ويضحكون من عهد عرابي بالمحافظة على
الامن العام - ومن المعلوم ان موظفي السراي لا يقولون إلا ما يسر الخديو ، فذا
كانت الاخبار سارة تكلموا وضحكوا وإلا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم -
« وبعد ١٢ يوماً من هذا التاريخ كنت في الاسكندرية فسمعت الناس أجمع
يقولون ان المحافظ (عمر الحفي) سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقبلاً
في البلد ولم يصدر أمراً بتوقيفها ولم يذهب الى مكان الفتنة إلا بعد مضي وقت -
ولم يطلب مساعدة العسكر النظامي مع انهم كانوا على مقربة منه - وأجمع الناس على
ان عمله هذا موعز به من الخديو - وعلمنا أيضاً انه لما كانت المذبحة على وشك
النهاية وكان المحافظ يتمشى من مكان الى آخر واذا بأوربي في شباك وفي يده

مسدس فقال أحد البدو : أأرمي هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له « ارمه » فأطلق
البدوي عليه الرصاص فقتله — وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه
في ذلك اليوم الأسود —

وقد سمعت أيضاً أنه حرص بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على
ذلك ، وأنه أشار الى البوليس [المستحفظين] أن لا يتدخلوا قائلًا « دعوا
أبناء الكلاب يموتون »

« ولم تسأل اللجنة التي تألفت لاظر في أسباب هذه الفتنة عمر لطفي عن شيء
مما حدث مطلقاً ، بل كان الخديو أوعز اليه بأن يستعفي بدعوى المرض
« كان عمر لطفي محافظ الاسكندرية زمن الفتنة وقد أهمل امر القيام بمحفظ

الأمم العام على انه هو المحص الوحيد المسؤول عنه . هذا إذا لم نقل انه هو
المحرص عليها — فإذا كان فعل ما فعل ! اعة لامر عرابي كما ادعى مع أن وظيفته
تابعة رأساً إلى الخديو — لان الخديو أصدر أمراً مخصوصاً صرح فيه انه بعد
استعفاء وزارة سامي أفضت أمور الداخلية وشؤونها الى السراي — فكيف نعلل تعيينه
(أي عمر لطفي باشا) وزيراً للحربية جزاء الطاعة، العرابي وعصيانه لسيد الخديو؟ وإذا
كان الامر اهمالاً منه فكيف يصح مع اهماله وعدم كفاءته تعيينه وزيراً للحربية؟ ولماذا
لم يسأل سؤالاً واحداً عما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسأل ؟

« لا ريب في أن استقراء سير هذه الحوادث يظهر أن الظهور ان الخديو
بالاشتراك مع عمر لطفي كانا سبب هذه الفتنة — أي مذبحة الاسكندرية اه

هذا وان الحذر والاحجام الباديين على الشيخ داننا يزيدان في قيمة تصرفه
وهي قيمة لا أكاد أضدها على تصرفه بقوله اي رجل من درجته . وما لم يحدث
انقلاب جوهرى في الحالة الاجتماعية المصرية فان حل لغز الحادي عشر من يونيو
يقتضى مستجيلاً، وكل التهورات التي تحوم حولها تبقى أدهان باب التخمين والترجيح
على انه يصعب علينا ان نقول ان رجلاً كالشيخ عبده وضع لكتابته التي شكها فيها
من البصق علينا في الحبس مقدمة معتبرة أهدها لسمو الخديو . يذهب هذا المذهب
النظري ما لم يكن مطاماً أشد الاطلاع على المعانيات في دسيسة « السراي المصرية »

وانني أشهد شهادة عرفتها بنفسي ان جماعة آخرين : أثبتوا هذه الرواية ولم يكن لهم اتصال ممكن بالشيخ

وفي مساء اليوم الاول من يونيو سنة ١٨٨١ ودعت في الظلام محمد عبده الذي ذهب أخيراً منياً عن القطر المصري مدة ثلاث سنوات . وعلمت منذ ذلك الحين انه يعيش عيش الفقر والشقاء في بيروت [هذا غير صحيح كما يعلم بما يأتي في هذا التاريخ]

وإذا جاز لمصر ان تسيّر منفردة أو يكون لها بداءة خير يوماً من الايام فانها لا يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده
العالم المحرر

[المؤلف] هذا ما كتبه محامي العرايين الانكليزي في كتابه وكنا نود أن نقف على تقرير الاستاذ الامام الذي ذكره المحامي بنصه العربي الاصلي، ولكننا نفهم من هذه الترجمة عين ما فهمه المحامي الانكليزي لدقة ترجمته، وبمكنتنا أن نجزم بأنه أخطأ فيما فهمه من التقرير من انه أريد به الاعتذار لما اعترى كتابه من ضعف النفس وشدة اليأس، ليس الكلام اعتذاراً عن نفسه ولا تنصلاً من عمل عمله وندم عليه، وانما هو إقامة حجج وبراهين على ان مؤاخذته وحبسه مع زعماء الثورة ومحاولة الانتقام منه انما هي اغراء من الخديو توفيق باشا به لانه يكرهه كراهة شخصية من حيث هو خليفة السيد جمال الدين في نشر الافكار الحرة ودعوة ترقى الامة في مصر . وكان الخديو يعلم انه كان خصماً لعرايين وحزبه العسكري إلى ان أصبح عرايين صاحب الامر والنهي وقائد الجيش الوطني المدافع للاجانب عن البلاد . وفي هذه الحال لم يكن له أن يقاوم عرايين إن استطاع وأنى يستطيع؟

إذا كان هذا الرجل قد لزم مع زعماء الثورة لانه منهم فلماذا ترك سلطان باشا؟ بل لماذا كان أقرب المقرين إلى الخديو والانكليز جميعاً وهو الزعيم الاكبر للثورة بعد عرايين أومعه أو قبله؟ هذه حجة بالغة أراد الاستاذ أن يلقيها للمحامي البارع فليبه

مقلوبة كما يلبس الفرو ، وكأنة توهم عن فهم أو عن غير فهم ان الشيخ اعترد بها عن نفسه، وأحب أن يكون من الخديو والانكليز في مكان سلطان باشا ، ولو انه كاشف المحامي بكل ما يعلمه من خيانة سلطان باشا لما كان لذلك التوهم الى عقله من سبيل

خيانة سلطان باشا لمصر

كان الاستاذ الامام يعتقد ان أكبر المصريين خيانة لوطهم سلطان باشا ويليهِ في الخيانة عمر لطفي باشا محافظ الاسكندرية في ذلك العهد ، سلطان باشا كان موقد نار الفتنة ومحض نارها، حتى إذا ما اشتعلت نار الحرب بين أهل وطنه بتحريضه وبين الانكليز نكص على عقبيه، وكان أكبر مساعد للانكليز على قومه بالرشوة مع أنه من أكبر الاغنياء ، وأما عمر باشا فهو الذي مهد السبيل لمذبحة الاسكندرية ونهبها ليقيم الاجانب الحججة على عجز عرابي عن حفظ الأمن كما جاء في آخر ما نقله المحامي الانكليزي عن الاستاذ آنفا وأقره عليه وعلى سببه، وهو انه تنفيذ لارادة السراي وسيأتي بيان ذلك نقلا عن مذكرات الاستاذ اليومية المحفوظة عندنا بخطه وفيه النصوص الصريحة بتعمده لذلك ، وبأنه كان يمكنه أن يمنع الشر ، ويحفظ الأمن ، وبأنه طوّل بذلك فامتنع بل كان هو الذي طالب من قائد الاسطول الانكليزي التدخل بقوته العسكرية . وهو انما كان عبداً مأموراً ، لذلك كان سلطان باشا شراً منه لانه كان مناقفا مذنباً

والذي زاد في استياء الاستاذ من أعمال سلطان باشا غير الخيانة انها كانت على عكس أعماله هو ، فلاستاذ كان ينهى عن الثورة ويسعى لمنعها الى أن نزل الجيش الاجنبي في البلاد محارباً لأهلها حينئذ صار عوناً لهم على قتال عدوهم ، وسلطان كان داعية الثورة وزعيمها، وعدو أمير البلاد المحرض على قتله وأتمهاه ببيع البلاد الاجانب — الى أن جاء الاحتلال الاجنبي فصار نصيراً له وعدواً لوطنه وخائناً له يشترى به ثمنا قليلا

وهذا يبارها

سلطان باشا

فهذا الهمام الوطني الذي أوقد نار الفتنة في البلاد، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهبها وعم جميع الأنحاء، ثم هرب من طريقها عند ما خاف أن يلذعه لسان لهبها جاء في آخر الامر نائباً عن الحضرة الخديوية في حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الابرياء وغيرهم . نال المكافأة^(١) من الجناب العالي بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها، ليتعلم كل مصري هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الاحسان أولاً وآخراً

إلا أن العدل الالهي سيقوم بمجازاته حق المجازاة على ما صدر منه أول الامر وآخره (يوم يعرض الظالم^(٢) على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولاً) وكما ان العدل (الالهي) سيأخذه بما قدم من عمله، أظن ان محاكم العدل والانسانية تبين له خطاه في زعزعة راحة البلاد المصرية في أول الامر في رمضان سنة ١٢٩٨ دعا شريفي (باشا) للتوجه معه الى الخديو لطلب مجلس التواب، فامتنع ونصحه بأن لا يسعى في ذلك (حاكي الحكاية سايمان أباطه وكان فيمن دعاهم لذلك)

قال سلطان في بيت علي باشا مبارك بحضوري : ان مصر يمكنها أن تجمع ثلاثمائة ألف عسكري فتحارب أي دولة كانت . وأجابه علي (باشا) بعدم كفاية المال، وانتهى الامر بقوله « نسمع المغني أحسن »

علي باشا رأى الضباط مهربون من أودة (أي حجرة) إلى أودة في بيت سلطان ، وحكى لي الحكاية ثلاث مرات

(١) أنعم الخديو توفيق باشا على سلطان باشا بعد الاحتلال بعشرة آلاف جنيه من المال جزاء لإخلاصه كما في كتاب (مصر للمصريين) وهل هذه هي المكافأة التي عنها الاستاذ أم غيرها؟ فهناك مكافآت (٢) الاستاذ لم يكتب تمة الآيات هنا الخ

جاء شواربي (باشا) عند محمود سامي (باشا) وهو ناظر الداخلية وقال ان جميع النواب متكدرون من تعيين فريد باشا مأموراً للدائرة البلدية تكدرت النواب جداً لاني أشرت بانتخاب سليمان باشا أباطه وكيلا للداخلية وذكر لي ذلك أحمد محمود فتبت على يديه الخ

تعدى مجلس النواب ماضرب له من الحد، وتذاكر في إبطال مصاريف الابراهيمية، مع انها داخلة في إيراد مديرية اسيوط المرهونة للدين الموحد، وردت المالية القرار، ثم حكم المجلس بتوقيف الاطباء الذين كانوا في الكورنتينة بناء على عرض حالات قدمت اليه، وظن سلطان أنني الذي أئين هذا الخطأ للنظار مع انه كان بحيث يفهمه الصبيان، فاشتكى سلطان باشا الى ناظر الداخلية مني، وقال له قل للشيخ محمد عبده لا ييدي ماحوظات على محاضر النواب^١

كتب سلطان وهو رئيس النواب كتابة رسمية يطلب فيها من إدارة المطبوعات أن تعترف أن جريدة الطائف هي لسان النواب المعبر عن أفكارهم، فاعترفت الإدارة بذلك تنفيذاً لامره، ونشر ذلك رسمياً بامر ناظر الداخلية (وزارة سامي) ثم إنني عطلت الطائف^(٢) شهراً لنهيبه، ومع ذلك لم يكتب الباشا ما ينقض ما كتبه أولاً، وهو الذي حمل النواب على الاشتراك في ذلك الجرنال، واكتتبوا له بمبلغ كبير إشارتي بعدم الاهتمام بمسألة الجرا كسة — تقرير راغب باشا بطلب العفو عن جميع من اشترك في الحوادث ماعدا الجنانين في مذبح الاسكندرية — وقبول الخديو وصدور العفو —

(١) يعني في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية)

(٢) جريدة الطائف كان يصدرها السيد عبد الله نديم المهيج الشهير بمقالاته وخطبه، حدثنا أحمد فتحي باشا زغلول قال كنت في عهد الثورة تلميذاً في مدرسة رأس العين الاسكندرية فبقنا ان السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور في مكان كذا، فحضرت خطبته مع كثير من الطلبة وغيرهم فكان مما قاله ما خلاصته: إن طوابي الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها على البحر يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ومدافع الاسكندرية اذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر فكيفما جالت الاساطيل الانكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا - فعلا هتاف الناس وتصفيقهم له !!

يوم الحرب ذهبت للتكلم مع ناظر الداخلية في طريقة نشر جريدة المونتاتور
الفرنساوية الرسمية لسفر محررها . اه

(هذا كل ما في الورقة المفردة وهو عناوين كان الغرض منها تفصيل
الكلام فيها في فصول تفيد العبرة بها وإيها مذكرات الدفتر أسردها
بنصها الا انني أضع لها أرقاما تضبظها بالعدد)

(١) الدائنون يريدون أن تدفع لهم الفوائد على فداحتها فعدل سير الادارة
على أن يؤدي الى هذا الغرض . ورسوم على المصري أن يخضع لاستبداد
إداري مختلط ، بل هو في الحقيقة أوربي لا شائبة للعدل فيه ، وهو الاستبداد
الذي اقتحمه الخديو العزول

(٢) كل الامم من كل الاديان تغني من عمله (أي الفلاح المصري المشار اليه
في الجملة الاولى) وعلى نفقاته وهو في ذلة الفقر والفاقة

(٣) ما يقصر من أداء الديون من اللومين والدائرة السنوية يوفى من
الخزينة (تدبير ولسون)

سنة ١٨٨١

(٤) في أواخر سنة ١٨٨١ قصد غمبتا إرسال ٢٥ ألف عسكري لتقرير النظام
في مصر مع انه لم يكن حصل فيها شيء وكان ذلك في وقت المحاربة بين فرنسا
وانجلترا في عقد معاهدة تجارية

(٥) البارون درنج رأى الفرصة مناسبة لتقرير نفوذ فرنسا في وادي النيل
لكنه لم ينجح في إعداد المراقبة الثنائية لقبول خلع الخديو وإيجاد نظام جديد
وكان قد عرض على حكومته خطر استقلال المراقبة الثنائية وخطر مركز الخديوية
(لعل غمبتا قنع بما قاله درنج أخيرا)

(٦) في ٤ فبراير سنة ١٨٧٩ نشر منشور ضد رياض باشا طبع منه عشرون
ألف نسخة وفيه مطالب وطنية ، ولم يعثر على ناشره وكتابه . ونسب الى الجمعية
التي تألفت لمعارضة رياض باشا (جمعية حلوان) شريف . شاهين . عمر لطفي .

راغب . ويقال ان سلطان باشا كان فيها
 (٧) يقول شريف باشا بعد حادثة عابدين انه لا يقبل الوزارة حتى تكون
 لديه ضمانات تكفل انه لا يعتمد الضباط أو الجند على النظام مرة أخرى — كأنه
 لم يعلم بسير الفتنة مع انه كان من مدبريها
 (٨) حصل سلطان باشا على عرائض ممضاة من الاعيان والعلماء قبل حادثة
 عابدين وأطلع عليها عرابي وأبي عرابي إلا أن تكون تحت يده ، فهرب سلطان
 الى المنيا ، وبعد الحادثة ظهرت العرائض والمحاضر
 (٩) لم يبق داع لبقاء أديب (إسحق) في أوربا ، فأقنيت (جريدة) القاهرة
 وأعيدت على هيئة جديدة وفي موضوع جديد ، وكوفيء محررها بتعيينه رئيس
 قلم ترجمة أولاً ثم سكرتيراً لمجلس النواب بعد ذلك
 وصاح الخديو عند إمضاء الأمر بتعيينه من شدة الفرح : « الحمد لله الذي
 خلصني من رق شخص كنت أبغضه »

خلاصة خطاب سياسي لعرابي

(١٠) لم يذهب عرابي الى رأس الوادي إلا بعد أن صدر الامر بتشكيل
 مجلس النواب على طريقة جديدة . وقد كان الخديو حاول أن يستدعي أعضاءه
 على مقتضى النظام القديم فأبى إلا نظاماً جديداً ، وعند سفره ألقى على مودعيه
 خطاباً طويلاً شكاه فيه من العقبات التي تصادفها مطالب الشعب من وضع دستور
 يكفل له الحرية ويؤمنه من الاستبداد . وصرح فيه بأن الخديو والنظار ومن
 على ساكنتهم كلهم لا يميلون إلى مساعدة الأمة على ما تطلب ، وبأن أعداء الأمة هم
 الدائنون ومعاونوهم من الاجانب ، يدفعهم الطمع الى الاستيلاء على جميع موارد
 الرزق في مصر ، وان من الافتراء أن يقال ان البلاد تريد سلب الأموال
 والاستثمار بالمنافع وسلب حقوق الدائنين . وانما الحق ان هناك شعباً يطالب
 بأن يكون على اثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على
 الاشخاص والاموال

تواطؤ فرنسا وانكلترا على المصريين

(١١) قال غمبتا في محادثته مع اللورد ليون فيما يتعلق باستدعاء مجلس النواب « قاي ممتلى ، رعبا ، ليس من الممكن الحزر والتخمين على ماعساه يقرره مايسمى بالحزب الوطني، من الجائز أن يعمد الى تقرير طريقة مختلة تخالف مصالح الاوربيين، لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين ان انكلترا وفرنسا لا يمكنهما أن تحتملا شيئا من هذه المطالب ولا تلك النزعات »^{١)}

اتفاق غمبتا واللورد ليون من التعصب إذ لم يعرف مثل هذا الاتفاق على اسبانيا واينونان مع كثرة ديونهما وانهما أحط شر ، (؟) في الوفاء من مصر

سنة ١٨٨٢

(١٢) في ١٢ يناير سنة ١٩٨٢ سأل اللورد غرانفيل مالت: اخبرني بالتلغراف ماهي حدود سلطة مجلس النواب في المالية المصرية على حسب ماقررتها الجمعية العمومية والشروط التي تطلبها؟

فاجابه في ١٣ منه

مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم يعقود مع الحكومة تكون تحت مراقبة المجلس وعلى ذلك يمكنه أن يلغي مصلحة المساحة مثلا لانها لم يكفل تشكيلها باتفاق دولي، ويمكنه الاستغناء عن عدد كبير من موظفي الاوربيين في الادارة المصرية

(١٣) قال مالت (في ديسمبر سنة ٨١) اذا حاز مجلس النواب حق تقرير

الميزانية فقدت المراقبة سطوتها في الامور المالية

(١٤) في ١١ يناير سنة ١٨٨٢ قال مالت. انه قد تقرر عنده ان المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق في طريقة الدستور وان اللائحة التي يريد المصريون تقريرها لمجلس شوراهم تمثل في الحقيقة شرائط حريتهم وحيث قد تقرر هذا المجلس بحالة نهائية فلا شيء يمكن أن يبطله ولا أن يلغيه إلا أن يكون تداخل وهو آخر ماينتهي اليه العمل

(١) ليعتبر المصريون والشرقيون عامة بهذه الاثارة التاريخية

مقاومة فرنسة وانكثرة لمجلس النواب في تقرير الميزانية

- (١٥) سلطان اكد لقنصل انكثرة أن النواب لم يوافقوا الا آمال الشعب وليس من ضنط عسكري ، ولا يمكنهم أن يعدلوا عما يوافق في رغبة الاهالي فاجابه : لا انتظار لأدنى مساعدة بما يختص بهذه المسألة (تقرير الميزانية) لما في ذلك من الخطر وما قولونه وما يطلبه النواب لا طريق لنيله الا القوة واستعمالها اعلان للحرب . وقد علمت ارادة انكثرة وفرنسا فيما يتعلق بذلك
- (١٦) في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ في مجموعة اعمال البرلمان نمرة ٣٠٢٣٠ تلغراف من مالت في ٢٠ يناير سنة ٨٢ اذا تمسكنا باثباتنا على مجلس النواب ان ينظر في الميزانية كانت المداخلة العسكرية امرا اضطراريا فان اصرار مجلس النواب على رأيه في ذلك جزء من مشروع تام أعد لشورة
- (١٧) في ١٧ سنة ٨٢ يناير قدم المراقبون طلبهم فيما يتعلق بمجلس النواب ومطالبه قائلين : إن الاوامر الخديوية السابقة قد ربطت الادارة المالية بدولتي فرنسا وانكثرة فاليهما يرجع السماح للمجلس بحق إعطاء رأيه في الميزانية وعدمه وهما لا تسمحان بذلك لما ظهر من مقصد المجلس في تنقيص عدد الموظفين الاوربيين وفي ٢٧ منه امضوا المذكرة بذلك باسم الدولتين "
- (١٨) في ٢ فبراير سنة ٨٢ استعفى شريف وعين محمود سامي
- (١٩) مجلس النواب قرر تعيين لجننتين لتخفيف بعض الشكاوى التي رفعت على مصلحة المساحة وعلى ادارة الجارك وظهرت وجوه الخلل في أعمال الموظفين الاوربيين ، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس ، وقد رفض موسيو كاليلار مدير الجارك ان يحضر جلسات التحقيق وعارض في أعماله
- (٢٠) وقف المجلس على تقرير قدم المراقبين من أحد موظفي الدومين المسمى
- (١) ليعتبر بهذا كله من يمكنون أي أوربي من الدول الاستعمارية من أي منصب أو عمل في بلادهم وخلاصته أن هؤلاء الموظفين يعملون لسلب استقلال البلاد بطريفة ادارية سلمية حتى اذا ما عاقهم عائق برزت القوة العسكرية من ورائهم تؤيدهم

(روفسل) يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالاً في أن يصلوا بالظفرة الى مايقال من حريتهم ، واشتكى من ان المدير لا يجلس في الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن ان كل شخص يجلس بغير أمر قضائي يرسل بالتعريف الى نائبه ، وعلى ذلك يُسأل المدير عن السبب في الحبس. وهذا تظاهر من الاهالي بالاحوال الجديدة التي يبنون عليها حريتهم وخلصهم

(٢١) غوردون باشا يكتب الى التيمس في يناير سنة ١٨٨٢ :

يقال ان مصر تسرع في الغنى والسعادة وانه (كذا) فرحة مسرورة . ولا أظن أن شيئاً قد تغير عما كان الا ما كان من ضمانه الدين فانها اليوم أوثق اما الحبوس (السجون) فخاصة بأولئك المساكين من الفلاحين

مسألة الشراكسة وغش القنصلين للخديو

(٢٢) في مسألة الجراكسة قدم عرابي الحكم وطلب العفو بتخفيف العقوبة فأرسل الخديو (الحكم) الى الآستانة فطلب السلطان الاوراق. وكان ما فعل الخديو بناء على نصيحة القنصلين. ساء الوزارة ذلك وبدأ ائتلاف ، وطلب من الخديو تسوية المسألة فأشار عليه القنصلان بالاصرار وطلب استعفاء الوزارة

(٢٣) في ٢٠ مايو — أرسل موسيو سنكوبينس (?) احد موظفي القونسلاتو موسيو مونج عند عرابي ليندا كره في المسائل الحاضرة فكان من قول عرابي ان المجلس الآن هو الحاكم وهو أول خاضع له ، ونقل هذا مسيو مونج الى رئيسه . وعند ذلك ابتدأ القنصلان في المخابرة مع سلطان باشا

وفي ٢٥ مايو قدموا المذكرة التي ذكر فيها ان المجلس بلسان رئيسه نصح عرابي بالابتعاد عن الاقطار المصرية حيناً من الزمن

سأت النظارة سلطانا فأنكر

ولكن الخديو قبل المذكرة فاستعفت الوزارة بعد إقامة الحججة على كل ما جاء فيها . لم يقبل أحد النظارة فرجع عرابي ناظراً للجهادية وأحيلت أعمال بقية النظارات على وكلائها

﴿ ما يتعلق بالمذكرة التي استعفت الوزارة عقبها ﴾

(٢٤) جاء في الكتاب الازرق الانكليزي ان مستر ماليت كتب أولاً أن رئيس المجلس لا يمكنه بعد الآن أن يعتمد على أعضائه فان كراهتهم لكل تداخل أجنبي تزداد كل يوم عما قبله

ثم يقول في رسالة أخرى ان المذكرة التي قدمها لم يطلب فيها إلا تنفيذ ماأراده أعضاء مجلس النواب، وقد صرح المجلس بأرادته على لسان رئيسه سلطان باشا (٢٥) يقال ان فنصل الروسياموسيو ليكس نصح مراراً ان أحسن طريقة

لمعاقبة الشره الاوربي كان امتناع الاهالي كافة عن إعطاء الضريبة الخ لكن كان عرابي ورفاقه يثقون بالدول غروراً ولا يعلمون ما كان يجري حولهم (كذا يقول القنصل) فقد كتب موسيو مالت في ٧ مايو سنة ١٨٨٢ قبل وصول الراكب يقول لحكومته : « ليس من الممكن الوصول الى أي حل كان للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة في البلاد »

(٢٦) حصلت مذاكرة في المذكرة التي قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع سؤال: هل يمكن لنا ان نجمع المجلس؟ فأجاب ساطان أظن أن ذلك لا يكون الا بأمر الخديو فنسأله في ذلك ولاريب انه يوافق عليه .

فقال له أحد النظار : الخديو الذي كنت تطلب خلعه إن لم يمكن قتله قبل أيام؟

(قبل هذا^١) جاء كلام في الخديو في جلسة فطلب سلطان باشا قتله وأبي عرابي

وكان سلطان يقول اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهيين الذين باعونا للاجانب) هذا هو ساطان الذي كان رئيس الحزب الوطني وهو لا يريد الآن إلا

(١) هذه الجملة كتبها النقيدي في حاشية المذكرة لانه تذكرها بعد كتابها

فوضعناها بين هلالين لذلك

محاولة الخديو — ذلك الخديو الذي لا ينبغي إلا بيع البلاد للأجانب^{١)}
اجتماع مجالس النواب حق للشعب ونحن نوابه ولا بد لنا أن نطلب النواب
إلى القاهرة حتى لو أراد عرابي أن يوافي ما طلب من إبعاده إرضاء للسياسة
الأجنبية فافعل، وأمانحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى اليه الخلاف
سلطان رجع عن رأيه إلى رأي الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو
والتصاليين وفيما اضطر اليه من موافقة الثأرين

(٢٧) يؤكدون أن ضرب الاسكندرية لم يكن خطر بيال الوزارة الانكليزية
ولا وضع في مداولاتها إلى الرابع من شهر يوليو سنة ٨٠ وانما وضع بعد ذلك اتقاما
من مؤتمر الاستانة وليس من البعيد أن يكون السبب صلوات عرابي مع الاستانة

(المشير درويش باشا مندوب السلطان)

(٢٨) مقاصد الاستانة من إرسال درويش باشا (١) إطالة زمن المحابر (٢) أن
يعاد من قلب المراقبة وتوفيق من جهة تأكيد سلطة الخديو (٣) أن يستمال قلب
عرابي واخوانه بطريقة أبوية إلى زيارة الاستانة قصد التنزه على شواطئ البوسفور
(٤) تقرير ساعة الباب العالي بمصر . وكان من السهل إدراك ذلك كله لو أرسلت
من هو أقوم من درويش الخ

(٢٩) درويش يذكر بسلطة السلطان ويثني على الخديو وينصح بالخضوع
لنظام . وإذا جاء الكلام في النهضة المصرية يقتصد في القول ويقتصر على قوله ان
السلطان مولانا وأبونا وهو الذي سينظر في ذلك

(٣٠) أرسل الخديو لاستقباله ذو الفقار باشا ، وأرسل عرابي من قبله يعقوب
سامي ، وقد حصل خلاف بين الرسالتين في المركب (الباخرة) عند المقابلة لتكدر
ذو الفقار . لكن درويش استقبل كليهما بالبشاشة

(١) أي بحسب رأيه . فيقابل هذا وأمثاله بما ذكره مستر برودي المحامي عن
الفتيد في سلطان باشا ليعلم انه رحمه الله تعالى لم يكن حاسداً لسلطان باشا بل كان
محتجاً عليهم باتباع الهدوى السياسي في ترك محاكمته وهو أساس الفتن كلها

جاء الاسكندرية في ٦ يونيو وسافر إلى القاهرة في ٨ منه
(٣١) أقوال بعض العلماء في إظهار مطالب في رأيهم وتصريحهم لدرويش
بما يجب أن يفعل أغضبه ، ومن ذلك الوقت مال الى توفيق فلما أحس بذلك
(أي الخديو) أرسل اليه ما يزيدة إقبالا (*)

(المحاورة المهمة بين درويش باشا التركي وعرابي باشا ومحمود سامي باشا)

(٣٢) في يوم السبت ١٠ يونيو قابل درويش باشا عرابي ومحمود سامي لأول
مرة فجرى الحديث بينهما على ما سنذكره
(قال درويش) نحن جميعاً رجال جنود يحترم بعضنا بعضاً وأنتم اولادي
لمكاني من السن . وقد أرسلني مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته
المصرية العريضة ، وستسهلون عليّ هذا العمل ، انا اعلم شكواكم ستشكون (١)
صبراً قليلاً ، سيكون هذا العمل بعد رحيل هاتين الدولتين (٢) اللتين تضايقنا
جداً ، فقبل كل شيء يلزمنا إبعادها ، هذا ما تكفل به لو عضدتموني فيه ، انا ارى جيداً
من جهة وقوع الخطأ ليس الخطأ من قبلكم ، يجب التوسل الى المطلوب مع الحزم والبصيرة
ثم التفت الى عرابي وقال له : أنت أنت وحدك الأمر الناهي في مصر .
أنت مع كونك لست الانظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها . هذا ما أغضب
الدول المتحدة ، يلزم أن يرين المساهلة معهن . وما بقي بعد هذا علمنا فيه بيننا
وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضوري حيث إني مشير مرسل
من قبل السلطان ، وكن نائباً عني مأموراً تحت قيادتي ، لكي تسهل عليّ المحاربة
مع الاجانب عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك الى الأستانة
حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير في مفاوضته معكم

(*) أي أرسل اليه رشوة قدرها خمسون ألف جنيه وحليا قدر ثمنه بخمسة
وعشرين ألف جنيه

(١) تشكون بضم التاء وفتح الكاف أي ستقبل شكواكم ويزال ماتشكون منه
(٢) العاريتين من الاساطيل الانكليزية والفرنسية اللتين في الاسكندرية

فأخذ محمود سامي يترجم المقال وعراقي يسمعه ، ثم قال
 (عراقي) مشروءكم هذا في غاية الحسن ، وانا مختاره مع الشكر ، لست
 حريصا على السلطة التي تريد ان تنسبها الي . هي سلطة غير معنصبة ، الامة هي
 انبي أفضت الي بها ، فالواجب ان ينظر الى الامة ويفكر في شكواها
 اعترف بأن يديك ابرع من يدي في العمل لتذليل المصاعب التي أمامنا
 الآن . سيني ووظيفتي تحت تصرفك . انا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك
 انما اشترط شرطا واحدا : أعطني باسم السلطان واسم الخديو واسمك كتابا
 تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعا في كل ماجرى الى الآن ، كائنا ما كان ، سواء
 كان ذلك مني أو من اخواني ، وحيث اني تعهدت للقناصل بحفظ الامن في الديار المصرية
 وتحملت ثقل ذلك على كاهلي فأرجو ان تعفيني من ذلك بطريقة رسمية معروفة
 اطلب ذلك لان الاحوال ان جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها صنيع
 وان جرت على العكس من ذلك كنا الجانين

مالت وكولفني وسندويش عاملونا معاملة الخارجين على النظام وذلك في
 بلادنا وهم الاجانب الذين لا يحترمون لنا شيئا ونحن نحترم لهم كل شيء
 فوعده درويش بانالته مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو وهو اليوم المحدد لجلسة
 يحضرها درويش باشا تحت رئاسة الخديو . وانما طلب أن يعلن هذا القول الذي
 جرى بينها من قبلها جميعاً وطلب من عراقي أن يكتب إلى الاسكندرية ذلك
 بالتأخراف فأبى عراقي أن يعلن شيئا إلا بعد أن ينال ذلك الامر الخاص له من كل تبعه
 (استعداد الاوربيين وتسليحهم استعداداً للمذابح)

(٢٣) مسألة تسليح الاوربيين وإيهاهم موسيو كوكسن ان حوادث ستحدث (*)
 (٣٤) مالت أخبر حكومته تقلا عن سكرتير الخديو الاوربي (كودار بك)
 ان محمود سامي وعراقي دخلا ثاني يوم استعفاء وزارة سامي والسيف في يد كل
 يهدد الخديو بفقد حياته

(*) كوكسون هو قنصل الانكليز في الاسكندرية

(٣٥) سمع مكاتب التيمس من عرابي قبل ضرب الاسكندرية انه يحترم القتال مالم يخرق العدو حرمة البلاد وإلا هدمه ، ولكنه ضعف عن ذلك وقت الحرب (٣٦) أكثر الجرائد والتلفرافات من الاشاعات التي أفرزت الاوربيين وأخافتهم من المصريين وطلبوا من مديريهم في الاعمال أن يأذنوا لهم بالتمسح ففهم من أبي ومنهم من أذن (٣٧) خدمة (لاسترن تلفراف) طلبوا التسلح فأبى رئيسهم فكتبوا له عريضة فعرضها على رئيس (الكبانية) في لندرا فاذن بذلك وسمح بثانية وثلاثين (لوففير) وعائلات الموظفين أرسلت إلى قبرص على نفقة الكبانية (٣٨) الاوربيون أصبحوا متأكدين من عداوة الشعب لهم لاسحاسهم من ضامرهم بسوء أعمالهم اليه

بدء المذبحة في الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

(٣٩) ١١ يونيو سنة ٨٢ كان يوم الاحد والقهاوي كانت غاصة بطالبي الراحة من الاشغال الطالبين للهو باللعب والسكر . فحدثت مشاجرة على قرب من قهوة القزاز في آخر شارع البنات نحو الساعة واحدة بعد الظهر حيث يوجد ازدحام كثير من الكراسي والطرايبزات وأشخاص منهم القائم والقاعد :مالطي يقال انه خادم مستر كوكسن أخذ (ركب) عربية وطاف بها من محل الى محل يشرب ويتزده إلى أن وصل الى خمارة أحد مواطنيه وهو سكران فطلب منه العريجي الوطني أجرته فأعطاه المالطي قرشا واحداً ودخل القهوة (الخمارة) فتبعه العريجي وتبادلت الكلمات بينهما فتناول المالطي سكيناً كانت معانة في مائدة الدكان معدة لقطع الجبن وطعن بها العريجي فسقط لاجراك به ، فاجتمع بعض الوطنيين وحمار من أقارب العريجي وأرادوا القبض على القاتل فجاء يوناني خباز مجاور للخمارة ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين والطينجات وأخذوا يضربون يمينا وشمالا ، ومضى نصف ساعة قبل أن تصل عساكر المستحفظين من قراقول اللبان أول من جاء منهم مع المعاون قتل ، فجاء آخرون وصارت معركة عمومية

ولكن لم يتداخل العساكر في القبض على الجناة فتمكنوا من الفرار (الاروام والمالطية) وكان يكفي لحسم المعركة تدخل المحافظ لو اهتم بذلك لعقوبة الضابط لمرضه وبعد نصف ساعة حصل نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين فتفاقم الخطب لان كلا منهما كان يريد ان يقتصر الآخر (وذلك لعدم القبض على الجانين) لكن مسألة الجانين لم يبق لها ذكر في أذهان المتنازعين وإنما بقي النزاع (٤٠) والمسلمون والمسيحيون دخلوا في خصام حقيقي بين أهل الدينين وأخذ الاروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت مع انهم كانوا في مأمن من وصول الشر اليهم . وعند ذلك أخذ المسلمون يفدون من كل جانب مسلحين بعضهم بالهصي والبعض بأرجل الطرايزات أو هشيم الكراسي وبعضهم بالنبايت اشتروها من المخازن القريبة خصوصا من السوق الجديد في هذه الحالة رؤي موسيو كوكسون نازلا من بيت أحد المالطين بلباس ملكي ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عند ما أراد أن يركب

العربة ففر ونجا منهم - وصحبه ﴿عمر لطفي﴾ في أثناء الطريق (٤١) لم يكن المسيحيون مدافعين بل كانوا يهاجمون أيضا . وقد طارت الفوضى ، ورؤيت عربة تمر حاملة قتلى من عساكر المستحفظين . وعلى القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الاروام المسلحين على حسب الاوامر المعطاة لهم وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بدون تمييز ولم يأت أحد من العساكر ولا من البوليس ﴿ولا المحافظ﴾ لاطفاء النار (٤٢) على القرب من تمثال محمد علي حيث لم توجد مقتلة وجد نحو اثني عشر قتيلًا ليس فيهم أوربي إلا واحد

(٤٣) وعلى القرب من زبزينيا رؤي ﴿عمر لطفي﴾ فسأله سائل كيف

تكون هنا والمذابح على خطوات منك؟ فقال لست بقائد وهذا لا يعنيني . فسأله

لم لم تحضر بلباسك الرسمي على حصانك شاهراً سيفك في خمسين من عساكر

المحافظين وبذلك كان الامر ينتهي؟ فاجابه انصرف ليس هذا من شانك ،

وهل أنت محافظ البلد؟

وبعد ذلك مر أحد موظفي المحافظة فسئل ماذا يفعل الضابط؟ فقال انه

مريض وقد طلب من المحافظ مراراً ان يرسل العساكر فلم يفعل (١)

(٤٤) سليمان سامي كان مستعداً لارسال العساكر إذا ورد له الامر من

نظارة الجهادية ولكن لم يكتب أحد بذلك إلى النظارة لان الامر بيد المحافظ

وقد بدأ في المخابرة التلغرافية مع القاهرة من بدء الحركة ولا جواب على ما يظهر

(٤٥) ذهب نينه عند قنصل الروسية وحدثه بما رآه من المحافظ فعجب

وقام للمخابرة مع اخوانه القناصل وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعرابي

وكانت الساعة ٤ بعد الظهر

(٤٦) نحو الساعة ٥ بعد الظهر فابله من اخبره ان عرابي ارسل الاوامر

لاعادة النظام ، كانت الشوارع غاصة بالرعاة والاباش يحملون الاسلاب ويصيحون

ويسبون وبعد نصف ساعة عاد النظام الى ما كان

(٤٧) لم تقتصر المذبحة على شارع البنات بل وقع ذلك جهة الجمرک وشارع

رأس التين وأبو العباس (أيضاً) . واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين في هذه الحالة

خاصوا نساء أورييات وأوصلوهن إلى بيوتهن

(٤٨) يقال ان أخوين انكليزيين كانا مسلحين بلوفر فير (مسدس) ولم

يكونا يحسنان استعماله قتل أحدهما بضربة عصا أطارت سلاحه من يده

(٤٩) ظهر في اليوم الثاني أن عدد القتلى الوطنيين كان ١٦٣ غير من أخفام

المتشاجرون اذ حملهم سرّاً من وسط المعركة

ومجموع ما وجد من جثث المسيحيين أوريبيين وغيرهم ٧٥ كثير منهم مصاب

برصاص في قمة رأسه* فمجموع القتلى ٢٣٨

(* لهذا كان عمر لطفي باشا و ساطان باشا أبيض البشر الي صاحب الترجمة رحمه الله

(* هذا يدل على ان هؤلاء قتلوا بالرصاص الذي كان يلقه الاروام والمالطيون

من أعلى بيوتهم بغير حساب

(٥٠) لم يصل الخبر عرابي الا الساعة أربع وربع بعد الظهر مع أن القليل من موظفي التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا في تلغرافات **المحافظ** حتى ان رسالتين مهمتين من أحد الميرالايات في اسكندرية لم تقبلوا لاشتغال العدة بتلغرافات **المحافظ**

(٥١) عمر باشا لطفي طلب إنزال عسكر انكليزي لعجز عرابي عن الامن (١٢ يونيو سنة ٨١)

(٥٢) موسيو كليكن كويسكي القائم بأعمال قونسلاتو فرنسا رجع الى عقله وأخذ في طلب تحقيق عن أسباب الحادثة فصدر الامر في الحال بذلك وبعد هذا امتنع الاعضاء الاوربيون من العمل : وألح الوطنيون على التحقيق مع حبس من تظهر الشبهة عليه من الاوربيين ، فعارض في ذلك مندوبو اليونان والانكليز وأبي مندوب فرنسا الحضور " وطلب بعض وكلاء الدول شق عشرين شخصاً من المذنبين وبهذا تنتهي المسألة في رأيه (١١ يونيو)

(٥٣) جيش صادق بك وكيل الضابط (سيد قنديل) لم يمكنه أن ينفذ شيئاً من تعليمات الضبطية لأن **عمر لطفي** كان يعمل بعكس تلك التعليمات وبعد ذلك عين وكيل حكمة ادارة السودان بناء على توصية **عمر لطفي** فهل لا يعاديه حتى لا يشهد أو مكافأة له على المشاركة في الجناية؟

(٥٤) بعد الحادثة نبه القناصل على الرعايا بالهجرة مع الطلب من كل ان يكتب ما عنده فكتبوا دفاً وزادوا فيها ماشاؤا . ذلك أن القناصل كانوا يعتقدون أن البلد ستضرب وازادوا أن يرجح رعاياهم ما يشاءون^(١)

(١) ليعتبر الشرقيون بهذه الذم وبهذه التصرفات ولاسيا الذين يعرفون بما يمدح به هؤلاء الافرنج انفسهم وما يذمون به المصريين وسائر الشرقيين وما يصفونهم به من التعدي والعصب

(٥٥) في الاسبوع التالي للحادثة اشيع خبر ان سيمور لا يعتقد ان للحزب الوطني دخلا في الواقعة فاهتم الخديو وأمر عمر لطفي ان يخبر سيمور ان تعهد عرابي بالأمن أصبح لا يعتد به ويخشى من مذبحه أخرى - ففعل ولكن لم ينل جوابا شافيا (أخبر

الكاتب نبيه عرابي بذلك وطلب منه عزل * عمر لطفي * ولم يتيسر)

(٥٦) ثم عينت وزارة راغب واصدرت عفوا عن الجرائم السياسية غير ان القناصل لم يعترفوا بها تبعا لتوصلي فرنسا وانكلترا

(٥٧) بمد ضباط سيمور خبر الطوابي (١) وانها ليست بشيء (هذا

الباعث له على الضرب)

(٥٨) عساكر الطبجية كانوا في بلادهم بتعلة الاقتصاد ، كان في الطوابي مائة

مدفع وواحد ، منها ٦٩ كانت في مواضعها الحربية والباقي كان مرمياً بفضه بجانب بعض وذلك من نحو اثنتين وثلاثين سنة قبل الواقعة

وأما البمب (أي القذائف أو القنابل) فلم يفارق مخازن الترسانة، قبل الضرب

بيوم واحد لم يكن جهز مدفع من المدافع بما يلزمه من بارود وبمب

غيرة الاهالي يوم الضرب

(٥٩) تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من اهالي

الاسكندرية هم الذين يتقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الاميرال ومن أرسله

(٦٠) لورد نورثبروك أرسل البروفسور بلير (بالمر) ليغوي قبائل عربان

غزة من شهر يونيو وقابله نبيه وكان لا يذكر اسمه لتكره . وقال له يوما قبل

الضرب بمدة : ايهاجر فان المدينة ستضرب

(١) المؤلف : هذه الجملة ليست واضحة في مسودة المذكرات وتدل القرينة

على سقوط شيء منها ، والمراد منها أن سيمور قائد الاسطول الانكليزي عرف حقيقة حال طوابي الاسكندرية بالاختبار وانها غير مستعدة لضرب بوارج الاسطول ولكن لا يعلم من أخبره بذلك . وكلمة بمد في أول الجملة لا يعلم متعلقها ، ويحتمل أن يكون

أراد بها « بعض » أي ان بعضهم اختبر الطوابي . ولكن كيف كان ذلك

(٦١) قبل الضرب بمدة صدر أمر من مدير شركة اتصالات الانكليزية بتعديل في بعض الخطوط وطلب وكيلها في مصر مد خطوط إلى بورسعيد والسويس تحت الماء ، وأذن له عرابي ولكن لم يتم
مدير الشركة في لوندرا طلب من وكيله بمصر في شهر مايو أن يتغيب بالاجازة إلى أن تنتهي الحوادث فان ميلاه إلى الوطنيين قد يضر به عند الغالين إذا حدث حرب
(٦٢) قنصل الروسية أكد لنيه ان الاسكندرية ستضرب وسأله أن يسعى على الأقل في عزل عمر لطفي . عزل عمر لطفي وعين ذو الفقار وهو لا يريد إلا ما أراد الخديو

﴿ شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ﴾

تحرش الاسطول لضرب الاسكندرية

(٦٣) في ٩ يولييه : كتب سيمور لطلبه (باشا) في شأن وضع المدافع وتجهيز الدفاع وتوعد بالضرب
(٦٤) في ١٠ منه : كرر ذلك الاشتكاه وقال انه سينفذ تهديده ان لم يسلمه طابية رأس التين لتجربدها من السلاح (لم يكن شيء من التجهيزات قد وصل في ذلك اليوم) فارسل اليه قرار من مجلس النظار تحت رئاسة الخديو حضره أيضا كثير من الاعيان محصله ان مصر لا يمكنها تسليم موقع من مواقعها إلا قهراً ، وان شيئاً مما يدعيه لم يحصل من يوم صدور أمر السلطان بمنع ذلك . وما كان قد حصل (فهو) من الترميمات السنوية . وان المدافع لم تزل على حالها من سنين وصل الجواب اليه ضابط قال له ان شاء فايبرز بنفسه الطوابي ولتتحقق مما يدعيه . فأجاب بانه مصر على وعيده ، وان عرابي لم يزل يحول بينه وبين مصر الخ
﴿ رأي الخديو توفيق باشا في ضرب الاسكندرية واحراقها ﴾
(٦٥) ١١ يولييه : أحد الميرالايات الذين في مية الخديو قال له : مامصير الاسكندرية لو ضربها الانكليز؟

فأجاب (أي الخديو) ستين سنة !! وهز كتفه

فقال الضابط . لكن السكان سيحرقونها فأرجو أن تتوسط لدى الاميرال

والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفافية

فأجاب (اي الخديو) فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبه على طوبه حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين ، وسيدوق الاوريون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب (٦٦) الخديو ذهب من رأس التين إلى الرمل والمحافظ وموظفو المحافظة انسحبوا واختفوا

﴿ حرق الاسكندرية وضربها والمهاجرة منها ﴾

(٦٧) بين من حرقوا الاسكندرية اروام بلباس عرب رؤيت جنثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد علي ممن كانوا على صلة بالخديو - ومنهم من أهالي الاسكندرية - ومنهم أوريون بقصد النبالغة في التعويضات . وذلك بعد ما أخلت الاسكندرية ممن يخشى عليهم

(٦٨) في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ الساعة ٧ صباحا ضربت الاسكندرية ، وكان قد أوصى عرابي ضباطه ، ألا يضربوا الا بعد خامس طلقة من المراكب (٦٩) قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن على ايديهن ومات الاطفال أيضا ، وحمل النساء والاطفال وهن على هذه الحالة .

(٧٠) هدم المسجد الذي في طابية قائد بك عمداً وجهت اليه النار على قصد

المهاجرون من الاسكندرية

(٧١) نحو مائة وخمسين الفاً من السكان مجردين من كل شيء أخذوا في الحركة لغير قصد ولا لأوى الموت والفرع ملء نفوسهم على شطوط المحمودية الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة ،

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ، متحركة في كل جهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرفي تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة

عود الضرب ثاني يوم .

(٧٢) في ثاني يوم الساعة ٨ صباحا عاد الضرب إلى الساعة الحادية عشرة وأصاب الاستيائية وهجرها كثير من المرضى والجرحى وكان عليها العلم الابيض بالهلل الاحمر .
 (٧٣) طالبة (باشا) بعد ان رفع العلم الابيض على نظارة البحرية ذهب الى الاميرال **يانه** عن سبب عودة الضرب فاجابه أحد الضباط عن لسان الاميرال أنه يطلب تسليم الطوابي والتشلاقات أيضاً . طالبة اراد المخاطبة مع مجلس النظار ، انتشر الخبر في المدينة ، أخذ العساكر في اخلائها ، هلع الناس وأخذوا ثانيا في الهرب (٧٤) دخل اولاد علي للنهب . سليمان سامي سلم محافظة محلة الاوربيين إلى عساكر الرديف الذين لم يكونوا أفضل من العربان فانضموا اليهم في النهب آخر النهار .
 ❀ عود الى وصف المهاجرين من الاسكندرية ❀

(٧٥) اما الهاربون فكانوا كالاغصير أو كماء انكسر سده فاندلق ، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكبين ، في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين امامهم أو حاميين على ظهورهم ماخف حمله من امتعتهم : حيوان ، اثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التي لا قيمة لها .

في هذه الحالة - حالة شعب طرد من بيته - كان الحر شديد او غيم من الغبار سد الافق ، وأظلم الجو ، نساء يبحن عن أولادهن ، يتساجرن بعضهم مع بعض ، يتضاربن ، في أخلاط لا يمكن التعبير عنه - عربات بلا عجل استعملت مساكين - عربات من كل نوع بعضها ساقط في الحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بجخيل ، بعضها بغير خيل - روائح شي اللحم - صياح على المارة : الخبز الخبز

(٧٦) ابتداء الحريق في المدينة الساعة ١١ مساء من ثاني يوم الضرب

(٧٧) في ١٣ يوليو توجه الخديو من الرمل الى رأس التين ، وعسكر

عرايبي في كفر الدوار

(٧٨) في ١٤ يوليو عند ما وصل عرايبي لكفر الدوار اجتمع عليه النساء والرجال ياعنون العالم ويطلبون الخبز ، فوعدهم بالقوت وبما يحملهم مجانا الى داخل البلاد وقد أرسلوا مع تواصي المديرين ليقبضوهم ويضعوهم في أعمال بقدر الطاقة

﴿ كتاب تاريخي من الخديو إلى عراي ورد عراي عليه ﴾

(٧٩) في مساء ذلك اليوم (١٤ يوليو) ورد لعراي كتاب من الخديو

محصله بعد العنوان .

سعادتو عراي باشا ناظر الحربية في معسكر كفر الدوار —

« إنك تعلم ان الاميرال الانكليزي لم يرد حرب مصر وإنما اطلق المدافع على الطوابي بسبب ما كان جاريا من التجهيزات كما انذر به ، وقد اعلنا أنه يجب اعادة العلاقات معنا ، وانه مستعد لتسليم الاسكندرية لجيش منظم مطيع ، فان لم يكن فالى جيش عثماني ، وقد قرر مؤتمر الاستانة ان للسلطان وحده حق المداخلة بقوة السلاح في المسألة المصرية . فعليك ان تحضر مع رفاقك الى رأس التين للمداولة في ذلك ، وأمرك بالكف عن التجهيزات التي لا فائدة منها بعد الآن »

فاجاب عراي بعد التعظيمات

« ان الاميرال انما اطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم بانه لا تجهيز ولا تحضير ، وقد عددنا جميعا (وسموكم معنا) ان انذاره بالضرب اهانة لمصر و اعلان بحربها بلا سبب ، ومع ذلك فلم يقتصر الضرب على الطوابي كما قال بل قذف قنابل مفرقة على الاملاك حتى قتلت ودمرت كثيرا ، وان عسكريك المنظم مستعد لان يأتي المدينة عند الاقتضاء ، وانا لا ارفض أي مخابرة في الصلح ، لكن يلزم ان يتذكر ان التمدي وخرق سياج السلم وتدمير المدينة انما جاء من المراكب الانكليزية ، وان الطوابي لم تجاوب إلا بعد خمس ضربة من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرءوس بسموكم وحضور درويش باشا »

« ومن المعلوم ان انكلترة أصبحت بذلك محاربة لمصر ، اذ بعد اطلاق النيران اثنتي عشرة ساعة واضطرار العساكر المصرية لاخلاء المدينة وإشغالها بعساكر انكليزية لا يمكن ان يقال ان البلد في غير حرب

« سموكم يعلم أنه في هذه الحالة لا يمكن ان تكون مداولة حرة ما دامت المراكب الاجنبية في مياه الاسكندرية بل يجب ان تبعد عنها ، فاذا حصل ذلك فاني مستعد لاجابة الدعوة حالا . اما التجهيزات فيجب ان تستمر الى ان تبعد

المراكب عن الاسكندرية. تلك التجهيزات التي يشير اليها اسمكم وهي جمع ٢٥ ألف مقاتل هي التي امرتم بها وما انا الا المنفذ لامركم

﴿ عزل الخديو لعرابي باشا ﴾

(و اتفاق الناس على مخالفته واستمرار الاستعداد للحرب)
(٨٠) بعد أيام صدر الامر بعزله ووزعت بذلك منشورات لهذا السبب وصرح فيها بانه كان ناظر الحربية إلى تاريخ الدعوة إلى رأس التين
(٨١) طبعت نسخ من تلك المحاطبات ووزعت في البلاد فجاء الناس لعرابي طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوارد عليه من كل جانب ثم شرع في بناء الاستحكامات ، وأغرق الجانبان من جهة الملاحات ، وانتهت القلاع في قليل من الزمن ، وساعد على ذلك ان العدو لم يكن يعمل شيئاً

﴿ الجيش المصري والمتطوعون فيه والجيش الانكليزي ﴾

(٨٢) كان الجيش مؤلفاً من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفعاً من كروب . وكان يوجد في أبي قير ثلاثة الاف وخمسة ، والفان وخمسة في رشيد ، وخمسة آلاف في دمياط ، المجموع أحد عشر ألفاً^(١) اما الخيالة فلم يكن لهم وجود إلا قليلاً
(٨٣) كان من عمل المراكب ان تهدد في حركاتها النقط المد كورة لمنع

عرابي ان يرسل جيشاً إلى الوادي

(٨٤) أدخل العربان في الجيش على علم من عرابي بمضرة دخولهم . شرع في جمع عساكر الرديف ولم يكونوا يصلحون لشيء . شرع في جمع غيرهم . ودخل كثير من المتطوعين ولسكن لم يكن يكفي لجملهم جيشاً صالحاً للدفاع وراء الجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد ، واما في الفلا فلا أقل من سنة لمسكري ألماني ومن سنتين لمسكري انكليزي

١ أى مجموع العساكر التي في الثور المذكورة فتكون مع الجيش المنظم الذي

(٨٥) قالت التيمس: أرسلت الحكومة الانكليزية ٣٥ ألفاً وستبلغها ثلاثين ألفاً لمقاتلة الجيش المصري

﴿ طلاب التطوع في الجيش المصري من الاوربيين ﴾

(٨٦) كثير من ضباط التليان والالمان والسويس عرضوا انفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين والبعض كان يطلب وسيلة للنقل والبعض لم يكن يطلب (كالألمان) إلا تعيين الضابط الاكبر باسم رفيع في الجيش. أما الفرنسيون فجاء من بعض المفلسين منهم شيء لا يلتفت اليه غير أن البحر كان مأخوذاً تحت مراقبة المراكب الانكليزية، والمواصلات كانت منقطعة تقريباً بين مصر وأوروبا

﴿ آراء عرابي في حالته وفي عدم الثقة بالفرنساويين ﴾

(٨٧) لم يكن بهم عرابي عندما رأى في بعض الجرائد الفرنسية والانكليزية تلقيه بعاص - الإحفاة أن يصدر بذلك أمر، وكانت له ثقة بالسلطان إلا إذا كره. وتذكر البارون درنج وكان يلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع أنه كان موظفاً في خارجيتها. ثم بعد ذلك أخذ يدكر مصائب الاحتمال الفرنسي في مصر أيام نابليون وما احتال به هذا ومنو* على المصريين من الاكاذيب، وما حصل من الفرنسيين في تونس، واستنتج أنه لا يمكن الاعتماد على فرنساوي في شيء (١)

(٨٨) عندما ضبط الاسير الانكليزي واستنطقه عرابي وسأله (٢) عما كان مكتوباً على بعض الكلال (٣) من اسم «اسكندريا» فأجابه حصل تحريف والحقيقة «اسكندرا» اسم المركب، فاعتذر عرابي بعدم معرفته الانكليزية. ثم قال له

(* هذه كلمة مبهمه لم نستطع قراءتها قد تدل القرينة عليها

(١) المؤلف: ولكن عرابي القرا اعتمد بند هذا على داسبس الفرنسي في حياية القتال من الانكليز كآراه في عدد ٨٩ (٢) وقوله واستنطقه عرابي وسأله الخ لا بد أن يكون أحد الفعلين بغير واو العطف (٣) الكلال تنطق بالكاف المفخمة واصلمها قاف ولما هم كتبوها بالكاف حتى لا نشبهه بقلة الماء واصلمها واحد

لعلك رأيت ما يخالف عما قرأت عن المصريين ؟ فأجابه نعم ولكنني عسكري .
ما علي إلا أن أطبع

(انخداع عرابي بنفش دلسبس في تركة القنال)

(٨٩) عرابي اعتمد على دلسبس في حماية القنال وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الامم لهذا ترك تلك الناحية عوراء ، وعند ما أحس دلسبس بأن الجيش المصري قد يتحرك ناحية القنال كتب تاعرافاً لعرابي يقول له من المستحيل ان عساكر الانكليز تمر من القنال

وبعد واقعة مهمة في ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقيها بأن اثنين وثلاثين مركبا توجهت إلى القنال فورد تلغراف من دلسبس يقول : لا تشرع في شيء يس القنال ! لا يمر عسكري انكليزي الا ومعه جندي فرنساوي ! أنا مسئول عن كل ما يحصل . فأجيب بأن هذا غير كف وتقرر ارسال جيش ثم أرسل الجواب ببطء وقبل أن يتحرك عسكري إلى ناحية القنال كان الجيش الانكليزي قد احتله وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة في مخابرة دلسبس ، ويظهر أنه كان في الحاضرين خونة حملوا الاخبار وأبطأوا في المخابرة

(٩٠) قال ولسلي لو قطع عرابي القنال كما قرر لم يكن لنا إلا حصر مصر ، والضرب في البحر أربعة وعشرين ساعة خلصتنا وأنجتنا

(أخبار القتال بين المصريين والانكليز وضعف عرابي وجيشه)

(٩١) في ٢٣ و ٢٤ أغسطس كانت واقعة نفيسة وأسر محمود فهمي (باشا) فجاء سامي (باشا) بنفسه وطالب من عرابي أن يذهب الى ناحية الوادي

(٩٢) جيش الجهة الشرقية كان أغلبه من العساكر المجموعة حديثا التي لا تساوي شيئا . خسارة محمود فهمي كانت جسيمة لا تعوض وليس من السهل تعويضه . عرابي وجميع الضباط ومحمود سامي شعروا بالضعف والوهن عند ذلك .

(٩٣) قررت مشورة حربية اغراق المنطقة الشرقية مما وراء الزقازيق .

ذلك أخاف عرابي وأرهبه فلم ينفذ . وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط . ورشيد وارسال مثل عبد العال إلى جهة الوادي ، فنفذ شيء وأوقف شيء ولم يحضر عبد العال وكان حضوره مفيدا

(٩٤) ذهب عرابي الى الوادي في حزن وانكسار قلب . وقد اعترف أنه في مدة الستة أسابيع لم يأت اجتهاده بتنظيم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها . أرسلت عساكر الى الوادي وجاء الى كفر الدوار من عساكر الرديف الهرمون والمؤفون (١) (٩٥) مع حركات الجيش المتواليه ، وتلك الدهشة المستولية ، كان النظام والخضوع مستوليا على الجميع .

﴿ عود الى خيانة سلطان باشا ﴾

(٩٦) في ٢٧ أغسطس جاء خبر بأن فارسين خرجا من الاسكندرية . وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد علي من عائلة شهيرة بالفيوم فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار . ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه الى رؤساء القبائل وبعض

الضباط يدعومهم إلى ترك عرابي والاتحاق بالجيش العثماني الذي جاء لاختضاع العصاة

استنطقوا فاعترفوا بكل شيء : وذكروا أن جنديا بحريا انكليزيا يسمى

(جيل) حمل ثلاثين الف جنيه من سيمور ليأحق بالاستاذ (بالمر) يستميل معه

عربان غزوة ، وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا إلى رؤساء العربان

في الشرقية - وان مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الانكليزي

إلى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إلى القائد ذهب إلى السويس

لمقابلة (بالمر) وقد قطع سلك التلغراف الذي يصل بين مصر والآستانة . وكان

(١) أي الذين ادركهم الهرم والمصابون بأفات العاهات فلا يستطيعون عملا . مؤفون

جمع مؤف وأصله مأووف اسم مفعول من أوف الشيء أو الشخص أي أصابته آفة أو عاهة

كل ذلك حقا فان قائد الفرقة البحرية في القنال أخذ المبلغ من (جبل) وسلم منه أربعة آلاف جنيه إلى (بالر) وحجز الباقي على حسابه وأرسل معه جبل وضابطا آخر قتلوا جميعاً بين العربان

(٩٧) مركز الدسائس والمخابرات كان في اسكندرية في مكتب يسمى (قسم المخابرات العسكرية) اجتمع فيه كثير من الانكليز من موظفي الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر

وكان روح الجميع سلطان باشا

(٩٨) عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الانكليز لا يفيد، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح، فأخذ في التوزيع باسم الخديو والسلطان، واختار لبث الافكار الحاوي الطحاوي أحد ثقة عرابي، فكان الحاوي يظن اخوانه العربان بمصيان عرابي وقوة الجيش المحارب ونحو ذلك، وكانت القيم التي تدفع إلى الافراد تتفاوت من جنبيين إلى ثلاثة. ولم يكن عرابي يقتنع بخيانة العربان وكان الحاوي مع ذلك ينجر عرابي ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابي كان يفضي اليه بجميع ما عنده

(٩٩) في واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغي وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف في الساعة الثانية بعد نصف الليل على الجيش الانكليزي، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانكليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق في الساعة واحدة. وجرح علي فهمي وراشد باشا وانهزم الجيش، وما ذاك إلا من الجواسيس العربان. وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت إلى قلب

الجيش وإلى كثير من الضباط بسعي سلطان باشا ومراسلة العربان (١٠٠) في ١١ سبتمبر جاء عرابي مراسله ينبئه بخيانة العربان. فأبى قبولها هائلا انهم مسلمون (!!!)

(١٠١) في ١٢ سبتمبر أنبىء عرابي من المنبع نفسه (بعض رؤساء العربان

أيضا) بأن الانكليز سيضربون التل الكبير ويرمون إلى بلبس (جهة حصنها
الفرنساويون من قبل) ليأخذوا هذا الموضع ويفتحوا طريق القاهرة . اقتنع
عراي بصحة الخبر فأرسل إلى طلبة يطلب منه ارسال فرقة من الجنود لتكون
في التل الكبير صباح الثالث عشر من شهر سبتمبر . جاءت الفرقة ماشية ، وصلت
الزقازيق في صباح اليوم المذكور بعد الهزيمة

(١٠٢) يقول أحد الضباط إنه في الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا
إلا بصياح العربان ، وبضرب النيران ، ولم يعرف من كان لهم ممن عليهم ،
ووقع الاضطراب العام ، والجيش الجديدة انهزمت فكان الانكليز يقتلونهم
كانهم في الصيد ، وقاوم ثلاثة آلاف فني نحو نصفهم . وبعض الضباط كان في
عجز عن المشي عن الفرار (اهلها عند الفرار) لتقل النقود التي كان يحملها فتهب
من بعض السودانين

(١٠٣) يقال ان عراي كان يحب اطالة زمن الحرب (أي رجاء أن تتدخل
الدول في المسألة كماقاله الاستاذ في موضع آخر — المؤلف)

[يقول المؤلف محمد رشيد رضا] هذا ما عندنا من المذكرات الخاصة بالفتنة
العرايية أثبتنا بحروفها كما كتبها رحمه الله في تلك الايام الحالكه الظلام ، المشبهة
الاعلام ، المثيرة للاوهام ، حتى انني لم أصحح ما أقطع بانه من عنرات القلم وان كتب
في بعض المواضع على الاصل الصحيح ، وفي بعضها على المشهور الدائر على السنة الناس
كلفظ الاسكندرية واسكندرية وسكندرية . وانما وضعت قليلا من العناوين
لبعض المسائل المهمة في سطر مستقل للتنبيه والترويح فيها وبعض الخطوط على
بعض الاعلام أو الجمل من فوقها وقائلا من الكلمات المفصرة والموضحة بين
علامتي الادراج هكذا () وأما الجمل التي وضعت بين هاتين العلامتين فهي
له رحمه الله تعالى الا الاخيرة منها التي ختمنا بها كلمة المؤلف وفي هذه المذكرات
عظات وعبر لو اتبعت لاستاذنا رحمه الله تعالى أمام تاريخ الفتنة العرايية وشرحها
لاستفاد قراؤه منها مالا يوجد له نظير الا في كلام حكماء المؤرخين الاعلام الذين
يقل عددهم حتى في الامم الحية العزيزة ، وكان لدى الاستاذ ملخصات مترجمة من

الجراند الاجنبية فيما كانت تكتبه من الاخبار الآراء في المسألة المصرية في أثناء تلك الفتنة، كانت تترجم بأمره لادارة المطبوعات التي هورئيسها ولدينا بعضها ولكن لا حاجة لنا بنشره لاننا نكتب تاريخ الرجل لا تاريخ الثورة العراقية، وقد جئنا بما علم به رأيه في اسبابها و نتائجها وسيرته في اولها وآخرها .

ولما كان غرضنا من كتابة تاريخه استفادة الامة مما فيه من العبرة حسن منا أن نذكر القارىء ببعض الفوائد التي تؤخذ مما كتبه في هذه المسألة كتابة للمؤرخ الصادق الحكيم والوطني الصميم .

﴿ بعض فوائد ما كتبه في المسألة العراقية ﴾

(الفائدة الاولى) ان الاوربيين كانوا يتصرفون في الدولة المصرية و البلاد المصرية أسوأ التصرف وأشده إفسادا للنظام ، وكلبا في جمع الحطام ، و يوسقون للحكام والرعية كما تساق الانعام ،

(الفائدة الثانية) ان أمراء البلاد لم يكن عندهم من العلم بطبائع الامم و حقوق الدول و أخلاق البشر و تاريخهم و سنن الاجماع مليهديهم الى السياسة المعقولة و الادارة القويمة في حفظ ملكهم الاستبدادي ، لذلك كان اسماعيل باشا هو المحتاح لثروة الامة و الدولة ، الممكن اننفوذ الاجانب فيها ، و الممهّد للثورة التي هي موضوع بحثنا ، وهو يظن أنه سيجعل مملكته كمالك أوربة . و كان توفيق باشا هو الموقد لثارها ، و الداعي للانكليز إلى احتلالها ، من حيث يظن أنه يحفظ سلطته من عبث الرعية بها .

(الفائدة الثالثة) إنه لم يكن في رجال هذه الدولة و أصحاب النفوذ فيها أوفي الشعب رجل كبير العقل بعيد الرأي قوي الاخلاص و العزم يتلافى الثورة على علم و بصيرة ، بان يحقق ما حققه الشيخ محمد عبده من أسبابها ، ويقنع الخديو توفيقا بما يجب فعله في امرها ، و قد كان هذا ممكنا مع توفيق لما كان عليه من الدماثة و ضعف الارادة ، مع حب الخير و التدين ، و لو كان لهذا الشاب الازهري محمد عبده مدير المطبوعات و رئيس تحرير الجريدة الرسمية ما كان لرياض باشا و شريف باشا من المكافحة في الدولة أو ما كان لسلطان باشا من الجاه و الثروة في الامة ، لتمام هذا

الواجب. كان سلطان باشا يعلم ان عرابي وأخوانه الضباط المصري العرق ما فكروا قبل تفانم خطب هذه الحوادث بالخروج على الحديو ولا في تقييد سلطته الاستبدادية بمجلس نواب ولا بغيره ، وكان يعلم ان غرضهم الاول من طلب المجلس الامن على أنفسهم ثم على وظائفهم العسكرية ، وان غرضه هو من المجلس الذي اتخذهم وسيلة له ان يكون وزيراً أو رئيساً له ، فكان يمكنه بهد استفعال الخطب وقرب وقوع الخطر على البلاد بالاحتلال الاجنبي — وقد رست بوارج الاسطول أمام مدينة الاسكندرية — ان يقنع الحديو توفيقاً بمحقيقة أمر العرايين وان اخضاعهم ممكن ، وأنه خير له وللبلاد من الاستعانة عليهم بالانكليز ، فان هؤلاء اذا احتلوا البلاد احتلالاً عسكرياً بظهورهم على قوتها العسكرية فان سلطانه الحقيقي يزول ، وإنما يبقيه الانكليز كالشبح الماثل ليستعينوا باسمه على حكم البلاد كما يريدون ، كما فعلوا في بعض الممالك الهندية أو دون ذلك ، ولكن سلطان باشا كان أصغر نفساً وأقل علماً وإضعف وطنية من ذلك ، بل كان خائناً خان أميره أولاً بشبهة خدمة الامة وجعل حكومتها مقيدة بالشورى النيابية ، ثم خان أمته بشبهة خدمة أميرها والمحافظه على امارته ، وإنما خدم الانكليز وحدهم

فان هو من الشيخ محمد عبده الذي كان ساخطاً على عرابي وجماعته منكرًا عليهم اقتياتهم على حكومتهم وأميرهم ، محذراً إياه من سوء العاقبة بانهاء فتنة باحتلال عسكري يوجب لمسيه لعنة التاريخ الى يوم القيامة ، ومنكر أعليه وعليهم التمجيل بطلب الحكومة النيابية قبل إعداد الامة لها ، على أنه كان هو واستاذ السيد جمال الدين أول من نبه الافكار ووجه القلوب اليها ، ثم لما آل الامر الى تدخل الاجانب في أمر البلاد بطلب الحديو اضطر الى ان يكون مع الامة عليه ويساعد الامة ما استطاع من رأي ، وقد تقدم ما يثبت ذلك بالتفصيل

(الفائدة الرابعة) ان من أهم أسباب هذه الفتنة ، وما آلت اليه من المحتمة احتقار الحديو ورجال بلاطه وكذا وزراؤه وكبار ضباط جيشه من الترك والجرس للمصريين الخالص ، والتعير عنهم بالفلاحين للتحقير والتعير . وعدم غير أهل لمناصب الدولة ، ولذلك عظم على توفيق باشا ان يطلب منه هؤلاء الفلاحون حقوقاً وقد

خفقوا على رأيه ورأي البيثة التي تربى فيها ليكونوا عبيدا ، حتى آل به الامر الى الاحتفال بانتصار الانكاز على جيشه وقبوله التهانى من الوجهاء على احتلالهم لبلادهم .
 وصلهم للملكه ! كما يراه المطلع على كتاب (مصر للمصريين) وعلى جرائد تلك الايام .
 والواقع أن البلاء وقع على رأسه هو لانه سلب منه ملكه الاستبدادي ، وان الفلاحين كانوا في عهد الاحتلال آمن على أموالهم من السلب ، وعلى أنفسهم من الاهانة والضرب ، مما كانوا عليه من قبل ، وهذا من أكبر ما أصاب الشعوب الاسلامية بعد زوال ملك العرب العادل ، الذين كانوا يعدون جميع المسلمين أخوة لهم في الاسلام ، وكانوا يساؤون في العدل بين جميع رعاياهم على اختلاف ملتهم ونحلهم واجناسهم ، وملاحدة الترك يعدون هذا من عيوبهم ، جاهلين انهم لولاه لما تم لهم إخضاع تلك الشعوب الكثيرة لسلطانهم ؛ وإدخال تلك الملايين في الاسلام باختيارهم .
 (الفائدة الخامسة) ان الشعب المصري في جملته قد قام بكل ما يجب عليه من الحقوق الملية والوطنية ، فقد بذل كل ما استطاع من المال والرجال في سبيل الدفاع عن بلاده ، وأما خانه بعض كبار رجاله كسلطان باشا وبعض الضباط وهمج البدو ، لارجال الحكومة والقصر (السراي) من الاعاجم الاصل وخدمهم .
 وقد استفاد الشعب المصري من هذه الفتنة أن شعوره بوجوده وبحقوقه قد انتشر في المدائن والقرى ، ووضف به ما كان مستحوذا على القلوب من هيمة الأمراء والحكام ، بعدما كان من جراء العرايين عليهم فان الاسباب الخفية الخاصة التي جرأت ضباطه على المطالبة بحقوقهم التي هي حقوق لشعبهم لم تكن معروفة للجمهور ، على انها كانت أسبابا شخصية ، دخلت في طور الحقوق العامة ، فكانت كما قال بعض أئمة العلم : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا الله واستفاد عقلاء الشعب من الحكم وغيرهم أنه لا قوة في هذا العصر للدولة الابالامة ، وان الحكومة الشخصية الاستبدادية اذا لم تسقط بقوة الامة فانها لا بد ان تسقط بقوة الاجانب ، وتكون آلة لهم يذلونها ويذلون الامة بها ، وأنه لا يرجى استقلال هذه البلاد الا بعد تمكن هذه العقيدة فيها ، وعملها بمقتضاها .

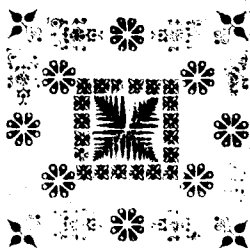
(الفائدة السادسة) ان الدولة العثمانية العريقة في الحكم وممارسة السياسة

الدولية لم تحسن التصرف في المسألة المصرية ، وكان يسهل على مندوبها المشير درويش باشا درء الخطر ، وحل الاشكال ، ولكنه كان خائفا أيضا فاخذ الرشوة من توفيق باشا وواقفه على هواه ، فابن هو من فؤاد باشا في حل مشكلة سورية ولبنان سنة ١٨٦٠ واخرجه للجيش الفرنسي منها بدهائه وحكمته

(الفائدة السابعة) أن الاستاذ كان مؤيداً لوزارة رياض باشا الاصلاحية ويرى أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذي يرجى أن ينهض بالامة في مدة خمس عشرة سنة كما بين ذلك في مقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارىء في الجزء الثاني من هذا التاريخ ، وكان يفضاها على إنشاء حكومة نياية قبل استمداد الامة لها . وإن كان اول من نبه الامة لها هو وأستاذه السيد جمال الدين ودعواها اليها كما تقدم . ولكنه كان يرى ان رياض قد افراط في المدل والاصلاح بعدم مراعاة استمداد الخديو ورجاله وأر كان حكومته الذين استمروا مرعى الاستبداد وطبعوا على الاسراف في استعباد الرعية الضميعة الجاهلة ، وأنه كان ينبغي له مداراتهم والرفق بهم ، وأنه لما علم بسخط اميره عليه وكرهته له كان ينبغي له ان يستقيل من منصبه أو يرضيه ان أمكن ، لأن طاعة الأمير واجبة عقلا وشرعاً مادام أميره فان ظلم وفسد وتعذر اصلاحه جاز السعي لاسقاط إمارته بالوسائل التي سنها الخالق الحكيم للاجتماع البشري ، ولكن لا يجوز الاستبداد عليه والعصيان له مادام أميراً ، (الفائدة الثامنة) أنه كان يعتقد أن عمل عرابي خطأ وخطر على البلاد ، لأن تصدي رجال الجيش لادارة الحكم وإرغام مثل السلطة العليا ومن دونه على ما يريدون ، قلب للنظام ، وافساد للحكم ، وافضاء بالدولة الى الفوضى ، ولأن الثورة العسكرية في مصر قد تفضي الى احتلال أجنبي يذهب باستقلالها ، وكان يعلم بما تلقاه عن السيد جمال الدين ما كان من سيرة الانكليز في الاستيلاء على الممالك الهندية ، ويعلم أنه ليس في البلاد من القوة العسكرية المنظمة ومن الثروة ما يمكنها من الظفر بدولة قوية غنية كالدولة الانكليزية — وقد تقدم عنه التصريح بهذا وكان مع هذا كله يعتقد أن عرابي باشا غر ساذج ينخدع للاجانب ولا يصح أن يخفى على رجل متعلم في الدرجة الوسطى ، وذكر عنه أنه انخدع

تتصل فرنسا الجنرال أولا وبموسيو دلسيس آخرآ، وإيمانهم بعد خراب البصرة أنه لا ينبغي لاحد ان يثق بفرنسة ولا باحد من رجالها — وأنه انخدع لأعراب تولاد علي وكان يطامع الحاوي جاسوس الانكليز على أسراره العسكرية ولا يتصور وقوع الخيانة منه ولا من احد منهم «لانهم مسلمون» فيالله العجب من فهمه لاسلامهم ومن ارتقائه بانفسهم فيه الى مقام الصحابة من المهاجرين والانصار ، والى درجة الاولياء والابرار ، بل عرج بهم الى أفق الانبياء المعصومين عليهم السلام. وأكثرهم لم يعرف من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، كما يقول خطباء الجمعة في مسلمي هذا الزمان من أهل الحضارة ، بله هج البداوة . فهل يرجي لجيش ان ينتصر على مثله أو ما دونه في العدد والعدد اذا كان قائده يبني أحكامه وأعماله الحربية على هذه الاوهام ؟ كلا ، فكيف يرجي ان ينتصر على جيش يفوقه في كل شيء من الاسباب كالأمدد والعدد والسلاح والنظام ؟

وأما كان الاستاذ مع هنا كله يشد أزرهم بما استطاع بمد وقوع العداء بينهم وبين الانكليز لان هذا واجب شرعا ووطنية ، ولو استطاع درء هذه الفتنة بمنع الثورة قبل استفحالها . و بصلاح شريف بمد وصولها الى آخر حدها ، لفعل . والله في خلقه سنن مطردة ، والموفق من الافراد والشعوب من اعتبر بها وراعاها في عمله ، (ولن تجد لسنة الله تبديلا * ولن تجد لسنة الله تحويلا)



خاتمة هذا المقصد

(في اتهامه وسجنه ، وما كان من تأثير السجن والوشاية في نفسه ، والحكم عليه بالنفي من بلاده)

لا تكمل تربية الرجال ، إلا بمكافحة الاهوال ، فعادن الانفس لا تصفون من شوائب الضعف في الحق ، ولا تتمكن من مقعد الصدق ، إلا بعد ان تعرض على نيران الحن ، وتذاب في بواتق العنن (فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) ولذلك يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده المصلحين بفتن الفسدين ، ليعلم الصابرين والصادقين (وليحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) فالفتن والكوارث تمحص أنفس المؤمنين بالله السائرين على سننه فتزكيا وتعلينا ، وتمحق الكافرين بنعمه ، والتنكبين لسننه ، فتدسيها أو تفتنيها .

وقد اتهم الاستاذ الامام في الثورة بما هو بريء منه ، وتفنن المناقون يومئذ باخبار السوء عنه ، وتقديم تقارير السماوية فيه ، فسجن وأهين كزعاء الثورة الذين كان يعارضهم ، ويحذرهم وينذرهم عاقبه جهلهم ، وحوكم كاحكوا بالجريمة العصيان ، ولكن ظهر بعض حقه في المحاكمة فحكم عليه بعد سجن ثلاثة أشهر وأيام ، بالنفي من القطر المصري مدة ثلاثة أعوام ، وقد زعم مستر برودلي محامي العراقيين الانكليزي ما تقدم عنه من سوء تأثير السجن في نفسه ، وحكنا عليه بالخطأ في زعمه ، وقد نشرنا قصيدته التي نظمها في السجن ، وبين فيها رأيه في الثورة ورجالها ، واننا نشرنا ما كتبه رحمه الله لبعض أصدقائه وهو في السجن لا يدري ما الله صانع به ؟ ففيها الحجة البالغة على خطأ برودلي بما كشف من الحجاب عن كبر نفسه ، وعلو همته ، وصفاء سريرته ، وحسن نيته ، وبعد آماله ، وثقته بمواهبه ونعم ربه . لانه كتب ونظم تحت سلطان تأثير السجن واحتمال القتل .

﴿ الكتاب الذي أرسله من السجن الى احد اصدقائه او مردييه ﴾

وفيه من وصف حاله فيه وما بانته من الوشايات فيه ممن كان يعدهم من اصدقائه أو مردييه ويحسن اليهم، وتأثير ذلك في نفسه - ومن وصف شعوره وآماله ونيته - ما هو أصدق تمبير عنها . قال :

في ٩ المحرم سنة ١٣٠٠

عززي

تقلدني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم
هذه حالي : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره
من مركز الارض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ،
وامتدت إلى القطبين ، فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس ، اذ تقلبت طبيعتها على
الواد الحيوانية أو الانسانية ، فاصبحت قلوب الثقلين كاللحجارة أو أشد قسوة ،
فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتشرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشمس والاقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة .
وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الافلاك دورة العكس ، ذاهبة
بنيراتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت
السلطة لآلهة الشر ، قلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا
على ذلك قادرين * (١)

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر - يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما
ويخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين ، كما يقال اغتاتهم الفيلان - فيمن هاكوا
باسباب مادية تجوزاً مبنياً على المعروف من خرافات العرب . ويعد بعض المفسرين
من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » - كما في انبيضاوي وغيره
وتوهم بعض أدياء العلم بالآلثة وقنونها وبالشريعة ان ذكر الآلهة ولو بأسلوب
الحكاية اثبات لها، كأنه لم يقرأ في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية عن العرب واستغلاماً،
ومن الثاني قوله تعالى (فما أغت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ، غطي فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركابها ، لا أرى إنساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أتوم مجيئاً ، أسمع ذئاباً تعوي ، وسباعاً تزأر ، وكلاباً تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تينيان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو بلا ريب من الهاكين *
تقطع جبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالاولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحققت على أهل الارض لعنه الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغىظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة القدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين *
ذهب ارباب السلطة في محور الحوادث الماضية ، يعرضون نطلب أصداف من الشبه ، ومقدوفات من التهم ، وسواقط من اللوم ، ليموهوا بمياه السفسطة ، ويفشوها بأغشية من معادن القوة ، ليرزوها في معرض السطوة ، ويفشوا بها عين الناظرين *
لا يظلمون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقمونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلابل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين *

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدي الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لانفسهم قول الزور ، واقتراء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الاباطيل ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالماً بان كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه ، لان الله يعلم — كما

أنت تعلم — أنني بريء من كل ما رموني به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً
أو كنت من الضاحكين *

نعم خفتني الغم ، وأصمى فؤادي الهم ، وفارقني النوم ليلة كاملة ، عند
مارأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم
أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمأن
قلبي ، وسكن جاشي ، عند مارأيت توارخ التقارير متقدمة ، ومع ذلك لم يصلكم
شر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح بابالا يذر الاحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان ^(١) تقريرين جملا فيها تبعات الحوادث الماضية على عنقي ، ولم
يتركا شيئاً من التخريف إلا قلاه ، وذكر أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعاد الناس
عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أعدهما من المجانين *

ولم أتعب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان
هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب ، غاية العجب ، بانغ ماشئت
في عجبني ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان (٢) الذي أرسلت اليه
السلام ، وابلفته سروري عند ماسمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *
إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ولكن سيصل إلي ، انما فيما بلغني أنه
شهادة باقبح شيء ، لا يشهد به الاعدوميين *

هذا اللائم الذي كنت أظن أنه يالم لألمي ، ويأخذ الاسف الحلي ، ويبدل وسعه إن
أمكنه في المدافعة عني ، فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة
في قلوب الحكام *

كم سمعتي أقاوم هيجان (٣) الجراؤد ، واوسع محرريه الوما وتقريباً ، وأهزأ بتلك
الحركات الجنونية ، وكان علي في بعض أفكاري هذه من الاعمين *
كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم

لم أنقض له عهداً ، ولم أبخس له ودّاً ، وحقيقة كنت بسروراً لوجوده ، وظفناً ، فأباله أصبح من الناكثين ؟

آه ما أطيب هذا القلب الذي يملئ هذه الاحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغیره على حقوق الاولياء ، ما أثبتته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الاصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وان كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب من الايذاء ، ولو للاعداء ، ما أشده رعاية للود ، ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ما تويج عليه الذم الطاهرة ، ما أقواه إقداماً على العمل الحق ، والقول الحق ، لا يطلب عليه جزاء ، وكم أهتم بمصالح قوم و كانوا عنها غافلين * هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سر قلوبهم - بالترقية ، وملاها فرحاً بالتقدم ، واطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطف المجاملة ، ودافع عنهم أزماناً - خصوصاً هذا اللثيم - أفد شرح الصدر وهم يخرجون ! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحهم وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذب معظمه من الاسف على ما يلزم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يجعل العموم في قلق مستديم ، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فان تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المظرة ، وجمعه ترساً يعرضونه لتلقي سهام النواب التي يتوهمون تفويقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يتدبون به أغراضهم ، فيتلون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسين *

آه ، ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الاحبة ، وان جادوا في تصرفهم ، ان طبيعة هذا اقلب لطبيعة ناعم الخبز ، إذا اتصل بذي الود ، وان كان خشناً فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وان هذا القلب في علاقته مع الوداء ، كالضياء مع الحرارة ، أيما حدث يحدث ، وأيما

كياوي يدقق، لا يجد للتحليل بينهما سيلا، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة
فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الآن وصلي تقرير اللثيم، فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني، وسأرد
عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنسانا، ولكن تصادف
فراغ الخبر من الدواة، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات
فكن معي من المتظرين *

*
*

وددت على التقرير، وكان كل ما فيه الغش والتعريف، وذكرك فيه فلانا... باشنع
ما يؤاخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخيستان قبله، ولكن دفعت ماقاله في جانبه
أيضاً. وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم، فماعدلكم ان سئلتهم الا
أن تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (التومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث، فلا
يدخل عليكم غش السؤال والارهاب، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون
وتعلمون من أفسكاري وأقوال التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية، ومن كانوا لها من
الطالبين * إلى هذا الحد قفوا، فان سئلتهم فقولوا ما نحن بتأويل الاحلام به المين *
في هذا الوقت وصاني الرقيم مبشراً بيقائكم في مركزكم، فقامت ورفعت
يدي ورجلي وناديت: الحمد لله رب العالمين * وأخذني الاسف على حبس فلان
لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقين *

ياعزيزي، أعود إلى ذكر ما لأولئك القوم، كما بما قذف بهم من شاحق جيل
فسقطوا على رؤوسهم، فغشهم من شدة الصدمة ماغشهم، فقاموا ينطقون بما
لايعون، ويتكلمون ولايفهمون، ما بالهم يقذفون من أفواههم أخلاطاً أقدر من
البغم. وامر من الصفراء، وكأنا جرعو جرعة من السم فقلبت أمعاءهم
فاستفرغت من حلاقيمهم أخبث ما يحملون *

ما بال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر زهوت، تقذف بسائلات

بشمة الطعم، خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، تضطر معانيه للفرار منها؛ لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لا يشمون ولا يدوقون، ومن ظلماتها لا يبصرون * هل بطل يا عزيزي ماجاء على لسان النبوت: الانسان أسير الاحسان؟ هل نقض ماجاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يفرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزمام، والانسان يقاد بالصنعة؟ هل كان خرافا ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسما للمحبة وبيانا لفضائلها و منافعها في الاجتماع الانساني الخبيث؟ هل كان خرافا ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟ *

هل أتأسف أن كنتُ سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنتُ مقداما في المكرمات؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف ان كنت أيبأ أغار أن ينسب مكروه أو ذل لا ولي صلتي؟ هل استحق العقاب على حي ليلا دي والناس لها كارهون؟ *

كلا والله لن يكون ذلك لم أزد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزد في الما فظة عليها الا ثباتا، ولئن عشت لا ضمن المعروف، ولا غيثن المهور، ولا أقتن الهاوي في حفرة الغدر، ولا آخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولا تجاوزن عن السيئات، ولا تناسين جميع المضرات، ولا بينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون *

ولا أظهرن الصديق في أجمل صورته، ولا أجلونه للناس في أبهج حلاله، ولا نبتن لهم بهران العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا غسق دجى الموموم، تستضيء به في حل ما تعتقد، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر، وتذهب به الى أوج العالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إنتي اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل، ومن المفلس عن حرية التصرف. وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن. فينحف الجسم، ويغير اللون، ويقاص الشفاء، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويمعد عن نيل المطلوب. ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض. ويسثمهم ان طال زمن

معاناة الملاج، فيصبح المريض منهم في أدنى المنازل، وقد كان رباهم وهم له ساجدون*
 يذهب عنه البهاء، وينكسف من وجهه الضياء، وتنكره عند الرؤية
 أعين العشاق، وتمجج طباع ذوي الاذواق، وتمجج من جبينه تلك الاسطر
 الجليلة العبارة، الصادقة النسبة، الناطقة بالحق، القائلة: ههنا كنز الرغبات،
 ههنا منال الحاجات، ههنا ما يروح الروح، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس،
 ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة، فينحرف عنه السالكون اليه، وقد
 كانوا قبل على آثار غباره يتدافون* وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب
 جاه، ولا أظنكم بالقياس تجهلون*

لكن أقول لكم: ان الحوادث الاربعة سوف ننسى، وإن هذا الشرف
 سوف يرد، واثن أبت طبيعة هذه الارض بخسيتها ان يكون لها من عوده نصيب
 فليعودن في بلاد خير منها، ولا جذبن الى المجد أحبتي، ومن الى المجد ينجدون*
 كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم، ولا أطلب شيئاً فوق هذين
 سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس، وبعضهم له منكرون*

أطالت عليك الكلام فلا تسأم، وظنه آخر كتاب مني اليك في السجن إلا ان
 يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى. فان تلاقينا بعد اليوم كنت المشافهة أركي،
 والا كانت المراسلة أجل وأعلى. ولا تجزع، فليس في الامر ما يفزع، وهو
 أهون مما يتوهون* وأسأل الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين، ويحفظكم من
 نكابة الخائنين، ويسرفني بالعلمانية عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين* اه
 | يقول محمد رشيد | لو لم يكن لنا من فئدة سجن الامام الذي كان نعمة
 في صورة نعمة، ومنحة في جليات محنة، إلا كتابة هذا الكتاب البليغ الذي
 وصف به نفسه الزكية، وسريرته الصديقية، أصدق الوصف وأبلغه وأجمله -
 لكنني بها فئدة. وما كان لولا تلك الشدة العاتية ليكتب هذا أو يقوله وقد عهد ناد
 ينأى عن الفخر بجانبه. وله مر الحق لقد صدق فيما قل عن نفسه وصدق فيه الزمان، وكل
 من عرفه من الناس، حتى أسوأ الناس ظناً بالناس وأشدهم انتقاداً لهم. ومن كلام
 ابراهيم بك المويلحي الكاتب النقاد الشهير فيه: «باطنه خير من ظاهره»

الفصل الخامس

في الظور الثاني من حياته العملية

وهو ما عمله في اثناء النفي

وفيه مقدمة في بيان تلي سورة له بالتكريم ، وأثر ذلك في مردييه وأصدقائه مصر ومقدان (أحدهما) في عمله السياسي في أوربة مع السيد جمال الدين و (تانيهما) في عمله العلمي الادبي في سورية

المقدمة :

حكم على الاستاذ الامام بالنفي من القطر المصري وملحقته مدة ثلاث سنين وكان ذلك في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وحكم كذلك على كثيرين من الذين أتهموا في تلك الحوادث المبر عنهما بحجة العصيان بالنفي إلى خارج القطر إلى مدد مختلفة من سنة إلى ٢٠ سنة وكان من حكم عليهم مثل الحكم على الاستاذ ابراهيم بك اللقاني وكان من أصدقائه وأخوانه الجمالين بل كان يعد المرید الثاني للسيد جمال الدين ، ومنهم الشيخ امين أبو يوسف من أصدقائه أيضا. وقد سافر هؤلاء مع كثير من رفاقهم من ازهرين وغيرهم إلى سورية فطاب لهم المقام فيها لما قابلهم به كرام أهلها من العلماء والادباء والوجهاء من الحفاوة والاكرام ، فكأنهم استقبلوا اهلا باهلا وجيرانا بجيران ، وخالانا بخالان ، وأقام الشيخ محمد عبده واللقاني وكثيرون من أصدقائهم في بيروت ، ثم سافر الشيخ إلى أوربة وكان سبقه اليها السيد جمال الدين ، وكان من عملهما فيها مانينته في المقصد الاول من هذا الفصل ، ثم عاد الى سورية وأقام في بيروت وكان من عمله فيها مانينته في المقصد الثاني منه .

مقدمة الفصل

قلنا ان أهل سورية الاكرام قد تاقوا الاستاذ الامام ، بما يليق بتمامه العلمي والادبي والعقلي من الاجلال والاكرام . حتى كان فيهم وهو منفي من بلاده ، بعيد عن صنائعه ومردييه وتلاميذه ، اعزثما كان في وطنه ، على ما كان

له في عهد الوزارة الرياضية من النفوذ الذي شرحناه في المقصد الثالث من الفصل السابق، كما كتب بذلك لتلميذه النجيب، ومريده الصادق، وصديقه الوفي (سعد زغلول) وتأثير ذلك في أنفس خلانه بمصر كما يعلم مما كتبه اليه هذا جواباً عن ذلك. وهاك الجواب الاول من اجوبته، ومنه يعلم بالاجمال ما كتبه الامام له :

﴿ بعض مکتوبات سعد زغلول الندب المهام إلى الاستاذ الامام ﴾

(الكتاب الاول وهو مرجوع اول كتاب كتبه اليه من بيروت عقب وصوله اليها)

من مصر ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠ إلى بيروت

مولاي الافضل، ووالدي الاكل، أحسن الله معاده

بمسد تقبيل الايدي الكريمة : قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا اليه، قتلناه ووعيناه في القواد، وحدثنا الله تعالى على أن شرقت تلك الديار سالمين، مبالغاً في اكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد نبائها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصري يعرف مقداركم خير الجزاء. ولهم منا معشر أتباعك ومريدك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الاجلال، السنة مرطبة بالثناء عليهم، وضائر مطوية على مزيد احترامهم وفائق تعظيمهم

صحتي البدنية معتدلة، أما فكري فقد تولاها الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالعاد، وتمتلك فيه بمد تلك الحقائق التي كنت تجلو مطالعها معان، نرفها أوها ما يضييق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان، مخافة فوات مرغوب أو لحاق مكروه مما تعلمون

توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب وسألته بإعارته فأجاب بأن محمود سامي أخذه منه وسافر ولم يردده اليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام، ويقول إنه مستمد خدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسياً كان أو معنوياً. وسأتحري هذا الكتاب في كتب سامي عندي بما فإذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته في الحال إلى حضرتم أو أحضرته معي إن وافق ذلك استجماعي لوسائل السفر

الحال العمومية على ما تركتها ، غير أن الناس أخذوا في نسيان ما فات من
الحوادث وأهوالها ، وقلت قائلهم فيها ، وخفت شماتة الشامتين منهم ، وأصبح
المادحون للانكليز من القادحين فيهم ، وبالعكس . والكثير يتوقع انقلاباً أصلياً
والله أعلم بما يكون

رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم في الكتاب تصریحاً وتلويحاً فتقبلوها بمزيد
المسرة والانشراح . يسلم على جنابكم الصادق في صداقته ومودته حسين أفندي
وهو في غاية من الصحة والعافية وقد عاد من الريف فراراً من شروره ، أسفاً
على ما وقع لجنابكم أكثر من أسفه على نفسه . الشيخ محمد خليل والشيخ عامر اسماعيل
والشيخ حماده الخولي والسيد عثمان شبيب والشيخ حسن الطويل ووالدي عبد الله
وأخوای شناوي وفتح الله (هو أحمد فتحي) وكثير غيرهم يقبلون بديكم ، ويسلمون
عليكم ، ويقدمون مزيد تشكرهم لحضرات أولئك الكرام الاماخذ الذين أحسنوا
وفادتهم وأكرموا مثواكم ، زادهم الله بكم ما وكلاً

مولاي : ذكرت لحضرتك ان الضعف ألم بفكري فبالله إلا ما قويته بتواصل
المراسلة ، غير تارك فيها ما عودتنا على سماعه من النصائح والحكم التي نهتدي بها
إلى سواء الـهـيـل ، وتتمكن بها من السير في العالم المصري الذي اختبرت حقايقه ،
وعرفت خلايقه ، وما يناسبها من ضروب المعاملة . وقتنا الله لمناجاةك ، ولا
أطال على بلادك مدة غيبتك ، انك إمامها وإن اقتدت بغيرك ، ومحبتها الصادق
وإن لم تعرف بقدرك ، والسلام
ولدم

سعد زغلول

﴿ كتاب آخر جوابي منه اليه في ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ ﴾

مولاي الافضل ، ووالدي الاكل ، أحسن الله ما به
أكتب إلى السيد الاستاذ بعد تقبيل يده الشريفة عن شكر مزيد لمسكارمه
التي لم يمنع من تواترها على صنائه تباعد الديار ، ولا تنائي البلدان ، معترفاً بالعجز
عن وفاء واجب الحمد ، مع الاعتقاد بأن هذا لا يثنيه عن المسكرات يوابها ، والمبرات

يسديها ، فما يفعل الخير التماس الثناء ، ولا يصدر البر ابتغاء الجزاء ، إنما يحسن محبة في الاحسان ، ويبر شفقة بالانسان

تفضل ادم الله فضله على خريج حكمه ، الناشيء في نعمه ، بكتاب هو المحكم آياته ، المعجز دلالته ، الشافي لما في «صدر» ، الكاشف لحقائق الامور ، الهادي إلى سبيل الرشاد وإلى صراط مستقيم ، فسر لمرآه ، سرور الليل بالشفاء وافاه ، وتلاه متديراً دقيق معناه ، مكرراً رقيق مبناه ، فازداد إيماناً بفضل مولاه ، ويقيناً بمحبة من أوحاه ، وشكر الله على صحة من أهداه ، دامت نامية وارفة الظلال . وتكرم أبقي الله كرمه ببيان بعض أسماء الكرام الذين دارسوه فصولاً من المروءة ، وأبوأبا من النجدة ، وما لهم من كمال الفضل ، وما فيهم من تمام العقل فرسمنا أسماءهم على صفحات القلوب ، وحفظنا أمثلة فضائلهم في الصدور ، وتشوقنا لان نتشرف بأبصارنا برؤياهم ، كما تحلت بصائرنا بمعرفة أعلامهم ومزاياهم ، وما يحتاج في اقناع النفوس بضمف تلك الحجة وإن كانت تمكنت في الاذهان ، إلى قوة البيان ، فمعرفة بمقام فضله ، ومقدار حكمته ، ونبله ، كافية بذاتها في الدلالة على نزاهة نفوسهم ، وطهارة قلوبهم ، وغزارة فضيلهم ، وسمو عقولهم ، ورجاحة همهم ، وسجاجة شيمهم ، وفي توجهه ما ثبت من الفساد في أخلاق غيرهم ، إلى أسباب أخرى نود أن يبينها الاستاذ الجليل في كتاب مخصوص اذا وجد من الوقت مساعداً ، إنما يحتاج إلى قوة البيان في هذا الموضوع لتبين كيف يكون تدارس المروءة بين الافاضل ، وتداول النجدة بين الكرام الامثال فما رايتنا^١ من قبل لدينا إلا فاضلاً كرم بما يدرس الفضائل بين من لا يعرفون للفضل مقداراً ، ولا يفقهون للكرامة اعتباراً

ولقد زادني ميلاً في السفر ، وبفضاً في الحضر ، ماجاء في وصف أولئك الاماجد ذوي النفوس الزكية ، والحامد العلية ، وما تلاه من بيان حقيقة غوازي

(١) الكلمة في الاصل هكذا «رايتنا» ولعل المراد فما رأيتك الخ والحطاب

الاستاذ الذي بث الفضيلة بالعلم والعمل في جماعة نكثوا عهدهم وخانوا ودهه، ووشوا

الاعمى، ساقطي الهمم ، ساقلي القيم ، جاهلي مقادير النعم ، غير أني عدلت عن داعية هذا الليل امتثالاً للأمر، وفي النفس حسرات لا يقاومها صبر ، وبها الى السفر أشواق لا يتناولها حصر

وأحسن خلد الله احسانه على صنيع آدابه ، اليتيم في اترابه ، بحكم من مثل التي تعودها غذاء للعقل ، ونوراً للفكر، فتلقاها بقلب شاكر ، وتقبلها بفؤاد حامد، وحفظها في الوجدان ، راجياً من الله التوفيق الى الاخذ بما فيها ، والهداية الى اتباع ما فيها ، آملاً من مكارم موليتها، دوام تواليها

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل^١ ثابتاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين ، ولولا التحقق من سعة بال الاستاذ الكريم ، ومن وثوقه بي فيما أروبه لكان الاسف مضاعفاً

إني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ وما سمعت منه ما يقصد به مس مقامكم الكريم ، ولم يتكلم أمامي يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين المعروف إلا بما معناه الاسف والاشفاق من عاقبة هذا الاعتراف ، فلعل ما بلغ السامع الشريفة من هذا القبيل ، والسامعون لشدة حرقتهم وبلوغ الاسف من فؤادهم مبالغه ، انصرف خاطرهم عن رعاية مقام القول فتوجه ذهنهم الى مفهوم الكلام الحقيقي وطبقوا المقام على ما فهموه، ولهم العذر ، فهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في جانب حضر تكلم ولو مراداً به غير حقيقة معناه ، ولم يألفوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها ، ولم يعرفوا عادة ذلك الشيخ في كيفية تأدية مراده ، والعبارة في حد ذاتها يصعب تأويلها الى غير المتبادر للافهام منها كل الصعوبة على من لم يكن أزهرياً متعوداً من الشيخ سماع أفضع منها مفهوماً وأشنع تركيباً

(١) ذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله أيام غضب الشيخ عبد الكريم سلمان علي أنه كان بلغه في أثر الفتنة العراقية أنه طمن فيه بقرأ من كونه من حزبه فكتب في ذلك كلمة في كتاب لآخر - قال فيه : أكنزته كني وأدنته مني ، وجملته في مكان النحو من ان جنبي، ثم هو يصرح بسبي ولا يبكي اه فظهر أنه كتب بهذا الى سعد وان سعداً دافع عنه بهذا الكتاب

وكيف يتأتي له إرادة الظاهر مع علمه بكون ذلك لا يصدر إلا عن لؤم طبيعة
وخراب ذمة وسفاهة عقل ؟

أنسى ما أوليته من كرائم النعم ، وجلال الامم (؟) التي لا يزال متمتعاً بها
متفنياً ظلها ، وانك المؤرق أسفاً ، المحترق حزناً ، المشفق عليه يوم وجدت اسمه
مكتوباً في تقارير اللثام ، حتى شغلك هم عن همك ، وسعيت وأنت مسجون في
تنجيته من التهمة بواسطة المحامين

مانسي كل هذا وما قدم العهد عليه حتى ينقض ولائك ، ويبتكر هجاءك ،
ويعس مقامك . في بيت أوه . ومنزل طالما رتع في بمجوحة نعماء

فهذه العبارة إن صح النقل لا يمكن أن يكون المراد بها شيء وراء إعلان
الاسف والاشفاق ، أما كونه لم يرسل خطاباً فولايي يرى انهم الادلة الصادقة
على كون ذلك لشيخ الفاضل صادقاً في ولائه ، حريصاً على دوام تذكروا ليانه ، إذ لم
يدعه الى ذلك إلا تمام رغبته في المحافظة على النعمة التي غرستم أصولها ، وأنتميم فروعها ،
ليكون على الدوام متذكراً لحقيقة مبدئها ، متصوراً صورة مدئتها

أما كتاب الشيخ محمد خليل ، فقد علمت ما في إرسال صورته من حسن التعليل
وكمال التلطف في التأديب ، على ما جرت به عادةكم التمرينة . وقد طالعت هذه
الصورة فرأيت انها من أقوى الادلة على شدة ميل صاحب الاصل الى الصدق ،
ورغبته عن التمويه ، حيث أوضح حاله صادراً في الايضاح عن الحق برهاناً على شدة
إخلاصه باثبات العبارة التي نفيها بين يدي حضرتم في الدائرة

فإن إثباتها لا يصدر إلا عن تمام إخلاص لا يشوبه تمويه ، ومن هنا يتبين
لحضرتم سلامة نيته ، وحسن طويته

أما عنوان الجواب فما أداه الى نسجه على ذلك الاسلوب الا اعتماده على
معرفتم بكونه من الصادقين العظمين لجنايكم الكريم . وعلى كل حال فنحن لا نستغني
عن كريم عفوك ، وجميل صفحك ، فإن لم تعف عنا وتصفح كنا من الخاسرين
ان ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، ويحق

لحضرته السرور بما نال ولدكم (١) فهو المتربي في نعمتكم، المفترف من بحار
حكمتكم، المحفوف بعنايتكم، المشمول بعين رعايتكم. البالغ ما بلغ ويبلغ من
مراتب الكمال بحسن توجهاتكم، وكريم تعطفاتكم، أدامكم الله لكل خير مبدءاً
رفعت تحيتكم إلى حضرات من ذكرتهم أسماءهم وأشرتم اليهم فقبلوها
بالاحترام وهم جميعاً يقبلون يديكم. ويسلمون عليكم، وأخص بالذكر منهم منبع
الصفاء، ومصدر الوفاء، الذاكر لفضائلكم في كل حين، والذي حسين أفندي.
وحضرة ولدكم الصادق في متابعتكم الشيخ عامر اساعيل الذي امتن غاية الامتنان
بما اختصاصتموه به في كتابكم الشريف، وحضرة الشيخ سليمان العبد، والسيد أمين
أفندي. ونحن جميعاً نرفع أحسن التحيات وأزكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا
بمعرفة أسماهم من الذين دارسوك فصول الكرامات وتقدم لهم واجبات الاحترام
أدامهم الله مثالا للفضل وعنوانا للكمال. ونسلم على حضرات أخينا الفاضل ابراهيم
أفندي اللقاني و ابراهيم أفندي جاد ونجلكم الكرم وجميع من بمعيتكم حفظهم الله
أحوالنا العمومية أنتم أعلم بها منا فلا حاجة إلى بيانها. نرجو تفصيل أحوالكم
وما تشتغلون به من قراءة وتأليف إذا حسن لديكم ذلك

كتب ساعي لم تشهر إلى الآن في المزاد ولا زلت مراقباً لاشهاره

حضرة البك صاحب الكتاب توجه قبل ورود كتابكم الى البلد ولم يحضر
الى الآن. وعند العلم بحضوره أتوجه اليه وأرفع لحضرته مزيد تشكراتكم دامت
معاليكم. أفندم ٨ جاسنة ١٣٠٠ صنيعكم — سعد زغلول
أرجو عدم انقطاع المراسلات وآتمنى أن لأحرم كل أسبوع من كتاب تطميناً
لخاطر وترويحاً للفؤاد. ولمولاي في إجابة هذا الرجاء النظر العالي (سعد)

(١) يعني سعد نفسه، والخبر المشار اليه هو اشتغاله بالمحاماة

المقصد الاول من الفصل الخامس *

محمد في أوربة مع السيد جمال الدين

تقدم في ترجمة الحكيم الاكبر، والموقف الاعظم للعالم الاسلامي ولسائر شعوب الشرق الادنى والاوسط، (السيد جمال الدين الحسيني الافغاني) أن حكومة الهند البريانية حجرت عليه في كلكته (عاصمة الهند) مدة الفتنة العراية، وأنها أطلقت له الحرية بعد انتهاء الفتنة واحتلال الجيش الاكليري لمصر وأنه ذهب بعد ذلك إلى أوربة، وأن الاستاذ الامام سافر اليه، وانهما أنشئا هنالك جريدة العروة الوثقى وقاما بعمل عظيم

وهذا العمل هو الذي نسبناه في هذا المقصد ونبدأ القول بسفر السيد من الهند واستئناف اتصاله بالشيخ فنقول:

كان سفره من الهند بجزاً من طريق البحر الاحمر، ولما وصل إلى بورسعيد كتب إلى الاستاذ الامام كتاباً أخبره فيه بسفره وأين يقصد وفتح باب المراسلة معه، وترتب على ذلك سفر الاستاذ إلى أوربة بدعوته، وانا ننشر هنا نص كتاب السيد لانه أثر تاريخي من موضوع هذا الكتاب، وهذه صورته بخطه منقولاً بعكس الشعاع الشمسي مع بيانها بحروف الطبع

(*) قد كتبت الفصول الاربعية السابقة عقب وفاة الاستاذ رحمه الله تعالى وطبعت كلها ما عدا مذكرات الثورة العراية، ولما كان يتم نشر الكتاب في تلك السنين أمسكت عن انام تأليفه وطبعه ولم يتبع لي ذلك إلا في أواخر سنة ١٣٤٨ م (٣٦٦ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

كتاب السير بمجال الريه الى الشيخ محمد تهر

برط سعيد

٢٣ سبتمبر

إلى الشيخ الفاضل الكامل الشيخ محمد عبده أطال الله بقاءه

الابتهاج بمجميل الصنع جزاء تفيض به جامعة الكون على النفوس، كما قامت بوظائف الوجود، والمحمدة شهادة تبعث ما كوت وحدانية الهيئة على بشهامة شخصات الطبيعة في مشهد العالم، تخليداً للجزء، وتعظيماً للأجر، فلك بمجميل صنعك مع (العارف) (١) الجزء الاوفى. وأنا أحمدك على البر والمعروف أداء للشهادة، وأشكر صنوك الفاضل الكامل الشيخ عبد الكريم، وأثني على الشابين الأديبين السيد ابراهيم اللقاني والشيخ سعد الزغلول (٢) والافندي الكريم الذي أنساني اسمه الزمان، وأذكر كلا بالخير في مشهد العالم قياماً بفرصة الشكر على الصنع الجميل والعمل الصالح وأنا الآن في (برط السعيد) أذهب إلى لندره - ترسل جواب هذا

الكتاب إلى إدارة جريدة (الشرق والغرب) أو إلى (مستر بانث)

ان أخبار العالم وحوادثه كانت انقطعت عني مدة سبعة أشهر، ولذا لأدري مستر (العارف) الآن. أخبره بسفري. واتفصيل في مأتوب آخر يصلك من لندره إن شاء الله

سلم على كل من عرفنا وعرفناه، واعترف بنا وسلمنا له. والسلام

(حاشيتان) جمال الدين الحسيني الافقاني

تسلم على صاحب النفس الزكية، والهمة العالية، دوائلو رياض باشا أيده الله تعالى

أرسات مضمونا (٣) الى صديقتنا الحاج المرزا علي اكبر والغرض درجه في

الجرائد المصرية بعبارة فصيحة. وأرجو الاهتمام في هذا الامر لانه ضروري جداً

البدار البدار

(١) هو عارف أبو تراب خادم السيد الذي جاء معه من بلاد الافناز وكان

بقي في مصر بعد تقيده منها وكان السيد يحبه حباً جما ولقبه بالفيلسوف الامي

(٢) كان السيد كثيراً ما يعلى الاعلام بالالف واللام كما ذكر علماء الاعاجم

(٣) أي كتاباً أو مقالا مضمونا يعني مسجلاً

اشارة في بيان بعض مشايخ شريفة عبيد ورجال شريفة

الدين كغيره من مشايخ جواد تقي في حمايته الكون على النفس كماله
 قامت به في الجرد والجمود شهادة بتمت ملكوت وعبادة الهية
 على شيا مشهورات القيمة في مشهد العالم تخليد الجواد وتفضيها للذبح
 فكيف كغيره من مشايخ مع (العارف) الخاتم المودود وكان الهوك على قلبه
 والودود اذارة الشهادة وشكوه كغيره من مشايخ عبيد الكرم
 وانشى على من بين المشايخ من عبيد الله القادري مشايخ عبيد الكرم
 والقدوس الكرم الذي انشأ في زمانه وذكر كماله بالخيرة في مشهد العالم
 قيا بقوله في شكوه الصنع الجيد والصالح - وانما الهدي في (المراد
 سعيد) كذنب بالندرة - نزل جوابه في الكتاب الالودرة جريدة
 (مشرق والغرب) او الالاستر بنت - ان اخا والعالم وحوادث
 كانت انقطعت عنى من ذنوبه وشكره ولذا لا ادرى من سفر (العارف) الكون
 اخبره بغيره - والتقصير في كتب آخره يصح من لندره ان الله
 سلمه كل من عرفه وعرفاه واعرفه بما وسفاهه وحسبهم

عالم الحق صلي الله عليه

ارسلت سعديا الى صديق الحاج الميرزا المير
 والفرغ ورجعه في حوائج القربة بعبارة قصيرة
 وارجو التمام في هذا العهد
 هذه غزوة در حيا
 المبداء المبداء

شمس نور حق ذكره والحمد لله العلي
 والله اعلم بالصواب

جمعية العروة الوثقى السياسية

السرية

كان الاستاذ في تلك الاثناء في سورية ولا أدري ما دار بينها من الكتابة بعد وصول السيد إلى لندن ولا تاريخ سفره اليه بالضبط، وأما (جمعية العروة الوثقى) فهي جمعية سياسية سرية قد بينا مقصدها في مقدمة العدد الاول من الجريدة، ولكن لم يطلع أحد على قانون الجمعية الاساسي ولا على الميثاق الذي كان يقسمه الأعضاء إلا خواص رجال الجمعية وكلهم من خواص المسلمين

أعلم أن الجريدة كانت ترسل الى كبار العلماء والامراء والزعماء في جميع الاقطار الاسلامية وقد كان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري ومن اختار من أنجاله ورجاله، وقد وجدت بعض أعدادها في محفوظات والذي ووجدتها كلها عند استاذنا الشيخ حسين الجسر في طرابلس

وانني أذكر هنا ما لم ينشر من تعاليمها وبمبناها، ولم يذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى شيئاً عن القانون الاساسي لها، وقد فاتني أن أسأله عنه، وأظن أنه لم يكن مكتوباً لئلا يقع في يد غير أهله

وانما كان الغرض البعيد منها إعادة الحكم الاسلامي وهداية الدين إلى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال في العصر الاول، بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام في أمور الدنيا، ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم. وأما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال

وكانت الجمعية مؤلفة من عقود وهذا ما كتبه نائب الرئيس وهو الاستاذ الامام نفسه من الاصول العملية الداخلية للعقد الرابع ونص الميثاق الذي كان يحملها كل من انتظم في عقد من عقودها

﴿ بمض الاصول العملية ، لاعضاء جمعية العروة الوثقى ﴾

العقد الرابع للعروة الوثقى

- (١) ينعقد بثلاثة يسمون اليمين المعهود
- (٢) مذاكرة المجتمعين عند الالتئام المعتاد تكون في أمور: التذكير بآيات الله - النظر في حالة الاسلام عند بدنه وما كان عليه النبي وخلفاؤه فقط - البحث في السبب الذي امتدت به سطوة الاسلام حتى صال على جميع الاديان وكاد يتلهم - في زمن قصير - كيف اقلب الحال وآل إلى ما تراه؟
- (٣) يلاحظ كل باحث أن ذاته في موضوع البحث فيطلب العلة من نفسه قبل أن يظن إني غير، ويقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة والانصاف
- (٤) مدارسة أحكام الجهاد وحموق السلم وما هو مكاف به في معاملة غيره وما يفرض عليه إذا زحف الاعداء لخصد شوكة الاسلام
- (٥) النظر في حال المسامين لهذا الوقت أخذاً من أقوالهم وأعمالهم الوقوف على احساسهم الديني ومقدار الداعية الاعتقادية ليعلم الناء ويماج بالدواء اللايق به .
- (٦) كتب كل فكر وتدويبه مفضلاً ثم مجملًا مع ما تستقر عليه الآراء
- (٧) العمل في الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المسال في مساعدة من يقوم بنصر الدين و حمل السلاح المعاتلة بين يديه عند المسكنة
- (٨) كل واحد من أهل العقد مكاف بالعمل واعداد أسبابه وما لا يتم إلا به ، وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به مع الاحتراس التام من كل ما يفيد أن هناك عقداً . والثقة بمريد الانضمام انما تتحقق عند اتفاق آراء أهل العقد عليها
- (٩) يكون معظم الاهتمام بضم الضالحين الأمر من ذوي المسكنة عنى اختلاف طبقاتهم من علماء وأمرء ورؤساء عشائر وغيرهم . وفريضة

- كل منهم أن يعمل للإسلام فيما خوله الله
- (١٠) في كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط حتى يكون عند كل واحد ان مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساويا . العمل ببدل المال والروح ، والاول أقرب الدليلين .
- (١١) على أهل العقده أن يرسلوا رسلا إلى نواحي الوطن الحالين به وإلى المواطنين المستعدة من غيره متى أمكنهم ذلك
- (١٢) لا يكون الشخص رسولا حتى يكون سير العقده منكبة راسخة فيه ، ويكون على قدرة كاملة في تصريف القول ، وتوفيق النصح مع طبايع المنصوحين وحالة السلطة المعارضة عليهم ، فيكون حكما في عمله لا يحتاج لوصية من غيره ، ولا لقيم بالاحظ عمله
- (١٣) يسمح للعقد أن يبعث رسلا من الخارجين عنه على أنهم وعاظ يعلمون المعروف من الدين ويؤيدون منطبق القرآن ، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحة بدون أن يعرفوا أن هناك عقداً .
- (١٤) على لرسول إن كان من أهل العقده أن يكشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس ، وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته ، وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقده .
- (١٥) من استحق باستعداده الدخول في العقده فعليه أن يقدم رسما مالياً أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ولا يستثنى من ذلك إلا عالم أو معتقد عند الناس لا يستطيع أداء على شريطة أن يبذل العالم وسعه في تبين الحق وبثه ، والمعتقد جهده في حمل معتقديه على العمل في مقاعد العقده ، فإن استطاع هذان الصنفان تأدية النقد فهم أولى الناس بها
- (١٦) يجتمع أهل العقده في كل أسبوع مرتين للمذاكرة فيما سبق بيانه في الفصل الاول وما بعده .

- (١٧) يجب على كل واحد أن يؤدي في آخر كل جلسة مقداراً من التصدق على حسب استطاعته قليلاً أو كثيراً يدور على الحاضرين من أصغرهم سنّاً بصندوق صغير له فوهة ضيقة يضع فيها كل واحد ما تيسر خفية حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . لا يستثنى من ذلك أحد ويسمى هذا الصندوق صندوق التبرع
- (١٨) يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عندهم ينتخبه العقد أميناً
- (١٩) يودع في ظرف تكتب عليه هذه العبارة : هذا مال حق التصرف فيه لعقد الاخلاص تحت رئاسة فلان (يذكر اسم الرئيس)
- (٢٠) يستعمل هذا المال في النفقة على محل الاجتماع ولوازمه ، وفي سبيل نشر المشرب وارسال الرسل الداعين إلى الحق ، وفي إغاثة المقصرين مما ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية ، وما يفضل عن ذلك فالنظر فيه للجمعية العليا (جمعية العروة الوثقى) اما مباشرة أو على يد أحد نوابها
- (٢١) يكون للعقد أربعة دفاتر (أحدها) لخصر أسماء رجاله (ثانيها) لأسماء رسله (ثالثها) لخصر النقد المجتمع (رابعها) لاختصاص النفقات
- (٢٢) إذا توفر في الصندوق مبلغ من النقد وافر وأمكن تنميته على وجه شرعي مأمون الخسارة فعلى أهل العقد أن يديروا أمر نموه
- (٢٣) على القائم بضبط الحساب في الإيراد والصرف أن ينهج الطريقة المهودة في مركز العقد أن يضموا لها نظاماً حسب المعروف في بلادهم
- (٢٤) لا يصرف شيء إلا بقرار من أهل العقد يتفق عليه جميعهم أو أكثرهم
- (٢٥) إذا قصت لحوادث بعمل عاجل يقرب من مقصد الجمعية وخيف فوات الفرصة بفوات الوقت واجتبيح إلى نفقة تقتضي زياداً عن الموجود وجب على أهل العقد أن يبذلوا ما في وسعهم لإتمام العمل .
- (٢٦) لا يباح لأحد من رجال العقد أن يذكر شيئاً من أحوالهم ومقاصدهم ومذاكراتهم عند من ليس من مقصده في شيء ، بل لا يباح التصريح باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحاله عند رجال العقد

- (٢٧) على رجال العقد أن يحمي بعضهم بعضاً ويمين كل منهم باقيهم بقدر الاستطاعة
- (٢٨) الاستطاعة لا تنفسر بالاهواء حتى بعد كل وهم عجزاً وإنما هي المعروفة عند المحلصين التي لا يعدمها الانسان مادام حياً قادراً على الحركة
- (٢٩) اذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئاً فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم فعليهم مخابرة من يتولى مواصاتهم فيما يريدون
- (٣٠) انتقانون الداخلي للاجتماع يضعه أهل العقد

اليمين التي بحلف المرتبطون به بالمقر

أقسم بالله العالم بالكلية والجزئي ، والجلي والخلفي ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لا أحسن كتاب الله تعالى في أعماله وأخلاقه بلا تأويل ولا تضليل

ولا أجيبن داعيه فيما دعا اليه ولا أتقاعد عن تلييته في أمر ولا في نهي ، ولا أدعون لنصرته ، ولا أقومن بها مادمت حياً ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولداً

أقسم بالله مالك روعي ، ومالي ، القابض على ناصيتي ، المصرف لاحتسابي ووجداني ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لا أبذل ما في وسعي لآحياء الأخواة الاسلامية ، ولا نزلنها منزلة الآبوة والبنوة الصحيحتين ، ولا أعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم في عقد من عقودها ، ولا أراعيها في غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الاسلام ، فاني أبذل جهدي في إبطال عمله المضر بالدين ، وأخذ على نفسي في أثره مثل ما أخذ عليها في المدافعة عن شخصي

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدماً واحداً أتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين في شيء ، يتفق رأيي أكثرهم عليه ، وعلي عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الاسلام والمسلمين عقلاً وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه

من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسهه امكاني الوجودي . وأسأل
الله نجاح العمل ، وتقريب الامل ، وتأيد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه ، آمين .

النايب

محمد عبده

[المؤلف] من تأمل هذه الاصول وهذه الميادين حق التأمل تجلّى له ان كاتبها
الداعي اليها المجاهد في سبيل غايتها من أقوى المؤمنين بالله وبما جاء به محمد رسول
الله وخاتم النبيين ايماناً ، وأشدّهم في ايمانهم ايقاناً ، وأرسخهم وجداناً ، وألمهم
بمقاصد هذا الدين وتاريخه واصلاحه لامور البشر ، وأعظمهم غيرته عليه وجهاداً في
سبيل الله لاعادة مجده ، وتجديد ملكه ، وإحياء شرعه ، وانقاذ أهله من الذل . . .
ومن قرأ مكتوباته قدس الله روحه لبعض العلماء والكبراء من المنتظمين في
سلك العقيد في الفصل الاول من الباب الخامس من منشأته المصدر أكثرها بكلمة
شماره « لا إله إلا وحده لا شريك له وبه الحول والقوة » رأى فيها شرحاً جلياً
لهذه الاصول الجلية - وعلم من هذا وذاك ان خدمة الجم الغفير من كبار علماء الأزهر
 وغيرهم من المصنفين في العلوم الاسلامية المختلفة منذ عدة قرون للاسلام لتضفر
 وتتضال في جانب خدمة هذا الرجل وأستاذة فان علومهم ومصنفاتهم كانت في العهد
 الذي تهدم فيه ملك الاسلام وضعفت هدايته ولم يكن لها أقل تأثير في العلم والعمل -
 لأنها كلها مباحث لفظية ، ومناقشات في عبارات بعض كتب المقلدين ، وليس لأحد
 منهم فيها كلمة تدل على الشعور بذلك ، فضلاً عن الدعوة إلى تداركه ، والجهاد في سبيله .
 ولو شئنا شرح هذه الاصول وما أدمج فيها من الحكم والعبر لزدنا القاريء
 إعجاباً بأمر هذين الحكيمين وجهادهما ، ولا تظن أن بين ما في الاصل الثاني من
 التذكير بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه فقط ، وما في الاصل الثالث من الاعتبار
 بسيرة السلف ، وما في الاصل الرابع من الإشارة إلى أحكام الفقه - لا تظن أن
 بين ما ذكر شيئاً من التعارض فان لكل نوع منها غرضاً خافياً فالاول للاعتبار
 بنشأة الاسلام وتأسيسه ، وما بعده ظاهر لا يحتاج إلى بيان
 وقد كان هو ومرشده الحكيم على هذه الخدمة الاسلامية الخاصة يعطيان

الجمعة الشرقية حقها، والرابطة الوطنية حقها، حتى ان الاستاذ دافع عن بطر من باشا علي حين طعنت فيه بعض الجرائد المصرية ونسبته الى التعصب للقبض في بعض أعماله وكان الاستاذ يومئذ منفياً في سورية (راجع الجزء الثاني ص ٣٦١ من الطبعة الثانية) وقد كان: السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السياسية والجمعة الاسلامية وتولية العاملين لكل منهم ما وجهته من غير تعارض وكل من ترجمه من المسلمين والنصارى يعترف له بذلك وكذلك الشيخ محمد عبده معه ومن بعده وقد اشتهر على بعض الناس أمر الهجرة الاسلامية في جريدة العروة الوثقى وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فازالاهذه اشبهة بعبارة نشرت في العدد الثامن الذي صدر في باريس في ١٨ رجب سنة ١٣٠١، (١٥ مايو سنة ١٨٨٤) وهذا نصها: (العروة الوثقى) لا يظنوه أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحياناً ومدافعيتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم، ويتفق معهم في مصالح بلادهم، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما تميل اليه، ولا يببجحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا. ولكن امراض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تناول الأجنبي عليهم، والافساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم المنصر الغالب في الاقطار التي غدر بها الاجبيون وأذلو أهلها أجمعين، واستأثروا بجميع خيراتها. وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب ان شاء الله تعالى هـ

أنشأت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الافغاني ورئيس تحريرها فقيدهنا الاستاذ الامام (رحمه الله تعالى). وأنبأني الامير شكيب أرسلان أنه سمع الاستاذ يقول ان الافكار في العروة الوثقى كلها للسيد ايس لي منها فكرة واحدة، و"عبارة كلها لى ايس للسيد منها كلمة واحدة. وإنني أنشرها فأتحتها وما يليها من بيان منهاجها، ثم أذكر بعده ما كان من تأثيرها ومقاومة الانكاز لها، ثم أبين تلخيص ذلك المنهاج وحضر مقاصد وتطبيق القول والعمل عليه للاسلام والشرق عامة، ولمصر والسودان خاصة.

فاتحة العدد الاول من جريدة العروة الوثقى

وبالله بيان منهج الجريدة وخطتها

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل ، في نجاح العمل خفيت مذاهب الطامعين أزماً ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها إلا نفس نم التوت ، أو غل الاقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيدها الفكر ، وسجروا ألبابهم حتى أذهلهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا يحتمله النفوس البشرية

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم ، وبغري به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عملها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الفسيفر ، في النزول اليسير ، وهو زعم ياباه القياس بل يبطله البرهان ، فإن تقابلات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قابيلة العدد فزيت في سواد أمة عظيمة ونسبت تلك العشيرة اسمها ونسبتها . فلم يحز في زمن من الأزمان أمحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثل الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ، ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه إلى اليوم ، أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لا تقراق في الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا نحمد ، أو ركون إلى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها

قوة اجنبية ، أزعجتها ونهتها بعض التنبيه ، فاذا توالت عليها وخزات الحوادث رافقتها آلامها ، فزعت إلى استبقاء الموجود . ورد المنقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من اي سبيل ، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالتثام أفرادها ، والتحام آحادها ، وان الالهام الالهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ، ترشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها^(١)

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان ، فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها ، واستأسد ذنبها ، وتنمر عليها ، واهتمت خلاصتها ، وإن تقدم عند الطلب رشاداً .

ربما تخطيء مرة فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع في مثله ، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغابة . وإن الحركة التي تبتث للدفع مالا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عاينها ومدبر سيرها ، لا يكتفي في توقيف سيرانها أو محو آثارها فهدم ذلك القيم واهلك ذلك المدير ، فإن العلة مادامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها ، فإن ذهب قيم خلفه آخر وسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ، نعم يمكن تخفيف الأثر أو ازالته بإزالة علته ورفع أسبابه جرت عادة الادم أن تأنف من الخضوع لمن يبينها في الاخلاق والمعادات والمشارب ، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدنين به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها اذا حملها مالا طاقة لها به ، لا ريب أنها تستنكره ، وإن كانت تستكبره ، وكما أنكرته بعدت عن الميل اليه ، وكما ابتعدت منه بحجة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلتظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الادم ما بينها من الاختلاف في

(١) أن هذا العلاج لا كبر الاوهام اني أدلت الادم الكبيرة لاعدد القليل من أصحاب القوة الآلية قد كانت نجهه هذه تلك الادم وقد بدأت تعتمد عليه في هذه الايام ، وان ما بعده من القواعد الاجمالية وان لوسائله وشدة الحاجة اليه ، وإزالة الموانع من طريقه

الجنسية والمشرب، قمرى الاتحاد لدفع مايعمها من الخطر، ألزم من انتحزب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أبعد هذا بأخذنا العجب إذا أحسننا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام؟ كل يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وبتحل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن، وان العقلاء في كثير من أصغاه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها اقيام بمحقوق الكل^(١)

بلى، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وإن عي عنه الطامع، وليس في الامكان اقناع الضامعين بالبرهان، ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في أبنائه ل مايجري به القضاء الالهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون

*

بانح الاجحاف بالشدقين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتقلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم منك أنزلوا عن عروشهم جوراً وذوو حقوق في الامرة حرروا حقوقهم ظلماً، وأغزاه باتوا أذلاء، واجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، ونساء أضحووا سقاماً، واسود تحولت انعاماً، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من افراط الطامعين في اطاعتهم، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بايدي ذوي المطامع فيها

حملوا إلى البلاد ما تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، والزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخصدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليبيثوا بكل ذلك وسيلة لتبيل المطعم، فكانت الحركة العرايية المشيئة، فنجذوها ذريمة لما كانوا له طامعين، فانبذع بهم سبل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد، وظنوا بلوغ الأرب، ولكن اخذاً الظن وهو بما لم ينالوا

(١) هذا تبييه لوجوب تأييد جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يكن

يفكر فيه أحد قبله

لم تذكر تحمد تلك الحركة في بادي النظر حتى خلمتها حركة اخرى ، وفتح باب كان مسدوداً ، وقم قائم بدعوة لها المكانة الاولى في نفوس المسلمين ، بل هي بتمية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة ، وربما يوجد من يدري ان مسيبيها في حيرة من تلافياها ، نعم انهم غرسوا غرساً إلا انهم سيجنون او عم الآن يجنون منه حظلاً ، وبطعمون منه زقوما . لاجرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ، ويغافل في حرصه ، ولو انهم تركوا الامر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعتة ، او اقتناء فائدته ، لحفظوا بذلك مصالحهم ، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تنزل لهم قدم ، أو ينكس لهم علم

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الاهواء وهو أنفذ عوامهم وأقتلبها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب . وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسد قلوب المعتدين ، فإن بلاء الجور اذا حل بشر من الامة وعوفي منه باقيها ، كانت سلامة البعض تعزية المصابين ، وحجاب غفلة السالمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم الضجر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون إلى مافية خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

*

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظراً لوقوعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين . فان كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان لديانة الاسلامية ان الخطر الذي ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، وان تزال آلامه تستفزهم مادام الجرح نغارا ، وما هذا بغريب على المسلمين ،

فان رابطتهم المليية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

إن الفجعية بمصر حركت أشجانا كانت كامنة ، وجددت أحرانا لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم من تذاكر الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا تأمن أن يصير التنفس زفيرا ، بل نغيراً عاماً ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطمع

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتاب له في فتوحاته إلا المداواة ؛ ولا فيالقي يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها ما تمتد إليه يده إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان ، متقاربة الأشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقى مصالح المغلوبين ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجح البصر ، وكر النظر ، وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا خنقت خنقت ، وليس له أن يفتخر بعدم مكتبتهم ، وهو يعلم أن الكلمة اذا تحمدت لا تعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم اتروج سياسته ، وأن المغيظ لا يبالي في الايقاع بمنائيه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وإن مسه الضر

إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسمعهم عن حسيس المهمات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكرير^(١) الممتد من مصر الى مكة ، ومن مكة الى الهند ، وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

(١) الكريير صوت في الصدر كه صوت الخنثق أو الجهود وقد استعارها هنا المراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط المدواني الاجنبي . ولا يوجد في لغات العالم كلمة أليق بهذا المقام وأحسن موقعا وأشد تأثيراً فيه من هذه الكلمة وهي من الدلائل على ان البلاغة تكون في المفردات كلكربكات لكن عند وقوعها في التركيب

إن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الاقطار المتباعدة بمحدودها، المتصلة بجمامة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم الى ما هم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وغال الضعف ، راجين أن يترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وان في الحاضر منها لتهزة تعتم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ، واثن قاتت على فكهم في الغيب من مثلها ، والى الله عاقبة الامور .

تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية ، ووظفوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كامة الحق في كل صقع ، لا ينون في السعي ، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حي على حياته

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يصارعهم في مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الاكيدة مع الذين يتملكون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوروبا ، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطنة العامة الاسلامية وفروض القائمة بها . وبأن مكة المكرمة منبعث الدين ، ومناطق اليقين ، وفيها موسم الحجيج العام في كل عام ، يجتمع اليه الشرقي والغربي ، ويتآخى في مواقفها الظاهرة الجليل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل

*

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطار ، وأقرب الى الظفر ، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفي عنه شأنهم من اخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم في هذه الايام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم

الى الاقطار القاصية ، تنزيهاً للعافل ، وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا الى السيد جمال الدين الحسيني الافغانى أن يذشىء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ماحمل الاول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال ، وعلى الله الاتكال في جميع الاحوال .

الجريدة ومنهجها

ستاتي في خدمة الشرقيين على مافي الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت

ويستنبع ذلك البحث في أصول الاسباب ومناشئ العمل التي قصرت بهم الى جانب التفريط ، والبواعث التي دفعت بهم الى مهامه حيرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب ، وتاه فيها الخريت (١) وضل الرشداً ، حتى لا يدري السالكون من أين تفجهم الطوارق المفزعة ، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القمئة وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام التعريف ، ولبست عليهم مسالك الرشداً ، وتزيخ الوسوس التي أخذت بعقول النعمين ، حتى أورتهم اليأس من مداواة علائهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات ، وأن العلة بلغت حدها

وتحاول إشراب الافهام أن لا حاجة في الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة الى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم . وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الادبار عن المفلوب وهو تحت الجناح . يكفي في الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة . وأن الظهور في مظهر التوبة لدفع الكوارث انما يتم له التمسك ببعض

(١) الخريت بكسر الحاء المعجمة وتشديد الراء الدليل الحاذق بخرت الارض

وهو معرفة طرقها ومضايقتها

لأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها^(١) ولا ضرورة في إيجاد النعمة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجئ للشرقي في بدايته ، أن يقف موقف الاوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما حضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأتمه وقرأ أعجزها وأعوزها وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للملاقات والروابط السياسية . فن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف . وتجميل إهاب الوداد المرقش بألوان الملائمة ، المدبج بأشكال الجمالة ، شفافاً ينم عما وراءه ، وتنتقب عن المسالك الدقيقة ، التي يسري بها الظالمون في دياجير الغفلات ونهتهم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً المسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لا خبرته بلجالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ماداموا على أصولهم التي فازبها آياؤهم الأولون ولا تبين في تبليغ الشرقيين ما يحسبهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، واتقاء الثابت

وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التي لا تميل الى الحيف والاجحاف بمحتوق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والحاملين عليها ، لا تظهر إذا أدلجوا ، ولا تتجد إذا أغوروا . وتذهب مذاهب الرشد . وتصيب بحول الله مواضعه عند من سبق في أزلي علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وترسل الى الذين نعرف أممناهم مجتانباً بدون مقابل ليتداولها الامير والحكيم ، والغني والفقير . ومن لم يصل اليها اسمه فما عليه إلا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذي يريد . والله الموفق اه

(١) ريد الدولة الروسية التي جرت كلة شموها وغنبت بجعلهم أمة حرة مسالحة بأحدث آلات القتال وأخذة بأحدث نظمه كما هو مبين في مقالة أخرى (م ٣٨ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

رعب الانكليز من العروة الوثقى ومقاومتهم لها

لما استقرت قدم السيد جمال الدين في مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) وأنشأ يربي التلاميذ والمريدين لاعدادهم للعمل السياسي الذي هو غرضه من الحياة كان من أول ما نشره في جريدة مصر التي أنشأها بعض مردييه من السوريين مقالات عنونها «البيان» في الانكليز والافغان (وصف فيها قومه الافغانيين بقوله : «هذه الامة المعروفة بعزة النفس ، وشدة البأس ، التي لم ترض الدخول تحت حماية الحضجر (١) المبتلى بجوع البقر والاستسقاء الذي لم يشعه ابتلاع ماتي مايون من النفوس (٢) ولم تروه مياه الكنج والتميس ، بل ففر فدها ليلتهم بقية العالم . ويجرع مياه النيل ونهر جيحون هـ

وكان من تأثير هذه المقالات أن ترجمتها بعض الجرائد الانكليزية وأظهرت الاعجاب به وبها وردت عليها كما تقدم تفصيله في ترجمته من هذا الكتاب فكان أول كاتب شرقي اهتمت الجرائد الانكليزية بكلامه

ولما عزم على نشر جريدة العروة الوثقى في باريس كان قد اشتهر أمره عند ساسة الانكليز بما كان له من الاثر الفعال في السياسة المصرية في آخر مدة اسماعيل باشا حتى كان قنصلهم الجنرال هو الذي أغرى توفيق باشا باخراجه من مصر بعد أن كان من مردييه - وحتى ان حكومة الهند حجرت عليه في كلته مدة الثورة العربية وحجبت عنه اخبارها كما تقدم ايضا

لهذا كله حسب الانكليز لجريدته كل حساب وجهره من ساستهم بتحريض حكومتهم عليها قبل صدور شيء منها كما بينته في العدد الخامس الذي صدر في ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ (١٠ ابريل سنة ١٧٨٤) وهذا نصه :

- (١) الحضجر بكسر ففتح الواو الرطان وهو من اسماء الضع
- (٢) يعني اهل الهند وكان هذا إحصاءهم في ذلك الوقت واما الآن فهم ٣٢٠ مليوناً او يزيدون

الجراند الانكليزية والعروة الوثقى

لونا دينا الغافلين أن انتبهوا . والنائبين أن استيقظوا . واللاهين بحظوظهم او ثمانينهم او أوهامهم ان التفتوا . ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانكليز لو ثبتت أقدامهم في ديارهم ، لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم . بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم - لقال الناس اننا نبالغ في الانذار ونغرق في التحذير . ولويدنا لهم أن الانكليز يؤأخذون الابناء . بذنوب الآباء ، والاحقاد بجرائم الاجداد ، ويطالبون الذراري بدفائن اسلافهم - وان لم يكن للخلف علم بما ترك السلف - اعدوا هذا البيان مناشططا في المقال ، وميلاعن الاعتدال . ولورويدنا لهم أن في قلوب الانكليز حقدآ وضعينه على كل ايراني سواء كان من الافراد او الوجوه ، ويسيتون معاملتهم حينما وجدوا من بلاد الهند ، ويمقتونهم مقتا شديداً لان نادر شاه من ملوك العجم جاء إلى الهند فاتحا على عهد السلطنة التيمورية ، واستولى على خزائن الاموال في دهلي ، وأخذها إلى بلاده قبل استيلاء الانكليز على تلك المملوكة بما ينيف عن قرن . ويعضون الانامل من الغيظ ويحرقون الأرم من الاسف على ما أخذه نادر من أموال دهلي ، وحرمانهم من تلك الاموال ، ويحملون هذا الوزر على عاتق كل ايراني - لحسبوا ذلك منا تعاليا .

واو قصصنا عليهم ما يامل به الانكليز رعاياهم في الهند عموما والسلمين خصوصا ، وأنه يكفي لنبي عالم من علماء السلمين إلى جزائر (اندومان) أن يمتزف بانه معتقد ببعض آيات من القرآن - لانكروا علينا ما نقول ، لبعدهم عن تلك الاقطار وعدم وقوفهم على أحوالها . ولسنا الآن بصدد اقناع المصريين بما نعلم من أحوال الانكليز ولا نريد إقامة الدليل على ما نعرفه من أحكام ساضتهم ، فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقص . ولاكن نعرض عليهم نموذجاً من المعاملة لعله يكون للمتبعين مرآة تحكي ما يغيب عنهم من لوازم السلطنة الانكليزية

عزمتنا على إنشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنسية. فكتبوا عنها قبل صدورها، غير مبدئين لمشربها، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها. فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، واندروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الانكليز ونفوذها في البلاد الشرقية. ولجروا في إغرائها بها، وألحوا عليها، بأن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية. بل تطرفوا فنصحوها ان تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها. كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسي. مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لاثارة الخواطر، ولا لايقاد الفتن، وإنما أنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموما، والمسلمين خصوصا. وتنبية أفكار بعض الغافلين منهم. لا فيه خير لهم. ولقد صدرت سالككة جادة الاعتدال، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل، كما يظهر لكل من اطلع عليها.

فليعتبر المعتبرون بهذا الاجحاف. والاعتداء والقصاص قبل الجزاية، ومن كان سمندلي الطبع فليهنأ له العيش (في ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب * ولكن فلنعلم الحكومة الانكليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة او بوسيلة أخرى إذا دعا الحل. فإن أنصار الحق كثيرون. اهـ [المؤان] قوله سمندلي الطبع في الاصل سمندري بالراء وهو محرف، والسمندلي نسبة الى السمندل (كسمر جل) وهو كما قال في القاموس : طائر في الهند لا يحرق بالنار. وهذه استعارة والمراد ان من كان لا يشعر بالأم نار الذل والامتهان بان كانت طبيعته النفسية كطبيعة السمندل الجسدية الذي لا يألمن مس النار فليهنأ له العيش في ظل الاجنبي الذي يشبه ظل يجموم جهنم الذي وصفه الله تعالى بقوله للمجرمين (انظروا الى ظل ذي ثلاث شعب) الخ

فإذا كان هذا شأن خوف الانكليز منها قبل صدورها فهل يستغرب من الحكومة البريطانية بعده أن تمنع دخولها في مصر والهند؟ وهذا ما ورد في مع الحكومة المصرية لها في العدد التاسع الذي صدر في ٢٥ رجب ١٣٠٢ (٢٢ مايو * ١٩١٤)

العروة الوثقى

انفق مجلس النظار المصري في اتمامه واهتم بالبحث في شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاصياً عليها بان تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الاقنار المصرية، وتراقب جولانها في تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة في ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الاوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يفرض مبالغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهي غرامة جسيمة ربما دعا اليها عمر المالية المصرية بركة تصرف الانكاي في مصر) أما نحن فلا نغان أحداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار، بل لا نتوهم في المستوي على كرسي الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكيم، ولا يحتاج في صدورنا أن مصر يا من أي مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم بل ولا شرقياً من يسكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل

هذه جريدة تمت بالدفع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولما سعي بل كل الهيحية آمل أعدائهم، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا نقدح في عمرو، فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا، وإنما عملها سكب مياه انصح على لب الضعاف لتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد . فلتمس من أبناء الامم الشرقية أن يلتقوا سلاح التنازع بينهم وبأخذوا احذرهم وأسلحتهم لدفع اضواري التي فطرت أفواها لالتهامهم ومن رأبها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الامن من طروق الناهب هذا مناهج العروة الوثقى على كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره . ولكننا نعلم أن حركات الآسرين في القطار المصري هذه الايام قهريه لا يتخاطبها شيء من الاختيار ، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الانكاي

ولا نريد أن نقول للانكاي إنهم ظلموا في هذا الحكم فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والاجنبية من كشف مساتيرهم، وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم . لانهم الانكاي الذين إذا

احسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار امرعوا
 بجابه الى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله اليها يفتح له الضابط مصحف
 قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير الى آية من آيات الجهاد أو
 حديث مما يدعو اليه، ويسأله هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث؟ فاذا قال
 نعم.. قال له فيناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا. فاذا أجابه بأنني
 درویش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادي بهذا إلا لانه كتاب ديني، ضرب
 له الضابط أجل أربعة ايام أو أقل يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث، فان مضى
 الأجل ولم يحرف العالم دينه، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر برسالة تحريجه وتبديله
 وخروجه عن دينه الى مطبعة من المطابع ليطلع وينشر. بعثت به الحكومة الى جزيرة
 (أندومان) نفيًا مؤبدًا. ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها خاصة بأمثل هؤلاء المظلومين
 فدولة الاسكندر التي محاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم، وما
 يمكن أن يهجم في حديث نفوسهم، لا ريب اننا نعد وجود لفظ الاسلام في جريدة
 كافيًا لمنعها عن الدخول الى بلادها فيه قدم ثابت، أو تسمى في تبيته، بل تحسب
 أن من ألد أعدائها شخصًا علق عليه هذا الاسم من أي جنس كان. فلا غرابة
 في صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلم لها أن هم الرجال لا تقعدوا مثل
 هذه المظالم، وليس يعجزنا ادخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها الساحة
 الانجليزية الظالمة، ذلك بمزامم أولي العزم الذين قاموا بانشاء العروة الوثقى
 يافعا أن بعضا من الناس يسل سيفه ويشحنه لمانضلة الولي الحميم، ويقابل ثمة
 بالذم، ومدحه بالتدح: واحسانه بالاسنة، ويواجه نصيحته بالظنة. ولا نظن أن هذا
 عن عمد ولا اغراء عدو، وإنما هو كبه حجت نظره عن درك الحقيقة فإذا كشفت له الايتم
 عن الواقع رجع الى الندم على ما صدر منه، وكانت له مثابة الى الحق وركون الى الصواب
 لا يخرن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من
 منع العروة الوثقى عن دخول القطر المصري وإيعاموا أن الحكومة المصرية لا تدخل تحفي
 هذا المنع، فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غير أن يمنع جريدة لاشي، فيها سوى الدفاع عن
 الشرقيين، وإنما منشور حكومة الخليل أو شانهم معلوم عند كل عارف بأحوالها. إه

تأثير العروة الوثقى في العالم الاسلامي

انني لا ازال أتذكر أنه كان بدارنا في القلمون بجوار طرابلس الشام (في سنة ١٣٠٢) ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العربية فجاءت جريدة العروة الوثقى مساء فأخذها الاستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي المشهور، وقد وضع بين يديه مصباح من مصابيح زيت التبرول، وأنشأ يقرؤها بصوت جهوري كأنه خطيب، وإنما كان يقف عند بعض الجمل، ليعبر عما يخلجه من شعور العجب، ولم يتركها حتى أتى على آخرها، ولم أكن في ذلك الوقت أعنى بشيء مثل هذا بل كانت تلك السنة هي السنة الثانية لاشتغالي بطلب العلم.

ثم انني رأيت في محفوظات والذي بعض نسخ الجريدة فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال، والحرارة والاشتغال، ما قدف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال، وقد سبق لي ووصف تأثير الجريدة في نفسي بوجه الاجمال (١) وإنما كان الاثر الاعظم لتلك المقالات الاصلاحية الاسلامية، ويليها تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية، والذي علمته من نفسي بالخبر ومن غيري بالخبر ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا في قرون قبله بعض ما كان لها من اصابة موقع الوجدان من القلب، والافئاد من العقل، ولا حد للبلاغة إلا هذا

وكان هذا التأثير هو الذي أوحى إلى صديقنا الامير شكيب أرسلان قوله في مدح السيد جل الدين الذي أفاض الله تعالى حكمها على جنانه

ومعان لو أوحيت لجاد هزه الشوق نحوها والغرام

حيرت كل ذي حصة إلى أن قيل لاشك انها إلهام

وقوله في كلام الشيخ محمد عبده الذي أبرزها باجمل الحلي والخلل من بيانه

كلام إذا ألقيته في جماعة غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب يذوق
عليه من النور الالهي مسحة تكاد على أرجانه تتألق
كذلك كان تأثيرها في نفس كل من كان يطلع عليها، وناهيك بالمطالعين
عليها في زمن صدورها،

ذلك بانها قد تجلت فيها تلك الأفكار الجالية السامية، بتلك العبارات العبدية العالية،
وجمعت بين الحكمة وفصل الخطاب، والاخلاص في بحري الحق، ومخاطبة القلب
للقلب، فلا غرو أن يكون لها ما علمنا من عجيب التأثير، الذي لم يعد له بعد ما كان من
تأثير اقرآن في العصر الاول نظير، وانما كان تأثيرها مستمداً من تأثير القرآن،
فهي قد أحيت تدبره والجهاد به، والدعوة اليه والدعوة به، والمعاني الاجتماعية
والسياسية من تفسيره، فكان قارئها يشعر بالروح العلوي الذي كان يفيض من نور
على ذينك القمرين النيرين، وينعكس من فلكهما على العالم الاسلامي فيحدث فيه من
قوة التأثير ما كان يجزم أهل الرأي في الاقطار المختلفة بأنه سيحدث ثورة اسلامية
قريبة في العالم يقبها انقلاب عظيم في الشرق

سمعت أستاذنا الشيخ حسينا الجسر عالم سوربة الوحيد في الجمع بين العلوم
الاسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية يقول: ما كان أحد يشك في أن جريدة
العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيماً في العالم الاسلامي لو طال عليها الزمان
وسمعت محمد بك علي المؤيد يقول كنت في بغداد في عهد صدور العروة الوثقى
وكانت ترسل إلى الزعيم العربي الاكبر في العراق السيد سلمان الكيلاني نقيب الادة
الاشراف وكان يقول كلما جاء عدد منها يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه
الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا. وكان السيد سلمان من زعماء المسلمين
أصحاب النفوذ الكبير في قبائل العراق المساحة التي لم تكن تخضع للدولة العثمانية -
وأما نفوذه الروحي في الملايين من مسلمي الهند فهو يشبه العبادة أو هو ضرب منها.
وانما أعد القلوب لذلك التأثير سوء وقع احتلال الانكليز لمصر والامل
بانقاذها منه بسعي هذين الزعيمين الحكيمين، فلا غرو أن يكون لذلك الزمان
ولاختيار ذلك المكان، وتلك الآمال والآلام، من السلطان الروحاني على ذينك

العقابين المالكين ، والقلبيين المحاصرين ، ما تجلجى نوره في مرآة العروة الوثقى وانعكس عنها على الشرق ، فأضاء ما فيه من ظلمات بعضها فوق بعض ، وظلمة الجهل بالقرآن ، والجهل بتاريخ الاسلام ، وظلمة استبداد الحكام ، وظلمة فساد الاخلاق العام ، ولقد عاد المسلمون بعدها يتسكعون في تلك الظلمات الحالكة ، وتلك المصايح بين أيديهم ينظرون اليها ولا يبصرونها ، فاني لهم الاستضاءة بنورها ؟^١

وقد رأينا لكل من هذين الحكيمين مقالات كتبها بعد ذلك فلم تر لها من الروعة والدهشة والسלטان على الارواح مثل مقالات العروة الوثقى ، بل قال لي الاستاذ الامام نفسه : اني لا أستطيع الآن أن أكتب مثلها ، وعلل ذلك بما أشرت اليه من تأثير الزمان والكان والحل والانفعال والآمل ولو لو عادت تلك المؤثرات لكتب ما هو أبلغ منها ، لانه قد ازداد علما وإيمانا وبيانا ، ألم تر كيف كان ما كتبه من انفصول في آخر رسالة التوحيد من ذلك الطراز العبقري ، والالهام الالهي ، ولأن موضوعه اعتقادي لاعلمي ، وسبب ذلك أنه كتبها في حالة وجدانية استوتت على النفس ، فجذبته من عالم الحس الى عالم القدس . زرتة رحمه الله تعالى في ضحوة يوم من أيام رمضان سنة ١٣١٥ بداره التي كانت بحمي الناصرية فقيل لي انه موعوك لم ينزل من سريره . قلت أخبروه بحجتي فأخبروه فاذن لي فسأله عن شكاته فقل اني أطلت الفكر ليلا في حال المسامين وما أصابهم من الشقاء بترك دينهم فداورتني آلام عصبية يعتادني مثلها كلما أطلت الفكر في هذا الامر ، حتى خطر في بالي أن أنزل من الدار وأذهب إلى مجامع هوم وفسقهم العامة في حي الازبكية وأصبح بهم : أيها الناس ما ذار أيتم في دينكم .. حتى تركتموه ؟ ثم انني لم أجد نفسي إسعافا يسكن الالم إلا الكتابة فكتبت هذا الفصل الملحق برسالة التوحيد ، « انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ » وما يليه من الأبراد والجواب عنه

(١) اني لا أعجب لغفلة معلمي الانشاء في مدرسة دارالعلوم وغيرها من المدارس العالية ، كيف لا يلتفتون الطلاب هذه المقالات ، ولا يرشدونهم إلى مطالعة غيرها مما ودعناه جزء المنشآت ، ثم يزول عجبى بتذكر إحاطة هذه الظلمات وكان بعض من أنار الله بصيرتهم من أساتذة مدرسة المعلمين العليا قد طابوا من وزارة المعارف تقرير هذا الجزء لمطالعة الطلبة فيها فقررته ، ثم طلب غيرهم أن تستبدل به كتاب مقامات الحريري فاستبدلته !!! وانما استبدلوا الذي هو أدنى والذي هو خير .

مقاصد العروة الوثقى

الموضوعات التي تنحصر فيها مقاصد العروة الوثقى أربعة: الجامعة الاسلامية، الرابطة الشرقية، المسألة المصرية، المسألة السودانية، والرابطة الشرقية مرتبطة بالجامعة الاسلامية في مذهبها، وليس فيها فصول خاصة، بها وقلة، تخلو مقالة في الجامعة الاسلامية من ذكرها، ووجوب الجمع بينهما. وكذلك المسألة السودانية مع المسألة المصرية إذ السودان جزء من المماليك المصرية. ولكن كان للحكيم سياسة خاصة بالسودان سيأتي بيانها وانني ألخص مذهبها في هذه المسائل اثلاث

الجامعة الاسلامية

كان الغرض منها إرشاد المسلمين بالقرآن ونشأة الاسلام الاولى إلى وحدته، وسيرة النبي ﷺ وخلقنا الراشدين في اقامته وتأسيس حكومته، وسيرة السلف الصالحين في هدايته. وسيرة القواد الفاضلين في تشييد صروح سيادته، ومذاهب الأئمة المجتهدين أي طرقهم العلمية الاستقلالية في تدوين شريعته، ومناهج الحكماء والفنانيين في تكوين حضارته، وتوجيه جميع شعوبهم إلى استقلال بلادهم وأحدها وتعاونها على إحياء مجده، بترك تصنيفات المذاهب والجنسيات المنفرقة لكامة أهله

واما ما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الاسلامية أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة، فلم أره في شيء من العروة الوثقى ولا في غيرها مما كان يرويه عنه الاستاذ الامام وهو أعلم الناس بمقاصده وأعماله، بل قال في المقالة التي وضعنا لها عنوان (الوحدة الاسلامية) التي نشرت في العدد التاسع من العروة الوثقى « لا ألتبس بقولي هذا أن يكون مالك الامر في الجميع شخص واحداً فإن هذا ربما كان عسيراً. ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ما سلكه يسعى بجهده لحفظ الاخر ما استطاع، فإن حياته بحياته، وبقائه ببقائه، ألا إن هذا بعد كونه

أساساً لديهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات « اه (راجع
المقالة في ص ٢٧٦ من الجزء الثاني - الطبعة الثانية)

وضرب لهم في المقالة التي أنشأها لدعوة الايرانيين والافغان للاتفاق
والاتحاد مثلاً الشعوب الجرمانية الذين كانوا مختلفين في النصرانية على نحو
من اختلافهما وقال : فما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية
ظهر الضعف في الامة الالمانية وكثرت نايها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة
في سياسة أوربة . وعند ما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية ،
وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة ، رجع اليهم من اتوة والشوكة ما صاروا
به حكام اوربا ويبدعهم ميزان سياستها اه (راجع ص ٣١٦ ج ٢ طبعة ثانية)

والظاهر أنه كان يكتفي بالوحدة الدينية وتجديد الاصلاح الاسلامي المدني
والحربي في كل شعب له دولة او تصير له دولة ، وعقد المحالفات بين هذه الدول
(كالترك والفرس والافغان في ذلك الوقت) ثم الاعتراف لاقواهن برباسة
الحلف بتمثيله للخلافة الاسلامية ، كجمل الدول الالمانية ملك بروسية امبراطورا
للمملكة وعاصمتهم مركز الوحدة الامة ، مع بقاء كل دولة مستقلة بنفسها في بلادها
أنشأ لهذا الغرض بضع عشرة مقالة صدر أ كثرها آيات من اقرآن وأذلها
بمحدث أو عنوان يناسب موضوعها ، ولم يضع لا كثرها عناوين غير هذه الآيات
وقد نشرناها ومقالات أخرى أدبية واجتماعية في الفصل الثالث من الجزء الثاني
(منشآت الاستاذ الامام) وجعلناها عناوين تليق بها

وأرى أنه لا يتم لقاريء هذا التاريخ ما كان الحكيمان يريدان من فكرة الجامعة
الاسلامية والاصلاح الديني لإبقرأة تلك المقالات ، التي نشرناها في الفصل الثالث
من جزء المنشآت ، وحسبي هنا أن أصف بعضها ، وأذكر بعض الشواهد منها .

مقالة (١)

الجنسية والريانة الاسلامية

بدئت هذه المقالة ببيان ضاف في عصبية الجنس ونعوته ومكانتها في الامم والحاجة اليها في الاجتماع ، ونجوز الناس حد الحاجة فيها إلى الانفة من سلطان المخالف في الجنس وان كان عادلا مصلحا ، لان في قبول حكمه مهانة وذلا ، واستثنى من هذه الضرورة للعصبية الجنسية ما تزول به قاندها ، بوجود عصبية أعلى وأنفع وأعم وأشمل منها ، وهي العصبية الدينية ، ووصف سلطانها على النفس ، وأثرها في الوجدان والحس ، وضرب لها عصبية الدين الاسلامي مثالا وبين حال المسلمين فيها ، وعللها بما ينقض دعوى بعض ملاحدة هذا الوقت أن الاسلام رابطة روحية ، ليس له تشريع ولا سياسة مدنية اجتماعية ، وفيه بيان قاعدته في الساطة العليا وهي الخلافة فقال :

« لان الدين الاسلامي لم تكن أصوله قصيرة على دعوة الخلق إلى الحق ، والملازمة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كليها وجزئها ، وتحديد الساطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعا لها ، ولن ينالها بوراة ولا امتياز في جنس او قبيلة او قوة بدنية ، او ثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ، ورضاء الامة ، فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم الالهية المقدسة التي لا تميز بين جنس و جنس ، واجتماع آراء الامة ، و ليس للوازع أدنى امتياز عليهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها »

ثم استدلل على ما ذكره بشيء من الكتاب والسنة ، وذكر جريان المسلمين على ذلك في القرون الحالية ، واستقامة أمورهم باستقامة الوازعين فيهم على ما ذكره واختمها باخلاقه ، ومنه قوله :

« وكما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في ابهته ورفاهة مدينته وأن يستأثر على المحكومين بمحظ زائد، رجعت الاجناس إلى تمصيبها، ووقع الاختلاف، وانقبضت سلطة ذلك الوازع »

(نم انتقل من هذه المقدمات إلى المقصد الاسمي، وهو تأسيس حكومة اسلامية تكون مركز الجاذبية العامة للوحدة ققل):

« ان المسلمين اختصوا من بين سائر ارباب الاديان بالتأثر والاسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها، ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الاوامر الالهية وثار على رعايتها، وأخذ الدهماء بمحدودها، وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها، وتجنفى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة انباطلة، لا يمكنه أن يجوز بسطة في الملك وعظمة السلطان، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار العمورة بارباب هذا الدين، ولا يتجشم في ذلك أعباءاً، ولا يحتاج إلى بذل النفقات، ولا تكثير الجيوش، ولا مظاهره الدول العظيمة، ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية، ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية. ومن سيره هذا تنبعث القوة، وتتجدد لوازم النعمة » ثم ختم المقالة ببيان ما يخاف هذا المقصد فقال

« ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب ان بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكلمهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية، فياجئون للدخول تحت سلطة أجنبية، على ان الندم يأخذ بأرواحهم عند اول خطوة يخطونها في هذا الطريق، فتألم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالألم رجع واسترجع. وان بعض ما يطرأ على المالك الاسلامية من الانتقام والتفريق انما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القوية التي بنيت عليها الديانة الاسلامية، وانحرافهم عن منهاج اسلافهم الاقدمين، فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا

« فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض إلا قليل من الزمان الا وقد أتاهم الله بسطة في الملك وألحقتهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين ، وفقنا الله للسداد وهدانا لطريق الرشاد » اهـ

مقالة

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها (١)

مقالة طويلة تزيد مطورها على ٢٣٠ سطراً ، تزين ٩ ص ونيفاً ، افتتاحها بآية (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن نجد لسنة الله تبديلاً) ثم قال « رأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم ، فإذا هي بجمية كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تحمد في ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنجل بأيدي مدبريها عقد المشاكل ، تمت فيها افنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الحكمة ، وكدت القوة ، فاستملت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقتها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الامم بان لا سعادة لها إلا بانتهاج منهجها ، وورود شريعته ، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات ، كأنها للعالم روح مدبر ، وهو لها بدن عامل

« وبعد هذا كله وهي بناؤها ، وانتثر منظومها ، وتفرقت فيها الاهواء ، وانشقت العصا ، وتبدت ما كان مجتمعاً ، وانحل ما كان منمقداً ، وانفصمت عرى التماون ، وانقطعتم روابط التعاضد ، وانصرفتم عزائم أفرادها عما يحتمل وجوده . ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه ، لا يسمع في مناظره بارقة من حقوقها الكافية والجزئية »

وأخذ بعد هذا في وصف حال هؤلاء الافراد الذين فقدوا السلك الذي به كانوا أمة في حياتهم الفردية وما فعلت بهم قناعة البهم ، وما حشا أدمعتهم من جهالة الوهم ، حتى حاق بهم انقنوط واليأس ، فسلك أعناقهم في سلاسل الجبن وحبس أرجلهم في مقاطر العجز ، وغل أيديهم عن العمل ، وأقداهم عن السعي ، ثم قل « نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت ، وعزت ثم ذات ، وصحت ثم مرضت ، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى وأأسفاه ! ما أصعب الداء ! وما أعز الدواء ! وما أقل العارفين بعارق العلاج ! » ثم طفق يتسأل عن الدواء وطرق العلاج :

« كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفرق إلا لان كلا عكف على شأنه ؟ أستغفر الله ! لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أراضائه اتصالاً به ، واكثبه صرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه... »
 « كيف تبعث الهمم بعد موتها - وما ماتت إلا بعد ما سكدت زماناً غير قصير إلى ما ليس من معاليها ؟ هل من السهل رد الثانية إلى الصراط المستقيم - وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه ؟ خصوصاً بعد ما استدير القصد ، وفي كل خطوة ، يظن أنه على مقربة من الخطوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، البتهج بإعلامه ، وفي أذنيه وقر ، وفي ملامسه خدر ؟ هل من صيحة تفرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاءها ، وتتناهى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها ؟

« هل من نبأة تجمع أهواها للمتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل واران غين وخيل لاعتول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعز ؟ أيم الله انه لشيء عسير يعيا في علاجه النظامي ويحار فيه الحكيم البصير

(وههنا أخذ يبحث في حقيقة الدواء ومرض الامة والفرق بينه وبين معالجة مرض الافراد الجسدي ويستعرض الآراء في ذلك ، ومنها ذهاب بعض الناس إلى فائدة الجرائد ، وآخرين إلى الاعتماد على إنشاء المدارس على نحو ما في أوروبا ويبحث في كل منها من حيث الامكان والالتقان ومسألة الزمان ووضع تلك العلوم الغربية في مواضعها على الوجه الموصول إلى مقاصدها مع مراعاة استمداد الامة وطبائنها)

- وضرب المثل لقلّة غنائها في ذلك بما في مصر والدولة العثمانية منها وما كان من سوء تأثيرها في توسيع مسافة التفرق والانقسام وتبديد بقايا الائتنام وجعل النوافذ والخصاص في بنيان الامة أبوابا « لتدخل الاجانب تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمّتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير » (وانقل من ذلك إلى وصف المتخرجين في هذه المدارس المصرية والعثمانية الذين أضعفوا الامة بدلا من أن تنال بهم من المنعة والقوة ما يرد عنها الطامعين فيها خاسئين ، وتهمكم بما يتفقهون به من ألفاظ الحرية والوطنية ، وسخر بما يفخرون به من الاسراف في الافراق والزينة محاكاة للاجانب في بداية تقليدكم لهم بما هو ثمره ونهاية لعلومهم وفنونهم لاوسيلة لها ، وأشار إلى مانسفوا بذلك من ثروة بلادهم إلى غيرها وما أمانوا من الصناعات الوطنية وأبادوا من أهلها ورونت هذا التقليد السيئ ، التاثير بان « جدع لأنف الامة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هكذا إلا لان تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها ومخاتهم قبل أولها » ومما قاله في هؤلاء المتفرجين المقادين :

وصف المتفرجين المفلدين

« علمتنا التجارب ، ونطقت مواضي الحوادث ، بان المتلدين من كل أمة المتحللين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكرى لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوسوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واعتقاد من ليس على مثالهم ، شوّما على أبناء أمّتهم - يذلونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهبون بجميع أعمالهم ، وإن جات - إلى أن قال - وبصير أولئك المفلدون طلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات ، يهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بانهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تعالّب قواهم »

(وههنا ذكر أنه لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ماتعلّب الانكبايز على بعض أ. اضيها (حتى عاصمتها) لما بارحوها إلى أيّ

تلا بدين ، لأن الاجانب ما طرقوا أرضاً لأية أمة إلا أقبل هؤلاء المتعلمون عليهم يعرضون أنفسهم لخدمتهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثمتهم ويعدون القلبة الاجنبية مباركة عليهم وعلى أعقابهم)

(ثم أجمل ما فصله من تنفيذ ما قيل من علاج هذه الامة وانتقل منه إلى العلاج الصحيح الذي قال فيه إنه سبب يجمع كل الاسباب ووسيلة تحيط بجميع الوسائل ووحصر ذلك فيما أشار اليه في أول المقالة من حياة هذه الامة وقوتها وعزتها في نشأتها الاولى فكان ذلك شرحاً لقول الامام مالك : لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها .

مقالة

النصرانية والاسلام والمقابلة بينهما في طلب العبادات والسلطان

والنوة العسكرية والتنظيم (١)

عنوان هذه المقالة (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ويوليهامقدمة فلسفية في « خلق الله الانسان عالماً صناعياً » في أطواره المعاشية والعلمية والادبية والاجتماعية ، ليس فيه من تأثير الطبيعة في شخصه ولا فيما يحيط به إلا ما يكون في الاستعداد والاقابلية فكل ما يناله من علم وعمل « فهو ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو مصنوع يتبع مصنوعاً - فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي » ثم انتقل إلى مكان الدين من نوع الانسان وما له من الكسب فيه فقال

« هذا ما لا يرتاب فيه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا أن الاعمال البدنية انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ؟ وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير لانه مما لا يعزب عن

(١) نشرت في العدد الرابع بتاريخ ٧ جهادي الآخرة

الاذهان ، انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن أن منكرًا يجحدها :

« إن الدين وضع إلهي ومعلمه والداعي إليه البشر تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الافئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها، فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ماتدبر به بدنها وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين ثم ينبعث إلى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات حتى تبقى طبيعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال» بعد هذا شرع في الموضوع « وهو الملة النصرانية والملة الاسلامية » فأثبت ان الاولى بنيت على المساومة والمياسرة في كل شيء، وجاءت باطراح الملك والسلطة ونبت الدنيا وبهرجها، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بهاء وترك أموال السلاطين للسلاطين والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية وكذا الدينية الخ وأشار إلى بعض الشواهد على ذلك من الإنجيل وانتقل منه إلى التعجب أو التعجيب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي في المفاخرة بزينة هذه الحياة واستيفاء لذاتها والمصارعة إلى افتتاح الممالك والمسابقة إلى اختراع آلات الحرب والتوسع في فنونها والمبالغة في تنظيم الجيوش وسوقها الى ميادين القتال « حتى صار الفن العسكري من اوسع الفنون وأصعبها ، وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بمحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى غيرها »

(وقفي على ذلك بالكلام في طبيعة الديانة الاسلامية فقال)

« الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب القلب والشوكة ، والافتتاح والعزة، ورفض كل قانون يخالف شريعته ، ونبت كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب

الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المتزل يحكم حكماً لاربية فيه بان المعتقدين بها لا بد أن يكونوا اول امة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الاتقال والهندسة وغيرها « ومن تأمل في آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أيقن ان من صنع بهذا الدين فقد صنع بحج الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه.» (ثم انتقل من بيان هذه الاصول الى بيان حل المتتمين إلى هذه الديانة في هذا العصر من هوانهم بالقوة وعدم عنايتهم بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع آلاته، ودهشته من اضطرارهم إلى تقليد اولى الديانة السلمية فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وبنى على ذلك أسئلة كثيرة نذكر بعضها)

« لم لا يحار الحكيم وان كان نطاسيا ؟ لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الحالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، او التي شيء منها في أماني معلمهم وناشري شريعتهم، عند ما يتربعون في محافل دروسهم ؟

« هل تبدت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الارواح ؟ او وجد الارواح دبير سوى الفكر والخيال ؟ او انفقت الافكار من سلطة الدين ؟ او تعاضت النفوس على الانتقاش بنفسه وهو اول حاكم عليها واقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف المال عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل الممميات ؟ »

(وهنا فنحن نسب هذا التباين الى اختلاف الاجناس او طبائع البلدان ، واحتج

عليه بما حفظه التاريخ للعرب والفرس والترك عند ما كانوا في شبيبة دينهم من

الاعمال العسكرية التي ادهشت الالباب) ثم قال

« كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع فزعها المسيحيون

وغابوا عن معرفة أسبابها ، وذكر ملكام سرجم (انكايزي) في تاريخ فارس ان محمودا

الغزنوي كان يحارب وثنبي الهند بالمدافع وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه

سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العمود يعرفون شيئا منها

« فأيعون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى ما لم يكن من

قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخربهم عن

تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام الحيرة وموضع العجب ، ويظن

أنه لا بد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكننا نجمل على ما شرطنا »

أجاب عن الاول بما نلخصه في القضايا الأربع الآتية

(١) ان الدين المسيحي انما نشره في أوروبا أبناء الرومانيين الذين ورثوا

ملكات الحرب والقتال عن آباؤهم فجاء مسالماً لعاداتهم ومذاهب عقولهم ،

وداخلهم من طرق الاقتناع ومشاركة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان

كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم شيئا مما ورثوه عن أسلافهم

(٢) ان صحف الانجيل الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن مما يتناوله الناس

كافة ، بل كانت مذخورة عن الرؤساء الرومانيين

(٣) ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا

لقومهم حرب الصليب ، ودعوا اليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس

بالعقائد الدينية وجزت منها مجرى الاصول

(٤) ان هذه الحرب أعقبهم زعزعة في العقائد المسيحية [فافترقوا شيعة ،

وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلالته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في

جراثيم وجودهم ضراما] الخ

وأجاب عن الثاني بأربع قضايا يجمعها أمر عام هو الاحداث في الدين (الاولى)

عقيدة الجبر التي اخترقت الاذهان وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن

الاعمال (الثانية) ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع — وشركهم فرقة الباطنية — من البدع في الاسلام (الثالثة) شبهات السفسطائية (الرابعة) الاحاديث الموضوعية [وفيها السم القاتل لروح الغيرة وان ما ياصق منها بالعقول يوجب ضعفا في الهمم ، وفتوراً في العزائم]

وعزز هذه الأربع بخمسة لولاها لم يكن لمن ذلك التأثير في تشويه الاسلام وإضعاف المسلمين وهي [التقص في التعليم والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه ، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم ، بل الموجب لتقمقرهم ، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه]

وهذا نص صريح من نصوص كثيرة في إثبات أن الإصلاح الديني الذي كان يدعو إليه الحكيمان كلاهما هو الرجوع بالاسلام إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه (رض) قبل حدوث البدع والمذاهب

ثم ختم المقالة بموضوع الدعاية فقال « الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته — وان كان حجابها كثيفاً — لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يجرموا بها باردة تدافع دائم ، وتغالب لا ينقطع، والمنازعة بين الحق والباطل كالدفاع بين المرض وقوة المزاج ، وحيث إن الدين الحق هو أول صبة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك العيوم المعارضة فلا بد يوماً أن يسطع ضياؤها ويقشع سحب الاغيان » وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب الذمة من كل سبيل لا يهين لها وجهها ولا يخص لها طريقاً ، فاننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سائب منهم، فيتقدمون على سواهم في فنون الملاحة والمنازلة والمصاولة، حفظاً لحقوقهم وضماً بانفسهم عن الذل. ومانتهم عن الضياع، والى الله تصير الامور » اه

مقالته

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك *

جعل عنوانها آية (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهي تفصيل او كالتفصيل لخاتمة المقالة التي قبلها. وبدأ القول فيها ببيان ما امتاز به المسلمون من الشدة في دينهم والقوة في ايمانهم وارتباط بعضهم ببعض عمتضى عقيدتهم وغيرة القريب منهم على البعيد بحيث لو سمع أي مسلم في أي بقعة من الارض أن مسلماً ارتد عن دينه لعد ذلك من أعظم المصائب وان طال عليه العهد وانطوت عليه القرون، — وذكر ما يوجب الدين عليهم من حفظ ملكهم وبذل المال والروح في سبيله ومن الهجرة من دار الحرب التي يكون فيها السلطان لغيرهم

وانتقل من هذا إلى بيان حال مسلمي هذا العصر في التفتت بجهنم الواجبات وضرب المثل له بما كان من اعتداء الانكليز على أفغانستان ورؤية جيرانهم من أهل بلوچستان ذلك — ومن اعتدائهم على بلاد فارس ورؤية جيرانهم الافغانين لذلك — وعدم تحرك النعرة الدينية من هؤلاء ولا أولئك . ثم ضرب مثلاً آخر ما جرى في مصر في ذلك العهد فقال

« ان جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً وإياباً تقتل وتفتك ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دماهم ، بل السامعين لخبرها من حلاقيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وشمالهم »

وقفي على هذه المقدمة بالتعجب من الجمع بين هذه الحال وما يتأفها ولا يتفق معها من عقائد المسلمين . وأشار إلى القاعدة التي بينها في المقالة التي قبل هذه من سلطان العقائد الدينية على النفس الباعثة لها على أعمالها ، وقيدتها بقوله

في شرط تأثيرها « لكن الاعمال تثبتها وتقومها وتطبعها في الانفس وتطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق وترتب عليه الآثار التي تلائمها »

وشرح هذا الموضوع شرحاً علمياً فلسفياً بين فيه أن شأن جميع الروابط الطبيعية والجنسية كشأن الرابطة الدينية والافكار العقلية في تأثير كل منها في النفس بما شأنه أن يبعث على العمل، وأن ذلك لا يتم إلا بالتربية والعمل بمقتضى تلك الشؤون النفسية، فإذا لم تدع الضرورة الاجتماعية إلى العمل بها ضعف أثر الرابطة « ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والنقول » ثم قال « بعد تدبر هذه الأصول البينة، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك سبب سكون المسلمين الى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصره إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين إلا في العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الاعمال، وانقطع التعارف بينهم، وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل .

« فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا ترسل، فالعالم التركي في غيبة عن العالم الحجازي فضلاً عن يبعد عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا . بل العلماء في قطر واحد لا ارتباط بينهم (الى أن قال)

« كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة، وتضمحل هيئة الجسم

« بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقما اقتنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين، والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الرشدون رضي الله عنهم » كثر بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان . ثم انثلت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام : خلافة عباسية في بغداد وفاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الاندلس . تفرقت بهذا كلمة الامة وانشقت عصاها، وانحطت رتبة

الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ، ولا يرعون جانب الخلافة ثم ذكر ما كان من ظهور جنكيز خان وأولاده ، وتيمورلنك وأحفاده ، وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا ، وما كان من انفصال عرى الائتلاف بين الملوك والعلماء جميعا ، وافتراق المسلمين فرقا كل فرقة تدعو الى ملك أو مذهب ، « فضمعت آثار العقائد التي تدعو الى الوحدة ، وصارت صوراً ذهنية محوياً مخازن الخيال ، وتلحظها الذكرة عند عرض مافي النفس من خزائن المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا الأسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل بعض المصائب بالمسلمين . بعد أن ينفذ القضاء ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت لا يدعو الى تدارك النازلة . ثم عطف على العلماء فذكرهم بما يجب من العمل لتأسيس الوحدة الذي هو موضوع جمعية العروة الوثقى وسيلة ومقصدا فقال :

« وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع فيه الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين . ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهيطة لروح حياة الوحدة ، ويصير كل منها كسلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر . » ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع أنحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم . يأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر — ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أوزار الدين وحفظه من قوارع المدوان والقيام بحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتدخل فيها بما يحيط من شأنها ، ويكون ذلك ادعى الى نشر العلوم وتوير الافهام وصيانة الدين من البدع ... فلو أبدع مبدع امكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة الخ

مقالة التعصب *

جعل عنوانها آية (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) ، وكانت الحاجة اليها شديدة لان الجريدة قامت بدعوة قوية إلى عصبية اسلامية عامة لم يعهد لها في الاسلام نظير بعد العصر الاول ، وكانت سبقتها في التاريخ دعاية صليبية في أوربة استنفرت جميع شعوبها لقتال المسلمين وابدتهم من البلاد المقدسة بل من الشرق كله ، فنفروا خفافا وثقالا ، واستمرت نيران تلك الحروب قروناً وأحرقت أجيالا ، كما أن التعصب اذهبي في النصرانية نفسها أثار حروبه أخرى لم يحمد سعيها إلا بتوازن القوى بين الدول التي تدين بالكاثوليكية والدول التي تدين بالبروتستانتية ، وما تلا ذلك وأعقبه من الحرية والاحاد في الدين ومناهضة عصبية واليهج بذمها والتحذير من ضررها

ثم ظهر السيد جمال الدين بسياسة جديدة في الشرق كان الغرض منها احياء جميع شعوبه وتعاونهم لدفع استعباد الغرب لهم ، واستقلال بلادهم بنفسها ، وعمرانها بأهلها ، ولما كان دين الاسلام هو الغالب في ممالك الشرق الاذن كبلاد الترك والفرس والافغان والعرب وشطر أفريقيا الشمالي كله وكان أعظم أسباب ضعف شعوبها التفرق والتعادي باختلاف المذاهب والاجناس المحظور في دين الاسلام ، وكان سبب هذا الاختلاف والتفرق الجهل بحقيقة الاسلام نفسه والابتداع فيه ، وكان السعي لتلافي ذلك فرضا دينيا — لما كان ماذكر كما ذكر — كان من مقاصد السيد جمال الدين الاساسية ، بل أهمها تجديد الاسلام واصلاح ما أفسدت فيه البدع والمصيبات المذهبية والجنسية باحياء الرابطة الاسلامية الاولى التي عنوانها قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) كما تقدم بيانه في اصول جمعية العروة الوثقى وفيما لخصناه من المقالات الخمس من جريدتها

وكان من حكمته البالغة التي جري عليها بالقول والعمل الجمع بين الرابطة الاسلامية والرابطة الوطنية في البلاد التي تتمدد فيها الملل بحيث لا تجرد (* نشرت هذه المقالة في العدد السادس الذي صدر في ٢٨ جمادي الآخرة.

الاقليات غير المسلمة أدنى امتعاض ولا شكوى من الاصلاح الاسلامي الذي جرى عليه كما كان شأنه وعمله في مصر بل أجمع أرباب الافلام على تلقيه بفيلسوف الشرق ، ولما كانت ضيحة الدعاية الاسلامية في هذه الجريدة شديدة كالصاعقة وكانت تشبه بما عرف عنه وتعارض ما ذكره في بيان منهاجها من الجامعة الشرقية العامة ، والرابطة الوطنية الخاصة ، أجاب المشتبهين بما تقدم بيانه بعد بيان أصول جمعية العروة الوثقى وبقي عليه أن يبين بطلان ما شتهر بين الناس من معنى التعصب ومن تخصيص الديني منه بالذم والمقت وبجلي حقيقته ويشرح فائدته وهو ما عتدله هذه المقالة في العدد السادس من الجريدة فكانت هي الحكمة وفصل الخطاب ، وقوبلت بالخلوة والقبول من أولي الاباب . ولم يعترض عليها أحد من أهل الاهواء ، وتلخص في بضع مسائل :

(١) تجهيل الذين يتفهبون بدم التعصب والتهمك بهم

(٢) بيان معنى التعصب في اللغة وفي الاجتماع البشري

(٣) بيان كونه من الصفات والروابط البشرية النافعة التي لها وسط هو

الكمال الذي لا يقوم أمر اجتماعي عام في تكوين الامة وحياتها بدونه — ولها طرفة أفراط وتفريط كلاهما نقص ضار ، فالافراط فيه ما يحمل أصحابه على الدفاع عن المعتصمين معهم بلحمة العصبية بحق وبغير حق ، وعلى هضم حقوق غيرهم . والتفريط هو اهمال ما تدعو اليه من التعاون والتناصر على حفظ حقوقهم والدفاع عنهم الذي يفضي إلى اضمحلال الامة لعدوان غيرها عليها .

(٤) الرد على الذين يخصون التعصب الديني بالمقت والذم من الافرنج

ومقلدتهم ، وبيان عدم الفرق بينه وبين التعصب للجنس في حقيقته وفائدته في حالة الاعتدال ، وفي ضرره في حالي الافراط والتفريط

(٥) في سيرة المسلمين وتاريخهم في هذا التعصب واثبات كونهم أدنى الامم

إلى الاعتدال والانصاف مع المخالفين لهم وشهادة التاريخ لهم بذلك

(٦) عناية الافرنج الطامعين في بلاد المسلمين ببيت الدعاية لتفجيرهم من

العصبية الدينية لعلمهم أنها لا تسكون إلا بالعقيدة فهم يزنبون لهم « هجر هذه

أئصلة المقدسة وفصم حباها لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية وبمزقوها شيعاً وأحزاباً» — إلى أن قال « وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً ، فساعدهم على التنفير من العصية الدينية بعد ما فقدوها ، ولم يستيدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يباغفون في تعظيمها حقاً منهم وسفاهة . فثلمهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيبء لنفسه مسكناً سواء فاضطر إلى الاقامة بالعراء معرضاً نفوا على الجو وما تصول به على حياته »

(٧) نصب الدول الاوربية الحباثل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها لاصطياد من يساعدها على سياستها هذه (قول) « ولم تعد صيداً من الامراء والنتسين إلى العلم والمدنية الجديدة استعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم » وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الالهواء الباطلة ، ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في ايمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويهجرون ^(١) في رمي التعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصامهم ، ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأبيسهم ويدي المارقين « الخ

(٨) بيان عصية الافرنج الدينية ومنها أن من قواعدهم الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، « واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد من على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحا وعويلا ، وهيئات ونبآت ، تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدينة الغربية ، وينادى جميعهم : ألا قد ألتملة ، وحدثت حادثة مهمة ، فأجمعوا الامر ، وخذوا الالهة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثاها ، حتى لا تنتخدش الجامعة الدينية (و ذكر أن دولهم تتفق على هذا مع اختلافهم فاعاده وتمامهم ثم قال)

« أما لو فاض طوفان الفتن وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في

الدين والمذهب فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتعافلون عنه ويذرونه وما يجرف ، حتى يأخذ مده الغاية من حده ، وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يساقون المتدينين في تعصبهم الديني الخ (أي لان الدين رابطة اجتماعية وسياسية فهو لا يتعصبون له من هذه الجهة) وضرب للمتدينين منهم مثلاً الوزير غلادستون رئيس أحرار الانكليز الذي لا تخلو خطبة من خطبه من نفثة من نفثات بطرس الناسك مضرم نيران الحروب الصليبية وختم المقالة بوصية المسلمين بالاعتصام بالرابطة الدينية التي يجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي فتحفظ بها حياة الجميع المليية مع العدل ورعاية الرابطة الوطنية والتزام أوامر الله « في حفظ الذم ومعرفة الحقوق لأربابها وحسن المعاملة وإحكام في المنافع الوطنية بينهم وبين جيرانهم من أرباب الاديان المختلفة الذين لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحهم الخ » وبمباراة الامم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية «

مقالة القضاء والقدر^(١)

كانت الحاجة داعية الى هذه المقالة كما كانت داعية الى مقالة التعصب أو أشد . ذلك بأن الافرنج والمتفرنجين يزعمون ان عقيدة القضاء والقدر من العقائد الضارة التي كانت أهم الاسباب لضعف المسلمين وتخلفهم عنهم في الكسب والعلوم والفنون والملك والغلب ، لانها تعطل المدارك والقوى بجعل صاحبها ينتظر نيل كل مطالبه وحاجاته الشخصية والقومية من الله تعالى فيقدمه ذلك عن علو الهمة في العمل . والامر بضد ذلك فن هذه العقيدة تعلي الهمة ، وتنفخ في الانفس روح الشجاعة ، وتصفر عندها العظام ، وتهون عليها مصارعة الشدائد ، وانما

(١) نشرت في العدد السابع بتاريخ ٤ رجب ١٣٠١ اول مايو سنة ١٨٨٤ «

العقيدة التي لها ذلك الأثر الرديء عقيدة الجبر وهي بدعة حدثت في الاسلام كما بين هذا في مقالة المقابلة والموازنة بين الديانتين الاسلامية والمسيحية في طلب السيادة والاخذ باسباب المنعة والقوة الحربية .

فالغرض من هذه المقالة بيان حقيقة عقيدة القضاء والقدر والاستدلال على حقيقتها بالبرهان ، والفرق بينها وبين عقيدة الجبر ، ودحض شبهة من سوى بينهما ، وبيان ما كان للايمان بالقضاء والقدر من التأثير العظيم في رفعة المسلمين وعلو مكانتهم ، والدعوة الى سلوك سبيل الله فيها ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقامة الحجة على المسلمين الحاضرين والمستضعفين ، بما كان من عظمة سلفهم الأعرزة الغالبيين ليحيوا سنتهم ، ويبنوا بناءهم ، وقد وفقت هذه المقالة هذه المباحث حقها من البيان والتحقيق بما عجز عن مثله جميع العلماء المتقدمين والتأخرين ومما قاله في هذا :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الاسود ، وتندشق منها مرائر النور ، هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكارِه ومقارعة الاهوال ، ويحلبها بحلي الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نصرة الحياة ، كل ذلك في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة

« الذي يعتقد ان الاجل محدود ، والرزق مكفول ، والاشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يهرب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته . والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشديد المجد على حسب الأوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية » (وذكر ههنا بعض آيات القرآن في بعض الغزوات النبوية وقرن بها وصف الفتوحات الاسلامية بمبارات خطائية شعرية ولكنها حقيقية ، ثم قال)

« بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة

«هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكانهم أخذوا لانفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بمحصن يصونهم من كل طارقة وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما يحتاج إليه، لا يفترق النساء والاولاد عن الرجال والكهول إلا بجمل السلاح، ولا تاخذ النساء رهبة، ولا تعشى الاولاد مهابة

«هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الاكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم، فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيخوا بروق سيوفهم ولمعان أسننتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم»

وختم المقالة بما ظهر من بوادر الرجاء في عودة المسلمين إلى ما كانوا عليها عند ما كانت تلك العقائد الاسلامية سليمة من مخالطة البدع لها، وطروء الوهن والزوال عليها؛ واستدل على ذلك بازدياد أنصار جمعية العروة الوثقى يوماً بعد يوم (وقال بعد الدعاء لها) ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقين عموماً والمسلمين خصوصاً اهـ

مقالة الفضائل والزائل

وأثرهما في الافراد والأمة (*)

عنوان هذه المقالة آية (وذكروا أن الذكرى تنفع المؤمنين) والكلام فيها منتظم في سلك الدعاية بالحكمة ، لاسلاك القضايا العملية الفلسفية المحضة ، فهو بصور للقاريء تأثير الاخلاق في الافراد ويجعلها مع المشاعر مثالا لتأثيرها في الأمم ، وينتقل من الكلي الى الجزئي فيشرح ما كان من تأثير الفضائل الاسلامية في المسلمين ، وما نالوا بها من الملك والعظمة العملية والعملية ، وما آل اليه أمرهم بملء

(*) نشرت في العدد الثامن بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٣٠١

طراً على أخلاقهم ويصف الملاج له ، ومما ابتكره في تشبيه مكانة الفضائل من الأمة قوله بعد ذكر حياة الانسان الفردية والنوعية والقومية وتشبيه الفضائل في الأمة بقوى الحياة في الفرد المخصصة لكل حاسة وجارحة بوظيفة تؤذيها حياة البنية كلها قوله . « وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير ، فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر ، وانتظم بها سيره بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الاكوان وبقائها - كذلك شأن الفضائل في الاجتماع لانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي الى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي الى أن يأتي أمر الله » (ومما قاله في سوء تأثير الرذائل في إفساد الأمة بعد بيان سوء تأثيرها في إفساد الافراد قوله) :

« هذه الرذائل اذا فشت في أمة تقضت بناءها ، ونثرت أعضائها ، وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هدم الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها في الاعمال بالقسر ، فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الارصاف (أي الرذائل التي ذكرها ومنها الجبن والمهانة والفحش والبذاء الفاشية الآن) ولا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة

هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض أذلة للاجنبي عنهم ، يمهدون السبيل للغالبيين الى النكالية بهم ، ويمكنون محالب المعتالين من احشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً ، وكل جليل حقيراً » الخ وختم المقالة بالرجاء في هم العلماء الراسخين وغيرتهم أن يتداركوا ما عرض للمسلمين من الضعف في أخلاق دينهم واهمال فضائله ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلتهم ، ويوحد وجهتهم ... ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعد الحق — في قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

مقالة الوحدة الاسلامية *

عنوان هذه المقالة في العروة قوله تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا
 هتفتلوا وتذهب ربحكم) ويليهِ وصف لما بلغتهُ دولة الاسلام وفتوحه في نشأته
 الاولى وبيان حدودها في خريته الارض ، وما كان فيها من العمران والعلوم
 و"علماء ، وما كان لها من الجيوش والاساطيل ، ويليهِ وصف لحلم في هذا
 العصر على كثرة عددهم وبيان سبب هذا الهبوط والسقوط والوهن ووصف علاجه
 وقد نوهنا بها في أول هذا البحث عند الكلام على بيان المراد من الجامعة
 الاسلامية ونقلنا شاهداً منها
 ومما قاله في هذا

« نعم يوجد للتقصير في انماء العلوم وللضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف
 طلاب الملك فيهم ، لانا بيننا أن لاجنسية المسلمين إلا في دينهم ، فتمدد الملكة عليهم
 كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلطين في جنس واحد ، مع تباين الاغراض
 وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وأهوا
 العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه
 شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصناعات فضلاء عن
 التقصير في طلب مالم ينالوا منها ، والاعسار (١) دون الترقى في عواليها ونشأ من هذا
 ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام ووجب تنازع
 الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فاهوا بأنفسهم عن تعرض
 الاجانب بالعدوان عليهم

« هذا كان من أسراء المسلمين مع ما فيه من الضرر والفادح عندما كانوا منفردين

في ميادين الوغى لا يجاريهم فيها سواهم من الملل ، ولكن ضرب الفساد في نفوس
 أولئك الامراء بمرور الزمان ، ويمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فاقبلوا مع

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب

« ١٥ » الاعسار جمع عسر ككتيف وهي الامور المتبسة المشككة

الهلوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وفتنوا بلقاب الامارة وأسماء السلطنة، وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الاجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل «هذا الذي آباد مسلمي الاندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا اطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية، ودهورتها أمانيتهم الكاذبة في مهاوى الضعف والوهن، قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أو تلك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، هم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها، وأوقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الاعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيتها

«ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهاك على الخسائس، ما أشد ضررها، وما أسوأ أثرها، نبدوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الابعاد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم . ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السقاسف ؟ أفادتهم حمرة دأمة في الحياة، وشقاء أديا بعد المات، وسوء ذكر لآتمحوه الايام

«أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، تعارفت أرواحهم، واثلت آحادهم، ولكن وأسفا نخلهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير او ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي، هؤلاء هم الذين حووا أوجه المسلمين عما ولاهم الله، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب . « الخ

(٤٢م — تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

مقالة الوهرة والسيادة ، أو الوفاق والقلب

عنوان هذه المقالة حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »
 فكلم فيها عن الوحدة والسيادة والطريق الموصل اليهما ، وما يرجى من علماء
 المسلمين من السير بهم في هذا الطريق ، أثبت فيها أن هذين الامرين هما السببان
 لنشأة الدول ، وبقاء الامم ، وانها يحصلان باحدى ثلاث علل : الضرورة
 أو الدين أو التربية والتعليم ، وأثبت أنها ركنان من أركان السياسة والاجتماع
 للملة الاسلامية فرضها الدين ، وجعل العقاب على إهمال هذه الفريضة خزفي
 الدنيا وعذاب الآخرة . وأورد بعض النصوص على ذلك مع شرح كل ذلك
 بما لا يستغني مسلم عن تدبره

مقالة استماتة القامحين على الامم بأمرائها

وهي أخصر المقالات لما تقدم من بيان هذه الرزية في المقالات السابقة ،
 وينبغي لقاريء هذا الجزء اذا بلغ هذا الموضوع أن يرجع إلى الجزء الثاني فيقرأها
 فيه . وهي المقالة الحادية عشرة من مقالات العروة الوثقى (ص ٢٨٨ ج ٢ طبعة
 ثانية) وحسبنا ما لخصناه وما أشرنا إلى موضوعه من تلك المقالات ، وانني أنصح
 لشبان المسلمين أن يطالعوها كلها ، ويكرروا ذلك حتى يتمكن من قلوبهم كل
 ما فيها ، فزادوا إيماناً وحكمة ، وعلماً وبلاغة ، وعلوا في الهمة ، وغيره على الأمة ،
 واعتصاماً بحبل الملة .

ونيلهموا أن كل ربح يربحه الانسان في الدنيا فهو دون ربح نفسه ، وكل
 خسارة يرهقه فهو دون خسران نفسه ، وانه انما يربح نفسه بتزكيتها وجعلها أهلاً
 لجلال الاعمال ، التي تنال بها الامم معالي الآمال ، ويبلغ بها الافراد مقام السكالك



المسألة المصرية

بذت سياسة جريدة العروة الوثقى في المسألة المصرية على ثلاثة أمور (أحدها) ان الدولة صاحبة الحق الرسمي في مصر هي الدولة العثمانية صاحبة السيادة المعترف بها من جميع الدول على هذا القطر (ثانيها) ان هذه المسألة من الامور الدولية التي تهتم جميع دول أوربة لما لها من المصالح المالية فيها ولان مصر الطريق البحري الاعظم الاقرب بين الشرق والغرب (ثالثها) ان في الدول العظمى دوايتين تنتين ترجى مساعدتها لمصر وللدولة العثمانية على حمل الانكليز على الجلاء عن القطر المصري (أولاهما) فرنسة ذات المصالح المالية الكبرى فيه وذات النفوذ الادبي والسياسي الذي يعز عليها زواله (والثانية) الروسية التي تعد الدولة البريطانية أقوى خصم لها في سياستها الشرقية ومقاصدها البحرية ،

فكانت مقالات العروة الوثقى في الدفاع عن مصر والسعي لانقاذها من الاحتلال الانكليزي تنحصر في خمس وسائل (١) تهيج مصر والهند والرأي الاسلامي العام عليها - (٢) حث الدولة العثمانية على السعي لاجراجها من طريق السياسة والقوة معا - (٣) محاولة إقناع فرنسة بمساعدة مصر والدولة على ذلك حفظا لمصالحها الاقتصادية ونفوذها السياسي والادبي - (٤) إغراء روسية بلزحف على الهند والاعتماد في ذلك على نفوذ الدولة العثمانية الديني هنالك باستمالتها اليها ، وعلى مساعدة دولتي الافغان ويران على ذلك باتفاق يعقد بينها وبينها إذا أمكن وإلا انفردت بالعمل . وهنالك أمر آخر عظيم الشأن ، وهو (٥) تعظيم خطر ادعاء محمد احمد السوداني للهدوية ، وما يتوقع من تأثيره في العالم الاسلامي كله وكان الغرض الاول من هذه الوسائل كلها إقناع الدولة الانكليزية نفسها بالجلاء عن مصر وتسليم حكومتها الى « اولي العزم من المصريين » والاعتماد على صداقتهم في حفظ طريق الهند (قنال السويس) وقد جاء في بعض مقالات العروة وصف الانكليز بانهم على طمعهم الشديد وصلابتهم براعون طبيعة العمران وتطور

الزمان . وأما إيقاد نيران الثورة عليهم في مصر وبلاد العرب والهند فهو الذي يلجأ إليه اذا تعذر الغرض الاول

وانني أذكر هنا بعض الشواهد في المسائل الاربع على إدماج بعضها في بعض ثم أذكر لدعوى المهدوية شواهد أخرى عند الكلام على مسألة السودان التي هي فرع المسألة المصرية ، إذ كان للحكيمين سياسة خاصة كما كان للانكليز سياسة خاصة فيها ، وأبدأ القول في المسألة الاولى بتلخيص مقالة في وصف حال مصر نشرت في العدد الاول من العروة في (سياسة انكلترة في الشرق) لما فيها من بيان مكانة مصر وما يرجى لها من الاستقبال المجيد وسبب طمع الدولة الانكليزية فيها ،

الوسيلة الاولى اثاره العامل الاسلامي

﴿مقدمة في ملخص وصف حالة مصر وسبب طمع الانكليز فيها﴾

مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الاول من القرن الماضي (الهجري) تعد من نوع حكومة الاشراف وبحسبها المؤرخون في تلك الاوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ، ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها ، وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طرز قديم كان معروفا في أغلب أنحاء المسكونة.

ثم أعجب الدهر فيها بغيرائه بعد ما فوضت أمورها لمحمد علي باشا فلم يمض قليل من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية ، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، تقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء ، وعد هذا التقدم السريع من عجائب الامور

هل كان في حسابان أحد أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجل من بعض قرى الروملي لم يتربع في دروس العلم ولم يجبل في مصانع السياسة إلا أن طبيعته

القطرية كانت فائضة بحب الحضارة ، وبث العلوم ، وتأسيس قواعد العمران ، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل اليه ؟

بلى ، كان هذا في الغيب وابرزه القدر الالهي ، ونالت مصر في عهد ذلك الرجل العظيم ، وعهد خلفائه من بعده ، ما كانت تقف دونه أفكار الناظرين : طرقت أبواب السعادة من كل وجه ، فتقدمت فيها الزراعة تقدماً غربياً ، واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة ، وتقاربت أنحائها ، واتصلت أطرافها ، بما أنشئ فيها من سكك الحديد ، وخطوط التلغراف ، وتعارفت أهاليها ، وانتاف الجنوبي بالشالي ، والشرقي بالغربي ، وقوى فيهم معنى الاخوة الوطنية ، بعد أن كانوا لبعدا الشقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة ، وتواصلوا في المعاملات ، وتشاركوا في المنافع ، واعتدت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، وارتفعت بذلك أصواتهم ، بعد ماجات فيه أفكارهم .

تفجرت من أرض مصر ينابيع انيرة وعمت بقاعها ، وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الاقطار الشرقية ، بل وصل مد نيلها إلى اقاصي البلاد الغربية ، وتوارد اليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان ، وما خاب لها قاصد ، ولا اخفق فيها سعي ساع ، فأثرى في مغانيب الفقراء ، وعز بها الأذلاء ، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ، ومحط رحال الراجين من الشرقيين ، وكل وافد اليها يجد اهلاً خيراً من اهله ، وسكناً خيراً من سكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغربية ، حتى كان الداخل اليها يخيل له انه تحت برج بابل يوم تبلبلت اللسان

وساد بها الامن وعمت الراحة ، وضارعت في كل احوالها نوع ماعليه الممالك الاوربية العظيمة ، وكان التأمل في سيرها هذا يحكم حكامها بما لم يكن بعيداً من الواقع ، ان عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب او بعيد كرسي مدينة لاعظم الممالك الشرقية ، بل كان ذلك أمراً مقررّاً في أنفس جيرانها من سكان

البلدان المتاخمة لها^(١) وهو أمالم الفرد ، كلما ألم خطب أو عرض خطر، غير ان الايام كأنها حسدتها على مامنحتها، فعثر العاقل ، وفرط انالك ، واغتر المعجب ، وتهور الغبي ، وخر الافين ، فتقرب البعيد ، وبعد القريب ، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا في حواشي طوامير الاوهام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها ، وانتقضت منها اصول على وجه غير مألوف ، ففتحت للدسائس ابواب ، وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات ، وفترق اتصال ، وتقطعت أوصال ، فضعت السلطة الوازعة ، ونبتت الطاعة ، والتهدت نيران الفن

قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت في إعادة شأنها الاول إلى رأي قوم وعزم ثابت ، ووازع قوي تدين لسطوته النفوس . وان من ذوي الحقوق فيها من يجمع هذه الاوصاف وله من القلوب المكنانة العليا ، وكان يسهل عليه القيام بما يمهده اليه ، لكن بحكم طمع واخطأ ظن ، فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة

أشفقت دولة الانكليز على طريق الهند كما يقال اوظنت ان آن التقدم بعض خطوات قد آن ، فرأت ان اءدة الامن وثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتفريم وما شاكل ذلك ما لا حاجة لبيانه ، وعم بعض انواع الهون ، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد الا مسه ضرمة ، ما خلا أشخاصا قلانل ، وهذه المرهبات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لاشرافه على الخطر من وجه آخر ، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد .

الديست المالية هي مرمى أنظار دول اوربا وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من

(١) يعني البلاد العربية ولم يصرح بذلك لانه يسوء الدولة العثمانية ، ومن الثابت انه لولا الاحتلال الانكليزي لانتهد النهضة المصرية بتأسيس دولة عربية قديمة كبيرة تعيد الحضارة العربية سيرتها الاولى وما عرض لها من العناد باسراف اسماعيل وافن توفيق كان من المرجو تلافيه

الحقوق الاوربية؟ اليوم رزنت بالنقص في الايراد، وحملة من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات، ورميت بنفقات جيش الحول وحرب السودان ومصاريف اخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلفت الموازين وبطل قانون الجبايات، وأي مصيبة على المالية أعظم من نوازها الحاضرة؟

عقد العزم على إلغاء الجيش الوطني وهو قوة البلاد وبه فخارها، وكأنه لم يوجد وسيلة لتنظيم عسكر مصري، وقصر الجهد عن مجارة محمد علي باشا، و ابراهيم باشا، اللذين دوخا كثيراً من الاقطار بوجود مصرية (وبعد أن أطل في وصف حالة الحكومة وموظفيها ومالياتها والاهالي وقمرهم

ومخاوفهم وارهاقهم بالضرائب وطرق تحصيلها بالقوة قال)

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية، والاخذ بالنسبه وإن ضعفت، واتباع بواطل التهم وإن بعدت، او استحات، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه، وبلغ منها مبالغه، فلا ترى ماراً بطريق الا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعاق باثوابه شرطي يقوده إلى السجن، او يقتضي منه فداء، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة، وفي كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لبابه غشية، أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا؟

هذا ماتنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصري. هذا بعض ما يضيق به الصدر، وتنقبض له الانفس، مما رزثوا به بعد ماتكفل أجاؤهم الاولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضوية السابقة، هذه طلائع الاصلاح المبشر به من زمان بعيد على السنة رسله، أصبح الاهالي حيارى في أمورهم، تأنهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يجمل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الاوربية تسميه ضيقا وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون اليه ويودون لو رجعوا اليه، ويحسبونونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التي هم فيها. الخ الخ

الشاهد الاول

في تحريض المصريين على الانكليز

(بعد اثبات ما يريدون من الاستيلاء على مصر)

ذهب الاستاذ محرر العروة الوثقى الى لندرة وتقي فيها كثيراً من رجال السياسة الرسميين كالوزراء وغير الرسميين كمحرري الصحف بمساعدة صديق مصر وصديقهم (مستر بلنت) وقد نشرت الجرائد الاوربية من انكليزية وغيرها بعض مادار بينه وبين أولئك السياسيين من المناظرات ونشر في العدد الرابع عشر من العروة مقالة في ذلك ذكر فيها مادار بينه وبين وزير الحربية البريطانية وما في ذلك من العبرة ولكن بلسان السيد مدير العروة وهذا نصها

هؤلاء رجال الانكليز وهذه أفكارهم

تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة مامسنا من ضعف في المزاج مع مصادقة رداءة الهواء في البلاد الفرنسية في هذه الايام والحمد لله على زوال المانع. إلا أننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذي قننا به في المدافعة عن حقوق المسلمين فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ورجو من ديوان السموات والارض أن نموت في هذه السبيل وأن نبعث في زمرة السالكين فيها رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الاول لهذه الجريدة) إلى لندرة اجابة لدعوة من يرجى منهم الخير المتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الانكليزية — وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي مامرت عليها قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه — وليسبر أغوار المطامع الانكليزية التي لا يدرك منتهاها — تلك المطامع التي بعد ما التهمت ثلث المسكونة ، وطوقت كرة الارض بالفتح والاستيلاء

لم تنزل في مد لا جزر معه ، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في فرم شديد لا ابتلاع ممالك العالم ، وكلما أساغوا قطراً طلبوا اليه آخر - ويستطلع خفايا المقاصد من أثناء الافكار وغضون الاقوال - وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلوين ويتبين كيف يتمكنون من ابراز محاسن الاعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر اليها واطهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين ، حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص ، كي لا يقتر الجاهل ولا ينزل العالم .

لاقى (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الانكليزية وأنفذ الناس رأيا فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الاحوال المصرية ، ومن محادثاته الابتدائية ما نشر في بعض الجرائد الانكليزية كجريدة «البال مال غازيت» وجريدة «التروث» التي يحررها النائب الشهير (مستر لا بوشير) وجريدة «التمس» وسيدكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الاكابر من رجال الحكومة الانكليزية مما يستفيد منه الشرقيون عموماً والمصريون خصوصاً . وستأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرامي أفكارهم .

أما الآن فنأتي على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنتون) وزير الحرية الانكليزية ليأخذ كل مصري منها حظه ، ويصيب كل شرقي سهمه ، ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار رجال الحكومة الانكليزية . سأل اللورد هرتنتون وزير الحرية الانكليزية : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية ؟ أو لا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الاتراك وفلان باشا وفلان باشا^(١) ؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) : كلا ان المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا ، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الانكليزي ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطباع الأمم أن يتصور هذا الميل في المصريين .

فقال الوزير: هل تذكر ان الجهالة عامة في اقطار مصر وان الكفاية لاتفرق بين الحاكم الاجنبي والحاكم الوطني ، وان ما ذكرته من النفرة من سلطة الاجانب انما يكون في الأمم المهذبة؟

فأخذت الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في أداء ما فرض الدين وأوجبه حقوق الملة وقال (أولاً) ان النفرة من ولاية الاجنبي ونبد الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر ، وليس بمحتاج لى الدرس والمطالعة ، وهو شعور انساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشا (كلزولوس) الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم في الدفاع عن أوطانهم .

(وثانياً) ان المسلمين مهما كانوا وعلى أي درجة وجدوا لا يصلون من الجهل الى الدرجة التي يتصورها الوزير ، فان الأُميين منهم ومن لا يقراءون ولا يكتبون لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها وأظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفتهم فيه ، وان لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ في مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وان جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ، ويحدث فيهم من الاحساسات الشريفة الانسانية مالا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ما أودع في ذلك اللسان وهو لسان دينهم

(وثالثاً) ان أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد أوروبا ، وأخذ كل مصري نصيباً منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون . والاختبار العمومية توصلها اليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبيء الاخبار من القارئين ، فهذا أضافوا الى الشعور الطبيعي والتقليد الديني ، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي ، قوي بها الميلان الاولان ولا أظنهم يخالفون في ذلك سائر الامم

أين العلماء الاذكياء ، أين الجهلة الاغبياء ، أين الأتباع الاعلياء ، أين السفلة الالادنياء ، يرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانجليزية؟

كل ذي شكل انساني وصورة بشرية يدرك ما وراء هذه الاسئلة وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة .

هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية يظن ان الجهل يبلغ من المسلمين عموماً والمصريين خصوصاً الى حد سلب عنهم كل احساس انساني، وانهم في حضيض من الجهل لا يميزون فيه بين الغريب والقريب، ولا بين العدو والحبيب هذا دليل على ان الانكليز (إلا من أنار الله بصيرته ووقفه لفهم الصواب) يعتقدون ان الأمم الشرقية والأمة المصرية في درجة الحيوانات السائمة، والدواب الراحية، لا تتألم إلا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية، وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية، ولا تعرف من شؤونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية، فتألف رآكبها والعامل عليها ومستخدمها في اي عمل من الاعمال الشاقة مادام يقدم لها طعاماً وشراباً، وانها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غداءها وعشاءها، وإن كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الاعمال، فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها :

* ألا فاعجبوا *

ان كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية في الامم التي يتسلطون عليها فأني معاملة تكون لهم ؟ ألا يعاملونهم معاملة المعجاوات والحيوانات الراحية؟ بلى، وهكذا يعاملون وهكذا تصرفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على ما يعاملون، فالصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرها: إما ان يتكاتفوا ويتضافروا وينذلوا أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الانساني ومكاثرتهم العربية، واداء حق عقيدتهم الدينية، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون اليهم إلا كما ينظرون الى البغال والحمير، وإن هموا بذلك وجدوا لهم من اخواتهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الامرين، وإما ان ينسلخوا عن جميع الخصائص الانسانية، ويخلموا حلية الايمان،

ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليجعلوا ناف العبودية على أعناقهم ، وإيقاسموا
الحيوانات في حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر
الامرين وأدناهما ، وما أظن مصريا يختاره لنفسه ، واثن اختاره (معاذ الله)
فسيذهب الله بهم ويورث الارض قوما آخرين ، فان الله غيور على دينه ، غيور
على العدل ، منتقم من الضالين ، وانا لله وانا اليه راجعون اه

الشاهد الثاني

(في تحريض العثمانيين والمصريين والهنود)

*

الوهم

﴿ اللهم اكشف عن بصائرنا سار الاوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا
نضل ونشقى ﴾

ألا قاتل اللهم الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ،
وطوراً يكون ممثلاً للسرات ، حاكياً للمنمشات ، وهو في جميع أطواره حجاب
الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الارادة ، وحكم على
العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنقاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمّن مخافة ، والموئل مهاككاً
الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الوجود معدوماً
والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه
خبط المصروع ، لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلبس
النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهام ،
وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهين إلى بقاء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل ،
لا يهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق

(* مقالة نشرت في العدد ١٧ المؤرخ في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر

سنة ١٨٨٤)

كان الانكليز امة مجتمعة القوى ، مستكلمة العدد ، مستعدة للفتوحات ، وذلك في زمان بليت فيه الامم الشرقية بتفرق الكلمة ، واختلاف الاهواء ، وحببت بالجهل عن معرفة احوال الغربيين وصنائهم وعواندهم ، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحراً أو كرامة ، فانتهاز الانكليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه ، ومادهموا سكانه إلا يبعث غرائب الصنعة الاوربية التي أثارت فيهم خواطر الاوهام ، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الانكليز من حبايل الحيلة والمكر ، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم ؟ فسلبوا أموالهم ، وانتزعوا منهم اراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم ، فاستغنت الامة الانكليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفت بما ملكت ، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسمة على تلك الاقطار متوزعة فيها ، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزرًا من العدد والعدد ، وهي في جميعها ضعيفة واهنة ، لاستطيع ذوداً ولا دفاعاً ، وان أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أوهدمها بالمرة ، وقد ظهر هذا الامر على أنف الامة الانكليزية ، فهي دائماً في رجفة على أملاكها ، في خيفة من تمزقها وضياعها ، تتوجس من كل حادثة في العالم ، وتقلق لاية حركة تحدث في الوجود ، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدونها زلزلة في قوى الانكليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الارحاء . ومع هذا كله ترى الامر لم يزل خفياً على الشرقيين ، محجوباً عنهم بمحجاب الوهم ، يمثل الوهم لكل شرقي أن الانكليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم مثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سباعاً ضارياً ومفترساً قوياً فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً ، أو يضل بعد ذلك عن العجادة وتشبه عليه مسالك الوصول إلى غايته ، ربما صادف مهلكة في ضلاله ومتلفة في غيه ،

بل لانخطيء ان قلنا ان هذا الوهم كان متسائلا على الغربيين كما هو متسائلا على الشرقيين ، فالاوربيون كانوا ينظرون إلى انكلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة انكلترا متحصنة متمتعة في هذه القبة الوهمية ، مرتبة على عرش هذه العظمة الخيالية

يحس الانكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما في ستره ولاستارها ككشف من الوهم ، ولهذا تراهم في كل حادثة يجلبون ويصحبون ويزارون ليثيرو بالضوضاء هواجس الاوهام ، فتحول أنظار الناظرين ، وتعمش بصائر المستبصرين فتحول دون استطلاع الحقيقة ، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانكليز

ذهب الانكليز إلى الهند في قوى مجتمعة وتسايقوا مع الفرنسيين وهولاندة والبرتغال في ميدان الاراضي الهندية الواسعة ، فجازوا في هذه المباراة قصب السبق ، بما امتازوا به من الدهاء والمكر ، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد او طيب قلوبهم ، فالت النفوس إلى الانكليز اغتراراً ، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئا فشيئا ، وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضايق من الارض لاتذكر ، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة ، قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندة وبرتغال) فانها تريد التسلط على ممالككم ، أما نحن (الانكليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم . ثم انا ترى للانكليز الآن في الهند الاصلية والهند الصينية والبرمان سلطة على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطنة الانكليزية ، طالب للتخلص منها ، يفضل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الامم انه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلها مبلغ الانكليز ، ولا تصل إلى ما وصل اليه الانكليز في الكبرياء والجبروت ، ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها ، وشدة ميالهم للتملص من تلك السلطنة الظالمة ، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة المفاوضة إلا خمسون ألف جندي انكليزي ، مع انه

يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال ونحشى زوال ما بقي لها ما لو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندي ، وهذا فضلا عما يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الانكليزية وزال استقلالها بالمرّة ، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها بل عما هو موجود فيها ، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفاتكة القوة في قبضة قوم ضعاف ، يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمح اعتبار ، وأدركوا ما أتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا إلى ضعف الانكليز في الحالة الحاضرة ، لرأوا موئلا الخلاص بين أيديهم ، وملجأ النجاة تحت أرجلهم ، وعلموا أن استنقاذهم لأنفسهم وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة .

يوجد في الدول الاوربية من يهاب دولة الانكليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والامم العظيمة مما لم يبلغ عدده رعية دولة من الدول ويتيسر شأنها وقوتها في تلك الاطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها ولم يلتفت إلى ان جسم الانكليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم في بساط الارض حتى لم يبق لهم في موضع قوة ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه ، يتربصون في كل آن زحفا من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين .

لو التفتت تلك لدولة التي تهاب انكلترا إلى حقيقة الامر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الامر من الظهور إلى حد لا يحتاج إلى دقة الفكر ، لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم .

ان العثمانيين ينظرون الى دولة الانكليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع ملاحظة ان دولة انكلترا تحكم على مائتين وخمسين مليوناً من النفوس فيظنون لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدبراً أنظارهم إلى ما وراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى

ميادين القتال ، ويتضح لهم ان هذه الملايين الكثيرة لا اعتداء بها في قوة دولة انكلترا ، فانما هي في الحقيقة قوة لا أعدائها عليها ، وهي في ارتكاب الفرص تلجع طاعتها ، فتمت ارتبكت دولة انكلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقابل عساكر الانكليز ، خصوصاً خمسين مليوناً من المسلمين في حكومة انكلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وماذا يلجئون اليه ، وهم أول قوم حربيين في البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون أن دولة انكلترا انما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها . أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الانكليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء لما محرعوا مرارة الصبر على تحركات الانكليز وحيفهم في أعمالهم ، وتعديهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية ، التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو اسلامية .

ان سكنة مصر كانوا أيام عرابي على قسمين : قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل باحد جانبيه إلى عرابي ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ولا عزيمة مع الريب . والقسم الاول مخلص إلى الفشل ، فدخل الانكليز بلا حرب حقيقية ، نوع من الترهيب ، وقليل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس صادف قلوباً مستعدة فأخذ منها مقاما فأنحلت الرابطة وتفرق الناس عن عرابي بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانكليز يبتغون من البلاد شيئاً سوى أنهم يؤيدون توفيق باشا وينقذونه من التأثيرين عليه ، ففساهل المصريون في الامر بحسن ظنهم في حكومة الانكليز مع ما جاءتهم به من الحججة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية في أرضهم عن تصرفها ، بهذا فاز الانكليز واستقرت أقدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكلي لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم ، فلا يوجد من الاهالي المصريين من يميل إليهم بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عمالاً لهم يولكون الوهم بحسب المخافة ويكبح العزيمة

انت أهالي مصر ذهلوا عن الاسباب التي مكنت الانكليز من بلادهم كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كفة واحدة في مدافعة الانكليز ثم تغلبت عليهم القوة الانكليزية وقهرتهم جميعاً . كأن المصريين نسوا ما كان بينهم، وان الانكليز ما دخلوا بلادهم إلا بمعونتهم . هذا هو الوهم العجيب ان الذين كانوا من مدة سنتين سببا في تغلب العساكر الانكليزية وحلولها في وادي النيل ولولاهم ما استقر لها قدم فيه - يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الاهالي عموما وإخضاعهم لحكومة بريطانيا، وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرها، وبجوارونهم في أهوائهم نفاقا، هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانكليزية ليعلموا أن ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهودها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين الف جندي ، ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الانكليزي بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانكليز وخارت عزائمهم والتجؤا الى ترك البلاد لاهلها ، ألا قاتل الله الوهم

ان للانكليز قوة بحرية لا تذكر ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن ، لا يمكن أن تعمل عملا فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين ، فلو فرضنا أن الانكليز أطلقوا قنابيرهم على السواحل فهل في استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابر إلى ابد الأبدين إذا كان الاهالي في داخل البلاد يناوؤونهم، وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة ؟ ليس في الامر شيء سوى الوهم ، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا ماهو الانكليز ؟ ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء ، صوت عال ، وشبح بال ، قامت الدول على معارضتهم لعامها ان الانكليز صاروا للام كالودودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية . لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بامورهم، ولا ينتقلوا من عبودية الى أخرى ، ولا يستبدلوا سيداً أجنبيا بسيد آخر ، اللهم ارفع عنا حجب الاوهام ، وهيء لنا الرشدي أمورنا ، واحفظنا من الغواية ، واهدنا إلى خير نهاية اه

الشاهد الثالث

(في تحمريض مشترك بين الروس والعمانيين)

المسألة المصرية الدولية*)

انا أنذرنا الانكليز خطراً قريباً على الهند ، ونبينا في أول عدد صدر من جريدتنا على أن تفيؤ التركان في مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم وبما يحمل تركان سرخس على الاقتداء بهم ، وأشرنا الى مايتبع ذلك مما عاقبته نكال على الانكليز ، واليوم وقع ماتوقعناه فاستولت الروسية على سرخس وتاخمت بمجودها حكومة الافغان ، وارتعدت فرائض الانكليز وغشيمهم الفزع والقلق ، واعولت جرائدهم نحيباً ، ورددت نشيجاً ، وأحست بقرب الاجل ، ولم يسكن روعهم ما ذكرته جريدة بطرسبرج الشبيهة بالرسمية من أن سرخس اسم مشترك بين مدينتين قديمة وحديثة وانما دخل في حوزة الروس اولاهما ، فان الانكليز يعلمون أن المدينتين متصلتان لايفصلهما إلا ترعة صغيرة « نهر تجند » عرضها عشرة أذرع بالتقريب ، على أن سرخس - التي حكم مهندسو حرب الانكليز انها باب الهند من طرف الشمال ، وانها مرفأ نحيب - من زمان قديم ، ومن طريقها طرق الهند اسكندر الاكبر ونادر شاه الايراني ، وان وصول الروسية اليها مما يخرق سياج الهند - انما هي سرخس القديمة . ومما زاد الانكليز فزعاً واضطراباً أن التركان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعاً واختياراً ، وبعثوا وفداً منهم لينوب عنهم في عرض خضوعهم على البرنس دوندوكوف حاكم ماوراء بحر الخزر من الولايات الروسية ، ووصل الوفد الى عشق آباد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس اليها

وقع الانكليز الآن بين شرين عظيمين ، خطر عاجل ، وحتم آجل ، أما الثاني فهو أن الروسية اما أن تتحد مع الافغانين وتحالفهم على مطاردة الانكليز وهو

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤)

الأقرب المتوقع فتصير معهم يداً واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الانكليزية، وليس بخاف ما يضره كل أفغاني لكل انكليزي من الحق والضعف، والافغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيهم، فكيف ان وجدوا مساعداً قويا . وإما أن تميل حكومة الافغان إلى الانكليز - وهو من فرض الحال - فمأسرع أن تنشب مقاتلات بين القبائل المختلفة من تحت حكومة الافغان مثل جمشيدي وفيروزكوهي وبين قبائل الأركان المتآخمين لهم ويعقبها حرب بين الروسية والانكليز، لان كلا من الدولتين مضطر المدافعة عن حليفه، بل للروسية حق المناضلة عن رعاياها الأركان، فاذا زحف الروس إلى الأراضي الافغانية تقطعت حبال حيل الانكليز، وامتنعت عليهم وسائل الدفاع، وهذا آخر حياتهم في الهند

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروسية على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة ياتمسون في أضواءها طريقاً للخلاص من الضيق والضعف الذي شابههم، وسبيلاً للنجاة من الويل الذي جابته عليهم مظالم الانكليز . هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عند ما وصل الهنديين خبر استيلاء ناصر الدين شاه الابراي على هرات، بل انتفاض الهند على الانكليز في هذه الايام اقرب، فان خواطر المسلمين من سكانه في هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد احمد السوداني، بل بما مكن في احوالهم من الميل إلى تصديقه، وان لهذه الدعوة حملة على الهند لا يقاومها تدبير دولة بريطانيا

تريد دولة انكلترا ان تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام في هذا العام وربما فيما بعده حتى لاتصل أخبار محمد احمد وتورط الانكليز في مقاومته إلى مسامع الهنديين، ولكن سيحمل هذه الاخبار إلى تلك الاقطار حجاج الافغانيين والبلوجيين الذين يسلكون إلى الحج طريق البصرة والسكوت بل يبلغونها إلى اخوانهم، على وجه أبلغ مما لو سمعوها بأذانهم .

هذا تأييد إلهي للدولة العثمانية فعليها ان تنهض بعزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها في القلوب، وعلى السلطان العثماني ان يتذكر انه خالف لاولئك الاسلاف العظام الذين ما أضعوا حقاً ولا أهملوا فرضاً، ويقتضي من الانكليز

حقه ويسترد مصر من ايديهم ويطهرها من جرائم الفساد، ولا يقنع بما دون الحق، ولا يدع لهم فيها شأنا إلا بما يساؤون فيه غيرهم من الدول، ولا تفوتن العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذي سقط فيه الانكليز ككافات الايرانيين الانتفاع بشورة الهند في الايام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم، والالسا كانوا أوقعوا بالانكليز ونالوا الغاية من ضرهم. على العثمانيين ان يتلافوا الامر قبل ان يشب الانكليز حربا صليبية بين الحبش والمسلمين على نفقة الحكومة المصرية. ليس للدولة العثمانية ان تتهاون في مطالبها او تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة، ولا ان تخشى في ذلك تهويل الانكليز وجلبتهم، فان كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالف الانكليز كما دلت عليه منشورات الجرائد ورواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة. بل الذي يفهم من جملة مقالاتهم انه لا توجد دولة من الدول ترضى بان يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الانكليز على مصر او وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس الخ

الشاهد الرابع

في دولية المسألة المصرية

وعقد المؤتمر الاوربي للبحث فيها

(أرادت انكثرة إلهاء أوربية عن مسألة احتلالها لمصر من الوجهتين السياسية والعسكرية فرغبت الى الدول الكبرى أن تمتد المؤتمر للنظر في المسألة المصرية وأمرت رجاءها المالي الكبير (المر بارنج) الذي صار لقبه بعد ذلك (لورد كرومر) أن يعد لها تقريراً عن مالية مصر يجعله شغل المؤتمر الشاغل عن غيره لما للدول من الهم الاكبر في مصالحهم المالية بمصر، ففعل - ولكن المؤتمر لم يشغله ذلك بل أراد طرق المسألة من سائر أبوابها ففشل

(وقد خاضت البروة الوثيق عباب هذه المسألة وكأخت جميع أمواجه، وسبحت في مختلف خابجائه، وأنشأت فيه عدت مقالات رئيسية تأتي على نبذ من بعضها، لئنبيل من كان من سياستها، وتصوير بلاغة محررها فيها

(جاء في فاتحة المقالة الرئيسية للعدد العاشر نمذة في تهويل امر المؤتمر وسياسة الانكليز و بسمارك ومطامح الدول الكبرى ومكايدهر جالها فيه هذا نصها :
هذا ما ساقنا اليه الحوادث المعصرية وهي مفتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلاقها . العظام من الدول في يقظة لاسنة معها ، وحركة لاقتور فيها ، مفاوضات متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر ، ومجادلات متلاحقة ، يدأب فيها السياسيون من كل أمة ، بعضها بالمراسلة و شيء منها بالمشافهة ، كثرت خلوات السفراء من كل دولة مع نظار الخارجية من سواها ، يتهامون ويتعاهزون ، ويسرون خلاف ما يملنون ، ويذهبون إلى مالا يقصدون ، وقد حملق كل بصره للآخر لعله يلح من غضون وجهه ما ينبيء عن مضمرات سره ، ويصوب كل فكره إلى ما يريد الآخر من قوله ، عسى أن لا يفوته شيء مما ربما يعتل به ، وجل ما انصرفت اليه قواهم تمثيل الرغائب ، وتخيل المطامع ، في صور أبعدها عن الحقيقة أقربها إلى الخيال . يعظمون الحقير ، ويمحقرون العظيم ، ويمجدون الوهوم ، ويضلون عن المعلوم ، ويقرّبون البعيد ، ويمعدون اقريب ، يذهب كل بصاحبه إلى رياض من الاماني باهرة الانوار بزهور الآمال ، وما نبت بهارها إلا على حبال من المكر ، وفخاخ من الخديعة ، حتى إذا راقه المنظر وخطا خطوة سقط من حيث لا يشمر .
هذا سهل صعباً ، والآخر يوعر سهلاً ، وكل يتبع لحاظ رصيفه ، إذا أحس منه لحا لمقصده أبرز له الوائاً من الفوائد الموهومة ليستلفته عن مرامه ، وإذا شعر منه بفكر يوصله الى ما يمسه ، فتح عليه أبواباً من الفزع ليزعجه عما يطلبه ، ويشوش عليه سيره ، ويقطع سبيل فكره ، منهم من يكسب الاصدقاء بمال غيره ، ومنهم من يستفيد الرقاء بكف شره

ومن الناس أقوام آخرون ، على غوارب أمواج الحوادث نائمون ، تقذفهم كريمة وتلتفهم أخرى وهم عنها غافلون ، زلزلت بهم الارض زلزالها ، ودهمتهم الخطوب بارزائها ، وتوالت عليهم المزعجات ، وتناولتهم عواصف المفزعات ، وهم في سكرة تخيل لتاظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون ، والمقبل على الفوز من هؤلاء ، وأوائك انما هو أحزمهم رأياً وأثبتهم عزيمته ، وأشدم بشؤونه بصيرة .

يقول الانكليز انا عدونا على الهند من زمان طويل فاغتصبناه وحققت لنا الملكية عليه بما هو مقرر في شرائع القوة وقوانين التغلب . وأن ديارنا في بريطانيا من هذا الملك العظيم في شرقي آسيا ؟ المسافات طويلة، والشقة بعيدة، فلا بد أن يكون لنا في كل مكان موطن لاقدامنا، لنحتفظ باملا كنا، فلنا حق في اغتصاب جل العالم لاجل الهند، خصوصاً القطر المصري، فان به السبيل التي لا يماثلها سبيل ، وليس لنا عنها غنى، وكنا في مطلع اليها من زمن قديم، وكثيراً ماتمسكنا بجبال من الوسائل اليها فرثت في ايدينا بقوة حكام تلك البلاد، حتى هيات لنا حوادث السنين الاخيرة ما أحلنا دارهم، وأقرنا في قرارهم

انا ذهبنا لتقرير توفيق باشا وتثبيتته على كرسي الخديوية المصرية إلا أنه بقتال ونزال فلا تخلف صورته عن صورة الفتح فلنا حق التملك في تلك الاقطار وقد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية اقرار الراحة وازالة الاختلال، وكناصر حنا بذلك عند عز منا عليه، لكن الغرض الحقيقي انما هو تأمين طريق الهند، فتسنى لنا ما قصدنا بحلول عساكرنا في وادي النيل فثبتنا فيما أصبنا وليس لنا ان نتركه بعد الوصول . وحيث إننا عقدنا العزم على البقاء في مصر وأضربنا عن اخلائها زمناضمان الدينون المصرية وحملها ثقيل على كواهلنا، فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة، وتكون لنا عوناً على تنقيص الفوائد، ولا نحب ان تكون مذكراتها معنا إلا في المالية خاصة فانه لا نرجو من مفاوضاتها فائدة الا فيها، وأما سائر الشؤون فعليها تدبيرها، والينا مصيرها . - هذه أقوال تصدر عن آمال يمدون أسبابها إلى برلين ويرجون أن تكون مواصلها وواقدها في تلك المدينة عاصمة الالمان .

وأما البرنس بسمارك وهو مدير السياسة في أوروبا وبيده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقاً وينبكي عدواً، وليست له علائق سياسية تحمله على المدافعة عن مصر، ولا منافسة له مع الانكليز تبعته على ما كاستهم، بل له اليهم حاجة في ضمهم اليه وابعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لالحليف لها، وقد تكون له من صلة الانكليز ما أرب أخرى سوى قطع فرنسا عن الحلفاء ينالها يوم الحاجة اليها وما هو عنه ببعيد، فماذا يضره إذا ادخر عونا وأساء عدواً، والنقطة على

تخزينه غيره؟ نعم ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا وإيطاليا لما لهم من المصالح في البحر الأبيض، ويصعب عليه أن يصيب بسياسته الجمع بين مراعاة انكاثرا لنيل مصافحتها وبين التمسك بعهوده مع ذوى حلفه، إلا أنه قد يسهل عليه التخلص من هذا المضييق بالإشارة إلى طرابلس الغرب وبلاد الأرنؤوط (١) والإيماء إلى الأراضى البلقانية وسلافيك (٢) ويجلوها لانظار معاهديه، فيسكن جأشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاته الدولتين، ويقلم أظفار الروسية من أوربا الشرقية، ويضع مصالح فرنسا في بلاد المشرق عموما ومصر خصوصا، وفي كل ذلك الربح له والخسارة على غيره، وليست هذه أول فملة فعلها بسمارك أو يفعلها، فهي شرعته التي يرد إليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت .

وفرنسا واقعة بين مراوغات الإنكليز ومكاييد بسمارك . لها حقوق سابقة في البلاد المصرية كاد يمحى أثرها بمدخلة الإنكليز، وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشأتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومداغسكركر . لهذا تبذل الجهد لاجلاء العساكر الإنكليزية عن مصر وتخفيض سيطرة الإنكليز فيها، ويوجد لها عون من دولة الروسية، ولها من المنعة ما لو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوى العزيمة من رجالهم وميل افئدتهم لمسكنها من تخليص مصر وانزاعها من ايدي الإنكليز سعياً في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها

وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الإنكليز ومطاردتهم من بلادها، فللدولة العثمانية أن تظهر عزمها في هذه الاوقات لتستتد ممالكها من طمع الطامعين، وتعبد ولايتها على الاقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين، وان جميع المسلمين ينتظرون منها الحدق في هذه المسئلة ولهم فيها الامل القوي والثقة الكاملة، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون ان ينالوا بها حظهم من الغنيمة، وليس على الدولة من بأس اذا طالبت الإنكليز ببرد حقوقها كافة، فانهم بالنسبة اليها اضعف من ان يجاهروها بالمدوان

(١) كان هذان القطران مطمح إيطاليا (٢) كانت هذه امنية التمسة

وانا نكرر ما قلناه سابقا من ان الانكليز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانية حربا خصوصا في هذه الاوقات التي أصبحت فيها دولة الروسية متاخمة لمملكة الافغان، فان أول إشاعة لهذه الحرب توعد لهيب الثورة في عموم الممالك الهندية، وهذا جلي عند كل انكليزي

ان التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسئلة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب وايس للمصريين في طورهم هذا ان يركنوا إلى من ليس من ابناء جلدتهم، فان النعرة التي تحمل على الحمية تكاد ان تكون منحصرة بحكم الطبيعة في أبناء الوطن فلا ترحى من غيرهم، فعلى العقلاء من أهالي مصر أن يسارعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخليص بلادهم مستعينين بأفكار الدول التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في انقاذها واعادة شأنها الاول وتحقيق ما يقال من أن (مصر للمصريين)

وبالجملة فالاطماع ففرت أفواهاها، والافكار في اضطراب شديد، وظنون الناس شتى، فن قائل ان المؤتمر لا ينعقد لتعسر الاتفاق بين فرنسا وانكلترا على القواعد الاساسية للمداولة فيه، ومن قائل انه ينعقد على ان يضع مصر تحت حاية عموم الدول، ويقرر انشاء مراقبة عمومية مع بقاء المساكر الانكليزية لمدة سنتين، وعلى اي حال فلرزية انما تصيب الغافل، والسوء انما يحيق بالمتساهل، والجبان محروم من حقوقه، والعامل بيد غيره خاسر، فعلى المصريين والدولة العثمانية أن يظهروا الشهامة والاقدام، ويرفعوا علم الهمة ابقاء لحياهم، وصونا لشرفهم، والامر لله يفعل ما يشاء اه

الحقيقة الناصحة في حلك الخيال الرائجة

(نبذة أخرى في تممية أمر المؤتمر وحل مباحة بخدمة انكثرة لفرنسة)

جاء في المقالة الرئيسية للعدد الثاني عشر ما نصه :

أصفت آذان الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية، لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الأوروبية، من يوم دعت انكثرا جميع الدول العظام للاجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية، إلا أنها منعت دون حجاب الكتمان، وإنما كانت تصل إليها دندنة أو جلبة، أو غمغمة أو جمجمة، وكل حس يصلها يثير روا كدالواهام، فتهيج فيها غرائب الصور والاشكال، والمذاعون (١) من أرباب الجرائد في أوروبا وهم أشبه الداعين إلى الالاعب والكوديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة، ويتنافسون في التمثيل والتصوير، للتغريب والتحويل، حتى أبرزوا الارض في صورة السماء والسماء في صورة الارض، خصوصاً فيما يتعلق بالمفاوضات التي كانت جارية بين وزارتي فرنسا وانكثرا، فكان يخيل لمن تصفح جرائدهم أن البحار غاصة بالمرالكب والدرعات يصادم بعضها بعضاً، وان فضاء البر أعرض بالجيش التلاحمة لا يجد السالك من بينها سبيلاً، وتجسم الخيال لارباب الازهان الحادة فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع المسالك وطرق المصاولة، وجموع التلاحمين تجول في أذهانهم يميناً وشمالاً، ويموج بعضها في بعض، وكأتما كانت مخيلاتهم معرضاً لجيوش العالمين، وكأن في كل فوج داعياً، وفي كل قبيل منادياً، يقول حتى هذا حتى، فهيمات تتعالى، وزفرات تتصاعد، وإرغاء وإزباد، وتقطب في الوجوه وشزر في المناظر، وفي كل ذلك هول يأخذ بالالباب. والعارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حتى قدرها كانوا يعتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منسكس الرأس منحني الظهر،

(١) جمع مذاع بالشديد وهو صيغة مبالغة من مزع (من باب نفع) اذا خبر ببعض الامر ثم كتبه وقيل قطعه. ورجل مذاع متماق كذاب لا وفاء له والذي لا يكتم سرا

قد هوى بهامته إلى ركبته، يتوارى من الناس خجلاً بما ظهر من ضعفه وعجزه، وإن حكومة انكلترا استعود بالحيلة (وإن أعدت فيالتق من التهديد وجحافل من الارعاد) وتقوت هذه الاوهام بما يطنطن أرباب الجرائد، وولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة، وانبعثت رسل الافكار تجوس خلال الشؤون والاطوار، لتصل إلى شيء من هذه الاسرار، واجتمعت الارواح في الآذان، لعلها تسرق سمعاً عن تلك المداولات، وكنت كل نفس في مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الحجاب ما ينبيء عن الحقيقة أو يقربها من الفهم. والجميع واقفون وراء حجاب هذا الملعب الشائق، وبعد طول الانتظار، كشف الستار.

فاذا عائدة الانكلترا جالسة في هيكل آمون ويدها تاج يحكي رأس الثور (تاج الفراعنة) متهيئة أن تضعه على رأسها، والموك العظام وقوف بين يديها مستعدون تمهنتها، كأنما كانت هذه المفاوضات والمحابر اعداداً وتمهيزاً لاجلاسها على كرسي ميناس الاول ورمسيس الأكبر «لاحول ولا قوة إلا بالله» قام رئيس النظار الفرنسي في مجلس النواب خطيباً لبيان الاتفاق الذي عقده مع وزارة انكلترا يرى النواب فيه رايمهم، وقبل ذكره أنفق ما لديه من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لاقتناعهم بقبول ما اجراه، تلطف في الكلام وابدع، و صوب وصعد، واتي على ترغيب يشوبه ترهيب، وبأس يحوطه امل، وادرج في طي خطابه ان فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء، وبه نالت اشياء، واوماً إلى ان وزارته لو طلبت ازيد مما حصلت لادى الامر الى ممانعة الوزارة الانكليزية، وافضى الخلاف إلى انقلابها، وربما يخلفها وزارة تطمح إلى الاستيلاء على مصر

وجاء في نطقه بما حرك الطباع ومال بالاسماع حيث قال: ينبغي للسياسي قبل ابرام حكم ان يلاحظ جميع أطرافه ولو احاقه. فهذه الكلمة الرفيعة بددت في السامعين آمالاً، وظنوا ان المراقبة اثنائية قد اعيدت، أو تقر اشراك فرنسا مع انكلترا في الحلول العسكري، أو ابرم الحكم بخروج الانكليز من مصر. وبالجملة انهم فازوا فوزاً عظيماً، وبعد مقدمات طويلات بين الاتفاق قديماً

هو بعد امعان النظر على هذا النحو! ان الانكليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون، وليس لنا ان نعارضهم، فلا المراقبة الثنائية عادت، ولا الاشراف في التدخل العسكري أو النظر الاداري حصل، ولا قررت حرية القتال على أصل ثابت، ولا تحقق جلاء الانكليز على صورة قطعية، ولا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين، بل كما كان يلجأ اليه الانكليز عند نهاية المعجز على ما أشار اليه كثير من سياسيتهم. فانقبضت صدور النواب، فلما رأى شدة تأثيرهم دفعة واحدة، واحس منهم القنوط، حاول احياء آمالهم بقوله انا سلكنا في اتفاقنا هذا مسلك سائر الدول، ومن السنن التبعة فيها تنازل كل من طلاب الاتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف، حتى يتقاربوا ويتعادوا فيسهل اتفاقهم. الخ

[يقول مؤلف هذا التاريخ]

(هذا ما بينه الكاتب من عاقبة المؤتمر وخيبة فرنسة فيه، ومحاولة رئيس وزارتها لاقناع مجلس نوابها بتصويب ما فعلته وزارته، وقد قفي على هذا بتخطئه وذكر دواته بما سبق من خداع الانكليز اياها في مسألة احتلال الهند واخراجها منها بخفي خنين، أي كما خدعوها في أصل مسألة احتلال مصر، ثم قال « والمستقبل أشبه بالماضي من الماء بالماء. فذكرنا بهذا كلمة قالها أستاذ التاريخ العام في المدرسة الخديوية في أواخر القرن الماضي وقد ذكر مثل هذا الخداع الذي عبث به انكلترة بفرنسة مرة بعد أخرى سنة بعد سنة، فقال له أحد التلاميذ انك كنت قلت لنا في العام الماضي مثل ما تقول اليوم فكيف تتخدع فرنسة هكذا لها وتدع من الجحر الواحد مرتين؟ قال الأستاذ الفرنسي: وهل انتهى هذا الخداع والانخداع مرتين؟ كلا انها ستخدعنا في المستقبل أيضاً فتخدع!!

فلا تدر الحكيم الافغاني، والامام المصري، ما أبعد نظرهما، وأدق علمهما بامور العالم، وسنن الاجتماع في البشر، وحقائق السياسة في الدول!!

وقد قفي على هذه المقالة بمقالة أخرى في بيان (الاتفاق) الذي عقد بين وزارتي خرنسة وانكلترة وتواطأتا على أن يكون موضوع البحث في المؤتمر وأشار إليه رئيس الوزارة الفرنسية وهذه خلاصته:

(المادة الاولى) أن يستمر الجيش الانكليزي في الاراضي المصرية الى أول يناير سنة ١٨٨٨ . (أي ثلاث سنين ونصف) ثم لا ينبغي عنها الا بعد انعقاده ومؤتمر جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الاخلاء لا يضر بالنظام الداخلي لمصر ولا بالملاقات السياسية بين الدول . فان خافت في ذلك دولة واحدة كان لانكلترا الخيار بين الجلاء والبقاء !

(المادة الثانية) إلغاء المراقبة الشائبة على أن يعوض عنها بتوسيع الساطة لصندوق الدين العمومي فيمنح مجلسه حق الاطلاع على نفقات الحكومة المصرية ويكون له حق الاعتراض على ما يزيد منه على المقرر في الميزانية من أول سنة ١٨٨٥ الخ
(المادة الثالثة) حياد مصر وحرية القنال

وقد بين في المقالة دخائل كل مادة من هذه المواد وعواقبها ، وسوء سياسة الوزارة الفرنسية فيها ، وكون هذا الأود والاعوجاج فيها لا يقيمه الاحمية الدولة العثمانية ، وحرص مجلس النواب الفرنسي على المصالح الفرنسية .

وقد صدق بذلك رأي العروة في الانكليز من أنهم يبلغون ما ربههم دائماً بالخداع والكيد ، لا بالقوة والايدي . فهي قد خدعت فرنسا وغيرها بالاجل القريب الذي ضربته لانتهاه الاحتلال - وهو ثلاث سنين - من حيث وضعت للجلاء بعده شرطاً لا يمكن وقوعه الى يوم الدين ، وهو اتفاق الدول واجماعهن على أن الجلاء عن مصر لا يضر بالنظام الداخلي لها ، ولا بمصالح الدول المشتركة فيها ، ومتى اتفقت هذه الدول على رأي من الآراء وعمل من الاعمال ، في أمثال هذه المسألة التي تختلف فيها المصالح والاهواء ؟

ثم متى تكون هذه الدولة الداهية عاجزة عن استمالة دولة أو أكثر الى الخلاف في هذا ؟

الشاهد الخامس

في تحريض الدولة العثمانية (*)

الباب العالى والانكليز

بهم المسلمين في كل أرض أمر ماجري في مصر بل تذهب نفوسهم حسرات
كلما رأوا أو سمعوا أن جندياً أجنبياً يجول في نواحيها مقاتلاً أو حامياً ، وليس
شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فإنها بهرة الاسلام وباب الحرمين الشريفين ،
فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانها ، والمسلمون في قلقهم هذا ينظرون
الى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم في سماء سلطتها الحسية والمعنوية ، يرجون
منها عزيمة ثابتة تنقذ بها الاراضي المصرية من تبويء الاعداء ، ويحفظ بها شرف
المسلمين ومكانتهم بين الامم ، وتصان بها ولاية الاسلام من السقوط في حبال
عذه الدولة الداهية « دولة الانكليز » التي أخذت على نفسها أن تبيد ولاية
هذا الدين وتحول حبله على نابله * هذا فضلا عما يراه كل مسلم من أن عزة
الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ما كسبتها على مصر ، فان قضى فيها الامر
لغيرها « والعياذ بالله » أصبحت حقوق العثمانيين في جميع ممالكهم معرضة للخطر *
فهذه دولة الانكليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفا لا يحس به عند بدئه ، ثم
يذهب في البدن فيفسده ويبيئه بدون أن يشعر المصاب بالالم ، هكذا شأن الانكليز
في ايهم وتلطفهم ، وحلاوة وعودهم ، وتلقفهم وخضوعهم ، يسلمون المالك ما كسبه
بل الحي حياته ، وهو مأخوذ بما يشعرون له . ولا ريب في أن الاهانة التي تمس الدولة
العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق والغرب ، فان كل مسلم وله الحق يعد هذه
الدولة دولته ولو تباعدت الاقطار .

إن الهندين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون بها ، ويحسبون أنفسهم في عداد الامم التي
لم تذهب سلطتها ، ويعتقدون أن لهم سلطانا قويا في الدولة العثمانية ، بل يرون أن خلاصهم

من قيد الرق الانكليزي لا بد أن يكون يوماً ما بسعيها ، وقد أظهرت أيام الحرب الاخيرة آثار لحتهم معها باللحمة اللبية بما لم يبق ريبه لمرتاب في شدة صلتهم بها . لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية في هذه الايام الاخيرة عند ما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة ، وتصارعوا في لمفاوضات والمجادلات محاماة عمالمهم في المصالح في مصر ، مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة ارضاء لخواطر المسلمين عموماً ، واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها ، وحماية عن ممالكها أو أهم مملكة منها ، إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالي إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المتعقد بين فرانسوا وانكلترا في المسألة المصرية أتى فيه على بيان العواقب السيئة التي تنشأ من طول مدة الحول الانكليزي في مصر وأظهر أن مجرد تحديد المدة لا يكف الانكليز عن حرصهم ، ورعاية ما فيه أنه يستتبع مداغة الدول والدولة العثمانية مع الانكليز ، وبرهن على أن بقاء العساكر الانكليزية في مصر ليس بضروري في حل المسألة فان كانت الدول لاترى في العساكر الاهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل فالباب العالي مستعد لارسال العساكر اليها على ما تقتضيه حقوقه فيها ، كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه ولكن حال دون الاجراء موانع سياسية . فان لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا المشكل فانه يعرض عليها أن يحل مصر جيش محتاط يؤلف من عثمانيين وفرنساويين وانكليز وايطاليين واسبانيين وإلى الدول تعيين الاجل في الوجين وزاد الباب العالي في إعلانه هذا خدشا لخواطر الانكليز حيث قال ان الانكليز قد أمهوا أعمالهم في محو العصيان وتثبيت سلطة الخديو الا أنهم لم يأتوا في تحسين حال مصر وتقوم نظامها الا بما فيه اجراء بعض مقاصدهم السابقة وانا نقول كما يهتف به كل مسلم إن من فروض الدولة العثمانية أن لاتدع وسيلة للذود عن مصر وكف يد الانكليز عنها ، وأن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الآستانة ، وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التي لاتعقب مطراً * ومن الحق أن نقول إن في مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا

البيت البلوري « بيت العظمة الانكليزية » بحجر واحد، فاذا اشتدت الازمة تيسر لهم السعي في الوثام بين الايرانيين والافغانيين والبلوجيين ولا يكلفهم هذا الإكتمين يستندان إلى أصل ديني قويم، وعندها يعرف الانكليز مقام أنفسهم في الاقطار الهندية ، والممالك المشرقية .

هل تسلط الانكليز في الاراضي الهندية الواسعة إلا بسبب المحاصمات المذهبية التي كانت بين الافغانيين والاييرانيين ؟ ولو نظرنا اليها نظر التحقيق لمارأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق السكامة ، ولا ريبه عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الامم أيسر شيء على الدولة العثمانية لما لها من المكاة العليا في نفوس المسلمين قاطبة . ولا يظن أن اعتصام الانكليز في جزائر بريطانيا والهند يمتصر بالعثمانيين عن النكاية بهم لاقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك وانسداد سالك بين الممالك العثمانية والانكليزية ، فإن الظن يخالف عند وجود الاتفاق بين الافغان والاييرانيين ، واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين

هذه طريق محمرة وبتدر عباس إلى بلوجستان مفتوحة لسالك، مطروقة لمسابل ، وهي الطريق التي سلكها أول جيش إسلامي بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند . ان هذه لجولة لو كانت لا تثار في وجوه الانكليز غيرة يضلون فيها عن رشادهم . ومعلوم أن الحي لا يسلم نفسه للموت بلا مدافعة مادام قادراً عليها . يكفي لقيام مليون من المقاتلة الافغانيين والبلوجيين تحرك خمسة آلاف عثماني الى أحيائهم .

لست أبالي أن أقول الحق : اذا حصل التساهل في أمر مصر انفتح باب المعامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة ، وعزت بعد هذا وسائل التلافي، فلتأت الدولة العثمانية على مافي الوسع ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم اه

الشاهد السادس

خاص بتنبية الخديو توفيق باشا ورجال دولته

(ان العروة الوثقى لم تكن ترجو من الخديوي توفيق باشا أدنى عمل ولا أدنى مساعدة لمن يعمل ويسعى لجلاء الانكليز عن مصر وانما كانت تطالب بتسليم أمر البلاد الى أولي العزم فيها، ولكن وصلت اليها اخبار من مصر بأن الانكليز استولوا على قلبه، فصار يعتقد أن بيدهم أمر بقائه في منصبه، ومما أخافوه به إمكان ارجاع والده، وانهم استمالوا بعض المصريين من المسيحيين وغيرهم الى مساعدتهم على تثبيت اقدامهم في مصر فكان هذا سببا لكتابة عدة تنبييات منها مقالة عنوانها **عمى بعض الناس في مصر او تعاميمهم عن مقاصد الانكليز فيها** (١)

قال في آخرها بعد شرح طويل في تصرف الانكليز في مصر وما يعملونه به :
هذه كلها اعمال يزعمها الانكليز حجبا لما يسعون اليه من الاستعلاء على عرش السيادة في مصر وحط الرجال في حزونها وسهولها .

فلم يبق بعد هذا سوى ان ينتبه العاقل ويلتفت صاحب الامر الى ما يحف به ليحترس من هذا الكيد العظيم . ولا يعين الانكليز على مقاعدتهم جهلامته او اغترارا بما يخيلون له من نفع يعود على شخصه او بلاده . سبحان الله هل كان مثل هذا الامر يحتاج الى تنبيه ؟ هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق ، لانقيدهم التجارب ، ولا تربيتهم الحن ولا تعلمهم الحوادث ، ولا تدربهم النوازل . وتناوب الرزايا والمصائب . من له ادنى خبرة بسير الانكليز في ماضيهم . نو حاضرهم يعلم انهم يهاكون البلاد بأيدي سكانها ، ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم .

يرى الامير الشرقي هذا في أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره، فيقع في نفس الشرك الذي صيد به جاره، مثلهم مثل الاغنام يسوق الجزار منها واحداً بعد واحد الى المجزرة وسائر القطيع في غفلة عما يجري على آحاده يرعى ويرتع آمنًا مطمئناً حتى يفنى (١)

لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة اذا تغلبت عليها امة اشد منها قوة واكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح. وانما العار الذي لا يحويه كره الدهور ولا ينسيه تطاول الازمان، هو ان تسمى الامة او احد رجالها او طائفة منهم لتمكين ايدي العدو من نواصيهم، اما غفلة عن شؤونهم، او رغبة في نفع وقتي وجزاء تقدي على خيانتهم، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية، ونحمل عوامل الشهامة الاسلامية، ونوقد نيران الغيرة الجنسية، لنخيب آمال الانكليز ونرد كيدهم في نحورهم، ونقذف باولئك المغفلين الذين يميلون اليهم خارج تخوم هذه الحياة (٢) ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم وينذوقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون، هذا اذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق في محبة الاوطان ورعاية مصالحها، فان تابوا وأصلحوا وانابوا كان الحق ظهيرهم، وكان الله وليهم ونصيرهم، وهو نعم المولى ونعم النصير

(١) نظم هذا المعنى ابن دريد فقال في مقصورته الشهيرة :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلي فارتمى

اذا احس بناءً ربع وان تظلمت عنه تمادى ولها

وهكذا شان البئس في حال الادبار والانحطاط الاجتماعي. روى المؤرخون ان رجلاً من التتار المحرّبين صادف مائة رجل في احد أزقة بغداد فذبحهم واحداً بعد آخر وهم ينظرون! فم كانوا يخافون؟ وهل بعد وراه هذا الذبح شيء يخاف منه؟ انما مثال هؤلاء احقر واصل من الغنم لان النعم لا تدرى ما يدرون

(٢) هذا رأي السيد جمال الدين في الخائنين لاوطانهم بمساعدة الاجنبي عليها

لا علاج له عندم إلا القتل

الشاهد السابع

في سياسة دول أوربية في المسألة المصرية ومكان العثمانية والحكومة المصرية منها

*)

سقوط المؤتمر وسياسة بسمارك فيه

حركات العقلاء على حسب المقاصد ومقدرة بقدرها ، وأولها بالاعتبار ما يصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شؤون الممالك على قواعد العقل وأصول الفكر . على رعاة الأمم في كل مملكة أن يكونوا بمرصد لكل حركة سياسية ، ويمرّقون للنظر في غاياتها والتنقيح عما يبعث عليها . رب نهضة من سياسي عظيم تميدها الراسيات في كل دولة ، وتضطرب لها الروابط العامة بين أمة وأمة . فليس لمحك في السياسة أن يقصر نظره على ما عنده ، ويرد كل حادث سياسي إلى مراسم في مخيلته ، واعتقده موافقا لمصلحته ، فيضل عن الرشد بالقصور ، ويغيب عنه الصواب بالغرور ، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين في لوح الأمل ، ويتلوها في صفحات المنافع والمضار التي يجمل على جانبها أو يدعو إلى دفعها طابع الأمم ، ولو أزم مليتهم ، ومواقع بلدانهم ، وعلائقهم مع من سواهم ، حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجواذب والدوافع حافظا لمداره ، واقيا لنظام سيره . يكون على غوايب أمواج الحوادث كالملاح الماهر ، يضرب بسفينته عروض البحار ، في أمن من الاخطار ، يستفيد حتى من العواصف ، وينجو حتى من القواصف .

كانت حكومة فرانسا أشد الدول في دفع انكسارها عن مطالبها المالية وبهذه الشدة سقط المؤتمر ، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده في اجتماع القياصرة الثلاثة فاجتمعوا في (اسكيارنيا فيس) . ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول المخاطرة ومعهم وزراءهم ، رجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأي وبعد الغاية . هل كان هذا التلاقي لاطفاء لوعة الشوق وإجابة داعي المحبة الشخصية ؟ لا . هل كان كما

قاله بعض الجرائد للتداول في الوسائل التي يجب استكمالها لقهر الفوضويين؟ كيف يكون هذا وليس أعوان الفوضى إلا لخصوص تقمهم السطوة الداخلية، ويكفي لسد أبواب الفرار في وجوههم مخبرات خفيفة بين أولئك الملوك كما هو الشأن في أمثالها من المسائل الجزئية. ماتقوله الجرائد من هذا القبيل انما يقصد به التعمية وصرف الاذهان عن النظر في الحقيقة

أي غرض عظيم دعاهم للاجتماع؟ لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فان حكم المنافسة محافضة الايثار. قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك والبارون دو كورسيل سفير فرنسا في برلين. هل يريد البرنس بسمارك بهذا الاتفاق الامبراطوري أن يجعل لفرنسا ركنا شديداً في معارضة انكلترا حتى يستحكم الشقاق ويفضي إلى حرب توهي القوة الفرنسية ويصيب منها ما يجب؟ هذه قائدة خاصة بدولة الالمان لوقدرت على نيلها فاذا ينال الدولتين المنافستين لها من الاتفاق معها؟ ويريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وتقطيب جراحها بتأييدها في رغباتها فتكون المصافاة بينها وبين المانيا وتنسى الاحقاد بينهما؟ غاية لا تطاب والشأن فيها كسابقتها. هل يقصد البرنس مجرد الانتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الالهانة التي لحقته في المؤتمر. ان كان هذا فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصي لا يمس المصلحة المشتركة. هل هذه الحركة الشديدة موجهة إلى ما يقصده بسمارك من التملك والفتوح في الشرق وإلى هذا القصد تنتهي؟ أيصح أن يكون ذلك الامر الكبير وسيلة لهذا الغرض الخفي؟ على أن انكلترا كانت أقرب إلى ألمانيا في هذه الوجهة وأجدر بأن يميل إليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية. هل أراد البرنس أن يخلت الروسية ويهني فرنسا بالمسألة المصرية لتنام الاعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك ويوسنه الى ماشاء الله ووسمت القوة؟ شفقة في غير موضع، وصنعة في محل التقطعة. هل أحب البرنس أن يتمتع نظره بشهود الفتوحات فبعد ما فتح للنمسا بابا في الشرق من جهة هرسك رسم للروسية طريق هراة وقندهار، ومد لفرنسا خطا في حدود تونس وهو تقرير العين بما يرى ويسمع من توسع هذه الدول في فتوحاتها وان لم تعد من ذلك

فائدة على الامة الالمانية ؟ شيء لا يأتي عليه الفكر ولا يصيبه النظر .

هذا ولا يصبح لنا أن نقول إن الحلف العظيم بين القيصرية واهتمامهم بتأكيد الروابط بينهم لمجرد كفيد الانجليز عن مصر وبقاء فائدة الدين ومبلغ الاستهلاك على ما كانا عليه، وحفظ قانون المالية المصرية كما ظن مكاتب التان البرليني، قال ان في عزم البرنس بسمارك أن يؤيد الحجة الفرنسية بثبات شديد واردة صحيحة، وسيكون مع فرنسا بدأ واحدة في ابقاء الحالة المالية في مصر على ما كانت عليه، وفي زعم المكاتب أن هذا كان باعثا لسياسي انكسار على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين المانيا والنمسا وبين فرنسا . فان المسئلة المصرية بمجرد ما ليست مما يدعو الى حملة عمومية اني أرى تحت هذا النقع جحافل أهوال ، ووراء هذا الغيم وابلات أرزاء ، أرى تنقلا قريبا في حدود الجغرافية السياسية ، وتغيراً عظيماً في الخطط الدولية ، واتقلا با في هيئة الروابط العمومية ، نعم قد يكون من المباديء الاولى لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرنسا فانه لم يجد خيراً في مناوأتها زمنا طويلا ، وكما رام الوضع منها زادت علواً وارتفاعاً، فيريد أن يجرب صداقتها، كما جرب عداوتها ، وأن يدفع البرنس دولة الروسية الى آسيا فهو اسلم للدولتين الالمانيتين ، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولي وجهها وفيما تخلفه ووراءها فائدة البرنس النقدية

(ثم قال بعد تقليب الآراء ما يأتي وهو ما أردناه من المقالة)

قضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التي هي جزء من أجزاء الدولة في مهب رياح مختلفة فعملها التيقظ التام والاحتراس الشديد كيلا يكون خسارها في استفادة غيرها . اذا قامت الدولة بمعمل كما يليق بها حفظت حقوقها وصانت بقية ممالكها . الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة، والآخرق الغافل عرضة لكل خطر . الدول تطلب نكابة الانكليز من كل وجه فالذي يمنع الدولة العثمانية من مجارة الدول العظام وهي أقدرهن على الاضرار بهم، فانهم في بلادها يعيشون فيها مفسدين، وسكان البلاد لا ينتظرون الا خطوة من دولتهم اليهم، فيقيمون القيامة عليهم؟

الشاهد الثامن

(في تحريرىض المسلمين عامة والسلاطان والمصريين خاصة على الانكليز)

زلزال الانكليز في السودانه *

قلت الجرائد الانكليزية تفرقا ورد إلى جريدة الستندارد من دونقلا ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أياما متواليات ومحصله : ان الاسن تلهج في مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الانكليزية بقدم جيش محمد أحمد والحديث مستفيض في جميع المسكرات بأنه زاحف اليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء والآخر على شطوط النيل وأنهم لا بد أن يلاقوا منه صدمة شديدة لا قبل لهم باحتمالها ، وقد استولى بذلك الاضطراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصا عساكر مدير دونقلا لا خوفا وفرعا فقط ، ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا اليه من أن السلطان راض عن أعمال محمد احمد بل صدرت منه التنبيهات إلى جميع المؤمنين في تلك الاطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الانكليز في منزلة العدو الالذ ويقاوموه مقاومة الآيسين اه

كنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي في معاكسة سير الانكليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والامكان قياما بما يوجب الدين والوطن ، ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطاني ، فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الارض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه ، بل توجهه في مدافعة الباغين عليه ، وتدعو كل ذي عقل لاخذ الحذر من حيل المحتالين ، والتوقي من الارواح الشريرة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور منها ما يخطف برونقه الظاهر لب الالباب ، ويذهب بهاؤه الصوري بنور الابصار ، وهي منابع الشر ومصادر الفساد ، ومهب رياح التن والاختلال .

(* مقالة اثمرت في العدد ١٨ بتاريخ ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ - ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤

تلك أرواح الاجانب و نفوس الاباعد الذين يهتكون حرم البلاد، ويخفون شئون العباد، ويفسدون الحقوق، ويفسدون الاخلاق و يذلون النفوس المدافعة عن الوطن أمر طبيعي و فرض معاشي يكاف في دعوة الطبيعة اليه الميل إلى الطعام والشراب ، فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه . نم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مرايا التواريخ عند ما يمر الناظر اليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تحوم الطبيعة ، وصيغت لهم هياكل من اللعن الابدي، مسرولة بالخزي والعار السرمدي ، هكذا يعرف الشيء بضده

لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بشمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر، وعلى أي وجه انقلب . القادر على فكر يبدية ، او تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الاعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن. من لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان. من سوف عمل اليوم إلى غد ، وتواني في تضليل كيد الاعداء بقول او فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة ، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على السنة الانبياء والمرسلين. وممقوت في نظر العالم أجمعين

ما أعظم جريمة الخيانة « المساهلة في شؤون الاوطان » يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه، إلا وصمة الخيانة، فلا تطوبها الادهار ، ولا يخفيها تطاول الاعصار، محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولسكن لم تمح أسماء الخائنين . لوث على وجه الزمان ، ودرن في صفحة الامكان، مكففة باللعنة محفوفة بالملت إلى أبد الآبدين ، لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنايع ولسكن النفوس مها تدان في الادراك تشعر بعظم جرمه فلنرجع إلى موضوع كلامنا كنا على يقين ولا نزال عليه ان الذات الشاهانية وهي الأب الاكبر لعموم المسلمين ، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين، هي أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الاعداء في البلاد الاسلامية ، وهي لاذنوا جهداً في تعويق سيرهم واحباط

أعمالهم ، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص
الامم في الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الاجنبية، وانه لخرج
الصدر من أعمال الحكومة الانكليزية، وعدوانها على الحقوق العمانية والاسلامية
والمصرية ، بلغت غشمة الانكليز إلى حد لا يمحتمل فإيس من الغريب أن تضيق بها
للصدر ، وتفيض بالغيظ منها القلوب ، وتبلى منها دروع الصبر ، وتذوب سابعات الجلد
فيأياها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم
وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا : زحف العدو اليكم تحت راية
الحبة ثم قلب لكم ظهر المحن ، وتناول بيده الظالمه شؤونكم العامة من عسكرية ومالية
وإدارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئا إلا الحرمان من خدمة أوطانكم وأنتم أحق بها ،
وظالما دافعتم عنها في الايام السابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ،
ولم يمح القوى الداخلية ، يطلب استمالة القلوب اليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف
به اذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعلامه ، وخالاه الجور من المعارضين ؟

ماذا ترجون من مطاولته ، وماذا تؤملون في ارضاء العنان له ، وماذا تهابون في
معارضته والاخذ على يده ؟ أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل ، فقد رأيتم انه
أفسد شؤونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرّم رجالكم من الخدم ، وأقر آلافا مؤلفة
من العائلات ، ووهب من بلادكم لاعداؤكم ، وأضر بمنافعكم العامة من زراعة
وتجارة وصناعة ، فأغلق أبواب الكسب في وجوهكم ، وقصد إلى التدخل فيما يختص
بأمور دينكم (كالأوقاف) وعمد إلى خرق سياجكم وإزالة قوتكم بطرد جنودكم ،
وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها ؟ فإذا نخشون منه ؟

هل نخشون ان تنقص أموالكم وعمرات كسبكم اذا أدتكم حقوق وطنكم ،

ودافعتم عدوكم ؟ ربما يحتاج هذا بمخاطر بعضكم ، وهو من عجيب الخواطر ، أنتم واقعون
بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الاموال والثمرات ، وفاضت اللعبرات ، وزادت
الحسرات ، وإن زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خساراً ، وأوسعكم خراباً ودماراً ، ان
رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غني الا افتقر ، ولا عظيم الا احتقر ، وإن
شتمتم فانظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم ، واقروا حالكم في تواريخ من سبقكم .

هل تخشون اذا قتم بفروضكم أن يأتي الخطر على حياتكم؟ يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة. الدول متألبة عليه يتربص منها في كل آن مطالبة بنتائج أعماله، ومحاسبته على عواقب تصرفه، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية. انه مسرع في سيره منطلق الى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قراراً مكيئناً، ومقرراً أميناً، ولا يخفاكم ان المسرع في جريه يكبه على وجهه عثرة في مدره، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخذة طفيفة، أو تظاهرتهم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم وجهرتم بذلك، لرأيتهم أن ماء سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقفتم سيره، واستعلتيم بقوتكم على ضعفه، وأقمتم للدول حجة قوية في كبجه ورد جماحه، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، ونحويلها لسلطة يحفظها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوربا كافة، أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهي لمقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط بجيوشه أعالي البلاد المصرية «لأناله الله ذلك» صعب بعد هذا تعريفه بقدره، وإيقافه عند حده، وضعفت حجة الدول في معارضته إن أقوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة واصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر، فلو تمكن عدوكم بسكونكم من اظهار قدرته، وإقامة الدليل على كفايته للولاية عليكم، فقد فاز بالسيادة فيكم، وأصبحت دماؤكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم في قبضة جوره في امكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في امكانه أن يضر بكم، فاذا مضى زمن انعكست القضية، وأصبحتم في عجز عن مقاواته، وأصبح وفي يده عصى الجبروت لا ذلالكم، ان كنتم تخفون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بعد منكم؟ أليس يؤخذ منكم الا برىء بالشبه الباطلة وهانون ويدالون، وكثير منهم يتلون؟ ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم، وحرركات دمائكم في أبدانكم، كأقل ويفعل باخوانكم في ديار غير دياركم، ثم لا يبقى على أحد منكم. فأنتم اليوم أصحاب أمركم، وهذا قصده اليكم، وفي امكانكم أن تستمينوا الله في اتحصن من خطر آجل،

بدون ضرر عاجل ، فان شئتم فارحموا أنفسكم ، والا فانتم ساقطون فيأمنه تخافون .
يا قوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محب حتى لعدوه ، والجبان
مبغض حتى لأبيه وأمه ؟ تعلمون انه معاز قوم بالخضوع ، ولا استهين شعب بالاباء ،
لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عن سواكم ؟ أستم تتشابهون في الخلق مع
أعدائكم ؟ أستم تتمازون عنهم بالأيمان الصادق ؟ والعقائد الصحيحة ؟ أستم
تنسبون الى أولئك الابطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ؟ أستم تدعون
انكم أشرف عنصرآ ؟ وأكرم جوهرآ ؟ فان قتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر
مما يصيب أعداءكم ؟ ان كان الموت فهم يخشونه ، ان كان الخسار فهم يرهبون ،
(انهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله ما لا يرجون)

لأني شيء ، يخاطر عدوكم بماله ودمه لالتقلب على ما ليس له ؛ ولأني سبب
لا تقدمون بشيء من شهادتكم في حفظ ما هو لكم ؟ ان هذا شيء سجاب . هل
تذكركم بقول شاعركم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يرق على جوانبه الدم
ليس هذا مقام التذكير ، وليس المكان مكان المباراة في المجد والمسابقة الى
معالي الامور . انما الكلام الآن في الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة ،
فان لم يستفزكم طلب العلاء وسمو الهمم ، فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر ، الذي
رايتم بوادره ، ونعوذ بالله ان تدرككم أواخره .

أستغفر الله لاتزال ترحي فيكم النجدة والشمع والرفعة . لا يزال دينكم
يترقب منكم حمية عليه وغيره لدفع الغائلة عنه . ان صاحب الدين صلى الله عليه وسلم ينتظر
فيما يعرض عليه ، من أعمالكم نهضة لاعلاء كفة الحق وإيقاده من مخالف أعدائه ،
وان الله في عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم
ويعلم الصابرين (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله * ولا تتبعوا خطوات الشيطان
انه لكم عدو مبين * ولا تمنوا ولا تمنزوا و أنتم الأعلن ان كنتم مؤمنين) اه

[المؤلف] هذه آخر ما نشر في العروة الوثقى ونشر قبلها مقالة كأتمها نار
جهنم سعيرا ، وتغيظا وزفيرا ، وحسبنا هذا النموذج التمثيلي ، لذلك العمل التاريخي .

مسألة السودان

وسياسة الحكيمين فيها

قدم في ترجمة السيد جمال (ص ٢٨) إشارة إلى ما كان يقصده من العمل في السودان هذا نصها

« وأما مقصد اليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندرة أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال، فقد عطا أمر محمد احمد القائم بدعوى المهديية بالسودان في نفوس الانكليز، وكان لها يدان فيما يرسل من مصر والسودان إلى انكلترا من الاخبار، حتى أقنما الحكومة الانكليزية باخلاء السودان وكتبت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حل دون امضائها إلا مجيء البرق نبأ وفاة محمد احمد » وقد كان لهما من الساعي في مسألة السودان وتعميد السبل إلى العمل فيه بعد ترك

الدولة الانكليزية له مالا فائدة في بيانه. ومحمد قاري، كتب الاستاذ الامام إلى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى اشارات في بعضها إلى بعض ذلك كما ترى في الرقيم ٦ من كتبه الاصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني*) اه
هذا ما كتبت في هذه المسألة عند البدء بتدوين هذا التاريخ عقب وفاة

الامام و كنت عازما على الاقتصار عليه لعدم الحرية التي كانت تسمح بالتوسع فيه، ثم بدا لي أن أزيد الآن فأقول: يرى القاري، في فاتحة العروة الوثقى ان مسألة دعوى المهديية في السودان كانت ركنا من الاركان التي يعتمد عليها الحكيمان في حل الانكليز على ترك السودان والخروج منه بما عطا من أمر هذه الدعوة وما كانا يتوقعان من استقلالها إذا استفحل أمرها، وقد تكرر في العروة الوثقى ذكر هذا الموضوع، و انني أذكر هنا بعض الشواهد منها في ذلك لما فيها من الفوائد التاريخية والادبية وآيات البلاغة، ثم أوضح ما كنت أشرت اليه من ذلك السعي

(* هذا الرقيم للطبعة الاولى وقد نفذت نسخها وطبع طبعة ثانية يقع الرقيم

المذكور في ص ٥٥٥ منها

الشاهد الأول

في مقالة نشرت في العدد الاول الذي صدر في ٥١ جمادى الاولى سنة ١٣٠٤ (١٣ مارس سنة ١٨٨٤)

بيان انكسار في السرى

هل على ما في البيت فخرج لاغلاق الباب فاخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه هذا شأن دولة بريطانية في الهند وقنال السويس . قصارى بغيثها أن تكون حي آمن على هذا الباب ، وكان سهلا عليها أن تخلص النية في مسألة أرباب الولاية عليه فيقونه بارواحهم وأموالهم ، ثم هي تفوز بفوائده إلى الابد الا أن جيشان الاوهام ، وموحشات الاحلام ، دفعتم المباشرة حمايته بنفسها ، فاذا الامر أصعب من أن ينال ، وأساس البيت أوهى من أن يدوم أرادت انكسار بعد تبوئها أرض مصر أن تدخلها تحت حمايتها ، وأن تبدل العساكر الوطنية بانكليزية ، (١) وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة ، وحاوالت في ذلك إرضاء المصريين إنه صار من الضروريات لتنظيم أحوالهم ، وقرار الراحة بينهم - وتسكين دوع العمانيين بمحفظ الحق وتخفيف الوزر ، وكان لكل أن يستبشر هذه الخدمة الجليلة ان تمت لولا المالدوة انكسار من تقسيم الممالك التيمورية في الهند ، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها ، وكان هذا أكبر الاسباب وأصغرها الاستيلاء على الاقطار الهندية وانا لنأسف على التفاوت بين الزمانين ، والتباين بين المكانين ، فلا الاحسان الانكليزي يسهل تميمه ، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنيه ، وخطر الامرين غير يسير

(١) الفصيح في مثل هذا التركيب المشهور ان يقال : وأن تبدل العساكر الانكليزية بوطنية ، لأن الباء تدخل على المبدل منه لا على البديل كقوله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) ولكن جرى الاستاذ على التعبير المشتهر بين الناس وفي الجرائد

ظهرت دعوى المهذوية في السودان ، واشتد أزر القائمه بها بمسارعة الانكليز الى التدخل في مصر بحجة حفظ باب الهند ، وعظم خطب الداعي بعد ما أراق دماء غزيرة ، ودبت روح دعوته الى سواحل البحر الاحمر و حدود مصر الطبيعية ، وأمات القلوب اليه نفرتها من الساطة الانكليزية

يقرب من الظن أن نفعاته ما زجت أفئدة العرب في فيافي طرابلس أوقاربت وان هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه لانتلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء . وعند ذلك يسمي باب الهند بين أسنة النيران من ثلاث جهات . أيبعد عند العقل وبريطانية لاهية بانقاذ الباب أن تتعد النيران في البيت ؟ الخ [المؤلف] إذ ذكر بمد هذا في المقالة شيء من عمل غوردون في السودان وبقيتها إنذار بزحف الجيوش الروسية على الهند ، ورسم طريق الزحف من الشمال و ذكر اقبائل التي في هذا الطريق ومذاهبها وأساليب استمالتها وقد تقدم بيان هذا في محله

الشاهد الثاني

انتصار السودانين على الجيوش الانكليزية *)

وتأثيره في ضعف هيبتهم الوهمية

أشدها كانت هيبه لانكليز وملكتها على قلوب الشرقيين قبل تكتيب الكتاب وعقد الالوية وسوق المسافر لقاثة عثمان دجه على أميال من سواحل البحر الاحمر كان يخيل للسودانيين بل يلابس اعتقادهم أن القوة الانكليزية مما فوق الطبيعة ، وعن مثلها تصدر خوارق العادات ، وكان من ظنون الشرقيين في أقطار آخر ان غرائب القدرة البريطانية بلغت مبالغ السحر ، تدهش الالباب وتحير العقول ، واذا خلع في صدر أمة صغيرة او كبيرة لبعدها عن مركزها أن تعالها على حق ، او تناوؤها في مرغوب ، انشقت الارض وانفطرت السماء

(*) ما خص المقالة الافتتاحية للمد الرابع والعنوان

عن كآة من الانكليز يصبون عليها أسواط العذاب ، وبذيقونها أليم الوبال ، ويخلمون الارواح من الابدان ، خصوصاً اذا كان مغالبوهم لا يحملون من السلاح إلا نوعاً من الصنع القديم مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مدافعة بعض إلا ان هذه الدولة العظيمة ألجأتها حوادث السودان ان تسوق جيشاً للإيقاع بيمض العرب في نواحي سواكن فتحركت الجيوش المنظمة للاقاة عثمان ورجاله ، وبنى القواد في الزحف قلاعاً (مربعات) من المساكر الباسلة مدرعة بلؤام " من حراب البنادق (السنج) مسيجة بالآلات الجديدة من صنع رمنتون وهنري مارتين على اجود طراز يكون منه ، وحصنها ببراج من المدافع لاندانيها من سكان تلك القفار قوة ، ولا تسمو اليها منهم قدرة

لكن قوة اليقين أو تحكم الجهل دفع على الصنوف الانكليزية جماعة من عراة العرب وحقائهم ، فهدموا قلاعها ، وتقصوا بنيانها ، وقوضوا أبراجها ، وبعد تدافع وتصادم ، وتقدم وتأخر في موقعتين عظيمتين كره الانكليز إلى سواكن (ساحل البحر) وأخلوا ساحات القتال ، وتقهقر العرب إلى الجبال ، وعج الانكليز « غلبنا وانقمنا » !

ماذا أترت هذه الغلبة العجيبة في نفوس السودانيين؟ ثبتت أقدامهم، وقوت جاشهم ، وجمعت كلمتهم ، وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب ، فجمعوا قوام واستعدوا للقتال مرة ثالثة ، فخرموا لسوء البخت أو حسن الحظ من ملاقاته خصومهم ، لان شدة الحركات من أعدائهم — إلى أن قال —

وما حل بقوردون قد أسقط من شأن الانكليز وقوتها في أقطار السودان عموماً وجعل كلمتها هي السفلى وبعث على الاعتقاد بانه إحدى كرامات محمد احمد ولا حول ولا قوة إلا بالله

خطب يعقب خطبا ، وكرب يحدث كربا ، هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار ، وشف بها الحجاب ، وأحدثت هزة في قلوب الهنديين ، فكشروا

(١) اللزام كغراب هي التي يلائم بعضها بعضاً من قولهم سهم لأم : له ريش لؤام أي متلائمة بطن كل قذة منها إلى ظهر الأخرى. استعمله في الحراب بدل السهام

النوابون والرجوات^(١) عن أنيابهم ، ومدوا سواعدهم ينظرون إلام تطول ، ويراجع كل واحد نفسه ويمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد ، ويلجح الفرص من خلال هذه الحوادث

انتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيوش الانكليزية من مصيبة (هكس) إلى نابدها في جميع ارجاء الهند ، وترى الناس زرافات وفرادى يتناجون في هذه المسألة ، ويرجعون على أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل ، وهم على ربوة من الامل ، يستطلعون سوايح الفرص ، خصوصاً المسلمين منهم - كما أنبأتنا به الرسائل الواردة اليانا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية ، ونظن ان الدولة الانكليزية وعماد قوتها الايهام والتعزير يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الأولى في نفوس الشرقيين

(وهنا حرض الدولة العثمانية على الاخذ بالحزم وقوة العزم في مسألة مصر والسودان وبين لها ان هؤلاء الانكليز الذين لا يعاملونها إلا بالتهديد والارهاب لنيل أغراضهم لا يمكن أن يشهروا عليها حربالما يعلمون من محبة مسلمي الهند لصاحب السطة الاسلامية وبقوتهم بان ذلك مقوض لسظتهم في الهند لأول وهلة ثم قل) الاعتقاد بمحمد احمد أخذ سبيلا الى قلوب الهنديين حتى كتب اليانا أحد أصدقائنا في لاهور : ان محمد احمد لو كان دجالاً لا وجبت علينا الضرورة ان نعتقه مهدياً ، وأن لانفرط في شيء مما يؤيده (ثم ختم المقالة بالنصيحة المرادة منها فقال) فما آخر الحيل ؟ أيكتمني بحفظ القتال مع ترك الفتنة يسري لهييها إلى مصر العليا بل إلى السفلى ؟ اني أخشى كما يخشى العقلاء من شيع هذه الدعوى وكثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضرر بدولة انكلترة وبكل من له حق في مصر ، فعلى الانكليز كما نصحننا مراراً أن يصونوا بلادهم ويحفظوا طريق الهند بتفويض الامر إلى العثمانيين وأولي العزم من المصريين قبل فوات الوقت - وإلى الله ترجع الامور اه

الشاهد الثالث

*) أمانى انكزارة في حركات محمد احمد

صرح اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات بان المقاومة الشديدة التي لاقوها من قبائل العرب ورئيسهم عثمان في سواحل البحر الاحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة في تمكين سلطة محمد احمد في البلاد السودانية يريد من هذا انه لم يحملهم على الثبات والتراحم على الموت عدوانهم للانكسار ولا طمعهم في توسيع الفتح وانما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد احمد في السودان خاصة . وهذا من اللورد إما غفلة أو تغافل عن لواحق دعوى المهديوية بل لوازمها التي لا تنفك عنها ، فان القامم بهذه الدعوى لا يقف في سيره عند غاية ، ولا يقنع بملك ، وانما يريد بسط دعواه في أقطار العالم ، واخياء الاوامر الالهية التي جاء بها صاحب شريعته الذي يدعي النياية عنه في تبليغها وصيانتها في نفوس الناس كافة ، وسواء كان صادقا في دعواه أو كاذبا . فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة في بقعة من بقاع الارض سودانا كان أو مصرأ أو غيرها من البلدان إلا يتقدمه الى ما وراءها ، حتى يعلي كلمة دينه ، ويرد الى الحق من المحرف عنه ، ويكون له التصرف التام في قلوب المسلمين ، يأخذ منها مكانا عليا يشرف منه على مطامح دعواه في غيرهم من الامم ، وسواء يسر الله له النجاح في ذلك أو باء بضده ، هذا لا كلام لنا فيه الآن . ولكننا نتكلم في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة ، وبعد الوقوف على مايننا يسقط من النظر قول اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات ان حكومته لم يرد لها خبر بحماها على الظن باستعداد محمد احمد لقبول إمارة كوردان والاكتفاء بها ولا يعلم هل قبول محمد احمد لتلك الولاية يكون حجبا بينه وبين التقدم الى سواها ، فقد علمت أن محمد احمد لم يتم بدعوى الملك ، ولا طالب حقا له في الامارة كان

(*) مقالة وجيزة نشرت في المدد الرابع أيضا

يرثه عن آبائه وإنما قام بدعوى لانهاية لاطرافها إلا عند حدود السطوة الاسلامية فليس يكافيء قوة دعوة اسلامية إلا عزم اسلامي . ولن يكافح هذا المدعي ويرده الى قدره إلا رجال مسلمون . يدافعون الدعوى بما يقوى على اضعافها أو محوها . فان لم يرد لحكومة اللورد خبر الى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده في المستقبل ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنقيض ماتوهمه نسأل الله حسن العاقبة بعد تحرير هذه الاحرف جاءت الاخبار مصدقة لما قلنا ففي تلغراف من مكاتب التيمس في خرطوم أن ثلاثة دراويش جاؤا مرسلين من قبل محمد احمد الى الجنرال كوردون وأرجعوا اليه علامات الشرف التي كان بعث بها الى مرسلهم . وبلغوه أن محمد احمد يرفض لقب أمير كوردفان وينصح الجنرال أن يدخل في دين الاسلام فهو خير له

الشاهد الرابع

(في مقالة عنوانها (السودان) نشرت في آخر العدد السابع الذي صدر في ٤

رجب (أول مايو)

(بنيت هذه المقالة على أخبار تواترت ونشرتها الجرائد الانكليزية والفرنسية بقرب سقوط مدينة بربر في يد محمد احمد وشروع حاكمها المصري في اخلائها، وانضمام بعض العساكر المصرية المنظمة الى محمد احمد - وسريان الثورة في جميع القبائل وأهالي البلاد فيما وراء بربر، وعدم امكان الانكليز من ارسال جيش انكليزي الى السودان إلا بعد أربعة أشهر مع عدم رضاهم بارسال جيش مصري ... ووصول مكاتبات إلى ضباط الحامية المصرية في أسوان من زعماء الثورة يندرونهم بها اخلاء المدينة . . . وقول جريدة الطان : اذا اجتمعت قوة محمد احمد عند الشلالة الاولى فلا بد حينئذ أن ينظر في كيفية الدفاع عن القاهرة ثم ختم هذه المقالة بما أودع مثله في غضونهما فقال)

هذا الذي كنا نتوقه ونخشاه من قبل وأشرنا اليه مراراً جلته الحوادث

ونظقت به الجرائد الفرنسية والانكليزية ، ولم يبق إلا التفات تلك الجرائد الى دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذي كاد يكون عضالاً ، وتنبه حكوماتها للنظر في ذلك بعين الدقة والتبصر ، وترشدها الى أن العلاج الذي ليس وراءه علاج ، إنما هو تسليم الامر لدوي الحق فيه والعارفين بطريقه من المسلمين ، وسنراها بعد أيام تتبع السبيل المستقيم اه

الشاهد الخامس

(في مقالة نشرت في العدد العاشر الذي صدر في ١٠ شعبان (٥ يونيه) بعد استيلاء السودانين على بربر تختصرها بما يلي) :

السودان ومصر

نشرت جريدة (البوسفور اجبسيان) التي تطبع في القاهرة خبراً ذكره توفيق باشا نفسه وهو ان الجنرال (غوردون) توعد حكومته الانكليزية بانها إن لم تمده بجيش يتفقد من الضيق الملم به فانه يرفض الدين المسيحي ويدخل في دين الاسلام ، وضمت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالعجيب)

وغرابة الخبر إن كانت من جهة انه تهديد بما لا يهم الحكومة فنحن نعلم أن الانكليز يفرزهم خروج أحد منهم عن دينهم ، وإن كانوا يرشدون الناس الى ترك الدين ويعيون على المستمسكين به ، ولكنهم أشد الناس تعصبا فيه فلا محل للغرابة — وإن كانت من جهة ان غوردون وهو من أشد قومه تمسكا بدينه كيف ينجح الاسلام؟ فهو انكليزي الطبيعة كما هو انكليزي الجنس ، يتلون ظاهره بأبي لون وبيرز في أي ثوب لاصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع الله على قلبه فلا عجب ان قال وفعل (١)

(١) يعتبر القاريء بانقلاب الحال فان الانكليز يدعون في هذه السنين الى تمسك السودانين احياء لذكرى غوردون ويتخذون جميع الوسائل له

(نم قال) جاء الخبر ان أهالي جرجا في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة وورد الى تلك المدينة رجل من أشياخ محمد احمد قادما من القاهرة ودعا الاهالي للأخذ بطريقته فاذا بينهم جم غفير يحيب داعيه ، ويذهب مذهبه، وهو مما يدل على ان القائم السوداني مهم بنشر دعوته ، محتاط لنفسه حاذق في عمله ، وله دعاة في ارجاء الديار المصرية حتى في عاصمتها (القاهرة) فان ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشدد الخطب ، ولربما صار له بقوة ميل الاهالي اليه منعة يصعب على حكومة غير اسلامية أن تقارعه

أما ما ذيل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها وبين المسيحيين فهو مالا نصدقه ولا ينطبق على الواقع ، لان الايام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين ذمام الآخر في جميع الاحوال التي عرضت على بلاد مصر . المسلمون والمسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها . والمقاتل التي وقعت أيام الحرب المتفضية انما كان منشؤها افساد الفسدين ، على انه لم يمس فيها قبطني بسوء . والاخبار الصحيحة تؤيد ما نقول

الشاهد السادس

﴿ من مقالة افتتاحية نشرت في العدد الثالث عشر ﴾

(موضوع هذه المقالة الطويلة اثبات عزم الانكليز على امتلاك مصر وتحرير
الدولة العثمانية على القيام بما يجب عليها من العمل لاخراجهم منها . ومما جاء فيها
بشأن مهدي السودان مانصه)

وليس من المبالغة أن نقول إن حلول الجيش الانكليزي كان وسيكون من
أعظم الاسباب لقوة محمد احمد ، ولولا وجود العساكر الانكليزية في مصر لما
تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة ، ولقد كان يتبرأ من نسبتها اليه أيام كانت
الحكومة المصرية خالصة للمصريين ، بل ما كان يجد أحداً يباي دعوته ، أو
يدخل تحت رايته

هذه تواريخ الامم وهذا سير طيعة الكائنات ترشد المستبصرين الى ان مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة إلا عند اشتداد الخطوب عليها ، وزحف الغرباء اليها أي حجة لمحمد احمد في دعوة الناس اليه ؟ وأي نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول ان الانكليز من نيتهم الاستيلاء على أرض مصر وهي في عداد الاراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ، ودعامة القوة الاسلامية ، فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعي الله في مدافعتهم . واقتاذ البلاد من رجسهم ؟ وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء

هل يتوهم بعد سقوط خرطوم وجيش الانكليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد احمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم انه منقذ المسلمين ؟ هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق^(١) شعنته إلى أقطار اسلامية يخشى الانكليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند ؟

قد نرى الحالة أقرب الى المحافة منها الى الامن ، وسيعلم الانكليز انهم أحوج الناس الى السلم ، وأقربهم الى القناعة أي قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار ، بل تردها على قائمها وتذهب بها كأن لم ينطق بها لسان ، أو يذعن لها جنان ؟ ليس لقوة أن تأتي بهذا الاثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين ، وأولي العزم من المصريين اه المراد منه

﴿يضاح غرض الحكيمين من سياستهما في مسألة السودان﴾

بيننا أنه كان للحكيم غرضان من سياستهما في المسألة المصرية والمسألة السودانية كما أنه كان للانكليز غرضان فيهما . أما غرض الانكليز الاكبر فهو امتلاك مصر والسودان معا والتوسل بذلك إلى امتلاك شطر افريقية الشرقي من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح ، فان تعذر ذلك واضطروا إلى ترك مصر اكتفوا باخذ

السودان وحده وهو الغرض الآخر ، وانتظروا الفرص لجلعه وسيلة لاخذ مصر
وأما غرض الحكيمين الاول فهو اخراجهم من مصر والسودان معا باشر حناه
من الوسائل لذلك ، والسعي أخيرا الى اقناعهم بترك السودان بتكبير شأن
دعوى محمد احمد للمهدوية ، حتى اذا تعذر ذلك وتم لها هذا ذهابا إلى السودان خفية
ونظما فيه قوة محمد احمد توسلا إلى انقاذ مصر بها ، وتأسيس دولة قوية يعترف بها
الاسلام والشرق ، وتتحرر شعوبهما من الرق

وقد قلنا انهما كانا قد وقتلا لاقتناع الدولة البريطانية بسحب جيوشها من
السودان وتركه لاهله ، وانه ما حال دون تنفيذ ذلك الاموت محمد احمد ، وأشرنا
الى ترك الاستاذ لأوربة بعد الاضطرار الى ترك إصدار العروة الوثقى بالتشديد
في منعها من مصر والهند ، وانه دخل مصر مستخفيا بعد أن أم بسورية وتونس ،
وكان غرضه الاول التمهيد فيها للذهاب الى السودان على أن يتبعه السيد جمال الدين
اليه اذا نجح في سعيه له

كان آخر عدد صدر من العروة الوثقى وهو الثامن عشر مؤرخا في ٢٦
ذي الحجة سنة ١٣٠١ (الموافق ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤) وبعد تركها انفراد
السيد جمال الدين بالسعي المراد من مسألة السودان واننا نوضح هنا ما أشرنا اليه
قبل من دخول الشيخ محمد عبده في مصر وهو ما في بعض مکتوباته السرية إلى
بعض أعضاء جمعيتهم (العروة الوثقى)

قال في المکتوب الاول من الباب الخامس من منشأته^(١) بتاريخ ٧ جمادى
الاولى من هذه سنة ١٣٠٢ ما نصه بعد كلام :

« فتأملت من الامر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من
النداء ، ولعل الله ينهض بالقول هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس
ما ادخر لها من العمل ، وتلاحظ أضرار مادنا من الأمل ، وتنبعث عزائم لتناول
ما حضر لديها ، وابرار ما كمن فيها ، فعناية الله بأسطة أ كفيها اليهم ، رافعة صوتها
عليهم ، وهم في غشية من الجهل لا يلاحظونها ، وغطيظ من الغفلة لا يسهمونها .

هذا ما اندفع بي الى بلاد أستعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف عند حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وما توفيقى إلا بالله ، وما اعتمادي إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، واني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عق الشباب تمامي وأول أرض مس جلدي ترابها
غير انه لا يراني فيها إلا المحلصون ، ولا يعرفني فيها إلا العارفون ، وإن لك بينهم ذكرا يلبق بهمتك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، وقد أبلغت (السيد) من خبر صنيعك ما وفر لك شكره ، وأخلص لك سعيه . الخ
(وكتب الى آخر من الاعضاء في هذا التاريخ نفسه من مصر وهو المكتوب

السادس من هذا الفصل مانصه :)

قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك ، وحاشا ان يكون تساهلا في الحق ، أو ثقاقلا عن فريضة الود ، وانما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها من يوم فارقتك الى الآن .
« ذهبت الى باريس فاعدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن تجو جهة المشرق ، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الذاريات ، فررت على بلاد كثيرة منها مدينة (تونس) عملت في جميعها على إحكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى بلد خامت به عذار شيبتي وطرحت في كف الخطوب عناني وأنا فيه أتعرف الوجوه ، وأتنكر للعيون ، وأسأل الله نجاح العمل ، وإقبال الامل .
— الى أن قال —

« واذا رأيت فنبهه ان قوة الاتحاد في الجنوب ، أفرغت قوة النيران في الشمال ، وان نيران القلوب ، أذابت مدافع الكروب (وما النصر إلا من عند الله) يؤتية الصادقين ، ويوليه المحنصين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أما والله ان غلب السامون عن تفرق وتخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة الخ
(يقول المؤلف) وحسي بهذين التصريحين شاهدين على ما قلت

هذا وان محمد أحمد توفي في رمضان من تلك السنة (١٢٨٢) وكان الجيش المصري والانكليزي المساعد له في أسوأ الاحوال، وقد عقد الجنرال غرانفيل بعد موته هدنة مع السودانين مدة ثلاثة أشهر في كسلا وفي ٢٠ ذي الحجة منها أعلن تسليم حامية كسلا بعد حصار أكلوا فيه لحم الحبر، ولسنا في حاجة الى بسط حال السودان في ذلك الوقت لاننا لانكتب تاريخ السودان وانما نشير اليها من بعد لثلا يستغرب بعض قراء تاريخنا تمكن السيد جمال الدين من اقناع الحكومة البريطانية في عاصمتها بترك السودان بعد ما أذاعه في الهند وسائر المشرق من تعليق الآمال بدعوة محمد احمد والتهديد به لثورة اسلامية عامة

العبرة في هذه السيرة

العبرة التي يجب أن تمثل لقراء هذا التاريخ ان السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده قد جاهدا في سبيل انقاذ مصر والسودان من الاحتلال البريطاني جهاداً لم تسم الي مثله همة أحد من أمراء هذه البلاد وعلماؤها وكبرائها ولا همة غيرهم من العمانيين وسائر المسلمين والشرقيين، ولم يكن في قدرة غيرهما أن يعمل مثل عملهما . ولكن كان في قدرة كثيرين ممن ذكرنا أن يساعدهما بالمال وغير المال في هذه السبيل . ويعلم الواقفون على تاريخ مصر في هذا الطور الاخير أن كل ما كتب في جرائد مصر وغيرها في المسألة المصرية الى هذا اليوم لا يمد شيئا مذكوراً في جانب ما كتبه الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى بارشاد أستاذه السيد جمال الدين الافغاني، وان كل سمي عملي لذلك كان وما زال دون سميها . فليحفظ القاريء ما أوردنا من الشواهد في هذا المقصد الى أن يجيء الكلام في خطة الاستاذ الامام الاصلاحية في مصر وعلاقته بأمرها واصحاب جرائده

خاتمة هذا المقصد

آفة الشرق أمراؤه والمستبدون

وزعمائهم المرشدين

و مرشدو الجاهلون

نختم الكلام في خدمة الامامين الحكيمين للاسلام والشرق فيما فاضت به حكمة الأول على بلاغة الثاني في جريدة العروة الوثقى بهذه الحقيقة التي وضعناها هذا العنوان ، فلقد كان الناس غافلين عنها فييناها لم يبلغ البيان ، وشر مقاسد هؤلاء الامراء والزعماء في هذا العصر غرورهم بالاجانب الطامعين في بلادهم، ولو عقولها لتمكنت حقيقتها من عقولهم ، وولوفقهوها لرسخت عبرتها في قلوبهم ، ولما تكررت في مشرق العالم الاسلامي ومغربه تلك الرزايا التي انتزعت مما لكهم من أيديهم ، ومن العجائب انها لا تزال تتجدد ، ولا يزال مدعو الايمان يلدغون من الحجر الواحد مرارا كثيرة ، وقد قال رسولهم فيما صح عنه « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » رواه البخاري ومسلم

فلا عجب اذا فيما يصدر عن ملاحظة المسلمين الذين لاحظ لهم من حكمة الاسلام وهدايته الصادتين عن هذا الفساد ، ورضاهم بان يكونوا أوعوانا للاجانب على استثمار البلاد ، وهذا ما لا تزال نشاهده في كل عام (أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) ؟

طرقت العروة كل باب من أبواب هذا الموضوع ففتح لها ودخلت منه فلم تدع في زواياها خبيثة الا واستخرجتها

انشأت له مقالات خاصة ، وجعلته مضرب الامثال في المقالات العامة. وقد ورد فيما أتقنا من الشواهد بعض هذه الامثال والاشارة الى بعض تلك المقالات ونأتي في هذه الخاتمة بشواهد وأمثلة أخرى وهي

المثال الأول

﴿ استيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها ﴾

(قال من مقالة افتتح بها العدد الثامن موضوعها طرد الانكليز للجيش المصري وتأليف جنس صغير تولوا قيادته)

دمر الانكليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم ، وانثروا بينهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الامراء ، واغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية، فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة ، ثم أغرو كل أمير بآخر يطالب قهره والتغلب على ملكه، فصارت الاراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال، واضطر كل نواب أوراجا إلى التقود والجنود ليدافع بها عن حقه او يتغلب بها على عدوه، فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين. وبسطوا لهم إحدى الراحتين بيد الذهب وقبضوا بالآخرى على سيف الغلب. بدؤا قبل كل عمل بتنفيذ أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الاهلية، ورموها بالضعف والخبث والحيانة والاختلال، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية وقوادها، وما هم عليه من القوة والبسطة والنظام، حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا الجنود الانكليزية، فأقبل الانكليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه، وفوزه بالتغلب على غيره، بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانكليز، ويكون بعض الجنود الهنديين، وبعضها من البريطانيين، وما على الحاكم الا أن يؤدي نفقتها ثم خلبوا عقول أولئك الامراء، بدعواتهم ومهرجة وعودهم ولين مقالهم، حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر تندفع شر بعضهم عن بعض، ووصار الانكليز بذلك أولياء المتباغضين، وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها فرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) أرضاء لاهل السنة والشيعه والوثنيين

ولما فرغت خزائن الحكام وقصر بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائهم وتساهلوا مع أولئك الحكام في القرض، وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة، وبعضهم بدون فائدة، وينتظرون به الميسرة، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء. وبعد مضي زمان كانوا يومئذون الى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فإذا عجز الامير عن الاداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل في قطعة كذا من الارض نستقلها ونستوفي منها ديوننا، وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم، ثم الارض أرضكم تردها اليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وإنما نحن خادمون لكم، فيضعون أيديهم على غضرات الاراضي وفيحائها، وفي أثناء استقلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة، وحصوناً منيعة، كما يفعلون ذلك في ثكن [أماكن إقامة العساكر] عساكرهم على أبواب العواصم الهندية. (١)

وفي خلال هذا يفتحون للامراء أبواباً من الاسراف والتبذير، ويقرضونهم ويقتضون قرضهم بالقيام على أراض أخرى يضعونها الى الاولى، ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتتشب بينهم حروب فيتدخلون في أمر الصلح، فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخدام الصادق والناصح الامين، لكل من المتغالبين، وبعد هذا فلهم شؤون لا يهتمون بها في إيقاع الشقاق بين سائر الاهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية، ويخرب بعضهم بيوت بعض، حتى إذا بلغ السير نهايته، واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم، وغلت الايدي فلا يستطيع أحد حراكاً، ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيف تلك العساكر التي كانت حامية له واقية لبلاده، وكانت تشهد لجزعته من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله، ثم خلفوه على ملكه

وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعون (١) وكذلك يفعلون الآن في البلاد العربية التي يريدون أن تكون هنداً ثانية

الملك ويولون الطالب، على شريطة ان يقطعهم ارضا او يمنحهم امتيازاً ، فيحولون الملك من الاب لابن ومن الاخ لاختيه، ومن العم لابن اختيه، وفي الشكل هم الراجيون. هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوروبا . ما فاجؤا أحداً بحرب، وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة، بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهلها ، ولا بما تطرف به أجناسهم أولئك الانكليز باقعة العالم ، وأحبال الحيل، يريدون اليوم طرد المساكين المصريين، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة، فلا تستغنى عن حامية، فان تم لهم ما أرادوا زينوا لبعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً انكليزيا يكون خادما له وحافظا للملك، فان لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد، يرضونها عليه حتى يمشروا بمن يقبل نصحتهم أو غشهم ذهولا عن حقيقة القصد، فيقيمونه حاكما خلفا لمن لم تسمح ذمته بالقبول، وتكون رغبة المفرور حجة لهم عند أوروبا . هذا سر انقلاب الانكليز على الجند الوطني وقدحهم في سيرته بعد الشاء على حسن استعداده ، وسعيهم إلى طرده بالادلة الواهية ، والعلل الواهنة

المثال الثاني

(استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها)

(مقالة نشرت في العدد العاشر وهي التي أشرنا اليها في ص ٣٣٠ ثم حدث من الحوادث العامة ما اقتضى نشرها في هذه الخاتمة)

ان في ذلك لبعبرة لاولى الابصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الامم ان تسود عليها وتستعبدها وتذلها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والافكار ووجود المقاومة الطبيعية ، فضلا عن الارادية ؟ ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الامة ، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله اذا غلبه الغالبون، تجعله على

المدافعة عن أمته، كما يدافع عن بيته وحرمة، فلا يتسنى للقوة المميرة أن تذلل الامة إلا بفنائها عن آخرها، أو افناء الأغلّب حتى لا يبقى إلا المعجزة والزمنى، هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الامة

نعم يسهل للقوة الاجنبية ان تغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الامة حاكم او رئيس روحاني يجتمع عليه قلوبها وتدين له رقابها، لمنزلة له في افئدة ابنائها، ولمكان آبائه من الكرامة في نفوسهم. فلا تحتاج القوة الغالبة الا الى إيقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ما تحكم به. او نصب حباله الحليل له فتخدعه بالاماني والآمال فيذعن لما تقضي به. فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الامة تبعاً له. ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الامراء وأرباب السيادة في الامة التي يريدون التغلب عليها، فيخلعونها بالتهديد والتخويف، او يملكونها بالخدعة وتزيين الاماني، فينالون بغيتهم ويأخذون اراضي الامم

وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري في الهند، ولولا ما كان للهنديين من عمدة الارتباط بسلطانهم التيموري وقبض الانكليز اول الامر على تلك العقدة لما تسر للبريطانيين ان يخضعوا الامم الهندية في احقاب طويلة.

هذه قبائل الافغان عند ما انحلت ثقفتها بأمرها وصار الامر الى الامة قامت كل عشيرة بل كل فرد للدفاع عن نفسه بعد ما تمتنت عساكر الانكليز في قلاعهم وحصونهم، واستولت على قاعدة ملكهم، وفتكوا بالعساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم، وهي ستون الفا من الجيوش المنتظمة مسلحة بالاسلحة الجديدة، واضطر الانكليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها

لا ريب انه يسهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحداً او اشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد، ويتيسر له ان يقف على طباعهم، ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم، ويأتيهم من أبواب رغائبهم، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عايد، ونفوسها في وحشة منه، اللهم إلا بالابادة والتدمير

من هذا تجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع أقتالهم^(١) بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون^(٢) بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الأمة عنهم ، وما هذا الا لان قوة المغالين داخلة تحت الضبط، وأما آحاد الامم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاومتها، إذا تعاصت وشحت بنفسها عن الدل لسواها ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الامة قوى فعالة لهمها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها ، كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها وهبوطها وانحلالها ، وإنا نخاف ولا حول ولا قوة الا بالله أن يكون أمرنا والأعلن منا آلة في اضمحلنا وفنائنا لما غلب عليهم من الترف والانهاك في اللذائذ والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على طباعهم ، فانا لله وإنا اليه راجعون اه

المثال الثالث

رأي العروة الوثقى في معاقبة الامم الامراء والرؤساء الذين يكونون أعوانا للاجنبي عليها (قال في آخر مقالة وجيزة موضوعها الامة وسلطة الحاكم المستبد ووصف فيها حال الامة مع الحاكم المستبد المصلح الحكيم وحالها مع المستبد الجاهل الاحقر المتبع للهوى — مانصه)

عند ذلك ان كان في الامة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتناب هذه الشجرة الخبيثة واستنصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياح بزورها وأجزائها السامة القاتلة بين جميع الامة فتميتها ، وينقطع الامل من العلاج . وبادروا إلى قطع هذا العضو المجدم قبل أن يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه . وغرسوا لهم شجرة طيبة . أصلها ثابت وفرعها في السماء . وجددوا لهم بنية صحيحة ستمت من الآفات (استبدلوا الخبيث بالغيب) وان انحطت الامة عن هذه الدرجة

(١) أي أمثالهم (٢) يفرقون يخافون فهو كبيرهون وزنا ومعنى

متركت شؤونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصرفها كيف يشاء . فانذرنا بمحض
العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الامم . جزاء على ما فرطوا في أمورهم .
(وما ربك بظلام للعبيد) اهـ

[المؤلف] خلاصة هذا الارشاد ان الامم لا ترجى لها سيادة ولا سعادة ولا
حرية ولا استقلال إلا اذا عرفت نفسها ، وجمعت كلمتها ، وكان أمرها بيدها ،
وكان حكامها خدامها لها ، فمن أحسن خدمة أمته بالنصيحة والاخلاص كفافته ،
ومن خانها أو أساء اليها عاقبته ، ويجب عليها ألا تولي شيئا من أعمالها لأحد من
المتونين بحج الرياسة على قاعدة الاسلام : طالب الولاية لا يولي . وقال الخليفة
الاول (رض) في أول خطبة خطبها بعد مبايعته : ولت عليكم ولست بخيركم
عازا استقمتم فأعينوني ، واذا زغت فقوموني »

كانت هذه الحقائق مجهولة عند قراء العربية قبل بيان العروة الوثقى لها
ففسح العبارات وأقواها تأنيرا ، ثم رأوا مصداقها في مصر وتونس ثم في المغرب
الاقصى ، ثم في البلاد العربية الاسيوية ، فأقفة الشعوب الجاهلة المتفرقة أمراؤها
ورؤساؤها وزعمائها ، ويليهم من دونهم من المتفرجين الذين يتخذ منهم الاجنبي
السالب لاستقلالها صفار العمال لكل ما يحتاج اليه من عمل في إدارة حكومتها ،
ولا ياتي بالاجنبي أو لا يوجد في أفرادهم من يكفي للقيام به ، ومن قواعد سياسة
الاجانب انهم لا يستخدمون في حكومة البلاد التي ترزأ بسيطرتهم عليها إلا من
يعنون بالاختبار الدقيق أنه مخلص لهم ولو في خيانة بلاده ، وقد سبق في العروة
الوثقى ان الانكليز لو وجدوا في بلاد الافغان عند ما دخلوها محاربين واحتلوا
عصمتها (كابل) أمثال هؤلاء الرجال الذين يعرفون لغتهم ، وقد فتنوا بهرج مدينتهم ،
فخرجوا أو يخرجوا من الهند ، ولكنهم وجدواهم وغيرهم في بلاد أخرى من
أرض البلاد ولا يزالون يجدون من لولاهم لم يستقر لهم قدم ، ولم يرفع لهم علم ،
ومن من يعقل ويفهم ؟؟



المقصد الثاني من الفصل الخامس

عمد في سوروية

لما عاد الاستاذ الامام الى بيروت وألقى فيها عصا التسيار ، وتصدى للتعليم والارشاد ، كنت طالب علم بطرابلس الشام ، وكنت قد عرفت شيئا من قيمته ، بل كنت داعية له وللسيد الافغاني ، ولكن لم أتمكن من الرحلة اليه والتلقي عنه في المدرسة السلطانية ، وقد زار طرابلس في تلك الايام واتفق لي فيها معه مجلس واحدي في المدرسة الخاتونية اذ جاءها لرد السلام على الاستاذ الشيخ عبدالله البركة أحد العلماء المتخرجين في الازهر وكان عرفه من قبل ولم يكن الاستاذ موجودا بل كنت فيها مع أحد الطلبة نذا كر دروسنا ، فتلقينا الامام بالحفاوة والاجلال ، وقدمنا له شرا ابا مثلوجا فشرب ، وطفق يسألنا عن طلب العلم وأساليب التدريس للعلوم التي تدرس عندنا ، وتوليت إجابته دون رفيقي . ومما سألنا عنه تفسير القرآن هل يدرس للطلبة ؟ قلت لا وإنما يقرأه رجل واحد العوام ويعنى فيه بالتقصص الاسرائيلية والخرافات الصوفية إذ يقرأ تفسير روح البيان لاسماعيل حقي الصوفي وسألته أي التفاسير أنفع لطلبة العلم ؟ قال الكشاف . قلت ولكن فيه كثير من نزغات الاعترال . قل تلك مسائل معروفة لا تخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة فيها وإنما فضله لدقته في تحديد المعاني ونكت البلاغة بالمعبرة الدقيقة المختصرة ثم قلت له أما علم الاخلاق فقد اندرس فليس له طالب ولا مدرس . قال نعم واندرس معه الدين ، فأكبرت هذا الجواب وكبر شأن الرجل في نفسي لانني كنت شديد العناية بكتب الاخلاق ولا سيما احياء العلوم وانني أذكر هنا ما وصل اليه علمي ولخصته في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار إثر وفاته (١) وأقفي عليها بفصل كتبه لي تلميذه النقيب السيد عبد الباسط

(١) قد استفدت بعض ذلك أولا من تلميذه محمود افندي الكجيل الطرابلسي ثم من غيره ولا سيما من كلفتهما ان يكتبنا لي ما يعلمان فيما يلي

فتح الله رحمه الله وفصل آخر كتبه تلميذه الامير شكيب حفظه الله
 نص ما كتبه في النار (ص ٤٦٢) من المجلد الثامن معطوفا على الكلام في عمله في أوربة
 وبعد الاخفاق في ذلك العمل السري ، دون ذلك الهدي النبوي ، ألقى
 عصا السير في بيروت أعظم ثغور سورية وأقربها من العمران ، فأقبل عليه أهل
 العقل والفضل ، وأرباب الذكاء والنبيل ، يستفيضون منه غيث سماء الحكمة ، ويتلقون
 هدي الحكماء والأئمة ، فكانت داره مدرسة عامة يؤمها الاذكياء وعشاق المعارف ،
 من جميع الملل والطوائف ، ومما كان يقرأ عليه فيها السيرة النبوية ، على صاحبها
 أفضل الصلاة والتحية ، و كان يقرأ التفسير في الجامع الكبير وفي جامع الباشورة
 لا يلتزم فيه كتابا ، وإنما يقرأ في المصحف ، ويلقي ما يفيض الله على قلبه وكان الناس
 يقبلون على درسه إقبالا لم يعرف في تلك البلاد لاحد من قبله ، حتى حسد النصارى
 عليه المسلمين ، فكانوا ينسلون اليه زرافات ووحدانا ، ويقفون بباب المسجد يمدون
 أعناقهم ، ويشخصون بأبصارهم ، ويصيخون بأذانهم ، لعلهم يلتقطون شيئا من تلك
 الدرر . ثم إنهم استأذنه في دخول المسجد والجلوس في ناحية من حلقه الدرس
 فؤذن لهم « فأجره حتى يسمع كلام الله »

وفي أول سنة ١٣٠٣ دعي إلى التدريس في المدرسة السلطانية لاحتيا اللغة
 والدين فيها فلبى ولم يكن في المدرسة من العلوم العربية الامبادى ، النحو والصرف
 وما تسميه الترك « علم حال » وهو ما يلقن للولدان من أحكام العبادات . فلما
 دخل المدرسة أدخلها في طور جديد كما كان شأنه في عامة أعماله : يدخل في العمل
 مرهوسا فيكون في الواقع رئيسا . ذئك انه أصلح إدارتها بالاتفاق مع مديرها ،
 ووضع قانونا جديداً (بروجرام) للدروس وزاد في العلوم التوحيد ومعاملات
 الفقه والتاريخ الاسلامي والمنطق والعاني والانشاء ، زادها لنفسه فكان هو الذي
 يدرسها حتى كانت دروسه تستغرق عامة النهار . وكانت دروسه كلها للتلاميذ
 على نحو ما ذكر في رسالة التوحيد « أمالي مختلفة تتغير بتغير طبقاتهم ... في
 أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله » الامعاملات الفقهه فكان يقرأ
 فيه مجلة الاحكام العدلية ، التي يحكم بها في المحاكم العثمانية . وكان يكلف تلاميذ الانشاء

حفظ شيء من نهج البلاغة وديوان الحامسة والالفاظ الكتابية ويشرحه لهم. وكان له هم عظيم وعناية تامة بملاحظة آداب التلاميذ في المدرسة (١) حتى انه كان يزورها ليلا لأجل ذلك وقد تخرج على يديه نابتة هي الآن تخدم البلاد بغيرها واستقامتها، وعرفتها ونباها، ثم انه في سيرته كان مريبا للجماهير الذين يترددون عليه، فقد كان يجلس اليه السني والشيعي والفرزي والنصراني واليهودي فيوسع صدره للجميع، ويعامل كل واحد بالأدب الذي يليق به، لا يؤذي جاساء، ولا يغمط فضل مذاكر ولا مناظر، على أنه لم يكن يقول غير ما يعتقد سواء كان القول في الدين أو في العلم أو في العادات والامور الاجتماعية، فكان رضي الله عنه نسخة كاملة من رجال سلفنا في التسامح والتساهل وجمع الكلمة واحترام العلم وأهله كما وصف في كتاب (الاسلام والنصرانية) وقد أدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته لاسيما في الخطابة الارتجالية التي لم يكونوا يعمدون بها

وكان هناك يشتغل بالتأليف فقد نقل إلى العربية رسالة الرد على الدهريين أو المقابلة بين الايمان والكفر في العمران التي كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية. وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بدیع الزمان الهمداني. وقد أقبل الناس على هذه الكتب وانتفعوا بها حتى انها طبعت مرارا. وكان يكتب المقالات النافعة في الجرائد وستشر ما عثرنا عليه منها في تاريخه (٢) ولم يكتب بهذا الاصلاح المعنوي بل كان يسعى لدى الحكومة في اصلاح البلاد الاداري فوضع في ذلك لائحة قدمها للوالي وستشرها في تاريخه أيضا (٣) وكتب لائحة أخرى في الاصلاح الديني وقع عليها بعض الوجباء وقدمت بواسطة الوالي الى السلطان (٤) وكان قد جال في أرجاء الولاية واختبرها ثم الاختبار اه ما نشرناه في المنار

(١) اخبرني محمود ابي الكحيل انه لما طبع ديوان الميناني الطرابايسي في تلك الاثناء أرسلت اليه نسخة منه فرآه الاستاذ بيده فأخذه منه فوقع نظره على بيت يصف فيه الردف بقوله: لا يرتقى الا لتصب سلما * قامت وجهه وألقاه بعيدا قولا: أمثلك ينظر في هذا،

(٢) راجع الفصل الرابع ص ٣٤٢ من الطبعة الثانية للجزء الثاني (المنشآت)

(٣) راجع ص ٥٢٦ منه (٤) ص ٥٠٥ منه وهذه هي الاولى

سيرة الاستاذ الامام في بيروت

بقلم تلميذه وخريجه النابغة المصلح السيد عبد الباسط فتح الله رحمه الله تعالى

لما غلقت أبواب الهند دون « العروة الوثقى » وفات بذلك جل الغرض من تحريرها ونشرها عاد الاستاذ الامام الى بيروت التي كان اختارها داراً لاقامته مدة بعده عن الوطن، واتخذ له بيتاً في ضاحيتها طلباً لنقي الهواء، واجتنباً للمجامع التي قد تذهب بسلامة الوحدة وراحتها من غير جدوى. إلا ان بعد المقر لم يمنع نور العلم من الانتشار، كما ان العزلة لم تحبس نشر الفضل عن التفتيح في ارجاء الاقطار، بل كان منزله في بعده عن مدار الحركة، وارتفاعه عن مجالات القوم، أشبه بالمنائر تنصب في أعالي الاطراف، فيهتدي بشعاعها الساري ويطمئن اليها الوافد الحيران.

أن رحمه الله بيروت وهي تتمخض بمجھيض النهضة العلمية الاسلامية التي كان ألقاها اليها مدحت باشا إذ أسس فيها جمعية المقاصد الخيرية بيدي مريده النبيه رائف باشا (متصرف بيروت لتلك العهد) فأنشأت الجمعية مدارس للذكور والانات في كل حي من أحياء المدينة، ثم سمت بها الهمة بدافع الحاجة الى انشاء مدرسة عالية داخلية، فافتحت « المدرسة السلطانية »، و كان ذلك بعد نكبة مدحت باشا وأيام ولاية حمدي باشا — وحمدي باشا هو الذي مديده لمساعدة الحامل على الوضع فمجل لها الاجهاض.

ودرى بمقدم الاستاذ الامام نفر من أعضاء تلك الجمعية النبهاء فأقبلوا عليه ففهم عقب فضله، وبهرم نور علمه وعقله. واذ كانوا في حاجة الى أستاذ يدرس في المدرسة «السلطانية» بعض العلوم الدينية والعربية على طريقة تلامم روح العصر الذي يفيض على الطالب باستيعاب معلومات جمة في أوقات وجيزة، ذكروا له حاجتهم ورغبوا اليه أن يتسلى عن غربته بخدمة مليه هو أعرف الناس بجليل فائدتها. فغلب دعوتهم ودخل المدرسة في مبتدأ سنتها الثالثة عام ١٣٠٣ هـ. ولم يكن يدرس

فيها من تلك العلوم الابدائي والنحو والصرف مع شيء من فقه العبادات وقوانين الدولة، فوضع جدولاً جديداً للتدريس أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي، وذلك للصف الاول والثاني حتى لقد كانت تستغرق دروسه في بعض الايام ساعات النهار بتمامه . ومن الغريب ان نشاطه في آخر درس لم يكن يقل عن نشاطه في الدرس الاول، بل كان يرى في تزايد ما تناقص النهار، وكانت دروسه كلها على نحو ما ذكره في مقدمة رسالة التوحيد وأماله يلقبها على الصفوف كل بحسب حاله واستعداده «في أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يعهد تداوله» ماعدا فقه المعاملات فانه كان يقرأ فيه كتاب (مجلة الاحكام العدلية)

ولما تفتت أذهان التلامذة وارتقت مداركهم قرأ لهم في علم الكلام قسماً من اشارات ابن سينا وفي المنطق «كتاب التهذيب» واستمر على الاملاء في التاريخ والمعاني . وجرى في الانشاء على شرح ما يستظهره التلامذة من كتاب الالفاظ الكتابية «ونهج البلاغة» و «ديوان الحماسة»

لم تمض على هذا المنوال الشهور الاولى من السنة حتى دخلت المدرسة في طور جديد لم تك تعرفه من قبل، وما كان إدراكه في تلك البرهة اليسيرة لأحد من عمدتها بالحسبان : كان يجد التلامذة المدرسة حبساً يقضون عامهم في توقع الانفراج وتمني الانطلاق، وكانت لا تمضي الايام الاولى من السنة المدرسية التي تستغرق عادة في تنظيم الصفوف وترتيب المضامع واعداد اللوازم وتاتي أيام العمل، إلا رافقتها السآمة تبدو على النواصي والمثل يتولى النفوس . وما كان يحظر لأحد أن ينظر في أسباب ذلك أو يبحث له عن دواء ، بل كان يظن أن هذه الحال هي من لوازم المدارس الداخلية ومن مقتضى طبيعتها .

دخل الاستاذ الامام رحمه الله المدرسة معلماً ولكن نفعه لم ينحصر في التعليم كاشمس تطلع مضئمة ولكن نفعها الحنفي في العوالم الحية وتأثيرها في انتظام الكون باسره لو دريت أجل وأعظم — جال جولة في مناحي الادارة المدرسية وطرق التلامي، فوقف على نواقصها وصعابها فاشتملها بنظر حكيمته فاكمل الاولى وذلل

الثانية، وصارت المدرسة وكأنها غير المدرسة، وأصبح علمها وكأنه غير علمها في مدة من الزمن لم يأنف التصور حصول مثل ذلك في مثلها .

خالط مدير المدرسة ومعلميها وكانت همهم تقف عند القيام بالوظيفة قيما آليا ، وأنظارهم تنقطع لدى الغاية القريبة من ضبط حياة التلامذة ومحفيزهم أشياء من قواعد العلم الخالفة . فسا بهمهم الى أفق أعلى من التربية الاخلاقية ، ورمى بانظارهم الى غرض أنبل من مآثر العلم في ترويض النفس البشرية ، فأعظموا إذ ذاك شرف مهنتهم، وجدوا في إدراك ما لذم من كمالاتها، وما لبثوا أن حمدوا سرامهم، وقد تبدلت سامة تلامذتهم بهجة بدت علي وجوههم ، وقام فيهم النشاط والرغبة في العمل ، مقام الملل منه والكسل ، وغدا الاستاذ وهو لا يخرج من درس ، إلا ليدخل في مذاكرة أو بحث . والمعلمون والتلامذة حافون من حوله يلتقطون منثور درره، ويجنون طيب ثمره . وهو يتلقاهم بمحياطق، وصدور رحب، متنزلا في محادثتهم الى متناول عقولهم، متلفنا في ارشادهم وتفهمهم، حتى تغلق حبه في خلايا قلوبهم، وصاروا يتلذذون برؤيته في غدوه ورواحه وخطراته فيما بينهم . اللهم إلا كسلان او شرس . فان برق لحظاته كان يخطف ابصارهم ، ورعد زواجره يرعد فرائصهم ويخالج افئدتهم، وبدا لتلك الفراس انفضة ازاهر دونها نور الربيع . وتفتحت اكمامها عن نثر يزري بينات الحجار، وشعر دون منظومه فلاند العقيان، مع صحة في المبادي، ونبالة في المقاصد، وتبيؤ لخدمة الملة ، ورغبة في عمل الخير، مما اعظم العقلاء الفضل فيه لصاحبه، وان تميز اكفاف البصائر من العيظ .

ولما انقضت السنة المدرسية وجرى الاحتفال بختامها قام احد الادباء وساله على مسمع من المحتفلين وكانوا زهاء الالف أن يخطبهم في موضوع يختاره، فدهش الناس لهذه الجرأة ولم يسبق لهم عهد بسماع الارتجال، في مقام لا يقف فيه واقف إلا بعد المبالغة في الاستحضار والاستعداد، ولكن وقفة الاستاذ الامام على ما حفه الله به من السكينة وجلالة الهيئة، أزالته وحدها تلك الدهشة، واندفع تخوض في موضوع جليل يمكن أن يبر عنه بمثل هذه الكلمات « علة تأخر الشرق مع وجود بعض الاسباب لتقدمه في الظاهر »

فاستغرق كلامه من الوقت ساعة ونيقا حتى اختتمته مخافة الاملال بالاطالة
وسامعوه يودون لولم يسكت ذلك النهار .

ومما يذكره بعض تلامذته من صفات نفسه العظيمة انه لما توفيت زوجه
الاولى وتركت له بنت نفاس وليس في بيته أنثى تقوم باعبائه، وهو في دار غربة ،
رمي بمحنة ، ووضعي نكبة ، أصابه غم قطعه عن التدريس أياما ، وأكبر الاصحاب مصابه
واضطربت له المدرسة ، فلما استأنف الحضور تحير التلامذة كيف يقابلونه ، وبأبي
لسان يعزونه ويخاطبونه ، فما هو إلا وقد دخل عليهم فسلم وجلس والسكر مطرقون
منصتون ، لا يدرون ماذا يقولون ولا ما يصنعون ؟ فبادرهم بقوله أظن ان النوبة نوبة
الانشاء ، فلجلجت الالسنه ولم تبين ، فخل عقدها بقوله اكتبوا وأملئ عليهم :
تمزج فان الصبر بالجر أجمل وليس على ريب الزمان معول

حتى أتى على آخر القصيدة ثم أنشأ بشرحها على عادته في مثل ذلك الدرس ،
فأدرك التلامذة انه يلقي عليهم في صورة الدرس المعتاد ، درساً أبعد مرعى وأسمى
غاية في الحكمة العمالية والاخلاق .

هذا وكانت له غيره على المدرسة لا يعرف قدرها إلا المخلصون ، فكان اذا اتفق له
أن مر بها ليلا لا يفادها دون أن يدخلها ويتفقد شؤونها ، حتى لم يطق البعد عنها ،
فترك منزله في « برج أبي حيدر » ونزل منزلا يقرب منها في « زقاق البلاط » يسهل
عليه اتيانها المرة بعد المرة وفي الاوقات المختلفة ، حسبما تقتضيه ساعات الدروس
غير ان ارادة الله الانتقامية في هذه الامة لم تثنأ أن ينمقد لعملة الفجرة
المرجوة ، إذ ان إزهار المدرسة وفلاحها أشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال
« العسكرية » على مديرها (١) الذي صار له بفضل الاستاذ وحكمة تديره من النبالة
ولسان الصدق في الناس ، مالم يرضه له أولئك الاوغاد ، فسعوا به فبدلوه بآخر
تبأيل اللطافة بالخشونة ، والحضافة بالرعونة ، وجاء خلفه فغير وبدل واضطرب نظام
المدرسة فضات نهجها القويم وغايتها المثلى ، وغلت يد الجمعية عن العمل ، وفارق

(١) هو الاستاذ المرحوم الشيخ أحمد عباس رحمهما الله ، والظاهر أن أولئك

الرجال من مبغضي العرب من الترك . . .

المدرسة معناها الرسوم فيما تقدم ، فاستقال الاستاذ وقد اصبح العمل ضرباً من العبث ، وفي غضون ذلك جاء نياً تبدل الوزارة النوبارية بالرياضية ، وتلاه بعد قليل صدور الاذن الخديوي له بالعود الى دياره المصرية .

هذا ما يتعلق من سيرته في بيروت بالمدرسة الساطانية ، وأما بقية اوقاته فلم تكن تذهب سدى :

لما ظهر من فضله مآظهم ، واشتهر من علمه وعمله ما اشتهر ، تسابق الناس الى معرفته ، وتنافس العقلاء من اهل العلم والوجاهة والادب والنباهة في خطبة مودته ، وسأله الكيسون ان يجعل لهم حظاً من الفائدة فاجاب سؤلهم ، وخصص ثلاث ليال من الاسبوع يفسر لهم فيها آيات من القرآن الكريم في جامع الباشورة على مثل منهاجه (الخير) في الازهر ، هذا عداء عصر يات رمضان من كل سنة ، فنسل الناس الى استماع درسه من كل حذب ، ولم يرض النباه من المسيحين ان يفوتهم ذلك الحظ العظيم ، فكان يقف فريق منهم في باب الجامع الدمري على مقربة من حلقة الاستاذ ، ولكن ازدحام الحاقق في الداخل وضوضاء السوق في الخارج كانت تحول دون مشتاهم من الاستماع ، فشكوا اليه ضيق صدورهم من ذلك واستأذوا ان يقفوا لدى الباب من داخل المسجد فأذن لهم . وكذلك تقطروا أفواجا لاستماع درس المجلة (١) وفيهم الشاب عن طوق التلذذة ، وصاحب الاشغال التي لا تسمح له بالانتظام في سلك المدرسة ، ولا تسمح قوائنها بقبوله ، ولكنهم الحوا حتى رخص لهم في حضور الدرس في الايام المعينة فقط ، ومنهم من حضر درس التوحيد أيضاً .

وأما بيته فكان كدرسة مطلقة تأوى اليه الفئة المتنورة من كل ملة ، فكثيرا ما كنت ترى طلاب الفوائد وفيهم من نعت بالعلامة يقيدون في دفاترهم شوارد الحقائق ، ويدونون في صحفهم أو ابد الدقائق ، التي كانت تأتي على لسان الاستاذ في غضون الحديث ، وفي ليالي رمضان كان يستقرى ، خصيصاً له من تلاميذه (٢) السيرة النبوية على مسعس الزائرين مدة ساعة من بعد العشاء ، ابتعاداً عن الاعو الذي يقضي فيه التمسحرون ساعات الليل حتى السحور ، وقرأ في بعض الايام لطائفة

من طلبة العلم درساً في المنطق: وقرأ أيضاً لتلميذ له (١) بعضاً من « قسم الكلام » من كتاب التهذيب

وما خلا من أوقاته عن شغل في تدريس، أو حديث في مؤانسة جليس، كان يملؤه إما بكتابة الفصول المتنوعة التي كانت تدعو إليها المناسبات الزمنية، أو ملاحظاته الحكمية، ومن تلك الفصول ما تربو قيمته في النفع على كثير من المجلدات، وفي ثمرات الفنون غير واحد منها (٢) وإما بتأليف تمس إليه حاجة طلاب العلم وروام الأدب، أو يرى فيه فائدة للدين

فترجم أثناء إقامته في بيروت « رسالة الرد على مذهب الدهريين » لوليه الحميم الحكيم السيد جمال الدين الأفغاني وصدرها بمجمل من سيرته، وشرح « نهج البلاغة » لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومقامات بدیع الزمان الهمذاني، وكتب رسالة مسهبة في اصلاح التعليم الديني وجهها الى المشيخة الاسلامية عند ما بلغه عزم الدولة على شيء من ذلك (٣) هذا عدا عن الاجوبة والرسائل الخصوصية التي ما كانت تخلو من فائدة عمومية أو شخصية

وقد رحل خلال تلك المدة الى بيت المقدس ودمشق الشام وبعلبك وطرابلس وتيجول في انحاء لبنان وهو كيفما رحل وأينا حل ينتهز الفرصة لنفع الخلق عامة، مولياً وجهه شطر غرضه السامي النبيل من نشر العلم الصحيح ونصرة الدين المين، ورفعته المسلمين.

وهو وان لم ينج في بيروت من أذى المشاعين إلا انه كان يحبها، ويتوسم الخير في ناس من أهلها. وان أثر فضله فيها لا ينمحي ما تواصلت عقول تدرك الحق، وتعاظمت قلوب تحس بحسن الصنيع.

جزاه الله أحسن ما عمل بمنه وكرمه اه

(١) هذا التلميذ هو الكاتب لهذا الفصل نفسه أيضاً رحمه الله

(٢) بينا في حاشية سابقة مكان هذه المقالات في الجزء الثاني من هذا التاريخ

(٣) بينا في حاشية سابقة مكانها في فصل الواح من مذكراته في الجزء الثاني أيضاً

نبذة ثانية من سيرته في بيروت

بقلم تلميذه ومريده أمير البيان الامير شكيب ارسلان

منذ حداثة سني كنت أقرأ الجرائد . ولما حدثت الحادثة العرابية سنة ١٨٨٢ بمصر كنت ابن اثنتي عشرة سنة فكنت أتبع وقائها، وأحرق عند ضرب الانكاز للاسكندرية ونزولهم وتقدمهم في القطر المصري ، وأحسب حساب بقائهم فيه . وعند ما انتهت الفتنة وشرعوا في محاكمة الذين حاكمهم ونفوسهم الى خارج القطر ، قرأت في أخبار المحاكمات نص يمين قيل انها من انشاء الشيخ محمد عبده . وكانت هذه أول مرة سمعت فيها هذا الاسم ، أما نص اليمين فرأيت فيه أسلوبا عاليا غير الذي كنت أعهده، ولم أكن يومئذ بالذي يقدر أن يعرف مزايا الانشاء ولكني كنت أميز منها العالي من النازل بمحض الشعور ، فوقع في نفسي شيء من هذه اليمين، ورأيت ان منشئها الشيخ محمد عبده ليس كغيره من المنشئين الذين نعرفهم . ثم نفي العرابيون الى خارج القطر سنة ١٨٨٣ فورد منهم بيروت الشيخ محمد عبده و ابراهيم افندي اللقاني وعدد من ضباط الجيش المصري أحفظ من أسماءهم مصطفى بك عبدالرحيم وأحمد بك عبدالغفار وحسن بك جاد ومحمد بك ازمر وخضر بك وغابت عني أسماء الباقين وكلهم بين أميرالاي وقائمقام وقائد ألف . وكنت في ذلك الوقت أحصل العلم في مدرسة الحكمة . ولما دخلت سنة ١٨٨٥ قرأت في مجلة الطبيب التي كان ينشئها الشيخ ابراهيم اليازجي والدكتوران بشاره ززل و خليل سعادة خبر صدور جريدة في باريس اسمها « العروة الوثقى » من قلم السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده . وكنت بدأت أسمع باسم الافغاني وكانوا يقولون ان أديب اسحاق هو من أخذوا عنه ، وفي هاتيك السنة توفي أديب اسحاق واهتز عالم الاذب لموته، وكنا أصبحنا يومئذ في المدرسة مفرمين بأخبار الكتاب والشعراء والادباء لايهمنا شيء أكثر من هذا، فكنا نرى الدنيا كلها نظما وثرأ ، وكان كل ما يخرج عن الانشاء

والشعر والادب لانكاد تقيم له وزنا . فلما سمعنا ان اديب اسحاق كان يغترف من بحر الافغاني صرنا في شوق زائد الى معرفة الافغاني نفسه والى معرفة تلميذه ورفيقه الشيخ محمد عبده .

ولم تمض أشهر حتى سمعنا ان الشيخ محمد عبده عاد من باريز الى بيروت . وكان أهل الفضل في سورية بدأوا يعرفون قدره ، وكثر تردد الناس عليه ولهجمهم بذكره ، ومرة زارنا في المدرسة الاستاذ الشيخ سعيد الشرتوتي صاحب أقرب الموارد فسألته عنه فقال لي : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فيه . فازداد تشوقنا الى معرفته . وفي أواخر سنة ١٨٨٦ جرت حفلة بمدرسة الحكمة كان الاستاذ الشيخ محمد عبده من جملة المدعوين اليها . فهذه أول مرة شاهدته فيها ، وبعد ذلك شاهدته في احتفال آخر السنة بالمدرسة الكلية الامر يكانية، وكان معه الشيخ عبد القادر افندي القباني صاحب جريدة « ثمرات الغنوم » وأحد أعيان بيروت المشار اليهم بالبنان ، وكان صديقا للاستاذ الامام . وكنت أعرفه فقدمني الى الاستاذ وسلمت عليه فظهر لي انه كان يعرف اسمي لاني أنا لذلك المهدي كنت أنظم وأتر، وصارت لي قصائد منشورة في الجرائد، فأتذكر انه قال لي : « أنت ستكون من أحسن الشعراء » فأخذنا من ذلك الوقت نزور الشيخ الى منزله . وكان يسكن في حي زقاق البلاط قريبا من منازل آل حماده وآل القباني ، ويسمر كل ليلة في دار الحاج محيي الدين حماده رئيس البلدية وعميد بيروت في وقته ، فكنا نحن وكثيرون نقصد السمر هناك لسماع أحاديث الاستاذ . وقد انطوى أكثر من كانوا ينتابون ذلك المجلس من الاعيان والفضلاء ، ولم يبق منهم الى اليوم فيما أعلم سوى الوجيه الكبير الفاضل الجليل الشيخ عبد القادر افندي القباني والفاضل الاديب الشيخ محمد البابا بيدي . وزارنا المرحوم الاستاذ في منزلنا بالجليل وأعرف الى والدي رحمه الله وسر والدي كثيرا بمعرفته ، وقدره وقدره ، وصار لا ينزل مرة الى بيروت الا يزوره . وكان الشيخ أيضا مجل والدي كثيرا وقال للاستاذ الشرتوتي عنه : انه أعقل من رأيت من أمراء الجبل . ولما توفي والدي الى رحمة ربه في أواخر سنة ١٨٨٧ كان الشيخ من أشد الناس عليه حزنا ولنا مؤاساة ومؤازرة

وكان الشيخ رحمه الله يقرأ التوحيد والفقته في المدرسة السلطانية في بيروت. فحضرت عليه أنا والمرحوم أخي نسيب درس مجلة الاحكام العدلية، وأما تلاميذه في التوحيد فأذكر منهم أخاه حموده عبده الذي كان نبياً وكان الشيخ يتوسم فيه الخير والسيد عبد الباسط فتح الله الذي هو من انبغ خريجي الاستاذ الامام. وأجل من أخرجته بيروت في هذا العصر وكل منهما قد لقي ربه .

وكانت فائدة مقام الشيخ ببيروت عظيمة لأهل سورية فانه مامضت مدة إلا وقد أصبح منزله بصورة دائمة تقريباً غاصاً بالزائرين الذين كانوا يقصدون إلى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضراته، والالتقاط من درره ، وصار للناس ولوع به ، فكنت تراهم يحفظون من كلامه ويقلدونه في لفظه، ويتابعونه في رأيه، وان كثيراً من الافكار والمبادئ، والالفاظ والجل السائدة الآن في بر الشام هي من بقايا آثار مجالس الشيخ محمد عبده ، لاشك في ذلك وان كان الآن قد خفي أصابها ، وانطوت نسبتها (١)

وأجمع السوريون على إجلاله والولوع به إجماعاً لم يقع مثله لأحد ، فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء يزدحم حول ذلك التهل العذب، وكان هو بسعة عقله وعلو إدراكه وإحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم، كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم ، ونظراً لكثرة ترددي عليه أقول اني أعلم من

(١) ما يدل على قول الامبرشكيب هذا ما حدثني به الاستاذ الامام قال : ألقيت مرة خطاباً في حفلة عامة جمعت موضوعه (الم اسماء كلمة الله للإيجاد) فخافني بهد زمن قسيس سوري من المعلمين في إحدى المدارس بمقالة لحس فيها ذلك الخطاب وقال أرجو ان تصح لي هذه المقالة فاني اريد نشرها فصحتها له وحذفت منها عنوانها الذي هو (الم اسماء كلمة الله للإيجاد) وقالت له اختر لنفسك عنواناً غير هذا ، قال هذا عنوان عظيم لا يمكن تغييره، قالت اذاً لا آذن لك بنشر المقالة فانها كلها من كلامي وقد صححت لك ما أخطأت فيه من نقله، واستبقيت لنفسى هذه الكلمة فلم تطب نفسي بالسماح لك بها فان لم ترض بذلك فما انا بالذي يسمح لك بشيء من المقالة قال رضيت

هذا الامر ما لا يعلمه غيري، فطالما لقيت بمجلس الاستاذ اصناف الملل والنحل وهي تفهم منه وهو يفهم منها ، وتجلت لي هذه المسئلة (عظمة الفلسفة) بين العلوم وكيف انها تسهل فهم كل شيء، ومزية الادمغة التي حشوها الحكمة وطرارها التصوف، وظهرت لي محاسن الانظار الشاملة التي أبقها اوسع وأعلى من سائر الآفاق . فقد كان يجتمع بحضرته علماء السنة ومجهدو الشيعة وعقال الدرور ، والى جانبهم اساقفة النصارى وأخبارهم من كل فريق منهم ، وكاتوا يرون التردد عليه أمراً طبيعياً ، ويجدون فيه مرجعاً عاماً

ثم انه لم تكن تلك المجالس تخلو من المباحثات الدينية ، ومن الخوض في أمور كل هؤلاء الناس مختلفون فيها ، وكان الشيخ يجول فيها، ويأخذ ويعطي ويشرح ويوضح على عادته ، وينتهي الامر بأن الجميع يكونون على وفاق، وان كل فئة منهم ترى أن الشيخ قد فهم ما أرادت وانها هي قد فهمت ما أراد

وأغرب من هذا ان ذلك المجلس لم يكن يخلو من الملاحدة والمعطلة الذين كانوا يقصدون إلى مجلس الاستاذ ليمسموا اقواله في الالهيات والاديان ، ويروا ما عنده في الخالق والخلوق وأشباه هذه المباحث، فكان الاستاذ يناظرهم بكل توددة ويحل لهم المشكلات التي كانوا اذا سألوا عنها غيره من العلماء اعجزهم الجواب عنها ، فكنت تراهم منصتين اليه حيارى امامه، لا يدرون ماذا يقولون، مع انهم يكونون قبل حضورهم في مجلسه قد آلوا انهم يعجزونه كما اعجزوا غيره . وبالاختصار لم اعلم احداً تمكن من ان يبدي امامه في باب الجحود أكثر من اعتراض او اعتراضين، ثم لم يابث ان وقف حاره في العقبة ، وخرج من حضرة الشيخ إما راجعاً الى الايمان بالغيب، او باقياً على جحوده مع الاعتراف بالمعجز عن الاخذ والرد مع هذا الرباني المنقطع النظر

ومن اسرار عبقرية الشيخ في العلم والادب انه كان يتجنب كل التجنب انتقاص مذهب من المذاهب او عقيدة من العقائد التي اصحابها من عمار مجلسه وان كانوا مخالفين له في العقيدة ، وكان من الكياسة وحسن الخالقة بحيث لا يسمع منه احد من هؤلاء كبة واحدة تسوءه او تشير الى تخنئة مذهبه ، او اظهار ما في

الإسلام أو ما في مذهب أهل السنة والجماعة من الفضل عليه . ولكنه من المحقق
 أن جميع عمار ذلك المجلس كانوا لا يخرجون منه الا وفي انفسهم إما ميل اكيد
 للإسلام ، وإما تقدير عظيم لمزايا الدين الاسلامي — برغم الاعتقاد بغيره
 وقد طال عجبني من هذا الامر حتى لم املك نفسي ان كاشفت الاستاذ
 حرة بما لحظته من هذا التأثير، فضحك رحمه الله كثيراً الى ان بدت نواجزه، وعلم
 اني ادركت هذا السر وقال لي : نعم وأنا ايضا اشعر بما تشعرون به ، فقد قلت له «مالي ارى
 كثيرين من المسيحيين الذين اعرفهم معجبين اشد المعجب بملتهم، ومحتقرين للإسلام في
 انفسهم، قد عادوا بعد ان عاشروك يذكرون الإسلام باجلال لم يكونوا يذكرونه به
 من قبل ، ومنهم من إخاله قد تحول مسلماً في ضميره ولو لم يعلن ذلك؟» (١)
 فالشيخ قدس الله روحه لم يكن يتعمد لا تصريحا ولا تلويحاً ان يظهر
 لغير المسلمين من زواره وسامره شيئاً من فضائل الإسلام او من خصائص القرآن (٢)
 بل كان يتنكب طريق الجدل معهم ، والتعرض لأي شيء يؤخذ منه الرد عليهم ،
 وانما كان يقول ما يعلم من القضايا التي يستل عنها ، ويفيض في شرح القوامض
 وحل المشكلات بالطريقة التي لم يهدوا مثلها والتي عمدتها الفلسفة الاسلامية ،
 فكان مجموع كلامه يؤثر فيهم ، ويعلي مقام الإسلام في نظرهم ، ويربهم انهم لم
 يكونوا يعرفون عن الإسلام شيئاً تقريباً ، والحقيقة انهم كانوا يتصورون الإسلام
 بالصورة التي تركتها في اذهانهم كتب الافرنج من تأليف الفئة التعصبية وهي
 الكتب التي لم يكونوا يقرءون غيرها في مدارسهم في هذا الموضوع ، وكانوا اذا
 اختلطوا مع المسلمين لم يجدوا منهم الا عامياً جاهلاً، او شيخاً جامداً لا يعرف من
 الإسلام الا قشوره ، فكانوا يظنون ان الإسلام هو هذا ، ويقيسونه على الذين
 مثل فيهم ممن لم يعرفوا سواهم ولم يحتكوا بغيرهم .

وربما وجد في البلاد فقهاء وعلماء اجلة من المسلمين ولكنه كان يغلب
 عليهم الجود احياناً، وكان منهم من يخشى العامة فلا يتجرأ على تخطئة خرافات

(١) اظن اننا ان من هؤلاء الشيخ سعيد الشرتوني وسأ نشر من مکتوباته ما يشعر
 بذلك ولا سيما تقريره لرسالة التوحيد (٢) بل كان يتعمد ألا يظهره وهو يقصده

الحشوية عانا ، وأكثرهم لم يكن له اختلاط بالمسيحيين ولا وقوف على احوالهم ،
 واذا راجعه احد من هؤلاء في شيء لم يكن إلا لاستفتائه في مسألة من مسائل
 الحقوق أو المعاملات الدنيوية . فالعشرة بين الفريقين كانت محدودة جداً ، ودائرة
 الاختلاط كانت ضيقة ، والجمود كان غالباً على علماء الاسلام هؤلاء ، والمباديء
 الحشوية كانت مستفيضة فيهم

على مثل هذه الحالة قدم الشيخ محمد عبده الى بيروت وظهر فضله وسطمت
 شمسها ، فاختلط به اداء المسيحيين وعلمائهم ورؤسائهم فرأوا منه غير من عرفوا
 الى ذلك العهد ، وبعد أن كانوا يرون في الاسلام شيخاً معماً قصير أمد الفكر ، او
 بالكثير فقيها جامداً متورعاً ، صاروا يرون فيه بحسب تمثيل الاستاذ الامام اياه
 فقيهاً نيراً وفيلسوفاً كبيراً واجتماعياً محنكاً ، وهناك شاهدوا الاسلام كما كان
 عليه مثل الغزالي او كما كان عليه ابن رشد وكما كانت عليه تلك الطبقة العليا

وكما أن المسيحيين في سورية شاهدوا من الشيخ علماً مسلماً لم يهدوا نظيره ،
 كذلك المسلمون أنفسهم على اختلاف طبقاتهم كانوا مقربين بفضله ، موفزين لقدره ،
 وكان ناشئتهم معترفين بان هذا الاسلوب أسلوب لم يعرفوه من قبل . وقد كان
 الاستاذ يجلب من علماء سورية بنوع خاص الاستاذ الشيخ حسين الجسر الطرابلسي
 رحمه الله لانه كان عالماً مفكراً واسع النظر مهتماً بالجمع بين الشريعة والاوزاع
 العصرية ، وطالما سمعت من فمه اثناء على الاستاذ الجسر كما ان الاستاذ الجسر كان
 معجباً جداً بالشيخ محمد عبده معترفاً بعمق ريته . وقد ذكر لي ذلك إحدى المرار ، ولم
 يأخذ عليه إلا شيئاً من حدة المزاج . فقد كان الشيخ يومئذ لم يتجاوز الثامنة
 والثلاثين من العمر ، وكان من أصله عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، مرهف
 الاحساس ، فربما جرى لسانه بسائق التأثير بما لم يكن يجري به لو لم يكن متأثراً
 وفي سنة ١٨٨٩ ذهبت الى دمشق وكنت في السنة التاسعة عشرة من العمر
 فحضرت مجلس مفتي الشام العلامة الشيخ محمد الديني في أثناء الكلام جرى
 ذكر الشيخ محمد عبده وكان المفتي يعرفه فأثنى عليه كثيراً وقال مامعناه انه مع

لعلم الوافر متصف بالكياسة والرفقة، جامع بين أدب النفس وأدب الدرر ، يشبه في هذا أكابر علماء الشام واستانبول

وقد زار الشيخ إذ هو في بيروت كثيراً من حواضر سورية ومدنها كدمشق وطرابلس وبعليك وصيدا والقدس وغيرها وكان أينما حل معززاً مبعجلاً محفوداً محفوفاً بالمستفيدين . وكانت أخلاقه تسير جنباً إلى جنب مع معارفه، فكان مثلاً تعلم مع العمل، ولم يقدر أحد مع كثرة اختلاطه بالناس أن يجد في شيء من أعماله مضعفاً أو معجزاً ، أو يلحظ منه ما يخل بالوقار أو الكرامة أو الحشمة ، بل كان له من الهيبة والجلالة ما لم يكن إلا للكبار الشيوخ من المعمرين مع انه كان شاباً . ولم تكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة عن سمة علمه فقط ، بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة من العلم القرون بالطهارة ، ومن الذكاء الزدان بالعفة ، ومن الفصاحة التحلية بالاحتشام والورع ، فكان التناسب في خصاله تاماً، وكان عظيماً من كل جهة . ولقد كان المحتاطون به بصورة دائمة عدداً لا يكاد لا يحصى من كل نحوائف، ولم أعلم أحداً من جميعهم قدر أن يقول فيه كلمة سوء ، أو أن ينتقد منه نقولاً أو عملاً يخل بالكمال، وهو لا يكاد يوجد وحده إلا في وقت النوم . فأما في سائر أوقاته فقد كان محاطاً بالزائرين . فالذين طعنوا فيه إن كانوا طعنوا عن جهالة دون عمد أو عن نفاق لم يتبينوه فسأحهم الله ، وإن كانوا طعنوا عن حسد أو شتان حنهم على القول بغير علم أو بما لا يمتدنون فحسبهم الله .

وقد سمعت في تلك الأيام بعض أناس يجرون بمدائحهم للشيخ لكنهم لم يكونوا يضمنون في أخلاقه ولا في دينه ولا في أدبه ، وغاية ما كان ينسب إلى الشيخ من العيوب وجل من لا عيب فيه هو الحدة فقط ، وهو عيب أستاذة السيد جمال الدين فقط . وقد كان أهل من بيروت وأهله هي كريمة الحاج سعد حامده أخي الحاج محي الدين حامده فكانت صفاته بهذا البيت تحمل في المنافسات والخصامات السياسية المحلية على الذب عنه بفصاحته وقوة حجته ، مع اعتقاده التام بنزاهة مقصده ، فكان يتحمل بسبب هذه النصرة لهم شظراً من إصرر العداوة وتوابعها . وكان بعض الساخطين من أجل ذلك يقولون مالم الشيخ وللتدخل في هذه الامور التي لاتعنيننا الا نحن أهل

بيروت فكان الاولى به أن يبقى فوق هذه الاحزاب؟ ولم يكن أحد يزيد في انتقاده على كلمة انه جاد المزاج، وكان والذي يقول لي انه لم يجد فيه إلا عيباً واحداً وهو ان لسانه حريف اذا غلب عليه الانفعال.

ومن غرائب مزاياه انه كان مع تلك المهابة التي فيه، وذلك الشمم الذي يتجلى من جميع نواحيه، من أرق خلق الله طبعاً، وأعظمهم وداعة وتواضعاً، وأحلام عشرة، وأحبهم للفكاهة، وأطربهم للنكتة، وكان للنكات والنوادر من مجلسه نصيب وافر. وكان للطرائف واللطائف من محاضرته حظ سافر، ولكنه لم يكن يشوب تلك الفكاهات كامة بدئية ولا لفظة ينبو عنها المجلس، ولا قصة يشتمز ذوترية حسنة من سماعها. فقد كان جلال الاستاذ لا يفارق مجلسه أبداً، وكان وقاره يرفرف على أحاديثه دائماً فهو نادٍ زاهر إن عرف النكتة او النادرة فلم يعرف قط اللغو ولا اللهو. وكان أحد أصدقائه الاجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسوءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقرز من سماع ذلك ومراراً صرح أمامي باشمئزازه من هذه العادة السيئة، التي تغلب على بعض الاسنة. فكان في هذا الامر كثير الاستحسان لطريقة الدرور الذين كان العلامة فانديك الامر بكاني الكبير يقول عنهم: تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة. وكان المرحوم الاستاذ يستحسن جداً هذه المزية فيهم، ويعجب بأدبهم في مجالسهم حتى آداب العوام منهم (١)

وكان الشيخ بسيط نوع المعيشة يكره السرف والترف إلا انه كان سخي النفس كثير البر، ينفق ما بيده ولا يعرف للمال قيعة. وكان يعد سباط الاكل في محل الاستقبال ويدعو أي من حضر اليه، وكان يحب السخاء الدائم والسماحة الفطرية بدون تأنيق ولا تصنع. وكان والده يرسل اليه ما يلزم لمعيشته فلم يحتاج

(١) ذكرت في حاشية قريية انه غاظ في الانكار على محمود كحيل من تلاميذ المدرسة أن رأى معه ديوان شعر فيه بيت في وصف الردف وألناه بسيدا كالفنر

في أثناء وجوده في بيروت إلى شيء ولا ضاقت ذات يده ولا مرة، وكان يوازن موازنة تامة بين الراتب الذي يأتمه من أبيه وبين نفقاته فلا يجد بودجة أحسن انتظاما من بودجته، ولذلك لم تكن تجده عائلا أبداً (١) وكان يصدق على الفقراء ولا يرد سائلا، ومن مزاياه أنه كان لا يقبل من أحد شيئاً من شدة انفته، إلا الهدايا التافهة من خالص أصحابه لا غير

وكان من السياسة والكياسة بالمقام الأعلى فلا تجده زائر ولا عشيره إلا راضياً، ولم تكن تحمله شدة الالفة على أطراح التكاف فقد كان يقوم حتى لتلاميذه ومريديه، ودخلت عليه مرة وكان عنده المرحوم منح بك الصلاح فتمثل واقفا لي فقال منح بك: ما ظننت الشيخ يقف لك. فقال له: أنا لست ممن يقول اذا وقعت الالفة، ارتفعت الكلفة

ولم يكن يطرأ على بيروت احد من معارفه او من الاعيان المشهورين إلا وقام بسنة السلام عليه. وقد يجله ويحتفي به ولو كان مخالفا له في العقيدة، ولم اجده احتفل بأحد أكثر من احتفاله بعباس افندي البهاء رئيس البابية مع ان الطريقة البابية هي غير ما يعتقد الشيخ وهي الطريقة التي رد عليها استاذ السيد جمال الدين رداً شديداً، ولكنه كان يكرم في عباس افندي العلم والفضل والنبل والاخلاق العالية (٢) وكان عباس افندي يقابله بالمثل، وكان ينصف الناس كثيراً ولا يبغض احداً شيئاً من اشياءه، حتى انه ذكر لي مرة ما يجده في نفسه من انصاف غيره حتى من أعدائه وقال لي: اني لأحسد نفسي على هذا الانصاف

(١) ذكر لي رحمه الله ان أحد أصحابه المصريين توفي والده في بيروت فجاءه. يقول انه ليس معه ما يجزه به بما يليق بكرامته وكان مع الاستاذ راتبه الشهري كله فبذله له كله. ولكنه ما علم أن جاءته حوالة برقية بماغ من المال أكثر منه كان ديناً له على بعض أصحابه قبل توفي وكان بمطل به ويسوف

(٢) قد علمت من الاستاذ الامام انه يمتد ان عباس افندي مسلم محب للاصلاح كما كان يظهر له عملاً بقاعدة النقية ولا سيما عند أمناله الباطنية. وكان عباس افندي يهلي مع الاستاذ الجمعة والجماعة وأسفل هذا في موضعه من هذا التاريخ

ومن بعد ان صرت من مريديه لم اسمع منه كلمة تقريظ لشيء من اعماله او اقواله، بل كان اذا استحسنت يسكت، واذا استهجن يذبه ويوقظ. وكان الواحد منا يتجنب اقل التسامح مع نفسه خوفا من توبيخه لشدة ما كنا نوقره ونهابه، وكان من اصدقائه الدكتور ابراهيم صافي وهذا لم يكن طبيبا شهيرا بحسب بل كان فاضلا صدوقا حسن العشرة، فكان الاستاذ يزوره في الاحياء وكنت اصحبه في هذه الزيارات، ففي إحدى المراسل له صافي عن ادباء العصر ومن الجملة عن اديب اسحاق. فقال له عن اديب: هو كاتب لا بأس به، فقال له صافي: والشيخ ابراهيم اليازجي؟ فقال الشيخ: هو اكتب من اديب بكثير بل هو اكتب المعاصرين فيما ارى، ثم التفت صافي نحوي مبتسما وقال للشيخ: والامير شكيب؟ فقال له: سيصير في المستقبل، فقال له صافي: اتراه سيكون مثل الشيخ ابراهيم اليازجي؟ قال له الشيخ: لا، قال له صافي: الا يقدر ان يكون مثل ابراهيم اليازجي؟ فتبسم الشيخ وقل: مرادي انه سيصير احسن احسن. وهذه هي المرة الوحيدة التي صرح امامي بتفاؤله بحقي

وقد نقلت هذه الجملة لانها من كتابته لا ادعاء بائي جئت مصداقها، وكان في غالب الاحيان يبصرني عيوني ويذهبني الى تلاف في قصوري شأن الاب مع ابنائه ولم يكن يرغبني في الشعر، وقد مدحته بقصائده هي في ديواني الاول المسمى «بالباكورة» وقدمت الباكورة نفسها له وصدرتها بقصيدة مقدمة له (١) ولم يظهر لي الاهتمام بشيء من ذلك، ولم يستمطر عارضي في الشعر إلا مرة واحدة وهي انه كان صديقا للمرحوم عبد الله باشا فكري وكان عبد الله شاعرا ناثرا فأشار إلي بأن اهديه الباكورة واصحبها بأبيات بمدح عبد الله باشا، فنظمت ابيات رائية بعثت بها اليه مع الديوان، فاجابني عليها من البحر والقافية بقصيدة رنانة مثبتة في ديوانه

وكان يقول: لا اقول الشعر، وانما كان يعترف بالقصيدة الهائية التي قد وهو في السجن على اثر الحادثة العراقية وأنا احفظ منها:

(١) ما نشر بعض هذه النصائدا وكأها في الجزء الرابع المتعم لهذا التاريخ ان شاء الله

مجدي بمجد بلادي كت أطلبه وشيمة الحر تاني خفض اهليه
ومنها:

احاول الصعب في رأي فادركه ولا حسام ولا رمح ارويه
وانما الفكر يعني نفس صاحبه عن الجيوش اذا صحت مباديه
ولم تكن رغبته عن نظم الشعر بالتي تمنعه من الاهتزاز لجيد الشعر والافتتان
بمقرر القريض . فقد كان يكاد يسكر من قراءة هذه الطبقة العالية من الشعر
لا سيما الشعر الجاهلي ، وقرأ ديوان الحماسة في اثناء مقامه ببيروت فحفظ منه
الكثير ، وكان يبلغ من شغف حسه ورقة شعوره انه يعيد البيت الواحد مراراً
متعددة وهو يتنم به ولا يرتوي منه ، وأحسبه قد فعل في نفسه سحر البيان
ماتعله الالخان في السامع ، او بنت الخان في الكارع (١) ولشدهما كان يعجبه :

اذا هزه في عظم قرن تهلت نواجد أفواه المنايا الضواحك
وقوله :

فخالط ملس الصخر لم يكدهح الصفا به كدحة والموت خزيان ينظر
وكان يعجبه في التشبيب قوله

(١) أما دقة فهمه وذوقه للشعر فهو من دقة فهمه للعربية واتقانه لا دأها .
وأما تأثيره في نفسه فهو من رقة شعورها وصحة وجدانها . وكنت في بعض المناسبات
أذكر له بعض الشعر المؤثر في النفس فلم أراه أهز لشيء هزته لقول بثينة إذ نعى
إليها جميل . ذلك ان جميلاً لما حضره الموت أعطى رجلاً حلة له وأمره بأن
يسافر الى ربيع بثينة ويقف عند بيتها وينشد :

صرح النعي وما كنى بجميل وثوى بمصر نواء غير ققول
فلما سمعته بثينة لم تملك نفسها أن خرجت حاسرة وقالت له : يا هذا إن كنت
كاذباً فقد فضحتني ، وإن كنت صادقاً فقد قتلتني . فأخرج لما الحلة فانصرفت وهي تقول
وان سلوي عن جميل لساعة من الدهر لا حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر اذا مت بأساء الحياة ولينا
فأهز الاستاذ لسامع هذا التز والنظم وتغير وجهه ثم صار يردد البيت الثاني
مراراً وفاقاً لما روى الامير عنه

وقربن اسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعا كلما قسن أصبعا

وقوله :

أحقا عباد الله أن لست ذاهبا ولا جائيا إلا على رقيب
وكان يفضل محمود سامي على جميع الشعراء المعاصرين ويقرنه الى كبار
المتقدمين . وهو الذي دلنا على شعره وعرفنا بمقامه واطلعنا على « الوسيلة
الادبية » للمرصفي فحفظنا ما فيها من قصائد محمود سامي باشا البارودي . وأما
مراسلاتي الشعرية مع محمود سامي فيما بعد أيام كان منفياً بسيلان ثم بعد العفو
عنه وإيابه الى مصر فقد كانت بعد أن برح الاستاذ بيروت وعاد الى مصر .
وكان محمود سامي من أحب الناس الى قلب الشيخ فلم أعلم أنه كان يذكر أحداً
من أقرانه بعاطفة حب كما كان يذكر محمود سامي رحمهما الله وكان يتأوه على غربته
ونكبته مالا يتأوهه على أحد . ومرة كنا راجعين من إحدى السهرات في القاهرة
وذلك سنة ١٨٩٠ عند مازرته إلى مصر فمررنا امام دار فيحاء فوقف ونظر
اليها وقال لي : هذا بيت صاحبنا، وتهد عند هذه الكلمة تنهداً عميقاً فسألته :
دار من هي ؟ فقال : محمود سامي . وكأنه تنهد لاعلى غربته محمود سامي فقط بل
على غربته مصر كلها واحتلال الاجنبي لها

وكان أيضاً شديد الحب لعبدالله باشا فكري لا يفتأ يذكر محامده ومثنته
دينه ورقة أخلاقه ويحفظ من شعره ويمجبه منه قوله خطابا للخديو توفيق
ولو شئت كانت لي زروع وأنعم ومال به الآمال أقتادها قسراً
ولكنها نفس فدتك أيبة تعاف الدنيا ان ترميها مرا
وكان يروي ان محمود سامي وعبدالله فكري كانا يتساجلان في إحدى
السهرات فكان أحدهما يقول شطراً والآخر يقول الثاني فقال أحدهما
وترى الحجر في السماء كأنها
رز تبهر في طريق الحجر

وطريق الحجر طريق واسعة معروفة بمصر . وكان يروي لنا نوادر كثيرة
عن مصر وأدبائها وعلمائها ورجالها حتى صرنا كأننا في مصر ونحن بعد !

نعرف مصر. ومن كان الشيخ يجلهم كثيراً الاستاذ الشيخ محمد المهدي العباسي شيخ الازهر فقد كان ينوه باستقامته وعدم محاباته في الدين. وكان يجل الشيخ حسونة النواوي والشيخ حسن الطويل ولكنه بالاجمال كان يكره طريقة التعليم بالازهر ويذكر مساوئها ويتأوه من اشتغال الطلبة هناك بما يسمونه « بعلم الكراس » وما أكثره في وجوه الاحتمالات، وفي تأويل العبارات، مما أضاع أوقات الدارسين فيما لا فائدة فيه. وبقي ينوح دلي حالة التعليم في الازهر ويندب جمود العلماء الذين فيه وعمق طريقتهم الى أن صار هو صاحب نفوذ في مشيخة الجامع فأصلح من ذلك بقدر استطاعته.

ولما زرتة في مصر سنة ١٨٩٠ قال لرفيقه وخليفه الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان بان يذهب معي الى كبار مشايخ الازهر كالشيخ العباسي والشيخ الانبائي والشيخ عبدالقادر الرافي حتى أتعرف اليهم فلما زرنا الشيخ الانبائي وجدنا عنده عالماً اسمه الشيخ الطواهري. فلما ذكر الشيخ عبدالكريم اسمي وقال اني من جبل لبنان قال هذا الشيخ المسمى بالطواهري: وأن جبل لبنان هذا؟ أفي الغرب؟ فأجابه الشيخ عبدالكريم: بل في سورية. فأما أنا فكنت أصعق من الدهشة لجبل هذا الشيخ إلى هذا الحد معرفة البلدان. ولما رجعنا الى البيت أخبرنا الاستاذ بما وقع فقال لنا: نعم وهذا الشيخ الطواهري الذي يجهل أن جبل لبنان هو من علماء الطبقة الاولى

وهذا وأشباهه كان من أسباب نفي الشيخ على جمود العلماء الازهرين ونفورهم من العلوم العصرية وحصرهم جميع قواهم العقلية في دروس معلومة يجهلون كل شيء، سواها حتى أصبحوا كأنهم ليسوا من أهل هذا العصر بل ليسوا من أهل هذه الدنيا، وما جعله يتأوه على فراش موته رحمه الله ويقول

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآثم

ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العامم

وكان جاء الى بيروت الشيخ ابراهيم التادلي من أكبر علماء المغرب أدى فريضة الحج أولاً ومن الحجاز جاء إلى القدس ثم الى بيروت حينما كان الاستاذ الامام فيها، فذهب الاستاذ للسلام عليه وذهبنا معه أنا والاستاذ الشرتوني. ولم تكن

لي ألفة يومئذ بلهجة إخواننا المغاربة فقلما فهمت شيئاً مما كان الشيخ التادلي يقوله .
وانما روى لنا الشيخ بعد انصرافه مآل حديثه ، فقال لنا انه عالم على الطريقة
المهودة بالازهر والتي ابتلي بها العالم الاسلامي كله فالازهر والاموي والزيتونة
وجامع القرويين كلها واحد ، ولم يفهم منه شيئاً جديداً الا انه أعجبه من كلامه شيء
واحد وهو ان الشيخ سأله : هل في المغرب اليوم مؤلفون في أصناف العلوم
المختلفة ؟ فأجابه التادلي : نعم يوجد مؤلفون في المغرب إلا أن العلم لا ينتشر بقوة
التأليف وانما ينتشر بقوة التدريس وكثرة المذاكر الشفوية . فاستاذنا وجد
هذا المعنى صحيحاً وقال لنا : هذا أحسن ماسمعته من كلامه . وثاني يوم قيل
لنا ان الشيخ التادلي يريد أن يقرأ درسا في الجامع العمري الكبير فأقبلت الناس
لسماع درس هذا الشيخ المغربي الكبير وذهبنا نحن مع الاستاذ ونحن نرجو أن
نسمع شيئاً جديداً أو بحثاً عائداً الى أمراض العالم الاسلامي الحاضر وطرق علاجها مما هو
مقدم على كل شيء ، فاذا بدرس الشيخ التادلي في البسملة وما تضمنته من العلوم والمعارف
والفنون مما هو مستفيض في كتب علماء ائمة رحمهم الله وما لا شك في ان الاستاذ التادلي أتقنه
انتقانا تاماً ولكنه دل بهذا على انه غير مطلع على أحوال زمانه ولا مكانه ولا عارف
بما يوجبه الدين والعلم على العالم المسلم في مثل هذه الاحوال
وكان الشيخ محمد عبده يسمي هذا النوع حفظاً لاعلماء ويقول ان العلم الذي
لا يمتزج بالنفس ولا يصير جزءاً من أجزائها لا ينبغي أن يسمى علماً
وقد روى عنه الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » مجلساً جرى بينه وبين
جمال الدين أفندي شيخ الاسلام في الأستانة من جملة ما ذكر الشيخ فيه ان
أمثال هؤلاء لا يقال لهم علماء وانما يقال لهم حفاظ لانهم يحفظون عن ظهر القلب
أصولاً وقواعد لا يطبقون منها شيئاً على فروغها وقال أيضاً : انه جاء في تعريف بعض
السادة المالكية للعالم انه الخبير بامور قومه المطلع على أحوال زمنه . اهـ
[المؤلف] أرسل الي الامير بعد هذا فصلاً آخر في شؤون الاستاذ الامام وآرائه
وأصدقائه وتلاميذه ولا سيما سعد زغلول باشا قد استفاد أكثره من زيارته لمصر
التي أشار اليها آنفاً وسنذكره في موضعه اللائق به من هذا التاريخ . وموضوعنا
في هذا المقصد بيان سيرة الامام وعمله في سورية .

خاتمة هذا المقصد

(في سعيه لاقناع الدولة العثمانية بالاصلاح وتعميم التعليم الديني مع التربية)

ذكرنا في أول هذا المقصد ما كنا نشرناه في المنار - ثم ما أشار اليه أخونا المرحوم السيد عبد الباسط في فصله الذي نشرناه بعده - من ان الاستاذ الامام كتب الى شيخ الاسلام في الاستانة لائحة في الاصلاح والتعليم الديني ، وأشرنا في الحاشية الى نشرنا لهذه اللائحة في الجزء الثاني وهو (جزء المنشآت) ومن قرأ هذه اللائحة علم منها أن الاستاذ الامام قد تجدد له أمل كبير في اصلاح الدولة العثمانية من طريق التربية والتعليم الذي لا يمكن الاصلاح إلا بسلوكة ، ورأى انه وصف لها ماهي مستهدفة له من الخطر على مقام الخلافة ، ووحدة الأمة ، وقوة الدولة ، وبفسو الجهل في المسلمين وفساد الاخلاق ، وسريان شبهات الاحقاد ، ثم بنفوذ الاجانب وتأثير المدارس التبشيرية في البلاد ، حتى انه خص المدارس العسكرية بالذكر فقال (ص ٥٠٨ طبعة ثانية) ولهذا رأينا كثيرا ممن قرأوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهالاً بعبقائه ، منكبين على الشهوات ، وسفاسف المذات ، لا يخشون الله في سر ولا في جهر ، ولا يراعون له حكماً في خير ولا في شر ، وانحط بهم ذلك الى الكلب في الكسب . الخ

ان الاستاذ لم يكتب لائحة واحدة في ذلك بل لأثنتين ، كان سبب الاولى منها صدور ارادة سلطانية لشيخ الاسلام بأن يؤلف لجنة تحت رياسته لاصلاح جداول الدروس في المدارس الاسلامية وتقويتها حتى تكون كافلة لجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقيهم ضروريات الدين الاسلامي وتربيتهم بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب ، فقررص أحسن الله جزاءه هذه السانحة لتعليم الدولة ماهي في أشد الحاجة اليه من هذا الاصلاح ، التي لا يرحى لها بدونه بقاء ، فبين لشيوخ الاسلام ولجته سوء حال المسلمين في هذا العصر ، وما استحوذ عليهم من الفساد والجهل ، ووصف سوء حال المكاتب والمدارس الاسلامية في بلاد الدولة ، وسوء حال رجال العلم والدين فيها ،

وطبقات الناس الثلاثة ، وما ينبغي من اصلاح التعليم الديني لكل طبقة منها — وهو التعليم الابتدائي لطبقة العامة ، والتعليم الوسط للطبقة المرشحة للوظائف ، والتعليم العالي لطبقة المعلمين والمرشدين . وبين العلوم الدينية التي تدرس لهذه الطبقة ووسائلها وتاريخ الاسلام والتاريخ العام وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى — وهو علم واحد . ومنها فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل — وأولها تفسير القرآن . وقال فيه مانصه :

« وهو أهم ما يحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا ارجاعهم اليه . وما لم تفرغ صحبته أعماق قلوبهم ، وتززل هزته رواسي طباعهم ، فالامل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقاة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم . والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي . فعمل ذلك من أجود الوسائل لفهمه . فان احتاج الى وسيلة أخرى فأولها مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف وتفسير القمي النيسابوري ومن أخذ طريقهما^(١) »

وبعد الكلام في التعليم والعلوم وأسلوب التدريس وغرضه عقد فصلا للاصلاح الديني والدعاة والمرشدين الذين يناط بهم وما يشترط فيهم . وخص بالذكر خطب المساجد . ثم بحث في الكتب التي يجب أن توضع للطبقتين الاولى والثانية . وفي الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية فيين كل ذلك بمباراة مقننة وأما اللائحة الثانية فقد قدمها الى والي بيروت بعد تقديم الاولى الى شيخ الاسلام وموضوعها (اصلاح القطر السوري) وقد بين فيها وجه الحاجة اليه بالاجمال ثم بالتفصيل . فبدأ ببيان حالة أهالي جبل لبنان وطوائفه من الموارنة وهم الاكثرون ثم الدروز ثم المسلمون السنيون والشيعة . وفقى على ذلك بفصل (١) راجع مقاله لنا في تفسير الكشاف وما أجاب به عن اعتراضا عليه في ص ٣٩٠

آخر في بيان حال أهالي ولايتي بيروت وسورية . فتكلم عن الطوائف النصرانية وميولهم الى الدول الاوربية ، وعن طائفة النصيرية فالشيعة الامامية خدروز حوران فالمسلمين من أهل السنة ، فأهل البادية من الاعراب المتنقلة . وبين علاقة كل منهم بالدولة وما يجب من الاصلاح والتعليم في الجميع الذي تستقر به سلطتها في البلاد وتتي غوائل التعليم الاجنبي وما يتبعه من النفوذ السياسي ولو ان الدولة العثمانية عقلت تلك النصح واتبعتها لصلحت البلاد، وارتقى اعباد ، وثبت سلطانها فيها ، وانتقل نفوذها الديني والسياسي الى غيرها . ولكن رجال الدين فيها كغيرها لم يكونوا يعقلون معنى لاصلاح مدني يستمد من القرآن ومن السنة الصحيحة ومن مراعاة سنن الله تعالى في الاجتماع البشري وأما رجال السياسة والادارة فكانوا مفتونين بتقليد الافرنج في معيشتهم وحريتهم وظواهر نظمهم ، وانما كانوا يقلدونها فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال ، وتقليد الاصاغر ، لمن فوقهم من الاكابر ، كالازياء والعادات وشكل المدارس والدواوين ، وقد ترجوا أكثر القوانين ولم يقيموا شيئاً منها ، وأما العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يقيموا منها شيئاً . وقد آل الامر بجهل الفريقين الى زوال هذه الدولة من الوجود ، والمحاصرة دولة الترك المغرورين في امارة صغيرة فقيرة ضعيفة

وكان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يخاف على الدولة هذه العاقبة السوء ويخاف سوء تأثير زوالها في البلاد الاسلامية، وقد صرح في بعض مقالات المرورة الوثيقة بأن خروج القطر المصري من حظيرة سيادتها يفضي الى ذهاب غيره ، وأشار في هذه اللائحة الى الخطر عليها من جهة فساد التربية وإهمال التعليم الديني وحلول التعليم التبشيري محله والنفوذ الاجنبي ، وقد سأله سنة ١٣١٥ عن رأيه فيها فقال انها سياج المسلمين في الجملة فيجب عليهم أن يعملوا لانفسهم قبل زوال هذا السياج الضعيف وإلا صاروا أسوأ حالا من اليهود ، فان اليهود قد تعوضوا من فقد الملك والدولة بما أوتوا من الثروة العظيمة الخ وسأعود الى بيان هذا في الموضوع

اللائق به من هذا التاريخ

الفصل السادس

في الطور الثالث من حياته العمالية (وهو ما عمله بعد عودته من منفاه الى وطنه)

(وفيه مقدمة وثمانية مقاصد وخاتمة ، أما المقدمة ففي عودته الى وطنه وسميه للعمل الاصلاحى فيه : وأما المقاصد فهي (١) عمله في القضاء الاهلي (٢) عمله في اصلاح الازهر (٣) عمله في افتاء الديار المصرية (٤) عمله في اصلاح المحاكم الشرعية (٥) عمله في الاوقاف (٦) عمله في مجلس شورى القوانين (٧) عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية (٨) عمله في جمعية احياء العلوم العربية — وأما الخاتمة ففي دفاعه عن الاسلام وتدرسه في الازهر ولا سيما تفسيره للقرآن ،)

المقدمة :

ذكرنا في مقدمة الفصل الخامس انه حكم عليه بالنفي من القطر المصري وملحقاته مدة ثلاث سنين وأن ذلك كان في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ (الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٢٨٢) ومقتضى هذا ان مدة نفيه قد انتهت في أوائل سنة ١٣٠٣ هـ — آخر سنة ١٨٨٥ م وكان في أثناء ذلك في بيروت مجدداً في عمله ، طائراً في جو أمله ، وكان أول أمله تربية نشء جديد في المدرسة السلطانية ، يوجه المستعدين منه الى ما كان ينويه من اصلاح الامة الاسلامية ، وقد كان في آخر عهده مع السيد جمال الدين في أوربة قد ضعف أمله في نجاح سياسة السيد ولا سيما بعد الاضطراب الى تعطيل جريدة العروة الوثقى وتخاذل المسلمين دون مساعدتهما الواجبة ، فقال للسيد أرى أن نترك السياسة ونذهب الى مجهل من مجاهل الارض ، لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الاذكاء السليمي الفطرة فتربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم الى مقصدنا ، فاذا أتبع لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمنحني بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح ، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح ، — فقال له السيد إنما أنت مشبب ، نحن قد شرعنا في العمل

ولا بد من المضي فيه مادامنا نرى له منفذا . أو ماهذه خلاصته من قولها .
ثم انه كان يرجو من وجوده في بلاد الدولة العثمانية أن يتمكن من اقتناع
أولي الامر فيها بما يجب عليها من اصلاح التربية والتعليم في المدارس بحسب
رأيه ، وأن يكون له عمل في ذلك اذا هم اقتنعوا بما بسطه لهم من وسائله ، وهو
ماأشرنا آنفا في خاتمة المقصد الثاني من الفصل السابق (الخامس) ولما طال الأمد ،
ولم يستجب لدعوته أحد ، واقتنع بأن الدولة العثمانية غارقة في بحار جهلها ، عاد الى وطنه
وهو يعلم ان الخديو توفيق باشا غضبان عليه كاره له ، وان الانكليز اصحاب النفوذ
الأعلى في البلاد قد ذاقوا من مرارة قلمه ، وصلوا من نار عصبية المليية والوطنية مالم
يعهدوا له نظيرا في الطعن فيهم ، واثارة العالم الاسلامي والشرقي عليهم . ولكنه
هو الشجاع الذي لا يعرف الخوف إلا من الله عز وجل .

عاد الى مصر في سنة ١٣٠٦ ولا أذكر الشهر الذي عاد فيه ، فتلقاء أصدقاؤه
ومريده بالاجلال ، والسرور والاستبشار ، إلا الجبنة منهم فانهم تجاهلوا
وجوده ، وأذكر مما سمعته منه مثلا للصدیق الشجاع ، ومثلا للصاحب الجبان ،
أما الاول فقد أخبرني رحمه الله تعالى انه كان في محطة مصر مع المحتفلين بلقاء
الخديو في عودته من الاسكندرية ، وكان معه صديقه التليد سليمان باشا أباطه ،
فرايا ان بعض الوجوه تتنكره ، والشخوص تستدبره ، فجعل سليمان باشا يمشي بجانبه
متأخراً عنه قليلا ليكون منه كالتابع مع المتبوع ، فجاءه أحد أولئك الجبنة وأسر
اليه : من هذا الذي تمشي معه متأديا ؟ ألسنت تعلم ان أفندينا غضبان عليه ؟
فأجاب رافعا صوته : ان هذا صديقنا واننا نجله لعلمه وفضله ووفائه ، ولم تكن
صداقتنا له لاجل أفندينا فنتركها لغضبه عليه .

وأما المثل الثاني فقد أخبرني أنه دخل على مختار باشا الغازي يوم العيد
لتهنئته فوجد عنده رجائين من الوجهاء الذين كانوا يعدون أنفسهم من الاصدقاء له ،
فلما رأيا داخله تغيرت وجوههما ، وامتعقت الوانهما ، واتخذوا قيام الغازي له
سببا لتوديعه والخروج من حضرته بسرعة كأنهما لم يريا الاستاذ
وقد اتخذ داراً له في شارع الشيخ ریحان بالقرب من سراي عابدين فزاره

فيها صديقه عبدالعزيز افندي سلطان الطرابلسي وسأله عن سبب اختيار هذا المكان؟ فقال: نناطح عابدين مناطحة!

هذا وانه لم يلبث أن تسابق العطاء إلى توفيق باشا يسألونه العفو عنه، وكان في مقدمتهم بعض أفراد الاسرة الخديوية كما قلت في ترجمته من المنار، وأخص بالذكر هنا الاميرة نازلي هانم البرزة السياسية المشهورة، وصاحب الدولة أحمد مختار باشا الغازي مندوب الدولة العثمانية السامي في مصر، وكذا اللورد كرومر، ولم يكن أحد من هؤلاء يعرفه قبل ذلك معرفة شخصية، ولكنهم سمعوا بفضله، فشكر لكل منهم جميله، وكان لتلميذه ومريده الوطني سعد زغلول سعي حميد في ذلك عفا الخديو عنه بشفاعه هؤلاء التي لا ترد، وهو يعلم أنه كان خصما قويا للثورة العسكرية، وانما ذنبه عنده أنه كان الروح المدبرة لنهضة الاصلاح السياسي والحركة الفكرية، وان الحكم العسكري عليه بالنفي لم يكن عادلا. ولذلك قال: ما عفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار منه بالعفو الا هذا. ذكرت في المنار أن الثقة أخبر الاستاذ الامام بهذا، وأقول الآن ان هذا الثقة هو الشيخ البسيوني مفتي نالعية الخديوية في ذلك العهد - رحمه الله تعالى

فعم ان توفيق باشا كان يعرف رأي الشيخ في التربية اللبية والوطنية، وفيما يجب أن يكون عليه شكل الحكومة، لان السيد جمال الدين هو الواضع له لذلك، وكان الخديو توفيق قد انتظم في سلك حزبه الوطني الذي أسسه لقلب نظام الحكومة في مصر، وعاهده على تنفيذ النظام الجديد الذي أرشدا اليه متى صار الامر بيده، ولكنه لم يلبث بعد توليته ان نفاه من القطر المصري ونفى خليفته الشيخ محمد عبده من القاهرة الى قريته لامله بانه هو الذي يتم ما بدأ به أستاذه كما تقدم في ترجمة السيد من هذا الجزء. ليس من الغريب غير المؤلف أن يكره الامير المستبد تقييد سلطانه، بل هو اليهود من المستبدين في جميع الامم، وانما الغريب أن يسلب الاجانب سلطة أمير من الامراء ويجعلون امارته صورية يسخرونها في سياستهم ومقاصدهم حتى الضارة بها كما يشاؤون، ثم يكون مع هذا راضيا بهذه الامارة الصورية تحت ظلمهم مفضلا اياها على تكوين بها قوة في أمته لارجاء في رفع السلطة عنها وعنه الاجنبية بدونها

الشيخ محمد عبده كان يريد تربية الامة المصرية وتكوينها حتى تكون مصدر الادارة والسياسة في بلادها ، ويكون أميرها ورئيسها ممثلاً لها أشرف تمثيل ، والخديو توفيق باشا كان يكره هذا ويحول دون تمكين الشيخ منه

كان الاستاذ الامام يجب أن يكون أستاذاً لمدرسة دار العلوم - ان لم يمكن أن يكون ناظراً لها - فلما رأى ان الوصول إلى ذلك من طريق الخديو متعذراً أراد أن يحتال لنيل ذلك من طريق العميد الانكليزي ، فكتب اللائحة الثالثة من اللوائح التي نشرناها في ضمن منشأته من الجزء الثاني (١) وقدمها إلى العميد الانكليزي (المرافق بارنج) الذي أعطى بعد ذلك لقب « لورد كرومر » وفيها من الخلاصة والكيامة ما كان يمكن عقلاً أن يقتنع به العميد لو لم يكن كاتبه والمتصدى لتنفيذه هو الشيخ محمد محرر جريدة العروة الوثقى ، وخبر هذه اللائحة سر لم يكن يعرفه أحد ، ولم أصرح به في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار ، ولكن التاريخ الصحيح يجب أن ينطق بجميع الحقائق التي لا ضرر فيها على أحد ، وما أشرت نشر هذا الجزء منه إلا لا تمكن من هذه الحرية

ولم يكن الاستاذ الامام مع هذا السعي الخفي لتنفيذ مقاصده الاصلاحية من طريق رسمي مضيئاً لآوقاته في السعي له بل كان أول ماوجه اليه همه هو السعي لاصلاح الازهر من طريق مشيخته كاسياني . ثم إنه كان يقرأ درسا في تفسير القرآن ، أخبرني بهذا الدرس في حديث داريني وبينه (في يوم الجمعة ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٣١٥) بداره إذا اقترحت عليه أن يكتب في التفسير فاعتذر بعدم عناية المسلمين بالعلم وتأويلهم للكتب كما أولوا نصوص الشرع ، وأطال في ذلك بما دونته في فاتحة الجزء الاول من تفسير القرآن ومنه قوله كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الاميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفرائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما أهم خذ أحد فيما أعلم ، مع انها كان حقها أن تكتب ، وما علمت أحداً كتب منها شيئاً خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق وكانا يراجعاني في بعض ما يكتبان ، وأما المسلمون فلا !! : : : والآن أبين أعماله في مصر مبتدئاً بعمله في القضاء الاهلي

المقصد الاول

عمله في القضاء الاهلي

كنت ان الخديو توفيق باشا كان يخاف من الشيخ محمد عبده أن ينشر أفكاره الاستقلالية في الامة بالتعليم وبالمعاشره ، فأراد أن يشغله عن ذلك فأمر بأن يعين قاضيا في المحاكم الاهلية ، وان يكون في خارج القاهرة ، فلما بلغ الخبر الاستاذ امتعض وقال انني لم أخلق لأكون قاضيا أقول حكمت على فلان بكذا. وعلى فلان بكذا ، وانما خلقت لأكون معلما ، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت. ثم رغب الى ناظر الداخلية أن يشفع له عند الامير باستبدال التدريس في مدرسة دار العلوم بالقضاء ، وقال له انني اعلم انه لا ارتقاء في التدريس وانني ارتقي في القضاء إلى أعلى درجة فيه ولكنني لأحبه ، فلم يقبل الامير هذه الشفاعة وصرح بالسبب فقال انني لأحب أن يربي لي التلاميذ على أفكاره السياسية ، فرضي بالقضاء ، وما زال يرتقى فيه الى أن بلغ أعلى درجة منه كما قال ، وهي درجة المستشار في محكمة الاستئناف

عين قاضيا في محكمة بنهايم في محكمة الزقازيق ثم في محكمة عابدين بالقاهرة ثم عين مستشاراً في محكمة الاستئناف

وقد كان قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم ، وإن شئت قلت القاضي المجتهد لا المقلد ، ذلك أنه لم يكن يحكم بظاهر عبارة القانون وتطبيق الواقع عليها بادي الرأي ، بل كان يتحرى اظهار الحق واصابة العدل في القضايا ، فن انطبقت على القانون والإعتماد إلى وسيلة أخرى ولا سيما الصلح. ومما كان يحكم فيه باجتهاده واعتقاده مسائل الربا فانه كان اذا تمذرع عليه الصلح يحكم برأس المال دون الربا ، وكأين من قضية خالف فيها القانون عمداً ، حتى وشى به بعض حساده الواقفين على ذلك وذكر شيئاً من مخالفاته هذه في تقرير طويل قدمه الى وزارة الحفانية . فانه المستشار القضائي السابق (مسترسكوت) عن حقيقة ذلك سؤالاً عادياً غير رسمي

يعد أن أطلعه على التقرير، فقال الاستاذ: هل العدل وضع لاجل القانون أم القانون وضع لاجل العدل؟ قال المستشار بل القانون وضع لاجل العدل والعدل هو المقصود بالذات. فأنشأ حينئذ يشرح له تلك القضية ويبين أنه لم يحكم فيها إلا بالعدل، فافتتح المستر سكوت وسر منه سروراً عظيماً لانه كان منصفاً عارفاً بقيمة الرجال، على ان هؤلاء الانكليز أبعد الشعوب الأوربية عن الرسوم في القضاء وأقربهم إلى اعتبار الانصاف ووجدان القاضي فيه

وقد أساء الادب بعض الاجانب مرة في الجلسة فأمر بحبس فخبس، فاضطرب قنصله الجنرال واحتج وكلم وزير الخارجية ولما وصلت الشكوى إلى نظارة الخفانية كلم المستشار القضائي الاستاذ في ذلك قائلاً إن هؤلاء القناصل ليس لهم عمل يشغاهم في مصر فهم يفترضون شيئاً مثل هذا يباحكون به الحكومة، ونحن نحب أن لا نجعل لهم سيلاً إلى القيل والقال، فذكر له الامام ما كان من ذلك الاجنبي في الجلسة من رفع الصوت وعدم التزام الادب المعروف، وقال انني مادمت جالساً على هذا الكرسي لتقرير العدل فانا لا أقصر في احترامه — أوقال — لا أقبل أن يهينه أحد إذ لا يمكن احترام القضاء إلا بذلك الخ ما قال وكان مستحسنًا عند المستشار

وقد كان لا يعتد بمعارضة الاجانب عند تنفيذ ما يصدر من الاحكام. من ذلك أن كثيراً من الفلاحين كانوا اذا حكم على أحدهم بنزع أرض من يده يلجأ إلى رجل أجنبي أو رجل يتمتع بحماية أجنبية فيعطيه الارض بعقد كاذب نكابة في خصمه فيمنع الاجنبي الحكومة من تنفيذ الحكم، أو ترفع الدعوى إلى المحكمة المختلطة فتحكم فيها. وكان من المحكوم لهم من يترك الارض للاجنبي لاعتقاده بعجزه عن انتزاعها منه في المحاكم المختلطة، ومنهم من كان يلقي بنفسه في مهاوي الدعاوي ويخسر فيها ماشاء الجهل أن يخسر، فعلى أمثال هؤلاء الاجانب كان ينفذ أحكامه بالقوة متحملاً تبعه التنفيذ، لعله بان ذلك الاجنبي المحتال لا يتجرأ على مقاضاة الحكومة في دعوى هو فيها مبطل يعجز عن اثبات دعواه

من ذلك أنه حكم مرة بنزع أرض من واضع يد وطني وردّها الى صاحب

الحق الذي ثبت له في المحكمة - فقيل له ان فيها رجلا انكليزي التابعية رفع عليها علم دولته وهو يعارض في تسليمها . فأعطى محضر المحكمة أمراً بأن يترج العلم ويخرج الرجل المدعي للملكيتها بالقوة ، فلما رأى ذلك الرجل المستأجر لمنع تنفيذ الحكم ان الامر جد، وأنه اذا لم يخرج ممثلاً أخرج مهاناً لم ير له مندوحة من الخروج . وكان في الشريعة رجل سوري محصن بحماية الدولة الفرنسية قد جعل نفسه ملتجداً للمحكوم عليهم بأمثال هذه الاحكام في مقابلة جعل يكبر بقدر كبر القضية، وكان يدخل في المحاكمات مع خصوم اللتجىء اليه حتى صار ذا ثروة عظيمة، فلما رأى أحكام هذا القاضي الذي شرف القضاء بعامتة، التي كانت عنوان علمه وعدله وقوة إرادته، ترك هذه الوسيلة الدنيئة لكسب السحت إذ صارت مدعاة خيبة وخسارة وإهانة ذلك شأنه في القضاء وقد كان فيه نسيج وحده، ولم يكن مشغولاً فيه عما خاق لاجله من تربية الامة، فقد كان يعاقب الزورين وشهداء الزور حتى ظهر كثيراً من البلاد من شرهم بعد أن استفحل وطمع سيده ، كان يستطشاهد الزور حتى يقر فيحكم عليه ويخرجه من الجلسة الى الحبس . ثم ان الحكومة أقرت عمله هذا وأدخلته في القانون بالتعديل له بعده . وكان يجتهد في الاصلاح بين أهل البيوت وذوي القربى ، وبيانغ في حفظ حقوق اليتامى فكلم من أسرة كبيرة قطعت العداوة أرحامها ، واغتالت الخصومات ثروتها ، أصلح بحكمته وأحكامه ذات بينها ، وكان مما ثبت عنده باحصاء الدعاوى السنوية ان أكثرها كان بين الاقربين ، وقد عمل في خطبة له في الجمعية الخيرية وكان مستشاراً : إن العداوة بين الناس صارت على أشدها للأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد ! أي على خلاف ما تقتضيه الفطرة السليمة ووشيجة الرحم وهداية الدين

وكان يطارد الفحش والفجور حتى كادت الزقازيق تطهر من رجس الباطل أيام كان قاضياً فيها كما طهرت من التزوير ، ذلك أنه كان يحكم بأشد العقوبة التي يسمح له القانون بها على كل بغي تبرجت في الشوارع وعلى أعين الناس حتى كاد يجعلهن من ذوات الحجاب . وقد نقل اليه عن بعض المجان هناك أنه قال مرة لبني يعرفها كيف الحال ؟ قالت زي الزفت ، واذا بقي القاضي ابو عمة

(أي ذو العامة) هنا فإنه يقطع رزقنا من هذه البلد، عايز يرجع الدنيا لزمان سيدنا

النبي، وقالت أخرى مامعناه ان النبي ظهر ثانية

أخبرني أنه كان إذا رأى أو علم بأن واحدة منهم خرجت الى الشارع متهتكة أو جلست أمام ماخورها متبرجة تغازل المارين أو تعني — أمر بعض الشرطة بسوقها الى المحكمة بذب إغراء الناس بالفسق المحظور في القانون وحكم عليها بالفرامة أو الحبس في الحال، فكان يقطن ياويلتنا بل «يادهوتنا» كيف يعرف الناس بنا إذا التزمنا مايريده هذا القاضي منا من ستر وصيانة وأدب؟

وقال لي كانت الفاجرة منهم تأتي المحكمة أولاً قبل أن يعلمن مايراد بهن متبرجة بهيئتها المنكرة فإذا سألتها ما صنعتك؟ — على سنة التحقيق — صرحت بفجورها بملء فيها، فلما عرفني صرن يجمعن الجواب مرتعدات الفرائص، فان أفصحت احداهن لم تزد على قولها: أنت عارف.

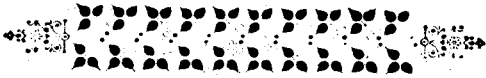
وأخبرني انه لما عين لمحكمة الزقازيق الكلية كانت قضايا العدوان والتزوير كثيرة الجأته الى أن يعقد الجلسات في المساء حتى انه كان في بعض أيام رمضان يستحضر طعام الفطور الى المحكمة فيأكل ويصلي فيها ثم يشتغل بعد العشاء بكتابة بعض الاحكام. ولما اشتهرت سيرته وأحكامه في المديرية كلها قلات القضايا واستراح من العمل، على ان صحته حسنت في المدة التي كان يكثر فيها العمل.

وقد عرف الذين يختلفون الى جلساته من الخصوم والحامين وغيرهم عادة من عاداته لم يكن هو يشعر بها وهي انه اذا ثبت عنده إجرام مجرم وأراد الحكم عليه بالعقاب كالقتل وما دونه. أمال عمامته على جبهته، فاتفق انه فعل ذلك مرة فصاح المجرم الذي علم أن سينطق بالحكم عليه «بمرضك اعدل العممة حتى أقول لك الصحيح» فضحك جميع الحاضرين ضحكة الدهشة، واشتهرت هذه الحكاية في القطر المصري كله.

وأما براعته في تحقيق القضايا وفراسته في تمييز البريء من ذي الريبة فحدث عنها ولا حرج، وقد كان مؤيداً بالوجدان الصحيح والالهام الصادق، فان كان كغيره من البشر عرضة للخطأ في رأيه فقد كاد لا يخطيء في وجدانه أو إلهامه،

٤٢٤ كلمة عالية في الارادة والاختيار ، والتقدير والابداع ، والنشوء والارتقاء

وسمعته يقول في بحث الكسب والاختيار انني كثيراً ما أنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالادانة مثلاً حتى اذا ماتت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوض كل ذلك البناء الذي كنت بنيتة في ذهني من وجوه ترجيح الادانة، وظهر لي بغتة أن المتهم بريء حتماً فأحكم بالبراءة ، وهذا يشبه قول بعض العارفين : عرفت الله بنقض العزائم، والمراد منه ان الانسان غير مستقل الارادة التي هي مناط الاختيار ، فهو مجلي لتجليات من الابداع الرباني غير منتظم في سلسلة الاسباب . وههنا بحث دقيق في إثبات القدر الموافق لمذهب التطور التدريجي في الجملة ، وهو مذهب أهل السنة . وما يعارضه من القول بالأمر الأنف (بضمين) المراد به ان كل مخلوق مبدع مستأنف وهو مذهب القدرية ، والحق أن القدر هو المطرد في البشر ، وان الأمر الأنف كالأستثناء في القانون ، وهو واقع في نفس الانسان ، وفي آيات الله للانباء ، وحجة على ان سنن النشوء والارتقاء انما تطرد في سلاسل الانواع بعد وجودها ، لا في أصل ايجادها كلها ، وقد تتعارض مع سنن غيرها مما وراء المادة الجارية فيها ، وواضع السنن ومقدرها باقدارها ، قادر على التصرف فيها ، وترجيح غيرها من السنن عليها . ولا يخلو شيء من ذلك من حكمة بالغة ، وهذا استطراد لا محل هنا لتفصيل القول فيه .



المقصد الثاني عمله في الازهر

كان أول حديث دار بيني وبين الاستاذ الامام (قدس الله روحه) في مصر الحديث في إصلاح الازهر . زرته في اليوم الثاني من وصولي إلى القاهرة بداره (في أواخر رجب سنة ١٣١٥) وبعد التحية والسلام، وما يتصل بذلك من كلام، كاشفته باعتقادي واعتقاد من أعرف من العقلاء فيه وانه بقية رجاء المسلمين في السعي للإصلاح والاضطلاع به، وأنه بلغني انه يعمل لذلك في الازهر. فأفاض في كلام نخصته بعد مغادرة المجلس في عشر مسائل . قال (١) إن إصلاح الازهر أعظم خدمة للإسلام فإن اصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم ، و (٢) ان أمامه عتبات وصعوبات من غفلة المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم ، و (٣) ان هذا الإصلاح لا يتم إلا في زمن طويل ، وانه إذا رأى حال الازهر قد صلحت قبل موته فانه يموت قريح العين ، ويرى نفسه سعيداً بل يرى نفسه ملكاً . و (٤) انه لا يرى لدخوله في الحكومة فائدة الا الاستعانة على إصلاح الازهر ، فانه لولا مكانته عند الخديو والحكومة لما كان يسمع له في الازهر كلام ولا يقبل له رأي ، و (٥) انه لم يحصل شيء من الإصلاح يذكر حتى الآن ، و (٦) انه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة في الإصلاح اغتناماً للفرصة فأشير عليه بوجوب التدرج (!!) وانه لا بد له من المسابرة وإن كان يخشى أن تضعف الفرصة بما يسمونه التدرج ... هذه ست مسائل في موضوع الازهر أطال القول فيها وانتقل منها الى المسائل الأخرى وأهمها تخطئة أذكاء المسلمين الذين يريدون خدمة الإسلام من طريق السياسة ، أي دون التربية التي توحد قوى الأمة، وإلى بأس من يعرفه من كبراء المسلمين من نهوضهم وتخطئتهم في ذلك .

وقال لي في حديث آخر ان نفسي توجهت إلى إصلاح الازهر منذ كنت مجاوراً فيه بعد التلقي عن السيد جمال الدين ، وقد شرعت في ذلك فجعل

يني وبينه ، ثم كنت أترقب الفرص فما سنحت إلا واستشرفت لها وأقبلت عليها ، حتى إذا باصدفت الموانع لويت وصبرت مترقبا فرصة أخرى . وبعد ان عدت من النبي حاولت اقناع الشيخ محمد الانبائي (شيخ الازهر) بشيء فلم يصادف قبولا . قلت له مرة هل لك أيها الاستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الازهر ؟ ووصفت له من فوائد ما شاء الله أن أصف ، فقال ان العادة لم تجر بذلك . فانتقلت به في شجون الحديث الى ذكر الشيوخ وسألته منذ كم مات الاشعوني والصبان ؟ قال منذ كذا ، قلت انهما حديثا عهد بوفاة وهذه كتبهما تقرأ بعد ان لم تجر العادة بذلك . فسكت ولم يدخل في الحديث

وقال لي مرة أخرى ان بقاء الازهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه . وانني أبذل جهد المستطیع في عمرانه فان دفعتني الصوادف الى اليأس من اصلاحه فاني لا أياس من الاصلاح الاسلامي بل أترك الحكومة وأختار افرادا من المستعدين فأريهم على طريقة التصوف التي ربيت عليها ليكونوا خلفائي في خدمة الاسلام ثم أولف كتابا في بيان حقيقة الازهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم في الوجود وأنشره باللغة العربية ولغة إفرنجية حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التي يجهاها الناس حتى من أهله

ثم انه لما اضطر الى الاستقالة من ادارة الازهر على الوجه الذي سنبينه عزم على بناء محل بجانب داره بعين شمس والسعي لاختيار نفر من الاذكياء السليمي الفطرة وتربيتهم فيه بمساعدة مؤلف هذا الكتاب وهو ما كان اقترحه على السيد جمال الدين كما تقدم

وأما بدء عمله في الازهر فقد أتيج له بعد وفاة توفيق باشا فانه لما جلس عباس باشا حلمي على كرسي الخديوية تجددت للبلاد المصرية آمال ، وتوجهت إلى أعمال ، كان الغرض منها إزالة الاحتلال ، ولو كان هذا الغرض مما ترجى إصابته يومئذ بسهام المصريين ، لكان الفقيديكون في طليعة العاملين ، لانه كما نعلم أنفذهم رأيا ، وأقوامهم عزماء ، وأخلصهم قلبا ، ولاكنه كان يعتقد بعد ذلك السعي الذي

شرحناه في الفصل السابق أن المسألة لا يمكن أن تحل بوسيلة السياسة إلا باتفاق الدول العظام وأن الرجاء في اتفاهم بميدكانيين. فأراد أن يكون حظه من حب الامير الجديد للعمل السعي في إصلاح الازهر بنفسه واقناع الامير بالسعي في إصلاح المحاكم الشرعية والاقواق لأن هذه المصالح الثلاث إسلامية محضة تشمل اصلاح التربية والتعليم واصلاح المساجد والارشاد ، واصلاح البيوت (العائلات) فاتصل بالامير وحظي عنده وكشفه برأيه فيها بأن قال له وقد رآه متبرما ضجراً من استيلاء الانكليز على جميع أعمال الحكومة : ان لدى أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة فيمكنه أن يصلح الأمة كلها باصلاحها ، وقد تركها الانكليز له لانها دينية فهم لا ينازعونه فيها الآن ، ولا يؤمن تدخلهم في شأنها اذا طال العهد وساعدت الفرص فيجب المبادرة لاصلاحها ، وذكر له كليات هذا الاصلاح . وكشف الحكومة بأمله في اصلاح الازهر بأسلوب آخر ، وجاء بما جاء به من آيات الاقناع حتى توصل الى إنشاء قانون تمهيدي للاصلاح يديره مجلس مؤلف من أكابر علماء المذاهب في الازهر ينتخبون انتخاباً وقد جعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه على انهما من قبل الحكومة لا رأي لشيخ الازهر ولا له مجلس في انتخابهما ، ولا في استبدال غيرهما بهما. وكان الشيخ محمد الانبائي الذي هو شيخ الازهر لذلك العهد مريضاً وقد كثرت شكوى الشيوخ من إدارته فعين الشيخ حسونة وكيله بعد أن أخذ عليه العهد باقامة النظام والاتفاق مع الاستاذ الامام على الاصلاح وقد أجمعت القول في الاصلاح الرسمي في ترجمته من المنار فقات

عين الشيخ حسونة وكيلاً لمشيخة الازهر ما دوننا بادارة شؤونه لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ و صدر الامر العالي بتشكيل مجلس ادارة الازهر لست خلون من رجب من تلك السنة أي في الشهر الثاني ثم حصل السعي في اقناع الشيخ الانبائي بالاستقالة فاستقال و صدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخاً للازهر في ٢ المحرم سنة ١٣١٣

كان الاستاذ الامام ، روح الله روحه في دار السلام ، يجب أن يجري الاصلاح في الازهر باقناع كبار مشايخه ورضى أهله فبدأ باستماتهم بتكثير رواتبهم

فسعى لدى المستشار المالي الاسبق لتعيين مبلغ من خزينه المالىة لمساعدة الأزهر الذي يخرج للحكومة كذا رجلا من القضاة الشرعيين والمفتين والمأذنين فأجيب الطلب وعين في ميزانية سنة ١٨٩٥ م مبلغ ألفي جنيه للأزهر على أن تصرف بنظام معلوم لا برأي شيخ الأزهر وميله على ما كان يعهد في الأزهر، مع الوعد بالزيادة على هذا المبلغ في فرصة أخرى اذا جاء بفائدة، فكان هذا حجة للفقيد على وجوب وضع قانون للترتبات في الأزهر ليكون لكل عالم حق معلوم يتناوله في وقته من غير تزلف إلى شيخ الجامع او غيره. وتلا هذا القانون قانون كساوي التشریف ومرتباتها وكان الرأي فيها من قبل لشيخ الجامع يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، فصارت تعطى لمستحقها من غير سعي ولا تزلف، فسر الشيوخ بذلك سروراً عظيماً

بعد هذا وجه الفقيد عنايته في المجلس الى نظام التدريس والامتحان وبيان وسائل العلوم ومقاصدها وجعل التدريس فيها على طريق توصل الى الغاية منها. وبعد اجتماع ومذاكرات طويلة وضع القانون لذلك واحتيج في تنفيذه الى المال فلجأ الفقيد الى أربحية الامير فصدر الامر لديوان الاوقاف بصرف ٣٣٧٤ جنيهاً للأزهر بينت مصارفها ومنها ٤٦٤ جنيهاً لانشاء دار الكتب الازهرية، ثم وضع نظام آخر لتوزيع الجرايات بالعدل

وأما نظام التدريس واختيار كتب العلوم فهو الذي أحب الاستاذ الامام رحمه الله تعالى أن يجعله برأي كبار الشيوخ ليسهل تنفيذه بالرغبة، ولا يثقل عليهم إزامهم به من جانب القوة، وليتعود أهل هذا المكان على البحث في الامور المهمة، والتعاون على ما ينفع الامة، فوضع مشروع نظام التدريس واختيار الكتب واقترح أن تؤلف لجنة من كبار الشيوخ للبحث فيها وإقرار ما يرونه نافعاً، فألفت اللجنة من أكثر من ثلاثين عالماً وجعل الشيخ سليم البشري أحد أعضاء مجلس الادارة رئيساً لها. ثم انتخب منها لجنة للبحث في كل فرع من المشروع وإبداء رأيها فيه للجنة الكبرى، وكانت هذه اللجنة مؤلفة من بضعة نفر، هم أكبر شيوخ الأزهر وضم اليهم الاستاذ الامام من قبل مجلس الادارة، وبعد أن اتمت هذه اللجنة عملها قدمته إلى اللجنة الكبرى فأقرته هذه بعد تحوير

قليل لا يذكر وكانت مشيخة الازهر قد اسندت يومئذ الى الشيخ سليم البشري الذي أوقف كل ما كان المجلس شرع فيه فأوقف أيضاً مشروع اصلاح التدريس بل كان المجلس يقرر الشيء، بالاتفاق مع رئيسه الشيخ سليم ثم انه لا ينفذه ولم يكن القصد من ذلك إلا إجباط سعي الاستاذ الامام وإبقاء القديم على حاله ، وقد كان قادراً على الالزام بالتنفيذ بطابعه رسمياً من الحكومة ولكنه لم يكن يجب أن يكون للحكومة تصرف في الازهر بل أن يبقى مستقلاً يصلح أهله برضى واقتناع وهل يبقى كذلك بعده ؟ الله اعلم والايام تظهر ما يعمل

وكان من الاصلاح الذي تم في الازهر بسعيه رحمه الله تعيين طبيب الازهر وصيدلية (أجزخانة) خاصة به في نفس الجامع وإنارة المسجد بالغاز البخاري ، وإنشاء الميضة على الاصول الصحية وتجديد مباني الصحية في الاروقة وغير ذلك مما انفصله في التاريخ ، ومن شاء أن يطالع على ذلك بالتفصيل التام ، فليرجع الى كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر) (١)

وقد انتقل الازهر بهذا الاصلاح من خلال عام ، إلى شيء من النظام ، ومن حالك الدبجور ، إلى بصيص من النور ، ولم يتم عمل من الاعمال على ما كان يجب رحمه الله تعالى . ولكن الاصلاح الحقيقي الذي كان روحاً محيياً ونوراً مبصراً فهو ما كان يليق به من دروس التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق فهذه الدروس هي التي حوت نفوساً كثيرة عن السبل المتفرقة الى سبيل الله وصراطه وهي محل الرجاء في هذا المكان اه

هذا ما أجملتاه في ترجمة الامام عقب وفاته وقد وعدنا بتفصيله في هذا الكتاب ، واننا نتجز وعدنا بتلخيص المهم من كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر - من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ الى غاية سنة ١٣٢٢) وهي مدة اشتغال الاستاذ الامام المصلح في المجلس فهو قد استقال في شهر المحرم سنة ١٣٢٣ وتوفي في شهر جمادى الاولى منها ، وان كان في هذا التفصيل تكرار لما في ذلك الاجمال

(١) هو تاريخ يبين ما كان عليه الازهر قبل الاصلاح وما صار اليه بعده صورة ومعنى وصفحاته ١٢٤ وعن النسخة منه ٤ قروش واجرة البريد قرش ويطلب من مكتبة المنارة بص

كتاب أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين

طبعت هذا الكتاب ونشرته في سنة ١٣٢٣ ولم أكتب عليه اسم مؤلفه . وأقول الآن ان الذي كتبه هو الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان صديق الاستاذ الامام وزميله في هذا العمل ، كتبه في أثناء مرض الامام بامرہ ، وقد قرأته كله عليه قبل طبعه فأقره ، وأكثرت مايسنده فيه الي « أحد أعضاء مجلس الادارة او بعض الاعضاء » يراد بالعضو فيه الاستاد الامام ومنه وهو أقله مايريد به نفسه وانني أسكت عن الاكثر وايبين الاقل في الحاشية ، ولم يكن أحد منهما يريد إظهار اسمه لان عملهما كان خالصا لوجه الله عز وجل جزاهما الله أفضل الجزاء . قال الكاتب رحمه الله

﴿ تشكيل مجلس ادارة الازهر وأسبابه ﴾

(رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي)
 في اوائل المحرم من سنة ١٣١٢ هجرية قامت قيامة أهل الفضل من العلماء على المرحوم الشيخ محمد الانبائي شيخ الجامع الازهر اذ ذلك فرفعوا العرائض الى الجناب العالي مفعمة بان شيخهم عاجز عن ادارة شؤونهم وانه خص أهل مذهبه الشافعية بنحيرات الازهر وانه قصر عليهم كساوي التشریف على غير إنصاف بين أهل مذهبه وبين بقية اهل المذاهب ، وما زالوا كذلك حتى أوقف الجناب العالي صدور الاوامر العالية بالانعام على من اختارهم الشيخ وخصهم بتلك الكساوي التشريفية وبقيت الكساوي موقوفة الى أن تغيرت الحال وفي اثنامن من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ صدر الامر العالي بتعيين الشيخ حسونة النواوي وكيلا لمشيخة الأزهر مأذونا بأن يدير شؤونه حتى يتقرر أمر جديد . ثم لم يمض الاقل من شهر حتى صدر أمر عال بتشكيل مجلس ادارة الازهر وذلك في ٧ رجب سنة ١٣١٢ وابلغ الى رئاسة مجلس النظار ، وسميت أعضاء المجلس في ذلك الامر الكريم ، فكان منهم اثنان من

موظفي الحكومة وهما الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وثلاثة من اكابر العلماء الازهريين غير الموظفين أحدهم شافعي وهو الشيخ حسن الرصفي والثاني مالكي وهو الشيخ سليم البشري والثالث حنبلي وهو الشيخ يوسف النابلسي شيخ مذهب الحنابلة اذذاك . ومجلس النظار أبلغ هذا الامر الى وكيل المشيخة وهو أعلنه للأعضاء ودعاهم الى الاجتماع أول مرة في الازهر للنظر فيما لديه فيه من الشؤون وكان أول اجتماع لهم في السادس عشر من شهر رجب المذكور وبعد هذا رؤي ان وجود شيخ للازهر بمنزل عنه لا يعلم شيئا من شؤونه ووجود وكيل هو رئيس مجلس الادارة واليه ينتهي كل شيء مما يدعو إلى توقيف سير الاعمال ، ويوجب بقاء القيل والقال ، فأوعز الى مأمور رسمي عظيم بان يحسن للشيخ الانبائي الاستقالة من منصبه ، فتردد الشيخ طويلا ثم انصاع بعد الى تلك النصائح التي اعتبرها أمراً ، وقدم استقالته الى المقام الرفيع - وكان حينئذ في الاسكندرية المصيف - وصادف ان رأس السنة الهجرية كان قد قرب فتوجه الكثير من العلماء لتأدية التهنئة بذلك الموسم وبالطبع كان فيهم الشيخ حسونة النواوي وكيل المشيخة ، فدار الكلام بصفة غير رسمية في قبول الاستقالة الانبائية وفيمن يعين شيخا للازهر بدله وبات في حكم المقرر أن يكون الشيخ الاصيل هو ذلك الوكيل

وبينا الحال كذلك في سراي رأس التين واذا بعريضة وقع عليها فوق الثلاثين وتلغراف وقع عليه عشرة ونيف كلهم من اكابر العلماء شافعيين وغير شافعيين طلبوا فيهما من الجنب العالي أن لا يقبل استقالة الشيخ الانبائي وان يقيه شيخا لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت من العلم والقدرة على ادارة الشؤون، وان لا يعين الشيخ حسونة شيخا للازهر لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت ... وقد كاد هذا الامر يقضي الى بقاء القديم على قدمه والى توقيف تعيين الشيخ حسونة لولا ان بعض العارفين بحال الازهر واهليه كان موجوداً في الاسكندرية وأشار بمراجعة هذه التوقيع التي على العريضة والتلغراف ومقابلتها بالتوقيع التي على عرائض الشكوى من الشيخ الانبائي فزوجت فاذا بعضها

موقع به على النوعين ، وهنالك تحقق الجناب العالي انه لاقيمة لمثل هذه التواقيع التي توقع على الامرين المتضادين ، وان المصلحة هي المقدمة بقطع النظر عن يضادها وان كبروا وكبروا ، فصدر الامر الكريم بقبول استقالة الشيخ الانبائي رحمه الله ولم يعبا بطلب ابقائه من اولئك الطالبين وفي اليوم الثاني من شهر المرم سنة ١٣١٣ صدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخا أصيلا على الازهر ورئيسا لمجلس ادارته ، ثم ذهب الى السراي العامة واستلم الامر وشكر ولي النعمة على ماتفضل به عليه ، ثم استفاض الامر بين علماء الازهر الموجودين في الاسكندرية فارسل بعض أصدقائه تلغرافا الى مصر أخبر فيه بأنه قد عين شيخا للازهر وانه عائد الى مصر في الغد ، فلا وربك لم يبق ولا واحد تقريبا ممن طعنوا على تعيينه في تلك العريضة وذلك التلغراف الا وقد استقبله على محطة مصر او انتظره في بيته بقنطرة عمر شاه قبل أن يصل اليه ليهنئوه بالمنصب الجديد الذي هو أحق به ممن سواه وصدقوا فيهم حدس من قال في ذلك اليوم (يوم ورود العريضة والتلغراف) ان اوائك الطاعنين سيكونون السابقين الى تهنته الشيخ الجديد في المحطة ليعرفهم بانهم كانوا أول المهنتين^{١)}

قانونه المرتبات

قلنا فيما مضى ان أول اجتمع لمجلس الادارة الذي شكل على الوجه السابق كان في السادس عشر من شهر رجب سنة ١٣١٢ ونقول انه في هذا الاجتماع الاول قرر أعضاءه خطة سيرهم وما يلزم البدء به من الاعمال وما يقدم من القوانين المحتاج اليها في الوضع ، فظهر لهم ان أول ما يهم أهل العلم هو ضبط المرتبات وتوزيعها عليهم ، وقد صادف ان نظارة المالية كانت قد وضعت في ميزانية سنة ١٨٩٥ مبلغ ألفي جنيه مصري في السنة معونة للعلماء فوق ما كان لهم فيها من قبل وذلك بمشي بعض أهل الخير^{٢)} الذين يحبون أن يتسع رزق أهل الازهر وأهله يعرفونهم بهذه

(١) ان الشيخ عبد الكريم هو الذي قال هذا لاخذ يومنا هذا الاستاذ الامام

(٢) هو الاستاذ الامام الذي أفتع المستشار المالي بذلك كما أخبرني وقال انه تمب تعبا عظيما في اخذ وفد منهم لمقابلة المستشار ايتكم بلسانهم وانما بيته لانه لم يعبر عنه بمضو مجلس الادارة

الصفات وإن أنكروها عليهم أحيانا ، واشترطت المالية أن لا تصرف هذه المعونة إلا بعد أن يوضع لصفها نظام فان وضع فيها ، وإلا أبتت معونتها عندها ، وحرّم منها أهل هذا المكان الضعفاء — كل هذا جعل البدء بوضع قانون المرتبات أمراً لازماً لا يسوغ معه تقديم غيره عليه ، فكلف المجلس بعض أعضائه بوضع مشروع لهذا القانون فوضعه ، ثم نوات الجلسات لتلاوته والتعديل والتنقيح فيه ، حتى كمل وضعه وجاء وافياً بالحاجة من معظم وجوهه ، وقدم الى هيئة الحكومة ودارت المحابرات بين الهيئة الحاكمة وبين بعض أعضاء المجلس في تفهم مواد هذا النظام الذي لم يعهد له عند الحكومة مثل حتى اقتنعت نظارة المالية بما فيه وتبين لها ان ما كان منه مخالفاً للمألوف في قوانينها المالية انما جاء طبقاً للمألوف في الازهر ومراعى فيه احكام الضرورات وهي تبيح المحظورات ، فقبلته المالية وقرره مجلس النظار وصادر الامر العالي به في اليوم السادس من احرّم سنة ١٣١٣ و٢٩ يونية سنة ١٨٩٥

ولقد ترتب على ايجاد هذا النظام ان طلبت نظارة المالية من الازهر أن يقرر درجات العلماء ويحدد الرتب لكل درجة منها ويبعث اليها بمجداول هذا الترتيب ، فاشتغل المجلس بذلك وآتمه على الوجه الاكمل فيما رآه وأرسل الجداول الى نظارة المالية فلم يسهها بعد إلا أن اقوت الامر وأمرت بصرف الالفى جنيه ، وبقي هذا المبلغ في ميزانية المالية يصرف معونة للازهر مشاهرة الى الآن ولا تظهر فائدة هذا العمل (وضع قانون المرتبات) إلا بذكر طرف مما كانت عليه الحال فيها قبل وجود هذا القانون وطرف آخر مما صارت اليه حالها بعد وضعه فلنذكر منها شيئاً وان كان إجمالياً وقليلاً لتجلى الفائدة واضحة التبيان

﴿ حال الازهر ومراتب الشيوخ قبل النظام الجديد ﴾

تنقسم مراتب الازهر الى قسمين : سنوية وهو ما يسمونه بدل الكساوي وشهرية ، ومصرفها معاً العلماء المدرسون وأولاد من يموت من العلماء . وقد كان الامر فيها بنوعيهما موكولاً الى شيخ الجامع الازهر يعطي من يشاء ويمنع من

يشاء . وكانت المرتبات السنوية تجزأ اجزاء صغيرة بحيث يمكن لشيخ الجامع أن يعطي منها نحو مائة قرش في العام او اقل، وكانت المرتبات الشهرية تمنح لأناس دون آخرين، فكان لبعضهم منها نحو ستة عشر قرشا في الشهر وكثير منهم الحرمان بالمرة، وللقليل منهم ما فوق ستائة قرش شهرياً . واذا انحل بموت احد العلماء شيء من هذين القسمين رأيت بيت شيخ الجامع غاصاً بالمتزلفين ، مزدحماً بالراجين، مملوءاً بالشاكين البائسين ، ورأيت مباشر الازهر ^(١) وهو كاتب بسيط تتماوج بين يديه الفرجيات ، ذاهبات آتبات ، كل يرجوه، وهو يعد او يصد، او يؤمل او يقنط ، وربما انتهى الامر بعد الجري والعدو بين البغالة والفجالة ^(٢) لتجزئة ذلك المنحل وضم اجزائه الى مرتبات بعض الاكابر ، وحرمان الخالين منها بالمرة. فيربص الراجون والشاكون ينتظرون موت واحد منهم لعله ينالهم من مرتبه شيء يسير

واني لأعلم ان مجالس الادارة جاء وفي العلماء من ليس له مرتب اصلا وهم كثيرون، وفيهم من له ستة عشر قرشا في الشهر لاغير، وفيهم من يمني نفسه، وفيهم من يئس ورضي بالخبز القليل ، أعرف منهم واحداً مات رحمه الله وقد عرضت عليه لفقره وعلمي بحاله بعض الشيء ، من مالي كل شهر فأبى علي ذلك، وطلب مني ان ارجو شيخ الجامع حينئذ في أن يعطيه شيئاً ولو من مرتبات صدقات الاوقاف ففعلت ورضي بما توسطت له به عند الشيخ وهو نزر قليل

هذا طرف من تلك الحل القديمة وقد تغيرت والحمد لله بالمرة بعد وضع

(١) المباشر في اصطلاحات بعض الفقهاء هو الكاتب إذ كان يوقع بالتنفيذ ويأمره وهو هنا كاتب الازهر ولما صار للازهر عدة كتاب صار رئيسهم فهو فيه بمعنى (باشكاتب) في الدواوين اه من حاشية الاصل

(٢) البغالة موضع في مصر يقيم فيه بعض العلماء منهم الشيخ سليم الشري شيخ الازهر السابق والفجالة محلة كان يقيم فيها المرحوم الشيخ الانبأى اه من الاصل

ذلك القانون اذ تقرر فيه ان المرتبات السنوية (بدل الكساوي)^(١) لا يمكن ان ينقص عن اثني عشر جنيها في العام ولا ان يزيد عن ثلاثين جنيها وثلثي جنيه ، وبينهما درجات ترتفع الواحدة عما تحتها ثلاثة جنيها (٢) وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه بالتحلاله عن يموت من العلماء ضوابط مقررة لا يتعداها أحد ، وان المرتبات الشهرية لا يمكن ان تنقص عن خمسة وسبعين قرشاً ولا ان تزيد عن ثلاثمائة قرش الا اذا تجدد شيء ، في المقرر ، وبينها درجات . وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه ضوابط كذلك . وبذلك اخذ كل واحد من لم يكن ياخذ مرتب درجته التي وضعه فيها مجلس الادارة أو كمل لمن كان بيده اقل من المقرر لدرجته . وامان كان منهم فوق هذه الدرجات فقد اُتي على ما كان بحكم الضرورة لانهم ليسوا بالكثير ، ولانه كانت لبعضهم مكانة بالسن والشهرة بالعلم ، ولانه شيء ما اكتسب بالفعل قلا وجه لا تحده ، فاضطر القانون لاستبقائهم على ما كانوا عليه وقرر ان توزع مرتباتهم بعد موتهم طبق القانون ، فاستقر كل واحد في مكانه وانتفع بالمرتب على مقدار ما قسم بدون ان يجهد نفسه في الرجاء او الاستجداء .

واني لا أعرف واحداً منهم هوحي يرزق الى الآن قال لما علم بان ما كان بيده من المرتب قد زاد (اني غير مصدق بانني اخذت شيئاً وكيف اصدق وانالم

(١) كان الممتازون من العلماء يزورون والي مصر في أول ليلة من رمضان فيخلع عليهم الخلع وهي الكساوي . وقد انقضت هذه المادة مدة من الزمان ثم رأى الولاة بعد ذلك ان يستبدلوا بها نقوداً وصارت من مرتبات الازهر التي تصرف لاربابها من خزينة المالية في أول رمضان والفضل في استرجاعها للمرحوم الشيخ العباسي ولكنها صارت في ايدي مشايخ الازهر يعطون منها من شاؤوا اي مقدار شاؤوا فردها النظام الي أصحابها من حاشية الاصل

(٣) درجات بدل الكساوي سبع (الاولي) ٣٠ جنيها و ٨٦٧ ملما وهي لاثين من العلماء أحدهما شيخ الجامع (الثانية) ٢٧ جنيها وهي لثلاثة (الثالثة) ٢٤ جنيها وهي لثمانية (الرابعة) ٢١ جنيها وهي لستة (الخامسة) ١٨ جنيها وهي لاربعة (السادسة) ١٥ جنيها وهي لخمسة (السابعة) ١٢ جنيها وهي لعشرة اه من حاشية الاصل

الكلم احداً ولم ارج كبيراً ان هذا لمن المحال) ولم يصدق الا بعد ان قبض الزيادة بيده في آخر الشهر وتكرر صرفها بتكرار الشهور وهناك عرف ان الحق يصل الى صاحبه بدون ذلك الطريق المعروف

وأما اولاد العلماء فقد جعل لهم اتمانون حدداً لاستيلائهم على تلك المرتبات المنحلة عن آباءهم وقيد ترتيبها لهم بقيود مراعيماً معونتهم على طالب العلم واستدامة اشتغالهم ليخلفوا آباءهم الارلين وقدر لهم سنين يأخذون فيها ذلك المرتب مع مراقبتهم في عمالهم من مجالس الادارة

هذه حال المرتبات بعد اتمانون وهي وان كرها الاقلون قد أفرحت الاكثرين، وجعلتهم في مأمن من استقلال الشيخ بالامر وصرف ما يشاء لمن يشاء، واني لأعرف واحداً من اكابر المالكية قال لبعض اعضاء مجالس الادارة والمجالس يشتغل بترتيب الدرجات « كيف يأخذ هؤلاء العلماء الصغار من المرتبات ونحن العلماء الكبار على قيد الحيازة؟ » فأجابه المصو « يمولانا ان الصغير يشتغل بالتمائم كما تشتغل وان اخذت ما في النفع فيحسن أن يكون له في مقابلة عمله راتب قابل، ومثلك يمولانا يأخذ على مقدار عمله الراتب العظيم » فلم يقتنع الشيخ ورأى ان هذا من الاجحاف بمكان، فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

بعد أن وضع هذا اتمانون وجداول الدرجات قامى مجلس الادارة الاهوال في تطبيق كل حادثة وقعت على نصوصه لان اهل هذا المكان لم يتعودوا على شيء من النظام، ولاحظ المجلس انه ربما كان للمالية بعض المراقبة على تطبيق نصوصه فجاء هذا الحساب مضبوطا وأرسلت المالية آخر السنة مندوباً من أمهر عمالها لمرجعة أعمال المجلس ففتش كل صغيرة وكل كبيرة فلم يجد ما يلاحظ عليه ورجع مسروراً، ثم عاد آخر السنة الثانية وفعل كما فعل في الاولى فكان الامر فيها أيضاً على ما رآه

(إلقاء التعليم في الجامع الاحمدي بالآزهر (١))

في ١٦ شوال من سنة ١٣١٢ أي بين زمن توكيل الشيخ حسونة وبين زمن مشيخته صدرت ارادة سنوية بالحق الجامع الاحمدي بالآزهر في التدريس والامتحان وادارة الشؤون العلمية، فأجهد المجلس نفسه (في الفترة التي كان فيها قانون المرتبات بين يدي الحكومة) في وضع القوانين والنظامات لهذا المسجد وقامى كذلك في تنفيذ تلك القوانين خصوصاً ما يتعلق منها بالامتحان. مشاق لا تحتمل عادة، وآخر الامر انصاع أهله للحق وقر قرار شيخه الجديد الذي عينه مجلس الادارة وقبل الامتحان من أهله اكثر من عشرين وهم الذين كان دسهم شيخه السابق قبل فصله بأيام في العلماء بلا امتحان، وسار التدريس فيه سيراً حسناً بقدر الامكان، وتخرج فيه كل سنة كثير من العلماء بالامتحان

(إلقاء التعليم في المسجد الدسوقي ودمياط بالآزهر)

وفي يوم صدور قانون المرتبات السابق ذكره (٦ المحرم سنة ١٣١٣) أي عقب تعيين الشيخ حسونة شيخاً بأربعة ايام صدرت ارادة سنوية اخرى بالحق التدريس والامتحان في المسجد الدسوقي وفي دمياط بالجامع الأزهر فوجه مجلس الادارة عنايته اليهما، ووضع لكل منهما نظاماً خاصاً به وكلف نفسه أوصاباً كبيرة في تنفيذهما، ولم يعبأ بما لاقاه من أهل العلم في دمياط فقد كثرت شغبهم ولعبهم في أمر تقرير درجاتهم وعلت شكواهم فوجه اليهم المجلس من أعضائه من عمل بالحق، حتى انحسم الامر فيها بالعدل، وتقررت لهم الدرجات وفرضت عليهم الاعمال، وتكفل نظامهم بما يموزهم من العمل فسكتوا راضين وأما الجامع الدسوقي فقد عمر بالعلم ونيط التدريس فيه ببعض علماء من الأزهر

(١) غرض الاستاذ الامام من هذا الالحاق ظاهر وهو توحيد التعليم وقائده في ازالة التصادم وتعميم الاصلاح لا تخفى ومن العجيب ألا يشير السكاك الى سعي الاستاذ الامام او احد اعضاء مجلس الادارة الى ذلك

ارسلوا اليه، وتوارد اليه الطلاب من أقاصي البلدان بعد أن كان لا يتلقى فيه غير ليفيف من اهل البلد لا يهتمهم الا الاخذ من صندوق النذور^(١) ودروسه الآن حافلة والراغبون فيها كثيرون، وقد جاء منهم الى الازهر طلاب واخترتوا فوجدوا أهلا لأن يتلقوا الكتب العالية فيه، وحسبت لهم مدة الطلب في دسوق

كساوي التشریف

لما كان من عادة اهل الازهر الاهتمام بالماديات قبل كل شيء وقد فرغ المجلس من أمر قانون المراتب توجهت الفكرة الى كساوي التشریف التي كانت اوقفت في زمن الشكوى من المرحوم الشيخ الانبائي وكانت نحو اثنتي عشرة كسوة فوزعها المجلس على بعض المشايخ توزيعا روعيا فيه جانب الاستحقاق والعدل من جهة وجانب ما كانت قد جرت العادة بملاحظته من قبل . وصدر الامر العالي بالاحسان بها طبق ماقرره مجلس الادارة، فكان هذا مع ماسبقه من اعطاء المراتب موجبا للفرح والسرور، ثم التفت المجلس بعد ذلك الى انه يجب أن يكون لصرف هذه الكساوي قانون يراعى فيه تقرير صفات الاستحقاق لكل درجة من درجاتها حتى تندفع الآثرة ويكون الحكم هو القانون، وتكون الاهلية بالصفات وبالاعمال، لا بالمحابة والالاحاح . فوضع المجلس هذا القانون ثم عرضه على الحكومة وهي بعد أخذ ورد وطول مناقشة وكثرة اجتماع ببعض الاعضاء أقرته . وصدر الامر العالي بالعمل به في ١٧ شعبان من سنة ١٣١٣

والذي قيل في بيان الفائدة من وضع قانون المراتب يقال أيضا في وضع قانون كساوي التشریف فقد كان الامر فيها فوضى تابعا للهوى وكان لا يمنع الكسوة من علم وعلم أو عمل بما تعلم ولكن ينالها من كثر سعيه او ظهرت ثروته او التجأ الى ذي جاه، حتى تعدت الى غير العلماء فأخذها بعض من لا يقدر أن

(١) يعني صندوق النذور التي تنذر للشيخ ابراهيم الدسوقي لاجل رضاه المـ اجت

وشفاء المرضى . وهي من سحت الوثنية

بقراً فضلاً عن أن يفهم، وتعلمي بها بعض التابعين للمشايخ من القضاة وقد كانوا في صف كتاب المحاكم، ووصل إليها من مشايخ الطرق والساجد جيداً ناس لا يعرف كيف وصلت إليهم، وترقى في درجاتها من لامكانة له في الوجود لا بتلك المظاهر. أعرف منهم كثيرين ويعرفهم غيري بما أعرفهم به من الصفات وقد وصل الأمر في هذه الكساوي إلى أن مجالس الإدارة كان يصل إليه الخبر بموت أحد أصحابها اتفاقاً فيحتاج في الوقوف على حاله وموته أو حياته إلى استعلامات رسمية من بعض جهات الحكومة في الأرياف وبعده التتيا والتي يعرف اسم الشخص وتاريخ موته فيصرف الكسوة التي كانت معه إلى مستحق جديد.

أما وقد وضع النظام فقد تقرررت الصفات وحددت الدرجات وخص المدرسون من العلماء بأنواعها الثلاثة، وجعل لغيرهم ممن ليسوا منهم نوع مخصوص سمي بكسوة المظهيرية، وبين المظهيرية والعلمية مميزات. وقد تساهل القانون في العلماء الموظفين نوعاً من التساهل فقرر لهم الكسوة العلمية بقطع النظر عن الدرجات. وأما من وصلتهم هذه الكساوي العلمية قبل صدور القانون وهم ليسوا من أهلها فقد ابقيت الحال فيهم على ما كانت إلى أن يموتوا لأنهم صائرون إلى النقص بالضرورة، وقد كادوا يفرغون فلم يبق منهم إلا عدد قليل.

ثم إن المجلس أراد أن يوفق بين القانون وبين ما كان جارياً من قبل نوعاً من التوفيق فراعى في بعض الأحيان الأقدمية في العالمية بعد مراعاة صفة الانفع في التعليم، وبذلك انتقل الحال في أمر الكساوي كما انتقل في أمر المرتبات وسارا في طريق بحمد العاقل وبرضاء كل محب للنظام (١)

«١» نعم ولكن محبي النظام كانوا هم الأقلين، وأعداءه كانوا هم الأكثرين وقد كان الشيوخ المعمون في سورية يتألمون لدخول النظام في الأزهر حتى قال بعضهم أمامي في طراباس الشام عقب حادثة الأزهر التي أثارها بعض مجارري السوريين فأوجبت تدخل البوايس والجند لازالتها - قال - أن الأزهر أدخل فيه النظام، فذكر فيه النظام، وكان قبل ذلك فوق النظام والحكام. أي ما هذا حاصله

نظام التدريس والامتحان

بعد صدور قانون الكساوي توجهت فكرة المجلس الى ما فوق الماديات وهو التدريس والتعليم والامتحان فوضع لذلك مشروع قانون عام ضمنه خصائص الادارة العمومية وما لمجلس الادارة ولشيخ الجامع من الاعمال وشروط الانتظام في مسلك طلبة الازهر ومدة طلب العلم والمساحات والعلوم التي تدرس في الازهر وبيان المقاصد منها والوسائل وما يجب لعلوم المقاصد من العناية توسيم زمن الدرس فيها ، ثم الامتحان بقسميه وهما الامتحان لنيل شهادة الاهلية والامتحان لنيل الشهادة العالمية ، ثم أحكام الضبط والربط والعقوبات . وفي كل باب من هذه أحكام فسيحة تتوجه كما الى مقصد واحد هو تحصيل جواهر العلوم الدينية في زمن محدود بطريقة سهلة التناول ، والتجلي بثمره تلك العلوم وهي محاسن الاخلاق والاعمال .

وقد قسمت فيه العلوم الى مقاصد ووسائل كما قلنا وبينت المقاصد بانها علوم التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصوله والاخلاق الدينية وبينت الوسائل بانها المنطق والنحو والصرف وعلوم البلاغة الثلاثة ومصطلح الحديث وضم اليها الحساب والجبر ، وهذه العلوم بقسميها هي التي يلزم طالب الامتحان لشهادة العالمية بالامتحان فيها ، ثم ان هناك علوماً آخر تستوجب لمحصلها التفضيل على من في درجته في التوظف والمرتبات ، وهي تاريخ الاسلام ، وصناعة الانشاء ، ومتن الفقه وآدابها ، وتقويم البلدان ومبادئ الهندسة . وهذه لا يلزم الطالب بالامتحان فيها الا اذا رغبه وأراده

ثم ان القانون قضى على معلمي البلاغة ونحوها مما يقصد من تعلمه العمل به ان يمرنوا الطلبة على تطبيق العلم فيها على العمل (راجع المادة ١٩) وان يخصص لعلوم المقاصد وهي العلوم الدينية المحضة أوسع أزمان التدريس بحيث يكون ما يصرف من الزمن في تعليم الوسائل اقل من الزمن الذي يصرف في تعليم المقاصد (راجع المادة ٢٠) وان يقتصر في السنين الاربع الاول من سني طلب

العلم على التون والشروح الواضحة العبارة فتمنع فيها قراءة الحواشي والتقارير (راجع المادة ٢٢) وانه يجب على الطالب أن يحصل من علوم الوسائل اولا مايكفيه ويؤهله الى طلب المقاصد (راجع المادة ٢٣) وقد جئنا بهذه النماذج من هذا القانون ليظهر مقصده وتعرف مقاصد المجلس (١) التي رامها العلماء والطلاب في هذا المسكان الديني المحض وانه لم يطلب سواها فيه .

وقد كابد المجلس عظيم المشاق واستغرق بحثه النافع طويل الاوقات حتى أكمل المشروع على مارآه مفيداً في هذا المقصد الديني المحض ، وأرسله الى الحكومة فشكلت للنظر فيه لجنة من خيار رجالها ، ومن أشهر الصالحين وكبار العارفين فيها بحاجات هذا الزمان ، وانضم اليهم بعض أعضاء المجلس ، فوالوا الجلسات حتى فرغوا من تنقيحه وزادوا فيه مازادوا وحذفوا منه ما علموا صعوبة تنفيذه ، ثم رفعوه إلى الجنب العالي الخديوي فأصدر أمره بالعمل به في ٢٠ المحرم سنة ١٣١٤ وبه صارت مشيخة الازهر مشيخة نظامية ، ولم يبق عليها إلا الجد في العمل بهذه القوانين والمحافظة على ان تكون كل أعمالها مطابقة لها ، ومراقبة تنفيذها على الوجه الاكمل وتمتع العلماء والطلاب بثمراتها ، وان ذلك لم يكن بالامر السهل القريب المنال ، ولهذا كان التعب والعمل للتنفيذ فوق ما يحتتمل في العادة ، ولكنها المقاصد القويمة تسهل الصعب وتخفف ثقل العناء ، وتصحح العزيمة للدأب على الاعمال

ولا داعية لتبيان الحال في التعليم والامتحان قبل صدور هذا القانون وما تغيرت اليه فيها بعده ، فان ذلك يضطرنا إلى تطويل القول مع كونه معروفاً بالبديهة فلا ينكر ان الازهر سار من فوضى في التدريس الى نوع من النظام ، وان كان لم يصل الى الحد المطلوب فيه . وأما في الامتحان فالامر أجلى من أن يبرهن عليه لانه ما من شيخ من الذين تولوا مشيخة الازهر زاد في عدد من يمتحنون في كل عام على ستة نفر ، وفي بعض السنين كانوا لا يتجاوزون أربعة ، والذين كان يساعدهم

« ١ » ما المجلس الا الاستاذ الامام رحمه الله فهو الذي وضع القانون وبين هذه المقاصد له وهو الذي كان سبب مساعدة الامير لها أولاً ثم كانت مقامتها لسخطه عليه

الخط ويؤخذون للامتحان كانوا لا يصلون الا بعناية الراجين ، وإلحاق الملحين ، ولم يكن للدور ولا للاقدمية ولا للذكاء ولا للشهرة بالتحصيل مدخل في نيل الحق ، بل السلطان القوي هو شفاعة أولئك الشفعاء الذين لا يشفعون إلا للفقي وان كان غيباً ، ويضعون حق الفقير وان كان ذكياً ، وبذلك تراكم في قلم كتاب الازهر عرائض طلب الامتحان حتى صارت لا يدرى أولها من آخرها ، ولا عاجلها من آجلها ، ويس مقدموها من إجابتهم ، ففرت عزائمهم عن التحصيل ، وانقطع معظمهم عن المجيء الى الازهر الا في القليل من السنة الدراسية ، وتعدي هذا اليأس إلى من يلهم في الزمن ، فحفت آمالهم ، وعلموا ان الدور إن وصل اليهم فأنما يصل بعد الهرم ، وكان ذلك ظاهراً للعيان

وتد تدارك مجالس الادارة هذا الامر وأحب أن يعيد الى الناس آمالهم ، فقرر تصفية هذه التلال لتراكمه من العرائض ليتحقق وجود أصحابها ، فأعان الجميع بأن الامتحان سيكون على غير تلك القاعدة السادسة أو الرابعة ، ولكن جاء الامر في سنة ١٣١٤ على غير ما في الحساب إذ طرأت فيها حادثة رواق الشوام المشورة المشورة ، ثم اضطر الازهر بحكم قرارات الصحة العمومية إلى المساحة معظم السنة أو كلها تقريباً فلم يتمتحن في سنة ١٣١٤ غير شخص واحد ونجح

وهاك بيان عدد من امتحنوا في السنين التي بعدها — سنة ١٣١٥ امتحن فيها ٢٩ نجح منهم ١٨ وسقط ١١ وسنة ١٣١٦ امتحن فيها ٢٨ نجح منهم ١٣ وسقط ١٥ وسنة ١٣١٧ امتحن فيها ٢٠ نجح منهم ١١ وسقط ٩ وسنة ١٣١٨ امتحن فيها ٢٥ نجح ١٦ وسقط ٩ وسنة ١٣١٩ امتحن فيها ٣٧ نجح منهم ٢٣ وسقط ١٤ وسنة ١٣٢٠ امتحن فيها ٣٩ نجح منهم ١٧ وسقط ٢٢ وسنة ١٣٢١ امتحن فيها ٩٥ نجح منهم ٣٤ وسقط ٦١ وفي سنة ١٣٢٢ امتحن فيها ٦٨ نجح ٣٤ وسقط ٣٤ ومن هذا البيان يتضح الفرق بين ما بعد القانون وما قبله وأما كثرة السقوط في بعض السنين فسببها انقطاع أولئك الذين كانوا قدموا عن التحصيل . فتجددت الآمال ، واجتهد العمال ، وانتظم تقديم طلب الامتحان ، وهذه بعض المزاي للقانون في هذا الباب ، وهي فاتحة الخير عند أولئك الدلاب

﴿ المساحة أو عطلة الدراسة ﴾

ترتب على صدور ذلك القانون تقليل عدد المساحات وتقصير أزمان العطلة الدراسية ، فقد كانت الحال فيها قبله لا يكاد يعترف لها ضابط ، وكان الطالب يمكنه أن يتغيب قبل المساحة الرسمية بأسابيع ولا يحضر إلا بعد انقضاءها بأسابيع ، وكان المشايخ المدرسون يذهبون الى بلادهم قبل الطلبة ولا يحضرون منها إلا بعدهم ، وكانت السنة الدراسية تنتهي من أواخر شوال وتنتهي في أوائل جمادى الآخرة وبين البدء والنهاية مساحة العيد الأكبر ، وكانت تقرب من عشرين يوماً ، ثم مساحة مولد السيد ، ثم مولد الدسوقي ، وربما تداخلتا فلان تنقص مدتهما عن خمسة وأربعين يوماً ، ثم مساحات صغيرة كما شوراء والمولد النبوي والمولد الحسيني ومولد الشافعي ومولد العيني ومولد الشرفاوي ، وكل واحدة من هذه لاتنقص عن ثلاثة أيام فمدة الدراسة بعد كل هذه المساحات لاتزيد عن ثلاثة أشهر ونصف متقطعة في السنة ، يخرج منها أيضاً يوماً الخميس والجمعة من كل أسبوع ويضاف الى ذلك ما يتساهل فيه المشايخ والطلبة وهو كثير

ولما صدر القانون حددت فيه أيام العطلة تحديداً تاماً واشتغل المجلس بشدة المراقبة على الطلاب وعلى بعض المشايخ وتقدمت الحال نحو الإصلاح عاماً فعاماً ، ومع ذلك لم تخل هذه المراقبة من تقصير في بعض الاحياء ، والشدة كل الشدة كانت في تعويد الطلاب على العمل ، وانتهاز فرصة الوقت وعدم ضياعه فيما لا يفيد ، وأشد من ذلك ما يلاقيه المراقبون في تعويد الدارسين أنفسهم على احترام النظام والاستمرار في العمل الى آخر أيامه ، وإلى الآن لم تصل الحال الى الدرجة المطلوبة ، لأن الكثير من الطلاب تعودوا البطالة بلا سبب ، فصاروا يخلقون المعاذير ويقدمونها الى المشيخة والى المتولين أمر الجرايات ، كوت الآباء وهم أحياء ، أو مرضهم وهم أحماء ، و ككونهم مطلوبين للقرعة وقد أخذوا شهادة المعاذة ، أو أن عليهم أو لهم قضايا في المحاكم الأهلية والاعلان بيدهم ، وربما ادعوا لانفسهم

المرض والواحد منهم يأكل خمسة الارغفة في اليوم ، وهذه الاشياء وإن كانت تقل يوما عن يوم إلا أن الباقي منها كثير وهو ما كانت الهمة موجبة الى قطعه بالمرّة وجعل الطالب طالبا حقيقيا يرغب بداته في التعليم وجملة القول ان المسامحات قد ضبطت ضبطا تاما، وصارت السنة الدراسية سنة كاملة ، بتسديء من العاشر من شوال وتنتهي بالخامس والعشرين من شعبان ، ويتخللها اثنان وستون يوما للمساحة الصيفية « منها شهر يولييه وبعض شهر أغسطس » وهي الايام التي اذا اشتغل فيها المشايخ والطلاب كان شغلهم كلا شغل لشدة الحر ووقوف الازهان ، ومنها أيام في عيد الاضحى وغيره ولا يمكن أن يضيع غير ذلك ولا يوم واحد بمثل تلك المماذير ، ومن أضعافها من الطلاب عوقب عليها بما هو مبين في القانون ، وهذا فيما أرى من أجل المزايا لهذا القانون . وغيرها كثير نضرب عن ذكره صفحا مخافة التطويل

﴿ مساعدة الجنب العالي على تنفيذ القانون بالمال من الاوقاف ﴾

وقد توجهت فكرة المجلس بعد صدور هذا القانون الى أمر تنفيذه فرأى انه لا بد في ذلك من معونة الجنب العالي للازهر بالمال ، فاستقر الرأي على قرع باب المكارم الخديوية توصلا الى هذا الغرض ، لانه بدون المال لا تنجح كبار الاعمال، فكان كذلك واجتمع المجلس مرات لتحديد أقل ما يمكن به السير من القود والترتيب البدء في العمل بعد أن يسمح بها جنابه الكريم . ثم انحط الامر بعد اقدام وإحجام على أن ترفع مذكرة الى ولي النعم ببيان المبالغ المحتاج اليها، فرفعت مبينا فيها ما يلزم من المبالغ وطريق صرفها والمنفعة منها، فتقبلها جنابه الكريم بالمسرة والارتياح ، وصدر أمره السامي الى ديوان الاوقاف بتقريرها في ميزانية سنة ١٨٩٧ وسبق ذلك عدة مذاكرات في كثير من الاجتماعات مع بعض العارفين ممن وثق بهم الجنب الخديوي، تقررت فيها خطة السير في علوم الحساب وتقوم البلدان والتاريخ والخط ، وعرضت كلها على الجنب العالي فاستحسنها غاية الاستحسان، ووافق عليها، وأظهر غاية المسرة من تقريرها وادخلها في الازهر

المنيف ، ولم يخطر على باله حفظه الله في ذلك الوقت ولا على بال أحد من رؤساء العلماء وكبرائهم مالكيين وغير مالكيين ان ذلك مما يعطل دروس العلوم المتداولة في الازهر ، أو انه مما ينهى عنه الدين ، أو انه مما يعود على العقيدة الاسلامية بالضعف أو غير ذلك مما لا كتبه الا لسن في هذه الايام (١)

وانتهى الأمر بأن قررت المبالغ في تلك السنة وورد الاعلام بها من ديوان الاوقاف الى الازهر في أواخر ديسمبر سنة ١٨٩٦ وصادف ان السنة الدراسية كانت قد انتهت أو كادت تنتهي فلم تستعمل هذه المبالغ إلا في شوال سنة ١٣١٤ الموافق لشهر مارس سنة ١٨٩٧ وهذا فيما عدا المبالغ التي قررت لدار الكتب الازهرية فانها استعملت من أول يناير سنة ١٨٩٧ ، لان دار الكتب (الكتبخانة) يمكن العمل فيها في أي وقت بخلاف الازهر فان سنته الدراسية تبثديء في شهر شوال من كل عام وهذا بيان تلك المبالغ التي قررت لتنفيذ القانون مع بيان مصارفها

جنيه مصري

لاربعة وعشرين عالما	٦٠٠
مكافأة للطلبة	٦٠٠
لمشاخ الأروقة والحارات والملاحظين	٦٠٠
لعلوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي	٦٠٠
للخط	٣٦٠
مصاريف الادارة العمومية للازهر	١٥٠
لدار الكتب الازهرية	٤٦٤

٣٢٧٤

استعمل المجلس هذه المبالغ على الكيفية الآتية فأما المبلغ الذي قرر لاربعة وعشرين عالما فقد انتخب المجلس هذا العدد من بين كبار العلماء على اختلاف

(١) سبب هذا ان الحدبو غضب على الشيخ محمد عبده الواضع منهاج الازهر لهذه العلوم بعد ان كان راضيا عنه فلما غضب صارت تلك العلوم والنظام في التدريس خطراً على العقيدة الاسلامية عند أولئك المنافقين

مذاهبهم ووزع عليهم ستمائة جنيه لكل منهم مبلغ يختلف بين الجنين والثلاثة ونصف زيادة على مرتباتهم الشهرية الازهرية وكفوا في مقابله بأن يكون تدريسهم للعلوم الدينية المحضة على الطريقة التي قضى بها القانون من ترك الحواشي والتقارير والاقتصار على الشروح والتمتون الواسعة العبارة وتوسيع زمن الدرس في علوم المقاصد وتمارين الطلاب على تطبيق العلم على العمل في العلوم التي غايتها العمل بها وغير ذلك مما يفيد في جودة التحصيل ، وقد وضع المجلس لهذا النوع قرارا مخصوصا بين فيه مايجب على كل أستاذ في إلقاء هذه الدروس وخصص لكل واحد من الاربعة والعشرين عالما علوما معينة من العلوم الدينية المحضة وكتبا معينة من الكتب المعروفة ، لانه لاحظ ان ليس في امكان كل شيخ أن يحسن تدريس كل علم او كل كتاب ، وقرر أيضا ان هذا المبلغ يصح انتقاله عن أخذه اذا لم يؤد العمل على ما فرض عليه . وقد جرى المجلس على أن يجمع هؤلاء العلماء في أول كل سنة دراسية ويبين لكل منهم ما اختاره له من العلوم والكتب والطريقة التي يتبعها في التدريس والتمرين ، ثم يوجه نظرهم الى قراءة السيرة النبوية من كتب السنة الصحيحة لانها كانت معدومة تقريبا من الازهر مع أنها من أهم العلوم الاسلامية المحضة ، وكذلك وجه نظرهم الى علم مصطلح الحديث وقد كاد هذا العلم ينقرض من الازهر الا ما كان منه في مقدمات كتب الحديث ، وكانت النتيجة مفيدة اذ ندرج الطلاب في الارتقاء من عام إلى عام ، ولولا هذا المبلغ لما أمكن تكليف أحد من اولئك العلماء بعمل ما لم يتعوده من قديم

مكافأة امتحان الطلبة

وأما المبلغ الذي قرر لمكافآت الطلبة فقد كان الغرض منه بث روح الغيرة فيهم وترغيبهم في تحصيل العلوم المتداولة في الازهر ، وان يكون تحصيلهم لها على وجه يبقى معه ما حصلوه منها راسخا في الذهن لا أن يكون قاصراً على مجرد فهم العبارات والمناقشات اللفظية ، ولهذا وضع المجلس قراراً لصرف هذا المبلغ على الطلاب قرر فيه أن يعمل لهم امتحان اختياري في آخر كل سنة دراسية في تمحيص

علم من العلوم التي تقرأ في الازهر ، وحدد أوقات الامتحان وكيفيته وان يكون محريريا وان توزيع المكافآت على الناجحين يكون بنسبة ما حصلوه ونجحوا فيه ، وان توزيع المكافآت يكون في اول العام الدراسي بمحضر من شيخ الجامع وأعضاء مجلس الادارة وكل أفاضل العلماء الازهرين

واقدم جاء هذا الامر بالفائدة المقصودة منه فلم يحسن موعد تقديم الطلبات في اول سنة لتقرير هذا المبلغ حتى اجتمع منها لدى قلم الكتاب شيء كثير، ثم امتحن الراغبون فيما تقدموا الى الامتحان فيه من العلوم على يد لجان شكلت له من خيار العلماء مع مراقبة أعضاء المجلس ونخبة من العارفين بأساليب الامتحانات وتقرر ان تعتبر نمرة النجاح في العلوم الدينية المتداولة في الازهر هي نمرة ١٥ فما فوق، وان تكون نمرة النجاح في العلوم الحديثة هي نمرة ١٨ فما فوق، تسهلا للنجاح في الاولى وتشديداً في الثانية ، مراعاة لموضوعات العلوم وملاحظة لمنع الظنون. وهذا بيان من تقدموا للامتحان في كل سنة من السنين وبيان الناجحين فيه

ناجحون	ساقطون	مقدمون للامتحان	سنة	(لم تحقق منها بالضبط ولذلك لم نذكرها)
٢٩٠٩	٢٧٢٠	٥٦٢٩	١٣١٥	
١٨٥٦	١٥١٩	٣٣٧٥	١٣١٦	
١٩٤١	١٢٩٩	٣٢٤٠	١٣١٧	
٢١٨٤	١٧٢٤	٤٩٠٨	١٣١٨	

وليلاحظ ان عدد المتقدمين والناجحين والساقطين المبين هنا كان منظورا فيه الى العلوم التي يقدم فيها الطالب لا الى كل طالب بخصوصه . مثلا اذا قدم الطالب او احد في خمسة علوم ونجح منها في اثنين او ثلاثة عد المقدمون خمسة والناجحون اثنان أو ثلاثة، وليلاحظ أيضا ان سبب الكثرة في عدد المتقدمين في سنة ١٣١٥ كان لان المجلس أطلق لكل واحد أن يقدم في كل علم شاء التقديم فيه حتى لو قدم في عشرة علوم قبل طلبه ، ثم رأى ان هذا الاطلاق مضر بالطلبة فحدد لهم ان لا يقدم الطالب في أكثر من أربعة علوم من العلوم الدينية مجتمعة واذا

أراد أن يضم إليها شيئاً من العلوم الجديدة فليضم علماً واحداً وهذا قل عدد المتقدمين وما كان أبهج الاجتماع الذي توزع فيه تلك المكافآت على أولئك الناجحين فقد كان يجتمع إليه كل المشايخ تقريباً وكان شيخ الأزهر يعطي بيده لكل طالب من العشرة الأوائل مكافأتهم، والمشايخ يشاهدون فرح الطلبة فيخرجون وكلهم السنة تشكر مجلس الإدارة على هذا العمل الخيري ويبالقون في نتيجته وما يأتي به من الفائدة للطلاب في المستقبل، وكان يختم كل مجلس بالدعاء للجناب الخديوي الذي كان مصدر تلك النعمة. وقد وجدت في الطلاب روح التسابق وذاقوا طعم العلم وأقبلوا عليه

مشايخ الازوقة والحارات والملاحظون

وأما المبلغ الذي قرر لمشايخ الازوقة والملاحظين ومشايخ الحارات فقد كان الغرض منه أن ينساقوا إلى نظام الضبط والربط في الجامع الأزهر ويتعودوا عليه، فانهم كانوا من قبل في غاية الإهمال. ولما جاءت النقود وعرف مشايخ الازوقة أنهم ينتفعون منها وتحقق المجلس أنهم يقبلون كل شيء ويعملون ما لم يتعودوه متى كان من ورائه المال، ووضع المجلس نظاماً لإدارة شؤون الضبط والربط وكلف به مشايخ الازوقة (وسياقي الكلام عليه) وقرر لهم مرتبات شهرية تختلف بين مائتي قرش وخمسة وستين قرشاً بحسب درجة الأهمية وكثرة العدد في كل رواق. ثم زاد عدد الملاحظين فبعد أن كانوا أربعة في كل الجامع صاروا ستة عشر وترقت مرتباتهم حتى صار يمكن تكليفهم المبيت في الأزهر بالدور

وأما ذلك النظام الذي وضع للازوقة فإنه صدر في ٢٤ يناير سنة ١٨٩٧ وقضى بأن يكون شيخ الرواق من العلماء المستحقين فيه فإن لم يكن من علماء الرواق فمن علماء أقرب الازوقة إليه، وبأن يراقب الشيخ من في رواقه في سفرهم وحضورهم ويقيد أسماءهم في دفاتر مخصوصة، وأن يكون مسؤولاً عن آداب الطلبة ماداموا في الرواق، وفيصلاً فيما يقع بينهم من المنازعات الخفية، ويلاحظهم في أداء الوظائف التي شرطها الواقفون، ويحصل إيرادات الوقف ويوزعها على المستحقين بعد أن يقدم عنها حساباً لمشيخة الأزهر، وأن يبيت بنفسه أو يستئيب من يبيت

في الرواق للملاحظة الضبط والصيانة في الليل . وبذلك خفت وطأة المشاجرات
الليلية والنهارية ، وما اجل ماتفعله النقود

— العلوم الحديثة —

وأما المبلغ الذي قرر للحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي فقد
استجلب به المجلس في أول الامر اساتذة من معلمي هذه الفنون في المدارس
الاميرية وانتخبهم ممن سبق لهم تلقي العلوم الدينية في الازهر حتى لا يكونوا
بميدن عن أهلهم، وليلاحظوا في تعليمهم عوائد المكان وأهله . وقد وضمت قبل
تعيينهم القواعد التي يسير عليها التدريس في هذه العلوم وحددت السنين لكل
علم منها ، وأرسل هذا إلى العمية السنية فوافق عليه الجنب العالي مع إظهار غاية
الاستحسان، وأبليت العمية ذلك إلى الازهر ، وهو شرع في العمل من أول السنة
المدراسية الداخلة في سنة ١٣١٥ وسار هذا التحليم في طريق قويم

(مملوا الخط) وأما مبلغ الثلاثمائة والستين جنيها المقرر لتعليم الخط فقد
انتخب المجلس عشرة من المعلمين للخط على اختلاف أصنافه وطاق بهم تعليمه
وجعل لهم أوقاتا معينة في أماكن مخصوصة فأقبل عليهم الطلاب في الاوقات
الخالية من الدروس

فائدة الامتحان والعلوم الحموية

وأما الفائدة التي نجمت عن استعمال هذه المبالغ الثلاثة (مبلغ مكافآت الطلبة،
ومبلغ العلوم الحديثة، ومبلغ الخط) فتعرف مما يأتي
قد كان طلبة الجامع الازهر لا نصيب لهم في صناعة الكتابة والانشاء وكان
الواحد منهم إذا كتب لا ييه يستمنحه إرسال الزاد والنفقة قصرت صحيفته عن
بيان المطلوبه ولم ينفعه ما حصله من قواعد العربية بشيء ، وجاء خطه في مكتوبه
نقشاً مكسر الخطوط ناقص الحروف ، وإذا أراد أن يبين ما صرفه وما يلزمه
عبر عن ذلك باللفظ لا بالرقم لعدم معرفته به

هذه حالة كادت تكون عومية بين الطلبة والعلماء وهي باقية في الكثير من
الاكابر الى اليوم ، واني لا أعرف واحداً منهم كان ممن دعاهم المرحوم الشيخ
الانبائي الى الافطار عنده في رمضان فاعتذر اليه بالكتابة ، فكان كتاب اعتذاره
على حال لم ير مثلها الرايون ، إذ كتبه اليه في ورق من اوراق العطار والكتابة فيها
غير منتظمة الشكل ، والخط لا يقرأ الا ان تعود قراءة هذه الخطوط ، والاريمة
الأسطر التي كتبها اعتذاراً للشيخ كان فيها أكثر من عشر لحنات نحوية لا يمكن
تطبيقها على قواعد العربية ولو مع التأويل الذي تعودوه ، وهذه الرقعة من عالم كبير
الى عالم أكبر ، فلا يقال ان الاستاذ كتب ما يفهمه المكتوب اليه . وأعرف غيره
وغيره وغيره من أمثاله ، وهؤلاء الاغيار كثير ون وتطويل القول فيهم مما لا حاجة اليه
وقد أصبح الفرق بين تلك الحال وما نحن عليه الآن في الازهر واسع
المدى وان لم يبلغ الغاية المطلوبة ، ذلك أن امتحان المكافأة قد عود الطلاب على
التعبير عما في الضمير ، وعلمهم استنباط المعلومات في ذاكرتهم حتى يكتبوها في
الامتحان ، وعلمهم ملاحظة القواعد في الكتابة وانتقاد أنفسهم في ذلك لتوضيح
الانتقاد عليهم — وان تعلم الخط والاملاء جعل خطوطهم مما يقرأ عادة ، وصير
الاملاء صحيحاً مضبوطاً ، وهم الآن في الحساب وتقويم البلدان والتاريخ على
حالة لم تكن تنتظر منهم ، فقد أصبح الازهر وفيه خمسة عشر عالماً يدرسون
الحساب على أحسن ما يكون من تدريسه في المدارس ، وعالمان يدرسان علم تقويم
البلدان كذلك ومن الطلبة من لا يكادون يحصون عدداً من العارفين بالعامين ،
والكثير منهم قد أدى الامتحان في الحساب والجبر العالي وأخذ الشهادة بالكامل
دروسها ، ومن بينهم عدد كثير قد دخلوا في امتحانات الاسانذة في المدارس
الأميرية ومدارس الاوقاف والمدارس الالهية وحازوا فصب السبق فيه على
التخرجين في المدارس وأحرزوا وظائف الاستاذية في تلك المدارس باستحقاق ،
وهذه احدى النتائج الحسان التي ربما كانت لا يحلم بها ولا يتخطر على البال
ثم ان المجلس تعود ارسال تقرير عمومي يشتمل على نتيجة هذه الامتحانات
في كل سنة الى العمية السنوية ليعرض على الجنب العالي ومعه الرسوم الجغرافية

هو الخطوط وبعض الرسائل التي يؤلفها الطلبة، وفي كل سنة كانت تجيء الى الازهر مكتابة الديوان العالي الخديوي معلنة عرض تلك النتيجة على جنابه العالي وانها حازت الرضا والقبول، وان جنابه الفخيم مسرور منها مستحسن لها، ومشجعة على استمرار العمل مع الجد والاجتهاد، وفيها اثناء الجميل على المجلس لقيامه بهذه المهمة خير قيام، وفي بعض السنين لاحظ المجلس أن يعرف تأثير هذه الطريقة الجديدة ويستطلع قوة المشتغلين بالعلوم الحديثة مع العلوم القديمة وحال المقتصرين على القديم، فقرر انه لا يقبل طلب امتحان المكافآت في علم من العلوم الحديثة وحده بل لا بد أن يصحب بثلاثة علوم على الاقل من العلوم المتداولة، وان من يطلبه في العلوم القديمة وحدها فله ذلك بدون حرج عليه، فكان كذلك في سنة ١٣١٨ وبعد قراءة اوراق الامتحانات تبين منها جليا ان الناجحين في العلوم القديمة وهم مشتغلون بالعلوم الحديثة أكثر من الناجحين فيها وهم غير شتغلين بتلك العلوم الحديثة، وهنالك ظهر للمجلس ظهوراً لاربية فيه ان هذه العلوم مما يساعد على فهم العلوم الدينية، وكتب المجلس هذا في تقريره السنوي وأوضحه بأدلته المبدئية بالارقام

فهذا هو الفرق بين حالتي الازهر قبل استعمال هذه المبالغ وبعده وهو فرق ظاهر عرفه الخاصة والعامة واعترفت به الحكومة أيضاً، لانه كان يرفع اليها تقرير كل سنة بنتائج الامتحان بعد أن يرفع الى الجناب العالي ويتقبله الجناب الخديو بالمسرة والانشراح كما هو مثبت في دفاتر الازهر من مكاتبات رؤساء الديوان الخديوي، وتلقاه الطلبة أنفسهم مع ما فيه من المشقة عليهم بالاقبال عليه، ولم يتنازع فيه أحد من مشهوري العلماء ولا من أكبر صالحيههم الى آخر سنة ١٣١٨ هجرية لامنازعة ظاهرة ولا خفية، بدليل حضورهم جميعا في حفلة توزيع المكافأة واعطائها من يد شيخ الجامع نفسه للعشرة الاوائل من الطلبة تنشيظا لهم وحثا لغيرهم على مساواتهم، وما منهم الا من أظهر الاستحسان وبشر بحسن الاستقبال ودعا لمن كان السبب في هذا الخير العميم (١)

(١) راجع حاشيتي ص ٤٤١ و ٤٤٥ وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام على معارضة الاصلاح

دار الكتب في الازهر

المبلغ الذي قرر للمكتبة الازهرية وهو ٤٦٤ جنيتها قد خصص لمرتبات الامين والمغير والكتاب والخادم (الفراش) ولأربعة من العمال المؤقتين انتخبوا من العلماء ليعملوا جميعا في جمع الكتب وترتيبها تحت ملاحظة الامين ومنه مبلغ ١٥٠ جنيتها لشراء كتب جديدة ولتكميل بعض النواقص من الكتب الموجودة ولتجليد ما يوجد منها بلا جلود. ثم زيدت هذه المرتبات سنة بعد سنة بحسب مقتضيات الاحوال كما زيد في عدد العمال ووضع مجلس الادارة لهذه المكتبة قانونا عامه سار العمل فيها عليه الى الآن سيرا حسنا

ولاجل أن يعرف ماهي هذه المكتبة وأين كانت كتبها وكيف كان حالها وما هو شأنها اليوم نذكر طرفا من خبرها ليعلم مقدار العناية في جمع تلك الكتب وترتيبها على هذا النظام التي هي عليه الآن

كان في الازهر خزائن كتب وضمت في بعض الاروقه والحارات وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفاكهاني وجامع العيني، ونيط حفظها جميعا باشخاص يقال لهم المغيرون، فتصرفوا فيها تصرفا سيئا للغاية صحح معه اطلاق اسم المغيرين عليهم، لانهم غيروا وضعها، وشتتوا جمعها، ومزقوا جلودها وأوراقها، وتركوا مالا عناية لهم به منها في التراب، يأكله العث ويبلية التراب. وهذا غير ماتصرفوا فيه تصرف الملاك وصار بأيدي باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس، ولم يبال المتصرف الاول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء وبالجملة فلم(?) يكن ليعرف للكتب قيمة ولا لينتفع بها لعدم امكان الانتفاع

ولما جاءت للمجلس فكرة جمع هذه الكتب في مكان واحد واصلاح ما فسدته منها هذه الأيدي، وتسهيل الانتفاع بها، اختار المكان المعروف في الازهر برواق الابتغاوية وكتب لديوان الاوقاف في سنة ١٣١٤ فأرسل من أخذ المقايسة لاصلاحه وانشاء ما يلزم له من الخزائن التي توضع فيها الكتب. ثم

عرض الأمر على الجنب العالمي فأقره مستحسناً له وخرج هذا العمل من القوة إلى الفعل، وتنهياً المكان لما وجد لأجله من وضع الكتب وحفظها فيه من الانتفاع بها تحت ضوابط ونظامات، وشرع عملها في انفاذ ما عهد اليهم من أول سنة ١٨٩٧ أفر نكية الموافق شعبان سنة ١٣١٤ وهناك ظهر العجب العجيب

حملت تلك الكتب من خزائنها السابق ذكرها إلى ذلك المكان الجديد فكان يأتي بها أولئك المنيرون محشوة في الزكائب والمقاطف، ثم يفرغونها تلالاً وأكوماً عليها خيوط العناكب، وبينها الأتربة، ويتخللها الجلود البالية، وليس بينها من كتاب سليم مستقيم الوضع إلا مالا يكاد يذكر، وجلس بجانبها أولئك الموظفون المكلفون بجمعها وترتيبها، وأعضاء المجلس والأمين يراقبون عملهم ويرشدونهم إلى الطريق الأقوم، فعملوا وكدوا واستخلصوا من بين هذه الدشوت والأوراق المتفرقة كتباً معتبرة في كل فنون وكان معهم مندوب من ديوان الأوقاف وموظف آخر نيط به تقويم كل كتاب وجد أو جمع بالثمن اللائق به، وقيدت في دفاتر بأعداد متسلسلة، واستلمها الأمين بأمانتها المقدرة لها

ثم اشتغلوا بعد ذلك في توحيد الفنون وقرروا لكل فن موضعاً مخصوصاً من المكان وقد استغرق عملهم هذا زمناً طويلاً كانت كلها أنماطاً ومشاق، وإني لأعرف كتباً كثيرة مما تجده الآن كاملاً كان الكتاب الواحد منها بعضه في خزانة فلان وبعضه الآخر في خزانة فلان وباقيه في خزانة فلان ولم يجتمع أجزاءه بعضها على بعض إلا بطريق المصادفة الحسنة، وأعرف كذلك أن بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود وجد في دشت كان في خزائن الجامع العيني ولم يبق به أحد ممن تولوا تغييرها للطلاب، ولم يعن بفرز الدشت لتوجد تلك النفاثس بين أوراقه إلا بعد أن كان صدر أمر أحد مشايخ الجامع بحرقه، وتدارك الأمر من يعرف قيمة العلم ولا يبالي بالنعب في المحافظة عليه، وقد رأيت بعيني كثيراً من المصاحف الشريفة وهي بين الأتربة مع أنها من أجود المصاحف خطأ وورقاً، وفيها من الفوائد وعلوم التجويد مالا يوجد في سواها وغير ذلك كثير، فنكتفي بما ذكرناه فما الغرض إلا بيان حالها قبل جمعها وفي هذا القدر ما يكفي لذلك

بعد أن عرف ان في الازهر دار كتب أقبل عليها أهل البر فأعانوها بهداية من الكتب النفيسة، وأهم هدية قدمت اليها هي هدية كتب المرحوم سليمان باشا أباطه فان ورثته حياهم لله لثقتهم ببعض أعضاء المجلس (١) سمعوا قوله وقبلوا اشارته وقدموا كتب أبيهم الى دار الكتب الازهرية مشترطين أن يجعل لها خزائن مخصوصة في مكان مخصوص فكان كذلك وجاءت تلك الكتب كالعروس تجلى لصاحبها ليلة الزفاف لأن الباشا رحمه الله كان ممن يتعشق الكتب ويحب فنون الآداب العربية والتاريخ وهي في كتبه شيء كثير، فكان ورثته قدوة لغيرهم من الناس وبذلك كاه تكونت مكتبة جميلة منتظمة لا ينقصها إلا سوى الفهرس العام والعمل فيه سائر سيراً حسناً وإن كان بطيئاً ولعله يتم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولم يكتب المجلس بهذا القدر بل رجع الى الأروقة الشهيرة في الازهر وهي أروقة الترك والشوام والصمايدة والمغاربة وجعل الكتب التي بقيت فيها تحت مراقبة أمين المكتبة الازهرية ، وطلب من ديوان الاوقاف مبالغ أخرى لترتيب كتبها وتنسيقها ، فأجيب الطلب وتعينت العمال، ورتبوا الكتب في تلك الأروقة على الطريقة التي رتب عليها المكتبة، ثم وضع الكثير منها بعد جمعها وترتيبها في خزائن جديدة صنعها ديوان الاوقاف على نفقته بالأروقة المذكورة تحت مراقبة هذا الأمين، ولا تزال العناية موجهة الى تجديد خزائن لباقيها

ولقد تفضل الجنب العالي بزيارة دار الكتب الازهرية عدة مرات وما من مرة إلا وأظهو سروره مما رآه فيها من حسن الوضع والنظام، وهي الآن مطرحة أنظار السامعين، ومحط رحال المطامنين ، ومكان النفع العام للعلماء والطلابين

وقد زيد في مبلغ المائة والخمسين جنبها المخصصة لشراء الكتب واصلاحها وتجليدها مائة جنبه في كل عام فأصلح وجلد كثير مما كان من الكتب بلا جلوده واشترت كتب كثيرة من كثير من التركات حتى ضاق بها المكان على سعته

(١) تقدم في أول هذا الفصل أن سليمان باشا أباطه كان من اوفي اصداقه الاستاذ الامام وكان أنجاله يعدونه كوالدهم في العطف عليهم فلذلك قبلوا رأيه

فاضطر المجلس الى أخذ مكان آخر من الازهر أصلحه ديوان الاوقاف وعمل فيه ماعمل في الأول، وامتلات خزائنه أيضا بمعتبرات الكتب ونفائسها مما يتجدد شراؤه كل عام .

ولم يصل المجلس الى هذا الحد من صيانة تلك الكتب وجعلها بئامن من الضياع والتلف إلا بعد عناء شديد وجهد جهيد في مقاومة تلك الافكار العتيقة، ومطاردة تلك الاطماع التي كان يقصد منها بيع تلك البقية بذلك الثمن البخس ، واني أعرف كثيراً من أهل الفضل والدين أرجعوا الكتب التي كانوا اشتروها من أولئك الباعة الاديباء الى مكتبة الازهر لعلهم انها صارت دار الحفظ والصيانة لهذه الكتب الموقوفة على المتعلمين، وأما بعض أهل الشهرة من كبار العلماء وصالحهم فقد جيء من بيوتهم بالكتب في الزنايل والغرائر ، لا يعرف الكتاب منها أول ولا آخر

اصلاح التعليم

وفي أول السنة الدراسية من سنة ٣١٤ الداخلة في سنة ٣١٥ شرع المجلس في تنفيذ بعض مواد القانون فبدأ بالمادة الثانية والعشرين لانها أساس ترقى التعليم ، وهي اتماضية على الحواشي وانتقارير في الاربع السنين الاولى من سني التعليم ، فحدد الكتب التي تقرأ فيها بدون تلك الحواشي وتلك التقارير التي تحول بين الطالب وبين الفهم وتشوش عليه موضوعات العلوم ، فأصدر قراراً في ٦ شوال سنة ٣١٤ بأن الكتب التي تقرأ في السنين الأربع الممنوع فيها الحواشي والتقارير تكون في علم النحو من الاجرومية الى ابن عقيل ، وفي فقه الحنفية من مراقي الدالاح الى العيني ، وفي فقه المالكية من ابن ترمي الى الشرح الصغير وفي فقه الشافعية من ابن قاسم الى التحرير بدخول الغاية في الجميع ، وحم في القرار منع قراءة شرح الكفراوي على الاجرومية لانه أضر الشروح بالطلبة المبتدئين ، ثم ألزم الاساتذة أن يبدأوا دروس الفقه في كل سنة من السنين الأربع برسالة في علم التوحيد قاصرة على سرمد العقائد ومجردة عن البراهين الكلامية وأن يحتموا

دروس الفقه في كل سنة منها برسالة صغيرة في علم الاخلاق حتى يشب الطالب متحلياً بالآداب الشرعية وكذلك حتم على الاساتذة أن تكون قراءة الكتب المعتاد قراءتها في أيام العطلة الدراسية مجردة عن الحواشي والتقارير

وقد لاحظ المجلس أثناء تلك السنة الدراسية أن بعض الطلبة وكثيراً من المشايخ قد تعودوا أن يطيلوا مدة البطالة الرسمية فأصدر قراراً في آخرها ليكون عليه العمل من أول السنة التالية الدراسية (١٣١٥ الداخلة في سنة ١٣١٦) أبان فيه مدد المساحات القانونية وحددها تحديداً في غاية الوضوح حتى لا يحتاج طالب ولا يتأول عالم . وحتم على كل استاذ وكل طالب أن لا ينجلي من أيام العمل القانوني يوماً واحداً من إلقاء الدروس أو تلقيها وقرر العقوبات على كل من يخالف بقطع الجرايات فيما ليس فيه شرط واقف وبقطع المرتبات النظامية التي رتبتم بمقتضى القانون فيما لا يسمح شرطهم بقطع الجراية فيه

وكذلك لاحظ المجلس في أثناء إلقاء الدروس في تلك السنة الدراسية أن في الازهر عادة مستحكمة وهي إهمال الاستاذ للطالب في آدابه وفي مواظبته على الحضور في الدروس، وإهمال الطالب لانه لم يتعود من مشايخه المراقبة عليه فأهمل في احترامه لهم، وتباطأ في أعماله، ولم يزال بمحقوق اخوانه الطلبة، ففسدت أخلاق الطلاب، ووضعت آدابهم الدينية، وتلاشت عوائد حسن المعاشرة بينهم، فأصدر المجلس قراراً في ٢٩ شعبان سنة ٣١٤ ليكون دواءً لتلك الادواء . بين فيه ما على الطالب من الحقوق ، وما على الاستاذ من الواجبات ، فتم على الطالب أن لا يتلقى أقل من ثلاثة دروس في اليوم، وأن لا يشتغل أثناء الدرس بغيره ، ولا يكلم فيه غير أستاذه، وأن لا يسأل الطالب أستاذه في الدرس أكثر من ثلاث مرات في الموضوع الواحد. فإن بقيت لديه شبهة كله فيها بعد الفراغ من الدرس، وأن تكون سيرته الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين ، وأن يحترم أستاذه في الدرس فلا يرفع صوته عاياه، ولا يجلس بين يديه بهيئة تنافي الآداب وأن يعامل جليسه في الدرس بالحسنى ، فلا يؤذيه بالقول ولا بالفعل ، وأن يستمر في تلقي الكتاب الذي ابتداء فيه على الاستاذ الذي شرع في تلقيه عنه حتى يتمه ،

فاذا بداله الانتقال الى شيخ غيره وجب عليه أن يخبر شيخ جهته المنتسب هو اليها ، وإذا شرع الطالب في تلقي كتاب وجب عليه اكمله فلا ينتقل الى كتاب أرقى منه قبل ان يتمه ، وكل هذه الآداب التي قررت للطالب كانت العادة جارية بين الطلبة بمخالفتها ، وضررها بالتعلم والاخلاق لامرية فيه

وأما الاستاذ فقد حتم عليه في ذلك القرار أن يكون القدوة الحسنة للطلبة في حسن الاخلاق والسيرة الشخصية ، وأن يتعهد الطلبة الذين يحضرون درسه بنفسه ان كان مبصراً او بمن يستنبيه ان كان ضريراً ، ليعرف من يتقرب منهم عن الدرس فيخبر عنه شيخ جهته المنتسب هو اليها ، ليخبر شيخ الجامع بانقطاعه عن الدروس ، وأن يراقب حال الطلبة اثناء الدرس حتى لا يأتي احدهم بما نهى عنه ، فاذا خالف نبهه الشيخ اول مرة ، فاذا عاد زجره ، فاذا عاد أبعدته عن الدرس ، وأخبر شيخ جهته ليخبر شيخ الجامع ليعاقبه بما يراه ، وأن يجتنب الاستاذ حينئذ تلك العادة القبيحة : عادة سب الطالبة وشتيمهم الشتم القبيح بسب الآباء والامهات ، وضررهم بالعصي والنعال . وأن يوجه ذهن الطالب الى تعقل المسائل وفهم المعاني من أقرب الوجوه ، متجنباً الاحتمالات البعيدة وتكلف التعاليف ، وأن يحضر الاستاذ درسه قبل اتمامه فيراجع ما يحتاج لمراجعته من الكتب لتصحيح الفاظ الشعر التي تذكر في الشواهد ، حتى لا يضيع وقته في التفاهم مع الطلاب ، وان كان ذلك لا يمنعه من قبول رأي التلميذ ان كان صواباً ، وان لا يأتي الاستاذ للتالين في اثناء الدرس بما يشوش عليهم الفهم ، فلا يغرب بالاكتثار من الاعتراضات النظرية والجواب عنها بتلك الاحتمالات المضطربة والذوات ، وأن لا يخطئ مسائل علم بمسائل علم آخر الامسأة جاءت عرضاً وتوقف عليها في فهم المقام ، فيتكلم عنها الاستاذ بمباراة قصيرة على قدر ما يدعو اليه الضرورة في الافهام ، وجعلت مدة الدرس بحيث لا تنقص عن ساعة ولا تزيد عن ساعتين وكل هذه التكاليف التي نيطت بالاستاذ كانت العادة جارية بعدم ملاحظتها ، وكان عم معظم المشايخ الكبار هو التشديق بالاحتمالات البعيدة وتضييع الازهان

تفتيقا لها كما يزعمون ، ولا يبالون أفهم الطالب أم أشكل عليه الامر ؟ أصحت القاعدة ام ضاعت هباء ؟

أعرف شيخا من كبار المالكية (١) قد شهر بالتقدم في السن كان يقرأ درسا في علم المنطق أيام المسامحات من كتاب الخبصي ويحضر درسه هذا كل الباقيين من المجاورين في الازهر تقريبا ، وعرض في درسه ان حاشيته اعترضت على الشرح فأخذ الشيخ يدفع الاعتراض بالتمحلات والاحتمالات النحوية ، حتى استقر رأيه على تصحيح كلام الشرح ، فقال له بعض الطلبة وأنا أعرفه أيضا (٢) « يامولانا انه يترتب على هذا التصحيح تغيير حكم القاعدة المنطقية فبعد أن تكون السالبة الكلية تنعكس جزئية مثلا يصير عكسها كلية ولم يقل بهذا المنطقيون » فأجابه الاستاذ : ليس في هذا من ضرر يا كيت وكيت اذا صح الاعراب اندفع الاعتراض ، فما علينا من القاعدة الاصلية وما يطرأ عليها من البقاء او الانقلاب . وأعرف شيخا آخر من كبار الشافعية قرأ في درسه لعدم مراجعة الكتب قبل القاء الدرس البيت المشهور * كادت نفوس القوم عند الغلصمة * بالفاء بدل العين ، فقال له أحد الطلاب وأنا أعرفه أيضا انها الغلصمة بالعين لا بالفاء ، فسبه وشمته وأهانته كثيرا وأصر على انها بالفاء . كل هذا قد لاحظته المجلس ووضع له ذلك القرار ، تخفيفا لتلك الاضرار ، ومراعاة لمصلحة المعلمين والمتعلمين بما يقضي به الشرع الشريف ، ويطلبنا به الدين القويم

نظام الجرايات

وفي ١١ ذي القعدة سنة ١٣١٤ دار في خلد المجلس ان يضع نظاما للجرايات بما تخوله له المادة التاسعة من ائقانون لتقطع الفوضى في هذا النوع من الماديات ، كما قطعت في مادة المرتبات ، وأمر الجرايات في الازهر لا يخطر مافيه من الهمجية

(١) هو الشيخ احمد الرفاعي المشهور (٢) هو سعد زغول الشهير وقد سمحت

هذا منه وذكرته في النار عنه

على بال ، ولا يمكن أن يتصور كيف وجدت على ماهي عليه ولا كيف سارت ولا كيف رضي بسيرها القوم ، وهي التي كانت منبع الثروة للقباء ومشايخ الاروقة والحارات ، وسبب التخاصم بين المجاورين بل بين العلماء السكار ، اذ كانت تعطى في الغالب لغير المستحق وهو يعرف أنه غير مستحق ، فيبديها للنقيب طول السنة الدراسية او مدة المساحات . ولم يكن الاخذ للجرايات او الحرمان منها مبنيا على طول زمن المجاورة أو على اختيار تبين به حال الطالبين فيقدم المجتهد ويحرم من سواه ، وانما كان مبنيا على حسن الحظ والاهواء ، فكتبت مشيخة الازهر الى مشايخ الاروقة تمهيداً لوضع هذا النظام منشوراً مضمونه ان مجلس ادارة الازهر سيشرع في سن النظام لسكل الاروقة والحارات وذلك يستدعي أن يكون لديه كل المعلومات المناسبة لذلك وطابت منهم أن يرسلوا الى المشيخة في ظرف ثلاثة أسابيع بيان ما عندهم من الجرايات والرتبات ومن هو مصرفها من العلماء والطلاب ، وما هو الأصل في ترتيبها على الوجه الذي هي عليه سواء كان قاعدة عمل قديم أو شرط واقف ، مع ارسال صور من كتب الوقف أو من قواعد العمل اقديم ، وصور ما في كل رواق من قانون قديم وضع لضبط المجاورين أو لتوزيع الجرايات والمرتبات ، أو لتعيين المستحقين بالعدد أو بالصفات ، وما يكون موجوداً عندهم من شروط الانتظام في سلاك الطلبة والمنتظرين ، أو طرد من يخرج عنها من المجاورين ، وما يوجد من الوقفيات القديمة الدالة على ان لارواق ريعاً سواء كان متحصلاً أو غير ممكن التحصيل بسبب من الاسباب وبناء على ذلك وعلى كثرة اللاحاح من المشيخة تكلمات المعلومات وقدمت الى مجلس الادارة ، فقرر تشكيل لجنة للنظر في تلك المعلومات ، واستخلاص مشروع نظام واحد يجمع الاروقة والحارات ، على اختلاف مقادير الجرايات في كل منها وجهات ورودها ، مراعى في كل واحد منها شروط الواقنين عليه ان كان له أوقف معلومة بشروط معينة ، وأما ان كان أصها الارصادات أو شروطها غير معلومة فيراعى فيها قواعد الشرع المنيف ، فشككت اللجنة تحت رئاسة الشيخ عبدالقادر الراقمي وانضم اليها أحد أعضاء مجلس الادارة ليضع المشروع في القالب المعتاد للنظامات

وقد اشتغلت اللجنة بمجد واجتهاد، وبمجت طويلا في تلك المعلومات التي وردت من الاربقة والحرارات في سجلات الازهر وفي الوقفيات المقيدة بها، ورجعت في معظم أعمالها الى الكتب الفقهية والنصوص الشرعية في الاحوال التي كانت تستدعي ذلك حتى أكملت المشروع وقدمته الى المشيخة في أواخر سنة ١٣١٦ تضمن هذا المشروع فصل معظم الاربقة بعضها عن بعض في الحكم لان شروط بعض الواقفين مخالف لشروط البعض الآخر، وضم بعض الاربقة والحرارات الى مماثله في الحكم، وجعلت فيه الجراية العمومية التي تصرف الآن من الاوقاف لغالب الاربقة تحت حكم واحد لانها من قبيل الارصادات أو من قبيل ماهو مجهول الشروط، وجعل للغرباء أحكام خاصة بهم من جهة تقدير الكفاية لكل شخص من الجراية في كل يوم لانهم منتطعون وليس لهم أهل في البلد ينفقون عليهم، ثم بين فيه مدد المساحات والمدد التي يسمح للطالب بالتغيب عن الازهر فيها أيام العمل والتحصيل محافظة على شروط الواقفين، وحددت فيه العقوبات بقطع الجرايات بما ينطبق على شرط الواقف وغير ذلك من الاحكام وبعد الفراغ من وضع هذا المشروع قدمته للجنة الى مشيخة الازهر ليعرض على مجلس الادارة ويقرره بعد تعديل ما يحتاج منه الى التعديل وقد طرأ على المجلس أمور كثيرة عاقته عن النظر فيه وأقلها انه يحتاج الى مراجعة الاصول التي أخذت عنها اللجنة التي وضعته وأكبرها ما يؤخذ من الكلام فيما يأتي عن مدة مشيخة الشيخ سليم البشري والعوائق التي كانت تعترض سير المجلس في مدة هذا الاستاذ

امتحان التدريس وشهادة العالمية

وفي ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٦ قرر مجلس الادارة النظر في شؤون امتحان طالبي التدريس، فأول اصلاح بدأ فيه أن أعلنت مشيخة الازهر طلاب هذا الامتحان بأن (المادة الثانية والعشرين) من القانون تقضي بأن الطالب والاستاذ مخيران بعد الأربع السنين الأولى في النظر في الحواشي وعدمه، ومع هذا التخبير لا يصح أن يلزم الطالب بأن يؤدي الامتحان في الحواشي المعتاد

تأديته فيها ، وما عليه إلا أن يكون على علم تام من المعنى الذي يتمحرن فيه ، وان (المادة الثالثة والعشرين) من القانون تقضي بأن كل طالب علم في فقه مذهبه يتلقى أصول مذهبه ولا يصح من هذا الإزام طالبي الامتحان بأن يؤدوا امتحان الاصول في كتاب جمع الجوامع اذا كان الطالب مالكيًا أو حنفيًا، فان ذلك الإلزام يفضي الى ترك العمل بمادة (٢٣) السابق ذكرها ، فما على طالب الامتحان إلا أن يتمحرن في علم الاصول غير مقيد بكتاب جمع الجوامع المذكور

وبعد هذا تحتمق المجلس من أن كيفية امتحان التدريس جارية على غير قاعدة معينة وان كل عضو من أعضائه يسأل الطالب كما يشاء في أي وقت أراد على غير نظام ، وهذا يؤدي الى تشويش ذهن الطالب ، فأصدر قراراً في ٢٨ شوال سنة ١٣١٦ كان هو النظام الداخلي لامتحان طالبي التدريس ، ومتنضاه ان السنة الدراسية كما يظرف للامتحان ، وأن يعقد مجلسه في كل أسبوع مرة على الأقل ، ولا يتمحرن في المجلس الواحد أقل من اثنين. وأن لا يسأل الطالب في أول قراءته بل بمنيل حتى يسكن روعه وينطاق لسانه ، وأن لا توجه اليه الاسئلة إلا بعد أن يقرر المسئلة على حسب فهمه ، ولا يكون السؤال في العبارات ، إلا بعد الاسئلة في الموضوعات ، وأن لا يتعدد السائل في سؤال واحد ، وأن لا يتداخل سائل آخر في سؤال السائل الاول حتى يتمه ، وأن لا يناقش أعضاء المجلس بعضهم بعضاً بل تكون المناقشة قصيرة على العضو السائل والطالب المسئول، فاذا وقعت المناقشة بين الاعضاء بحضرة الطالب فلا يعد عجزه عن الجواب فيها طعناً على اقتداره ، وان لرئيس اللجنة أن يخصص كل واحد من أعضائها للسؤال في علم من العلوم ، وان الاستغراد ممنوع لما يترتب عليه من الخلط في موضوعات العلوم ، فلا يسأل الطالب وهو يقرأ الفقه مثلاً في علم النحو والبيان، وغير ذلك من اختصاص رئيس اللجنة ببعض الاحكام ووجوب العمل بهذا القرار في انعام الدراسي الذي صدر فيه (وهو عام سنة ١٣١٦ الداخل في سنة ١٣١٧)

وكل ما أوجبه هذا النظام كان لمعنى مخصوص مشاهد في الامتحان ، سبب الشكوى منه في كل زمان ، ومع شدة مراقبة رؤساء اللجان والمحافظة على تنفيذ

ماقضى به هذا القرار فقد كان يغلب على بعض الاعضاء ما تعودوه قديما فيحتاج الى التنبيه في كل مرة ، وما رسخ من أزمان ماضية لايزول إلا بالتكرار

العلوم والكتب ونظام التدريس

وفي ٩ رجب سنة ١٣١٦ صدر قرار من مجلس الادارة تنفيذاً للمواد ١١ و١٢ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ من القانون وهي متعلقات بتوزيع العلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة المدرسين فيه، وبتعيين الكتب لجميع العلوم التي تدرس في الازهر خصوصاً غير المتداولة فيه، وبتحديد نوعي العلوم من المقاصد والوسائل وبتمرين الطلاب في العلوم الآلية على تطبيق العلم على العمل، وبتخصيص الزمن لكل نوع من النوعين وبمنع قراءة الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى. وبالزام الطالب بأن يبدأ اشتغاله بعلوم الوسائل حتى اذا جاء الى المقاصد كان لديه ما يجعله أهلاً لتلقيها ولقد كان في وسع المجلس أن يصدر قراره بذلك كله ويصير بمجرد صدوره واجب التنفيذ كما قضى به القانون ، لكنه أراد أن يشرك معه كبار العلماء ليشاورهم في الامر ويقف على آرائهم في كل باب من هذه الابواب ^(١) فلذلك قرر تشكيل لجنة من اكثر من ثلاثين من أفاضل العلماء من كل مذهب تحت ريادة الشيخ سليم البشري ، وكان إذ ذاك من أعضاء المجلس ، وضم إلى أعضائها بعض أعضائه الآخرين ، وكتب شيخ الازهر إلى رئيس هذه اللجنة كتاباً بذلك ودعا العلماء إلى الاجتماع في إدارة الازهر فاجتمعوا جميعاً ، وافتتح شيخ الجامع الجلسة بعد الحمد لله والثناء عليه بأننا قد دعوناكم لابلغكم ان لجنة تشكيلت منكم للنظر في أمر الكتب وطريقة التعليم ، ولا يخفى عليكم أن تعليم غاية ، ولكل غاية وسيلة ، ومن وسائل العلوم الكتب والتعليم ، ومن الكتب

(١) كان غرض الاستاذ الامام من هذه المشاورة ان يكون كبار علماء الازهر مقنعين بهذا الاصلاح ليرجى دوامه وعدم رجوعهم عنه اذا زالت السلطة القوية التي كان هو القائم بها ولم يكن وانفا بدوامها

ماهو سهل الايصال إلى الغاية أو واف بما يؤدي إليها ، ومنها ما ليس كذلك ، ومن طرائق التعليم ما يوصل إلى فهم مايلقى على الطلبة ومنها ما ليس كذلك ، ولا يخفى عليكم أيضاً ان من الاساتذة من يتصدى إلى تدريس علم والافضل له أن يقتصر على غيره ، ولقد رأينا في امتحانات طالبي التدريس أن بعض طلبة العلم بعد إقامتهم الزمن الطويل في الازهر يوجد فيه قصور ظاهر ، وأغلبهم لا يكون عنده من المعلومات أكثر مما يعرفه بعض طلبة العلم المتوسطين ، ولأجل هذا شككنا هذه اللجنة وكتبنا لحضرة رئيسها هذا الكتاب وتلاه بنصه وهذا ملخصه :

من المعلوم ان الكتب التداول قراءتها في كل العلوم التي تدرس في الازهر محتاجة للنظر فيها من حيث هي موصلة للمطلوب منها من تعليم الطالب ما فيها من العلوم لان نظام التعلم والتعظيم مفتقر الى معرفة الوسائل من المقاصد والغاية المطلوبة من كل علم ، وبمراعاة ذلك يصلح ما هو معلوم لنا ولكم من نقص محمول الطلبة في كثير من العلوم ، وفضلا عن ذلك فان ما نشاهده وتشاهدونه من عدم وقوف كل استاذ عند حده في قراءة الكتب والفنون محتاج كذلك الى الاصلاح ، وفي علمكم ان القانون يقضي باصلاح ذلك كله وجعله على نظام مقرر مضبوط ، ولهذا شكلت لجنة من اكابر العلماء تحت رياسة فضيلتكم للنظر في امر العلوم التي تدرس في الازهر ، وتحديد الغاية المطلوبة من كل علم ، وفي امر الكتب المتداولة قراءتها وتقدير ما يلزم إدخاله عليها سواء كان بتغيير بعضها أو الزيادة على الموجود أو تنقيصه ، والنظر في قراءة حواشي الكتب التي يستقر الرأي عليها والزمن الذي يخصص لقراءة كتب المقاصد والذي يخصص لكتب الوسائل ، والنظر في توزيع العلوم على حضرات الأساتذة المدرسين ، حتى يحصل بذلك طلاب العلم بالازهر على المقصود منه ، وتستقيم طريق التعلم والتعليم ، مع تطبيق عملكم في سائر الامور كلها على قانون الجامع الازهر ، وتقييد جميع الآراء التي تبدى في جلساتكم ومحاورها واضحة في محضر يعد لذلك

وبعد الفراغ من تلاوته اجتمعت كلمة كل الاعضاء على استحسان هذا المشروع ، وعلى وجوب النظر في الموضوع ، ورأوا ان الاسهل لا كمال الامر أن

تنتخب لجنة فرعية من هذه اللجنة العمومية للنظر في كل جزء مما حواه هذا المشروع و تقرير ما تراه فيه ، فكان كذلك ، و صادفت أغلبية الاصوات لأعضاء اللجنة الفرعية كلا من الشيخ عبد القادر الرفاعي و الشيخ عبد الرحمن البحراني من الحنفية و الشيخ احمد الرفاعي و الشيخ محمد أبي الفضل من المالكية و الشيخ محمد البحيري و الشيخ محمد النجدي من الشافعية ، و ضم اليهم الشيخ محمد عبده على أن يكون عضو مجلس الادارة ، و الشيخ يوسف الحنبلي عند الكلام على كتب فقهاء الحنابلة ، و تقرر أن تعرض هذه اللجنة الفرعية أعمالها على اللجنة العمومية لتقرر فيها ما تراه

و لقد ابتدأت اللجنة الفرعية اجلساتها يوم الاحد ١٣ رجب سنة ١٣١٦ ، و استمرت على الاجتماع و البحث و العمل الى يوم الاحد ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣١٧ ، و كان أعظم همها و ما دار عليه بحثها هو تعيين كتب الدراسة و بدأت عمدة بتلاوة الفصل الاول من الباب الثالث من القانون و هو ما يحتوي على ماشكات لأجله اللجنة ، و ما زالت تنظر في كل جزء جزء حتى أكملت مأموريتها و قدمت تقريرها الى اللجنة العمومية في ذلك اليوم ، و اللجنة العمومية لم تعدل في تقرير اللجنة الفرعية إلا بعض الشيء ، و ذكرت في بعضه انه مستحسن و ان كان غير لازم ، إلا انه في مواد تافهة لا يذكر ، ثم رفعته الى مشيخة الازهر - و قد كانت أسندت الى الشيخ سليم البشري - فرقد هذا التقرير المسكين مع ما رقد من الاعمال الجامعية تسامح المشيخة بتقديمه الى مجلس الادارة و لا أظن الا ان نومه سيطول إن شاء الله " و أما تقرير اللجنة الفرعية الذي أقرته اللجنة العمومية فاني ذاكر ما يخصه جميعا للفائدة و تبينا لتلك المقاصد التي كان يقصدها مجلس الادارة و ليعرف الناس في كل ما يقصد بالعلم و أهليه غير الخير

[للؤلف] و ههنا تفصيل لما اتفقوا عليه في تدريس كل علم لا نظيل بنشره ، و من ثم الاطلاع عليه فليرجع الى ذلك الكتاب ، و اكتبني أذكر انه بين في التقرير

(١) كان سبب توقيف الشيخ ساجم لاعمال المجلس العلم بالبحر اف الحدبو عن شيخ محمد عبده و ارتياحه أو ابعازه بمقاومة عمله كما سنفضله في الكلام على مقاومة الامتاع

يكون الغرض من درس كل علم ما وضع العلم لأجله والتأهيل للعمل به ومن ذلك وهو أنهم، أن يكون درس التفسير « لبيان ما أودع في القرآن من الاسرار والحكم والمفاسد التي يرمي إليها في القصص والأوامر والنواهي ووجوه العظة بأخبار الماضين وأحوال الحاضرين ، والمعاربة بين ما جاء فيه وما عليه الناس الآن . وبيان ما فيه من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز » وكان مما قررت له اللجنة درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز من كتب البلاغة ، وكذا درس رسالة التوحيد للاستاذ الإمام في العقائد ، ولكن لم يقرأ هذه الكتب فيها غيره . وفي هذه السنين يقرأ رسالة التوحيد بعض اخواننا الذين نشأوا على مشربه رحمة الله (ثم قال الكاتب)

ثم اتفقت الآراء على عدة من العلوم التي لم تكن تدرس في الجامع الازهر ومنها (التاريخ الاسلامي) واختاروا له كتاب الخيس والمواهب اللدنية في تاريخ السيرة النبوية . وكان من رأي الجميع وجوب قراءة التاريخ وأن يكون المقصود منه بيان الحوادث وتعليقها لا مجرد ذكر القصص والحكايات وكذلك اتفقت الآراء على تقرير علم (تقويم البلدان) وأن تكون كتبه ما يختار مدرسه ثم اتفقوا أيضا أن يقرأ في الازهر (علم المحاضرات) وأن يكون الكتاب الذي يقرأ فيه هو العقد الفريد لابن عبد ربه ثم تقرر أيضا بالاتفاق أن تدرس فنون (روايات القرآن) ولكن لا يكون ذلك إلزامياً بل لمن يختار

مسألة زاوية العميان

فصل الشيخ عبد الكريم رحمه الله هذه المسألة في خمس صفحات وقال انها أهم عمل إداري لمجلس الادارة . وملخصها أن زاوية العميان هي أحد أروقة الازهر خاصة بالعميان ، كان للمجاورين فيها استحقاق في وقف (المرحوم عبد الرحمن بك كسنداي) الذي يديره ديوان الاوقاف وقد مضت عدة سنين والديوان لا يعطيهم استحقاقهم في الوقف فوكل شيخ الزاوية أحد كبار

المحاميين بارشاده في رفع قضية على الديوان في المحكمة فحكمت المحكمة على الديوان بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه وأيدت الحكم محكمة الاستئناف فتوقف الديوان في الدفع فاضطر المحامي الى حمل المحكمة على التنفيذ القهري ففتح محضرها خزينة الاوقاف بالقوة القاهرة (في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٧ الموافق ربيع الاول سنة ١٣١٥) وأعطى المبلغ للمحامي فأخذه ووضعها في صندوقه ولم يعطه لشيخ الرواق الذي هو وكيله ، فكان هم مجلس الادارة حفظ المبلغ من الضياع وإيصاله الى مستحقيه بالعدل والانصاف . فكلف شيخ الزاوية أن ينذر المحامي بدفع المبلغ من قبل المحكمة - فلما بلغه الانذار اتفق مع بعض الاجانب على بيع حصص العميان اليه لاجل منع التنفيذ في مقابلة مبالغ معين يدفعه له ، فأنذر الاجنبي شيخ الزاوية وشيخ الازهر والمحامي طالبا دفع المبلغ له بما اشتراه به من المحامي الوكيل الشرعي عن المستحقين . وبلغ المحامي أصحاب السلطة والنفوذ الفعلي في الحكومة من الانكليز ان مجلس ادارة الازهر يريد أخذ مال العميان الفقراء المساكين ليرده الى ديوان الاوقاف ارضاء للخديو فعزموا على عدم تمكين الازهر من أخذ المبلغ وأما سمو الخديو فكان قد اعتقد أن الازهر استعمل سلطته القانونية بما يعد إهانة واساءة الى ديوان الاوقاف التابع لسموه وهو صاحب الفضل والنعمة على الازهر فيما دخل فيه من النظام وبما أفاض عليه من الاموال ، فوقع مجلس الادارة في مشكلة ذات ثلاث شعب: الخدويسيء الظن فيه بأنه خارج عليه مهين لديوانه - والانكليز يسيئون الظن فيه بأنه آلة للخديو يريد ارضاءه باموال العميان المساكين ، وهو بريء من هذا وذاك وانما هو القيام بالواجب عليه من حفظ حق العميان ان يضع وايصاله اليهم بالعدل والانصاف

فذهب أحد أعضاء مجلس الادارة الى الاسكندرية لشرح المسألة لسمو الخديو - وهذا العضو هو الكاتب الشيخ عبد الكريم رحمه الله إذ كان الاستاذ الامام مسافراً بالاجازة ولو كان موجوداً بمصر لما وصلت المسألة إلى هذا الحد المشكل . فقابل الخديو وشرح له الحقيقة وان القضية رفعت على الديوان قبل تشكيل مجلس الادارة وان المجلس وجد نفسه أمام حكم نهائي لا مرد له فكان الواجب

عليه حفظ هذا الحق لاهله وهو عرضة للضياع ، ثم قابل رئيس مجلس النظار وكان عنده ناظر الخارجية فشرح لها المسألة ، فافتنع كل من الجانبين بعض الاقتناع، وظلت المسألة معلّمة حتى عاد الاستاذ الامام من إجازته وعاد في تلك الاثناء المستشار القضائي الانكليزي وكان يجلب الاستاذ الامام كل الاجلال كما تقدم في الكلام على عمله في القضاء ، فبين له حقيقة المسألة ثم بينها للعميد المسيطر على الجميع (لورد كرومر) ففوض هذا البت فيها الى المستشار، فجمعه الاستاذ الامام بشيخ الجامع الازهر وكان المحامي فا تردد عليه ليستمين به على ما يريد فقضى بأن يوزع المبلغ كله على مستحقيه في الحال وأن يضرب بانذارات ذلك الاجني الذي ادعى شراؤه عرض الحائط ، وألزم المحامي رده كله ، وان يكون توزيعه بمقتضى كشف يحررها مجلس ادارة الازهر باسماء المستحقين ومقدار حصصهم ، وأن يتولى التوزيع عثمان بك مرتضى مدير الاقلام العربية في نظارة الحماية. وكذلك كان، ولما وصلت الدنانير الى أولئك العميان الذين كادوا يرضون بعشرها انطلقت ألسنتهم بالدعاء لمن كان سبب ذلك . . .

الحاق الاسكندرية في التعليم والنظام بالازهر

في ٢٩ المحرم سنة ١٣٢١ و ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٣ صدرت الارادة السنية بالحاق التدريس والامتحان في ثغر الاسكندرية بالجامع الازهر، ومضمونها (ان الجنب العالي وافقت ارادته العلية أن تكون الاسكندرية ملحقة بالازهر في التدريس والعلوم والامتحان وان مجلس ادارته يضع لها القوانين والنظامات ويرتب درجات العلماء الموجودين فيها وقت صدور هذه الارادة ويحصر الاماكن التي تدرس فيها العلوم هناك وان يكون ترتيب درجات علمائها بحضور ثلاثة من مشهورهم الأقدمين) فبلغت نظارة الداخلية الازهر هذه الارادة ، ولم يكن إلا ان سافر شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى الاسكندرية وشكلا لجنة تحت رئاسة شيخ الازهر من أكابر علماء الاسكندرية ودعوا اليها الشيخ احمد باشا ليعلم هل يقبل ان يكون الجامع الانور الموقوف للتدريس من قبل جدم الاعلى

خاضعا لهذه النظم الجديدة في الاسكندرية أم لا ؟ فتردد في الامر اولاً ثم عاد اليهما وأمضى على المحضر بأنه قابل هذه التنظيمات ، وان مسجد جده تسري عليه الاحكام التي توضع لها ، ثم اشتملت اللجنة بعد ذلك في حصر العلماء الموجودين وجعلت عمدتها في عملها قائمة وقف الغزي الذي اشترط واقفه ان يصرف جزء من ريعه الى العلماء ، ودقتر الجامع الانور التابع لوقف أولاد الشيخ ، لانه لم يكن ليدرج في قائمة وقف الغزي مستحق على أنه من العلماء الا بعد امتحان واذن بالتدريس ممن له الولاية في ذلك ، ولان دقتر الجامع الانور يقيد فيه من يؤذن له بالتدريس على ما وضعه واقفه من القواعد ، سواء كان بالامتحان أو الاختيار المصحح لصدور إذن شيخه للطالب بالتدريس فيه ، فكل من اندرج في أحد هذين النوعين فقد حاز صفة العالمية في ذلك الثغر ، فله حق اطلاق هذا الاسم عليه فيه ، أما ترتيب درجاتهم (أولى وثانية وثالثة) فكانت عمدة اللجنة قد طلبت التثبت من حالة العالم في العلم والاشتغال به ومقدار عمله بالسؤال من أعضاء اللجنة الاسكندريين لانهم أعرف بأنفسهم ، ودرجة الاشتغال لا تعرف إلا منهم ، فلا يعول في تقدير الدرجة للعالم إلا على أقوالهم ، خصوصاً واتهم من المشهورين ولهم على معظم علماء الثغر المشيخة في العلوم

أمضى الشيخان في الاسكندرية ثلاثة أيام ، ثم عادا ومعهما محضر عملهم فاشتغل مجلس الادارة بتقرير العلماء في الاسكندرية وحصرهم في عدد مخصوص ، وترتيب درجاتهم العالمية ، فصدر قراره بتاريخ ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٢١ (أواخر يونيه سنة ١٩٠٣) قاضياً بحصر عدد العلماء الاسكندريين في سبعة وأربعين عالماً وان منهم أحد عشر في الدرجة الاولى وتسعة عشر في الدرجة الثانية وسبعة عشر في الدرجة الثالثة ، وتضمن هذا القرار أيضاً أن لا يدرج في سلك علماء الاسكندرية بعد اولئك المحصورين إلا من ينجح في امتحان التدريس على القاعدة الجديدة التي يوضع لها النظام الجديد ، وان هؤلاء العلماء المحصورين يدرسون في الاسكندرية وغيرها من أماكن التدريس في اقطر المصري (عدا الجامع الازهر) وان من أراد منهم أن يدرس في الازهر فعليه للدخول في امتحان التدريس

عليه، وان من يتقدم لهذا الامتحان من علماء الاسكندرية يقدم على غيره من كل طالبه، وحدد في هذا القرار ما يدرسه أهل كل درجة في الاسكندرية من العلوم بالتداول تدريسها فيها

ولما كان تنفيذ هذه الاحكام يتوقف على وجود شيخ للعلماء هناك وكان لاولاد الشيخ ابراهيم باشا المنزلة الرفيعة بين أولئك العلماء لما لهم من الاوقاف ومكانتهم من الثروة وقدم بيتهم في العلم رأى مجلس الادارة أن يعهد بتنفيذ هذه الاحكام إلى أكبر أولاد الشيخ الثلاثة، فقرر تعيين الشيخ محمود باشا شيخا لعلماء الاسكندرية وتعيين الشيخ احمد باشا وكياله لأنه كان في حالة شيخوخة لا يتمكن معها من ضبط الاعمال، وأرسلت مشيخة الازهر هذه القرارات إلى الشيخ ووكيله وعهدت اليهما بتنفيذها وانتظرت الجواب بأهماسيعلان بما تضمنته هذه القرارات من الاحكام

ثم اشتغل مجلس الادارة بوضع قانون لسير التدريس والامتحان في الاسكندرية كما وضع لغيرها من الاماكن الملحقة به، وبعد الفراغ من وضعه رأى شيخ الجامع تعيين أحد اعضاء الادارة الازهرية^{١١} ليذهب إلى الاسكندرية ومعه هذا النظام الجديد فيتذاكر فيه مع شيخ العلماء ووكيله هناك حتى اذا كان لما عليه ملاحظات اصاح الحال فيها قبل التصديق الا نهائي عليه، فكان كذلك وذهب هذا العضو في شهر اغسطس او سبتمبر من سنة ١٩٠٣ واشترك مع الشيخ احمد باشا في تلاوة ذلك النظام فلم يجد من ملاحظته عليه الا ما يضمن المحافظة على كيان اوقاف اولاد الشيخ والتوقي من أن تمس بحسابه أو مراقبة من قبل المشيخة الازهرية، ثم لاحظوا على قرار حصر العلماء أنه ترك فيه ستة ممن يصح ادراجهم في أولئك العلماء وان ترتيب درجات العلماء يحتاج إلى التعديل لان بعضهم أعلي الثاثة وهو يستحق الثانية مثلاً

عده كل ما حووظات اولاد الشيخ على النظام والقرارات وكلها امور نفسية في اشياء شخصية كما هي التاعدة عند اهل العلم الشريف الآن. فبحث معهم

مندوب المشيخة فيما طلبوه فتبين له بمراجعة دفاتر مسجدهم والتحقق من حالتها ان اولئك الستة الذين تركوا في حصر العلماء لهم الحق حقيقة في أن يدرجوا في سلكهم فوعدهم بأدراجهم بمجرد رجوعه الى مصر . وأما تغيير الدرجات لبعض اولئك المحصورين سابقاً فلم يوافقهم عليه لان التغيير في البعض بلا سبب يستلزم إجابة من يطلب تفسير درجته في المستقبل والا كان ترجيحاً بلا مرجح ، ثم عاد مندوب المشيخة الى مصر وعرض الامر على الشيخ فقدمه الى مجلس الادارة وهو اصدر قراره بجعل هؤلاء الستة من العلماء وأن يكون واحد منهم في الدرجة الثانية والخمسة في الدرجة الثالثة كما اتفق عليه المندوب مع اولاد الشيخ ابراهيم باشا فصار عدد علماء الاسكندرية الذين يسرى عليهم حكم القرار السابق ثلاثة وخمسين أحد عشر درجتهم اولى وعشرون درجتهم ثانية واثنان وعشرون درجتهم ثالثة ، وتاريخ هذا القرار ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٢١ و ٨ مارس سنة ١٩٠٤ (وهنا ذكر الكاتب ان اولاد الشيخ ابراهيم باشا بدأ لهم رفض ماقروه مجلس ادارة الازهر من جماعهم تابعين له في ادارته ونظامه وترك استقلالهم وانفردهم بالرياسة العامة في الاسكندرية وان المجلس جاماعهم بكساوي التشرية وغيرها الى أن يأس منهم فقرر تعيين شيخ امهد الاسكندرية غير الشيخ محمود الباشا (نم قال)

الشيخ محمد شاكر

ان الله تعالى قد اظف بمباده العلماء وأراد أن لا يبق حالة الاسكندرية على ماهي عليه من الخلف وتعطيل الاعمال ، فساق الشيخ محمد شاكر قاضي قضاة السودان الى مصر بالاجازة فجاء اليها وايس في نفسه إلا الاستراحة من حر السودان ومن العمل فيه أيام شدة القيظ، ولم يكن يخاطر على فكر أحد من شيخ الازهر ولا أعضاء مجلس ادارته انه بمقدمه ينحل هذا المشكل لانه في وظيفة عالية بالسودان مرتبط فيها برأي غير رأي مصر والمصريين، ولكن الحاجة تفق الحيلة كما يقال ، ولا أجلبها فكر فيه بعض أعضاء المجلس وجس نبضه فوجد منه

ارتياحا للقبول فأشار عليه أن يعمل ليصل الى هذه الغاية^١ فقام بالأمر خير قيام ومهد لذلك باسترضاء الجهتين: جهة السودان اتوافق على نقله منها، وجهة مصر لترضى بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية، وكل سعيه فيهما بالنجاح، فقرر مجلس الادارة في ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ انتخابه لهذه الوظيفة الجليلة وأن يكتب الى نظارة الداخلية لتستصدر الامر العالي بذلك فكان ماطله المجلس وصدر الأمر العالي بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية في يوم ١٠ صفر سنة ١٣٢٢ و ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٤ وأنحل ذلك المشكل العظيم

عض اولاد الشيخ باشا بمد ذلك بنان الندم فإنه لم يكن لير على خاطرهم ماساقه الله من حل هذه العقدة وعادوا على الشيطان بالسخط وعلى أنفسهم بالالامة لقبولها وساوسه، واكن هذا لم يكن بالنافع فقد فات وقته وماضى لا يعود قام شيخ علماء الاسكندرية الجديد بعمه أحسن قيام، لما فيه من الفطنة وشدة الذكاء، واعلمه بما يجب لهذا الزمان الحاضر وعنده مجلس الادارة الازهرية وشيخ الازهر أكبر التعضيد، وسهل له الطريق في استعمال فكرته، ولم يقيد بنظام سوى نظام الازهر نفسه ونسخ له صور القوانين والقرارات التي يجزي عليها العمل المستمر، وقرر له كل ماطلبه في سير الاعمال وضبط نظامها وتكليف العمال بما يطلبه منهم. فأمضى بقية سنته في ترتيب وتنظيم وفي تعويد العلماء على العمل وضبط النواعيد والمواظبة على إلقاء الدروس. واستصدر أخيراً من مجلس الادارة قراراً يخصص المساجد التي يكون فيها التدريس في ثمانية مساجد ليس مسجد اولاد الشيخ ابراهيم باشا منها. والحكمة في ذلك ظاهرة جداً لأنه يجب أن لا يوجد

(١) ان العضو الذي أشار عليه بذلك هو الاستاذ الامام، وما أشار عليه به ان يظهر السخط عليه لاسمالة سمو الخديو حتي انه رضي ان يطمئن عليه بهذا المقصد، اذ كان من المعروف لدى سموه ان الشيخ محمد شاكر من حزب الشيخ محمد عبده ومن رجاله وانه هو الذي اخاره للسودان وسعى لجملة قاضي القضاة فيه. وهذا حق وان لدي أكثر مکتوباته وتقاريره المهمة التي كان يرسلها الى الاستاذ الامام ليستينر فيها برأيه

معه من يشغله عن الجِد في العمل، وأن تزول عوائق المعارضات من بين يديه، فأصدر المجلس هذا القرار المطلوب وبه استراح خاطر شيخ العلماء الجديد والمقصد الأكبر والساعد القوي للأزهر والاسكندرية هو صاحب الفضل والنعم المتوالي على الجهتين أئمة الجنبات العالي الخديو، فإنه قد أظهر ارتياحه واستحسانه لما بذله شيخ علماء الاسكندرية من الجهد في تغيير وجهة التعليم فيها من القديم الى الحديث وأظهر رضاه العالي عن الأزهر لتعضيد هذا الشيخ في مقاصده ونقل التعليم من حالة الهمجية الى حالة النظام والدخول بالعلم والعلماء والطلاب في باب العلوم التي يقتضيها هذا الزمان (١)

وفي آخر السنة الدراسية الموافق تقريباً لأخريات سنة ١٩٠٤ قدم شيخ علماء الاسكندرية تقريراً الى مشيخة الجامع الأزهر (نشرته جريدة المؤيد في حينه) فصل فيه أعماله في تلك المدة القصيرة وهي نحو ستة أشهر تفصيلاً تضمن بيان أحوال العلماء والطلبة وما كانوا عليه وما صاروا اليه وما قريء في تلك المدة من العلوم وكيفيات التدريس ومواعيده وأمكنته وأنواع العلوم التي قرئت هناك ومن اختارهم من العلماء لتدريس كل علم منبه، وختمه بأن لا بد من إيجاد تقود كافية لكي يكمل الغرض المطلوب ويتمكن من إتمام العلماء والمتعلمين بالنظام، لأنه يستحيل تقدم الأعمال بغير تقود. فوقع تقريره هذا عند مجلس الادارة أحسن الوقع وتحقق ان العمل في الاسكندرية سيوصل الى ما يرجوه من نفع المتعلمين، وكلف شيخ العلماء بأن يبين حاجته من التقود ويضع الحرفها ميزانية مضبوطة فيعاونونه في تحقيق أمله بطلبها من لدن الجنبات الكريمة، ففعل ما كلف به في أقرب زمن، ووقدم منه نسخة الى الجنبات العالي ثم قدم نسخة أخرى الى مشيخة الأزهر، فلم يكن غير قابل من الزمن حتى وردت النسخة المرفوعة من الجنبات

(١) لا شك في ان سموه كان يحب هذا النظام الذي وضعه الشيخ محمد عبده للأزهر ونفذه بمساعدة سموه وأمكنه سخط أخيراً على النظام بما للسخط على الشيخ. ولما ظن ان النظام في الاسكندرية لا فضل فيه للشيخ وان الشيخ محمد شاكر ليس من رجاله ووجد مقتضى امروره وتعضيده غير ممرض بالمانم منها

العالي على الازهر مع كتاب من رئيس الديوان الخديوي مطلوب فيه نظرها بمجلس الادارة وتصديقه عليها بعد البحث وتحققه من الحاجة الى ما فيها، فبحث فيها المجلس وراها كلها موافقة للصواب فأقرها على ما وضعت وصدر قراره الرسمي بذلك في يوم ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٢ و ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤ وأبلغ هذا القرار في يوم صدوره الى ديوان الاوقاف ليقدر المبالغ المطلوبة في ميزانية سنة ١٩٠٥ المقبلة، أما مقدار المبالغ الذي طلبه الشيخ محمد شاكر وأقره مجلس الادارة فهو ٤٣٧٤ جنيهاً مصرياً في العام وقد أقر عليه المجلس الأعلى بديوان الاوقاف المتعقد تحت رئاسة الجناب العالي حسب العادة، وأدرج في ميزانية سنة ١٩٠٥، وجاء بذلك كتاب الى الازهر وهو بأبلغ الخبر الى شيخ العلماء في أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٤ وكلفه أن يضع لصف لصف هذا المبلغ قاعدة منتظمة حسب ما يراه مفيداً للعالم والتعليم وضع شيخ علماء الاسكندرية ميزانيته وجعل فيها موضعاً لاربعة من علماء الازهر ليكونوا عوناً له على ادخال العلوم الحديثة التي تعلموها في الازهر بالاسكندرية، فضلاً عن تعليم العلوم الدينية المتداولة في الازهر على الطريقة التي تضمنها قانون الجامع الازهر وقرارات مجلس ادارته فيكون تعليمها مفيداً للطلاب، وخصص قسماً من المبلغ المقرر له ليصرف في جريات العلماء والطلاب، وقسماً منه لاسكان المجاورين، وقسماً بعنوان مرتب شهري للعلماء على اختلافهم في الدرجات، وقسماً بعنوان معونة لبعض العلماء الفقراء غير المشغولين حق الاشتغال، فجعل مرتب العالم الازهري من الاربعة الذين طلبهم منه ثمانية جنيهاً في الشهر، ومرتب العالم من الدرجة الاولى الاسكندرية خمسة جنيهاً، ومرتب العالم من الدرجة الثانية منهم أربعة جنيهاً، ومرتب العالم من الدرجة الثالثة منهم ثلاثة جنيهاً، ومرتب العالم من ذوي المعونة منهم جنيهاً واحداً — وهذا عدا الجريات — وأرسل ترتيبه هذا مع جدول ببيان الدروس التي تاقى في العام الدراسي المقبل (الذي نحن فيه الآن) وأمكنتها ومدرسها وأوقات تدريسها هناك الى الازهر، فبحث فيه مجلس الادارة بحثاً مدققاً وأصدر قراره مصدقاً عليه بتاريخه في ٨ ذي القعدة سنة

١٣٢٢ و ١٤ يناير ١٩٠٥ تم انتخاب له العلماء الازهرين من أفضل علمائه الذين تخرجوا منه حديثا بعد دخول العلوم الحديثة فيه، وقرر أن تبقى مرتباتهم الازهرية معهم مضمومة الى المرتب الاسكندري، وسافروا الى اشقر الاسكندري قبيل مساحمة عيد الاضحى، وهام اولاء مع شيخ العلماء هناك يداً واحدة يشتغلون ليل نهار فيما يعود على العلم بالترقي والتقدم، وفيما يعود على المتعلمين بالنجاح إن شاء الله تعالى

﴿ مرتبات أولاد العلماء وما تنفقه الحكومة على الازهر ﴾

بعد نحو شهر من تقليد السيد البيلاوي مشيخة الازهر انفق هو وأعضاء المجلس على تنفيذ قانون المرتبات فيما يتعلق بأولاد العلماء، وتوضيح المقام تقدم مقدمة مختصرة نبين فيها ماهو المرتب للازهر في المالية شهريا وما يصرف منه للعلماء وما يصرف لأولاد المتوفين منهم وما يقضي به قانون المرتبات في شأن أولاد العلماء فنقول:

كان المرتب الشهري الازهرين سواء كانوا علماء أو اولاد علماء قبل صدور قانون المرتبات نحو ٣١٠ جنيهاً ثم انضم اليه مبلغ الأني جنيه في السنة الذي أعطته الحكومة إلى الازهر ووزعه مجلس إدارته بعد صدور القانون فخص الشهر ١٦٦ جنيهاً وكسوراً وبضمه إلى مبلغ ٣١٠ السابق ذكره يكون مجموع ما يخص الشهر ٤٧٦ جنيهاً وكسوراً (وهذا عدداً نحو ٦٢٧ جنياً سنوية تصرف في بدل كساوي التتريف لكبار العلماء وهو لا دخل له في المرتبات الشهرية) والذي يصرف من مبلغ ٤٧٦ جنيهاً الشهري للعلماء نحو ١٤٩ جنياً في الشهر. وكان عدد أولاد العلماء الذين يأخذون هذا المبلغ ١٧٣ شخصاً. فهذه جملة ما تصرفه الحكومة المصرية السنية لهذا الجامع الذي هو أكبر مدرسة دينية في البلاد الاسلامية، و خلاصة ذلك ان أولاد العلماء كانوا ١٧٣ نفساً ومرتبتهم الشهري ١٤٧ جنياً (١)

(١) ليت الشيخان محمد عبده وعبد الكريم يلغان في برزخهما ان ميزانية الازهر زادت في عهد جلالة الملك فؤاد على ٣٠٠ ألف جنيه في السنة وان الاصلاح الذي كما يشهدانه لم يتقدم ٣٠٠ خطوة ولا ٣٠ ولا ثلاثاً إلا ما بينه بعض المدرسين القليلين المهددين

أما الأحكام المتمثلة بأولاد العلماء في قانون المرتبات فهي كما يأتي :

(مادة ٢٠) إذا توفى أحد العلماء عن شيء من هذه المرتبات الشهرية وكان له ابن أو أكثر صرف لهم ما يكفيهم من مرتب أبيهم فإن لم يكف البعض صرف لهم الكل ، والرجع في تقدير الكفاية إلى مجلس الإدارة

(مادة ٢١) إذا كان أولاد العالم المتوفى قسراً عند وفاته اشترط فيهم أن يشتغلوا بحفظ القرآن إلى أن يبلغوا خمس عشرة سنة ، فإذا بلغوها اشترط أن يشتغلوا بطلب العلم وأن يواظبوا عليه ، وأن كانوا عند وفاة والدهم قد بلغوا السن المذكورة اشترط في صرف المرتب اليهم أن يكونوا مشتغلين بطلب العلم مواظبين عليه

(مادة ٢٣) إذا امتحن ابن العالم ولم ينجح على ما قرر في أصول الامتحان أو احترف بحرفة غير طلب العلم في الأزهر قطع مرتبه وصرف إلى مستحقه

(مادة ٣١) مجلس الإدارة ينظر في شؤون من يأخذون الآن مرتبات عن آبائهم ، فمن ثبت له منهم أنه مشتغل بطلب العلم حق الاشتغال أبقاه على مرتبه إلى أن يؤدي الامتحان بنجاح وعند ذلك ينقل إلى درجة العلماء ويجري على حكم المادة (٢١) ومن ثبت له منهم أنه غير مشتغل أو مشتغل غير مواظب أمره رئيس المجلس بالاشتغال أو المواظبة فإن استمر على ترك الاشتغال أو ترك المواظبة أربعة أشهر في السنة متوالية أو متفرقة لتسير عذر كان لمجلس الإدارة أن يقطع مرتبه ويصرفه لغيره من المستحقين ، فإن عاد إلى الاشتغال بعد ذلك لم يكن له حق في أخذ المرتب إلا إذا امتحن وصار من العلماء وعند ذلك يأخذ مرتب عالم ويجري عليه أحكام الدرجات

(٣٢) تضمنت المواعيد التي يرضيها ابن العالم في الاشتغال بطلب العلم وهذه الأحكام كما تراها روحها اشغال ابن العالم ومعونته على طلب العلم وإلزامه بدوامته ولكن هؤلاء الأبناء قد عكسوا قصداً قانون وصارت النقود معونة لهم على البطالة ، وعلى إتيان ما يحل بشرف العلم وأهله كما ثبت بالتجربة ، فإن من لا مرتب له منهم أو من له مرتب قليل يشتغل لينال مركزاً في الوجود ويكون خلفاً لآبيه في الأزهر ، ومن له منهم مرتب يفتنيه نوعاً ما اكتفى به عن العمل أو استعمله في غير ما وضع لاجله أو استعان به على ما يرضي الله وكان ماساً بالعلم والعلماء والمتعلمين .

لأجل هذا كله ولتجري النفع لاولاد العلماء نظر مجلس الادارة في شأنهم فقرر في جلسته المنعقدة في ٢ المحرم سنة ١٣٢١ و ٣١ مارس سنة ١٩٠٣ ان يدعى جميع اولاد العلماء الذين يأخذون هذه المرتبات لاختبار بسيط يتبين به حال المشتغلين منهم وغير المشتغلين والموظفين والمهملين مع مراعاة التساهل الى الحد الممكن بحيث لا يراعون النسبة بين الزمن الذي أمضوه في الطلب وبين ما حصلوه من العلوم، لان الغرض انما هو الاشتغال. وان يكون اختبارهم أمام اللجنة تحت رئاسة أحد أعضاء مجلس الادارة، وان تقدم اللجنة جدولاً باسماء من يختبرون منهم وملاحظاتها على كل واحد مبينا فيه حاله بقاياة الضبط، وان يملهم قلم الكتاب إعلاناً صحيحاً يصل الى كل واحد منهم بنفسه ويحجب عنه كتابة إجابات الحضور أو ابداء العذرة أو عدم الانقياد. كل هذا بمدان ثبت ان رئيس مجلس الادارة السابق كان أعلنهم بنص المادتين (٣١ و ٣٢ من القانون) ونبه عليهم بدوام الاشتغال والمواظبة

اشتغل قلم الكتاب باعلان هذا العدد (١٧٣) وبعضهم مقيم بمصر والبعض مقيم بالبنادق أو الارياف، وقد كانت العادة من قبل ان تصرف للمعينين خارج مدينة القاهرة رواتبهم اذا أدت فيهم شهادة من اتقاضي أو نوجد بانه مواظب على الاشتغال، وكثيرا ما جاءت هذه الشهادات عن اناس تركوا القرآن أو العلم واشتغلوا بالمدارس أو بحرفة اخرى أو لم يشتغلوا بالمرّة واستمروا يأخذون مرتب الازهر وهم على تلك الحال

وصلت الاعلانات اليهم وحدد فيها لكل فريق منهم يوم مخصوص بحضور فيه أمام اللجنة بإدارة الازهر، وعلى اثر ذلك وصل الى الازهر بلاغات من ثلاثة عشر منهم يقول البعض انه تنازل عن مرتبه في الازهر والبعض انهم اشتغلوا بحرفة غير طالب العلم، والباقيون انهم لا يقبلون الاختبار مهما كان سهلاً، والادارة وشأنها في المرتب، فان شاءت ابقته وان شاءت قطعته ولا معارضة لنا فيما نجره. فقرر المجلس الطبع قطع المرتبات عن هؤلاء الذين أظهروا الاستغناء عنها وماوا الى عصيان أو امر المشيخة ومقدارها ١٣ جنبها وكسوراً. ووزعها على من لا مرتب له من العلماء الذين كانوا يشتغلون بلا مرتب وهم اولي وأحق من أولئك الذين كانوا يأخذونها وهم لاهون ناثون، أو متممون آمنون، ثم تتابع حضور معظم

الباقيين الى اللجنة فكانت تختبر من يقول انه يتلقى العلم مدوحيه تلم انه كاذب - في اعراب مثال خفيف يحله من يتلقى كتاب (الازهرية) فاقرت قوما وهم على هذا النحو من التحصيل لعلهم يخجلون فيعملون؛ ووجدت بين الباقيين من هو مشتغل حق الاشتغال فأثنت عليه بما يزيد في نشاطه، ووجدت من هو مشتغل بحفظ القرآن لان سنة لم يبلغ الخامسة عشرة ومن هو مقدم لامتحان اتدريس فلم تختبره ووجدت من بينهم من لا يكاد يقرأ ولا يكتب بعد أن مضى عليه زمان طويل يختلف بين ست عشرة سنة وخمس وثلاثين سنة وهو يأخذ هذا المرتب على انه من المشتغلين

أذكر من هؤلاء واحداً قدم من (جرجا) بعد كثرة الاعتذار وطول التغيب وقد مضى عليه أكثر من عشرين سنة يأخذ المرتب بما يتوالى على الازهر من تلك الشهادات القاطعة بانه مشتغل بطلب العلم في جرجا حق الاشتغال، وقد اتفق كل القضاة والمفتين الذين عينوا في جرجا في ذلك الزمن على الشهادة انه بانه طالب علم مشتغل بطالبه مواظب عليه، ولم يخطر ببال أحدهم أن يستدعيه مرة ليعلم من حاله ما يصحح الشهادة له بالاشتغال، وكأنهم فهموا ان أخذه لهذا المرتب خير ولا يجوز لهم أن يمنعوا الخير. وأني لا اعتقد انه لو اتفت أحدهم إلى ذلك واستدعاه مرة وسأله عن أسهل شيء لانتبه هذا الطالب من غفلته وعمل بعض العمل ليحلل أخذ هذا المرتب، ولكنه جزم بأن لا رقيب عليه فاهمل نفسه غاية الإهمال، واشتغل يدل العلم بسفاسف الاعمال. ولو فعل حضرات القضاة والمفتين ذلك لخرجوا من عهدة الشهادة بما لا يعلمون (١)

(١) يقول محمد رشيد: ألم يقرأ أو لم يسمع هؤلاء القضاة والمفتون قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيراً قاله اولى بهما) الآية؟ بلى كلهم قرأها وسميها مراراً لأعصي وحفظوا لفظها ايضاً ولكن لم يخطر ببال احد منهم انه مخاطب من ربه بالمباينة في القيام بالقسط والشهادة بالحق. هما تكن حال المذهود عليه، لأنهم لم يتعلموا في الازهر ولا في غيره وجوب تدبر القرآن والاهتداء به، ولما قام الشيخ محمد عبده بإصلاحهم بهذا ومحاوّل اصلاح فسادهم وابطال تزويرهم حتى في طلب العلم عادوه وطعنوا في دينه كما سيأتي

وبالاختصار قد حضر هذا الشخص إلى إدارة الأزهر وجلس لامتحانه بعض من يشفقون عليه من أهل جلدته بل سكان بلدته بل ذوي قرابته وهم أخوف الناس عليه فلم يسعهم إلا الإقرار بأنه لم يشتغل زمناً ما بأي علم من العلوم ولما انتهى المجلس وعلم هو منهم أو أعلموه بما سيؤول إليه حاله طلب من شيخ الجامع أن يعاد امتحانه لأنه تهيّب ذلك المجلس، وهو عذر لم يكن مقبولاً لأن الامتحان أمام شيخ الجامع أهيب منه أمام عضو من الإدارة، خصوصاً وقد كان في الأولى قوي الظهر بمن حضره، ولكن الشيخ قبل طلبه قطعاً للمعازير فلم يلبث أن خرج من المجلس الثاني وهو جازم بأنه غير مغبون وبأنه هو انقصر في نفسه وعاد على من كانوا يشهدون له باللوم والتعنيف ورجع إلى بلده يائساً من نقاء الرتب بيده استخلصت اللجنة أولئك المختبرين فظهر أنهم منقسمون أربعة أقسام: الأول يبقى مرتبه، والثاني يكلف تقديم طلب الامتحان لنيل شهادة العالمية ويبقى مرتبه إلى أن يخرج من الامتحان فإن نجح نقل إلى مرتب العلماء وان سقط قطع مرتبه بمقتضى القانون، والثالث أمر بمداومة الاشتغال والمواظبة، وأعلن بأنه مراقب في عمله، فاما أن يجد ويجتهد واما أن يقطع مرتبه، والرابع وهو أمثل ذلك الجرجاوي يقطع مرتبه من الآن

وقد استغرق هذا العمل من أول ابريل سنة ١٩٠٣ إلى ١٦ يولييه سنة ١٩٠٤ أي خمسة عشر شهراً ونصف شهر، وفي ١٦ يولييه سنة ١٩٠٤ صدر قرار المجلس بقطع مرتب القسم الرابع وعددهم ثلاثون وهم الذين تبين للمجلس انهم لا يصلحون لشيء مطلقاً، وأنه يحرم أخذهم المرتب المشروط بالاشتغال والمواظبة. وتقرر أن يكون اقطع من أول أغسطس سنة ١٩٠٤، أما مقدار ما قطع من الثلاثين فهو ٢١ جنينها وكسوراً في الشهر. ثم اتبع المجلس هذا القرار بقراؤه في ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤ بقطع مرتب ثمانية من أضراب أولئك الثلاثين كان ينهيم إلى الاشتغال وتحقق انهم لم يشتغلوا وان يشتغلوا، ومقدار مرتبهم تسعة جنينيات وكسور، فيكون جملة من قطعوا ٥١ نفساً ١٣ تنازلوا و ٣٨ لم يفلحوا وجملة مرتبها ٤٤ جنينها وكسوراً فالباقي من أولاد العلماء الذين يأخذون المرتب من أول يناير

سنة ١٩٠٥ - ١٢٢٠ ومرتبهم الباقي لهم مائة جنبيه و جنيهان ويضم المقطوع من اولاد العلماء إلى مرتب العلماء يصير ما يأخذونه ٣٧٣ جنيه في الشهر وكسور الجنيه ، وعلى هذا تم الامر في مرتب اولاد العلماء وهو عمل قد سابق القانون والحق من كل الوجوه

سعي الاستاذ الامام لاعانة اولاد العلماء بعد قطع رواتبهم

في زمن الشيخ حسونه قطع مجلس الادارة مرتب بعض اولاد العلماء وهم نحو ثلاثة عشر على ما ظن لم يتحقق فيهم الاشتغال المشروط في القانون، ولكن كان معظمهم من الاغنياء الذين لا يؤثر فيهم قطع هذه المرتبات، وأما هؤلاء فكثير منهم ممن كانوا قد استغنوا بهذا المرتب القليل وقعدوا عن العمل بأقل من الكفاف فصاروا كالا على الازهر والازهرين . ولما رأى بعض أعضاء المجلس - وهو من يعرفه الناس بالسعي الى الخير والعمل للمصلحة العامة - ان في الواحد والخمسين المقطوعين بمقتضى القانون من قعد به الدهر عن السعي، وتعود أن يأكل بلا كد ولا تعب ولا عمل، حتى شاخ وهرم، وصار لا يقدر على التحصيل من جديد وله زوجة وأولاد وقد أخذ القانون بالعدل المر فأخرجه من عداد المستحقين - لما رأى ذلك العضو هذا استعطف بعض أهل الخير والرومة والثروة فأخذ منهم جانباً من النقود وأودعها في خزينة الازهر لتنفق على أولئك المعوزين باعتبار ما كان مرتباً لهم من قبل، فن جهة قد روعي القساون وتفيذه ، ومن جهة لم يفت أولئك المحتاجين شيء من حاجتهم التي كانوا يقضونها بمثل هذا المرتب الزهيد، وسعى بعضهم سعيه المحمود فقيد في بعض الاوقاف الخيرية ورتب له مبلغ مستديم، ولا يزال يجمع لهم النقود ويرسلها الي الازهر ليصرف عليهم منها الى الآن ، ولقد فعل هذا حتى بعد استقالته من عضوية مجلس الادارة بل بعد مفارقه الازهر فبعث الى خزينة الازهر بمبلغ كبير يكفي أولئك المستحقين سنتين ان شاء الله . وقد سعى لترتيب مبلغ غير قليل في وقف خيرى واسع لا علاقة له بالاوقاف العمومية لبعض هؤلاء المساكين، الذين أفسدهم إهمال المشايخ السابقين، ولو كان ممن يعملون كاي عمل الناس لغرض مخصوص لما اهتم بعد بهذا الجمع، واكتفى رجل المصلحة، ورجل الخدمة العامة، ورجل الشفقة على البائسين في أي مكان وجد وفي أي زمان. فجزاه الله أحسن الجزاء

حالة الازهر الصحية وتعيين طيب له

فأنا ان نذكر شيئين مهمين : تعيين طيب الازهر واستدرار المسكارم الخديوية لعملاء دمياط والجامعين الاحمدي والدسوقي. فأما تعيين الطيب فقد كان في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ أي قبل فصل الشيخ حسونة بنحو سبعة أشهر وعشرين يوماً ، والحامل على طلب تعيينه والفائدة منه يتبينان بذكر ما كان عليه الجامع والطابة في الامور الصحية قبل مجيء الحكيم وما صار اليه بعده ، ولا نذكر منهما غير القليل ، فهو يكفي عن التطويل

كانت أمكنة الجامع الازهر من صحته الى مقاصيره الى أروقتة الى مفاطسه وميضاته وكنفه مجتمع أوساخ ، ومهبر ورائحة عفنة ، ومنبع وخامة ، وبؤرة أمراض معدية ، فإذا دخل الداخل الى الصحن وجد فيه بقايا الكراث والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات الكندس من مواضع النوم أكواما والى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج وما يحمله النعال من وحل الطريق حيث يتأبط المجاور مداسه بلا نفص ولا تنظيف. وبين هذا وذاك كثير من البصاق والنخامة والنخاعة

ثم اذا ذهب الى جهة الميضأة وجد حوالها أمثال ذلك ورأى قطع الخبز المبلول تعوم في مائها وهي تندفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات (١) واذا قصد المفاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الادران ، وشم منها مالا تحمل الانوف والابدان ،

(١) بل كان بعضهم يستنجي بمائها من جوانبها وقد اخبرني الاستاذ الامام انه لم يكن قط يتوضأ من ميضأة الازهر بل كان يأخذ الماء من حوضه فيها المسبى بالسلسوله على قننه ويتوضأ منه . وكانت ميضأة الجامع الاحمدي اقذر من ميضأة الازهر ولا سيما ايام الموالد الثلاثة فقد كان النساء يفسان اولادهن من العذرة فيها حتى ترى ساجحة وراسبة فيها ومع هذا كله كان الحرافيون يعدون ابطال الميضأة المكشوفة واستبدال الانايب بها (الحفقيات) من سيئات الاصلاح الذي ذهب ببركات الازهر

واذا وصل الى غرف السكنى في الاروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويهريق الماء بين يديه فيمنعه الكسل أن يمضي بها الى البالوعات، وذلك يطبخ والدخان يسود وجه الحائط وداخل المسكن، وذلك يغسل آنية ويريق ماءها الخلوط بالدهن والزيت، وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الاسبوع والاسبوعين بلاكنس فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات - هذا الى ازدحام السكان في الغرفة الواحدة، ونومهم مزدحمين رأس الواحد عند رجل أخيه، ومعهم فيها على ضيقها ماءهم وفراهم وخبزهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود.

واذا طاف الطائف في جوانب الجامع وحل الاساطين وفي الاماكن التي يسمونها بالحارات وجدها كلها مشحونة بمخزائن الخشب القائم بعضها فوق بعض صفوفا بلا نظام، تجري بينها اقدارها الفيران، حتى يخلفها الرائي لقدم عهدها من آثار الاقدمين، واذا فتحت الواحدة منها انتشرت رائحة اللش وعفن الخبز فلا يملك رائيتها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوبا الى حيث ينتهي به الفرار.

هذا حال السكان، وأما حال الدكان فقد كانوا الايضا من الامراض المعدية وأهمها الجرب والرمم الصيدي، وفيهم السلول والمجدوم والمصاب بالزهري وإن كان هؤلاء قايمايز، وهم ما كانوا يستعملونه للجرب هو كبريت العامود، ولا تسل عن الدرس اذا كان بين طابته جربان قد طلى جلده بالكبريت والقطران، فقد يختاط هذا بسواه ويزدحمون، وبالله والله أكبر اذا كان الفصل فصل القيظ، فهناك تنتشر تلك الروائح الكريهة وتسري العدوى الى معظم المجاورين، ورحم الله من لا أنف له أو من كان ذوق حاسة الشم فإنه هو السعيد فيهم.

وقد ذاق كل منا ذلك الألم ونحن في الضاب، ولكن كان يخففه عنا ما ياتي علينا من المتقدمين منا والسابقين في طاب الملم من أن الجرب علامة الفتوح وان الذي لا يلحقه الجرب من المجاورين يعد بينهم مرفها ولا يؤمل فيه النجاح.

ولقد فشت الامراض الوبائية في الازهر كثيرا ولم يشعر بها أحد وبقيت في المجاورين تصدهم، ولا يوجد من ينجر عنهم للجمل الحكام بجملهم، ولجمل أهل المحل بما يلزم للصحة من الاحتياط.

وإن من يكون مسكنه ومبته ومقيله ومحل عمله ودرسه ومعيشته على ما قدمناه فلا بد أن تلزمه العدييات من الامراض ، اللهم إلا من كان منهم قوي البنية بأصل الخلقة وكان بدنه غير قابل للتأثر بالعدوى ، وهو لا في وسط مثل هذا الجو قليلون . هذا قليل من كثير من حالهم الماضية ، أما وقد جاءهم الطبيب فقد خفت جداً وطأة هذه الامراض لانقطاع معظم أسبابها وزوال بعضها بالمرّة ، فلمبضأة استبدلت بمخفيات (١) والكنس مستديم ابل نهار ، والمغاطس أبدلت بمجمات تقريباً ، والغرف قد اتسعت على السكان بحيث لا يسكن في الغرفة الواحدة إلا عدد يراه الطبيب غير مزدحم فيها ، ووجدت المراقبة على الغسيل ، وأعدت مطابخ في الاروقة بعيدة عن غرف السكن ، وأقبلت تلك الصهاريج وأدخلت المياه النظيفة من مياه الشركة ، واستعملت المرشحات ، وتعود الطلبة على التداوي من الامراض ، فقد أعدت للطبيب بينهم غرفة في الرواق العباسي يجلس فيها وقتاً معيناً من النهار فيفد عليه فيها مرضى الطلبة فيبحث في أمراضهم ويعطيهم الدواء من صيدلية (أجزخانة) الأزهر التي ينفق عليها ديوان الاوقف ، ويصف لهم كيفية استعماله ، ولا يتكلمون في العلاج نقوداً ، وإذا كان بعضهم في حال لا يمكنه من الحجيء الى موضع الطبيب ذهب هو اليه بنفسه في محل سكنه داخل الأزهر أو خارجه وقد أعقب هذا ان المظافة في الجسم والمكان والثوب والأكل والشرب قد وجدت على الجملة في غلب المجاورين بنصائح الطبيب وهي مناط الصحة كما هو معروف ، ثم ان النور الذي كان يمرض العيون قد ذهب بالمرّة واستميض بأنوار الغاز ، وهي تستعمل الآن في المطاعة والتدريس الليلي ولونها أبيض وضوءها عظيم ، وأما النور الذي كان يستعمل قبل ذلك في النطاعة فكان على سرج الزيت توقد بجانب العمود ولونها أحمر كدر ودخانها يعمي السليم ، وإذا رأي الطبيب بعض المصابين بالزهري أو السل أو الجذام كتب إلى المشيخة باعطاءه رخصة طويلة جداً بحيث ينقضي الاجل قبل انقضاءها ، ولا ترى المشيخة إلا فاعلة ما يشير به ، وفي هذا من شدة الاحتياط ما لا يخفى وهي الدواء الحتبي لمثل هذه الامراض

(١) الصواب أن يقال استبدلتها الاثنا عشر المعروفة بالحفريات

هذه جزئيات من حال الأزهر بعد وجود الطيب يستدل منها على الكليات والفضل في ابتكار هذه الفكرة - فكرة إيجاد الطيب - لمجلس الإدارة، والفضل كل الفضل لمن ساعد على تحقيقها واستحسنها وأمدّها بالمال وهو الجناح العالي حفظه الله، فإنه لما عرضت عليه هذه الفكرة فرح بها وأيدها، وأمر بأن ينتخب للأزهر طيب مسلم عارف بأحوال هذه البلاد وأمراضها، فانتخبه المجلس وكتب عنه الشيخة إلى الأوقاف وهو عرض الأمر على وليه، فصدر الأمر على الفور بتعيين الطيب وما يلزم من الأدوية، وورد مكتوب الديوان بذلك إلى الأزهر بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٨ بمرة ٧٤ ولم يكن إلا يوم حتى جاء الطيب وأخذ في عمله بفاية الجهد والاجتهاد، وهو إلى الآن يعمل بكل نشاط

واند زاد المجلس في هذا النوع ترقياً فطلب في سنة ١٩٠٤ بناء مستشفى لطلبة العلم الفقراء يقيمون فيه مدة العلاج، فارتاح الجناح العالي إلى هذا الطلب وأمر بانتخاب قطعة من أرض الأوقاف قريبة من الأزهر يبني عليها هذا المستشفى، فكان كذلك فشرع الديوان في بناءه على الأرض التي في آخر السكة الجديدة مما يلي شارع الدراسة وهي أحسن موقع صحي يبني عليه مثل هذا المستشفى

(وهنا عقد الكاتب فصلاً لبيان كل ما كان من إعانة ديوان الأوقاف

الأزهر وهي حثيرة جداً بالنسبة إلى ميزانيتها في هذا العهد . ثم قل)

هذه الأعمال الماضية كلها التي شرحناها من أول هذه الرسالة إلى هذه النقطة هي الأعمال المستديرة التي قام بها مجلس الإدارة من عهد تشكيله، وقاسى في وضعها وفي تنفيذ معظمها أكبر الأهوال على ماتبين مما ذكرناه، وتضاف إليها الأعمال الجزئية اليومية من ترتيب المرتبات وتوزيع كساوي التشرية والتعري فيهما وما كان يتحراه في ذلك من وجوه المصاحبة البعيدة عن الغرض، فاننا لم نعهد عليه أنه أعطى أو منع إلا لما يراه نافعاً في التعليم . . .

(ثم عقد الفصل الآتي في محافظة المجلس على حقوق الأزهر وشرفه)

محافظة المجامع على حقوق الازهر وشرفه

(كان) من الاعمال اليومية المحافظة على كيان الازهر وشرف الازهرين ، ومكافحة كل جهة من جهات الحكومة وديوان الاوقاف إذا جاء منها ما يمس حقا من حقوق الازهر وأهليه ، وانشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى (فمنها) المحافظة على حقوق الازهر وطلبته في أمور القرعة العسكرية إذ كثيراً ما كانت (نظارة) الحربية تعامل الطالب خطأ بما تراه مجالس القرعة في العاصمة وبلاد الارياف ولا يساعد عليه القانون، فتتكرر المكاتبات بين الازهر والحربية متضمنة للحجج والبراهين ويذهب ذلك العضو المعروف إلى النظارة وينتهي الامر برد المظلمة وتقرير قاعدة لمعاملة الطلبة في المستقبل ، فينتفع بها العموم (ومنها) انه إذا وقع عالم أو طالب فيما يوجب المحاكمة ناضل الازهر عنه بوجه الحق كما حصل في حادثة من شهدوا من العلماء لطالب في بليس وذلك ان هذا الطالب انتحل لنفسه صفة العالمية وعقد عقد زواج بلا حضور المأذون خلافاً للأئمة ، ولما وقع بين يدي النيابة استشهد كثيراً من علماء الازهر على ورقة ليقدمها إلى النيابة فاشبهت فيها وأرسلتها إلى الازهر وطابت منه أن يرسل اليها كل من وقعا عليها لسؤالهم عما شهدوا به، والتدقيق في البحث معهم فيه . فرأى الازهر أن لا يساهم دفعاً للاهانة عنهم، واستحضر أولئك الشاهدين من العلماء فقرروا جميعاً انهم لم يعاموا بما شهدوا عليه، وانهم إنما ختموا على تلك الورقة لان كاتبها أفهمهم بأنه يريد التوظيف في مسجد ببلده وانه يليق لتلك الوظيفة . ثم أرسلت المشيخة نتيجة التحقيق إلى النيابة في الزقازيق وبها دين التهم . ثم نشرت المشيخة إلى عموم العلماء منشوراً تحذرم فيه ان يشهدوا بما لا يعلمون . ونظائر هذه كثيرة الوقوع

(ومنها) مقاومة ديوان الاوقاف في استئثاره على الازهر ومن فيه خصوصاً في مسائل التوظيف والامامة ومستخدمي الجامع وما ألحق به . و الشاكل بين

الازهر والديوان في هذا الباب عديدة وأقربها مسألة الاسكندرية الاخيرة ومسألة المنصورة ولا نزيل فيهما الكلام .

ومما كان بين الازهر والاقواف مسائل من يموت من العلماء وله مرتب في الديوان رتب له لانه من العلماء فان المادة (٢٥) من قانون المرتبات تقضى بانه اذا انحل عن أحد العلماء شيء من هذا القبيل لا يعود الى الديوان ولكن يوزعه مجلس الادارة على علماء الازهر في منفعة التعليم وقد مات في زمن الشيخ حسونه بعض العلماء ممن لهم هذا المرتب وكذلك في زمن الشيخ سليم وفي زمن السيد البيلاوي وكما قرر الازهر توزيع مرتب واحد منهم على العلماء وأرسل قراره الى الديوان ليأمر بالصرف بموجبه قامت قيامة أهله كلهم يصرفونه من خزائنتهم، ويضطر الازهر الى كثرة الاخذ والرد، والى تردد بعض أعضائه على الديوان حتى ينتهي الامر باجابة الازهر الى ما أراده من المحافظة على القانون (١)

وقد كان من الراجب على الديوان ان لا ينازع ان كان لا بد من المنازعة الا في المرة الأولى ثم يجعل ما انتهى عليه الحال فيها قاعدة للعمل في المستقبل، ولكن هكذا كان يقع النزاع في كل مرة بخصوصها.

إني لا تذكر ان مشيخة الازهر كانت كتبت الى الديوان في اواخر عهد السيد البيلاوي بما مضمونه (اننا علمنا بان مولانا الجناب العالي قد تفضل على بعض علماء الازهر في هذا الزمن الاخير فاحسن عليهم برواتب مختلفة من جنهين الى عشرة جنيهات في الشهر وصدرت اوامره العلية بذلك، والازهر يهيمه ان يعرف اسماء من رتب لهم هذه المرتبات ومقدار ما رتب لكل منهم ليقيدها في دفتره وليقبضها مباشر الازهر مع المرتبات الاخرى ويسلمها الى أربابها كما هو متبع في سواها) فحفظ الديوان هذه الكتابة عنده زمنا الى ان جاء هذا التغيير الحديث في مشيخة الازهر ومجلس ادارته فكتب الى الازهر جوابا عن تلك الكتابة مضمونه « قد علمت كتابة الازهر المتضمنة طاب اعلامه بمن رتب لهم مرتبات

(١) لولا هذا العضو وهو الامتاز الامام كما هو معلوم لم يتجرأ الازهر على معارضة ديوان الاوقاف ولا مطالبته، ولما كان يستفيد من المطالبة ما يريد

حديثه من علماء الازهر ومقدار ما رتب لكل منهم ، وقد تحقق الديوان ان الازهر يريد ادخال هذه المرتبات الجديدة تحت حكم المادة (٢٥) من القانون ولذلك استعلم من الممية السنية عنها فأجابت بان هذه المرتبات لهؤلاء العلماء هي شخصية وعلى ذلك فهي لا تدخل تحت قانون المرتبات الازهري « وهو جواب من الاوقاف غير مقنع كما تراه لا يقتنع به الا من يريد السكوت

(ومنها) تعويد الطلاب والعلماء المواظبة في العمل ، والحفاظة على مواعيد الدراسة الرسمية ، وتعليم الطلاب انه لا يتقدم أحدهم في الجرايات الا بالجد . فشرعت لهم نظم الانتساب والانتظار ، وحددت لهم فيها المواعيد ، وسنت لهم الامتحانات ليتقدم أهل الاعمال على أهل البطالات فسادت هذه الروح بين الطلبة خصوصا طلبة الحنفية المقيدة أسماؤهم في الرواق وفي الدفتر ، ومستحقي وقف المرحوم سليم باشا توزير الشهير من الشافعية والمالكية والحنفية ، وكل هؤلاء تحت نظر مفتي الديار المصرية (١) ، بمقتضى شروط الواقفين أو قرارات المشايخ السابقين ، فقد فهموا ان الاستحقاق لا يكون الا بالاشتغال ، وان الاشتغال لا يتبين الا بالاختبار ، فصاروا يتقدمون اليه ، ويتمافتون عليه

(ومنها) فصل ما يقع من المشاكل كل يوم بين الطلبة وبين مشايخ الاورقة والحارات بتحقيق ما يشكو منه الطالب أو الشيخ وتقرير ما يقام الشكوى وما يحسم النزاع واكثر ما يكون وقوع هذا في رواق الصعايدة والشوام ورواق المغاربة ورواق البرابرة ، واما غيرها فوقع النزاع فيها قليل

(ومنها) المراقبة الشديدة على سفر الطلاب والعلماء في غير المواعيد المقررة حتى صار من البديهي عندهم ان السفر لا يكون الا بعد الاستئذان من الجهة المختصة باصدار الاذن به وصدور أمرها كتابة الى مريدي الاسفار وشدة الملاحظة والمراقبة على أمر النظافة في الجامع وأروقته وفرشه وخزائنه وكل هذا وغيره مشاهد معلوم

(١) أي وهو الاستاذ الامام المنفذ للنظام فيهم ومن أجدر بتنفيذ النظام من واضحه لقوة شعوره بالحاجة اليه

تمهيد لبيان الشعب قبل الانقلاب

لا يشك عاقل متدين في ان هذه الاعمال كلها كلها وجزئها ما يرضاه الدين الخفيف، وبأسر به الشرع القويم، ويقبله العقل السليم، وليس فيها ما يقلق طالبا أو علما، ولا ما يوجب شغبا أو لغبا، ولا ما يولد شقاقا أو خلافا، ولا ما يفتني زعزعة في العقيدة أو فسادا في الاخلاق، ولا ما يوجب نزوعا الى الثورة، أو شغلا عن العمل النافع، ولا ما يستدعي ترك علوم الدين واهمال تعليمها، ولا ما يخرج بهذا المكان عن كونه مدرسة دينية محضة، تدرس فيه العلوم الدينية المحضة، ولا ما يجلب على هذه المدرسة عارا في بلد من البلدان، ولا ما يدعو الى الاضطراب والهياج، ولا ما يخالف نظام الهدوء والسكينة والاطمئنان، ومن ادعى شيئا من هذا فعمله ان يميز بين الدين وعدم الدين، فان لم يستطع وأراد نحو ما وضع وان كان هو النافع للدين، واحداث ما يغيره وان كان هو الضار بالدين، فاعليه الا أن يعمل ليستصدر امرا عاليا بالغاء كل ما كان بناء على انه مخالف للدين، وارجاع الازهر الى ما كان عليه من قبل، وهذا أمر غير ميسور لان الجناح العالي أيده الله قد تحقق من نفع هذه الاعمال وموافقها للدين، وأنها مفيدة للعلم والتعلمين، موطدة لاركان علوم الدين، لانه كما سبق قد استحسناها جميعها، باستحسان كل واحدة منها عند صدورها، بل ان جناحه العالي هو الابتكر للكثير منها، وأهمه تشكيل مجلس الادارة وصدور الاوامر بما وضعه (المجلس) من القوانين، وهو المؤيد لباقيها المساعد على إيجادها بما أمدها به من المعونة بأموال الاوقاف الخيرية، وهو أفضل ما تنفق فيه. ولا يرضى جناحه العالي وهو الامام، بان تحل الهمجية محل النظام، ولا تسمح نفسه العلية أن يحكم بأن ما أمر به لاصلاح الدين مخالف للدين. وصاحب الغرض وان كان يقتدر على تصوير الخير بصورة الشر، وعلى تمثيل الحق بالباطل، والنافع بالماطل، وتشويه المالح، وتزيين القبيح. الا انه لا يلبث أن يظهر مقصده فيقع في شر اعماله وان للبيت ربا يحميه (وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون) .

ندع هذا كله ليحكم فيه من يطالع عليه ونرجع بالسيد البيلاوي الى ما بعد.

تسعة أشهر من تعيينه سار فيها مع أعضاء مجلس الإدارة بغاية الوثام والوفق كما قد مناه وأخذ العمل الصالح إمامه وجعل مقصده خدمة العلم والعلماء والطلاب [ثم ختم الكاتب كتابه بعد هذه المقدمة بذكر الشغب الذي كان السبب المباشر لاستقالة السيد البيلاوي من مشيخة الأزهر ، والمفتي الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان من مجلس إدارته فنشره وتوفي عليه ببسط الحقائق التي لم يكن يستطيع هو التصريح بها - قال]

الشغب الذي انتهى باستقالة البيلاوي

(والعضوين العاملين بالمجلس)

بعد مضي تسعة أشهر من تعيين السيد علي البيلاوي - والناس في هادئ وسكون، وجميع المدرسين بلا استثناء في وفق على طاعة رئيسهم، والطلاب قد وضعوا بين أيديهم أملاً يقصدونه بعلمهم - سمع الناس فجأة بضجة بين بعض المدرسين وهياج إلى الشكوى من أمور كانوا مقتضى الأمر العالي الصاد بنظام الأزهر وما عدا ذلك مما سمع ليس له حقيقة بالمرّة، ووجد بعض الزعاف من بينهم يدعون الناس إلى الختم على عرائض الشكوى، وموضع تلك العرائض التي يؤتد الناس للختم عليها منزل شيخ كان معروفاً من قبل بالبعد عن الناس والابتعاد عن أبواب الامراء، وكان يظهر من التعفف والتعشف ما يمثل به سيرة الصالحين ولم يكن يطالب من حظوظ الدنيا إلا أن يكون شيخ المقاري بمصر (١) يأخذ جراتها ويتساط على قراءتها إلا أنه من عدّة سنوات نصح بعض المزارعين للجناب العالي الخديوي أن يذهب في دعوته درساً للتفسير في شهر رمضان على نحو ما يحصل من سلاطين آل عثمان فأصر الجناب العالي شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري بانتخاب اثنين من العلماء لذلك فانتخب ذلك الشيخ والاستاذ الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الخليلي (١) في مصر طائفة تعيش بقراءة القرآن له وتوفى في التبور وفي غير التبور ولها رئيس يسمي شيخ المقاري

على ان من نحن بصدده يقرأ كل يوم من رمضان في سراي القبة ، وأما الآخر وهو شيخ الازهر الحالي فانه يقرأ كل يوم جمعة منه فقط في سراي عابدين من ذلك العهد خلع الشيخ القصير ثوب النقشف الطويل ، وارتقى على سنه وشيئته إلى درجة من حب الزلفى أقسم فيها بالله: إن أفندينا العباس ولي من أولياء الله. وذلك في حضرة أحد مشايخ الازهر السابقين، ثم ساق له بعض الكرامات، وحكى عنه ما شاهد من خوارق العادات (١). ثم ان الشيخ سلما استعمله في السعي لابطال مكافأة طلاب الازهر التي سبق الكلام عنها، ونحو ذلك من مقاصده التي مر عليك خبرها . أصبح هذا الشيخ وسيلة من الوسائل يتوسل بها من شاء إلى ما شاء. وهو الذي أرسل بعض من يجتمع عليه يدعو بعض المشايخ لختم العرائض بالشكوى من السيد علي البيلاوي ومجلس إدارة الازهر، فأخذوا يوفدون الناس إلى منزله وهو ومن معه يقولون لمن يحضر: إن هذه عرائض بطلب زيادة مرتبات وعد أفندينا بمنحها للمدرسين ، ومن طلب قراءتها ليعرف ما فيها اضطروا أن يقولوا له ان هذه الشكوى على رغبة أفندينا ومن ختم نال المكافأة ومن لم يختم صار مغضوبا عليه، وهو يصدق لان الشيخ من الحاشية بحث الباحثون عن السبب في هذه الضوضاء وقيام الشيخ، من يسمع قوله للشكوى وقد كان من الهدوء والسكينة بحيث يضرب به المثل، والذين هاجوا معه كانوا من المنتسبين لشيخ الجامع ولاعضاء مجلس الادارة ومن سبق احسان هؤلاء اليهم، فوجدوا أن ذلك كله كان عقب قرار صدر من مجلس الاوقاف

(١) وهو ان سموه كان بالاسكندرية فكلم الحاشية في سراي القبة : ان الشيخ يحضر لقراءة الدرس فلاندعوه يذهب حتى يفطر، فعلم سموه ان الشيخ سيحضر وهو نائب وهذا من المكاشفة وعلم الغيب الظاهر، وما كان يقول هذا الذين يجهلون أن بحيته الى المرابي كان معروفه للحديو لاجل الدرس بل يقوله لمن يعلم ذلك ؟ وما كان الحديو مكاشفاً وإنما كان كاشفاً لدجل الشيخ وتأييسه اذ ادعى انه يجمع له العجن وير به بعض أعمالهم فأدرك الحديو حياته في ذلك وأظهرها له

الاعلى في مسألة استبدال أرض للاوقاف في الجزيرة وقد اشتهر أمرها ولا يزال مشتهراً إلى اليوم . وقال قائلون ان الغرض من هذا كله الانتقام من المفتي لان هذا الفرار صدر بموافقة . وسواء كان السبب معقولاً أو غير معقول فهذا هو الذي كان يقال ولا يزال يقال

مع السعي والتحرير والترغيب والترهيب لم يوافق الشيخ على الختم أكثر من خمسين مدرساً (من عدد أربع مائة ونيف) قام هؤلاء النفر وحملوا عرائضهم وقدموها إلى الجناب العالي فدرجت في الادراج ، وظهر بعد ذلك ظهور الشمس في ضحاها ان مبعث الحركة كان السراي العامرة ، لازالت ببركة الميل الى الوفاق عامرة وحدث في أثناء ذلك مسألة الزوجية المشؤومة على البلاد والعباد ، فظن قوم برجال الازهر التقصير في معونتهم أو انهم يعاونون خصومهم ، ولا والله ما أصابوا ، فما رجال الازهر من أولئك الطرفين . فمن ثم كان لهذه الحادثة ما كان لها من التعكير على ادارة الازهر ، ولا يدري عقل ما العلاقة بينها وبين هذا الاثر وقد قيل ما قيل (*)

وقعت هذه الاحن كلها موقع التصديق ، فأحب الجناب العالي على زعم البعض أن يستميل أعضاء مجلس الادارة أو بعضهم حتى ينتهي المشكل ، ولكن جنابه العالي لم يصرح بذلك لاحد من الاعضاء بطريق رسمي أو شبه رسمي . وإنما كان يذيعه بعض أولئك العلماء ومن أعانهم حتى يصلوا إلى غرض مخصوص ، وأما الحكومة فقد صمت أذنها في ذلك الوقت عن سماع مثل هذه الاصوات ، وتركت

(*) عقد الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد نكاحه على صفة بنت السيد عبد الحالق السادات بدون إذن ابها ، واخرجها الى بيته فرفع والدتها عليه قضية طاب فيها فسخ العقد لانه غير كفؤ لها ، فحكم القاضي اشعري أولاً بالحيلولة بينهما الى أن يتم النظر في القضية ، وآخراً ببطالان المقدم الكفاية . وعدت الامة المصرية عمل الشيخ علي إفساداً لآداب الامة وهاجت عليه الجرائد ، وكانت القضية شغلها الشاغل ، وأمين صاحب المؤيد إهانة قبيحة عامة ، وكان الخديو نصيراً له بالطبع ، وآتم هو الاستاذ الامام بأنه عوناً للسيد عبد الحالق السادات عليه ، فهذا ما أبهم المؤلف كما أبهم كثيراً من المسائل أو أظهر الريب فيها تقيّة واحتراساً

الشاكين والمشكوكين يقولون ويعملون ما يشاءون . فطال الزمن على هذه الضوضاء ولم يشأ رجال الأزهر قمع أولئك المحركين باجراء العقوبات المنصوص عليها في قانون الجامع الأزهر لانهم جزموا بان أولئك النفر آلات في أيدي أولئك المعينين لهم اللاعبين بهم ، الذين يذيعون ان جميع أقوالهم وأعمالهم انما تصدر عن رضى واستحسان من ولي الامر ، وما هم في ذلك إلا موهمين

كبرت كل هذه الاحوال عند السيد على البيلاوي ورأى انه معطل عن العمل ولا فائدة من وجوده ان لم تترتب عليه الآثار ، فحاك في خاطره أمر الاستقالة وأفضى به إلى بعض أعضاء المجلس فلم يوافقوه عليه ، فكن في نفسه يترقب الوقت ويتحين الفرص ، حتى رأى ان قد رتب لبعض من أولئك الساعين بالأزهر (ومنهم الشيخ المنصوري الذي كانت معونة الشيخ سليم له سببا في عزله من المشيخة) مرتبات من الاوقاف على غير علم منه ولا مذاكرة معه ، ولا أخذ رأي له فيمن يرتب له ومقدار ما يكفيه ، وتجسم خاطر الاستقالة في نفسه وجعله نصب عينيه ، لانه جزم بان ترتيب هذه المرتبات هو تشجيع لاولئك الناس واستحسان لما يعملون . وانه يحط منزلته بين العلماء ، ويكون عقبة في طريق أعماله التي لا يقصد منها غير فائدة الأزهر والأزهريين

حدثت بعد ذلك حادثة رواق المغاربة وهي ان فريقا منهم قد احتلوا بعض غرف خالية من السكان في الاروقة العباسية الجديدة ، فأراد مجلس ادارة الأزهر إخراجهم منها واجراء التحقيق فيما صنعوه ، فلم يمثلوا وأبوا الانقياد وتدابروا بالقنسلات الفرنساوية ، فدارت الحجة بين بعض أعضاء المجلس وبين ناظر الخارجية وبينهما وبين القنسلات ، حتى استقر الرأي على أن يعمل الأزهر بمقتضى قانونه ان لم يمثلوا لأمره . فكان كذلك وصدر قرار مجلس الادارة بقطع عدة أشخاص منهم بمقتضى قانون رواقهم ، وطلبت الخارجية امهال تنفيذه حتى تعلم حال القنسلات في شأنهم ، فلم يكن منها أدنى ممانعة للحق والقانون . ولما دعى شيخ رواق المغاربة للمفاوضة معه في شأنهم لم يصر عليه إلا بـعد يومين كان فيهما حيث لا يعلم مكانه أحد من الأزهر ، ثم عاد فأخبر أن القنسلات توغیر معارضة للأزهر في شيء

وانها تحب أن يعمل الأزهر. معهم بالين أولاً فان لم يفعل فليجر أحكام القانون
خرج المعارضة من الاماكن التي احتلوها وانتهت حادتهم، ولكن شيخهم
هرب ولم يخبر المشيخة بما وقع، فبحثت عنه فقيل انه في حلوان مرة، وقيل انه
في غيرها أخرى، ولم يزل غائبا حتى حضر الجناح العالي من الاسكندرية وظهر
أن غيبته كانت في سراي القبة. ولم يزل فيها حتى انتهى الامر في المشيخة وجاء
يخبر بان الجناح العالي رأى حلاً آخر غير ما اقتضاه القانون وجرى عليه مجلس
الادارة، ولا ضير فان أمره أعلى من القانون

في أثناء هذه الحركات الاخيرة تردد بعض الحواشي على بيت السيد البيلاوي
فكاشفهم بما يريد من أمر الاستقالة، فما أظنهم إلا قد حسنوها له خصوصاً وأنه
قد ضجر من تكرار هذه الملمات، وجزم بأنه معطل عن العمل لا محالة، وأنه لا يرجي
من بقائه أن يعود إلى عمله المفيد. فكتب في يوم ١٥ مارس سنة ٩٠٥ استقالته
وسلمها إلى رئيس الديوان الخديوي العربي والافرنجبي، وهو أبقاها عنده إلى أن
شرف الجناح العالي من بعض تنقلاته، وجنابه العالي تقبلها وأمر بان يكتب
اليه كتاب القبول، وفيه غاية التلطف والعطف والاحسان، ثم استقر الرأي على
تعيين الاستاذ الحامي الرجل الزاهد المعتد الجليل، فصدر الامر العالي بتعيينه بتاريخ
١٣ محرم سنة ١٣٢٣ (١٩ مارس سنة ٩٠٥) وعقب تعيينه استدعي إلى السراي
العامرة في محفل حافل من العلماء، لا لباسه الخلمة المعتادة لمن يعين شيخاً للآزهر
وفي هذه الحفلة قال الجناح العالي قولته المعروفة في الأزهر وما يقصده فيه
وما يحبه له، وعلى أثر ذلك جزم العضوان الموظفان بأنهما ربما لا يلائمهما العمل
في هذه الهيئة الجديدة، فاستقلا بعد تعيين الشيخ الجديد بنحو ستة أيام، وقبلت
استقالتهم، وسدرت الاوامر العالية بتعيين بدلها. وعلى ذلك استقرت الحال

وبالجملة فقد كان زمن الشيخ حسونة كله على الأزهر خيراً وبركة، وكان
زمن الشيخ سليم البشري كله زمن وقوف حركة، وكان زمن السيد البيلاوي
كله زمن ونام ووفق، وعمل بقدر ما يطاق، ونسأل الله أن يكون هذا الزمن
الجديد زمن نجاح وفلاح آمين (كتب في أوائل سنة ١٣٢٣)
(هذا آخر مادونه الشيخ عبدالكريم رحمه الله من هذا التاريخ)

خلاصة الكلام في مسألة اصراع الازهر

قد لخصنا ما كتبه الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان من تاريخ الاصلاح للازهر الذي سعى الاستاذ الامام اليه ، وكان هو أكبر أعوانه عليه ، وملخص ما كتبه - وهو وقائع رسمية مقرونة بأسبابها ونتائجها - ان الخديوي عباس حلمي باشا كان مقتنعا بما بسطه له الشيخ محمد عبده من الحاجة إلى اصلاح الازهر من كل وجه ، ومخلصا في مساعدته عليه ، وان الشيخ حسونة النواوي أمثل من غيره من الشيوخ استعدادا لقبول الاصلاح وتنفيذ ما يقترحه الشيخ محمد عبده على مجلس الادارة ويقنعه به فيحمله على تقريره ، وانما كان البطء في المضي في الاصلاح من ضعف استعداد أعضاء مجلس الادارة لتغيير تقاليدهم ، وكان الاستاذ الامام يريد أن يكون الاصلاح برأيهم واقتناعهم واقتناع جمهور العلماء وألفتهم النظام فيه ليكون ثابتا . وكان الشيخ حسونه لا يعارض الاستاذ الامام رأيا ، ولا يخالف له قولاً ، ولكنه يطالبه بأن يسير بالتدرج إلى الاصلاح المؤبدا ، ولولا ذلك لساير فيه شوطا بعيدا ، فتخرج فيه باقائه الكتاب ، وهصاته الخضر ، وغول العلماء ، وكبار رجال القضاء ، والدعاة إلى الاسلام ، ولوعاظ المرشدين للعوام ، بما تقتضيه حال هذا العصر في كل العلوم والاعمال ، ونشر ذلك في العالم الاسلامي وغيره .

كان الاستاذ الامام صاحب عارضة لا تعارض ، وحبية لا تناهض ، وعزيمة لا يقل لها حد ، وهمة لا يبرض لها فتور ولا يأس ، وكان أعضاء الادارة يعامون أن أمير البلاد يؤيده ، والحكومة تنصره ، وقوة الاحتلال لا تقاومه ، فلا يجاؤون لهم تفصيا مما يطالبهم به بحد سبقوت شبهاتهم دونه ، الا استمانة صديقه الشيخ حسونه عليه بمطالبتة بالرفق واتباع سنة التدرج حتى إنهم ألقوا هذا الرأي إلى الامير ومن أمثلة كبحه لجدلهم بالشدة ان الشيخ محمد البحيري - وكان من أذكاهم - قال له في مجلس الادارة في الدفاع عن المنهاج الازهري في التعليم : اننا فعلهم

كما تعلمنا . قال الاستاذ الامام وهذا الذي أخاف منه . قال البحيري ألم تعلم أنت في الازهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم ، وصرت فيه العلم الفرد ؟ قال الامام إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكره ، فاني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ماعلق فيه من وساخة الازهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة ...

وقد اغتر الشيخ حسونه بما كان من الضوضاء في مسألة قاضي مصر الشرعي المشهورة ، فخرج عن رأي الشيخ محمد عبده في سيرته فيها ، فكان ذلك سبب عزله من مشيخة الازهر واقفاء الديار المصرية معا ، وسيأتي شرح هذه المسألة في مكانها اللائق بها من هذا التاريخ ، وولي المشيخة بعده الشيخ عبدالرحمن القطب والاقفاء الشيخ محمد عبده نفسه كما سيأتي ، ولم يلبث الشيخ القطب ان توفي ، فبادر الخديو إلى تعيين الشيخ سليم البشري شيخا للازهر

وفي أثناء عهد الشيخ سليم تغيرت نية الخديو وأفكاره بسبب ما ذكره وراجت لديه دسائس العلماء وغيرهم ، فكان ذلك مجرنا للشيخ سليم على وقف سير الاصلاح في الازهر ، حتى انه كان يمتنع من تنفيذ قرارات مجلس ادارته ، التي تقرر بالا اتفاق معه في الجلسات التي تعقد برياسته ، وكان الشيخ محمد عبده يصبر على ذلك وهو قادر على إكراهه أو عقابه إذا أصر على عدم تنفيذها قال لي مرة عند الحديث في هذه المسألة : ان الشيخ سليما مسكين لا يعلم ان مادة كذا من قانون العقوبات تقضي بمحاكمة كل رئيس مصلحة رسمية يمتنع من تنفيذ ما يتقرر من أحكام قانونها محاكمة جنائية ، واني لو بلغت النائب العمومي أن مجلس الادارة قرر كذا وكذا في تاريخ كذا بتمتضي قانون الازهر وامتنع رئيسه من تنفيذ هذه القرارات فانه لا يسمه إلا أن يدعوه للتحقيق في محكمة الجنايات ، ولكنني انما أريد أن يكون اصلاح الازهر برأي شيوخه واقناعهم لا بسلطة الحكومة الكافلة لتنفيذ القوانين ، ولا فرق فيها بين قانون الازهر وسائر قوانين الحكومة ، إذ هو صادر بتمتضي ديكرتو خديوي كغيره

[أقول ولدى مذكرة بخطه في مواد قانون الازهر التي امتنع الشيخ من تنفيذها سأنشرها بعد]

(قال) وانا مادمت في هذا المكان لأدع للحكومة مجالاً للتدخل في شؤونها لانها حكومة واقعة تحت سلطة أجنبية

وقد أراد الانكليز التدخل في شؤون الازهر في تلك الفرصة ليرفعوا عنه سلطة الخديو ويجمعوه تابعا لمجلس النظارة، فكان الاستاذ الامام حائلا دون ذلك أخبرني مرة أن لورد كرم أرسل اليه أنه يريد أن يزوره - وقد علم رحمه الله أن الغرض من هذه الزيارة الكلام معه في حالة الازهر إذ كان قد بلغه ما فعله الخديو من الدسائس فيه ، واستخدام الشيخ سليم فيها ، ويريد أن تتدخل الحكومة في عزل الشيخ سليم كما فعلت في عزل الشيخ حسونه - قلت له وماذا تنوي أن تقول له ؟ قال أقول أحسن ما أعلم ، وأسكت عن شر ما أعلم ، ولا أقول إلا حقا ، ولا أدع منفذاً لنفوذ الاجني أن يتسرب إلى هذا المهدي الديني قلت : حياك الله ، ما أشد جهل قومك بمقامك ، وعلو درجة إيمانك ووطنيتك !

ولكن الازهر صار بعد وفاة الاستاذ الامام خاضعا للحكومة في جميع شؤونه وكذلك مصلحة الاوقاف صارت وزارة مرتبطة بالحكومة بسعي الانكليز، وهو ما كان أنذر به الخديو كما تقدم في أول هذا المقصد فصح فيه المثل :

بذلت لهم نصحي بمنهج اللوى فلم يستبينوا النصح الاضحى الغد

ولقد كان على شدة عنايته بالازهر وأهله والدفاع عنهم ومبايقتهم في تكريمهم شديد الاحتقار لهم في نفسه - إلا أفراداً منهم - وكان الأزره عنده ثلاثة ألقاب يطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص عند شدة تألمه من فساد حاله وهي : الاصطبل . المارستان . المحروب (بهذا اللفظ العامي)

ولو أنه هو الذي كتب الكتاب الذي كتبه الشيخ عبد الكريم ولخصناه فيما تقدم كما كان ينوي لفضح هذا المكان المشهور بفضله وعظمته وخدمته للعالم والدين فضيحة لأستطيع وصفها ولا تقدير سوء تأثيرها في الشرق والغرب ، والمعجز أن يزيل ذلك التأثير المخزي كل أحد ، وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم

أنفاً من شهادة الزور حتى من قضاة الشرع والمفتين . الذين لقب المحقق ابن القيم أمثالهم « بالموقعين عن رب العالمين » وكان قد اطعم على ما لم يطعم عليه أحد من مخازيهم بعمله في إدارة الأزهر وتفتيشه للمحاكم الشرعية كأكل السحت من الرشوة على الأحكام والقناوى، وعلى ما هو أشد ضرراً منها وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية ، ثم ناهيك بما هو الاعد لهذه المحازي كلها وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم الذي مكن الخدبو مما ذكر من العبث بهم ، والعزة والكبرياء على المجاورين المساكين والاهانة لهم ، وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شتمهم البذيئة المزرية التي لا تبقى في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة ، ولا عزة الايمان المكتسبة ، وقد كان لكثير من أبناء أولئك الفقراء المساكين من الفلاحين نصيب وافر منها . دع تأثير القذارة والامراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم

وقد قلت للاستاذ الامام : كيف استطعت أن تعيش نظيف الجسم والثوب والعقل والقلب عزيز النفس في هذه البيئة التي نشأت فيها ؟ فذكر لي ان السيد جمال الدين استغرب هذا منه قبلي ، وذهب الى ان له وراثته عمدة لفظته فيه فكان يقول له : بالله قل لي أي أبناء الملوك أنت ؟ وسأبسط هذا في الكلام على أخلاقه ، وقلت له مرة : انني جاهدت نفسي في التصرف على تعمد ترك لذائذ الطعام ، والنوم على الارض ، وبذل ما في اليد ، حتى لم يعد يشق علي من ذلك شيء ، واكنني حاولت أن أعود نفسي احتمال الوساخة بترك تقيير اشياب من العرق ، وترك الاستحمام غير الواجب مدة من الزمن ، فعز علي ذلك . إذ كان يضيق صدري منه حتى انه ليفسد علي عبادتي ، فلا أراني فيها منشرح الصدر ، ولا حاضر القلب ، . . فقال وأنا كذلك من كل وجه

وشر من ذلك كله تمكن الخرافات والالوهام من أكثر القوم، حتى از الشيخ حسونة الذي كان يعمده الاستاذ الامام أمثلهم كان يقبل به أحد أديباء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام ، بما يلبسون عليهم وبوهومهم من المكشفات والكرامات ، فيؤمنونه على نسايتهم حتى انهن كن يدخلن معه الحمام

وناهيك بما يفعله في احتفالات الموالد المتدعة ، ومشاركتهم لسدنة القبور المعبودة فيما ينذر لها من المال والفول النابت وغير ذلك
 إنني أذكر هذه الاشياء وأنا متألم من ذكرها لأبين للقاريء أهم الابواب التي كان يريد الاستاذ الامام أن يصورها بقله البليغ ، ويذكر أسبابها ونتائجها وسوء تأثيرها في اضاءة الاسلام ، وهداية القرآن ، وسنة محمد عليه الصلاة والسلام ، وما تبع ذلك من اضاءة ملك المسلمين وعزيم ومجدهم .
 على أنه قد كان لذلك الاصلاح على ضعف وسائله ، وقوة غوائله ، تأثير عظيم في اصلاح اخلاق الازهريين وصحتهم ونظافتهم ، وكثر فيهم المقاومون للخرافات والأوهام ، والاستعانة على مصالحهم ومنافعهم بالاموات ، وأعود الى ايضاح ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم من سبب غضب الخديو على الاستاذ الامام وانتقامه منه بما عمله في الازهر

الغضب على الاستاذ الامام ورئيس الديوانه وما اقتضاه من الانتقام

كان أنكى ما أحفظ سموه على الشيخ محمد عبد الفتحي وعلى صديقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم (في ص ٤٨٩) ، وأهمه كالمثاله وهو مسألة أوقاف الجيزة . ويبانه بالاجاز أنه عرض على مجلس الاوقاف الاعلى طلب استبدال بعض أراضي الاوقاف المدة للبناء في الجيزة من ضواحي القاهرة بمزرعة من مزارع الخاصة الخديوية ، وبني الطلب فيها على تقدير ربع المزرعة وكونه أكثر من ربع تلك الارض ، بما يقتضي أن يزداد عليها ثلاثون ألف جنيه ومع هذا تكون أنفع للوقف ، فقال الشيخ المفتي : الانفع للوقف في مثل هذا إنما يعرف بتقدير الثمن لا بالعلة السنوية ، فلا بد من تعيين لجنة من أهل الخبرة برياسة (باشمهندس) الاوقاف بتقدير ثمنها وثمن تلك المزرعة . وكان أول من وافقه على هذا حسن باشا عاصم الذي هو نائب سمو الخديو في المجلس ،

ومن ذا الذي يعارضهما فيه ؟ تقرر تأليف اللجنة فقامت بعملها فكانت النتيجة أن الفرق الذي تتحقق به الانفعالية للوقف إعطاؤه عشرين الف جنيه مصري فوق المزرعة فكانت جملة الخسارة خمسين ألفاً

بهذا اشتدت حفيظة سموه على مفتي الديار وعلى رئيس ديوانه ، وآلى حلقة لاحتلال ليخرجنهما من منصبيهما أو يخرج هو من منصب الخديوية فاما منصب رياسة ديوانه فأمره اليه وحده ليس للحكومة ولا للاحتلال المسيطر عليها رأي فيه ، ولكن قوانين الحكومة لا تبيح العزل بغير ذنب يحكم فيه مجلس تأديب . وكان سموه يكره احالته على المعاش لانه يجب أن يخرج من عمله عاريا عادما ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستقالة ، فكان سموه يعمل كل ما من شأنه أن يسوءه ليستقيل ، يعمل ذلك بنفسه وبالايعاز إلى موظفي الديوان ، وكان حسن باشا على عزة نفسه وإبائه يتجاهل كل هذا ويصبر عليه حتى لا يقال الخديو أربه منه ، فلما أعياه أمره ، وعيل صبر سموه وما عيل صبره ، أحاله على المعاش وأما منصب الافتاء فله علاقة بالحكومة والمفتي عندها من موظفي وزارة الحقانية لا من موظفي المعية ، فرأى سموه انه لا بد من التوسل إلى النيل منه بارتضاء العميد البريطاني ودولته .

وقد دونت خبر إحالة حسن باشا عاصم على المعاش وخبر استرتضاء سمو الخديو للانكاي متعاقبتين في مكان واحد من جزء المنار الذي صدر في غرة شوال سنة ١٣٢٢ (٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤) من المجلد السابع

وذكرت في الخبر الاول اجماع الجرائد على اثناء على حسن باشا عاصم واستغراب إحالته على المعاش من غير سبب ، إلا اللراء فانه رجح أن سبب الاحالة غضب الامير على رئيس ديوانه « منذ حدثت مسألة استبدال مزرعة الامير المعروفة (بمشهر) بارض لديوان الاوقاف في الهيزة . والمسألة مشهورة وملخصها أن طالب الاستبدال كان طلب من ديوان الاوقاف ثلاثين الف جنيه زيادة ، فما رضي الديوان حتى أخذ منه عشرين الف جنيه . وكان ذلك بموافقة حسن باشا الخ . وأما مسألة استمالة سموه للانكاي فقد كتبت فيها مانصه (ص ٧٥٩ ٧٦٠) :

استعراض الامير لجيش الاحتلال احتفالاً بجلوس ملك الانكلنز

جرت عادة المحتلين بأن يستعرض عميدهم جيش الاحتلال في ميدان قصر عابدين لما لا يخفى، وقد سبق من توفيق باشا الخديو السابق الترائي للجيش من شرفة القصر، ولكن عباس باشا الخديو الحالي أعرض عن ذلك حتى كان في احتفال هذا العام، وكان في أول أيام الصيام، أن خرج بملابسه العسكرية وحضر الاستعراض مع اللورد كرومر تحت العلم الانكليزي، فكان لذلك تأثير عظيم في النفوس واحي بهذا مع مسبقه من قبيله ما كان يتوهمه الدهماء من أن الامير هو المعارض للمحتلين وأن النظار هم المشايعون لهم؛ وعلموا أنه أشد من نظاره وفاقا معهم، لان أولئك يوافقونهم لمكان القوة فيما يريدون، وهو يمنحهم أكثر مما يطعمون، ولا نقول الا ان ماظهر وتبين نافع، وان خفاء الحقيقة قبله كان ضاراً لما فيه من غش الامة والقذف بها في معامي الغرور والوهم، فللا امير - وفقه الله تعالى لكل مايرضيه - الشكر أن كذب بمعله أولئك المفررين الخادعين الذين شغلوا قلوب الناس بمسألة جوهمية وهي مقاومة المحتلين، ونسأل الله تعالى ان يوفق أهل هذه البلاد إلى الاستفادة من هذه الحلة بالمحافظة على أرضهم وتشييرها وعمارها، وبالاعتناء بتربية اولادهم وتعليمهم العلم النافع ليحيوا حياة اجتماعية شريفة يرتقون بها إلى أن يكونوا أمة عزيزة، فان الحرية الهادئة لا يرتقي فيها إلا المهذب المقتصد، ومن اتبع فيها هواه، خسر دينه وديناه اه وقد كان المؤيد وغيره من الجرائد لبسوا على الناس هذا النبا الغريب وجملوه من فلتات المصادفات، ونوادرات التفاعات، فكان ما كتبه آفا فضيحة لتليسههم، ولما اطلع عليه الامير استشاط غضبا، وحرق الأرم حنقا، لأن صيته بمقاومة الاحتلال هو رأس ماله في التجبب إلى الشعب وتبقيض النظار اليه، واستحضر بطرس باشا غالي وزير خارجيته فأعطاه المنار وأمره أن يذهب به إلى نورد كرومر ويترجمه له ويبين له ان الذي أغرى صاحب المنار بهذه الكتابة هو الشيخ محمد عبده لانه يكره الاتفاق معهم هذا ما كان من التمهيد السياسي لاخراج المفتي من منصب الافتاء ومن ادارة الازهر، وأما التمهيد الديني فنشير اليه بما يأتي:

﴿ النهيدي الديني ، بعد النهيدي السياسي ، للانتقام من المفتي ﴾

غيرة شيوخ الازهر على الدين

في هذه الإثناء كثر خوض العلماء في مسألة الازهر والتبرم مما يسمى الاصلاح فيه ، واطافة ما يسمى بالعلوم الجديدة إلى دروسه ، وتبارت أقلام الكتاتيب منهم في الجرائد في الشكوى من هذه العلوم ، والخوف منها على الدين القويم والشرع الشريف ، ومن امتحان الطلبة فيه ، ومن مكافأة الناجحين منهم بالدرهم ومن مفاصد ذلك عندهم ان هؤلاء الناجحين المكافئين يؤلفون حزبا جديداً لبعض العلماء (يعني الاستاذ الامام) وقد كتبت في تلك الايام مقالات كثيرة في الجرائد رددت فيها على ما كان ينشر من ذلك وكنت أضع لها امضاء (أزهرى) أو غيره

وكان من تلك المقالات ما نشره الاستاذ الشيخ محمد الاحمدي الظواهري في المؤيد في المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو العظم) من الانتقاد على طريقة الازهر القديمة في التعليم لبنائها على « التقليد وضيق الفكر » والتسليم لما يقرره المشايخ في تفسير الكتب ، وينتقد طريقة الاصلاح الجديدة في مدارس المعاهد الدينية ويقول فيه « وارجو ويرجو المسلمون أن تشملوا هذه المدارس بمعنايتكم وان تقطعوا منها جرائم الفساد والانحطاط » . وأذكر ان المؤيد تعقب هذه المقالة بانها مخالفة لما كتبه الشيخ الظواهري في كتابه (العلم والعلماء) من مدح طريقة الاصلاح الجديدة والترغيب في العلوم الجديدة الخ وانه عاد فكتب مقالة أخرى يؤيد بها رأيه الجديد بنصوص من ذلك الكتاب ، ولا غرض لنا في بيان الرأيين هنا وقد نشرنا في ذلك الوقت أهم ما جاء في كتاب العلم والعلماء من فساد التعليم في الازهر وفساد علمائه وما يجب أن يكونوا عليه ، وضربه المثل العالي لهم بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وما قيل من سبب مخالفة لذلك ومجاراته للشيوخ المعارضين للاصلاح ، فليراجعه من شاء في صفحة ٧٢ و ١١٠ من مجلد المنار الثامن

وانما نقول هنا ان التمهيد السياسي المشار اليه لم يثمر لسموه إلا عدم معارضة الإنكباب والحكومة المصرية له في التبديل الذي يريده في الجامع الأزهر باستقالة شيخه السيد علي البيلاوي والشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان (رحمهم الله تعالى) وأما إفتاء الديار المصرية فقد صرح لورد كرومر بان الشيخ محمد عبده يظل مفتيا في مصر ماظلت بريطانيا العظمى محتلة لها ، فأنحصر انتصار الخديو في هذه المعركة بما ذكر من استقالة الشيوخ الثلاث بتأثير التمهيد الديني الذي علمه القراء ، ولكن هذا النصر كان صوريا لاحقيقيا ، بل هو شر انكسار الامير نفسه، لأنه أضاع به ما كان يستقل به من الامور الدينية العامة حتى الأزهر - وشر خبيته للشيه خ الذين يسخرهم الامير لمقاصده كيف يشاء والأزهر نفسه، لأنه نبى على حرمان الأزهر من اصلاح وعلوم لا ارتقاء فيه بدونهما ، وحرمانه بذلك من نخرج القضاة الشرعيين حتى لا يكون للتخرجين فيه نصيب من تنفيذ ما بقى الامة من أحكام الشريعة الاسلامية ؛ إذ لم ترض الحكومة به إلا بعد أن رضي الامير معها بانشاء مدرسة خاصة لتخرج القضاة الشرعيين وموظفي المحاكم الشرعية ، ولكن أكثر أوائلك الشيوخ لم يكونوا يعقلون هذه الخيبة والكسرة ، وما عقلوها إلا بعد سنين كثيرة ، أجمعوا فيها على ان إنشاء مدرسة القضاء الشرعي انما كان قضاء على الأزهر نفسه وبدلوا جهدهم لانقاذها ، واعادة النظام الذي حاربوه وسعوا لابطاله مسخرين مدللين

تمام التمهيد بشخص الشيخ الشريفي

كان الشيخ عبد الرحمن الشريفي رحمه الله من أشهر شيوخ الأزهر في علومه ومن أشهرهم بالصلاح والزهدي في الدنيا ومناصبها ، وأبعدهم عن التفكير فيما يرتقي به اهلها . وقد عرضت عليه مشيخة الأزهر مرارا فأعرض عنها وما قبلها ، ولكنهم في هذه المرة أقنعوه بأنه قد أنحصر في شخصه إزالة الفساد الذي يسمى بالاصلاح ، وتوجيه تعليم الأزهر الى ما يليق بعلماء الدين من التقوى والصلاح ، وكان أول من اظهر للمسلمين قبوله لذلك الشاعر الكاتب خليل مطران (السوري المسيحي) فتلقى من فمه حديثا نشره في جريدته (الجوائب المصرية) رددت صداه الجرائد ،

وفي مقدمتها جريدة المؤيد التي كانت مذبذبة في هذه الحادثة ، لان الشيخ علي يوسف كان يعتقد وجوب إصلاح الأزهر وأن الشيخ محمد عبده هو القادر على هذا الإصلاح دون غيره من العلماء وغيرهم، ولكن سياسته كانت تقديم إرضاء الخديو على كل ما سواه إذا تعارض معه ، وكان قد أساء الظن بالاستاذ الامام في قضيته الزوجية كما تقدم فأثر الانتقام منه لنفسه أيضاً
وهذا نص الحديث

حديث الشيخ عبد الرحمن الشريني

هذا نص ما نشره خليل مطران في جريدته (الجوانب المصرية) في ٧ المحرم ونقله المؤيد عنها في صدر العدد الذي صدر منه في ٩ المحرم وعنوانه (حديث مع عظيم من علماء المسلمين) قل بعدوصه بحجة وقته وإمام عصره ... الخ «ماذا يرى مولانا فيما قام بتمسه اليوم الشيخ الظواهري من الجباب الخديو؟» الاستاذ: الظواهري انما نطق بلسان كل محب لخير الأزهر عالم بالعرض الذي أسس له والخدمة التي أداها للدين ولا يزال يرجى منه أداؤها مادام فيه جدار قائم قلنا: وما ذلك العرض وما تلك الخدمة يا مولاي؟

الاستاذ: غرض الساف من تأسيس الأزهر إقامة بيت لله يعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كاتركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم^(١) وأما الخدمة التي قام بها الأزهر للدين ولا يزال يؤديها له فهي حفظ الدين لاغير . وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له . وقد خرج منه

(١) يعني ما نشره المؤيد للشيخ محمد الاحمدي الظواهري في خامس المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم) وتقدمت الاشارة اليه
(٢) المعروف في التاريخ أن الجامع الأزهر قد بناه جوهر قائد المزمع البيدي إمام الباطنية ومؤسس دولتهم في مصر ، وهوؤلاء الباطنيون كما قال الغزالي: ظاهرهم الرفض ، وباطنهم الكفر المحض . فالجامع الأزهر وجامع الحاكم قد أسسا لنشر مذهبهم الظاهر وكفرهم الباطن لافقه مذهب أهل السنة الاربعة كما قال الشيخ ، وان وافقه الاستاذ الامام في رده الآتي عليه جدلاً أو بناء على الظاهر

بحمد الله في كل زمان ومكان من أدى هذه الخدمة الشريفة حق أدائها فعلاؤه في مشارق الارض وغاربها هم هداة الخواص ومرجع العوام في الكثير من أمور دينهم .

قلنا : وهل حدث يا مولاي مايقف للازهر في الخدمة المطلوبة منا ؟

فتبسم الاستاذ ثم قل : بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه ، ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفى نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية التي تبعث اليه بالطلبة المستفيدين ويبعث اليها بالعلماء المرشدين ، ولقد تجاوزت خمسين حجة أطلب العلم وأخدمه بالازهر فلم أعلم ولا سمعت ان مقام الائمة الاربعة وضع في موضع الشكوك والريب الا في هذا الزمن الاخير حيث كثر بين أفراد الطلبة ممن نجح فيهم سعي المفسدين المتجهمين على مقام الائمة ، الطاعنين بكفاءتهم ، المنكرين علمهم عليا مراتب الاجتهاد

« إني أسمع منذ سنوات بشيء يسمى حركة في الازهر ، أو اصلاح الازهر ، واكتنيت لم أر لهذه الحركة وهذا الاصلاح حتى الآن من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه ، وذهاب ما كان من مودة ورحمة ومهابة بين الطلبة وبين مشايخهم الاجلاء ، حتى أصبح الائمة الذين كان يعضو في الازهر من مهايتهم اسكانتهم في العلم ، وجيل خدمتهم له ، وما يحملون من شريف شرع الله عرضه للسخرية من بعض الطلبة المحدوعين الذين سمعوا بسببهم وفلسفته ففرقوا بما لم يعرفوا ، واشتغلوا بما يلهيهم من هذا وأمثاله ، عما وجدوا في الازهر من أجله ، وهو طلب علوم الدين لاغير » عرضت علي مشيخة الازهر مراراً فاعتذرت وتنصت لعلمي أن العلماء في هذا المسجد أخوة في خدمة الله وشرعه ، فلا يليق بأحدهم وهو خادم الله والعلم أن تأخذه العزة بالرياسة والزعامة (١)

وقد رأيت الكثيرين من اخواني خدمة العلم في منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة . كانوا ينقطعون لخدمة العلم وينجاسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر ، وذكرهم العاطر

(١) الرياسة ضرورية للدين والدنيا وهي لا تستلزم أخذ العزة بالانتم . ثم لماذا

قبها الشيخ آخرأ بعد أن رفضها مراراً؟

قلنا مقاطعين : واليوم يامولاي

قال الاستاذ : اليوم نسمع بوجود أحزاب في الازهر ونرى الطلبة منقسمين مشغولين عن طلب العلم الشريف باحاديث أهل النفوذ والجاه والتأثير فيما يزعمون، مشغوفين بالفلسفة ، حتى ان من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف الى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرأوها أو مجلة فلان ليتصفحوها (١) ومثل هذا في تاريخ الازهر من قبل ماسمعت ولا رأيت

قلنا أياذن لنا الاستاذ في نشر هذا الحديث لعل في ذلك زاجراً لفريق من الطلبة ومنهياً للحكومة الجناب العالي الى تلافي الخطب قبل تفاقمه ؟

قال الاستاذ : انشر ماشئت وقل ماشئت ، وأنت نظر الجناب العالي والحكومة والناس الى أمر واحد جدير بالتأمل والاعتبار ، وهو ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس إلا ، فليتركوه كما هو حصننا للدين ، وذخرا للمسلمين في اطراف البلاد . وإن أرادوا به اصلاحا فايكن الاصلاح منحصراً في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وما سوى ذلك من مبادئ الفلسفة والعلوم الحديثة العالية فلتدخله الحكومة إن شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه اه بحروفه

وقد أثنى المؤيد على هذا الحديث وصرح بموافقة الاستاذ على كل ما قاله فيه من هدم ما يسمى الاصلاح للدين - إلا ادخال العلوم الحديثة فانه لا يبرى ضرراً منها ولما نشر المؤيد هذا الحديث كتب الاستاذ الامام مقالا فند فيه كلامه كما بما يعد تنفيذاً لكل ما كتب الشيوخ المسخرون لتلك الفتنة وأقام عليه وعليهم الحجة التي لا تدفع ، فبيضت المقال ونشرته في النظم في ١٣ المحرم (١٨ مارس) وأبقيت الاصل عندي وهذا نصه :

(١) يظهر أن الشيخ رحمه الله لم يقرأ كتاب العلم والعلماء للشيخ الطواهري الذي أبد رأيه في كتابه المفتوح للخبديو ذكر في كتاب العلم والعلماء أن الاطلاع على الجرائد والمجلات من الضروريات للعلماء وذكر من اسماء هذه المجلات المقتطف والفلسفي والهلال التاريخي والمنار الديني

الازهر الشريف

والغرض منه اصلاح طرق التعليم فيه

(لاحد علماء الازهر الاعلام)

ما كنت لأخط سطرًا واحدًا في موضوع ما يكتبه بعض الناس في هذا الوقت . تعلقًا بالازهر الشريف لولا ما نسب كالاما لاحد شيوخه بعد ما وصفه بأوصاف تعين شخصه ، ولولا ما جاء في ذلك الكلام مما يمس الازهر ويمس كثيرًا من شيوخه .

لا أتكلم فيما بحثه الناس على ملاقة الشيخ ، ولا مادفع الناقل الى النقل عنه ، فذلك مما عرفه كل قارئ لأول الاطلاع عليه ، ولكن أقول بعض كلمات فيما نسب الى الشيخ دفعًا للبس من الباطل قد يستر عين الحق عن يهيمهم أن يعرفوه لانكر على الاستاذ مقاله في الغرض من انشاء الازهر فذلك غرض كل من يبني مسجدًا لله في أي مكان وأي زمان ، لا يبني مسجدًا إلا ليعبد الله فيه ويعلم فيه دينه ، ولا ننكر عليه ان الخدمة التي يلزم أن يؤديها الازهر هي تعليم الدين ولكن لم نفهم قوله « وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للازهر به » فان كان يريد ان التعليم في الازهر يجب أن يكون قاصرًا على الفقه وأصوله والحديث ومصطلحه ، وعلم تقرير العقائد ، كما ورد به الكتاب والسنة ، وعلم آداب الدين والاخلاق المؤسسة على ماورد منه - وأما ما عدا ذلك وان كان من مقدمات هذه العلوم السابق ذكرها فلا يصح أن يدرس في الازهر - إن كان يريد ذلك فكنت أكون أول موافق في رأيه لو كان التعليم في الازهر قاصرًا على ذلك في القرون الماضية ، ولو كان حضرة الاستاذ نفسه لم يتعلم ولم يعلم في الازهر غير هذه العلوم . لكننا عرفنا الاستاذ يقرئ فنون البلاغة والنحو والمنطق وعلم الكلام على ماني علم الكلام من المذاهب الفلسفية وغيرها ، وعلى ماني مقدمات

٦٤ - تاريخ الاستاذ الامام ج ١

الأدلة التي يأتي بها المتكلمون من التعرض لمعنى الوجود وهل هو عارض للممكنات أو عين الممكنات؟ والتعرض لاحكام الجواهر والاعراض مما لا يمكن فهمه إلا ببحث دقيق في حقائق الكون، وقد ذكر لي بعض عشاق الاستاذ ان له براعة في علم الكلام والوقوف على مذاهب الناس في العقائد بما لم يساوه فيها غيره. وقال لي: انه يعرف من كتاب المواقف وشراحه ويقف على اسراره، الم يتفق لغيره أن يعرفه ويقف عليه. ولقد شاركنا الشيخ في أربعين سنة من الحسين التي ذكرها ولم نجد للاهتمام في الازهر وجهة الا تعليم فنون الوسائل من النحو والصرف والمعاني وغيرها مما ليس في علوم الدين وإن كان من مقدماتها، واني أعرف للشيخ طريقة في تدريس تلك الفنون من أغرب الطرق، فاذا قرأ شرح التلخيص في المعاني والبيان للسعد التفتازاني أفتى فيه بضع سنين محقق معاني ألفاظه والروابط بين كلماته، وقلده بعض الناس في ذلك حتى أصبح آباء الطلبة يتنون من طول الاقامة في الازهر الشريف دون أن يحل الطالب منها بطائل، والفضل في ذلك لمذهب الشيخ في التحقيق والتدقيق، كأن كلام المؤلف قد أنزل من السماء على معصوم فلا يصح أن تقع فيه أداة إلا ولها من أسرار المعاني ما لا يعرفه إلا مثل الاستاذ من عليه المحققين

أما كتاب الله فلا نعهد للشيخ فيه درساً يستوفي من التحقيق ما يستوفيه أحد شروح السعد على التلخيص ولا أخص الشيخ بذلك بل هذا كان شأن الازهر الذي وجدناه عليه ولا يزال الى الآن

كنت أوافق الشيخ على ما رآه إن صح أن يكون ذلك مراده لو سعى - حفظه الله - هو واخوانه من خدمة العلم في انشاء مدارس لتعليم الوسائل التي يرتقى بها الى فهم علوم الدين وبعد أن يستعد الطالب فيها لتلقي العلوم الدينية وينال الشهادة بذلك يأتي الى الازهر ويتعلم الدين خاصة

كل ذلك لم يكن فلم يبق إلا ان الشيخ أراد من علوم الدين ما يجمع مقاصده ووسائله حتى علم المنطق والكلام، فاذا أراد الشيخ ذلك - ولا محيص له عن أن يريد - فاذا يقول في امام الحرمين والامام الرازي وغيرهما من أئمة مذهبه وفي

جاءنا بالتواتر من كتبهم، وما احتوت عليه من البحث في حقائق الاكوان ليينوا عليها الادلة التي رأوا اقامتها لاثبات مكوئها؟ وفي العلماء الاجلاء الذين كانوا يقرؤنها في الجامع الازهر في كل زمان وقد يعرفهم الشيخ كما نعرفهم؟ إن سمح الشيخ لنفسه باللوم على متقدم فانا لا نسمح لانفسنا بلوم أحد منهم على ما رأى من المصاحفة في ذلك . فذا صح معنا ان أمتنا سبقونا الى اضافة هذه العلوم- علوم البحث في حقائق الاكوان- الى علوم الدين لانهم عرفوا ان لا سبيل الى اقامة الأدلة الصحيحة على العقائد- التي شرط في العلم بها اليقين إلا بذلك البحث وقد شاركهم الاستاذ في العمل على تلك الطريقة - فما الذي ينكره الاستاذ من علوم سماها « علوم الأعصر » أو أمور سماها « أمور الدنيا » ؟

هل يعد الحساب من ذلك؟ وهو باب من أبواب الفقه في قسم من أهم أقسامه وهو علم الميراث أو علم الفرائض؟ هل يحسب من ذلك سيرة النبي ﷺ التي أمر كثير من المشايخ بتدريسها وهي قسم من الحديث؟ هل يدخل في ذلك علم الآداب الدينية والاخلاق التي تكتسب من الدين وهو الفقه الحنفي ولا قوام لعلم من علوم الشريعة بدونه؟ هذه الفنون التي كانت تقرأ من قبل في الازهر - لكن لا على سبيل الالزام فألزم بها الطلبة وأصبح كل واحد منهم يعرف انه لا ينال درجة العالمية إلا بتحصيلها، وما عدا ذلك فهو لا يزال على ١٠ كان، فهل هذه الفنون هي التي يسميها الاستاذ مبادئ الفلسفة؟

ان من الغريب عندي أن يكون الاستاذ الذين يشيرون اليه قال هذا الكلام الذي نقل عنه ،

الأمر العالي الصادر بتنظيم الازهر موجود والاطلاع عليه سهل فهل منعت التقوى أهلها من أن يطلعوا عليه حتى يعرفوا ماهو الاصلاح الجديد؟
جاء في ذلك الامر العالي ما يوجب على العلماء والطلبة أن يصرفوا في المقاصد (وهي علوم الدين) أكثر زمنهم وانه لا يباح أن ينفق في تحصيل الوسائل ميساوي زمن تحصيل المقاصد أو يزيد عليه، فهل هذه هي الحركة الفلسفية التي أرادها الشيخ؟ ان الذين أرادوا الاصلاح لم يكن يهمهم إلا أن تكون وجهة

الطلبة والمشايخ هي تحصيل الدين والوقوف على أسرارہ والتخلق بأخلاقه .
والامر العالي الصادر في سنة ١٣١٤ وهو مايسمونه الاصلاح كان كافلا لذلك
لو كان حضرة الاستاذ واخوانه ممن ساعدوا على تنفيذه ، ولكن مثل هذا
الكلام الذي نشر في هذه الايام وأمثاله مما نشر في أوقات أخرى لمقاصد خاصة
بعد الذي حال دون الاصلاح ، وعاق طلابه عن الوصول الى مايقصده حضرة
الاستاذ من جعل التلميم دينيا ، ومن اشراب كل عمل من أعمال الطلبة والاساتذة
روح الدين ، فليهنأ الاستاذ ببقاء الازهر على ما هو عليه قبل الاصلاح وبعده إن
كان لم يبلغه ذلك أو باعه بما يخالفه ممن لم يصدقه الحديث

أما قول الاستاذ : ان في الطلبة من يحط من مقام الائمة وينكر عليهم
مراتب الاجتهاد فذلك مما لم أسمعه ولا اظن أحداً يعرفه إلا من بلغه ، غير أننا
نعرف أن كثيراً من الطلبة يحتاف الى من لا دين له ممن يسمون بالمسلمين
وبخوضون معهم فيما لا يليق ، لا متعلقا بالائمة فقط ولكن قد يصعدون الى من هو
أعلى وأقدس ، وهوشيء يشكي منه طلاب الاصلاح ويحاولون دفع ضرره بتعليم
الطلبة تاريخ سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين والائمة رضوان الله عليهم
أجمعين ، فان الذي يمدح الطالب ذلاقة لسان المنافق ، وجهل الطالب ونقص
علمه ، فترج عنده الاباطيل بسهولة ، ولو علم حال من مضى من سلفه كان من
السهل عليه أن يهدي الضال لا أن يتبمه في ضلاله ، فهل يسمح الشيخ بتعليم
تاريخ السلف في الازهر حتى يعرف الطلبة من أحوال الائمة مايدفعون به الأطان
فيهم ؟ وهل علم الاستاذ أحداً من هو الامام الشافعي ؟ وكيف حصل العلم ؟
وكيف عمل على نشره في الآفاق ؟ وكيف كان يعيش في بعد عن مشاغبات
الخاصة وغوغاء العامة ، مع الوقوف على أحوالهم ، وتقرير الاحكام بما يتفق مع
مصالحهم في شؤون دينهم ودنياهم ؟ فليطاعني حفظه الله على واحد أخذ عنه هذه
السيرة الجليلة سيرة الامام الشافعي محررة بما صح من الاخبار ، لا محشوة بما
لا يعقل من الاوهام ؟

أما الفوضى المنتشرة في ربوع الازهر كما يقول فاننا لم نفهم لها معنى ، لله

يعني ما حصل من المغاربة وعصيانهم أو امر المشيخة في هذه الايام ، لو أراد الشيخ أن يقف على حقيقة السبب فيها لصعب عليه أن يعرف أن ذلك من تارث بعض اخوانه لسبب يسوءه أن يعرفه ، وهي حركة ضد الاصلاح لانشئة عنه

يقول الشيخ: انه لا يعرف الا ما أضاع المحبة والرحمة بين الطلبة ومشايخهم ، متى كان هذا ؟ اما انتقاد الطابة على أساتذتهم فقد كان معروفا مدة الاربعين سنة التي أتمتها في الازهر والعشرة التي سبقني بها الشيخ بل قلما توجد مدرسة من مدارس العالم لا ينتقد الطلبة فيها أساتذتهم في بعض أعمالهم (واقوالهم)

وأما وصول الانتقاد إلى حد الاهانة والتقاطع فذلك لم يكن الآن اللهم إلا ان يعني الشيخ ما وقع من أحد حذاق المحامين من الشدة في نقده لبعض كلامه (١) ولكن ذلك ليس من الطلبة الآن ، وان كان قد سبق له طلب مدة الخمسين سنة الماضية أظن ان مجلس الشيخ مطروق باوائك الذين ينقلون له مالا تعرف له حقيقة من أين جاء للشيخ لفظ سببسر وأي طالب نقل اليه هذا الاسم ؟ وأي مبدأ من مبادئ سببسر دخل في الازهر ؟ وماذا يعني الشيخ بهذا الاسم خاصة لو كان هو الذي ذكره ؟ سبحان الله ما كان أحق بالتقوى أن تنهى أهلها عن العز والهز ان الذي يلزمه الشيخ بهذا الكلام طالما نادى في درسه بأن الذي أضر بالعقائد وباللغة ادخل الفلسفة في الاولى والحذو حذو أهلها في الثانية فهو وأن تعلم شيئاً مما تعلمه لم يحصله إلا ليدفع الشر بالشر إذا لم يمكن وسائل الخير

لم لم يقبل الشيخ مشيخة الازهر بعد حضرة الشيخ حسونه النواري وقد ظهر له ان ما دخله الشيخ حسونه كان شراً على الازهر ، وكانت مشيخة الاستاذ كافلة بازالة ذلك الشر ؟ زهد في المشيخة حتى لا يملو على بعض اخوانه كما يقول ، سبحان الله! أفما كان له أسوة في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر بن الخطاب في قبول الرياسة على اخوانهم ليحفظوا نظامهم ؟ هل هو أرهد منهما في الرياسة او أعلم منهما بما فيها؟

(١) هذا المحامي هو السيد احمد الحسيني - رحمه الله - كان يحضر درس الشريفي في فقه الشافعية واعترض عليه وناقشه في بعض المسائل بما يعد تجهيلاً له

مدح المشايخ الذين رأهم في خمسين سنة لا يشتغلون بالسياسة ؟ ومن الذي يشتغل بالسياسة الآن ؟ هل كان الشيخ حسونه يشتغل بها او الشيخ مسلم من بعده أو حضرة الشيخ البيلاوي اليوم ؟ وأي سياسة يعني الشيخ ؟ ان كان ما يريد منها سياسة الازهر وتنظيمه وتأسيس العمل فيه على قواعد يلزم السير عليها فالباديء بوضع هذا الاساس هو الشيخ العباسي رحمه الله ، ولقد هاج عليه الناس وفيهم كثير من اخوان الاستاذ لانه وضع قاعدة الامتحان على انه كان يفضى من مهايته كما يعرف الشيخ وأضرت نصح المشايخ بكثير من الطلبة إذ حقروا لهم أمر الدخول في الامتحان حتى حرموا من نيل درجة العالمية وهم يندبون حظهم إلى اليوم. وقد كنت ممن خدع بتلك النصائح ولولا حادثة حدثت مادخلت في الامتحان ولذبت متاعبي سدى

وان كان يريد للسياسة معنى آخر فما هو ومن هم المشتغلون به ؟ أظن ان الشيخ نفسه قد دخل في الاشتغال بالسياسة من حيث لا يشعر حيث سمح بنشر هذا الحديث أو لعله يشعر بأنه عمل سياسي لكن يستبيح منه لنفسه مالا يستبيحه لغيره نعم عهد لعلماء الازهر ولطلبته تبعاً لهم شغل بالسياسة قبل أن يدخل فيه مايسمونه بالاصلاح . ذلك في أيام الفتنة العرابية ، فقد انقسم المشايخ الى قسمين أكثرهم مع عرابي ، وأقلهم مع الخديو السابق ، وكانوا يسمحون لعبدالله افندي نديم أن يدخل الازهر ويخطب فيهم بفتنة السياسة ، وكانوا يحيطون به وينادون: اللائحة مرفوضة (يعني اللائحة التي قدمها قناصل الدول بطلب نفي كبراء الضباط) كان هذا في مدة الخمسين سنة التي ذكرها الشيخ ، وأما ما كان في زمن الفرنسيين وأول مدة محمد علي فلا نتكلم فيه لانه مضى عليه أكثر من مئة سنة وصار أولئك المشايخ سلفاً رضي الله عنهم

ألم يكن الاجمل بحضرة الاستاذ في صلاحه وتقواه أن يبذل جهده أولاً في لقاء الذين يعينهم بكلامه ويبحث معهم فيما يعملون وما يقصدون ، فان رأى خيراً ساعد عليه وإن رأى شراً وعظ ونصح ، فان لم ينجح النصح كان له الحق فيما ينشره في جرائد السيارة يجب كثير من الناظرين فيها أن تسبح الفاحشة في الذين آمنوا

اللهم ألمم الاستاذ واخوانه أن يقرأوا سورة الحجرات ، وأن يعظموا قول
 ﷻ فيها ، فاذا جاءهم فاسق بنياً تبينوا ولم يصيبوا قوماً مجاهلة حتى لا يصبحوا نادمين
 أما مانشره بعض الناس في تلك الجرائد التي لأشك في منازعة ضمائر أربابها
 لألسنتهم وأقلامهم من الكلام في الاحاد ، او وجوه الاصلاح ، فهو مما لا يصح
 النظر فيه بل هو مما يمر به العقلاء كراما . سامح الله هؤلاء المخاطرين بشرف
 الازهر وأهله الطالبين للاحاق أشد المضرات به ، ونظر الله جل شأنه بعنايته إلى
 هذا المسجد الشريف وقيض له من يتقلب على هذه المصاعب كلها حتى يصبح
 مؤديا للوظيفة التي تطلب منه ويتمناها الشيخ الفاضل

وإذا كان أصحاب الجرائد التي نقلت كلام الشيخ احراراً فلينفقوا هذا كما
 نقل ذلك بعضهم عن بعض تأدية للافكار الى قرائهم اه

استدراك على مقالة الرد على الشيخ الشرييني

في اشتغال علماء الازهر بالسياسة

تم نشر المقطع في ١٥ المحرم (٢١ مارس) مقالة عنوانها (علماء الازهر
 والسياسة ، او السياسة والازهر) بامضاء (مؤرخ) استدرك فيها على المقالة السابقة
 بان علماء الازهر قد ثبت عنهم الاشتغال بالسياسة الداخلية للحكومة في مدة
 الستين الحسين التي نفي الشيخ العظيم نفي اشتغالهم بالسياسة فيها ، وذلك « عند
 ما أرادهم رب السياسة (الخديو) عليها ، ولم ينبج من شرها إلا الشيخ العباسي
 حفي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر بومئذ »

وذكر الكاتب حادثة محاولة اسماعيل باشا اسقاط وزارة نوبار باشا ونجاحه في ذلك
 وان تلك الوزارة كانت تسعى لتخفيض ربا ديون الحكومة المصرية من سبعة في المائة
 إلى اربعة فأرى الخديو ان هذا التخفيض لا يليق بالحكومة ولا بالامة المصرية الشريفة
 فأمر بوضع لائحة سميت (اللائحة الوطنية) كان من أحكامها أن تضمن الامة المصرية
 سداد الديون ورباها الفاحش . واستعان على ذلك بعلماء الازهر فوقع اللائحة أكثر
 من يعرف له اسم من العلماء ومشايخ الطريق ووجوه الامة وأعضاء مجلس نوابها

وبعد أن وضعوا أختامهم بعث بها إلى المرحوم الشيخ العباسي لامضائها وختمها فتعال بالمرض وكان في حلوان فلم يأذن للرسول بمقايلته... وما زال الخديو يلح عليه في وضع اسمه على اللائحة حتى كتب عليها هذه العبارة «وافق على المشروع من هذه اللائحة» يريد بالمشروع ما وافق الشرع دون ماخالفه من دفع الربا على النحو الذي طلبه الخديو. فاكتفى الخديو بذلك لأن الذي كان يهمه ان يوجد اسم المفتي وشيخ الازهر على اللائحة
ثم قال الكاتب:

«ولعل الشيخ لا يسمي ما كان من أولئك العلماء دخولا في السياسة لانه يشترط في الدخول المذموم أن لا يكون وسيلة للحاكم في الوصول الى رغبته: ولذلك برأ الازهر وعلماءه من الدخول في السياسة في تلك اللمة

«واذا صح هذا يكون قضاء على العلماء بان يكونوا آلات في إيصال السياسيين إلى حظوظهم ورغائبهم بلا حرج عليهم ولا لأئمة تتوجه اليهم، سواء وافقت السياسة الشرع أم خالفته، وحصر السياسة في نقطة واحدة وهي أن يقفه العالم معنى السياسة ويكون بصيراً بتصرفها، ولو ليتقي شرها، ويأمن مكرها، ولكن السادة المالكية جعلوا هذا المعنى تعريفاً للفقهاء إذ قال فيه أحد أئمتهم «الفقهاء هم المقبل على شأنه، البصير بأهل زمانه» اه ملخصاً

وأقول الآن ان سر الاستاذ الامام رحمه الله هو الذي اشار بكتابة هذا الاستطراك على المقال الاول

وجملة القول ان هذه التمهيدات السياسية والدينية قد انتهت بما تقدم من استقالة السيد البيلاوي وتولية الشيخ الشريفي مشيخة الازهر كما تقدم. فكان هذا الشيخ الزاهد كغيره آلة لسياسة الخديو الضارة بالازهر وبالدين، ثم لم يكن موفقا في مشيخته لشيء من خدمة الدين، ولا راضيا ولا مرضيا من العلماء ولا السياسيين. ونذكر الآن ملخص خطبة سمو الخديو في حفلة إلباس الخلاء للشيخ الشريفي وبعض ما كان لها ولترك الاستاذ الامام لادارة الازهر من سوء التأثير في العالم الاسلامي

ملخص خطبة الخديو بقصر عابدين

﴿ في حفلة الانعام بالخلمة على الشيخ عبد الرحمن الشرياني ﴾

شيخ الازهر في ١٧ المحرم سنة ١٣٢٣

قل سموه بعد مقدمة :

« ان الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية .
تنشر علوم الدين الحنفي في مصر وجميع الاقطار الاسلامية . يأتيه المسلمون من
كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الفراء ، ولينفعوا قومهم ،
ويرشدوهم الدين الصحيح متى رجعوا اليهم

« واتقد كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهرين دائماً ، ولكن
من الالاف رأيت أنه وجد فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات
بالدين ، ويكشرون من أسباب اقلقل .

(وهنا ذكر حادثة رواق الغربية التي تقدم ذكرها في ص ٤٩١ وأشار إلى
ما سبقها من حادثة رواق الشوام وهما من حوادث الشغب الذي أحدثه وشكاه منه ثم قل)
« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف ،
والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتقني العلوم الدينية النافعة البعيدة
عن زيف العقائد وشغب الافكار لأنّه هو مدرسة دينية قبل كل شيء

« إن كل ما يهيم الحكومة من الازهر شيان . الاول استتباب الامن فيه وهو
ما أوصي به دائماً . والثاني تخرج القضاة الشرعيين ، وهو ما سينشأ له مدرسة
مستقلة يقصدها كل من يتحصل على شهادة العالمية في الازهر ، ويريد التوظف في
القضاء . وستشتغل الحكومة بابراز هذا المشروع من القوة للفعل قريباً

« وانني أول من يقدر السيد علي البلاوي شيخ الجامع الازهر السابق ،
حق قدره ، ويعرف فضله وتقواه ، وبجترمه مزيد الاحترام ، ولكنه رعاية
لصحته رأى أن يستقيل من وظيفته ، وقد جريت منذ اثنتي عشرة سنة على هذا .

القاعدة ، وهي أن أقبل استقالة كل من يستقيلني من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالته ، ومن يستقيلني من وظيفته سواء فانا مستعد أن أقبل منه جريا على العادة التي اتبعتها في ذلك . والآن قد اسندت وظيفة مشيخة الازهر للاستاذ الشيخ الشريفي المعترف له من جميع الطبقات - ازهريين وغيرهم - بالعلم والتقوى والصلاح . وأنا مستعد أن أساعده بكل ما في وسعي لتأييد كلمة العلم والدين في الازهر . وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب ، وأن تحثوا اخوانكم والطائفة على ذلك . ومن يحاول بث الشغب بالوساوس والاهام أو الايهام بالاقوال أو بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الازهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى أن يرجع إلى بلده ويث فيها ما يريد من الاقوال والآراء الغائرة للدين ، ولمصلحة الازهر والازهرين » اه بنصه الرسمي المنيف الذي نشره المؤيد

يري قاريء خطبة الامير انه يتكلم بلسان الفاتح الظافر ، والملك المستبد القاهر ، كأنه لا يدري ولا يشعر بانه هو المغلوب المقهور الخاسر ، وان الازهر نفسه هو الذي خسره نهائياً في هذه المعركة ، فان أمر الازهر كان من خصائصه التي لا تعرض له فيها الحكومة ولا سلطة الاحتلال ، فأصبح لا يملك الاستقلال فيه بشيء ، وقصارى سلطته أن يقبل استقالة من يستقيل منه ، وأي شيء هذا؟ وأما قوله (ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده) الخ فهو يعني به هذا العاجز صاحب المنار - كما صرحت بذلك جريدة اللواء - لانه كان أخلص نصير للاستاذ الامام في كل ما كاد به الامير له ولا سيما مسألة الازهر ووسائلها ، وقد أشار بهذه العبارة إلى ما كان ينويه من اخراجه من مصر منقياً بعد أخذ كتابته من شيخ الازهر بان ما أكتبه في المنار مخالف للعلم والدين ، او اعتداء على علمائه العاملين . وقد بلغ هذا السيد يومئذ كبار الحكومة وتحدث به مصطفى باشا فهمي رئيس النظر مع الاستاذ الامام فقال انه يريد نفي السيد رشيد رضا من مصر ولكن من يتفذه له . وسأذكر في مقام آخر بعض ما كان من سمومه في شأني وأوله التفريق بيني وبين الاستاذ الامام ، ومنه السعي لاخراجه من هذه البلاد

وأكتفي هنا بذكر بعض ما كتبه في المنار عقب هذا العبث والتغيير في الازهر من بيان ما بني عليه ، ثم أنشر بدمه فصلا فيما كان من تأثير استقالة الاستاذ الامام من ادارة الازهر . وهذا نص ما نشرته في ص ٧٧ من المجلد الثامن

﴿ غرض الحكومة الخديوية من الازهر ﴾

قد شاع وذاع أن سمو الامير اتفق مع حكومته على ان كل ما بهم الحكومة من الازهر شيان (الاول) أن يكون أهله في أمان (والثاني) تخرج القضاة الشرعيين . ولما كان التعليم في الازهر غير كاف لتخرج القضاة الذين تصلح بهم حال المحاكم ، وينفذ حكم الشريعة عزمت الحكومة الخديوية على انشاء مدرسة خاصة لتخرج القضاة يكون تلامذتها من طلبة الجامع الازهر ، ولم يكن أحد يصدق هذه الاشاعة لولا أن المؤيد ذكر أن الامير قال ذلك في كلامه الذي خاطب به مشايخ الازهر في حفلة لباس الحلعة للشيخ الشريفي وواقعه المقطم في معناه (١) وأسنده إلى أوامير الامور وقد كثر التساؤل بين الناس عن سبب استقالة الشيخ محمد عبده من ادارة الازهر على عنايته العظيمة بخدمة الازهر وحرصه على تخرج رجال فيه يقدرون على خدمة الشرع وتأيد الدين . وكان ينبغي أن يكون أول سبب يخطر في البال ، بعد الاطلاع على تلك الاقوال ، هو بلوغ الشعب في هذه المدرسة غايته ومثله من رجال الجهد لم يخلق للعب بالشعب ، بدون فائدة تكفي . إنفاق الوقت في التعب . ثم اكتفاؤه بعناية أوامير الامور بتربية جماعة من طلبة الازهر في مدرسة خاصة ليتخرج منهم أسانذة وقضاة وهو شيء مما كان يميل اليه ، وقد تيسر الوصول اليه ، ويقول المقطم ان الحكومة ستنوط بالشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أمر هذه المدرسة فان صح ذلك فحسبه تربية البعض من الكل ، على أن تركه لادارة الازهر ليس ترك الازهر كله ، فإنه شيخ رواق الحنفية وهو أكثر الاروقة طلابا فهو يبيت فيهم النظام ويرشدهم الى روح العلم والدين وهذا بعض آخر من كل و « كل ميسر لما خلق له »

(١) عنيت بقولي في معناه أن المقطم لم يوافق المؤيد على أن تلك الخطية هي نص ما نطق به الخديوي بل نازعه في ذلك مؤيدا نزاعه بشهادة من كان حاضرا للحفلة وسمع الخطبة بأذنه .

تأثير ترك الاستاذ الامام الازهر في المسلمين

نشرنا في (ص ٢٣٧) من مجلد المنار الثامن تحت هذا العنوان مانصه :

لقد اضطربت قلوب عقلاء المسلمين ووجهت نفوسهم لهذا النبا في كل قطر ، فقد جاءتنا الكتب والرسائل في ذلك من السودان وسورية ومن بلاد المغرب والمشرق ما بين شاكية وبائية، منها ما يعرف مرسلوها عن الامام ، ويرون أن لا عيب عليه ولا ملام ، لو قوفهم على حقيقة أحوال هذه البلاد، فأرأبهم في ذلك كراي اكثر العقلاء في مصر الذين استشار الامام بعضهم فأشاروا بوجوب تركه (١) ومنها ما يتضمن اللوم لاعتقاد أصحابها أن الاستاذ الامام قد يئس من إصلاح المسلمين، فترك خدمة الملة الملا من مقاومة الجامدين، أو علماً بأنهم غير مستعدين، وقد آلمهم ذلك لأنهم يعتقدون أنه اكبر زعيم للإسلام في هذا العصر وأقوى نصير له في علمائه، ويشعرون بأنهم يستمدون منه الهمة والغيرة والرأي الصحيح على بعد الديار ، وتناهي الاقطار ، ولا أنكر انني أعرف من أذكيا المسلمين الاقربين داراً بل من المصريين انفسهم من سرى اليه شيء من هذا الوهم وقد آلمني وسيؤلم كل ذي غيرة وشعور قول (النواب محسن الملك) ان اليأس والقنوط قد تمثل لأهل النهضة الاسلامية في الهند ، وشعروا بأن قد طفيء نور الاصلاح المنبعث من هذا الامام . فوقعوا في حنادس الظلام - يحزننا ومعنا هذا القول من قوم نعتقد أن نهضتهم أعلى من نهضتنا ، وهمتهم أعلى من همتنا، والامل فيهم أقوى من الامل فينا ، ولا نفضلهم الا بهذا الرجل وابتقان اللغة العربية ، لاننا نراهم يرجوننا اكثر مما يرجون انفسهم ، كما انه يسرنا شاعرهم بارتباطهم بنا ، ولا يأس منا ولا منهم إن شاء الله

ان من أغرب ما كتب الينا في هذه الحادثة نبذة لأحد الفضلاء في ذس وهي :

(١) من هؤلاء جل تلاميذه ومريديه من كبار رجال الحكومة كسعد زغلول وفتح زغلول وقاسم امين ومحمد راسم الخ

«قد ساءنا وایم الله ما بلغنا من استقالة حضرة جناب الاستاذ الامام، وعالم علماء الاسلام، فريد هذا العصر، وغرة جبين الدهر، ذروة جهابذة الآفاق، ونخبة كبراء المصلحين بالاتفاق، مولانا وسيدنا الشيخ محمد عبده ادام الله بقاءه ومرشدا للعالمين - من عضوية إدارة مجلس الازهر الشريف الذي كان متعنا الله بوجوده مجتهداً في إصلاحه، كما ساءتنا تلك الخطبة... ولكن (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم - والذين جاهدوا فينا لنهذبهم سبلنا) وقد كدر ورود هذا الخبر جميع محبيكم ومحبي الاستاذ الامام لعلمنا بأنكم من المجددين في إصلاح الامة الاسلامية. الخ

وإنما كان هذا غريباً لأن تلك البلاد أبعد بلاد المسلمين عن التفكير في الإصلاح أو الشعور بالحاجة إليه، ولكن هذه الافكار قد سرت في كثير من أهلها من بعض المهاجرين اليهم من المسلمين، ومن قراءة بعض الصحف كالمنازل. وقد ختم هذا الكاتب كلامه بقوله: وأدام الله بقاءكم رغباً عن أنف الجاهلين والمستبدين، والمفسدين والمقلدين اه

تأثير الاستقالة في الهند

ذكرت نبذة من كتاب عالم فاضل في المغرب الاسلامي الاقصى في سوء تأثير هذه الحادثة حذفت كلمات الطعن منها، وأكثر ما كتب إلي في ذلك يتضمن طعناً شديداً في الخلدو لم يكن نشره ممكناً - واقفي عليه بما كان من تأثيره في أرقى الشرق الاسلامي

كتب إلي زعيم مسلمي الهند وعميد نهضتهم الاسلامية الاكبر، العلامة الكاتب الأشهر، النواب محسن الملك عميد المدرسة السلفية الاسلامية في عليكره ورئيس الشرف لادارتها كتاباً طويلاً أثني فيها علي وعلى جهاد المنار في سبيل الإصلاح الاسلامي، ثم قال في هذه المسألة مانصه نقلاً عن ص ٢٣٣ م
«وقد أدهشنا خبر هائل وصل إلينا من الجامع الازهر وأوحشنا وأقلق جل

أصحابنا والامة، وأراق الدماء من الجفون والمقل، وكادت القلوب لها ان تهبل^(١) وقد انصدعت له الصدور، وتصدعت لها المهج في شلوكل مصدر، وذلك ماشاع. عن هذا الفيلسوف السرسور والحلاجل الوقور^(٢)، والنبراس في ظلمات الديجور، من رفض ما كان اليه من نظارة الجامع المذكور، أسفا على ما تجرب من جفاء اهل عصره، ولا سيما علماء مصره، ومساعدة الحضرة الخديوية للعلماء، وقضائها بخلاف ما كان يرجى من تلك الحضرة انفراد، لما كان أيده الله تعالى يريد من إشاعة العلوم الحديثة، وإذاعة المعارف والحكم الجديدة، وزيادة على ما كان يجري فيه من دروس العلوم الشرعية والمسائل الفرعية. ولما لم يصنع احد الى رأيه ومقاتلته، ولم يكثرث رجل الى ما كان فيه من محض نصاحته، تمثل لنا عند ذلك الياض، وتجدد لنا شبح القنوط والابلاس^(٣) لخود هذا النبراس، فقد كنا نظن قبل ذلك أن سوف يرحل به عنا ايل المحن، ويقامع عنا دماس القن، وتقوض عنا خيام البلاء، وتعطف عنا سهام الضراء، ويتمفس علينا صبح الاقبال، ويطلع على وجهنا فجر الآمال من اجل ذلك البارع الحكيم المفضل، وكنا نظن انه قد توفد في الاسلام مصباح يستوقد منه آلاف الوف من المصابيح، ومفتاح يفتح به مقالق أبواب الفرج والبرايح، ولكن قد تبين الآن أننا لم نبرح عرضة للبلاء، ودرية لرماح الضراء، وجزراً لسيوف البأساء، ما زالت هذه الحضراء تدور على الغبراء. وما أشبه حال هذا الحكيم الرزين، في المصريين، بحال السيد احمد الذي أعثرناك على حاله في الهنديين، فقد عظمت الرزية وجلت المصيبة، فإننا لله وإنا اليه راجعون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

ولما وصلت جريدة المؤيد إلى الهند ورأوا فيها خبر الانقلاب وخطبة الخديو كتبوا في ذلك مقالات شديدة في الانكار على سموه، لم نهن بترجمة شيء منها في ذلك الوقت لتعذر نشره ونكتفي منه بما نشر في جريدة (الرياض) التي كانت

(١) يقال تهبل ايماله واهتبل اذا اكتسب. ولعل الكلامة في الاصل تهبل من هبل ولده واهتبه اذا نكله (٢) السرسور بالفم الفطن العالم الدخال في الامور. والحلاجل السيد في عشيرته الشجاع الركين في مجلسه (٣) الابلاس هو النم من اليأس والحيرة

تنشر باللغتين العربية والاوردية في عليكره وكنا جنظناها لاعتدالها ، وهذا نصه
من الممد الذي صدر في ١٠ صفر سنة ١٣٢٣

﴿ خطبة الجناب المالي الخديوي واصلاح الازهر ﴾

ألقى الجناب العالي الخديوي خطبة أنيقة على جمع حافل من العلماء والفضلاء
والمشايخ عند استقبال حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد الرحمن الشريدي
شيخ الجامع الازهر الجديد صرح فيها بأرائه وأفكاره السامية في مسألة الاصلاح
الازهرية فقال حفظه الله :

« إن الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية
تنشر علوم الدين الحنفي في جميع الاقطار الاسلامية يأتيه المسلمون من كل جهة
ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الغراء ، وليتبعوا قومهم ويرشدوهم
لدين الصحيح متى رجعوا اليهم »

ولكن الافادة والارشاد يتوقفان على أن تكون علومهم ومعارفهم أعلى وأرقى
من معارف قومهم سواء كان معارف الاديان ، أو معارف الاكوان .
« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف
والشعب بعيداً عنه فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة
عن زخ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء »
(وقال حفظه الله في ختام الخطبة)

« وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بميدان عن الشعب وتحثوا إخوانكم على
تأييد كلمة العلم والدين ومن كان يحاول الشغب بالوساوس والواهام أو الإيهام بالقوال
أو بواسطة الجرائد والخذ والرد فيها فليكن بعيداً عنه ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء
فأولى له أن يرجع الى بلده ويبيت فيها ما يريد من الاقوال والآراء المغايرة
لدين ، ولمصلحة الازهر والازهرين »

بعد إيراد تلك الكلمات من الخطبة الملوكية لا يسعنا إلا ان نقول بأسف
زائد : ان حركة الاصلاح قد قضي عليها ، وان هذه المدرسة العظيمة تبقى على

تقاليد قديمة، وأوضاع عتيقة، وطرق غير نافعة، وجمود وخود وهبوط، يبقى مستقبل التعليم الديني مظلماً الى ماشاء الله تعالى . فليسكت النار وليرجع الشيخ الظواهري عن الآراء والاقتراحات التي نشرها في كتاب العلم والعلماء والكتاب المقترح فقط اه ثم نشر في العدد الرابع الذي صدر من هذه الجريدة في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٣ المقال الآتي :-

عجب واسف على قضية الخربو في الجامع الازهر

لحضرة الفاضل العلامة النواب محسن النظام الاعزازي لعليكمه كالج
قد استحرنا وتضجرنا وتحسرنا وتحيرنا من النطق الفاضل والحكم الفينصل،
الذي قضى به سمو الخديو المصري على جامع الازهر، من جهة ما هو عليه من
مكائنه في العلم بالمعارف، الجديدة والخبرة الواسعة المنسعة بالعلوم الحديثة، وما كان
يمرأى منه من الترقيات الحالية في أرض اروبا، وعلى معرفة تامة بما يستتبع التعليم
النافع من الآثار الجيدة، والنتائج الحسنة، والفوائد المستحسنة، فليت شعري
كيف بدا له أن يقضي بمثل هذه القضية؟ أم كيف عن اه أن يحكم بمثل هذا
الحكم الذي تنسد به ذرائع الارتقاء والصعود على وجوه المسفين، وانه بنفسه
لينظر إلى باقي الجامع الازهر من ضياع النفقات الكثيرة وضيمة الاموال المنسفة
الثمينة التي تنفق فيها، وهو بعد على خبرة تامة بحال الطلبة الخارجين عن هذا
الجامع، والذين يتحلون من نصاب دروسهم منه لا يكونون إلا صاماليك وسائلين
وفي الرقاب، وهم مع ذلك من أرباب الجهل البحت، وأصحاب التعصب الذميم
المحض، وليس للجامع الازهر حظ من التعاليم الدينية الاصلية الحقيقية النافعة،
ولا يوجد فيه ضرب من الدروس التي تنفع الناس، نظراً إلى ارتقائهم في معارج
الفضائل الخلقية، والمدارج الدنيوية، ومع كل ذلك فان السعادة الخديوية قضت
على الجامع الازهر أن تدوم له تلك الحال التي كان عليها إلى الآن في النهج القديم
الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يقصد فيه إصلاح حال، ولا يرام منه
رعاية لجانب انواقب والمآل

وأعظم من ذلك أن الحضرة الخديوية لم تقنع بمجرد هذا الامر، ولا بمحض هذا الحكم، بل أخذت تنبذ بالانقلاب من أراد منهم الاصلاح في أحوال الجامع، ووزاد الخديو على ذلك بان وعدمه بالاجلاء عن حوزة ملكه، وهددهم بالنفي عن حومة دولته، وأجبر أمثال المقتي محمد عبده الذي من حق العالم الاسلامي أن يفتخر بوجوده، ويختال مرحاً بكونه وشخصه، اعلو كعبه في العلوم، وسعة معرفته وخدمته للمعارف، ودراسته وصفاء سيرته، وتوقد قريحته، وجلاء قلبه ووحدة ذهنه، أنجاه سمو الخديوي إلى الاستقالة وترك العضوية والنظرية، والذي ظهر لنا ان الخديو لا يريد بذلك إلا تطيب نفوس العوام، وإرضاء شيوخ الازهر الاعلام، وتنشيط قلوب هؤلاء الكرام، الذين لا يعرفون من العلم إلا الدارس، ومن الدرس إلا الخلق البالي، كما يحسبهم الجاهلون أنهم هم المسلمون حقاً، وأهل الديانة صدقاً، ويكون محلهم في أعين الخلق محل حماة الاسلام، وسوقهم موقع الذابين عن حى شريعة خير الانام

(وهنا استغرب عدم تدخل لورد كرومر في هذه المسألة: وعلمه بما عن له. ثم قل) فأما اذا كان الامر كما وصفناه فهل يرجحى من أهل مصر أن يعرجوا بشيء في معارج الارتقاء، بعد ذلك القضاء للقلق، والحكم الوبق، الذي تصدعت له قلوب الحازمين من أهل الاسلام كافتهم؟ وهل يرجحى لهم بعد تلك الحادثة الهائلة أن يمكنوا من الصلوحية للارتقاء في العلم والحكمة، بعد ولوعهم في مثل تلك الدروس الخاوية، وعكوفهم على تلك التعاليم الخلقية البالية، في الجامع الازهر؟ وهل في الوجود أحد أعرف بذلك من سمو الخديوي؟ الخديوي يعرف ان المسلمين الذين يتعلمون في الجامع الازهر في تلك الهيئة الرثة الخلقية، لا يزالون ينحدرون بها في غيابة الجهل والظلمة، ومنتهى غاية الذل والمسكنة، ولا يقدررون على شيء غير التعمص بقمص التعصب والجهالة، والارتزاق والاستيكال في وجوه الذلة والمهانة، ومن الآن لا يولد في أرض مصر رجل يكون لهوى في الوطن، ووله في ارتقاء القوم، وحرية في العزم والرأي، وان يخلق في هذه الارض نسمة يكون من شأنها ادعاء الصلوحية، ودعوى القابلية الامور الحكيمية،

والملكية لنفسها ، وقد تبين ذلك عند أهل مصر وهم قد افتموا من هذا الحكم الهائل ان سمو الخديو قد آثر رضا الشيوخ ومشايخ الازهر على فلاح القوم وصلاحهم ، وقرب على ذلك بمثل لهذا القربان والله المتعان على ذلك وفي كل نازلة ولو ان أهل مصر كانوا يتوقعون من المستر دنلب بعد فنوطهم وإياسهم من جامع الازهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع في أرض مصر ، ويكون فيها نشر التعاليم العالية واشاعة النصاب الاعلى في العلوم والحكم ، لكان في ذلك بمض تعزية عما قد فاتهم من ذلك في الجامع الازهر ، ولكن الذي ظهر لنا انهم لا يتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضا كما قد يتسوا من ذلك الجانب ، وعسى أن ينكشف لديهم ان أعضاء الدولة والذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك أمرها وسلطانها لا يرضون بان يتاح لهم من التعاليم ما تستخير به قلوبهم ، وتستضيء به أدمغتهم ، ويطلعون به على حقوقهم المليية والسياسية ، ويمزمون به على طلباء والاجتهاد والجد في تحصيلها ، واحراز الفائت منها .

فأما الدولة الانكليزية فقد أخذت أزمة الحكومة المصرية وأعتها في يدها لمحض النصح التام لكافة أهلها ، وأن لا تألوا جهداً في تحسين صورتها وتجييد حالها ومنظرها ، ولكننا نسلم ذلك الى الوقت الذي ليس لاهل مصر اطلاع على أحوال السياسة ، وإلمام وممارسة بفنون التمدن ، وما فيه قوام الدولة وقيامها ، أو هم ذاهلون عن اكتساب العلوم النافعة التي امتلكت بها أرض أوربا سائر البلاد ، وذلك لنفسها كل صواب الامصار والاقطار . ومعلوم ان هذه الذلة والهوان ، وان ذاك النعاس والنسيان ، وهذا الحرمان والخللان ، وغيرها من المعايير التي توجد في أهل مصر من أجل تلك التعاليم الدارسة البالية في الجامع ، أصلها من هؤلاء الابرار من أهل العلم والمشيخة المقدسين ، وهم السبب الاصيل والعلة انتامة لهذه الحل المتهنة ، وانما يكفي من تعليم الدين محض اسمه لاجل ارضاء المسلمين ، ونفريج خواطر العامة الجاهلين .

فأما نحن فقد أحطنا خيراً من الجراند المصرية ان اهل مصر وان كانوا قد أحسوا بما فيه ملكهم ودولتهم من الارتقاء والاصطعام من أجل النظام الحاضر

البريطاني واخضرار عود المملكة به واستقامة عمودها لاجله ، وهم عارفون فضل الحرية التي اكتسبوها ولم يرزقوها من قبل - فهم بعد غير راضين بنهج التعليم الذي وضعه لهم المستر دنلوب رئيس ادارة التعليم وأسه لهم وأنفذه بينهم في أرض مصر ، وبحسبون ان هذه الطريق لا تأذن لهم بشيء من الارتقاء والصعود . وهم لا يكتفون بذلك ولا يسرون رأيهم هذا ، بل يجاهرون به ويتصارخون في الجرائد المصرية ، ولكن لو أمكن في الوجود سبيل الى اصلاح الجامع الازهر وتسبل اليه اشاعة العلوم النافعة ، أو وقع رأي مثل المتي محمد عبده وغيره ممن يبتغي الاصلاح في موقع القبول ، لكفت هذه الكلية وحدها لاصلاح المصريين ، وتخرج من هذه الكلية الباهرة متعلمون كانت أرض مصر تصير كمثل أوربا باجتهدهم في نشر التعاليم العالية وإحسان التربية لبني أوطانهم ممن يتعلم فيها . أوليس انه لو أصلح حال كلية مثل الجامع الازهر الذي يتعلم فيه عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف نفس ، ونشرت فيه العلوم الحديثة على مناهج كليات أوربا ، وأتيحت لهم الدروس الدينية مع العلوم العقلية ، وكان هناك نظم جيدة لتربية الرجال المتعلمين فيه - أفلا يتخرج منه في كل سنة مائة نفس يحامون عن الاسلام والمدنية ، وتستنير قلوبهم وأدمغتهم بأنوار العلوم الحقيقية ، ويمحوون بذلك عن المسلمين نسبة الجهالة ، ورسام فقد القابلية للارتقاء والتهضة ؟

الحق ان الحكم الذي قضى به سمو الخديو إنما هو غضب من الله وعذابه حل على أهل مصر ، وقد تمثل وتصور في هيئة هذا الحكم الهائل الخديوي ، وللمصريين أن يقنطوا من الآن ويئسوا منذ الساعة من ارتقائهم في معارج الصعود ، ويقيموا المآثم بالبكاء والمويل على ما فاتهم من تعليم العلوم النافعة والفنون المفيدة لهم . ولشيوخ الازهر وأساتذتها أن يتعيدوا بمثل هذا العيد العظيم ، وأن يبارك كل واحد منهم الآخر ويهنئه على انه من الآن لن يتطرق الخلل الى ملاذ هؤلاء العممين ومنافعهم المزخرقة ومعايشهم الدينية والدنيوية ، وان كان يستتبع ذلك هلاك قومهم ، وطف اخوانهم وتاف أبناء أوطانهم ثم إن علماء الازهر قد وصفوا هذه العلوم الجديدة بأنها مظنة لنور الاسلام

وإن الخديوي بنفسه وصف العلوم التي تتلقى الآن في الجامع الأزهر فقال أنها تبعث الرجل عن عقائده الدينية ، وبحول بينه وبين تركها ، والانصراف عنها ، وقد عبر عن اشاعة العلوم الجديدة الشائعة في تلك السنين والاعوام ، وادخالها في نصاب التعليم بالوساوس والاعوام ، ووصف الذين يبتغون الاصلاح ، ويسعون من أجل تلك الامصار والبلاد ، بأهل الشر والفساد ، وهذه الاقوال والكلمات وإن هي احلوت في مذاق القوم ومطعمهم ، وزاقهم زخرفها وزبرجها للمجسبون فيها من احياء رميم الدين ، واعلاء كلمة الشرع المتين ، فإنه بعد قد تبين للعاقل ان سر الحق غير ما ارتآه هؤلاء ، وخلاف مازعنه وذهب اليه أولئك الناس ، وإن قولهم ضد ما يقوله الاسلام بنفسه ، أو رآه سلفنا الصالحون به من قبل ، فهؤلاء كأنهم قد صرحوا بخطأ باتهم وكتابهم تلك ان الاسلام أشد مبعوض وأمر قائل المدنية ، والارتقاء للعلوم الطبيعية ، مباحض لها ولدلؤها أي مباحض ، ومعاد لها ولمنطوقها أي عدا ، وكان المسلمون في رأي هؤلاء بمعزل عن الاستعداد والقبالية في الارتقاء والاصطعاد ، فقد طعن هؤلاء في الاسلام طعنة ما طعنه بها أشد المبعوضين له ، ولا رماه بها أعظم المعادين معه ، وقد عادى هؤلاء إخوانهم معاداء لا يستطيع أن يزيد عليها أكبر أعاديهم ، ولا يستزيدها أعظم مبعوضيهم

وإنما يزيدك عجباً إلى عجب أن سمو الخديوي العلي علم باستتراره على عرش الملوك الذين سبقوه وتسلطوا في أرض مصر ، وكانوا ممن أشاعوا العلم والحكمة لافي ملكهم خاصة بل في سائر البلاد والاقوام ، أو استنجبوا بما صنعه الكلدانيون (١) وتلاهم في ذلك البطالسة الاقدمون ، وجاء على أثرهم الفاطميون ، وهذا مضافاً إلى ما سبقهم في ذلك من جماعة آل عباس الذين امتلكوا هذه البلاد وأشاعوا فيها العلم والحكمة أو مادار في خلدانه خليفة هؤلاء الملوك الماضين ، ومن خلف هؤلاء الساف الفاضلين ؟ وإن أرض مصر أرض تخرج منها أناس كانوا أول من تكلم على صناعة حمو مطرنا (٢) وحسبوا حركات النجوم وتقومها وسيرها ورجوعها واستقامتها

(١) لعله اراد ان يقول ان فرعونيون فوقع في ذهنه انهم الكلدانيون اهل مدينة

العراق فرسم قلمه هذه موضع تلك ، أو اراد الجمع بينهما

(٢) كذا في الاصل غير منقوط والمراد تخنيط الموتى

وتداويرها وجور جرائها وحواملها ومتماتها . واليونانيون بأمرهم على جلالهم في هذا الشأن عيال على هؤلاء المصريين فان تايسهم (١) أول من أخذ هذه العلوم منهم، وأخذت الهند علومهم من الفينيقيين الذي كانوا في نوبتهم تعلموا هذه العلوم من المصريين فيما هو مبين من المقالة الرابعة البديعة الحكيمة الشهيرة (بالاول والعلوية ، في الحكمة العربية) التي نشرت في المرة السابعة من الجزء الاول من البيان الاغر فليرجع اليه

وأرض مصر بنفسها الى الآن مكتنزة لعجائب علوم المصريين وعماراتهم البديعة التي أعجزت الفلاسفة الافرنجيين عن اكتناها سرها، واعيتهم عن الوصول الى نخوم حقيقتها، وفيها الى الآن من تلك الآثار الغربية والعلوم المبهرة مالا يعلم حدها إلا الله عز وجل

هذا وان سمو الخديوي لا يرى حقاً في ردم باب الحكمة على وجه رعيته، ولا يحسب ذلك ضيماً في شان صمالك قومه وملته، ولا يستحي من النظر الى مكائنه واستقراره في عرش مملكته ، في أي أرض يملك ؟ أم على عرش من هو جالس ؟ أم خليفة من هو من الملوك الماضيين الفاضلين ، أم رئيس من هو ممن تخرج من الحكماء الكاملين، من تلك الآفاق والارضين

ونحن منمقون شيئاً في هذا الباب في الزمن القابل ونبين للناس غلط الخديوي وشيوخ الازهر من الكتاب والسنة ، وأقويل حكاء الاسلام في العهد القادم . وعمما قريب سنوضح للناس أن سعادة الخديوي وعلماء الازهر قد أضروا بالقوم والملة ضرراً لا يستطيع أحد أن يكافئه بشيء ، أو يكفي شره بنوع (٢) وهؤلاء الشيوخ والخديو وإن فرحوا الآن بما قد صنعوه في الحال فمما قريب يدقون من مرارة سمومه في مواخره وصعاب عواقبه ومعاثره (لعلها مصايريه) ، مالا غاية له الاموت القوم والملة ، ولانهاية له الافوت العلم والحكمة (وسيله الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

(١) هو طالس أقدم فلاسفتهم السبعة (٢) قد أرسل الينا هذا المقال وقشذ

وتشره فيما يلي بعد مقدمته له فيما كان سبه

﴿ تعاقب جريدة الرياض على مقالة النواب ﴾

[الرياض] الازهر أكبر كلية اسلامية في العالم فكان أجدر به ان يخرج منه رجال يفتخر العالم الاسلامي بهم وبعلمهم ، ويستفيد المسلمون من أدوار معارفهم ، ويرتفع بهم الدرجة العلمية الاسلامية التي ألحظت منذ عدة قرون أفليس هذا محل الاسف ؟ ان هذه الكلية الاسلامية مع كثرة المعلمين والمتعلمين فيها لا تنفذ المسلمين إلا تعصبا وجهالة ، ولا يزيدهم إلا خساراً في العلم والتقدم وانحطاطا في العلوم الحديثة والقديمة ، وخسرانا في المعارف الكونية والدينية فأبي شخص أعلم من حضرة الخديوي -وهو تربيته ، ونقص تعليمه ، وفساد نصابه ، فان سموه قضى معظم عمره الشريف في سياحة البلاد الاوربية ، واختبر بنفسه نتائج الكليات الغربية ، فهو عالم بالعلوم الحديثة والقديمة عارف بأسباب تقدم الاقوام وتأخرهم ، وترقيهم وتدهورهم وحياتهم وموتهم بناء على هذه الوجوه عجبنا وعجب كل مسلم في الهند من حكم سموه الذي قضى به في جمع حافل من العلماء ، وشدد النكير على حزب المصلحين وجماعة المحلصين ، وعنفهم وأنذرهم بسوء عاقبة هذه الوسوس والاهام ، فان اقتضت المصالح المصرية بالغاء العلوم الجديدة من الازهر فكان الانسب عندنا أن يرتفع النصاب الديني إلى الدرج الاعلى في جميع العلوم المتعلقة بالديانة الاسلامية كالفقه وأصول الفقه ، والتفسير وأصولها ، وعلم الحديث بأسانيده وأصوله ، وعلم الكلام الذي هو الفلسفة الالهية الاسلامية إلى النهاية التي بلغت إلى الآن ، والعلوم التي هي مثل المبادئ لهذه العلوم كالادب والبديع والبيان والانشاء والبلاغة بحيث من يتم دروسه يكون على بصيرة تامة في جميع الاصول الاسلامية وفروعها ويقدر على اثبات العقائد الاسلامية بالبراهين القاطمة ، ويكون له نفوذ عظيم في العالم الاسلامي ، فان ارتفع تعليم الازهر على هذه الدرجة يستحق أن يقال له انه نافع للمسلمين في دينهم ، ويبقى الضرورة الدنيوية على حالها ، وإلا فلآن يصدق على من يخرج من الازهر: ليس له في الدنيا نصيب ، وما له في العلوم الاسلامية من خلاق اه

دفاع المنار عن علماء الازهر

فيما نيزم به النواب محسن الملك

نشرنا فيما تقدم ما جاءنا في كتاب طويل من النواب رحمه الله تعالى خاصا بترك الاستاذ الامام الازهر بعد اطراء طويل للمنار ولنا، وقفينا عليه بمقالته الحافلة في هذا الموضوع التي نشرها في جريدة الرياض الهندية ووعده في آخرها بالرد علينا فيما دافعنا به عن علماء الازهر

واننا ننشر هنا ذلك الدفاع عنهم بنصه ونقفي عليه برد النواب فنقول :
 كنا بدأنا جواب المنار على كتاب النواب الجليل بما يتعلق باقتراحه علينا بالاستمرار على كتابة المقالات الحمازة للقلوب ، الحفازة للهمم ، الموكفة للديم ، ثم عطفنا عليها الجواب عن أقواله الهمازة الهازة لعلماء الازهر التي أملاها عليه تأمله وتبرمه بما كان من خطبة الخديو وحديث شيخ الازهر السابقين ، وهذانص عبارتنا (في ص ٢٣٥ من مجلد المنار الثامن)

وأما ترك الاستاذ الامام للازهر فهو لم يكن من يأس ألم بنفسه الكبيرة ، ولا عن ضعف في همته العلية ، ولا لمقاومة علماء الازهر لما يريد من اصلاح التعليم ، أو اضافة علوم جديدة على ما يقرأ في الازهر من العلوم ، وانما هو ماتنسمتموه من الجرائد المصرية ، ونزيدكم فيه بياناً بمكاتبة شخصية ، وقد ظلم المقلاء عندنا وعندكم علماء الازهر فأنزلوهم من درجاتهم في العلم والفهم ، كما أعطوهم أكثر من سهمهم من الشعور والاخلاق

أما ظلمهم ايهم فهو اعتقادهم وقولهم فيهم انهم يعتقدون أن العلوم الدينية تقوض بناء الدين ، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين ، وان اصلاح طريقة التعليم خروج عن صراط السلف المستقيم . وكل هذه الظنون فيهم باطلة فان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدينية في المدارس الاميرية وغيرها ، فكيف لا يخافون الكفر والضلال على أفلاد أكبادهم مع عدم تمكنهم من العلوم الدينية ، وبخافون ذلك على طلاب الازهر المتوغلين في علوم الدين ؟

ان هذا شيء لا يعقل . ثم كيف يطعنون باكابر علماء الاسلام الاعلام الذين تمكنوا من علوم الدنيا وصاروا يعدون من الفلاسفة كالامام الغزالي والامام الرازي وفلان وفلان؟ ثم كيف لا يطعنون بدين أكابر أممهم وحكامهم في هذا العصر وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا ولما يوجد فيهم من تلقى عقيدة الاسلام ببراهينها ، أو عرف مهمات أحكامها، ولو غفلا من دلالتها وحكمها ، وان منهم من يصف بعض هؤلاء الامراء بالتقوى والصلاح . فظلم وألف ظلم لعلماء الازهر أن يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقاً عن علومه ، وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين ، وأنه دين عام وأن لادين بعده أو فوق لمصلحة جميع البشر منه، مع استلزام هذا لكون الاسلام يتفق مع علوم البشر ومدنيته في كل زمان وإلا كان متضمناً لتكليفهم ما لا يطيقون نعم انه يوجد فيهم بعض الاغبياء الذين يعثب بهم هذا الوهم ، ولكن الحكم على جميعهم أو أكثرهم بذلك ظلم وجور . وانني اقول ان الاستاذ الامام لم يقرر في إصلاح الازهر شيئاً إلا برأي جماعة من كبرائهم واستحسانهم ، وقد نفذ بعض مطالبه وحاوله برضاهم وموافقتهم ، وأوقف بعض الإصلاح للأسباب التي لا اصرح بشرحها بعد رضاهم به واعترافهم بفائدته (١)

وأما وصفهم بأكثر مما يستحقون من الشعور بالمصلحة وإرادة الخير فهو تابع لذلك الظلم ، وهو اعتقاد كثير من العقلاء في مصر وفي أقطار أخرى ان هؤلاء الناس أعداء الإصلاح الذي عرف سراة الامة وعقلاؤها شدة الحاجة اليه لما في قلوبهم من الشعور بضرره ، ولما عندهم من الارادة القوية والعزيمة الصادقة والغيرة الملتبئة على الاسلام والمسلمين وانهم لا يخافون في ذلك لومة لائم ، ولا سطوة حاكم ، ولا حرماناً من منفعة مالية ، أو كسوة تشرىف قصبية ، والحق أن هذا الصنف الشريف الذي كان له من قوة العزيمة بالاتحاد والاتفاق ما يقيم به محمد علي باشا حاكماً على البلاد المصرية قد استضعف فضعف حتى صار لا يجهر برأيه الا اذا أيقن ان قويا يمدده ، أو حاكماً يسندده وكثيراً ما يستحسن أمراً ثم يستهجنه ، أو يستعجب شيئاً ثم يستحسنه ، ولقد كان

(١) أعني إغراء الحدبو لهم ، وهذا شر ما شكوته من ضعف أخلاقهم

أكابر علماء الازهر موافقين للشيخ محمد عبده في كل شيء، يقترحه لاصلاح الازهر أيام كان مؤيداً بنفوذ الامير، وانما كانوا يرغبون اليه في أن يكون ذلك بالتدرج البطيء، لانهم لم يتعودوا ويثقل على المرء لاسما الكبير المضي فيما لم يتعود ولما بدا للأمر في تأييده ومساعدته وقف كل اقتراح، وعورض كل اصلاح حتى لم يبق للحكومة الخديوية ثقة بتخريج القضاة في ذلك المكان فهي ستبني مدرسة جديدة لتخرجهم فيها، ولم يبق لها من العناية بالازهر الا حفظ الامن فيه كما هو حق كل أحد وكل شيء على الحكومة لاجل هذا ترك الازهر ولكن آثاره الصالحة لن تتركه، فهو قد وضع أساس النظام الذي قد يضعف تارة ويقوى تارة وقد يزاد فيه وينقص منه ولكنه لا يزول. وهو قد نفخ في نفوس كثير من الاذكياء فيه روح الشعور بالحاجة الى اصلاح التعليم وإصلاح الاخلاق وخدمة الاسلام والمسلمين والسعي في ازالة ما غشهم من البدع والفتن فاضعفهم وأذلم فلن يموت هذا الشعور. ثم انه لم يزد الارحاء بالله وهمة في خدمة ملته بالاجل والتدريس والتأليف لا يثنيه عن ذلك، ان الامايل به من المرض أحياناً شفاها الله ونفع به آمين

هذا وان العبرة الكبرى فيما كتب هذا السري الكبير هو احساس المسلمين المحاصرين الذين يعرفون الاسلام ويفارون عليه بان الاصلاح اذا ظهر في أى قطر ففائدته لا بد أن تكون عامة لكل البلاد الاسلامية، وان النور اذا ظهر في هذه الامة من أى مطلع فانه ينبسط على جميع البقاع لان هذه الامة واحدة، وربها واحد، وكتابها واحد، ونبيها واحد، والهدى في دينه على ملته واحدة وهي ما جاء به نبيه (ص) عنه، ومصلحتها لذلك واحدة، فياضرها يضر جميع الذين لها وما ينفعها ينفعهم أجمعين. لاجل هذا أحس الاحياء من مسلمي الهند بان ما دهي به الاصلاح في الازهر هو مصيبة على الاسلام والمسلمين في جميع الارض لانه كان يرجى أن يكون خيره متى ثبت ونجح عاماً لجميع مسلمي الارض ولو بعد حين. فماذا يقول أولئك الذين يريدون أن يقطعوا أوصال المسلمين بنزعات «الوطنية» الفاسدة في هذا الاحساس الشريف من إخواننا في الهند وكذا في غيرها؟ اه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإياه نعبد وإياه نستعين ﴾

سعادة الفاضل الحكيم العلامة ، دتمم بالعرز والكرامة

سلام عليكم ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، وأعلي على نبيه النبي
الكريم ، وعلى آله وصحبه السادة اللهمم (وبعد) فانا قد سررنا وتنشطنا بحسن
صنيعكم الينا من نشر رسالتنا المشبعة الطويلة التي كتبناها اليكم في قضية علماء الازهر
واستقالة الاستاذ الامام الكبير محمد بن عبده في مجلتكم الباهرة الغراء التي صدرت
في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي . وقد سرني أيضا ما قد استتبعت
ذلك بانتقادكم الحافل البديع عقيب هذه الرسالة تحامون فيه عن علماء الازهر
واستفراغكم الوسع بذلك في دفع ما وقع من الغلط والخطأ في الآراء التي ارتأها
الناس فيهم ، ولكن الذي آمل من طيب خلقكم وطهارة سريرتكم ، هو أن
تعفو عني مما قد تجاسرت في الانتقاد على هذا الانتقاد ، فانه يا أخي ليس فيما
أحسب مما يعلمن به بال أحد ، أو أن يفند به ما قد رآه أكثر اهل النظر في هؤلاء
العلماء من انهم لا يحبون إشاعة العلوم الحديثة ، ولا يجوزون لها السبيل والتطريق
في المدارس والكليات ، ولا واحد عندي بمقلع عن رأيه ذلك فيهم فيما أحسب ،
فقد علمت ياسيدي أن تعسف علماء الازهر وتمصبهم للعلوم الخلقية البالية ، وخلافهم
للاصلاح في شؤون التعليم والاخذ بالعلوم الحديثة ليس مما يرتاب فيه أحد ، فقد
شحننت بذلك الجرائد المصرية كلها لاسيما مجلتكم الباهرة التي نصت على انهم
لا يجوزون العدول بيسير عن المنوال العتيق الذي يجري عليه نصاب التدريس
في الجامع الازهر ، ويتخرجون من تشكيل صناعة التاريخ والجغرافية في نصاب
الدرس الحاضر ، فما ظنك بالعلوم العالية الافرنجية وما هي فيه من المنهاج
الجديد في أرض أوربا ؟

أنسبت ياسيدي ان الذين لا يزالون يقرءون ويتلون الجرائد المصرية ، ولا
يفترون عن مطالعة جريدتكم الغراء ليلا ونهاراً ، أقترامهم يقلعون عن رأيهم في شأن

هؤلاء العلماء؟ أم ترى ان اعتقادهم في هؤلاء فيما أفدتم بنفسكم بأنهم يعتقدون ان العلوم الدنيوية تقوض بناء الدين، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين، وان إصلاح طريقة التعليم خروج عن الصراط المستقيم - أفترى أن هذا الاعتقاد منهم يزول أو يحول أو يضمحل بشيء عن قلوبهم مما كان عندهم من قبل؟ أم تراهم بواقفونك في قولك: وكل هذه الظنون فيهم باطلة؟ كلا ولا كرامة، وحاشاهم عن ذلك

فأما انتم فلعمرى لم تألو جهداً في الحاماة عن هؤلاء العلماء، وأنتم في بيان ذلك بحجتين، وكتابتها تنتقد عليها، وننظر في وزنها ورجحها، على منهاج أصحاب النظر، أما الحججة الاولى فقولكم: ان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها الخ وأما الاخرى فقولكم: ولا يطعنون بدين أكابر اسرائيل وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوروبا الخ. ولكن هذا الكلام منكم لا يجديهم نفعاً، ولا يجامى أويذب عنهم بشيء، فقد عرفتم ما هو من دين علماء هذا العصر انهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون. وهم الذين قال فيهم الشاعر العارف الحكيم مصلح الدين السعدي الشيرازي وهو من معاريف الشعراء ومشاهير أهل النظم - قال:

ترك دنيا بمردم آموزند خويشتن سم و غله اندوزند

يعني بذلك انهم يعلمون الناس ويحملونهم على رفض الدنيا وترك زخارفها وهم بأنفسهم يكنزون الذهب والفضة ويحتكرون الطعام لانفسهم* ومن ديدنهم أيضاً ان لا يطعنوا بشيء على الاسراء والولاة كيلا لا يجرموا من صلاتهم، ولا يبأسوا من استجلاب خيرهم ومبراتهم، بل وإنا تراهم بواقفون العامة في بدعهم ولا يشنعون بشيء على أفاعيلهم، ويشاركونهم في الاحداث الفظيعة التي يأتون بها في الدين، فبراهم لا ينكرون عليها بل يعارضونهم بمواقفتهم ومشاركتهم فيها. وشاهد ذلك قولكم في هذه النمرة التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي « فشاخ الازهر. يقرءون في كتب الحديث نهى الشارع عن بناء

(*) قال الشاعر العربي :

وذووا لنا الدنيا وهم يرضونها أقابق حتى ما يدرا ما عمل

القبور واتخاذ المـاجد عليها ، واتخاذها أعياداً وتعظيمها . ثم انهم يشاركون العامة في هذه الاعياد التي يسمونها موالد على ما فيها من المنكرات التي نهى عنها أئمتهم في الفقه . ثم انهم يقرءون في شمائل نبيهم انه كان يسدل شعره الشريف ويفرقه ، وهم ينكرون على من يفعل ذلك من اهل العلم والدين ، وقد أمرني بذلك بمعضهم وكان شيخنا للازهر قاتلاً: انك من اهل العلم لا يليق بك أن ترسل شعرك فاحلقه ، فحججته بالسنة ، فحاجني بأن ذلك شعار العلماء الآن » وقد صرحتم قبل ذلك بشيء في قولكم ص ٢٢١ من هذه النمرة الحاضرة « وانما صرح العلماء بكراهة حلق الرأس وكونه مخالفاً للسنة لانه كان في الصدر الاول شعار الخوارج ، فأما إذا أخذنا باطلاقهم كان اللوم في ترك هذه السنة موجهاً في هذا العصر إلى علماء الدين فانهم بحلقهم ، بل ينكرون على من لم يحلق وهم محضون »

هذا — أم كيف يوافقكم أحد في قولكم « ظلم وأف ظلم لهؤلاء الازهر أن يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقاً عن علومه ، وانهم يجهاون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين » الخ - وقد ساف منا مراراً انا قد رأينا في (الجوائب المصرية) انها قالت في شأن رجل عظيم من العلماء « انه محترم المقام بين علماء المسلمين بحله كبيرهم وصغيرهم لعله وفضله ، ويعدونه حجة وقته وإمام زمانه في علوم الدين وأصول الشريعة » فهذا العالم الجليل الذي ترأس العلماء في عصره ، ومن رأيه ما يقول لمدير الجوائب ماتلك أنما ظله « غرض الساف من تأسيس الازهر : إقامة بيت لله يُعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كاتركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم ... وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له »

ولما راجعه المدير واستحفاه بالسؤال قاتلاً « هل حدث يا مولاي ما يقف للازهر في الخدمة الطوبوية منه ؟ » فتبسم الاستاذ ثم قال « بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني ، ويحوّل هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتظنيء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية » الخ ويجاهر في آخر كلامه متظاهراً قاتلاً « ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ايس إلاه

وليتركوه كما هو حصن للدين، وان أرادوا به إصلاحاً فليكن الإصلاح منحصرآ في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم، وماسوى ذلك من مبادئ الفلسفة، والعلوم الحديثة العالية، فلتدخله الحكومة إن شاءت على مدارسها الكشيرة التي هي في حاجة ماسة اليه»

أم كيف نصدقكم في قولكم هذا وانا نرى هؤلاء العلماء قد ثاروا وشغبوا الناس وأناروا في إصلاح الأزهر بما اضطر الخديوي إلى إخماد الفتنة وخاطب شيخ الجامع الأزهر قائلاً «إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر فيها علوم الدين الحنيفية في مصر وجميع الاقطار الإسلامية. «واقدم كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً» ولما كان يخال ان هؤلاء الرهط الذين بروموا الإصلاح كلهم مفسدون قل فيهم» أول شيء أطلب أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء، ومن كان يحاول بث الشغب بالوساوس والاهوام او الايهام بالاقوال، او بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الأزهر، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده ويبيت فيها ما يريد من الاقوال والآراء المغايرة للدين ولمصاحبة الأزهر والأزهريين» (١)

فهل في الوجود أحد يقف على هذه الاحوال ويعرفها حق المعرفة ثم يرتاب في أن هؤلاء العلماء أكثرهم لا يجوزون الإصلاح في النهج القديم للتعليم ويحبسون أن العلوم الحديثة بأسرها مطفئة لنور الاسلام، ولعمري ان هؤلاء العلماء هم الذين اتخذوا جامع الأزهر الذي كان من حقه أن يكون رحمة وبركة للمسلمين مركزاً للنكبة، وموطناً للمثلة، ومعقلاً للمترية، وموضماً للمسغبة، ولو نظرت إلى العلوم التي تدرس فيها لوجدته بأسرها علوماً بالية عتيقة اتخذها المقلدة من العلماء علوماً دينية، ولا تجد فيها إلا تلميحاً نبيذ من المسائل التي تشتمر منها القول،

(١) انار : قالت جريدة اللواء يومئذ ان المراد بالاجني هنا صاحب المنار

وتعج قبولها أحلام الفحول ، وذلك من أجل مخالفتها لقواعد الحكمة وأصول الفطرة، ولا يوجد فيها غير تعليم ماعداها من اللطالبي التي لا تستنير بها أدهنة الرجال ، ولا يتسع بها فضاء علمهم ومعرفتهم ، بل يتركز بها التقليد في تخوم قلوبهم ، وقد امتلأ القرآن العزيز بدمه ، وشحن الكتاب المجيد برده ، وجل همهم في أن يحمل الناس على منهاج يعتقدون به ان الاسلام بدع هذه البدع ، ونفس هذه الاحاديث التي ليست بأدون من احاديث خرافة ، بل عين الشرك الجلي ، فضلا عن الشرك الخفي ، وانما جهدهم في المنع عن تعليم صنعة تنفعهم بشيء إما في الدنيا او في الدين ، هذا شيء من حالهم في تعليم المعلوم . فأما سبل التعليم ومنهاج تدريسيهم ونظام الامور فيه فأمره أشهر من أن يذكر ، وأبين من أن يوضح ، وقد تفجع له بعض فضلا . الهند الذي كان حل بالقاهرة وكتب في ذلك كتابا إلى حيدرآباد عاصمة دكن واطقد نشرتموه في الجزء الماشر من المجلد الخامس من مجتكم النار وبعد ذلك قهل محسبون اننا محسن للظن بهؤلاء العلماء ونضعهم في ميزان علمائنا السلف الذين مضوا إلى رضوان الله كالامام الغزالي وابن رشد الاندلسي والامام ابن الخطيب الرازي وغيرهم ، فقد كانوا يعتقدون ان العلوم الكونية والعقلية عين هذه العلوم الدينية ، وكانوا يحضون المسلمين وحثونهم ومحرضونهم على تحصيلها في تآليفهم وكتبهم وأسفارهم ووزبرهم التي كانوا يملونها للنشر تلك العلوم ويخطبون فيها اخوانهم المسلمين قائلين « معاشر الخلان اني آنتست ناراً في وادي هذه للفنون ، لعل آتيكم منها بخبر أو قبس لعلكم تصطلون »

أوليس هؤلاء العلماء قد عمروا على قضية عمر بن حسام فيما أخرج الخبر به الامام الرازي في التفسير الكبير من ان عمر بن حسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الاهري فقال بعض الفقهاء يوماً ما الذي تقرءونه؟ فقال أفسر آية من القرآن وهي قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها » فأنا أفسر كيفية بنائها . ولقد صدق الاهري فيما قال : فان من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله وعظامته . انتهى كلام الرازي بعبون ألفاظه اولم يعثر علماء الازهر على فصل المقال للحكيم الفيلسوف القاضي أبي الوليد بن

رشد (الذي) نص فيه على وجوب معرفة الموجودات والعلم بمحققاتها من جهة الشرع وان القرآن العزيز قد أمرنا بذلك أمراً أكيداً في كثير من الآيات وكتب في آخر ذلك ماتلك عيون أفاظه « وقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع وان من نهى عن النظر فيها فقد صدق الالاس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله وهو باب النظر المؤدي الى معرفته حق المعرفة وذلك غاية البعد عن الله تعالى » ولم يدر هؤلاء العلماء ان الامام الغزالي كان من قوله في علم الهيئة فيما نقل عنه الفاضل عصمة الله في (التصريح شرح التصريح) للشيخ العلامة بهاء الدين العاملي من انه من لم يعرف الهيئة والتصريح فهو عني في معرفة الله (١)

وأعظم من ذلك كله الاثر الماثور المشهور عن سيدنا علي فيما أشار به على سيدنا عمر رضي الله عنه بعدم احراق خزائن الكتب بالاسكندرية قال انها علوم ليست تخاف القرآن العزيز بل تعاضده وتفسره حق التفسير لاسراره الغامضة الدقيقة. وهو قول معروف عنه وقد أخرج الخبر به مفصلاً الحكيم المؤرخ الاسلامي القاضي الصاعد الاندلسي في طبقات الامم فيما نقل عنه العلامة المحدث ابن يعيش اقرني التيمي في بعض مقاطع القسم الاول من الجزء الاول من كتاب الكشف عن الغائبة فليرجع اليه

هذا وانه ان يذهب عنا الاسف والسكند الذي نجده في أنفسنا من جهة قضية الخديو وآرائه ومن جهة الحال التي نحس في علماء الازهر ونحن بهذا المصري حاجة الي مثل الرازي والغزالي وابن رشد الاندلسي وأمثالهم من العلماء ومن كانوا في ميزانهم في الدهر الحاضر مثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده وأضربا به الذين يضيئون العالم بنور الدين وضياء الاسلام ، ويبينون للناس ومن في قلوبهم مرض وزبغ عن الحق ان الديانة الاسلامية كلها تطابق العقل والفطرة حذو القذة بالقذة، وان العلوم العقلية والكونية بأسرها في الاصل علوم دينية يجب على المسئفين تعليمها والاخذ بها وتعلمها ، فيخرجوا بذلك عن قعر الدل وغيابة الهوان والصفار التي ألقوا

فيها وهم صاغرون ، وقد لزم الاسلام بهم عار قبيح به منظرده، وساءت بذلك هيئته، وهم يظنون من أجل ذلك ان الاسلام هو الرادع للناس عن التمدن والارتقاء ، في معارخ العز والاعتلاء ، فأما نحن فلسنا في حاجة إلى أمثال هؤلاء الذين يقولون ان العلوم الحديثة مظنة لنور الاسلام ومخمدة لناره ، ومطمسة لآثاره ، ومجلمة له عن عقر داره، ومحلله وقراره

أوليس ان الحال التي انتهت اليها هيئة المسلمين مما يتضحك بها الاعداء ، ويتصارخ لها الاولياء بالعويل والبكاء ، وتسكاب الدماء ؟ أو ليس قد تراكمت على المسلمين سحائب الذل والهوان ، وجللتهم غياهب العدم من كل جانب ومكان ، أي نقطة في الوجود من نقاط الارض يكون فيها من حال المسلمين مالا يتصدع لها القلوب وتنفطر بها الاكباد، وتجرد لها المحاجر والآماق بأنهار الدماء السائلات ، وتتسكب لها قاني الامطار من المقل الغائرات ، خرجت المالك من أيمانهم، واضمحلت الدول التي بقيت في أيديهم ، كأنهم لا حراك بهم ، وصاروا في العالم كأنهم اللعبة تتداولها أيدي الاجانب ، وتتلاعب بها أكف الابعاد ، بما خرجوا عن امتلاك الاقارب ، لا يحس فيهم شيء من آثار الثروة ، ولا عندهم ميل الى التجارة والصناعة بل هم زاهدون فيها ، وراغون عنها ، يستقبحون شكلها ومنظرها ، ويستغفنون محلها ومصدرها ، ورضوا بالافتقار ، في تحصيل كل شيء حقير وجلب كل ما عون بسير ، من أرض أوربا يستجلبون الفرش والسرير للمساجد والصوامع من أرض انفرنح ولا يتخذون من ذلك شيئاً بانفسهم وأيديهم . لم يبق لهم عزة ولا صولة ، وما بقي عندهم امرة ولا دولة ، وأما عددهم فهم وإن كانوا يباغون إلى ألف مليون نفس في العالم فهم بمد ليسوا في قطر من أقطار الدنيا ممن يفخر هنالك بوجودهم ، ولا ممن يتفاخر بهم على لسان وإيهم وودودهم ، أو يفرح الرجل بالظر إلى عيونهم وأشخاصهم ، أو يسير اخوهم اذا كان يرمق إلى عددهم وفرادهم — فماذا يكون من السبب الاصيل في ذلك ، ويبد من رهنه ذمة هذه الامور

والذي أحسب ان جل السبب في ذلك ليس إلا نفارهم عن العلوم الخديثة وتعاميهم عنها ، واتم ذلك كله على عاتق هؤلاء العلماء الذين يزرون تلك الاوزار ،

ويجوزون للمسلمين أن يخرجوا عن غمار الذل والصغار . ومن ثم تراهم يرفعون
عن التعاليم الذميمة ، ويردعون الناس عنها بفتاوى التكفير لمن ولع بهذه العلوم
الحديثة، ويحولون بينهم وبينها، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ، ولا يشعرون
أن ارتقاء الأوربيين الذي يضرب به المثل اليوم ليس إلا من جهة توغلمهم في
العلوم الجديدة، ونبوغهم في الحكم الحديثة ، وكل دولتهم وقوتهم منسوبة في الأصل
إلى تجارتهم وحرفهم، وهي في نوبتها منسوبة إلى تناغمهم في هذه العلوم الجديدة النافعة
دع عنك أوروبا وانظر إلى هذه الأمة الحقيرة التي يقال لها أمة جابان ؟ أفلا
يرونها كيف ارتقت في مدة لاتتيف على عدة سنين ، لا تعد إلا على أنامل
الآدميين، ارتقاء مبهراً بهرت الأنظار، وخطفت لها النواظر والابصار، أفليس أنها
لم تستكمل لنفسها مدة خمسين سنة، وكانت تعد من قبل ذلك في الأقسام المتوحشة،
وتستحققها الأمم المتمدنة ، وهي اليوم في كل شأن على أعلى مراتب الصعود
والارتقاء، وقد أدهشت الدنيا بأسرها بأعمالها ابدية التي صدرت منها في هذه الأزمان
وكل واحد يحترمها كل الاحترام ، وحرمتها مركوزة في طبع كل انسان، فماذا الذي
قلبا عن حالها القديم ، وانعكس أمرها عن شأنها الفاسد الميم ؟ ما ذلك إلا من أجل
تناغمها في العلوم والحكم ، والأزهريون على خبرة من حالها، ومنهاج ارتقانها
ومنوالها، وإنما الأسف عليهم من أجل أنهم لا يقيسون أنفسهم هؤلاء ولا ينظرون
في علل تلك الاشياء ، ولا يفكرون في أسبابها التي أورثتهم الارتفاع ، وأورثتنا
الانحطاط والانخفاض . ولو كان عندهم صواب في الرأي وحزم في الروية ومعرفة
صحيحة بالقرآن والاسلام لكانوا يستحيون مما هم فيه ، ولكان كل واحد منهم
مثلكم ومثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده يخرج نفسه من شرك التقليد الذي
أضل الناس كثيراً ، وان كان يسلك في منهاج التحقيق الذي هو الصراط المستقيم،
ويضيء فضاء الارض برحبها، وينور العالم الاسلامي بسعته كلها، بمشعلة الاسلام،
ونبراس كلام الله الملك العلام

وليت شعري ماذا الذي علمنا القرآن والاسلام ؟ هل هو بعض هذه الحركات
البدنية ؟ أم نبذ من تلك المراسم الظاهرية ؟ أو مطالب عديدة من مسائل النفاس

والحيض (التي) يعنون بها التعليم الديني لا غير لا مادون ذلك ؟ كلا ولا كرامه وحاشاها عن ذلك ، بل قد دلانا على ما فيه جل الخير وتام النفع في الدين والدنيا وكال الربح في الاخلاق والمدنية ، وعلمانا الاصول التي بها نهندي الى تحصيل تلك العوائد الثمينة والفوائد الغالية، وأوجبنا علينا اكتساب العلوم الكونية والعقلية بأسرها . ولو كان علماء الازهر مشاركين في آرائهم لمثلكم ومثل محمد بن عبده وينظرون بنظر الامعان في امضا آتكم (١) البديعة الرشيقة التي علمت الدنيا أن الاسلام من بين سائر المذاهب هو المذهب الواحد الذي يرغب الناس ويشوقهم في تحصيل الفوائد الدنيوية ، والعوائد الملية والقومية ، وهو الذي تخذ العلم والعقل عين الايمان والدين ونفسهما في الاصل ، ولو لم يكن الازهريون يظنون ظناً باطلا ان العلوم الدينية بأسرها منحصرة في الفقه ومقصورة على جزئيات المسائل الفرعية التي لا يعتد ولا يعابأ بها، واكثر هذه المطالب ليست بمجدبة للعمل في هذه الاعصر والدهور (٢) ولو عرفوا ما في تعليمها من ضياع العمر وتضييع الوقت ذلك ما هو معلوم عند كل ذى حجي وهم يزعمون ان الولوع بها مما يشيد بناء الدين - لما رؤي الطلبة الازهريون كما هم اليوم في غايتهم من الذل والهوان ، ونهايتهم من الصغار والخذلان ، ولو كانوا يعلمون أن العلوم العقابية والكونية عين العلوم الدينية، لكات كلية كيمبرج واكسفورد ومحسدا كلية الازهر وتغبطها غبطة ما كان يجدها أحد وتخرج منها في عرض عدة سنين رجال كانوا يصعدون بالبلاد الاسلامية ويحلقون بها الى أعلى ذرى الارتقاء ، التي وصات اليها أمة جابان في هذه الاعصر والازمان ، هذا رأيي ورأي سائر الافراد الذين لهم خبرة باحوال الدنيا ووقوف على أخبارها وإلمام بتوارخها ، واني لقاطم بصحة هذا الرأي ورأي هؤلاء ممن عداني ان العلماء هم العلة الاصلية لكل هذا الصغار والهوان ، وتام تلك النتبة والخذلان ، وهم موقوفون غداً بين يدي الرحمن ، ومسئولون من لدنه فليستعدوا للجواب ، فهم الاصل الاصيل لجل هذه الفاسد وكل تلك الشنائع

وأنت يا أخي لا تستطيع وإن جهدت كل جهدك للمحاربة عن علماء الازهر

(١) يعني بهذه الامضاءات. مقالات المنار الاصلاحية (٢) يعني مثل أبواب الرقيق

أن تفلس هذا العار عنهم ، وتدفع هذه التبعة والنقيصة منهم ، فانك لا تستطيع أن تكذب الحس والعيان ، ولا ان تدفع الوقائع التي حدثت في الازهر والازمان . أفهذه الكلية التي مضت لبنائها الف سنة ونخرج منها مليون، بل أضعاف مليون طلبة ، ولا يزال يخرج منها كل عام آلاف من هؤلاء الطلبة، أفيجز أن يكون نهج التعليم في هذه الكلية بحيث يتخرج منها طائفة من صعاليك الناس وسائلين في الرقاب يتخذون غذاءهم بالذلة ، وعشاءهم بالمسكنة ، ويبيتون وهم مخدولون بالمسغبة ، او يجدر بها أن ينفر فيها عن طريق التعليم التي يتخرج منها أناس يرتفع بهم منار الدين، ويتقد به نور الاسلام ويعلو قدر المسلمين، ويتهدي بها المسلمون إلي واجب الصمود والارتقاء، ويزيدهم عزة وبهاء ، وبهيء لهم ذرائع الاصطعاد والاعتلاء .

وانما يحزننا أولاً انا نجد المسلمين في أي مصر وأية نقطة من نقاط الارض كانوا بأسرهم ذاهلين عن استجلاب العلم واكتساب الحكمة ، غافلين عنها غير مكترئين بهاء وثانياً انه حيث ما نجد لهم وسائل التحصيل حاضرة، ولو احب الاكتساب متمسكة، ومناهج التدريس مطروقة متفتحة، وحيثما يوجد لهم كلية قديمة مثل هذه الكلية التي هي أقدم كليات العالم، يكون فيها مثل هذا التعليم الفاسد الضار، الذي تضع فيه الاعمار ، ويضع فيها الغضة والنضار ، ويصطلح الناس فيه على أن يسموا مثل هذا النهج الباطل العاطل العتيق الذي لا ينبعث المسلمون به للنهضة، وينسلب من أجلها مادة التحقيق عن قلوبهم الخاوية ، ويبغض اليهم النظر في العلوم النافعة، يصطلحون على أن يسموه تعليماً دينياً - وعلى أن يسموا الرجل العارف بمسائل شتى من الطلاق والرجعة والنفاس والحيض رجلاً عالماً ولا غير

هذا واني لست بمسهب مقاتلي في هذا الشأن، ولا بمطنب في شكائتي من علماء الزمان، نظراً إلى ما حوت مجلتكم الباهرة الغراء من أحوال هؤلاء العلماء وشؤونهم واخبارهم، فنحن في غنى عن إطالة الكلام عليها، وبمزل عن إسهاب المقال فيها، وعلى كل حال فان الاحوال الحاضرة للعلماء ومدارسهم ومكاتبهم مما قد تبين واتضح للناس ضررها وققدان نفعها للمسلمين وضوح للشمس في كبد السماء، وانما بقي

وحزني على ذلك من جهة ان الازهر كان هو المدراس الواحد في الدنيا من قديم
الاعصر والاعوام الذي كان يرجى فيه اصلاح جميع الفاسد الملية والمدنية في
الاسلام ولا غير، ولو تقبل الناس آراء المغني محمد بن عبده وبادروها بالقبول لكننا
تأمل منه خروج المسلمين عن غيابة الذل والنكبة ، ونترقب صمودهم إلى أعلى
فتن الفوز والسعادة ، ونسكن عليكم بعد أن لا تيسوا من روح الله ، وتجدوا كل
الجهد في اصلاح المسلمين ، وأحسنوا ان الله لا يضيع أجر المحسنين . وكتب
يوم الخميس ٢٥ خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ١٣٢٣)

وأنا مخلصكم الصفي الوفي

(محسن الملك)

[المؤلف] اني نشرت اصدقي أمير العلماء والمصلحين في الهند مقالته هذه
في السنة التالية ولم أنقشه في شيء منها ، وهو يحتج علي بالنار في كثير مما انتقده
علي . ولكنه لم يفهم مرادي من الدفاع عن علماء الازهر في تلك الحادثة بعد
حملاتي الكثيرة عليهم من قبل لأنني لم اقدر أن أبينه البيان التام كما بينته هنا ،
وهو أن الذين هبوا لمقاومة الاصلاح في الازهر لم يكن الباعث على ثورتهم جهلهم
بالحاجة إلى الاصلاح ولا الغيرة على الدين وانما كان الخديو هو الذي سخرهم
واستخدمهم لذلك وروجت له جراند هذا الابهام وهي المؤيد والواء والجوانب
المصرية والظاهر ، وكان هو يظن أنهم هم الذين بعثوا الخديو بل الجأوه الى ما
فعل . وقد كتبت في تلك الاثناء مقالة في حقيقته حال الازهر واصلاحه لم أتمكن
من نشرها ولو رأها النواب رحمه الله تعالى لما اشتبه في شيء من كلامنا الاول ،
فنشر ههنا مقدمتها وهي

حقيقة الازهر^{*}

❦ واهوام الناس في علمه وتعليمه ، وما عرض حديثا في محاولة إصلاحه ❦

للناس في وظيفة الازهر وحاله آراء وخواطر مختلفة يقل فيها الصواب . كان الازهر مدرسة كسائر المدارس الاسلامية الكبرى في الشرق والغرب يشغل فيها المسلمون بجميع العلوم التي كانت معروفة في الارض أيام لا علم إلا عليهم ، ولا عمران إلا عمرانهم ، ولا مدينة إلا مدينتهم . ولما فتكت الادواء السياسية والاجتماعية بعمرانهم ضعف فيهم العلم ، ودرست مدارس العراق والانديس وهما جناح عمران الاسلام ، وبقيت مدرسة الازهر في القلب او الوسط عضوا اثريا ليس له وظيفة حية لها اثر في العمران الاسلامي ، ونعني بكونها عضواً اثريا أنها حفظت بعض التصانيف التي ألفت في آخر عهد حياة العلم ، وكتبنا أخرى كتبت في عهد موته ، نسخ بها كاتبوها المقلدون ، ما أنشأه وسواه المتقدمون .

يظن بعض الناظرين إلى الظواهر أنه لو لم يحفظ الازهر هذه الكتب بمدارسها لدرست رسوم الاسلام ، ونسيت لغته ، وجهات علومه ، إلا بقايا لا يعتد بها في جامع تونس وجامع قس ، وبعض البلاد التي غلبت عليها العجمة كبلاد الهند والروم ، فللازهر - على رأي هؤلاء - الفضل الاكبر على الاسلام والمسلمين وخاصة العرب منهم . ولو دققوا النظر لرأوا أن فائدة الازهر في هذه القرون الاخيرة فائدة تاريخية لاحيوية ، كما هو شأن الاعضاء الاثرية ، فيها يعرف المؤرخ البصير كيف انحط العلم في المسلمين وإلى أي هوة هبط ؟ وما كل ما يفيد المؤرخ لامة يكون مفيداً لها ، إذ المؤرخ يبحث عن الضار والنافع ، وعن أسباب الترقى وأسباب التبدل والانحطاط .

ان الطريقة التي جرى عليها الازهر في مدرسة بعض كتب الفنون العربية والعلوم الشرعية غير موصلة إلى الغاية التي وضعت لها تلك الفنون والعلوم ، ثم

(١) مقالة كتبناها في وقت الانقلاب لبيان اسبابه تنشر هنا مقدمتها فقط

هي عقبة في كل طريقة يمكن أن يشرعها محبو الإصلاح الذين ينكشف لهم قبحها
 والمحرفاها عن جهة الغاية . ذلك ان اهل الازهر جمدوا على التقليد لما يفهمون
 من عبارات تلك الكتب فلم يعودوا ينظرون في المقاصد والغايات من العلوم ،
 ولا في كون الغايات موافقة لمصلحة الامة العامة التي هي روح الشريعة ، وقد
 اتخذهم الناس رؤساء في الدين وظنوا كما ظن بعض الامم قبلهم انه لا يحل للامة
 إلا ما يحلون ، وانه يحرم عليها كل ما يحرمون ، فخرم المسلمون بهذا الاستفادة من
 روح الحياة المنبثة في القرآن لان علماءهم حجاب بينهم وبينه ، كما ان تقليد الكتب
 حجاب بين هؤلاء وبين القرآن . وحرموا أيضا الاستفادة مما وصلت اليه حالة
 العصر من الارتقاء الصوري والمعنوي ، لان من لاحياة له لا يستفيد من غيره
 شيئاً . ولذلك ترى المسلمين لم يستفيدوا من الارتقاء الاوربي الذي يحيط بهم
 فائدة جوهرية تعطيهم حياة حقيقية ، ومثل ما أصابهم منها كمثل الزينة التي تعلق
 على الجدران ونحوها من الاجسام غير الآلية لا تخاط جوهرها ولا تدخل في كنه حقيقتها
 ليس ضرر الطريقة الازهرية في التلميم قاصراً على المسلمين بل هو يعم معهم
 جميع سكان البلاد التي تسير على هذه الطريقة ، لان البلاد التي يتألف أهلها من
 عناصر كثيرة تكون صفات العنصر الاكبر فيها هي الغالبة ، ويمسر على الاقل فيها
 أن ينهض بالاكثر ، وعلى الضعيف أن يؤثر في القوي . بل كان الجمود على
 تلك الطريقة هو الحائل دون اقتباس ما قضت الضرورة على الشرق أن يقتبسه من
 الغرب ، والسبب في طول العهد على التباعد والتباغض بين شعوب في الاوطان
 البعيدة والقريبة بل في الوطن الواحد ، فهي طريقة ضارة بأهلها وبنارة بجيرانهم
 وأهل أوطانهم ، ، وضارة بسائر الناس ، لانها عائق عن ارتقاء طائفة من أبناء
 الانسان وجعلهم فتنة لآخوتهم ، وعقبة في طريقهم
 وجد في مصر وفي غيرها أفراد من اهل العلم والفهم نشأوا على الطريقة
 الازهرية ، ويظن من لم يعرف تاريخهم أن هذه الطريقة على وعورتها قد توصل
 إلى غاية صحيحة ، ولكن من يعرف تاريخهم يعرف ان ذكاهم الفطري قد هدام
 إلى طريقة أخرى في التحصيل بواسطة أخرى أصابوها بسعي او بغير سعي ، على

انه لم ينهض من هؤلاء أحد إلى مرتبة المصلحين إلا عالمنا الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد ، فقد كان هذا الرجل ممن نشأ في الازهر غربياً عن اهله ، وكان له واسطة غريبة لمعرفة الطريقة المثلى للعلم ، فنفع في بلاده ، وكل بالسياحة في افريقية وآسية واوربة ، وعرف أحوال الامم الحاضرة ، وتاريخ الامم الغابرة ، ثم سمت به همته إلى السعي في إصلاح الازهر ، معتقداً ان اصلاحه خير اصلاح لحال المسلمين الدينية والدنيوية ، ولإصلاح كل من يساكنهم في بلادهم بالتبع لهم ، وأنه خير وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب ، وخير صلة بين المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، لانه علم ان السبب في التقاطع بين اوربة والمسلمين هو جهل الاوربيين بحقيقة الاسلام ، وعجز المسلمين عن افهامهم تلك الحقيقة ، لانهم غير متحققين بها لاعلماء ولا عملاء ولا تخلفاء ، ثم جهل المسلمين بحقيقة مدينة أوروبا وبكثرتها ارتقائهم العلمي والاجتماعي . ولو صلح حال التعليم في الازهر لهدب المسلمون إلى طلب العلوم الصحيحة ، والمدينة العزيزة ، كما هبوا لذلك في اول نشأتهم ، فأحيوا ما امانته الزمان من علوم الهندود واليونان ، ، فلا يجدون امامهم إلا اوربة وعلومها الحية ، ويفهمونها انهم خير عون لهم على تكميل مدنيتهم ، فيتعارفون ولا يتناكرون . وإذا عارضت السياسة تعارفهم ، فانه يسهل عليهم من إزالة معارضتها مع التعارف والعلم ، مالا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل

كان هذا الرجل سعى في بث شيء من الإصلاح في الازهر على عهد الخديو السابق (توفيق باشا) رأى من جهود اهل المكان مالا يمكن معه العمل إلا بمساعدة منه ، ولم يجد عنده ايجابية لذلك وانما وجد اشد المعارضة . ولما ولي الخديو الحالي وهو قد تربى في اوربا وعرف من الحاجة إلى الإصلاح مالم يمر فسلفه ، عرض عليه الشيخ محمد عبده رأيه في إصلاح الازهر والخروج به عن كونه تكية للفقراء ، وملجأ للكسالى وجعله مدرسة حقيقية تؤدي وظيفتها كما يجب ، فتخرج للبلاد قضاة عادلين ، ومعلمين ماهرين ، ووعاظاً هادين ، بما لجون بروح الدين هذه الامراض النفسية التي أفسدت الاخلاق والعقول ، حتى عمت الخرافات ، وفشت الفواحش والمنكرات فصادف من الامير الجديد أذناً واعية ، وهمة سامية ، وعهد اليه الامير أن يضع

المشروع للإصلاح ، فوضع للأزهر قانوناً وجعل له مجلس إدارة يدير فيه نظام التربية والتعليم ، فانفذ الخديو ذلك وخصص الأزهر مبلغاً صالحاً من مال الأوقاف إعانة على الإصلاح ، وراق ذلك لحكومته فخصصت له مبلغاً آخر من خزينة المالية ، وكان صاحب مشروع الإصلاح الشيخ محمد عبده عضواً في مجلس إدارة الأزهر من قبل الحكومة وكذا زميله الشيخ عبدالكريم سلمان وباقي الأعضاء ينتخبون من علماء الأزهر ، وانفرض من هذا أن يكون هذان العضوان دائمين لا يعرض لهما التبدل ، لأن مدار الإصلاح عليهما . فسار العمل بالتدرج الطبيعي اللائق بحال قوم طال الزمان على جمودهم . ولم يكن في الأزهر أحد يعارض الإصلاح عناداً ، وإنما كانوا يطلبون إرجاء بعض المشروعات بحجة وجوب التدرج في العمل بدأ الإصلاح (أولاً) بتحديد مدة الدراسة وكان الرجل يقضي عمره في الأزهر

فلا يستل ماذا قرأ ولا ماذا حصل (وثانياً) بالامتحان السنوي لمن يختاره مع مكافأة الناجح بالمال وكانوا لا يمتحنون طالبا لاجل نقله من كتاب إلى كتاب ولا لغير ذلك ، وقد ظهرت فائدة هذا الامتحان وكان يكثر عدد الراغبين فيه عاما فعاما (وثالثاً) بإلغاء بعض الكتب الضارة وتقرير بعض الكتب النافعة وقد عقد لذلك عدة لجان برئاسة الشيخ محمد عبده وتقاريره بما تم فيها مطبوعة محفوظة (ورابعا) بجعل مدة دراسة المقاصد كاللغة والتفسير أطول من مدة دراسة الوسائل كالنحو والصرف ، وقد تقر هذا قولاً ولم ينفذ فعلاً (وخامساً) بزيادة علم الأخلاق وعلم التاريخ وعلم تقويم البلدان وعلم الحساب والجبر والمقابلة في العلوم التي تدرس في الأزهر ، وكل هذا قليل من كثير ، مما يحتاج إليه الأزهر لنهضة المسلمين

سار الأزهر بالتدرج على هذه الطريقة بفاية الهدوء والسكينة وبدأت تظهر ثمارها ، وتوجهت نفوس بعض الطلاب إلى التماس علوم أخرى ، ولكن سمو الخديو تغير في أوائل السير على الشيخ محمد عبده الذي يدير بيده المكان بالاتفاق مع شيخ الأزهر الذي عين باقراحه الخ

ولا حاجة الى نشر بقية هذه المقالة فقد نشرنا معناها آنفاً قبل أن نعرض بين محفوظاتنا على هذه المقالة ولكننا نقفي على هذا بنشر مذكرة بخط الاستاذ الامام

في بيان ما لم ينفذ من مواد قانون الازهر بما نفتح فيه روح المقاومة والشقاق ، وكان يمكن للأستاذ الامام محاكمة شيخ الازهر في محكمة الجنايات بامتناعه من تنفيذها وانما لم يفعل لما ذكرناه قريباً من مذهبه ومشربه في الاصلاح

﴿ مذكرة الاستاذ الامام ﴾

في مواد قانون الازهر التي لم تنفذ
(المادة الثانية من قانون الازهر)

(شيخ الجامع ينفذ اللوائح وقرارات مجلس الادارة ، ويتخذ الوسائل لتحسين حالة الازهر وترقية التعليم ، وبدير الاعمال بما لا يخالف القوانين وقرارات مجلس الادارة)

صدرت قرارات من مجلس الادارة متعلقة بما يجب على مشايخ بعض الاروقة وقرارات متعلقة بالتعليم وأهمها القرار الصادر بتعيين مدرسين يدرسون العلوم على طريقة جديدة عملية توافق أحكام هذا القانون، ورتبت لهم مرتبات مقدارها ستمائة جنيه في السنة من الاوقاف الخيرية، وشرط في ذلك القرار ان من لم يقر منهم بما عهد اليه يتزعم منه المرتب ويعطى غيره والعول على الاختبار ، ولكنهم من يوم عينوا الى هذا اليوم لم ينظر في كيفية تدريسهم ، وهم في التدريس كغيرهم لم يمتازوا عن بقية المدرسين بشيء سوى أخذ المرتبات ، والقرارات المتعلقة بمشايخ الاروقة لم ينفذ منها قرار واحد

(المادة السادسة)

(مجلس الادارة ينفذ كل ١٥ يوم مرة على الاقل)
لا ينفذ المجلس إلا عند موت شخص لتوزيع مرتبه أو اعطاء كسوته التشريفية لغيره ، أو عند شكوى أو مشاجرة أو نحو ذلك ، اما للنظر في حالة التلميذ أو في وضع شيء مفيد له فلا ينفذ ، غاية الامر انه ينفذ في شهر شوال من كل سنة لتوظيف أو نقل معلمي الحساب والجغرافية والخط لاغير

(المادة الثامنة)

(مجلس الادارة يقترح طريقة توزيع النقود التي ترد إلى الجامع الازهر سواء كان وزودها بصفة دائمية أو مؤقتة)
 ظنت المشيخة ان المراد من ذلك النقود التي تأتي للتوزيع على انها نقود ،
 أما مايرد في شرط الواقفين من النقود التي يشتري بها جرايات فيوزعها الشيخ
 بدون مدخل للمجلس وهكذا جرى العمل مع ان المراد عموم ماينخصص للازهر
 من النقود سواء اشترى به خبز أو وزع نقوداً

(المادة الحادية عشرة)

(مجلس الادارة يوزع العلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة وعلى
 السنين ولا يجوز لاستاذ أن يتعدى مايقدره المجلس)
 لم يشتغل مجلس الادارة بتنفيذ هذه المادة قط في العلوم المهود تدرسيها في
 الازهر ، وإنما الذي وزع ولا يزال يوزع إلى الآن هو بعض العلوم التي أضيفت
 أي الحساب والجغرافيا والجبر لاغير . وبقية العلوم تهمل لايعرف مايدرس أولاً
 ولا آخراً إلا ما جرت به العادة في قديم . والمادة المذكورة انما وضعت لاصلاح
 القديم لانه ضار ضرراً ظاهراً

(المادة السابعة عشرة)

تتضمن تقسيم العلوم إلى مسائل ومقاصد ، وأضيف فيها علوم الاخلاق الدينية
 والحساب والجبر ، وعدت هذه العلوم الثلاثة الجديدة من العلوم الالزامية التي يمتحن
 فيها الطاب حتماً عند طلبه الامتحان لنيل شهادة العالمية وجاء في المادة ٦٠ ان
 من مضى عليه أقل من ست سنوات وقت صدور القانون أو من يدخل الازهر
 بعد ذلك يكون امتحانه على حسب هذا القانون

ومع ذلك لم يلتفت إلى الزام الداخلين بعد صدور القانون بتعلم هذه الفنون
 ولم ينشر ذلك على الذين دخلوا من قبل ومضى عليهم أقل من ست سنوات بل

لم يقبته إلى ذلك الا في هذه الايام حيث قدم بعض الطلبة ممن تنطبق عليهم المادة ٦ طلبات للامتحان فرفض طلبهم بناء على أنهم لم يتمموا الحساب والجبر ولكن ذلك بعد فوات الوقت

(المادة التاسعة عشرة)

المعلوم التي يقصد من تعليمها العمل بها كعلوم البلاغة يجب على مدرسيها تمرين الطلبة على تطبيق العلم على العمل
هذه المادة لم يعمل بحرف منها قط

(المادة ٢٠)

يخصص لعلوم المقاصد أوسع أوقات الدروس ولا يصرف في الوسائل من زمن الدراسة ما يساوي الزمن الذي يصرف في المقاصد
لا يزال معظم الزمن يصرف في النحو وهو من الوسائل ، وأما المقاصد مثل تفسير القرآن والحديث فلا يصرف فيها إلا الزمن القليل

(المادة ٢٢)

تمنع قراءة الحواشي والتقارير منعا باتا في جميع العلوم في الاربع سنوات الاولى ويكتفي بالمتون والشروح الواضحة ، وبعد الاربع السنوات بحجر الطلبة والاساتذة في النظر في الحواشي ، وأما التقارير فتمنع قطعا إلا بقرار من مجلس الادارة حصل اجتهاد مدة سنتين فقط بعد صدور القانون في تنفيذ هذه المادة بجمع المشايخ الذين يدرسون في السنين الاربع الاولى وإلقاء التنبهات عليهم لمراعاة هذه المادة ولكن لم يقع تنفيذ ولا مرة واحدة لينظر هل يعملون بمقتضى التنبهات أم لا ؟ نعم بذلك أهمل الامر بالكلية والمشايخ يقرءون الآن ما يريدون كما كانوا قبل صدور القانون

(المادة ٢٣)

(لا يباح للطلاب أن يشتغل بعلم من علوم المقاصد قبل أن يستحضر من وسائله ما يمكنه من فهمه وعلى كل طالب أن يتلقى أصول مذهبه)

هذه المادة لا يمكن تنفيذها إلا بتفقد حال كل طالب في دروس المقاصد لمعرفة إن كان تلقى من الوسائل ما يؤهله لفهم كتاب من المقاصد أو كان لم يتلق ما يكفي وهذا أمر لم يقع من يوم وضع القانون إلى اليوم ، بل لم يشتغل مجلس الادارة بتحديد وسائل كل علم ودعوة الطلاب إلى الاخذ بما يقرره

(المادة ٢٤)

أكثر مدة الطلب ١٥ سنة

مقتضى ذلك ان الطالب لا يقم على انه طالب في الازهر أكثر من ١٥ سنة ويوجد طلبة لهم أربعون سنة فما دون ذلك ولم يلتفت مجلس الادارة إلى النظر في تصفية الجامع من هؤلاء البلاء بل منهم من يطلب الامتحان والشيخة لانه إلى طلبه

(المادة ٣٧)

تقضي بان طلبات الامتحان تقدم إلى المشيخة في الشهور الاربعة الاولى من كل سنة ، وانه بعد ذلك يشكل شيخ الجامع لجانا لامتحان الطالبين ومقتضى ذلك أن يتحنم على الشيخ تشكيل اللجان لامتحان جميع الطالبين وإلا فلا معنى لذكر اللجان بصيغة الجمع ولا معنى لتحديد مدة الطالب بالشهور الاربعة ، والآن يوجد ما يزيد على خمسمائة طلب من سنين عديدة ولا يمتحن من الطالبين أكثر من ثمانين شخصا في السنة وفي ذلك فضل للطالبين وهدم لقوام بتناول السنين عليهم بلا فائدة

أما المواد ٤٣ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ المتعلقة بكيفية الامتحانات فلم يعمل بها ولا مرة واحدة

وقد كان الشيخ محمد عبده شرع في تطبيقها عند ما عين عضواً في لجنة الامتحان من نحو ست سنوات فلم يقبل المشايخ الجري عليها واستمر العمل على اهمالها إلى اليوم

والحاصل ان هذا القانون قد عدته مشيخة الازهر ومشايخه وطلبته من قبيل الوصايا التي يجوز للشخص أن يعمل بها ويجوز له أن لا يعمل وهم يحبون أن لا يعملوا بالضرورة لعدم تعوّدهم العمل اه نص المذكرة من هذه المذكرة يعلم أن مشيخة الازهر كانت معادية للنظام حتى مادة جعل جل العناية في الازهر تحصيل علوم الدين المقصودة بالذات وفي مقدمتها التفسير والحديث ، ويعلم منها ان الذين اتهموا الاستاذ الامام بأنه أضعف علوم الدين في الازهر من المنافقين الذين يفترون الكذب وهم يعلمون ونعود الى ما كان من تأثير استقالته في العالم مما نشرناه يومئذ في المنار

صدى الحادثة في أوربا

(أو مقاومة النفوذ الفرنسي والانكليزي للاستاذ الامام في الاصلاح)

(نشرت تحت هذا العنوان ما يأتي في المنار بعد بيان تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في العالم الاسلامي . ووقيت عليه بانتقاده وهو)
 نشرت جريدة اللواء في عدد يوم الخميس (١٣ ربيع الاول) خيرا قالت انه مترجم عن جريدة (الغلوب) الانكليزية بغير تصرف وهذا نصه بغير تصرف :
 « اختلف العلماء من عهد قريب بشأن التعليم في الازهر، وسبب ذلك ان رئيسهم الشيخ محمد عبده حاول ادخال نظام للتعليم أوسع من النظام الحاضر - الذي وضع من قرون مضت والذي لا يتضمن غير محض تعليم مواد الاجرومية وقليل من بعض العلوم الاخرى - بقصد تكوين قوة جديدة في الاسلام، ويريد الشيخ محمد عبده السالف الذكر ادخال العلوم الحديثة في بروغرامه الجديد ليستعين بها العلماء على اكتساب أرزاقهم من طرق العمل واجد لا الكسل والتواكل
 « وقد قاومه العلماء في مشروعه هذا مقاومة شديدة واتصل بنا انه قال في حديث له : ان السبب في عدم نجاحه وفشله النهائي راجع إلى محاربة النفوذ الفرنسي والانسواوي والانكليزي السياسيين له، وامتشهد بعبارة نشرت في بعض الكتب

السياسية الفرنسية مؤداها ان سواس فرنسا من الحزب الاستعماري لا يقبلون بوجه من الوجوه تنور المغاربة بنور العلم « اه
(اقول) ثم علمت بعدنقل هذا عن جريدة اللواء انها تركت من الاصل كلمة اخرى ذكرتها جريدة (الغلوب) وهي ان الشيخ محمد عبده قل لمحدثه « فهل يسر الانكليز بتخريجي لهم رجالا مستعدين يفهمون حقوقهم ويعرفون كيف يدافعون عنها بقوة مستمدة من العلم والمعرفة ؟ » وانما ترك اللواء هذه الجملة لانه يسر المسلمين من الشيخ محمد عبده أن يقول هذا في مقاومة الانكليز وسوء الظن فيهم . وما كان صاحب جريدة اللواء يحب أن يسر المسلمون من الاستاذ الامام بشيء

ملاحظة النار او انتقاده على ذلك

(أي على ما نشرته جريدة اللواء)

يعجب المصريون أن يروا في الجرائد الانكليزية من يخط في المسائل المصرية على غير هدى ، مع وقوف الانكليز هنا على حقائق الامور ، وقد ذكرنا وذكر غيرنا ممن قرأ تلك التبعة في جريدة اللواء ما كان أشيع هنا بعد ترك الشيخ محمد عبده لمجلس ادارة الازهر من ان بعض المصريين الذين لم حظ فيما حدث في الازهر كلفوا أحد مكاتبى الجرائد الانكليزية أن يكتب لجريدته التي يكتبها شيئاً يفيد معنى ما كتب في بعض الجرائد المصرية التي لها هوى في الحادثة من أن جميع علماء الازهر مضادون للشيخ محمد عبده فيما يريد من اصلاح التعليم وزيادة العلوم في الازهر ، ويتضمن شيئاً آخر يفيد سحق الانكليز على الشيخ وأتذكر ان بعض الجرائد الاسبوعية في مصر كتبت شيئاً عن هذه الاشاعة وقالت ان ذلك سيكتب ثم ينقل في بعض الجرائد المصرية اليومية

مالنا ولما أشيع في سبب الكتابة ولما قيل في مصدرها ؟ إنما نحن أمام قول يتضمن خبرين (أحدهما) ان علماء الازهر كارهون ومقاومون لما يريد الشيخ محمد عبده من النظام وتوسيع دائرة العلم في الازهر ، وقد بينا في كلامنا على رسالة « محسن الملك » ان هذا غير صحيح ، وان علماء الازهر برآء مما يرمون به من

الغلو في بغض العلم والنظام ، والجهل بما يعلي شأن الاسلام ، و(ثانيها) ان الشيخ يقول انه لم يخفق فيما حاول من اصلاح الازهر إلا بمقاومة النفوذ الفرنسي والانكليزي له ، لان ترقية المسلمين تناقض مصلحتها في استعمار بلادهم . ونقول ان هذا النقل عن الشيخ غير صحيح ، وإن كان أكثر المسلمين يعتقد صحة علته المذكورة . ولا يعقل أن يقول الشيخ ذلك لان فرنسا لا نفوذ لها في الازهر ولا في مصر فتقاوم ولان الانكليز لم يقاوموه لما هم عليه من الحرية وعدم التعرض للمصالح الدينية . على ان المصريين الذين لم يقدرُوا حرية الانكليز حق قدرها ولم يعلموا انها تمثلت مع الفضيلة في اللورد كرومر في أبهج صورها ، يتمتعون من عدم مقاومة الانكليز لاصلاح الازهر في السنين الماضية ، ويظنون ان لم بدأ في المقاومة الآن . وأما الشيخ محمد عبده فقد سمعناه غير مرة يقول : انما قصد إلى خدمة المسلمين في شيء . واتي مقاومة فيه من غيرهم لا من انكليزي ولا من افرنسي ولا من قبطني ولا من شامي . ولا غرو فان جهل المسلمين وتأذلم في هذا النمصر كافين لاجباط كل سعي لترقية شأنهم ، لا يحتاجون إلى مساعد في ذلك ، ومن يسعى بعقل لا يقاومه العقلاء هذه فرنسا التي كان منهجها في مقاومة تعلم المسلمين في الجزائر أمرًا معروفًا قد أنشأت ترجع الى منهج الانكليز في اتساعه وقد تكلم الشيخ محمد عبده مع رجالها في تونس والجزائر في مساعدة المسلمين على التعليم فوجد منهم ارتياحًا الى ذلك وقد نشرت جريدة الطان من عهد قريب مقالة في الاحتفال بمدرسة الجمعية الخلدونية ذكرت فيها ان مصدر هذه الحركة العلمية في تونس هو الشيخ محمد عبده وبعض المجلات العلمية المصرية التي تحت المسلمين على اجمع بين علوم الدنيا والدين وترد فيها رأي الذين يظنون أن تعليم النساء يضر بفرنسا لان هؤلاء المتعلمين يكونون دعاة لاستقلال البلاد وقيامهم على المستعمرين لها ، وترجمت الازهرام مقالة الطان فسر بها المسلمون هنا . اهـ

والمراد ببعض المجلات العلمية المنارة ، وقد نشرنا فيه مقالا طويلا مترجماً عن جريدة الطان لا محل لبسطه هنا ، ولكننا نقول مع الاسف إن ما أظهره بعض رجال فرنسة للاستاذ الامام في الجزائر من ميلهم الى اعطاء المسلمين ما يجب من حرية العلم والدين لم يصب فكان إما خداعاً وإما رأياً شخصياً ممن أبداه له هنالك

استطراد

في بيان حال الازهر في عهد الشيخ عبد الرحمن الشريبي

قد ظهر للناس عجز الاستاذ الاكبر، الشيخ عبد الرحمن الشريبي عن إدارة الازهر، فلم يستطع أن يعمل فيه عملاً، ولا أن يجتهد لسمو الخديو وقدماء الشيوخ الجامدين أملاً، ولا أن يسير كما أراد الشيخ الظواهري سيراً يكون فيه [بين بين] أو مذنباً

وقد لحقت حالته في هذا الطور الاخير في ورقة واحدة جعلتها مقدمة لمقالة النواب محسن الملك قلت فيها بعد خبر تعيين الشيخ الشريبي وما بني عليه مما ذكره الخديو في خطبته مانصه (ج ٩٩٠ في رمضان سنة ١٣٢٤)

« كان مدار ذلك الكلام على ان كل ما مهم الامير وحكومته من الازهر أن يكون في امان وهدوء وبعد عن الشغب والقلق، وأن يظل مدرسة دينية كما كان، وربما كانوا يظنون أن سكون الازهر وراحة أهله ورضاء كبار شيوخه عن الامير وإخلاصهم له هو مما ينتج من جعل الشريبي شيخاً للازهر لانه في مقدمة العلماء الازهر بين الذين يرون وجوب بقاء الازهر على حاله التي كان عليها في زمن تعلمهم فيه، ويتوقف هذا على ترك الشيخ محمد عبده له وهو هو الذي يريد تغيير نظام التعليم وزيادة العلوم والفنون فيه، والى ان جاء الامر على تقيض ما كان يظن أولئك الظانين. فاستاء محبو الاصلاح من اهل الازهر لترك الاستاذ الامام لإدارته كما استاء عقلاء المسلمين في كل مكان

« وأما المحافظون على الحالة المتبعة فقد رأيناهم على عهد الشيخ الشريبي أشد استياء من إدارة الازهر منهم على عهد من سبقه. كما أشرنا إلى ذلك في العدد الماضي وكثر في هذا كلام الناس وكتابة الجرائد بالشكوى من حال الازهر والظعن في علمائه حتى ان بعض الافندية كتب في بعض الجرائد اليومية يقول في جهل علماء الازهر وفقد الثقة بهم مامعناه: ان الناس لا يقصدون في حل مشكلات الدين والدفاع عنه إلا بعض حملة الطرايش، وفي ذلك هضم لغير الازهريين من حملة العمام كأساتذة المدارس الاميرية وغيرهم » اه

وكتبنا قبله في آخر الجزء الثامن من المجلد ٩ (شهر شعبان سنة ١٣٢٤) مانصه :
 « كثر الخوض منذ سنة في الازهر ومشيخته ومجلس إدارته ، وكتب في
 الجرائد بعض ما يتحدث الناس به من الخلل في الادارة ، والمحابة في الامتحان
 وشهادة العالمية ، وبيع الشهادات بالدرهم ، وما بين شيخ الازهر ومفتي الديار
 المصرية من المغاضبة والمناصبية . وما أشيع ان المفتي شكك شيخ الجامع إلى رئيس
 النظار وإلى السيد البدوي (!!) وقد بلغنا أن شيخ الجمع ضاق صدره فاستقال ،
 وانه سيقال بعد أن يعين الشيخ محمد شاكر وكيل الازهر تمهيداً لعمله أصيلاً بعد
 استشارة الامير لحكومته في ذلك ، وسنعود إلى ما نراه نافعاً من الكلام عن
 الازهر في الجزء الآتي اه

تم كتبنا في آخر الجزء التاسع منه ما نصه :

« ذكرنا في الجزء الماضي ما كان بلغنا من استقالة شيخ الازهر وعزم الامير
 على تعيين الشيخ محمد شاكر وكيل الازهر تمهيداً لعمله أصيلاً ، وقد تحقق ذلك
 ولكن استقالة شيخ الازهر حفظت وحمل على طلب اجازة ثلاثة أشهر ، وعين
 الشيخ محمد شاكر وكيلاً لمشيخة الازهر ، فعظم ذلك على أهل الازهر واستنكره
 كبراء الشيوخ واستكبروا أن يكونوا من وسين له على حدائمه في السن والعلم .
 وانتهى الامر إلى الحكومة أو إلى أولي الامر ، فخطبوا الامير في ذلك ، وتقرر أن
 الشيخ شاكر لا يكون شيخاً للازهر ولا وكيلاً ، وقد سمي الآن نائباً ، وقد زاد
 الشغب والاضطراب في الازهر في أيام نيابته ، على امداد الامير اياه بنفوذه ،
 ويتوقع أن ينتهي هذا التلاعب في الازهر بعمله تحت مراقبة نظارة المعارف إذ
 لاقرار الامع السلطة الثابتة المنتظمة ، واملنا نتكلم عن اصلاحه في جزء آخر اه
 وأقول الآن : ان هذه الكلمة الاخيرة كانت انذاراً للخدوي ، سببه أن بعض
 الناس كانوا يسمون إلى هذا كما سموا من قبل ، ولكن الانكليز لم يرضوا بذلك ،
 وقد بلغنا أن بعض المصريين المتعاقبين لهم قل لمستر دنلوب مستشار المعارف :
 لماذا لا تصاحبون لنا الازهر كما أصلحتم وزارة المعارف ؟ فقال له المستشار : إن

٧٠ - تاريخ الاستاذ الامام ج ١

الازهر بناء متداع للسقوط من طبعه ولا بد من سقوطه ، فاذا وضعنا يدا فيه
قال الناس اننا نحن الذين اسقطناه

نم كتبنا في آخر الجزء العاشر منه - شوال سنة ١٣٢٤ ما نصه :

ألفت ادارة الازهر ثلاث لجان أو أربعة لامتحان الذين أتوا مدة الدراسة
وهم كثيرون جداً . فامتنع كثيرون من كبراء الشيوخ أن يكونوا من أعضائها
لان الشيخ شاكر نائب شيخ الازهر هو المؤلف لها والرقيب عليها ، فكان
أكثر أعضائها من غير المشهورين ، وفيهم من صاروا مدرسين من عهد قريب ،
ولكن هذه اللجان قامت بالامتحان بنظام واهتمام . وقد رأينا الازهر بين المنصفين
يفضلون نظام هذا الامتحان على ما كان قبله ، ولم نسمع الآن ما كنا نسمع في
السنة الماضية (الدراسة) من أخبار المحاباة والرشوة . والفضل في ذلك لمراقبة
الشيخ شاكر ويقظته ، فله الشكر والثناء الحسن . ولعل ماسمعناه من أخبار التساهل
واعطاء الدرجات لافراد لا يستحقونها مبالغ فيه ، ولعل الشيخ شاكر أعني بتحقيق
الحق في ذلك « اه

بعد هذا قبل الامير استقالة الشيخ عبد الرحمن الشربيني وولى مكانه الشيخ
حسونة للمرة الثانية برضاء حكومته . وعلى يده نفذ مشروع مدرسة القضاء
الشرعي . وقد كتبت في الجزء الاول من مجلد المنار العاشر الذي صدر في
الحرم سنة ١٣٢٧ المقالة التالية :

ضر من الله وفتح قريب

(الازهر ومدرسة القضاء الشرعي)

قال الاستاذ الامام عليه رضوان الله تعالى « يستحيل بقاء الازهر على حاله
فاما أن يصلح واما أن يسقط » وكان أكرم الله مشواه باذلال عناية في اصلاحه
حذراً من سقوطه وحرمان المسلمين مما يرجى باصلاحه ، و كان أقدر من عرفنا
من الناس على هذا الاصلاح : وسائله ومقاصده ، وأحكامهم في تنفيذه ، الا انه أخطأ

في امر واحد لولاه تم له ما أراد من الاصلاح وهو فوق ما طلب منه . ذلك الامر هو محاولة اصلاحه برضى كبراء شيوخه واستعمالهم فيه بالاقناع دون السلطة الا مابداً به من وضع قانون لادارته ، والسعي في اصدار إرادة من الامير به ، بناء على قرار من مجلس النظار لعله أن العمل بدون ذلك متمذر ، ولا محل لشرح ذلك هنا ، بل موضعه الجزء الاول من تاريخه الذي نعتني بطبعه الآن وانما يريد أن نبين انه كان يحاول تنفيذ هذا القانون بدون استعانة بسلطة التنفيذ في البلد بل بمجرد اقناع شيخ الازهر وأعضاء الادارة

كان الشيخ حسونه النواوي اول من ولي المشيخة واختير للعمل بهذا القانون مع المرحوم وسائر من اختيروا للادارة ، وكان المرحوم هو الذي اختاره وسعى لدى الامير بتعيينه وكيلاً للشيخ الانبائي المرحوم ثم أصيلاً . وقد استعان على هذا ببعض صدقاته كالمرحوم امين باشا فكري . ذلك انه كان يعتد ان الشيخ حسونة أميل الشيوخ وأرجاهم لقبول الاصلاح . علمت ذلك منه اول مقدمي لمصر سنة ١٣١٥ اذ قالت له : سمعت من بعض مجاوري الازهر الطرابلسيين ان شيوخ الازهر قد امتعضوا من جعل الشيخ حسونة شيخاً للازهر لانهم لا يبدونه من كبار العلماء ، فقال ان كانوا يعنون بذلك انه لا يقدر على ايراد الاحتمالات الكثيرة في مثل عبارة جمع الجوامع ، فهذا صحيح ، ولكن هذه الاحتمالات التي يوردونها ليست من العلم في شيء ، والشيخ حسونة أمثلهم . وقد دلت التجارب على صدق هذا القول — ولا ننسى فضل المرحوم السيد علي البيلاوي الذي ظهر من فضله فوق ما كان يظن فيه — فان ماجرى على يد الشيخ حسونة أولاً وأخراً لم يجر على يد غيره مثله

نعم كان الشيخ حسونة برحيم . بعض ما يقترح المرحوم ، عملاً بالتدرج عن رأي واعتقاد ، ولكنه لم يكن يقرر الشيء ولا ينفذه كما فعل من جاءوا بعده ماعدا البيلاوي ، وقد تقلب على الازهر في هذه المدة عدة شيوخ كان أشهرهم في علوم الازهر أهدم عن الاصلاح . فالشيخ سليم البشري من — أشهرهم — لم يجر على يده شيء من الاصلاح بل كان معارضاً لكل شيء ، فأرضى أمثاله من المحافظين

على القديم وأغضب طلاب الجديد ، والشيخ عبد الرحمن الشريفي أشهرهم على الاطلاق وهو لم يفعل شيئاً ولم يرض طائفة من الطائفتين

قلت للاستاذ الامام مرة : ان قرار مجلس ادارة الازهر هو كقرار كل مجلس رسمي وكل محكمة يطالب القانون بتنفيذه ويماقب على تركه ، فلماذا لا تطالب بتنفيذ هذه القرارات الكثيرة التي يمتنع شيخ الازهر من تنفيذها بصفة رسمية ، فلو فعلت هذا مرة واحدة لنفذ كل قرار (١) فقال : ان هذا لا يكون إلا بسلطة الحكومة واني أرجو أن لأدع الحكومة تتدخل في الازهر مادمت فيه فكيف أكون أنا الذي يدعواها الى ذلك ؟ فنحن ندعو الشيوخ بالاقناع معتمدين بالصبر وكان يكره أن يكون « للمعية » أصعب في الازهر كما يكره أن يكون للحكومة يديه ، لاعتقاده ان خير الاصلاح في العلم والدين ما كان بعيداً عن السياسة ناشئاً عن اقتناع العلماء به واستقلالهم فيه ، ولكن « المعية » ولعت بالازهر ولو كاد يكون عشقا وغراما ، ولما رأته أن تمتعها بهذا المعشوق لا يتم مع وجود هذا العذول الرقيب ، طفقت تناهضه حتى كان ما كان من أمر استقالته من ادارة لازهر ، وكان ما كان بعده من الخلل في هذا المكان ، حتى أدى ذلك إلى اقامة نائب عن شيخه الشريفي بدير الامر من دونه عدة أشهر ، ثم إلى استقالته واعادة الشيخ حسونه إلى المشيخة ، وعلى يد الشيخ حسونة تم مشروع مدرسة القضاء الشرعي وصادر به الامر العالي فصدق قول المرحوم فيه « انه أمثلهم » في حياته وبعده

مما كان ينويه المرحوم الامام من اصلاح الازهر انشاء قسم قضائي فيه يشرح فيه الطلاب لمنصب القضاء ، زاده حرصا عليه اقتراح المسير سكوت المستشار القضائي الاول اصلاح المحاكم الشرعية وجواز جعل المتخرجين في مدرسة الحقوق الخديوية قضاة شرعيين . ولم أر الاستاذ مهتما في مقاومة شيء كاهتمامه في حمل الحكومة على الاغضاء عن جعل متخرجي الحقوق قضاة للشرع ، سمى في ذلك وحاول اقتناع كبراء الشيوخ بأن يسعوا معه فلم ير منهم مبالاة فكان يتململ ويقول إذا نفذ

(١) هذا السؤال وجوابه هو عين ما كان قاله لي في شأن الشيخ سليم كما تقدم حاولت بعد مدة أن أفتعه بهذه الشدة فرأيت رأيه لم يتغير

هذا المشروع قضي على الأزهر . وقد نجح سعيه فلم ينفذ
وعند محاولات الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية للمحكمة
الشرعية العليا بمصر ولم يتم ذلك قوي عزمه وظن أن الفرصة سنحت لانشاء القسم
القضائي وقد فتحنا كوة للبحث في ذلك ، إذ أنشأنا مقالة في المنار الذي صدر في ذي الحجة
سنة ١٣١٦ تقترح فيه انشاء هذا القسم القضائي ، ولكن حال دون إنشائه عزل
الشيخ حسونة من المشيخة وتولية الشيخ عبد الرحمن القطب في ٢٤ المحرم سنة
١٣١٧ ولم يلبث هذا أن توفي بعد شهر من توليته ، وولي الشيخ سليم البشري
الذي وقف في عهده سير الاصلاح ، وكان من أمر « العمية » من اول عهده إلى
الآن ما أشرنا اليه آنفاً ، إلى أن انتهى باستقالة المصلح العظيم من إدارة الأزهر ، وبهذا
انقطع رجاء الحكومة من إصلاح حال القضاة الشرعيين الذين ضجت منهم الامة
طالبة باسان الجمعية العمومية ، ولسان مجاس الشورى إصلاح المحاكم الشرعية ،
فهدت اليه بوضع مشروع انشاء مدرسة قضائية يتولى هو بنفسه أمرها ، وكان
هذا المشروع آخر عمل إصلاحي عمله ، إذ تم في أوائل مرض الموت ، وما كان يؤمله
من هذا المشروع إلا انفصاله عن الأزهر ، وقصارى ما أمكنه من وصله به جملة
تحت نظر مفتي الديار المصرية دائماً ، وكان للحكومة معه وقفة في هذه المسألة
تبارك ناصر المحاصين ، أحياء وميتين ، فقد قضت حكمته عز وجل أن يقوم بتنفيذ
المشروع وبجمله أشد صلة بالأزهر سعد باشا زغلول ناظر المعارف لهذا العهد ،
ولا يجهل أحد من المصريين من هو سعد باشا من الاستاذ الامام ، وان يكون
ذلك في عهد مشيخة الشيخ حسونه ، وبعد موافقته عليه وجعله تحت نظره ، وقد علم
القراء اعتقاد المرحوم في الشيخ حسونة وما كان من نيته في أيام مشيخته الأولى . اهـ

ما أخطأه الاستاذ الامام في ادارة الأزهر

قلت في أول هذه المقالة انه أخطأ في اعتماده على اقناع علماء الأزهر بالاصلاح
وذكرت في أثنائها انه كان يجب عليه التنفيذ بقوة القانون ولو أفضى إلى تدخل
الحكومة . وسأذكر في الفصل التالي رأي خليل باشا حماده وانه لو قبله لثم له
ما أرادته ولكن صده عن هذا دينه وعماقبله وطنيته

الوسائل الخديوية للانتقام من المفتي

قد توسل سمو الخديو بكل ما يقدر من الوسائل للانتقام من الاستاذ الامام وعزله من منصب الافتاء ومن إدارة الازهر ، وكل منها يتوقف على موافقة مجلس نظار الحكومة ، وموافقة المجلس يتوقف على موافقة مستشار المالية والعميد البريطاني من فوقه ، وكان من أسخف التدبير لاقناع لورد كرومر بذلك أنهم لفتقوا صورة شمسية له مع جماعة أو أسرة من الرجال والنساء ونشروها في جريدة الحارة الهزلية مع طعن في المفتي بأنه يجالس نساء الافرنج وذلك بعد إزراء بمنصبه الديني . وقد أرسلوا هذه الصورة الى لورد كرومر مع رجل أراد إقناعه بأن هذا بعد إزراء بمنصبه في عرف المسلمين وينبغي خروجه منه مراعاة لشعورهم ... فتبسم اللورد سخرية من هذه السخافة وقال : ان هذه الصورة لا يثبت لها عندي أصل ولكن الاستاذ يزورنا هنا وتحضر مجلسه لادي كرومر وغير هامن عقائلنا، فهل يصح ان نعد هذا إهانة له أو لنا؟ أم يصح أن نهتم بشعور المتعصبين الجهلاء ونبني عليه عملاً مهماً كهذا؟

والذي اشتهر أن تلك الصورة ملفقة أخذت عن صورة منفردة للمفتي وضعت بجانبها تلك الصور فكان الماخوذ عنهما كأنه ماخوذ عن أصل واحد . وقد نظم الاستاذ ابراهيم بك اللقاني المحامي الشهير والاديب الكبير أياتاً في ذلك قال فيها :

مكيدة لفقوها بصورة مستعارة
ودبروها وكانوا بقية الاستشارة
ولطخوا بعد هذا بالطين وجه الحارة

يعني بقية الاستشارة سراي القبة محل إقامة الخديو . وتلطبخ وجه الحارة بالطين وهو مثل ما أعقب نشر جريدة الحارة للصورة وطعنها من محاكمة النيابة لصاحبها والحكم عليه بالسجن

ومن هذه الوسائل مسألة منم الحج اتقاء للوباء فقد ابتكر هذه الوسيلة سموه وعرضها على لورد كرومر مباشرة ، بأن قال له إنه يمكن ذلك بأجازة العلماء

وإفئتهم، وهو يعلم أن الحكومة لاتعمل إلا بفتوى المفتي الرسمي فان هو أفتى أقام عليه قيامة العلماء والجراند، وأسقط قيمته عند الأمة كلها، وإن لم يفت اسخط الانكليز ذكر اللورد ذلك لرئيس النظار، وهذا أخبر به المفتي وسأله عن رأيه فيه فظن لمراد الخديو فرد مكيدته عليه ووضعها في عنقه بأن قال لرئيس النظار: إنه ليس لذلك إلا طريقة واحدة وهي أن يقول أمير البلاد وولي أمرها الشرعي إنه قد ثبت عنده أن السفر الى الحجاز في هذه السنة موقع للحجاج في خطر وتملكة خينئذ يفتيه العلماء بأن له منهم من القاء أنفسهم في التهلكة مادامت معلومة ثابتة عنده. قال له الرئيس وهل يكفي ثبوت هذا عند الحكومة؟ قال المفتي. لا بد أن يثبت هذا عند ولي الامر النائب عن السلطان وتكون مسؤوليته عليه وحده. والاستاذ يعلم أن الخديو لا يقبل حمل هذه المسؤولية فشلت الدسياسة ويشبه هذه المسألة ما جرى بيني وبين سموه في أثناء انكسار الجيوش البريطانية في حرب الترانسفال، قابلت سموه في قصر القبة وقلت له: إنه خطر في بالي أنه يمكن لاندينا في هذه الايام أن يسمى لجلاء جيش الاحتلال عن مصر بأسلوب ودي يمكن أن يرضي الانكليز، وهو أن يقول أفندينا للعميد الانكليزي: إذا كنتم في حاجة الى ارسال من لديكم من جيش الاحتلال عندينا الى الترانسفال فيمكنكم ذلك بمقتضى اتفاق معنا ترضونه لتأمين مصالحكم في مصر بدون وجود هذا الجيش، بل اذا شئتم أخذ جيش متطوع من المصريين لمساعدتكم فاننا نقبل ذلك... أو ما يستحسنه أفندينا من الاسلوب بعد استشارة من يثق بهم من رجاله لاغتنام هذه الفرصة للاتفاق مع الانكليز الخ

فنهال وجه سموه، وقال هيه! وما هو رأي الشيخ محمد في هذا؟ قلت له انني لم أذكر هذا له وانما هو رأي خطر في بالي فرأيت انه يجب علي عرضه على صاحب البلاد.

قال طيب. اذهب من هنا الى عين شمس واذا كره للشيخ ثم ارجع إلي فاخبرني برأيه فيه

فذهبت الى دار الاستاذ الامام وتخصت عليه القصة فقال أتدري لماذا

أرسلك إلي ؟ إنما أرسلك لاجل أن يقول للورد كرومر إذا وافقت على هذا الرأي ان الشيخ محمد عبده يعزبني بان أغتتم هذه الفرصة لطرد الجيش الانكليزي من البلاد ... قلت انه ينتظري لاجل له جوابك فماذا اقول له ؟ قال قل له ان هذه مسألة مهمة يجب على أفندينا أن يتفكر فيها كثيراً قبل أن يبرم فيها رأياً . ومن تلك الوسائل مسألة صندوق التوفير الذي أرادت الحكومة إنشاءه في مصلحة البريد فسألت المفتي عن وجه شرعي له فقال يمكن اتخاذ طريقة شرعية لانتفاع الفقراء بما تريد الحكومة ان تعطيهم إياه في مقابلة توفير نقودهم في صندوق البريد . ولما ذكر ذلك لسموه قل بل انا الذي أتولى هذا الامر بيان الطريقة الشرعية مع العلماء ، وطلب جماعة من علماء المذاهب إلى قصر القبة وذكر لهم المسألة وكان يظن أنهم يتفقون على ان ما اشار به المفتي مخالف للشرع ومبيح للربا ، فخاب الظن وكان رأيهم عين رأي المفتي ، فلما بلغ ذلك الحكومة فطنت لمراد سموه . واما الوسيلة الكبرى فقد كانت الفتوى الترانسفالية المشهورة فهذه هي التي أقاموا لها القيامة ، وقالوا إن المفتي احل ما حرم الله من اكل الموقوذة . وأرادوا استفتاء شيخ الاسلام في الآستانة او استفتوه بالفعل ليحتجوا بفتواه على بطلان فتوى مفتي الديار المصرية فلم يفهم . وسنبت الكلام على هذه المسألة في المقصد الآتي وهو عمل الاستاذ الامام في منصب الافتاء وفي أثناء ذلك رفعت تقارير إلى السلطان عبدالحميد بالظمن في مفتي مصر ورميه بعداوة الخليفة والسعي لخلعه ، وقابل ذلك آخرون بتقارير في الظمن في سمو الخديو وإثبات انه هو القائم بما يتهم به المفتي بل هو يطمع في منصب الخلافة والمفتي هو الذي يعارضه وحده . ومن أدلة ذلك أنهم اقبوه في مجلس شورى القوانين بصاحب الجلالة فاعترض المفتي الشيخ محمد عبده على ذلك وأمر كاتب المجلس بشطب لقب صاحب الجلالة ووضع لقب الجناب العالي في موضعه ، وقد اشتهر ذلك ونشر في الجرائد . وكذلك فعل أحد الخطباء في خطبة الجمعة على مسمع من سموه ولم يعترض على ذلك إلا المفتي وقد اطلعنا على تقرير رفعه الى المايين سعادة يوسف باشا طلعت صاحب جريدة الراوي نذكر هنا اهم موادها الخاصة بهذه الدسائس وما في معناها وهي :

مواد التقرير الذى رفعه الى المايين الهمايوى

صاحب السعادة يوسف طلعت باشا صاحب جريدة الراوى الیویة

(البند الاول) ان الخديو يحاول أن یجمل الازهر آلة سياسية دينية یهدد بها مولانا السلطان وغيره لقضاء مآربه وهو متمكن من التأثير على مشايخه البسطاء ونسكن وجود المفتى فى الازهر یحول دون عرضه فانه رجل قوى العزيمة ويعتقد أن استعمال رجال الدين فى السياسة یضر بالاسلام والمسلمین ، ويعتقد أن المحتلین یتداخلون فى كل شىء یتداخل الخديو فيه ، فیخاف أن تمتد أیدیهم الى الازهر فهو یقاوم ذلك وله حزب فى الازهر یؤيده حتى ان شیخ الازهر الحالى على رأیه (البند الثانى) ان الخديو یستهن على استعماله المشايخ والتأثیر عليهم بمال الاوقاف العمومية والخصوصية . والمفتى یعاكسه فى ذلك بما له من النفوذ فى مجلس الاوقاف الاعلى . وطریق الاستمالة هو أن ماهیات المدرسین والخطباء كلها من الاوقاف ، هذا فضلا عن العطايا الخصوصية السرية ، ویدل على هذا البند وما قبله البنود الآتية

(البند الثالث) وضع المفتى مشروعاً فى الاوقاف یشى مشروع المساجد اقترح فيه أن یكون جمیع الخطباء من المدرسین فى الازهر ، وأن تكون ماهیاتهم معينة مقررة ، وكذلك رواتب المدرسین والوعاظ لكي یقوموا باداء وظائفهم على الوجه النافع ، ولا یكون لاحد سلطة عليهم ولا تأثیر لثلاث یفریهم بشىء سياسى كما أغرى بعضهم بترك اسم السلطان فى الخطبة غیر مرة . وقد رضی الخديو من مشروع المفتى أن یكون الخطباء من المدرسین ، ولكنه عارض أشد المعارضة فى أن تكون ماهیات الخطباء والمدرسین مقررة لتكون فى یده دائماً

(البند الرابع) لما كانت الخاصة الخديوية عقدت اتفاقاً مع الخواجه بیساکى الرومى وشركاه لاستخراج معادن طشیوز ومنعت الدولة العلية الشركة من ذلك عاد بیساکى الى مصر وأراد رفع قضية على الخاصة الخديوية یطالبها فيه بالتعويض المالى فأمر الخديو فیضى باشا مديراً الاوقاف العمومية یومئذ بصرف سبعة عشر الف

جنيه إلى يساكي حتى لا يرفع القضية فدفعها المدير بدون استشارة المجلس الاعلى فعارض المفتي في ذلك واحتج عليه ، وأخيراً قرر عدم المسؤولية على فيضي باشا لانه مأمور من الناظر الحقبتي على الاوقاف وهو الخديو ، وعلى ان هذا هو المسئول وحده .

(البند الخامس) لما أرسل الخديو المهندسين الى طشيوز لفتح الطرق للجبال والغابات أمر لهم بستائة جنية من الاوقاف فصرفت بدون اذن المجلس الاعلى فاحتج المفتي على ذلك كالذي قبله . وكان هذا وذلك سببا في فصل الاوقاف الخصوصية عن الاوقاف العمومية . وإيراد هذه الاوقاف يزيد على خمسة وثلاثين ألف جنيه في السنة يصرف عليها منها نحو سبعة آلاف جنيه ويستمن بالباقي على مقاصده وهذا ما عدا وقف خليل أغا العظيم الايراد الذي ضمه أخيراً

(البند السادس) انه أراد من مدة قريبة أن يربح من الاوقاف العمومية مبلغا عظيما فاتفق مع الخواجه زرفوداكي الرومي على أن يكون هذا واسطة استبدال أهدية للخديو اسمها مشتهر تبلغ نحو ١٢٤٧ فدانا بارض للاوقاف في الجزيرة تبلغ ١١٢ فدانا ونصف قرر المجلس الاعلى بان تباع للمباني وذلك بان يعرض زرفوداكي أرض مشتهر على ديوان الاوقاف بسعر ١٣٠ جنيها في الفدان وأن يحسب سعر الفدان من أرض الاوقاف بمبلغ ١٢٥٠ جنيها ثمن الفدان ليكون ربح الخديو من ذلك ثلاثين ألف جنيه ، وكلم في ذلك أعضاء المجلس الاعلى واستمال كثيراً منهم . ولما عرضت المسألة على المجلس عارض فيها المفتي وواقفه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي فاضطر الباقون لموافقتها لان الحق معهم ، وكانت النتيجة أن ديوان الاوقاف لم يكتف بالتخلص من دفع الثلاثين ألف جنيه إلى زرفوداكي بل أخذ منه عشرين ألف جنيه وبذلك يرى الخديو أنه خسرت في هذه الصفقة خمسين ألف جنيه

(البند السابع) لما رأى الخديو أن المفتي هو العقبة في طريق اتخاذ الازهر والخطباء آله سياسية أراد أن يزيله من الازهر ، فرأى النظائر والمحتلمين لا يرضون بذلك ، فأراد أن يستعين عليه بشيخ الازهر وبعض أعضاء إدارة الازهر فرأى

أن نفوذ المفتي هو الغالب وان شيخ الازهر وأعضاء الادارة لا يمكنهم معا كسة المفتي . ومن ذلك انه أرسل الشيخ توفيق البكري إلى شيخ الازهر يبلغه أمره بأن يوجه كسوة تشريفية من الدرجة الاولى كانت منحة الى الشيخ محمد راشد امام المعية وكان مجلس إدارة الازهر قرر توجيه الكسوة الى شيخ آخر قيل للخديو انه من حزب المفتي ولذلك أراد منعها عنه ولكن المفتي لم يقبل الا بتنفيذ قرار المجلس وواقفه الشيخ والاعضاء ولم يعمل بامر الخديو

(البند الثامن) رأى الخديو أن يعزل ثلاثة من أعضاء مجلس إدارة الازهر ويضع بدلهم ثلاثة له أمل في موافقتهم له على كل ما يريد منهم امام معيته ، فوعز الى شيخ الازهر بأن يعزلهم فلم يقبل فأرسل اليهم الشيخ توفيق البكري يرغبهم في الاستعفاء ، فقال لهم المفتي: ان البكري لا ثق به ولا يعمل بتبليغه والالزام ممنوع فاذا قال لكم الخديو بصفة رسمية استمعوا فلا بأس ، وعند ذلك يكون لكم عذر عند الحكومة إذا سألتكم عن سبب الاستعفاء ، فلم يقبل احد منهم أن يستعفي . وقد بلغ عضو آخر بان الخديو يريد مقابلته « لاجل إقناعه بالاستعفاء » فقال لا أذهب إلا بطلب رسمي . ومعلوم ان الخديو لا يمكنه أن يعمل عملاً رسمياً هناك وانما يريد أن يكون ذلك خفية ويرى أن المانع الوحيد هو المفتي

(البند التاسع) ان الخديو تمكن من إقناع احد الاعضاء بالاستعفاء وذلك بان وعده بزيادة ماهية له في جامع غير الازهر جنبيين ونصفا في الشهر فاستعفى . ولكن الخديو لم يقدر أن يهين بدله أحد الذين يثق بهم ويظن أن المحتلين هم الذين حالوا دون ذلك لانهم يعرفون جميع مساعيه وبما كسونه فيها وهو الذي يساءدم على نفسه فانه لا يكتف شيئا فاذا عزم على شيء يباح به جميع من يجتمع به اولئك الذين منهم وان كان يعتقد بعدم إخلاصهم وإذا قال له اللورد كرومر: لاتفعل فانه لا يفعل

(البند العاشر) ان الخديو اهد أن رأى نفسه عاجزاً عن عزل المفتي الذي يعارض مساعيه في الازهر والاقواف شرع في ما كسبه بأمرين : أحدهما الاستعانة بمولانا الخليفة الاعظم على عزله بحجة انه أفتى بما يخالف الشرع . وثانيها : إنشاء جريدة اسمها (الظاهر) لاجل إسقاط نفوذه الديني وإضعاف حربه المؤلف

من طائفة من العلماء ومن أكثر رجال الحكومة والمدارس (البند الحادي عشر) أن الخديو يظن أنه إذا أمكن غش شيخ الإسلام في دار الخلافة العلية وأخذت منه فتوى ضد المفتي فنها لا تاتي معارضة ، ولكن الأرجح عندنا أنها تلتقى أشد المعارضة من المختلين نظراً لسياستهم المعلومة ومن أكثر العلماء وأهل الفهم في مصر لأنهم مقتنعون بصحة الفتوى ، وقد زادتهم الجرائد تحزبا للمفتي . وقد تحقق أن اللورد كرومر قال للخديو : إن كان تحريك بعض الشايخ ضد المفتي لاجل فصله من الافتاء فاسمح لي بان أقول انامادام ابريطانيا العظمى نفوذ في مصر فان الشيخ محمداً عبده يكون هو المفتي حتى يموت . واننا نعلم الآن انه لا يوجد في مصر حزب ضد مقام الخلافة ويخشى أن يوجد ذلك إذا فرضنا مداخلة سماحة شيخ الاسلام في هذا الامر لاسيما إذا لم يعمل بقوله كما هو الراجح عندنا

(البند الثاني عشر) ان جريدة الظاهر التي سلطتها العلية على تخطئة فتوى المفتي جريدة غير منتشرة ، وقد قامت ضدها أكثر الجرائد اليومية والاسبوعية ولم تنتصر لها جريدة الا اللواء ككتب فيها جملة مختصرة وجريدة اسبوعية أخرى من الجرائد التي تسمى الساقطة تطبع في مطبعتها ، وان أكثر الجرائد التي ردت على جريدة الظاهر لم تذكر اسمها لئلا تشتهر . وان صاحب هذه الجريدة جاهل بالشرع ، ومن الذين يقضون معظم أوقاتهم في شرب الخمر جهرا ولعب القمار فليس الكلامه في الدين أدنى تأثير . وان الحكومة قد سلبت هذه الجريدة الامتياز فاعتبرتها من الجرائد الساقطة وكان يكتب على كل عدد منها « قررت عموم المحاكم الاهلية جريدة الظاهر رسميا لنشر الاعلانات » فصدر الامر بهام كتابه هذه العبارة فسقطت بذلك قيمتها بالارة وقد ردها كثير من الذين كانوا قبلوها

(البند الثالث عشر) أن الخديو كان قد اتخذ عدة وسائل قبل الطعن بالفتاوى التي اعترضت عليها جريدة الظاهر لايجاد نفوذ ديني في مصر ولاسقاط المفتي ولم ينجح في شيء منها لوقوف الحكومة على انها مدبرة من قبله . أهمها

مسألة الحج فان الحكومة في العام الماضي لم تكن تفكر في منع الحج حتى قابل سموه اللورد كرومر وقال له انه يمكنه ان يتخذ طريقة لمنع المصريين من الحج بحد مشاورة العلماء فباغ اللورد النظار ذلك فسأل هؤلاء المفتي فقال لا طريق لذلك إلا أن يستفتي الخديو بصفته أميراً للبلاد ، ويقول انه قد تحقق عنده بأن الحجاج المصريين اذا ذهبوا إلى الحجاز يكونون على خطر وانه يريد تأخير الحج إلى أن يزول هذا الخطر المحقق عنده هو . فاذا استفتي على هذه الصورة فان المفتي والعلماء يقتونه بالجواز والمسئولية عليه . فقال النظار واذا طلبت الحكومة هذه الفتوى بهذه الصورة فيماذا تجاب ؟ قال المفتي إن العلماء لا يعرفون في مثل هذا الامر إلا الامير نائب السلطان على البلاد . وبعد ذلك علم الخديو بجواب المفتي للحكومة فغضب غضباً شديداً ثم انتهى الامر باجتماع مجلس النظار تحت رياسته وأقر على الضريبة التي ضربت على الحجاج في العام الماضي ، وخففت في هذا العام ، وكان الخديو أراد أن يكتب في المؤيد ان الحكومة كانت تريد منع الحج وأن الخديو حامي حامي الدين هو الذي عارضها في ذلك ولكن الذي منع من ذلك هو العلم بان الحكومة كانت عازمة على تكذيبهم في الجريدة الرسمية وبيان الحقيقة (البند الرابع عشر) أن من جملة وسائله للظهور عند العامة بمظاهر المحامي عن الدين مسألة صندوق التوفير في البوستة ، فهذا الصندوق جماعته الحكومة لحفظ ما يوفره الفقراء مما يزيد من إيرادهم على مصاريفهم ومصالحة البوستة تستغل هذه الدراهم التي تحفظ فيها . وقد تبين لها أن نحو ثلاثة آلاف فقير لم يقبلوا أن يأخذوا ما توفر في الديركتو الخديوي من الربح ، فسألت الحكومة المفتي هل توجد طريقة شرعية ؟ فأجاب شفاهاً بإمكان ذلك بتطبيق استغلال النقود المودعة في الصندوق على أحكام شركة المضاربة . ثم ذاك رئيس النظار الخديو بتحزير المذكور الخديوي وتطبيق المشروع على الشرع فأظهر سموه الارتياح ولما قال له رئيس النظار : إننا استشرنا المفتي غضب غضباً شديداً وقال كيف يبيع المفتي الربا ؟ لا بد أن استشير غيره من العلماء ، ثم جمع جمعية من مشايخ الازهر في سراي القبة وكلفهم بان يضعوا له طريقة شرعية لصندوق التوفير ليظهر أمام العامة

بأنه هو المحامي عن الدين والمطابق له على الشريعة ، وأن الحكومة كانت عازمة على إلزام المسلمين بأكل الربا والمفتي مساعد لها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك فإن المشروع الذي وضعه العلماء قدمته العمية لنظارة المالية فعرضته نظارة المالية على المفتي لتأخذه رأيه وتعمل به فوجده المفتي هو عين الرأي الذي كان قاله شفاهاً (البند الخامس عشر) جاء رجل من الترنسفال وسأل المفتي عن ثلاث

مسائل : عن جماعة يلبسون البرنيطة اقضاء مصالحهم عند النصارى ، وعن آكل الذبايح التي يذبحها النصارى هناك مع العلم بأنهم يضربون البقر قبل ذبحه بالبلطة ثم يذبحونه بغير تسمية كما يظن فيهم وفي أمثالهم ، وعن صلاة الشافعية خلف الحنفية فأفناه المفتي بأن لبس البرنيطة لا يكون كفرةً إلا إذا قصد لبسها بلبسها الخروج من الاسلام والدخول في غيره ، ولا يكون مكروهاً إلا بقصد اتشبهه بالكافر ، وبحوزة آكل ذبيحة أهل الكتاب ، وصلاة الشافعي خلف الحنفي لان الجمع مسنون . فعلم الخديو بذلك وظن ان الفتوى مخالفة للشرع أو للمذهب فأوعز إلى جريدة الظاهر واستكتب بعض المشايخ عريضة فيما قل ذكروا فيها الاسئلة والاجوبة على غير وجهها فيما يقال أيضاً ، وكان يظن أن مجرد ظهور الفتوى كاف في اسقاط نفوذ المفتي الديني أو التوصل الى عزله فظهر له خلاف ذلك

(البند السادس عشر) ان النتيجة من كل ما تقدم أن سمو الخديو يريد أن يجمل لنفسه سلطة دينية آلتها الازهر وماليتها الاوقاف وقد حدث بهذا كثيرين وقال ان أوربا تهاب البابا والسلطان لاجل السلطة الدينية وهذه سهلة علينا، وانه مادام الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية وعضواً في الازهر وفي مجلس الاوقاف الاعلى وفي شورى القوانين ، فان يتم له في ذلك عمل إلا العمل الرسمي القانوني الظاهر لكل أحد . وان الشيخ توفيق البكري الذي حسن له هذا الرأي لان نفوذ له في هذه البلاد ، وقد ساءت الناس قصيدته التي كان زين للخديو فيها دعوى الخلافة ورضي عليه هو وحده بسببها واتخذها الآن ساعياً فيها بينه وبين مشايخ الازهر ولكن بدون ذكر لفظ « الخلافة »^(١) فالمفتي هو المعقبة في طريق هذه السلطة وحزبه كبير جداً اه المراد من هذا التقرير

(١) قد حذفنا من هذين الموضعين كلاماً لصاحب التقرير يضمن فيه على البكري

خلاصة الخلاصة

في اصراع الازهر

ان الاصلاح الذي كان ينشده الاستاذ الامام في الازهر قسبان : صوري ، ومعنوى ، فاما الصوري فهو (١) النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة البدنية والاجتماعية ، و(٢) توسيع دائرة العلوم والعارف ، و(٣) ترقية اللغة العربية . واما المعنوى فهو (١) اصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم و(٢) صحة التقصد فيه بما يقضي إلى ارتقاء الامة في دينها وديناها ، و(٣) اصلاح الاخلاق بالصدق والاخلاص وعزة النفس والسخا والوفاء الخ

فاما الاول فقد شرحنا ماقاساه في وضع قوانينه وتنفيذ نظمه مع اعداء النظام ، ولكن النظام وجد ولا يزال يصارع ماتربى عليه القوم من الفوضى والخلل في كل شيء ، ولا بد أن ينتهي الامر بانتصاره ولو بعد حين

وأما الثاني فعمدته فيه ما كان يبثه هو في دروسه التي تفيض روحا محييا ، وتتألق نوراً ساطعاً ، وقد قال فيه ما معناه : اني بذرت في الازهر بذراً إما أن ينبت ويشمر ويؤتي أكله المغذي للعقل والروح فيحيا به الازهر حياة جديدة ، وإما أن يقضي الله على هذا السكان قضاءه الاخير ، وقد نبت ذلك البرزق فصار زرعاً أخرج شطاه واكن قل من يتعاهده بالسقي ومنع الحشرات الضارة ليستوي على سوقه ويؤتي أكله وقد أشرت إلى هذا فيما زدته بعد موته في (المقصورة الرشيدية) فقلت بعد وصفه ، وما قام به من الاصلاح مع السيد جمال الدين ومن بعده ، مقابلاً فيها الرجاء في الازهر على اليأس :

ماتم للامام ماأراد من خطتي الاصلاح هدما وبنانا
ولم يفته كل ماشاء فقد خرج من يتم كل مابنى
إذا استجاب الله ما به دعا وزال ما حاذره بما رجا (١)

(١) إشارة إلى الايات التي قالها قبيل وقائه

وعلم الازهر كيف يفقه ال
من غير بحث في مقال من خلوا
علمه التوحيد كي يفقهه
علمه التفسير كما يهتدي
وعلم (أسرار البلاغة) التي
علم (بصائر المنطق) كي
وهل وراء الدين واللسان وال
فإن يك الازهر لم يصلح بها
ونبتت من غرسه نابتة
وترفع الحجر عن المعهد او
حتى ينال وهو قد أشفى الشفا
ثم يولي المسلمون شطره
ماوردوا حياضه وصدروا
فأحيوا الاسلام في أنفس من
فعاد أهلا إلى موطنه
واستبعت غربته المجد كما

دين ويتطلب العلوم واللغى
يكثر فيه الاحتمال والمرا
بعقله لا بقول من مضى
به على علم صحيح يقتفى
(دلائل الاعجاز) منها تبغى
يقم ميزان العلوم للحجى
مقل إذا أصلحتن منتهى
فقد نأى عن سبل من كان مأى (١)
ستلام الصدع وترأب الثأى (٢)
يمود جحر الضب رحبا كالفضا (٣)
من مرض بات به على شفا
ينحونه من كل فج ورجا
إلا يفيضون علوما وهدى
واصلهم بهجره صرف الردى
من غربة طال بها عهد النوى
كان فعاد الامر مثما بدا (٤)

(١) مأى بالغ وتمق، والمعنى أنه قد نأى وبعد عن طرق أولئك الشيوخ
المنتظمين في التعمق بالمناقشات اللفظية في عبارات الكتب (٢) لأم الشيء اصلحه
والصدع جمعه وشده فالنأم وزال، وفي معناه رأيه واصلاحه، والثأى الفساد (٣) اشارة
إلى حديث « لتبئن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر
ضب لدخلتموه » قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال « فن؟ » والمعنى أن تلامذته
ومر يديه سرفعمون الحجر عن العقول فيفهموا العلم والدين إلى أن يخرجوا اهله
والمسلمين من الضيق الذي يشبه جحر الضب (٤) اشارة الى حديث « بدأ الاسلام
غريبا وسيمود غريبا كما بدأ » وفي رواية بمناه مع زيادة « فطوبى للغرباء الذين يحبون
ما أمات الناس من سنتي » وباحياتها تهر هذه الغربة المجد، كالغربة الاولى